التلمود

عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول:

«الأخلاق، الآداب، الدين، التقاليد، القضاء»

آ. كوهن
دكتور في الفلسفة في جامعة لندن،
وحاخام كنيس برمنغهام

ترجمة: جاك مارتي
مجاز من معهد الدراسات العليا،
ومجاز في اللاهوت





التلـمـود

عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول:

«الأخلاق، الآداب، الدين، التقاليد، القضاء»

آ. كوهن

دكتور في الفلسفة في جامعة لندن،
وحاخام كنيس برمنغهام

ترجمة: **جاك مارتي**

مجاز من معهد الدراسات العليا،
ومجاز في اللاهوت

نقله إلى العربية

د. سليم طنوس



التلمود

عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول:
«الأخلاق، الآداب، الدين، التقاليد، القضاء»

آ. كوهن

ترجمة: **جاك مارتي**

نقله إلى العربية
د. سليم طنوس



للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3- شارع الكويت
المنارة - بيروت - 2036 6308
لبنان - تلفاكس : 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2005
تصميم الغلاف: جلنار خباز

مقدمة الناشر

«من تعلم لغة قوم أمن مكرهم»
حديث شريف

يجمع هذا الكتاب أهم آداب اليهودية وتعاليم ديانتها منذ نشأتها وحتى تاريخنا هذا، وقد صاغ جزءاً من تاريخ ووصايا اليهود وذاكرتهم في «الأخلاق، الآداب، الدين، التقاليد والقضاء» وشكّل مشروعاً وبرنامجاً لهم. ونحن بدورنا نقدمه كما هو، دون تحريف أو تعليق أو اجتهاد،أو توجيه ووصاية أي كما يدرس في المدارس التلمودية اليهودية، منذ أن بدأ الحاخامات يوصون ويحضون على اتباع شريعة موسى التي جمعها الحاخام يوضاس في كتاب أسماه «الميشنا» الذي يفسر شريعة موسى، وقد أضاف الحاخامات شروحات وهوامش عبر تاريخهم تمَّ تأليفها في مدارس فلسطين وبابل سميت بـ «الجيمارا» لتشكل مع «الميشنا» التلمود.

ويسرنا أن نقدم هذا الكتاب للقارئ العربي في ترجمة مطابقة عن النسخة الصادرة بالفرنسية عام 1928، ولكل الذين يريدون أن يتعرفوا على التعاليم التلمودية التي نجحت في تأمين البقاء والإستمرار للديانة اليهودية، بالرغم من كل الحروب والهزائم وصولاً إلى يومنا هذا حيث يسجل اللوبي اليهودي ثقلاً دولياً بارزاً في عالم المال والسياسة والإقتصاد من جهة، ومن جهة أخرى تسجل السياسة الإسرائيلية العنصرية تفوقاً تعدى حدود «دولتها» لتصل إلى مراكز التخطيط الإستراتيجي والتنظير العقائدي في دول القرار العالمي. وقد اتخذنا قرار ترجمته وطبعه باللغة العربية ايماناً منا بضرورة معرفة الآخر، خاصة عندما يكون هذا الآخر نداً ماكراً يتمتع بالكثير من نقاط القوة التي لا يمكن ان يساهم جهلنا بها في التغلب عليها أو إلغائها.

إن جهلنا أو تجاهلنا لقوة الفكر والعقيدة الإسرائيلية التلمودية التي سعت وتسعى لتجنيد كل يهود العالم في خدمة مشاريعها، لم يوصلانا إلا إلى خديعة الذات وحصد الخيبات والخطأ في تقديرنا للآخر، بما يملكه من علوم وتنظيم وآلية تفكير ودعاية وإعلام.

هذا العمل الذي يقدم للمرة الأولى باللغة العربية لتلمودي شهير، يصنف من بين أهم حاخامات اليهود، كان قد بدأ يمارس الدعوة الحاخامية منذ عام 1913 وصاغ تعاليمه لتأمين الحماية للشريعة التوراتية والإستمرار لمجموعة بشرية لم تملك المكان يوماً و لم تكن على علاقة حسن جوار لا في مصر ولا في بابل أو بلاد فارس... بل لى العكس من ذلك فإن تاريخ اليهود صراع مستمر حيثما حلوا وأينما ارتحلوا في فلسطين وغير فلسطين!...

الناشر

مقدمة الترجمة الفرنسية

منذ خمسين عاماً تقريباً، تجدَّد التطبيق الديني الصارم والهادئ للمصادر التاريخية في كل ما يتعلق بنواحي النقد التاريخي، حيث يعلم جميع الباحثين المجال الواسع والجذاب لدراسات التاريخ الديني. فقد ساهمت التنقيبات الأثرية، والمسكوكات، وحل رموز الكتابات على أوراق البرديّ، وما حمله الرحالة في أسفارهم، في توسيع آفاق الرغبة، وبالتالي مضاعفة عدد الوثائق الواجب تفسيرها. وفي المناطق التي جالها مؤرخو الأديان، فإن محاولات التأليف بدأت تُبنى على أساس متين، أثبتته الاكتشافات الواسعة.

والكتاب الذي بين أيدينا، يشرح بدقة الفكر الديني لواحد من الشعوب التي يدين لها العالم الغربي الحديث بعض العوامل الرئيسية في تطوره الروحي، على الأقل في ما يتعلق بعبادة الإله الواحد. لقد أطلقنا هنا كلمة «إسرائيل» أي قدماء اليهود التي يمكن اعتبارها بشكلها النهائي كما لو كانت ثابتة طوال ستة قرون، والتي حضنت ظهور المسيحية.

وبكل تأكيد، سيحتفظ العالم اليوناني ـ الروماني دائماً بكرامته التقليدية والرائعة، كينبوع مغذٍّ لأبنائه القريبين والبعيدين. بيد أن حضارتنا شهدت عبر العصور القديمة تيارات متناقضة في الفكر والحياة، والتي كانت قادرة على التكيف مع محيطها بسبب استقلاليتها وجسارتها، وأحياناً تعلقها بدروب التقليد، من دون التوقف عن الميل نحو تناغم مثالي لكل أمواج الفكر القديم ولجميع أطر وفسحات الإبداع.

ظلت اليهودية المُبعدة لفترة طويلة، منغلقة على نفسها في مدارسها الحاخامية في فلسطين وبابل، ومهملة لفترة طويلة في العصور الوسطى، ولم تكن تملك من الحيوية ما يمكن للتاريخ أن يقدمه لنا من الأمثلة. وعندما نعترف في النهاية بمكانتها الحقيقية وسط المجتمعات الحديثة بعد نفي وتهجير قاسيين، يصبح واضحاً بعدها أن رسالتها

أغنت الكنز المشترك للإنسانية وخصوصاً «ابنها الناكر للجميل العالم المسيحي»، حيث حرمنا أنفسنا من اللجوء إلى مصادر الكتب المقدسة كالعهد الجديد، والتوراة، وحكماء إسرائيل.

ومن تتبَّعَ من القراء مؤلف هذا الكتاب، سيقتنع بضرورة التوسع في المسائل المتعلقة بالله، ونشوء الأديان وتطورها، والأخلاق بجميع أشكالها: الحياة القضائية، والمعتقدات الشعبية من دون التوقف أمام التفاصيل التصويرية للبراهين الحاخامية، والقدرة على سهولة التمييز بين الإطار المحلي والزمني من ناحية، والمحتوى والجوهر من ناحية أخرى، والمعدة بشكل متقن للفكر اليهودي، وسيؤكدون لقدمائهم الثقة العتيدة بما هو أزلي. ولا أعلم أية طاقة هائلة بذلت لإعادة دراستها وتدقيقها بعد انقضاء خمسة عشر قرناً. نحتفظ بأكثر من جواب على نقطة الاستفهام هذه التي يضاعفها أمامنا القرن العشرون المحيِّر.

لم يكن سوى مؤلف هذا الكتاب، مخولاً بشرح التغلب على المصاعب، حيث نجح في جمع أوراق التلمود المتناثرة في خمسمائة صفحة. لقد تميز بمهارة فائقة في توزيع مواده في فصول متناسقة ومتتابعة وبسيطة.

لا يوجد أي نص حاخامي ذي مغزى إلا وجاء في مكانه. كما لم يأت أي حكم تقويمي من زاوية المراعاة، متجاهلاً كل علم منصف. ليخلق فراغاً في أدبنا المتعلق بتاريخ الأديان، وظل شاغراً حتى ذلك الوقت.

لقد أتمَّ الدكتور أ. كوهن المولود في ريدنغ في بريطانيا أيار 1882، دراسته في جامعتي كمبريدج ولندن، وحصل منهما على دبلوم مجاز فنون، ودكتوراه في الفلسفة. ودعي وهو في سن الاثنتين والعشرين سنة، للخدمة في كنيس مانشستر، حيث مارس منذ عام 1913 الدعوة الحاخامية في واحدة من أهم المناطق الصناعية في بريطانيا وهي برمنغهام.

صحفي غزير الإنتاج، سبق أن جذب أنظار العالم المثقف في بلده، وخصوصاً بدراساته للحكم اليهودية القديمة والتعليم الميمونودي Maimonide، وقبل شروعه في دراسته التلمود، تعمق في نقد مصادر وتفاسير الكتاب المقدس المفصَّل في النصوص. ونتيجة لهذا العمل الدقيق والمتواصل، فقد شهدنا ترجمة خاصة بالإنكليزية لكتاب «بيراخوت» التلمود البابلي. تلكم هي العناوين العلمية التي أكسبت المؤلف سمعة،

وتعاطف بعض المثقفين الفرنسيين والبريطانيين. وإذا كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا غير كاف لوحده رغم التصميم الدقيق والمنهج العلمي، فإنه يقدم لمن يقرأه غنى روحياً ونفعاً كبيراً.

وهنا نسمح لأنفسنا بالقول: أنه بغية الحصول على مجمل تاريخ التطور اليهودي، يتوجب ربط العرض الذي نعطيه بالتعليم التلمودي مكانه المنطقي بين كتابين آخرين يخصان نفس المجموعة، والذي دعينا مرات لترجمته كلياً أو جزئياً. ظهر أحد هذين الكتابين عام 1929، الأول تاريخ الحضارة الإسرائيلية (منذ الأصول حتى العصر المسيحي) للأستاذ أ. برتوليت من جامعة برلين، الذي يدرس إسرائيل التوراتية بذات الروح من الوضوح الذهني والتركيب الحي اللذين سادا كتاب أ. كوهن. وصدر الثاني عام 1931 وقام بإعداده خمسة عشر اختصاصياً من الأساتذة الإنكليز اللامعين[1]، ويتضمن وصفاً لجميع أسباط إسرائيل في تاريخ حضارة وديانات العالم منذ بداية المسيحية وحتى العصر الحاضر.

○ ○ ○

(1) معظم هؤلاء سترد أسماؤهم في الصفحات التالية.

مقدمة المؤلف

هناك مؤلفات يسيرة تقدم للجمهور مقاطع من التلمود، وروايات مختارة مستقاة من الأدب التلمودي، ومن أحكام صادرة عن الحاخامات. غير أننا لم نقم بأي محاولة لإيجاد صورة منهجية للعقيدة وسط هذا المجال الواسع الرحب، مع أنه مهم وأساسي في التاريخ الأدبي والديني لليهودية. وقد انصبَّ اهتمام المؤلف على سد هذه الثغرة من الكتاب. فهو يقترح اختصار وتلخيص تعاليم التلمود في مجالات الدين، الأخلاق، التراث الشعبي، والقانون.

لم تكن فائدة هذه المبادرة محطَّ اعتراض من أحد. أما في الوقت الحاضر، فينصبُّ الاهتمام الأكثر على التلمود. فالكتّاب المعاصرون يعتبرونه مرجعاً أساسياً لهم، لكن من دون أن يتمكنوا من الحصول على المعلومات الخاصة الضرورية لإيجاد منفذ لمؤلفاتهم «الموصدة بالمفاتيح السبعة».

وقد حُكي أن المتديِّن في العصر الوسيط، الذي كان يعرض معارفه العميقة لم يكن يدرك الخطر المحدق عندما يبدأ تلاوة التلمود بهذه الكلمات: أوت «نارَّاث رابينوس تلمود»، كما لو يرددها حاخام التلمود.

لا يمكن قبول الأعذار في القرن التاسع عشر، فإن جهل هذا المتدين جعله يهزأ بالتلمود، لأنه باعتقاده كتاب عادي مكرس للبيض! غير مكترث لواقع أن لليهود عادة تقليد بالإشارة إلى الكتاب أو الفصل أو الكلمة الأولى الموجودة فيه، ويتضح في الوقت نفسه أنه غير جدير بتقدير أهمية الأدب الحاخامي. وحتى يومنا هذا، فإن الكثير من المثقفين يحكمون على التلمود من خلال الشعور الذي خلفته المؤلفات المكرَّسة للحط من شأنه وعدم تقدير أهميته. نأمل أن نجد في هذا الكتاب العناصر الجديرة بالمساهمة في فهم أفكار، وأهداف كبار الفلاسفة، الذين جاؤوا بعد العصر التوراتي.

هناك صعوبات كثيرة تقف أمام الذين يملكون القدرة على فهم النص الأصلي. لأن النص التلمودي لا يقدم أي مخطط أو نظام للفكر المعاصر.

نادراً ما نجد موضوعاً معالجاً بشكل كامل وموحد. يجب أن نجمع أولاً من أنحاء حقل واسع، قبل جمع العناصر المؤلفة لعقيدة معينة. مع ذلك فإن الآراء والأفكار الواردة في الكتاب تصدر عن مئات من المختصين الذين توالوا طوال ستة قرون. كيف يمكن أن نتوقع منهم الحصول على اتفاق جماعي مطلق حول أي موضوع مهما كانت أهميته؟ في الواقع هناك أفكار وآراء في التلمود تصل إلى حد التناقض. وهذا لا يساعد في إعداد العرض الواضح والمتماسك للمعتقدات اليهودية.

في بعض الحالات، يبدو من الضروري إظهار الفروقات في التفكير. وقد أشرت في هذا الكتاب وفي المكان الملائم إلى ما يجب أن يكون عليه الفكر المتمثل بالحاخامات. وبغية الانتقاء المحايد، فلم أجد أبداً أي ذكر للنصوص التي لها وقع جيد، والتي تقدم التلمود في صورة واضحة للجميع. فالصورة لا تكون أمينة، إلا عندما نضيف إليها نصوصه اللاذعة، أو أقواله المأثورة التي يسعى أعداء الحاخامات إلى إظهارها، وسنجد هنا شرحاً للظروف المسببة.

لا يمكن لأحد الادعاء أن باستطاعته معالجة الموضوع كاملاً. فالموضوع يأخذ أبعاداً لدرجة أنه إذا كان من الضروري جمعه ومناقشته كاملاً فمعنى ذلك أنه أصبح كتاباً. وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على اقتطاع عدد من المقاطع الكافية لإعطاء القارئ فكرة عامة عن العقيدة أو الفكر التلمودي. فالفهارس والمراجع الموجودة في نهاية المقدمة مخصصة لمنهجية الدراسات التي سنقوم بها.

لقد كان من المفيد منذ بداية الموضوع، شرح أو ترجمة عبارة التلمود. كما تشير المقدمة فإنه يتضمن «الميشنا» و«الجيمارا». لكننا إذا استقينا من المصدر نفسه، عندها سنجد أنفسنا عاجزين عن رسم لوح صحيح للتعليم الحاخامي. فالتلمود ليس سوى جزء من الأدب التلمودي. وهو بصورة عامة يدخلنا في مدارس فلسطين وبابل، حيث كانت تجري مناقشة التوراة وشرحها. لكن هناك شروحات أيضاً في مكان آخر، تهتم بتثقيف الجمهور، أطلق عليها اسم «التعليم في الكنيست» (بيت العبادة لدى اليهود). في تلك البيوت كانت تُلقى الخطب حول المعتقدات الأخلاقية والدينية لليهودية، وقد حفظت جميعها في سلسلة من التعقيدات أطلق عليها اسم «ميدراشيم». وبتجاهل

هذه الوثيقة الإضافية، نكون قد حكمنا على أنفسنا بأننا قدَّمنا معرفة وحكمة الحاخامات بشكل مجزأ.

إلا أن استخدام «الميدراشيم» يتطلب احتياطات بالغة الأهمية. فاكتشاف بعضها الذي جاء متأخراً، يعكس وضع فكر متطور بالنسبة لتلك التي كانت سائدة في العصر التلمودي.

ولهذا، اقتصرتُ قدر الإمكان على إيراد بعض المقاطع الميدراشية، التي تتضمن نصوصاً تحمل اسم الحاخامات المذكورين في التلمود، أو لبعض المقاطع التي لا تحمل اسماً، غير أنها تقدم ظاهرياً توافقاً مع تلك الحقبة.

تشير الاستشهادات من التوراة إلى فصول وآيات وروايات باللغة العصرية، التي لا تتطابق دائماً مع المنظومة التي يتبعها النص العبري. وفي كل مكان، حيث تبتعد الترجمات الحاخامية الحديثة، أقوم بذكرها كما هي، وكما يجب، حرفياً.

من جهة أخرى، قدَّمتُ في هذا الكتاب ترجمة، وبالأصح صيغة جديدة لجميع النصوص التلمودية والميدراشية، باستثناء ما يخص كتاب «بيراكون»، الذي استخدم الترجمة الإنكليزية التي نشرها عام 1921، وكتاب «آبوت» المتضمن نصاً وترقيماً للمقاطع، طبقاً لترجمة المحترم «س. سنجر»، الذي صوَّره في مؤلفه «كتاب الصلاة اليومي» Authorised Daily Prayer Book. ويأمل المؤلف أن يقدِّم هذا إنتاجه، العون والمساعدة للأشخاص الراغبين بالاطلاع على التلمود، والحصول على مفهوم مادي لمن آمن وفكَّر به من المسؤولين الدينيين اليهود خلال الفترة الحرجة من تاريخهم التي سبقت خراب الهيكل والدولة.

يقال بحق: «على ضوء التاريخ اللاحق، فقد نصَّ العمل الكبير لتلك القرون، على خلق نمط معياري لليهودية، وعلى تأسيس سيادة مُسلَّم بها عبر العالم اليهودي الواسع». وخلال الألفي سنة السابقة، كان التأثير الذي مارسه الحاخامات حاداً. وعلى مدى أكثر من أربعين جيلاً، فقد وَجَدتْ جموع النساء والرجال في هؤلاء الحاخامات، المرشدين الذين برهنت تعاليمهم على فاعليتهم في إنارة العقل وإثراء جميع نواحي الحياة الروحية. فهم لا يستحقون رؤية أنفسهم مُبعدين مهملين، محتقرين. وفي مجمل الأحوال فإنه من المهم جداً إطلاق هذا الكلام ليكون بمثابة تحذير. قد نتعرض للضياع لو تمَّ التقدير حسب المعايير الحديثة. يجب تكييف التعاليم

مع الزمن الذي شهد حياتهم. يجب أن نفهم طروحاتهم الأساسية، ونثمِّنها منصفين.
إذا وُضع هذا الكتاب لدعم القارئ الذي يبدأ بهذا النوع من البحث، فإن العمل التحضيري الذي سبَّبه سيكون مكافأة مناسبة.



مدخل

1 ـ المقدمّات

في عام 586 ق.م تعرَّضت مملكة يهوذا التي كانت قائمة في أرض كنعان لكارثة مروِّعة.

فقد دُمِّر الهيكل وتحول إلى ركام، واقتيد السكان سبايا إلى بابل. ظل رئيسِ الحرس لوحده، مع نفر من زارعي الكرمة، والفلاحين، وبعض الفقراء المعدمين. [**وتَرَكَ رئيسُ الشّرطِ من مساكين الأرض كرّامين وفلاحين**] (سفر الملوك الرابع، 25، 12) تبرير مرير لصرخة يائسة: [**كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. صارت كأرملةٍ العظيمةُ في الأمم. السيدة في البلدان صارت تحت الجزية. تبكي بكاء في الليل ودموعها على خديها لا معزّي لها من جميع محبيها. كل أخلاّئها غدروا بها وصاروا لها أعداء**] (مراثي إرميا 1، 1).

من وجهة نظر وطنية، كانت النكبة تتفاقم من واقع أنه منذ قرن ونصف من عام 722 ق. م سحقت الجيوش الآشورية مملكة الشمال المؤلفة من القبائل العشر، ووجد السكان المنفيون أنفسهم مندمجين مع الغزاة. إذا كان مصير يهوذا سينتهي بصورة مشابهة، فإن (الوطن) بكامله سينطفئ وتبقى إسرائيل (اليهود).

آفاق مستقبلية مظلمة! تداعى القادة اليهود في بابل المعرضون للقلق، إلى النظر في مسألة البقاء. كيف يمكن تجنب الانهيار والزوال؟ ألم يكن الدين اليهودي هو الذي جمع الشعب للطواف حول الهيكل؟ يجب التساؤل بعد اختفاء الملاذ، ووجود الشعب منفياً، وخاضعاً للسيطرة الأجنبية، هل باستطاعته صيانة حياته وشخصيته؟

النصوص التوراتية التي تعالج تلك الحقبة، لا تقدم أي معلومات مفصَّلة، ومع ذلك هناك بعض الإيماءات التي تساعد على فهم مجرى الأحداث. فقد ظهرت بين الأسرى شخصية لامعة؛ إنه حزقيال النبي، الذي سينكبُّ على حل المسألة المتعلقة بوضع الشعب اليهودي من الناحية الإنسانية، تذكرُ نبوءاتُه مناقشة ثلاثة أمور تخص «قدماء اليهود»، ونحن متفقون على افتراض أنه في هذه الأحاديث جرت دراسة المسألة التي تشغل فكره [**في السَّنة السادسة في الشهر السادس في الخامس من الشَّهر وأنا جالسٌ في بيتي وشيوخُ يهوذا جالسون أمامي وقعتْ عليَّ هناك يد السيّد الرب**]

(حزقيال 8، 1). [**وأتاني رجالٌ من شُيوخ إسرائيل وجلسوا أمامي**] (حزقيال 14، 1). [**في السنة السابعةِ في الشهر الخامس في العاشر من الشهر أتى رجالٌ من شيوخِ إسرائيل ليسألوا الرب فجلسوا أمامي**] (حزقيال 20، 1).

الحل المعتمد يتلخص بكلمة واحدة هي «التوراة». هذه العبارة العبرية المبهمة المفهومة بشكل غير صحيح، تعني قانون: تعليم، إدارة. وبالنسبة للمنفيين، تُشير إلى جسم المعتقدات المكتوبة والشفهية المنقولة من الماضي. ويمكننا القبول بشكل أو بآخر بأن اليهود كانوا يملكون في بابل الوحي الموسوي، دون التطرق إلى المسألة التي نوقشت بشكل أوسع حول أصول وتاريخ أسفار موسى الخمسة. إضافة لذلك فقد حفظوا بعض الفقرات النبوية، والمزامير. تلك كانت الرفات المتبقية من حياتهم (الوطنية) في تلك الحقبة، والصخرة الوحيدة التي وقفوا عليها وسط جموع الوثنيين. عندئذ لفتت تلك الكتابات انتباههم الدائم، حفظوها في قلوبهم، فهي تذكّرهم دائماً أنهم عاشوا في السَّبي، ومن واجبهم البقاء كشعب مستقل منعزل.

يتفق العلماء على أن تأسيس الكنيس يعود إلى زمن السَّبي البابلي. التعبير العبري الذي يشير إلى ذلك هو «بيت هاكنيست» (بيت الاجتماع) الذي يدل بدقة على الهدف الأولي. كان نقطة الالتقاء (لشعب بلا وطن)؛ يجتمعون فيه لقراءة تلك الكتابات وشرحها. ومع مرور الزمن أُلحقت الصلوات بالقراءات المشروحة، بطريقة أصبح الكنيس يدعى «بيت العبادة». أدت هذه الاجتماعات إلى الرغبة الزائدة بدراسة الكتب العبرية، ومن هذه الرغبة في المعرفة وانتشارها بين الجماهير، شُعر بالحاجة الملحة لوجود رجال أكفَّاء بثقافتهم، ليقوموا بالتعليم. عرف هؤلاء باسم «السوفيريم» أو الكتبة. وليس معنى ذلك أنهم كتبة بل «رجال أدب». بعضهم يُصنَّفون في لائحة الدكاترة ويفهم سفر عَزْرَا 8 و16 في نصلف الحكماء [**فأرسلت إلى أليعازر وأرئييل وشَمعيا الرؤساء وألْنانان وياريب وألنانان وناتان وزكريا ومَشلام الرؤساء، وإلى بوياريب والناتان الحكيمين**] ومن مهامهم «تفسير التوراة للشعب» ومن بعدهم ما جاء في سفر (نحميا 8،7) [**وكان يشوع وباني وشَربْيا ويامين وعقوب وشَبتاي وهوديّا ومَعَسيا وقليطا وعَزَرْيا ويوزَاباد وحانان وفلايا واللادبّون يُفهِمُون الشعب الشريعة والشعبُ في مواقفهم**].

يقف «عَزرَا» في الصف الأول من هؤلاء المثقفين، والذي يقدِّم لنا بمثابة «كاتب

الآيات في توراة موسى» 7، 6 [**صعد عزرا هذا من بابل وهو كاتب ماهر في توراة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل فبذل الملك كل ما طلبه له**] وخبير رجل أدب. فقد جاء بالحل من أجداده لخاتمته العملية. لقد حقق التلمود انجازاً هاماً مقارنة بما قام به موسى، الذي قاد مجموعة ضعيفة من العبيد الهاربين من العبودية وأوجد لهم التوراة، التي ستكون الدليل والمرشد للشعب اليهودي. يصرح الحاخامات: لو لم يكن موسى سبّاقاً لكان عَزرَا جديراً بصنع توراة اليهود. وبينما أغفل اليهود التوراة، وصل عزرا من بابل وأعاد لها اعتبارها.

يصف المؤلف في مكان آخر في هذا الكتاب، مسار عزرا وسلوكه وهو يكتب: «يعلن زانغويل»: «التاريخ الذي ينص في غالبيته على كتابة وتسجيل دمج الأقليات في الأكثرية، لا يحوي أبداً الاستمرار لمجموعة غير محدودة المكان، ولا تملك الإيمان القوي الذي يكون بالنسبة لها حدوداً نارية. كان عزرا قد أدرك وميّز هذا الدرس من التاريخ، عندما فهم أن اليهود لا يستطيعون التصرف بمكان محدد لهم وحدهم. ولم يكن من الضروري الأخذ بعين الاعتبار الفروع التي كانت لهم في مصر، وبابل، وبلاد فارس، بل الاحتكاك الحتمي بين يهود اليهودية وجيرانهم. وإذا كان بمقدور الأمة اليهودية الاستمرار في العيش بمكانها، فعليها إحاطة نفسها بإيمان وقّاد يشكل لها دائرة من النار تحميها، استعارة مجازية مناسبة، لأن التورا تتحدث عن «قانون ملتهب». يجب أن يكون لليهودي دين لا يميزه باستمرار فقط عن الوثنية، بل يذكّره دائماً بنفسه بانتسابه للعرق اليهودي، وأن الإيمان تجسّد فيه. ولتمييزه عن جيرانه، لا تكفه عقيدة بسيطة ساذجة، بل عقيدة وطريقة كاملتين للحياة.

طريقة نوعية في العبادة، نموذجية في البيت؛ حتى في الأعمال العادية اليومية، هناك بعض السمات المميزة التي يجب أن تذكّره دائماً بأنه يهودي. أي تفصيل كل ما في حياته صغيراً أو كبيراً يجب أن تتحكم به «التوراة».

يجب عليه إطاعة الشروط المكتوبة من القانون الموسوي، وتطبيقها في الحياة الاجتماعية لشعبه، عندما تستدعي ظروف جديدة للتغيير.

قبل أن نستوعب وجهة النظر هذه، سنبقى عاجزين عن الفهم الجيد لعقلية الحاخامات، وإدارة نشاطهم، وطريقة تفسيرهم للتوراة. إنه البذار الذي قام به التلمود. فهو واضح وجلي في هذه العلاقة من عمل «عَزرَا»: [**لأن عَزرَا وجّه قلبه لالتماس**

شريعة الرب وليعملَ ويعلِّم في إسرائيل بالرسوم والأحكام]. (عزرا 7، 10). الفعل العبري المترجم هنا «داراش» «درس» بدقة: فتَّش، محَّص، يمثل بالنسبة لكلامنا أهمية كبرى. فهو يعني: «استنتج، علَّل» الأفكار التي يمكن توضيحها بالدراسة المعمقة. لهذه الطريقة الاستنتاجية اسم (مدراش «2») إنها لا تعني شيئاً آخر سوى منظومة التفسير المستعملة على مدى الأدب الحاخامي. يصبح عندها الكلام المقدس مَنجَماً لا ينضب، وسيؤدي استغلاله إلى اكتشاف كنوز التعليم الديني والأخلاقي.

انطلاقاً من هذه المسلمة: فإن الإرادة الإلهية موحىً بها في التوراة، ويعلِّم (عزرا) أن يكون الوجود اليومي لليهودي منظماً، في كل مرحلة، وذلك بما يتضمنه من إرشادات. وبما أن التوراة معدة لتُستخدم كمرشد كامل للوجود، فإنها ستكون قادرة حتماً على المساهمة في توجيه وتفصيل جميع نواحي الحياة البشرية وفي مختلف الظروف، لإتمام هذه المهمة من الضروري أولاً معرفة ما هي «التوراة»؟ وقبل أن يتمكن الشعب في الوهلة الأولى من امتثاله لها، يجب أن تكون هذه التوراة قد ترسخت في ذهنه. وهذا يوضح لنا لماذا أدخل «عزرا» التلاوة العلنية لأسفار موسى الخمسة في منطقة يهودا بطريقة يعوِّدهم على تلاوتها ومعرفة محتواها. **[فقرأوا في سفر توراة الله جهراً مبلِّغين المعنى حتى فهموا القراءة]** (نحميا 8، 8).

حسب التقليد اليهودي، كان عزرا قد أسس الكنيس الكبير (كنيس هاجيدولا)، من هيئة الدكاترة، الذين تلقوا جميع العقائد المحفوظة حتى زمانهم لتكييفها وتطويرها، ومن ثم نقلها إلى أسلافهم المباشرين من الحاخامات التلموديين. هكذا يكون قد تمَّ بناء الأساس لتسلسل السلطة:

«تلقى موسى الوصايا في سيناء، وسلمها إلى يوشع، الذي سلمها بدوره للقدماء، وهؤلاء سلموها بدورهم إلى الأنبياء» ومنهم إلى الكنيس الكبير.

طُرحت مسألة وجود هذا المجمع لمناقشتها من علماء معاصرين. من الواضح أن فترة القرنين ونيِّف التي مضت بعد حقبة عزرا، ظلت مغلقة بالظلام والغموض، دون أن تقدم نقطة علام مثبتة تاريخياً. مع ذلك لم نكتشف على ما يبدو، أي سبب متين للاعتراض على فكرة أن مجمعاً من المختصين (الدكاترة) قد عمل خلال تلك الحقبة. لا يمكن لأي صاحب نظر ثاقب مثل عزرا أن يتجاهل كم كان عمله مهدداً بالإنهيار بعد وفاته لو لم يكن هناك رجالاً ممتلئين حماسة لمتابعة تطبيق طريقته. يبدو أن خلق

سلطة جماعية تمكن الشعب من التوجه إليها لتلقِّي التعليمات، تعد الوسيلة الكبرى التي يمكن اتباعها.

هناك الكثير أيضاً. عندما يسقط القناع الذي حُرمنا من ارتدائه لتتابع الأحداث، فإننا نجد أنفسنا في النصف الأول من القرن الثاني ق.م أمام كفاح بطولي بدأته مجموعة من اليهود في مقاومة من أرادوا إبادة دينهم. فقد وقف الحمونيون في مجابهة الجيوش السورية، لأن «أنطيوخوس ايبيغان» تجاسر على تهديدهم بخرق مبادئ اليهودية: و«نسيان الشريعة وتغيير كافة قواعد العدالة» (مكابين أول 1، 49). وصاح منتيا في المدينة بصوت عظيم قاصد كل من عاد للشريعة وهو رفع راية العصيان: وحافظ على العهد فليخرج ورائي. (مكابين ٢، ٢٧). وقد شجع أبناءه وحثهم قبل وفاته بهذه العبارات: «أظهروا تحالفكم وقوتكم لصالح التورا». [**فأنتم أيها البنون تشدَّدوا وكونوا رجالاً في الشريعة فإنكم ستُمجَّدون**] (مكابين أول 2، 64).

وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أنه مع بداية القرن الثاني، كانت الشريعة قد انتشرت بقوة بين قلة من اليهود. وفي هذه الحال، كيف يمكن تفسير هذا التعلق الذي كان يظهره الحمونيون، إذا لم تكن هناك قناة توصل إليهم الشريعة منذ القرن الخامس، حقبة عزرا؟ وتشهد الوقائع التاريخية على وجود مجمع من الدكاترة أطلق عليهم فيما بعد «الكنيس الكبير». لو كان الأمر كذلك، فمن الضروري وجود اختيارات لبعض أعضائه أو لغالبيتهم من بين السوفريم (الطلاب) (الأتباع)، لأنه بنظر الجميع، كانوا وحدهم المؤهلين للقيام بالمهام الملقاة على عاتق هذه الجماعة.

لقد نُسبت إلى هذه الجماعة ثلاثة شعارات (أوامر): «مارسوا حكماً متحفظاً، أوجدوا العديد من التلاميذ، أقيموا سياجاً حول الشريعة». هكذا تعبر مبادئهم الثلاثة المحركة لنشاطهم عن نفسها. يجب أن يكون الحكم متحفظاً، بمعنى أن المسائل المعدة للبت فيها حسب الشريعة، ستكون محط دراسة دقيقة، والاستقصاء الأكثر دقة، يمكنه أن يؤدي وحده فقط إلى قرار. هذا يفسر الفحص الدقيق المتأني للنص المقدس الذي يميز حاخامات التلمود. كل قراءة سطحية، ستؤدي حتماً إلى حكم متسرع. وفيما يتعلق بتشكيل الأتباع أو التلاميذ، فقد كان الدكاترة يهتمون بذلك دون كلل، ليتم

نقل الشريعة بسهولة للأجيال القادمة. هذا النوع المثالي لانتشار الثقافة، وما يصاحبه من احترام، وجد وقد أحاط بالمثقف المنكب على دراسة الوصايا، مكتسباً القدرة على هذا النوع من التعليم، الذي بلغ ذروته في تجميع التلمود. فيما يتعلق برفع السياج عن الشريعة، فهذا نتيجةُ ملاءمة الحياة مع مبادئها. إذا بقي فرد ما على مقربة من رسالتها، فقد ينقاد خطأً إلى مخالفتها. مثله الحقل المزروع، الذي يجب أن يكون محاطاً بسياج لمنع الدخول إليه ولو بصورة بريئة، والشيء نفسه حول المجال المقدس للشريعة، مع التأكيد على رفع السياج أكثر كاحتياط إضافي، لاتقاء أي مخالفة غير مقصودة. والنتيجة فإن الأهداف التي اتبعها أعضاء «الكنيس الكبير» خلفت نمطاً من الدراسات التي يجب أن يتقيد بها الدكاترة في الأجيال اللاحقة. ذلك هو البذار الجيد الذي يعطي الحصاد الوفير للتلمود.

زيادة في التأكيد أضيفَ عنصرٌ هام للمعلومة التاريخية:

«كان سيمون العادل واحداً من آخر الناجين من الكنيس الكبير. للأسف لا يمكن تحديد عن أي سيمون يتعلق الأمر». جوزيف اسم راهب كبير، «سيمون الذي أطلقنا عليه لقب العادل لورعه وتقواه لله والرفق والمعاملة الحسنة لأبناء أمته». توفي حوالي عام /270/ ق.م. وبتقدير المؤرخ نفسه، راهب آخر كبير يدعى «سمعان» حفيد الأول توفي عام /190/ ق.م تقريباً. الحقيقة أن جوزيف سُمِّيَ الأول من هذين الراهبين الكبيرين «العادل»، تمثُّلاً مع الناجي الأخير من الكنيس الكبير. من القبول بأن هذه الجماعة قد انتهت حوالي عام /270/ ق.م أمرٌ صعبف. يخبرنا كتاب «آبوت» أن انتيغون من سوخو كان تلميذاً لدى سيمون العادل، وأن جوزي ابنجويزر وجوزي ابن جوخانان تلقيا منه الشريعة. بيد أن هؤلاء الدكاترة ماتوا حوالي عام /160/ ق.م؛ وهذا ما يعطي فترة طويلة إذا كان المقطع يعني أن هذين الاسمين لـ «جوزي» كانا تلميذين لـ سيمون وانتيغون. وبغية سد الثغرة، فإننا نرجِّح أن الكلمتين يمكن أن تلمحا إلى تتابع بعض الدكاترة الوسطاء الذين لم ترد أسماؤهم.

مع ذلك، من المحتمل أن الكنيس الكبير زال من الوجود في منتصف أو حوالي القرن الثالث. وقد خلفهم تنظيم آخر عرف باسم «سانهدرين» (المجلس الأعلى لدى قدماء اليهود)؛ اختص هذا التنظيم بإدارة شؤون الجماعة اليهودية في منطقة يهودا. وفي رسالة من انتيوخس الثالث إلى بطليموس والتي حفظها الراهب جوزيف، جاءت

تسميته سيناة «مجلس». يؤكد التقليد اليهودي أن هذا المجلس كان مؤلفاً من خمسة أزواج من الحاخامات تعاقبوا عليه. كان آخرهم هلِّيل وشاماي (المتوفى عام 10 للميلاد). واحد منهما كان أميراً (رئيساً)، والثاني أب المحكمة أو نائباً للرئيس.

لقد انتهت الدراسات التاريخية الحديثة إلى نتيجة أخرى مخالفة. فـ«السانهدرين» عبارة عن مجمع مؤلف من عدد من الرهبان والمشرِّعين المنضوين تحت رئاسة الراهب الكبير. وقرار انضوائهم تحت رئاسة واحدة لم يدم طويلاً، فقد ساده الانقسام الذي نجم عنه تشكيل فئتين مميزتين، رغم أن الرهبان أوصوا بسياسة التسوية مع الفكر الهلليني، حتى ولو كان على حساب الوفاء الكامل للشريعة. فقد تكتل ضدهم المشرعون الورثة المبشرون لعزرا والسوفيريم[1]، الذين تشدَّدوا في عنادهم وتشبثهم: وبالنسبة لهم، تلزم الشريعة بالانضمام الكامل من دون تحفظ ودون تدخل العاطفة[2]. كان على رأسهم الحاخامات المنضوون تحت قائمة «زوغوت».

رُدمت الثغرة بين الحزبين خلال الحرب المكّابية. لكنها عادت للظهور والتوسع في فترة «جان هيكران» (135 ـ 105 ق.م). منذ ذلك الوقت لم تتوقف عن التوسع، إلى أن تشكلت طائفتان هما: الصدُّوقيون، والفرِّيسيون. ومن ضمن خلافاتهم، واحدة كان لها الأهمية والتأثير على تطور الديانة اليهودية، يتكلم عنها جوزيف بما يلي: «قدَّم الفريسيون للشعب عدداً من القوانين الموروثة عن آبائهم، لم ترد في شريعة موسى. فرفضها الصدُّوقيون الذين قالوا بأن من واجبنا الالتزام بالوصايا المكتوبة، مع عدم الالتزام بما يصدر عن التقليد الموروث عن آبائنا. تلك أهم أسباب الصراع الخطير والخلافات التي قامت بينهما».

هذه الجدل حول صلاحية «الشريعة» الشفهية، أزكى غيرة وحماسة المدافعين عنها لدراسة النص المختص بالكتاب المقدس. شرعوا بالبرهان أن الشريعة الشفهية غير المكتوبة تشكل جزءاً لا ينفصل عن الشريعة المكتوبة، لأن أصلهما ومصدرهما واحد، وابتدعوا طرقاً للتفسير قادرة على إثبات أن التقاليد المرفوضة من الصدوقيين كانت موجودة في نصوص الشريعة. وهكذا تدخل شروحات الشريعة مرحلة جديدة ومن ثم التوجه في خط مباشر نحو خلق التلمود.

(1) العهد الجديد مرتبط دائماً بالكتبة والفريسيين.

(2) يوضح جوزيف أن الفرِّيسيين محترمون وماهرون في دقة تفسير قوانينهم.

2 ـ الميشنا

إن اختراع طرق جديدة للتفسير قد جعل من الشريعة علماً. الرجال المؤهلون كما ينبغي بشرط النص، يتكلمون وحدهم منذ ذلك الوقت بالحق المطلق. تلقى «التنَّايم» اسم المدربون. وظل الحاخامات يحملون هذا الاسم لغاية الفترة الزمنية التي انتهت بتدوين «الميشنا». وقد لقي هذا العمل اندفاعاً كبيراً من أحد الروَّاد ويدعى «هللِّيل» البابلي المولد، كما يقول التقليد إنه ينحدر من نسل داود من أمه. جاء واستقر في يهوذا لمدة أربعين عاماً، ويعتبر هللِّيل واحداً من العناصر النشيطة والهامة للجماعة.

إن مثال هللِّيل، يوضح بقوة وجهة نظر الفريسيين، فقد أقَرَّ بأن الحياة، تخضع لظروف تتبدل باستمرار، ولا يمكنها الخضوع للضغوط التي تفرضها عليها الإطارات المتصلبة لشريعة مكتوبة لا يمكن تغييرها، ووجد في حرية التفسير المسموحة من القانون الشفهي، الأداة التي لا تُقدَّر بثمن، والتي بفضلها يمكن للوصايا التكيف مع الظروف المتنوعة.

يسمح القانون المعروف باسم «دوتيرون» أي تثنية الاشتراع (15، 1 - 2) [**في كل سبع سنين تصنع إبراء (1) وهذا حكم الإبراء. كل صاحب دينٍ فليبرئْ صاحبَه مما أقرضه لا يُطالبْ صاحبَهُ ولا أخاه لأنه قد نودي بإبراءٍ للرب**] يطبَّق هذا القانون بدقة، على كل دائن أقرض جاره سيتخلى عن حقه؛ إذا لم يكن الدين قد دُفع بانتهاء السنة السبتية، عندها يتوقف الدين عن كونه مُستحقّاً. والحقيقة، فإن هذا القانون يشكل نوعاً من عمل الإحسان الذي يجب على الإسرائيلي القيام به إزاء مواطن بائس؛ والأمر لا يتعلق أبداً بِدَيْن متعاقد عليه في المجرى المألوف للأعمال.

يفترض القانون الحالة الاجتماعية لأمة مؤلفة من مالكين صغار، حيث يعيش كل واحد من حصته. وما أن تتحول ظروف الحياة، يحصل الكثير من الناس على معيشتهم من التجارة، هذا التدبير التوراتي سيصبح سبباً لمتاعب جدية. يُخشى من الإقراض عند الامتناع عن السداد بعد سنة الراحة أو «العفو»، ما من شك أن هذا سيقود إلى صعوبات كبيرة.

من وجهة نظر صدُّوقية، لا مناص من الدفع. القانون هو القانون، وليس من وسيلة سوى الانصياع له. ويحتج هللِّيل على ذلك؛ فهو يجتهد في التمحيص بالنص إلى أن يخلص إلى طريقة لإزالة العائق، منطلقاً من مبدأ التأكيد أن الشريعة لا تحتوي على أي كلمة لا معنى لها، يلاحظ هذه الجملة في النص: [أما الأجنبي فطالبه وأما ما يكون لك على أخيك فابرئه منه] المصدر السابق ٢. ظاهرياً، أليس هذا تكراراً عديم الفائدة لنهاية الآية 2: «ألن يضغط على أخيه أو قريبه ليدفع دَيْنه؟»، كلا، لأن الشريعة لا تحتوي على أي إسهاب أو لغو. منذ ذلك الوقت الكلمات: «كل ما يخصك عند أخيك» هي هنا لاستبعاد بعض الفرضيات، بمعنى في حالة حيث «الذي سيخصك» لا يوجد بين يدي المدين. استنتج هللِّيل من هذا الاستدلال، أنه إذا كان باستطاعة الدائن التقدم للمحكمة بالوثائق التي يثبت بها أن الدَّيْن كان قد تمَّ تحويله، فيكون عندئذ في حالة امتلاك الحق بطلب التسديد بعد انتهاء السنة السبتية. في هذه الحالة يمكن وصف هذه الحجة بأنها حالة ضمير، لكنها مستلهمة من انشغالٍ حياتي: جعل الشريعة دليلاً قائداً صالحاً مدى الحياة، لن تخضع لأي انحطاط أو عجز، ما دامت ترى نفسها قادرة على إعادة الشرح بتناغم مع المستجدات الجديدة.

يعتبر هللِّيل مؤسساً لمدرسة «تنَّايم»، كما أسس معاصره «شاماي» مدرسة أخرى أيضاً. من القرن الأول الميلادي لغاية سنة 70م، كان الفكر السائد في الدوائر الفرِّيسية، منصبّاً بشكل أساسي على هذين المعلمين وتلاميذهما.

في الحالة العامة، كانت مدرسة هللِّيل تفسر القانون بتوسع، بينما «الشمَّائيين» (مدرسة شاماي) يفسرونه بشكل دقيق وصارم. يسرد التلمود أكثر من ثلاثمائة نقطة جدل وخلاف فيما بينهم. أخيراً كان تعليم هلليل هو الغالب. من أجل تأسيس مدرسة، كان من الضروري توفر القدرة على تشكيل منظومة تحتوي على جميع برامج الدراسات. علينا أن لا ننسى، أنه في الشرق وحتى يومنا هذا، تبدو الذاكرة أكثر تطوراً مما لدى الغربيين، فمن شفاه المرشدين وليس من صفحات الكتب فقط يُستقى التعليم الواسع. ورأى هللِّيل أنه من الضروري فحص القواعد التفسيرية المنقولة عن الأجيال السالفة إلى جيله، ومن المحتمل أن يكون قد أوصى بها تلامذته، والتي كان يعتبرها منطقية وصالحة. اعتمد منها سبعة وقبلت بشكل عام، وستضاف إليها وصايا أخرى فيما بعد. إلى جانب ذلك، عليه أن يضع نظاماً

للمواد وسط هذا الجمع الشامل الرحب من التقاليد، بهدف المنفعة العملية للتعليم. وقد حُفظت هذه الإجراءات من بعده. يمكن النظر إليها كأنها الإصدار الأول للميشنا.

الشخصية التي جلبت الانتباه هي شخصية «جوخانان. ابن. زكّاي»، الأصغر سناً والمميّز من تلامذة هلليل. استدعاه المعلم قبل موته بقليل: أبو الحكمة وأبو الأجيال (علماء المستقبل) سلطته تطغى بلا منازع، في فترة قيام «تيتوس» بتدمير الهيكل. تنبأ أن اليهود المتحاربين مع روما سوف يُسحقون، فألح على طلب السلام، لأن بقاء اليهودية واستمرارها من وجهة نظره أهم من الاستقلال الوطني. وعندما استُبعد رأيه، اتخذ إجراءات قادرة على الأقل بتجنب إبادة الطائفة بعد هدم الهيكل والقضاء على الدولة. يُروى أنه، ليتمكن من الخروج من المدينة المحاصرة والتي كانت أبوابها مراقبة بدقة من المتحمسين اليهود، قام بنشر شائعة مرضه، ومن ثمَّ وفاته. وتطوع بعض أصدقائه المقربين الموثوق بهم بحمله داخل نعش خارج مدينة القدس، متظاهرين بدفنه. فالاحترام والمهابة اللذان يحيطان به، أنقذاه من سهام الحرس التي تمنع اقتراب أي إنسان من الأبواب.

التجأ إلى الرومان، وحصل على حق المثول أمام «فاسباسيان» وتوجه إليه بهذا الالتماس:

«أعطني يابْني[1] وحكماءها». وافق الإمبراطور على ذلك ووفى بوعده، ولم تقم تلك الحملة بأية أضرار. انتهت الحرب وانسحب «جوخانان». وهكذا أضحت مدرسة «يابني» من الأهمية ما جعل منها مركزاً فكرياً لليهود. وقرّرت «المحكمة العليا» أن تكون يابْني العاصمة الجديدة.

لقد أنقذت بصيرة الدكتور «الشريعة» من فاجعة وطنية، ومن ثم ضمنت للشعب المغلوب البقاء على قيد الحياة.

قبل حدوث الكارثة، كان «جوخانان» الخصم الرئيسي لموقف الصدُّوقيين من الشريعة. ولأسباب منطقية كان يشير إلى عجزها. وستحمل الأحداث برهاناً مقنعاً دالاً على ضعف مواقف الصدّوقيين وقوة الفريسيين. بالنسبة للصدوقيين، كانت

(1) يابْني: اسم أطلق على مدينة فلسطينية. اسمها اليوناني «يمنيا»، تقع على الشاطئ جنوب فلسطين.

اليهودية تشكل منظومة صارمة، سرية، محددة دائماً بالشرع المكتوب في الكتب الخمسة الأولى من الشريعة؛ كانت إجبارية ملزمة غير قابلة للاختزال، مرتبطة بتقاليد وطقوس الهيكل. بما أن قدس الأقداس هذا لم يعد موجوداً، فقد اختفى الصدوقيون فور تدميره. وبالمقابل، حظيت النظرية الفريسية حول «الشريعة الشفهية» خلال هذه الحقبة الرهيبة من الأزمة بتكريس ملحوظ. حيث سمحت بما لا يدع مجالاً للشك لدين الشعب اليهودي بالاستمرار نتيجة تكيفها مع الظروف الجديدة التي ظهرت. لا أحد أفضل من «جوخانان» في أن يقوم بضمان هذه النتيجة. ففي مدرسة يابْني نقل إلى تلاميذه التعليم الذي أخذه عن معلمه، بطريقة يصبح فيها التلاميذ مبشرين للجيل الجديد. وبهذه الطريقة، أنشأ حلقة جديدة في سلسلة المعرفة اليهودية التقليدية.

باجتيازنا جيلاً، نصل إلى بداية القرن الثاني. اسمان ينفردان في مقدمة النظام، الأول «إسماعيل. ابن. ايلزيه» الذي تعرض للعذاب خلال فترة حكم أدريان القاسي. كان قد أسس مدرسة. فهو متخصص في الدراسة العلمية للقانون اليهودي، عدَّل قواعد هلِّيل السبع، بطريقة جعل منها ثلاث عشرة والتي أصبحت مبادئ مقبولة في التفسير. يركز مؤلفه الرئيسي على محاولة التنسيق الواسع للقرارات، مقدماً لها دعماً بالنصوص التوراتية التي كانت مستنبطة منها. ألف شرحاً للقوانين التي تحويها الكتب الأربعة الأخيرة من أسفار موسى الخمسة، المتعلق منها بسفر الخروج، الذي يبدأ في الفصل الثاني عشر، والمحفوظ من جهة أخرى منقحاً منذ فترة أقل قدماً. المؤلف بعنوان: «ميخيلتا» (القياس)[1].

فيما يخص عمله حول الكتب الثلاثة الأخيرة من أسفار موسى الخمسة، فقد وضع أسساً للتفسيرات والشروحات المشابهة، التي أُدخلت فيما بعد إلى الميشنا، لكنه مع ذلك يمكن ذكرها هنا من دون عائق. إنها سفر[2] اللاوي، الذي نشرته «خيا. ابن. أبَّا» والتي ازدهرت في القرن الثالث. وأسفار الأعداد وأسفار تثنية الاشتراع، اللذين من كونهما مجتمعين، لكل واحد منهما ناشر خاص. يبدو أن تفسير الأعداد يعود إلى نفس حقبة سفر، بينما حقبة سفر التثنية هي أقل قدماً منها بقليل.

(1) نذكرها فقد حسب النشرة التي وضعها فريدمان 1870.

(2) الأسفار باختصار هي أسفار الرب، سفر بيت المعلم أو المدرسة.

يترك لنا السفر والأسفار مجالاً للتأكد من أن دكتوراً آخر مميزاً وهو «أكِّيبا ابن جوزيف» الذي قتله الرومان عام 132. قام بدفع علْم المدراش إلى أعلى مستوى له. وبالنسبة له فهو ليس رسالة من نص للكتاب المقدس الذي لا يحتوي على مدلول محدد. براعة تفسيراته تربكنا. وبتطبيق طريقته في التفسير، فلن يبقى أي ممارسة تقليدية مجردة عن الصلة المباشرة مع القانون المكتوب. بطريقة أو بأخرى، فقد وُجدت فيه قاعدتها ورسخت سلطتها.

علاوة على ذلك، كان هذا المفسِّر، هذا الدكتور، خبيراً في التصنيف. قيل عنه إنه أدخل أسفاراً للعهد القديم في سلسلة من الحلقات، بحيث يمكن الإدراك أنه راجع كثيراً من المعطيات الشرعية المتراكمة لغاية عصره، وجعل منها سجلاً منظماً. يمكن تقديم الشكر والتحية للمهندس المعماري الذي أعدَّ مخطط الميشنا الذي وُجد قبله بقرن من الزمن. ولولا عمله كواحد من الرواد النشيطين، لما رأى التلمود النور أبداً. سار تلاميذه من بعده على خطاه، ومارسوا تأثيراً مسيطراً في دراسة أسفار العهد القديم طيلة الأجيال التالية. ومن أهمهم «مئير» الذي أخذ على عاتقه مسؤولية نشر الميشنا والتي قبلها يهودا الأمير كأساس في تدوين القوانين.

يلاحظ التلمود أنه «عندما مات أكِّيبا» كان يهوذا مولوداً. هذا ليس صحيحاً تماماً من ناحية الترتيب الزمني، لأن يهوذا ولد عام 135. وبدون شك فإن التلمود أراد بهذه الطريقة أن يجمع الشخصيتين الكبيرتين في الأدب والتاريخ اليهوديين. ما بدأه «أكِّيبا» أكمله يهوذا. لنقل أحدهما كان المهندس والآخر البنَّاء.

كان يهوذا ابناً لدكتور شهير يدعى «شمعون بن. غامايال» ينتمي لعائلة متنفذة وثرية. تلقى تربية تحررية، شملت تعلم اليونانية، ومصادقة بعض النبلاء الرومان، وإن تبحره في العلم وموقعه الاجتماعي، ضمنا له سلطة لا ينازعه عليها أحد من اليهود في فلسطين. مارس طيلة فترة حياته الخمسين عاماً وحتى وفاته بين عامي 219 و220 مهمة نازي Nasi (أمير، بطرك)، أي الزعيم المعترف به رسمياً من الطائفة.

العمل الكبير الذي أنجزه، كان في تجميع أجزاء «أسفار العهد القديم اليهودية» التورا المسماة الميشنا. هذا الاسم مشتق من الجذر «شانا» بمعنى راجَعَ، كرَّر، وتدل أيضاً على التعليم الشفهي الذي يرسخ في الذهن بالتكرار. إنها نقيض «الميكرا» النص المكتوب المخصص للقراءة.

فهو يجتهد إذن في تصنيف أسفار العهد القديم الشفهية، مقابل أسفار العهد القديم المكتوبة للكتب الخمسة الأخيرة لأسفار العهد القديم. نجح يهوذا في إعداد نظام أو قانون كان قد اعتمده في مدارس فلسطين وبابل، بينما سقطت تجميعات القوانين التي جمعها الحاخاميون إفرادياً والمعدَّة للاستخدام في دراساتهم العليا الخاصة وأضحت في عالم النسيان. وبهذه الطريقة تمَّ توحيد كتب النصوص المقرَّرة للدرس والمناقشة في المستقبل.

إن لغة الميشنا هي العبرية المحلية في ذلك الزمان، والبعيدة كلياً عن تلك التي في التوراة، باتباعها طُرقاً أقل التزاماً بالقواعد اللغوية، حيث تسللت إليها تعابير يونانية ولاتينية.

وقد تميَّز بأناقة نادرة في التعابير، مستبعداً الزخرفة الأدبية. بحيث يبدو التعبير متناسباً جداً مع الموضوع المعالج.

يجدر بنا التساؤل منذ العصور الوسطى، فيما إذا كان يهودا قد وضع الميشنا الخاصة به كتابة أو بالنقل الشفهي الذي استمر بعد وفاته بقليل. ما زال العلماء يتناقشون في هذا الموضوع حتى الآن. لكن فكرة الكتابة الأصلية لقانون مكتوب تبدو المقبولة حالياً. وهكذا بدت الميشنا جاهزة في ستة أجزاء، السداريم (الأوامر)، التي يشتمل كل منها على عدد من «الماسيشتوت» أي الكتب الموسعة التي يبلغ تعدادها ثلاثة وستين كتاباً. ومن ثمَّ تنقسم كل موسوعة إلى فصول، والفصول إلى فقرات. وبلغ عددها 523 فصلاً[1].

1 ـ زِرايم «البذار»

1 ـ «بيراخوت»:	بركات	أنظمة متعلقة بالطقس الديني.
2 ـ «بيا»:	زاوية	مسائل مثارة متعلقة بزوايا الحقل.
3 ـ «دامَّاي»:	غير مؤكد	مسائل حول الحبوب.. مأخوذ من شخص يُشك بأنه لم يدفع ضريبة العشر للكهنة.
4 ـ كيلايم:	خليط	تصالب البذار، الحيوانات. منعها «ليفي».

(1) أو 524 فصلاً إذا أدخلنا في العدد العنوان المساعد والذي يعتبر جزءاً تابعاً.

5 - سبتية:	السابع	قانون حول السنة السبتية. [**مُرْ بني إسرائيل وقل لهم إذا دخلتم الأرض التي أنا معطيكم فلتُسبِّتِ الأرضُ سبتاً للرب**] (أحبار 25،2).
6 - نيروموت:	تقد.مات	قانون حول الأشياء المقدمة بالرفع. [**قال لهرون إني قد أعطيتك ما يُحفظ من تفادي جميع أقداس بني إسرائيل أعطيتها حق صحة لك وبنيك رسم الدهر**]. (أعداد ١٨، ٨).
7 - معشّروت:	العشّارون	قانون حول ضريبة العشر لدى اللاويين. [**وأما بنو لاوي فإني جعلت لهم كل عُشرٍ في إسرائيل ميراثاً عن خدمتهم**] (أعداد 18، 22).
8 - معشّرثنت:	العشر الثاني	أنظمة مبنية على قاعدة سفر التثنية. [**وعشر جميع غلة زرعك ما أثنته الأرض سنة فسنة**] (تثنية الاشتراع 15، 22).
9 - خالاً:	عجين	جزء من العجين يقدَّم للكهنة حسب سفر الأعداد. [**من أول عجينكم تجعلون للرب تقدمة مدى أجيالكم**] (أعداد 15، 21).
10 - أورلا:	عدم الختان	قانون حول ثمار الأشجار خلال الأربع سنوات من زراعتها. [**وإذا دخلتم الأرض وغرستم كل شجر يُؤكل فاعزلوا غُرلته أي ثمره. ثلاث سنين يكون لكم أغلَفَ لا يُؤكل منه**] (أحبار 19، 23).
11 - بيكّوريم:	البواكير	البواكير الواجب تقديمها للهيكل.

2 ـ مويد «الفصل من السنة»

1 ـ شابّوث:	السبت	ممنوع العمل يوم السبت.
2 ـ ايروبين:	اندماج	شرح لمسألة تقنية مطروحة في قانون سبتي: للحدود الواجب عدم تخطيها يوم السبت، وكيف يمكن توسيع صلاحيتها.
3 ـ بيزاخيم:	الفصح	مراعاة التقيد بيوم الفصح.
4 ـ شيكاليم:	ضريبة	الضريبة السنوية الواجب دفعها للخزينة.
5 ـ يوما:	يوم	طقس يومي للكفارة.
6 ـ سوكّا:	مظلة	مراعاة عيد المظلات. [**مُرْ بني إسرائيل وقل لهم في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع عيد المظال سبعة أيام للرب**] (أحبار 23،34).
7 ـ بيتزا:	بيضة	يوم توبة، تعظيم العمل المسموح والممنوع خلال الاحتفال بالتعظيم.
8 ـ روش هاشانا:	رأس السنة	أو السنة الجديدة مراعاة العيد الذي يدل على بداية السنة الجديدة.
9 ـ تعانيث:	صيام	صوم عمومي.
10 ـ ميجيلاً:	أسطوانة	التلاوة العلنية لكتاب أستير في يوم عيد «فوريم» [**وأن يُذكر هذان اليومان ويُعيَّدا في كل جيل وكل عشيرة وكل إقليم وكل مدينة وأن يومي فوريم هذين لا يُبطلان من بين اليهود ولا يُنسخ ذكرهُما من أعقابهم**] (أستير 9، 28).
11 ـ مويد كاتان:	عيد صغير	أيام متوسطة خلال أعياد الفصح والمظلات.
12 ـ خاجيكا:	تضحية عامة	أضاحٍ تقدم خلال أو أثناء الأعياد السنوية الثلاثة للحج. [**ثلاث مرات في السنة**

يحضُرُ جميع ذُكرانك أمام الرب إلهك في الموضع الذي يختاره في عيد الفطير وفي عيد الأسابيع وفي عيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين] (تثنية الإشتراع 16، 16).

3 ـ ناشيم: النساء

1 ـ يبِاموث:	زواج السِّلفة	حول قانون الزواج من زوجة الأخ التي ليس لها أولاد، هناك درجات من القرابة تمنع الزواج [**إذا أقام أخوان معاً ثم مات أحدُهما وليس له عَقِبٌ فلا تصرْ زوجة الميت إلى خارج لرجلٍ أجنبي بل أخوه يدخلُ عليها ويتخذهاً زوجةً له ويقيم عَقِباً لأخيه**] (تثنية 25، 5).
2 ـ كيتوبوت:	وثائق الزواج	اتفاقات حول المهر وعقد الزواج.
3 ـ نيداريم:	النذور	كيف نعقدها وكيف نلغيها، خاصة فيما يتعلق بالنساء [**أي رجل نذر نذراً للرب أو حلف حلفاً فألزم نفسه شيئاً فلا يخلفُ قولَه بل يعمل بكل ما خرج من فيه**] (أعداد 30، 2).
4 ـ نازير:	نذر	أمنية نذر.
5 ـ سوتا:	الظن بالزنا	خاص بالمرأة التي يظن بأنها زانية. [**مُرْ بني إسرائيل وقل لهم أي رجل زاغت زوجته فخانته خيانةً وضاجعها رجل مضاجعة نسل وأُخفي ذلك على بعلها واستتر تنجُّسها ولا شاهد عليها وهي لم تؤخذ**] (أعداد 5، 11 ـ 12 ـ 13 ـ 14).
6 ـ جيتِّين:	الطلاق	قوانين تلغي الزواج [**إذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلاً ثم لم تحظ عنده لعيب أنكره**

عليها فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه إلى يدها ويصرفها من بيته] (تثنية 24، 1، 2، 3).

7 ـ كيدّوشين:	تقديس (تطهير) قوانين أو شروط الزواج.	

4 ـ نيزيكين (المخالفات)

1 ـ بابا كامّا:	الباب الأول	أضرار بالممتلكات وإجحاف بحق الأشخاص.
2 ـ بابا متزيا:	الباب الأوسط	ملك عقاري، إيجار، بيع، شراء.
3 ـ بابا بوخر:ا	الباب الأخير	عقارات ثابتة، إرث موروث.
4 ـ ساندهدرين:	محاكم	المحاكم والإجراءات القضائية. جنايات القتل.
5 ـ ماكّوث:	الضرب (الجلد)	عقوبات لليمين الكاذب. ما هي الجرائم التي يمكن إنزال العقوبة بها بالضرب بالسوط.
6 ـ شيبّوث:	القسَمْ	اليمين الخاص، والقسم أمام العدالة.
7 ـ أدّويّوث:	شهادات	مجمل شهادات الحاخامات حول قرارات ذات سلطة قديمة.
8 ـ أبودا زارا:	عبادة الأوثان	طقوس وتقاليد وثنية.
9 ـ بيركيه آبوت:	نصوص الآباء	كتاب أخلاقي يجمع الحكم المفضلة لدى «مدرسة تنّايم».
10 ـ هورايوت:	قرارات	الخطيئة المرتكبة صدفة دون قصد بعد رأي خاطئ صادر عن السلطات الدينية.

5 ـ كوداشيم «أشياء مقدسة»

1 ـ زيباخيم:	تضحيات	حول المنظومة المتعلقة بالتضحيات في الهيكل.
2 ـ ميناخوث:	التضحية بالطحين	تقدمات من الطحين والمشروبات.

3 ـ خوللين:	أشياء مدنسة	عن ذبح الحيوانات، قوانين حول أيام القطاعة والتقشف.
4 ـ بيخوروث:	الولد البكر	حول الأطفال البكر للإنسان والحيوان [**فاعزل كل فاتح رحم للرب وكلَّ أول نتاج للبهائم التي لك الذكور للرب**] (خروج 13، 12).
5 ـ أراخين:	تقديرات	القيمة المقدرة للأشخاص والأشياء المخصصة للهيكل.
6 ـ تيمورا:	إنابة	كتاب حول إبدال الحيوانات المقدمة للتضحية [**لا يبدله ولا يُغيِّره لا جيداً ولا رديئاً بجيد فإن أبدل بهيمة ببهيمة تكون هي وما أُبدلت به قُدساً**]. [**لا يُفحص أجيدٌ أم رديء ولا يُبدل فإن أبدل يكون هو ما أبدل به قدساً لرب لا يفك**] (أحبار 27، 10 ـ 33).
7 ـ كيريثوث:	الختان	خطايا مستوجبة توجب الاقتطاع.
8 ـ ميلاّ:	تجاوز	انتهاك حرمة الهيكل.
9 ـ تاميد:	تقدمة مستمرة	وصف للطقوس اليومية في الهيكل.
10 ـ ميدّوث:	أبعاد	حول فن بناء الهيكل.
11 ـ كينّيم:	أعشاش الطيور	حول التقدمات من العصافير [**وإن كان قربانه من الطير مُحرقة للرب فمن اليمام أو من فراخ الحمام يكون قربانه**] (أحبار 1، 14).

6 ـ تيهاروت «أشياء طاهرة»

1 ـ كيليم:	أوعية	حول الوسخ والتدنيس الطقسي للآنية [**وكل إناء خزفٍ وقعِ منها شيء في**

		وسطه فكل ما في داخله يكون نجساً وإياه فاكسر] (أحبار 11، 34).
2 ـ أوهالوث:	خيم	حول الدنس الذي تسببه الجثث [**هذه هي الشرعية أي إنسان مات في خيمة فكل من دخلها وكل ما فيها يكون نجساً سبعة أيام]** (أعداد 19، 14).
3 ـ نيغاييم:	الجروح	قوانين تخص مرض الجذام (البرص).
4 ـ بارا:	بقرة	أنظمة تخص العجلة الصهباء.
5 ـ تيهاروث:	الطهارة	تلميح إلى الدنس الذي يبقى حتى غياب الشمس [**من كل طعام يؤكل مما يدخله الماء يكون نجساً وكل شراب مما يُشرب في كل إناء يكون نجساً]** (أحبار 12، 24).
6 ـ ميكاوث:	حمامات	حول ضرورة استعمال الصهاريج للتنقية الطقسية.
7 ـ نيدَّا:	عدم نقاوة الطمث الشهري	بخصوص القوانين الموجودة لدى اللاويين [**كلِّما بني إسرائيل وقولا لهم أي رجل كان بجسده سيلان فهو نجس]** (أحبار 15، 2).
8 ـ ماخشيرين:	تحضيرات	سوائل مدنَّسة.
9 ـ زابيم:	الأشخاص المصابون بالسيلان	حول عدم الطهارة الناجم عن ذلك.
10 ـ تيبول يام:	الاستحمام اليومي	حول حالة الشخص الذي خضع للغسل والذي طهارته غير كاملة قبل غياب الشمس.
11 ـ يادايم:	الأيدي	حول وساخة اليدين وتنقيتهما.
12 ـ أوكيزين:	سويقات	سويقات الثمار المسببة للدنس.

الكتب المزيفة التي صدرت بعد الميشنا

- آبوث درابي ناثان: مجموعة القواعد المنسوخة والتي يجب اتباعها للكتابة على حواشي الأسفار المستعملة في الكنيس. إضافة لمسائل أخرى متعلقة بالكتاب المقدس.
- ايبل ربَّاتي: المأتم الكبير وبصورة أكثر تلميحاً «طريقة فورية» - سيماخوت: أفراح. أنظمة حول العادات الجنائزية والمآتم.
- كالاّ: خطيبة. حول العفة والعذرية.
- ديريخ اريتز ربّا: الكتاب الكبير للسلوك. حول الزيجات المحرمة والسلوك الأخلاقي.
- ديريخ اريتز زوتا: الكتاب الصغير حول السلوك، أو قواعد السلوك الصالح.
- بيريك شالوم: فقرة عن السلام.
- جيريم: حول المتهودين الجدد. أسس تخص اعتناق اليهودية.
- كوثيم: السامريون حول ممارسات وعادات السامريين من حيث علاقتها بالقانون اليهودي.
- أباديم: العبيد. حول العبيد من العبرانيين.

يجب أن نضيف إليها أربعة كتب نُشرت عام 1851 مع الثلاثة الأخيرة التي أتى كيرشهايم على ذكرها.

- سفرتورا: دورة الشريعة.
- ميزوزا: علامة حول عتبة الباب **[واكتبها على عقائد أبواب بيتك وعلى أبوابك]** (تثنية الاشتراع 6،9).
- تيفيللين: التمائم والتعاويذ.
- تزيزيت: أهداب على ذيل الثوب (أعداد ١٥، ٣٨). **[مُر بني إسرائيل وقل لهم ليصنعوا لهم أهداباً على أذيال ثيابهم مدى أجيالهم ويجعلوا على أهداب الذيل سلكَ سَمنجْوني]**.

* * *

مؤلف آخر وصل إلينا مشابه للميشنا. إنه «التوسيفتا» بمعنى التكملة. فهو يحتوي على جملة من القوانين مرتبة بشكل منتظم، وموازية من أوجه عدة للميشنا، غير أنها تحتوي على مواد إضافية. أسلوبها موزع أكثر منه في كتاب يهوذا؛ إضافة للشروحات على «التوسيفتا» هناك نصوص أخرى داعمة، بينما الميشنا تتبع قاعدة غض النظر عنها. العلاقة بين هذه التكملة «التوسيفتا» والقوانين الرسمية، لم تكن قد حددت العديد من المسائل المتعلقة بنسبها إلى مؤلفات مختلفة، بذلك ظلت المسألة معلقة. حالياً، تعزى النواة غالباً إلى حاخاميين من القرن الثالث، «رابَّا» و«إشعيا»، مع أن الكتاب في شكله الحالي يعود إلى القرن الخامس.

3 - جيمارا وميدراش

باستعراض الميشنا، فإن كتاب يهودا نفسه لم يقترح تثبيت الشريعة. لقد كان ذلك مخالفاً للروح الحافزة للحاخامات وللمبادئ الأساسية لأسفار العهد القديم الشفهية. ما كان يُراد منه هو تسهيل الدراسة.

انظروا الأسباب التي دفعت يهودا لإيراد آراء متناقضة للسلطات المختلفة، من دون الإشارة عند الضرورة لأي درجة من التوافق الذي أمكنه القيام به. وبدلاً من أن يكون عمله نهاية للأبحاث، فإن هذه القوننة (تدوين القوانين) هيأت الفرص للقيام بأبحاث جديدة.

جلبت الميشنا للمدارس، كتاباً جامعاً للنصوص، حيث أضحت الحاجة ماسة إليه. كذلك، ما إن أُعلن استعماله، حتى بدأت «الشريعة» تأخذ بعداً أكبر وأعمق. لقد جرى فحص كل بند بعناية كبيرة لإثبات القيمة والمعنى والمغزى. كما تطلب الأمر جهداً كبيراً كي يستقي المؤلف من كتابه مجمل المواد أو العناصر القابلة للاستعمال. كان الدكاترة قد نقلوا كتابياً وشفهياً الكثير من الأفكار والآراء الشرعية التي لا يمكن أن نجدها داخل «الميشنا»[1]. لقد أُطلق اسم «باراتيا» (ما هو خارجي) على كل قول

(1) النشرة ذات السلطة هي نشرة م.س زوكُر مانديل، 1881.

مأثور متروك جانباً. وغالباً ما كانت المناقشات تدور حول فقرة من الميشنا، بادئة برفع ما هو خارجي «باراتيا»، حيث بدت وكأنها تعتمد موقفاً مختلفاً إزاء الشريعة المعتبرة، وكانت تقدم كثيراً من المهارات الفائقة من أجل التناسق في الرأيين.

وقد حرصت دراسات اليهود الخاصة على مدى عدة قرون، على اكتساب معرفة الميشنا والتعليقات التي تكدَّست فوقها شيئاً فشيئاً. هذه التعليقات، أشير إليها بكلمة «جيمارا» (الإضافة أو التكملة) لأنها تكمل الميشنا. وأطلق على الذين يشرحونها لقب «آمورايم» (خطباء، مفسرون)، متميزة بهذا الشكل عن «تانّايم»، الحاخامات السابقون لظهور الميشنا. أما أماكن المدارس الرئيسية التي تابعت فيها هذه الدراسة هي: قيصرية، سيفوريس، طبريا وأوشا في فلسطين. ومن ثم نهاريا، سورا، بومبيديثا في بابل.

كل واحدة من هذه المدارس، كانت تتابع أبحاثها لصالحها الخاص، عندما كان العديد من الحاخاميين يتجولون عبر هذه البلدان، فقد أوجدوا جزءاً من تقريب وجهات النظر. وكان الدكتور «جوخانان بن نابّاخا» في فلسطين رئيس أكاديمية طبريا الأكثر تميزاً ووضوحاً. فهو أول من شرع في جمع التقارير حول النقاشات التي قامت بها الميشنا في المدارس الفلسطينية.

رغم أننا نفترض ذلك عادة، فإن تركيب تلمود فلسطين لا يمكن أن يُعزى إليه، لأن هذا الكتاب اعتمد مرجعاً للسلطات الموزعة على ثلاثة أجيال بعد جيله. وبذلك يكون قد وضع الأساس الذي جاء عليه الآخرون وقدَّموا مساهماتهم، إلى أن اتخذ الكتاب الشكل النهائي، في السنوات الأخيرة من القرن الرابع. إنها الميشنا مضافاً إليها مكملتها الجيمارا التي تشكل التلمود (دراسة)، واختصاراً لـ«التلمود تورا» (تلمود أسفار العهد القديم).

في نهاية المطاف، يشتمل التلمود الفلسطيني على نص الميشنا والحواشي التي كانت الموضوع في أكاديميات هذا البلد. عمل مشابه كان يجري في آن واحد في بابل. فالطائفة اليهودية هناك كانت أكثر عدداً وفي وضع أفضل من أتباع دينهم في فلسطين؛ إضافة لذلك، فقد أنتجت وجذبت الرجال ذوي التوسع العالمي العالي. وفي جميع الأحوال، كان التعليم في هذه المدارس أكثر عمقاً وتفوقاً. هذا التمييز يبدو واضحاً في تجميع «الجيمارا» المدينة له باسمها. بدأ الحاخام «آشي» (352 ـ 427) هذا

العمل، مكرساً له ثلاثين سنة، وتركه دون أن يكتمل عند وفاته. وقد أكمله «رابينا» كلياً عام 499.

لم تكتمل «الجيمارا» في أي من التلمودين، مع أنها بالطبع كانت موجودة في بعض المؤلفات وكتب الميشنا التي خلت منها الآن. تتضمن «الجيمارا» في التلمود الفلسطيني تسعةً وثلاثين بحثاً، وفي التلمود البابلي سبعةً وثلاثين. لكن «الجيمارا» البابلية تعد أوسع بسبع مرات من الأخرى.

نشر «دافيد بومبرغ» النسخة الأولى الكاملة من التلمودين في وضعهما الحالي في البندين. نسخة التلمود البابلي بين أعوام 1520 - 1523، والفلسطيني بين عامي 1523 و1524. وجرى حفظ ترقيم الصفحات عملياً في جميع النشرات اللاحقة. وقام «بومبرغ» بطباعة التلمود الفلسطيني دون تفسير أو حاشية، وعلى عمودين، وعلى وجهي الورقة. أما التلمود البابلي، فيقدم جزءاً من «الجيمارا» وسط كل صفحة، ويحيط به في العمودين الجانبيين تفسير «سليمان بن. اسحق» المعروف بشكل أفضل تحت اسم «راشي» (1040 - 1105)، مع ملاحظات للمفسرين اللاحقين المعروفين باسم توسافيست[1].

يختلف التلمودان عن بعضهما أيضاً بطريقة التعبير (باللغة)؛ فهما يمثلان لهجتين عاميتين من اللغة الآرامية. «الجيمارا» الفلسطينية مكتوبة باللغة الآرامية الغربية، القريبة من الآرامية الشرقية، والقريبة لغوياً من العامية الماندية.

إذا نظرنا بشكل إجمالي لتاريخ التلمود، يمكن القول بكل ثقة، أنه لا يمكن النظر إليه كعمل أدبي. فالمعايير العادية للأدب لا تنطبق عليه. وما دام يستقي مواده من الميشنا، فهو يُبنى على قاعدة منظمة مأخوذاً كجمع متكامل، لكنه لا يمثل سوى كومة تحوي جملة من المواد المتنافرة. وإن إعادة نشر الطرق الصحيحة للمدارس، يعكس دون الابتعاد كلياً عما يمكن مناقشته. فقد سمح التلامذة والمعلمون لأنفسهم بالابتعاد كلياً عما يمكن مناقشته عن النقطة المدروسة، وتطرّقوا حسب رغبتهم إلى أي موضوع يمكن تخيله، ومن أجل التمويه على التعب في كل نقاش دقيق حول بعض المفاهيم القضائية الصعبة، فإن المناقشة كانت تجري لأمور أقل عمقاً. من أجل بنائهم المشترك، كانوا

(1) من أجل ذلك وضعت الإشارات في التلمود الفلسطيني، التي أشرنا إليها بالأحرف: حرف b يُوضع أمام اسم الشاهد.

يطلقون العنان لذاكرتهم، ساكبين بشكل عشوائي ما كان مخزناً فيها: تاريخ، أسطورة، فولكلور، طب، فلك، علم نبات، علم حيوان، وكل شيء يصدر عنهم. ليس في ذلك هجمة فكرية، بل في قيام أحاديث أكثر سطحية يجري تبادلها في الأكاديميات أو في مكان آخر، حيث تثبتت حرة، نشطة في صفحات التلمود.

كذلك «الشريعة» وكما يريد الحاخامات، فإنها تبقى على اتصال مستمر مع الحياة. تهتم بالوجود الكامل للكائن البشري: دين، أخلاق، حياة جسدية، دون استثناء الخرافات، بحيث كل ما يخص الإنسان لا يخرج عن صلاحيتها. منذ ذلك الوقت، لا التلاميذ ولا المعلمون، يمكنهم قصر مناقشاتهم على المسائل الشرعية. فقد كانوا على علاقة وثيقة مع أفراد الشعب؛ ما يقوله أي فرد، رجل أم امرأة، يدخل معهم إلى المدرسة، ويجد مكانه وسط التلمود.

يمكن لمحتواه المتنوع جداً، أن يتوزع في فئتين كبيرتين معروفتين تحت اسمي «هالاخا» و«هاغادا». الأولى تعني «المسار»، وتشير إلى المسار الواجب اتباعه في الحياة وفقاً لمبادئ «تورا».

يفهم من ذلك أن «الميشنا» و«الجيمارا» تعالجان قضايا الشرع. «الهالاخا» هي التطور المنطقي الذي يعود الفضل فيه إلى الأجيال العديدة من العلماء وللنظرية التي صاغها «عزرا» من أجل خلاص شعب إسرائيل. فقد جهزت المجتمع بكامله (الطائفة) وكل عضو فيه إفرادياً بقانون أو دليل خاص للعمل يستجيب لهذا الهدف: الحفاظ على الضمير اليهودي حياً. كما صاغت «الهالاخا» الوجود أو الحياة لكل يهودي في قالب معين. وجّهت خطاه بطريقة يسير بها خاشعاً مع إلهه. لقد خُلق كاسراً حقيقياً للأمواج، يشعر الفرد بالأمان، مُحرراً من التأثيرات الخارجية التي كانت تهدد بإغراقه واقتلاعه من روابط تكوينه الإثني الأصيل.

لقد ظهرت فاعلية قوتها الحافظة، وإمكاناتها عبر القرون حتى يومنا هذا. «الهالاخا» هي النظام الذي عليه وبواسطته عاش اليهودي كيهودي في الماضي وسيعيش به دائماً، إنها تقدم الجواب النهائي لتساؤلات أي فرد وهو: كيف تمكنت أقلية من الحفاظ طيلة هذه المدة لسماتها النوعية دون الاندماج في الأغلبية المحيطة بها أو التي تعيش وسطها.

من الخطأ عزل «الهالاخا» عن العناصر الأخرى للتلمود، نخطئ باعتبارها منظومة شرعوية جافة مجردة من أي محتوى روحي، يؤخذ على هذه الانتقادات أنها وجهت

إليها بصورة رتيبة. كتب أحد مؤلفي الدراسات الحديثة حول الأدب الحاخامي بدقة ما يلي: كان الفرّيسيون والحاخامات قبل كل شيء مدرِّبين أو معلمين، وأن الهدف من تعليمهم كان الدِّين العملي، والقيام بالأعمال الصالحة في خدمة الله والإنسان. كانوا يجتهدون في تقوية العوامل التي تساهم وتطوِّر السلام والوحدة بين البشر: حسُّ العدالة، الحقيقة، الاستقامة، الحب الأخوي، خفة الروح، الرحمة، الصبر، الخ...

وبكلمة واحدة الارتقاء بالمستوى الأخلاقي لشعبهم جيلاً إثر جيل. تلك هي المبادئ التي طوَّروا على أساسها «الهالاخا»، وحافظوا عليها من الصلابة في مواقفها. لقد جعلوا منها طريقة لثقافة أخلاقية، ترسم معالم السلوك الصحيح بعبارات تندرج في أخلاقيتها، وروحيتها بعيداً عن التناقض عبر العصور، مع استمراريتها في التقدم والسمو.

نستطيع فصل «الهالاخا» عن العنصر الرئيسي الآخر للتلمود، دون تشويه التعليم الحاخامي وهي «الهاغّادا».

كانت «الهاغادا» تقوم بوظيفة الدكاترة نفسها، الذين يتأملون ويفكرون بالتفاصيل التقنية «للهالاخا». كانت تُقدم الواحدة مع الأخرى جنباً إلى جنب للتلاميذ أنفسهم وفي المدارس نفسها؛ متعاونة في تشكيل اللبنات المتجاورة للبناء التلمودي.

تشير «الهاغّادا» (الرواية) إذن إلى المقاطع والفصول في الأدب الحاخامي المجرد من أي صفة شرعية. تعادل أهميتها مثيلاتها في «الهالاخا» لتفهمنا بطريقة لبقة ما هو عالم التفكير، مقروناً بحب الأجيال الكاملة من الدكاترة الذين طوروها. «الهالاخا» و«الهاغّادا» تعملان جنباً إلى جنب، جذورهما واحدة، وهدفهما واحد. لو أن واحدة تُظهر طريقة الحياة الإلهية، فإن الأمر لن يكون مخالفاً بالنسبة للأخرى.

«هل ترغب بمعرفة من قال للعالم كن فيكون؟» ادرس «الهاغّادا»، لأنك بواسطتها ستصل لمعرفة القدوس الوحيد «الممجد»، وسوف تتمسك بدروبه.

الجميع كالحاخامات يبذلون جهودهم في استخلاص نص من «تورا» أسفار العهد القديم بالموافقة على قرار شرعي كانوا يحاولون به دعم تعليم أو أمر أخلاقي، بكلام مأخوذ من المصدر نفسه. «كما قيل» إنها الصيغة المتبوعة بمرجع من الكتاب المقدس الذي يستخدم عادة كمدخل لشرح «الهاغّادية». بيد أن المهم هو ملاحظة الاختلاف الحقيقي. وبينما ظلت «الهالاخا» القانون الإجباري الواجب إطاعته، ولم تقم بإلغائه أو

تعديله أي سلطة مخولة، فإن «الهاغّادا» لم تحاول شرح أي شيء آخر، سوى ما يعبر عنه الرأي الشخصي لمؤلفها. ولم تعطِ له أي سلطة مُخضعة من وجهة نظر الجماعة برمّتها بأي واحد من عناصرها.

إليكم بعض العبارات الواضحة التي حدّد بها عالم يهودي العلاقات بين «الهالاخا»، و«الهاغّادا»: «الهالاخا هي القانون المتجسد، والهاغّادا هي الحرية المنظمة من القانون الحامل لبصمة الأخلاقية». تمثل الهالاخا صلابة سلطة القانون؛ والأهمية المطلقة للنظرية، نظرية وقانون توضحهما الهاغّادا برأي عام، وأوامر أخلاقية بالحس المشترك. تجمع «الهالاخا» الأنظمة إضافة للتقليد الشفهي، الشرح المعاصر (الحديث) للقانون المكتوب المثُرى دون توقف خلال المناقشات الجارية في مدرسة فلسطين وبابل للتوصل إلى صيغ نهائية للأوامر الهلاخية. ويرون في الهاغادا انطلاقاً من النص التوراتي في الشرح بمساعدة الروايات، الأساطير، القصائد، الرموز، الأفكار الواعظة والذكريات التاريخية. بالنسبة لها لم تكن التوراة هي القانون الأسمى دون استئناف، بل «مسماراً من الذهب» تنشر عليه الهاغّادا بساطها الرائع لدرجة أن النص التوراتي يقدم للشرح الشعري للتلمود، المدخل اللازم، الموضوع، الخاتمة. ومن ثم يعود للهالاخا أن تشيّد على قاعدة القانون التوراتي، البنية العليا القادرة على مقاومة غزوات وصروف الدهر دون إذعان، مهما كانت المخاطر أو الشرور، التي تتعرض لها لاستنتاج النتائج المنطقية للقانون المطبق بالنسبة لأجيال المستقبل. تقع على الهاغّادا إذن المهمة الأخلاقية العليا، بالتعزية، بالإشادة، بالتشجيع، والتثقيف لأمة معرضة لأسوأ الآلام، ومهددة بالركود الروحي في المنفى، وعليها المطالبة بأمجاد الماضي التي تجسّد مستقبلاً أقل تألقاً، وأن البؤس حتى في الزمن الحاضر، سيحل مكانه في المخطط الإلهي الذي رسمته التوراة. إذا كنا نستند في مقارنة الهالاخا بالأسوار والمتاريس لقلعة إسرائيل، فإن على كل يهودي أن يضحي لآخر قطرة من دمه، أما الهاغادا فهي تشبه «حديقة محاطة بالزهور، تمنحها العطور والألوان، السحر الغريب، وتحميها أسوار الهيكل».

ذكرنا أنه منذ عصر النفي إلى بابل، اعتاد اليهود على الاجتماع في الكنيس لسماع قراءة وشرح الكتب الخمسة الأخيرة للتوراة. وعبر كامل الحقبة التلمودية، ودون الحديث عن ما سيليها، كان الكنيس مدرسة ومكاناً للعبادة. لم يكن لدى الناس الرغبة

والقدرة المطلوبة للجدل الهالاخي؛ ويعود للكنيس مهمة تأمين حاجاتهم من التعليم الديني. وعلى وجه الخصوص بعد ظهر يوم السبت، كانت تقام الخُطب المخصصة لإعطاء الحضور الاكتفاء الثقافي والروحي والأخلاقي. كذلك العظات المقوِّمة للأخطاء الشائعة، والإرشادات القادرة على إعطاء الشجاعة والأمل لطائفة مضطهدة وترسيخ إرادة العيش فيها، وشرح العلاقات التي تجمع الله الصانع الكبير للكون، والإنسان بخالقه مع توضيح بارع للنصوص المقدسة، فاتحين للتفكير مجالات واسعة غير معروفة، ذلك هو الغذاء المقدَّم في الكنيس للتثقيف، وتنوير العقول.

يُفهم بسهولة أنه لبلوغ هدف واسع بهذا القدر من التثقيف، لا يمكن للمبشر الإكتفاء بأن ينقل لمستمعيه بلا قيد ولا شرط تفسيراً سطحياً للتوراة. ولم يكن المبشِّر متعطشاً لفهم وتعليم المعنى المباشر للآية، بل للكشف عن كلٍ ما يمكنه الوصل للاستنباطَ منه. كانت تستخدم أربع طرق للتفسير، وهو ما دلَّت عليه الأحرف الصامتة في كلمة (باردس): «جنة، فردوس». كانت «بيشات» (بسيطة) تفسيراً حرفياً؛ - رميز Remez (تلميح) شرحاً مجازياً؛ - ديراش Derache (تفسير واعظ)؛ - سود Sod (سرّ) تعليماً سرِّياً. وبمساعدة هذه الطرق، كان الخطباء يجمعون الاحتياطات الكبيرة من الأفكار التي ساهمت في إغناء «الهاغّادا».

ينتج من ذلك، أنه بصورة مستقلة عن المدارس، كان الكنيس مصدراً غنياً للتعليم «الهاغادي». ومع مرور الزمن، ظهرت الرغبة في الحصول على كافة المواد الضرورية للقراءة والدراسة الخصوصيتين.

وللاستجابة لهذه الحاجة، أنشئ فرع من الأدب الحاخامي أطلق عليه اسم «ميدراشيم»، أما الميدراش الأكثر أهمية فهو «ميدراش ربّا» (المدارس الكبيرة)، الذي يكتسي شكل نوع من «الجميارا الهاغادِّية» على الكتب الخمسة الأخيرة للتوراة والمجلات (لفائف الورق) الخمس؛ نشيد الإنشاد، روث (فعل الندامة)، المراثي، سفر الجامعة، وإستير. كان يُقرأ خلال الدورة السنوية لاحتفالات الكنيس. وكانت الميدراشيم مجموعة من تواريخ متنوعة، تمتد بين القرنين الخامس والسابع، غير أن المواد المجموعة بهذه الطريقة تخص معظمها الفترة التلمودية.

يجب أن نضيف لما تقدم في الأدب «الهاغّادي» «المدراش تنخوما» للأسفار الخمسة الأخيرة من التوراة. الذي وضعه الحاخام الفلسطيني «تنخوما» في نهاية القرن

الرابع، والذي لم يأخذ شكله الحالي إلا بعد ذلك بزمن طويل.

ـ ويليه كتاب «rab Kahana» «راب كاهانا» ويتضمن الدروس الخاصة الملقاة أيام السبت، وهو مؤلف من القرن السادس؛ ثم كتاب: «ميدراش المزامير».

تلك هي المصادر التي سنشرح بموجبها في الصفحات المقبلة عقائد التلمود. إننا نجد فيها الانعكاس الصحيح لمجمل الأفكار التي عاشها اليهود خلال الفترة التكوينية الممتدة من القرن الثالث ق.م إلى القرن الخامس، وهي فترة تثبت وبقوة تطور وتوزع الموسوية والنبوية وسط الديانة اليهودية حتى يومنا هذا.

* * *

لمحة بيبلوغرافية (المراجع):

الأدب المولود من دراسة التلمود، والمدروس من أوجه عدة، واسع جداً. سوف نورد فيما يلي أهم المؤلفات الإنكليزية والفرنسية الهامة للقارئ. وسنجد مراجع واسعة في كتاب «ستراك» مدخل إلى التلمود، الجزء الخامس، المترجم للإنكليزية عام 1931، تحت عنوان: مدخل إلى التلمود والمدراش.

أ ـ مقدمات:

ـ مقالات من الموسوعة اليهودية ومن الموسوعة البريطانية، ومن موسوعات في الدين والتقاليد إضافة لمعجم التوراة.

ـ دار مستتر: التلمود (مجلة الدراسات اليهودية عدد رقم 18 عام 1889، أعمال ومحاضرات والمترجمة للإنكليزية بعنوان: «التلمود».

ـ ي. دوتش: مقالة في التلمود (من الأدب القديم) عام 1874.

ـ ميلزينر: مدخل إلى التلمود، 1925 ـ (مفيد لدراسة النص الأصلي).

ـ و. أوسترلي، وحـ. هـ. بوكس: لمحة قصيرة عن الأدب الحاخامي واليهودي في العصر الوسيط، 1920.

ـ م. واكسمان: تاريخ الأدب اليهودي، جزء أول، 1930.

ـ د. ورايت: التلمود، 1932.

ب ـ ترجمات

* بالفرنسية:

ـ م. شواب: تلمود القدس، باريس 1878 ـ 1889 المجلد الثاني، الجزء الثاني من المجلد الأول 1890.

ـ ج. ح. م رابينويز: التشريع الإجرامي في التلمود، باريس 1876.

ـ المؤلف نفسه: التشريع المدني للتلمود باريس 1877 ـ 1880 خمسة مجلدات، أيضاً لهذين المؤلفين، ترجمة دراسية.

* بالإنكليزية:

ـ م. ل. رودكنسون: التلمود البابلي 1902 ـ في عشر مجلدات: يثمّنه (مور) بهذه الطريقة:

الترجمة الإنكليرية المزعومة لـ (R) غير دقيقة من جميع الوجوه. فهي ملك الشعب، ومع ذلك لا تمثل دراسة متينة، تُرجمت ثلاث مجموعات منها بشكل كامل.

ـ آ. كوهن: Berakhoth.

ـ هـ. هالتر: Taanith.

ـ آ. و. سترين: Chagigah.

جـ ـ كتب الميشنا ـ دراسات أخلاقية ودينية:

ـ ج ـ آبلسن: العظمة لله في الأدب الحاخامي 1912.

ـ آ. أبراهامس: دراسات في الفرّيسيين والإنجيل جـ1، 1917، جـ2 عام 1924.

ـ آ. دوشلر:

- أنماط التدين اليهودي في فلسطين، 1922.
- دراسات في الخطيئة والتفكير، 1928.

ـ ر.ت. هيرفورد:

- الفرّيسية: أهدافها، منهجها، 1912.
- الفريسيون 1924.

- ○ اليهودية في العهد الجديد، 1928.
- ○ لازاروس: الأخلاق اليهودية، مجلدان، 1901.

- آ. مارومورستاين:
  - ○ عقيدة الفضائل في الأدب الحاخامي، 1920.
  - ○ العقيدة الحاخامية القديمة تجاه الله، 1927، القسم الأول: أسماء ورموز الله.
- ث.ح فوسفيور: العهد القديم وما بعده، 1923 ـ الفصل الثالث: الأدب الحاخامي وتعاليم الإنجيل، 1930.
- ح. ف. مور: اليهودية في القرون الأولى للمسيحية. مجلدان، 1927. أحدهما يختص بالملاحظات، شرح متين وحيادي موثق جيداً.
- ف. ث. بورتر: دراسة في العقيدة اليهودية والخطيئة، 1902.
- شيشتر: بعض أوجه اللاهوت الحاخامي، 1909 ـ مؤلف هام.
- س. مونك: فلسطين 1845 ـ كتاب هام.
- ميثيل. آ. ديل: اليهودية، أركان عقيدتها ورسالتها، 1867 خمسة مجلدات.
- هـ. غروس: غاليا اليهودية.

د ـ كتب الميشنا ـ دراسات حقوقية:

- د. يو. آرام: القانون اليهودي في الطلاق، 1897.
- ب. ب. بنّي: القانون الإجرامي لدى اليهود، 1880.
- س. مندلسن: القضاء الجرمي في التلمود، 1891.
- م. ميليزينر:
  - ○ القانون اليهودي في الزواج والطلاق، 1884.
  - ○ القانون الحاخامي للإرث، 1901.
- سنتيراد شارلفيل: نظام أو قانون الحاخام (ابن عازر)، 1868.
- ت. آندريه: العبودية عند قدماء العبريين، 1892.

منوعات عامة:

- ج. أبلسون: التصوف اليهودي، 1913.
- آ. كوهن: الحكم والأمثال اليهودية القديمة، 1911.
- ف. ديليتزش: اليهودية وفن الحياة، 1906.
- آ. فيلدمان: الحكم والتقاليد عند الحاخامات، 1927.
- يو. م. فيلدمان: الرياضيات الحاخامية وعلوم الفلك، 1931.
- ل. كونزبرد: أساطير اليهود، 4 مجلدات، 1896 منها 3 مجلدات لاحقة.
- هـ. غولانز: طريقة تعليم التلمود، 1924.
- آ. س. رابوبورت: خرافات وأساطير إسرائيلية: 3 مجلدات 1928.
- س. شوشتر: دراسات في اليهودية، السلسلة الأولى عام 1896، والثانية 1988 والسلاسل الثلاث 1924.
- ج. دورنبورغ: دراسة في تاريخ وجغرافية فلسطين حسب التلمود والمصادر الحاخامية الأخرى. (منذ سيروس حتى أدريان) 1867.
- آ. د. نوبويرد: جغرافية التلمود، 1868.
- ج. درنبوغ: التلمود (في موسوعة العلوم الدينية) عام 1882.
- م. آ. نيفياسكي: الطقس اليهودي، 1912 (على شكل نشرات لم تكتمل).
- جوليان ويل: اليهودية، 1931.
- مجلة الدراسات اليهودية التي ظهرت منذ عام 1880 تحوي العديد من المقالات المفيدة.

الفصل الأول

عقيدة الله

1 ـ الوجود

يرى الأدب الحاخامي أن وجود الله مسلَّمة لا يمكن إنكارها. ولا يسمح بأية حجة لإقناع اليهودي، أن هناك إله موجود. وبالتوافق مع الوصية الثالثة، وتجنب استعمال اسم مدنّس للمقدس، فقد اعتمدت تسميات عدة تتكرر فيها باستمرار كلمة «الخالق»، الذي أوجد العالم. هكذا يُعبِّر الإيمان عن نفسه بوجود الله، وجود حتمي مُعترف به منذ نشوء الكون.

وقد شُرحت هذه الفكرة بدقة في الرواية المدراشية في أول حوار جرى بين «موسى» و«هارون» مع فرعون مصر. عندما سألهما الأخير: «من هو إلهكم كي أصغي إلى صوته؟».

أجابا: «الكون مليء بقوة وسلطة إلهنا. موجود قبل خلق العالم، وسيبقى حتى نهاية العالم. هو من صَنَعَك ونفخ فيك روح الحياة. هو من حدَّد أسس السماوات والأرض. يمزق صوته النار المستعرة، يُقطِّع الجبال، يفجِّر الصخور ويفتِّتها، قوسه النار، وسهامه ألسنتها، رمحه شعلة، درعه السحاب، سيفه البرق. خلق الجبال والهضاب وكساهما بالعشب. يُسقط المطر، والندى ويُنبت الزرع، يضع الجنين في أحشاء الأم، ينفخ فيه الروح ليخرج للحياة». (سفر الخروج 14، R 5).

الكشف الطبيعي عن الله؛ نجده في التقليد الذي بموجبه اكتشف إبراهيم وجود الله، بالرجوع عن طريق الاستدلال إلى السبب الأول. لدينا روايتان لهذا الاكتشاف:

حسب الأولى، أنه عندما ثار إبراهيم ضد عبادة الأوثان، قاده والده إلى الملك نمرود؛ الذي طلب منه إذا لم ترغب بعبادة الصور، فعليك بعبادة النار. إليكم مجموعة الأدلة التي جرت، عندها: أجاب إبراهيم: «كان علينا أن نعبد الماء الذي يطفئ النار»، قال نمرود: إذن: اعبد الماء. أجاب إبراهيم: «علينا في هذه الحالة عبادة الغيوم التي يأتي منها الماء. قال نمرود: اعبدوا الغيوم. احتجَّ إبراهيم قائلاً: في هذه الحالة يجب أن نعبد الريح التي تبدِّد الغيوم. قال نمرود: إذن اعبدوا الريح. تابع إبراهيم: في هذه الحالة

يجب أن نعبد الكائن الحي الذي يحمل الريح[1]. (تكوين). وانتهت سلسلة الاستدلال إلى القبول بوجود الخالق.

تروي أسطورة أخرى: أن إبراهيم ظلَّ مخبأ بعد ولادته بقليل، لأن المنجمين كانوا قد أعلنوا للملك نمرود، أن طفلاً سيولد وسيدمر مملكته إذا لم تقضِ عليه وهو في المهد. عاش إبراهيم ثلاث سنوات في كهف مع مرضعته. وعندما خرج منه، بدأ يفكر بقرارة نفسه حول خلق الكون، وقرَّر عبادة الكواكب والنجوم، حتى اكتشف أن من بينها كان الله. راقب القمر الذي يضيء الليل البهيم في أنحاء السماوات، ولاحظ مواكب النجوم في السماء. وصاح: ها هو الله! لقد عبد القمر طوال الليل. وفي الصباح، عندما لاحظ بزوغ الشمس وأشعتها الساطعة، وضوء القمر يخبو أمام نورها إلى أن ينطفئ، أعلن: «إن القمر يستمد نوره من الشمس، ولا وجود للكون إلا بوجود الشمس». عندها عبد الشمس طيلة النهار. في المساء تختفي الشمس وراء الأفق، وتزول قوة أشعتها، يعود القمر بصحبة النجوم والكواكب. عندها أعلن أن للجميع سيداً واحداً هو «الله»[2].

وحسب مقطع حاخامي آخر، فإنه يمكن للإنسان أن يستدل على الله انطلاقاً من ضميره الروحي الشخصي. وبتلك الطريقة، اكتشف إبراهيم وآخرون بعده وجود الله. أدرك إبراهيم بقدرته الذاتية القدوس الواحد الممجد! لم يعلِّمه أحد هذه المعرفة. إنه واحد من الكائنات البشرية الأربع التي توصلت إليه. أدرك «أيوب» من ذاته القدّوس الواحد، وكما قيل: [**ووصية شفتيه لم أتخطَّها وقد جعلتُ حفظَ أقوالي فيه من فروضي**] (أيوب 23، 12). كذلك قزحيا ملك يهوذا، استوعب من تلقاء ذاته القدوس الواحد الممجد! كتب عنه أنه: [**يأكل زُبداً وعسلاً إلى أن يعرفَ أن يَرذُلَ الشرَّ ويختارَ الخيرَ**] (إشعيا 7، 15). والملك مسيح أدرك أيضاً من تلقاء نفسه القدوس الواحد الممجد!

لم يكن الإله خالقاً للكون فقط، بل للنظام الكوني الذي يبقى أزلياً طوع إرادته.

(1) عند تنفسه.

(2) هذا النص مأخوذ عن جزء من «الميدراش». إنها مجموعة ملحقة بالميدراشية. لكن في الفترة التي غاب فيها التلمود، أي في العصر التلمودي والتصنيفات الميدراشية، فقد ظهر في رؤيا إبراهيم التي يعود تاريخها للقرن الأول الميلادي أي في العصر التلمودي.

الخلق ليس عملاً من الماضي، بل يستمر تلقائياً. ويمثل عملُ الطبيعة الفعل المستمر للقدرة الإلهية، يقوم في كل وقت بسدِّ حاجات القادمين الجدد للعالم، بنعمته يكفي كل الخلق، ليس الصالحين والخيِّرين فقط، بل الملاعين وعبدة الأصنام. يقضي ثلث النهار في تأمين عناصر الوجود للعالم كله، من القوي، إلى أضعف الكائنات الحية.

وبخصوص علاقاتهم مع الوثنيين، كان الحاخامات يجدون أنفسهم في موقع تحدٍّ لإثبات قوة وسلطة الله الذي كانوا يعبدونه، إله غير مرئي، لكنه حاضر دائماً. يُروى أن الإمبراطور آدريان قال للحاخام «يشوع خانانيا»: أريد أن أرى إلهك، أجابه الحاخام: مستحيل. وعندما ألحَّ الإمبراطور، رجاه الحاخام أن يثبِّت الشمس في مكانها، قال الإمبراطور: لا أقدر على ذلك، صاح عندها الحاخام يشوع: «تعترف بنفسك أنك غير قادر على تأمل الشمس التي ليست سوى واحدة من كواكب القدّوس الواحد، فتخيل يا سيادة الإمبراطور كم تتفوَّق قدرة الله على سلطانك!..».

يعتبر الإلحاد، بمثابة نفي ومؤكد لوجود الله، نحن نجهل أنه لم يُبشَّر به من قبل أحد في فترة الحقبة التوراتية والتلمودية. غير أن الذين يقصدون التوراة والتلمود هم في الواقع أناس يقومون بسلوك ملحد، كما لو أنهم لم يكونوا مرغمين على تقديم الحساب له في يوم من الأيام. هذه الكلمات «في التوراة» «الله غير موجود» منسوبة إلى «نابال»، أي إلى شخص فاسد، لا ينكر وجود الخالق فقط، بل ويرفض الإيمان الموجود عند أدنى الناس بأفعال خالقهم. هذا الشخص على علاقة بالتلمود الأبيقوري، الذي بدوره «ينفي المبدأ الأساسي للدين، بسلوكه الفاحش. يعرِّف الحاخامات الملحد، بأنه الشخص الذي يصرِّح في العالم: «لا وجود للدينونة والديانين» (سفر التكوين) ولا يهتم جاهداً بأمر وجود الله.

يروي الحاخام «روبين» المقيم في طبريا، أن أحد الفلاسفة سأله ذات يوم: «من هو الشخص المكروه جداً في العالم؟» - أجاب: «من ينفي وجود خالقه»، - كيف هذا؟ - أكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور ضد جارك، لا تشته مقتنى غيرك: بهذا ترى أنه لا يوجد إنسان يرفض واحدة من هذه القوانين دون أن يرفض الأصل (أي الإله الذي أوصى بها)، ولا أحد يجرؤ على مخالفتها، إذا لم ينكر من فَرضَها.

إذن، وحسب التعليم التلمودي، كان وجود الله أكثر من تأكيد ذهني،

ويفترض التزاماً أخلاقياً. إن تلاوة [**اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا رب واحد**] (سفر التثنية 6، 4)، والتي تشكل جزءاً من الصلاة اليهودية المكرَّرة صباحاً ومساءً، والمحددة الخضوع: القبول بسلطان الملك السماوي. وبعبارة أخرى الخضوع للنظام الإلهي.

2 ـ الوحدانية

من المؤكد أن الفهم الحاخامي لله هو توحيدي. «في البدء وُجد شخص واحد، بصورة لا يتمكن معها الهراطقة الادعاء بوجود قدرات سماوية متعددة. في الواقع لو أن مجموعة من الكائنات البشرية وُجدت في نفس الوقت منذ البدء، لأصبح من الممكن تأييد أن بعضهم من فعل الله، فيما الآخرون ينحدرون من ألوهيات مختلفة. الجميع متفقون أن لا شيء خُلق في اليوم الأول، كي لا يتمكن أحد من القول أن ميخائيل رئيس الملائكة قد بسط نفوذه على الجزء الجنوبي من قبة السماء، وجبريل على الجزء الشمالي، لأنه هكذا قال الربُّ: [**فاديك وجابِلُكَ من البطن. أنا الرب صانِعُ الكل ناشِرُ السموات وحدي وباسطُ الأرضَ بنفسي**] (إشعيا 44، 24).

انظروا كيف نشرح الآية: «أصغِ، إسرائيل، المولى، إلهنا، هو المولى الوحيد». القدوس الواحد الممجد! قال لإسرائيل: أبنائي لقد خلقت كل واحد من الأشياء في الكون أزواجاً: السماء والأرض، الشمس والقمر، آدم وحواء، العالم الحالي والعالم الآخر، الجنة والنار، لكني وحيد واحد في هذا الكون.

باستخدام التفخيم لوحدانية الله، نكون قد وضعنا أنفسنا في موقف دفاعي مضاد لتيارين من التفكير. الأول عبادة الأصنام التي شبَّهها الحاخامات بالحياة اللاأخلاقية، نتيجة الشعور الذي يسبِّبه لهم تعدد الآلهة عند الرومان واليونان. عابد الأصنام «يرفع عن كاهله نير شريعة الله»، أي أنه يعيش دون أي وازع أخلاقي. «من يبشر بعبادة الأصنام يتخلَّ عن الوصايا العشر»؛ هكذا يتم التعبير بوضوح عن الفكرة نفسها. إن الرفض أو التخلي عن النصف الأول من الوصايا العشر، سيؤدي إلى مخالفة النصف الثاني أيضاً. هذا ما تتضمنه التأكيدات التالية: «تحريم عبادة الأصنام يعادل في أهميته

جميع وصايا التورا الأخرى. إن عبادة الأصنام شيء رئيسي لأن من يرفضها يعمل كما لو أنه يعرف الـ «تورا كاملة».

المغزى الأخلاقي الموجود في هذا المفهوم يبدو واضحاً، عندما يسمع الحاخامات وهم يقررون أنه: «إذا أرغم شخص تحت التهديد بالموت على مخالفة جميع تعليمات (التورا)، يمكنه الإذعان لذلك باستثناء ما يخص عبادة الأصنام، الفسق، سفك الدماء».

من جهة أخرى، أُرغم الحاخامات على الدفاع عن فكرة الإله الواحد في وجه المسيحيين في القرون الأولى، الذين كانوا يبحثون في التوراة العبرية عن نقطة دعم لعقيدتهم المتعلقة بالثالوث الأقدس. الجزء الرئيسي الذي يعالج هذا الموضوع هو التالي:

سألت إحدى الجماعات الحاخام «سيملاي»: ما عدد الآلهة التي خلقت الكون؟

أجاب: لنسأل الأيام الخوالي (القديمة) لأنه كتب: **[والآن فَسَلْ عن الأيام الأُول التي سلفت من قبلك منذ يومَ خلق الرب الإنسان على الأرض من أقصى السماء إلى أقصاها هل جـــرى مثل هذا الأمـــر العظيم أو هل سُمع بمثله]** (تثنية 4، 32). «الخلق» لم يكتب فعلاً بصيغة الجمع، لكنه بالمفرد، وهذا ينطوي على فاعل مفرد. الجواب نفسه مطبَّق في (التكوين1، 1): **[في البدء خلق الله السماوات والأرض]**.

يقول «د. سيملاي»: حيثما تجد نصاً يستعمله بعض الجماعات لتبرير آرائهم، ستجد الرفض لجانبه. يعودون ليطلبوا منه: ماذا تعني العبارة المكتوبة: **[لنصنع الإنسان على صورتنا، كمثالنا]** (التكوين 1، 26). يجيب: اقرأوا ما يلي: لم يقل: «وخلق الآلهة الإنسان على صورتهم»، لكن: «وخلق الله الإنسان على صورته وكمثاله»، عندما تفرقوا، قال له تلامذته: «لقد أبعدتهم بمسافة قصبة. بالنسبة لنا، بماذا ستجيب؟» كرَّر القول: خلق الله آدم من تراب الأرض، ثم خُلقت حواء من آدم. من الآن وصاعداً سيكون «على صورتنا وكمثالنا»، وهذا يعني أن الإنسان لا يمكن أن يأتي إلى الوجود دون المرأة، ولا المرأة دون الرجل، ولا أي واحد منهم دون الخالق (الشيخنا).

عادوا وسألوه: «ماذا تعني ما هو مكتوب القادر، إله الآلهة الأزلي، القدوس؟: **[الرب هو الإله القادر إنه هو يعلَمُ وإسرائيل سيعلمون إن كان بتمرّدٍ أو عصيان على الرب فلا يُنجِّنا في هذا اليوم]** (يشوع 22، 22)، (النص العبري هنا له ثلاث دلائل على الإله، بينما المسيحية يفهمون كأن الثلاثة واحد)».

أجابهم: «ليس مكتوباً: (العالِمْ)، لكن (القديس)». بعد تفرُّق الأقليات قال

تلامذته: «لقد أبعدتُهم مسافة قصبة». وبماذا تجيبنا أنت؟ ـ التعابير الثلاثة اسم إلهي، تماماً مثلما تشير إلى الملك بألقاب: باسيليوس، قيصر، مهيب.

إليكم قطعة من شرح، حيث يميِّز فيها الجدل الديني: (يقول القدوس الواحد): [**أنا الآخر ولا إله غيري**] (إشعيا 44، 6) لأنه ليس لي أخوة، و«فيما عداي لا يوجد إله آخر» لأنه ليس لي أولاد. إن عبادة الإله الواحد هي العقيدة التي تميِّز اليهودية عن سائر الأديان الموجودة في ذلك الوقت، وقد جاء في التلمود: «من يرفض عبادة الأصنام، يعني أنه يهودي».

3 ـ التجرُدية

إن عقيدة وحدانية الله مثبتة بدقة في العقيدة التي، كما لو أنها ترفض أن يكون لها شكل جسدي. بخصوص العديد من النصوص التوراتية التي تنسب إليه وجود أعضاء جسدية مثل الكائنات البشرية، يقول الحاخامات: «يمكن استعارة بعض التعابير لهذه المخلوقات قصد تسهيل الفهم».

وللمساعدة على استيعاب وجود الله غير الجسدي في الكون، يمكن أن نستقي تشبيهاً في أن الكائن البشري له في ذاته شيء غير جسدي في روحه. كذلك القدوس الواحد الممجد، فإنه يملأ العالم كله، كما تملأ الروح الجسد. بنفس الطريقة التي يبدو فيها القدوس الواحد الممجد! الممجد نقياً، كذلك الروح تبدو نقية طاهرة. وبما أن القدوس الواحد الممجد! الممجد يسكن في مركز العالم، كذلك تكون الروح موجودة في حنايا الجسد الداخلية.

تماماً، كما أن كل واحد يجهل مكان وجود الروح، فلا أحد يعرف مكان وجود القدوس الواحد الممجد!. القديسون أنفسهم الذين يحملون العرش الممجد، لا يعرفون أين هو؛ من أجل هذا يكتبون: [**ثم رفعني الروح فسمعتُ خلفي صوت رعدٍ عظيم أن مباركٌ مجدُ الرب من مكانه**] (حزقيا 3، 12). قد يحصل أن طلب أحدهم من الحاخام «غاماليل» أين يقيم القدوس الواحد الممجد! الممجد؟ يجيب: «لا أعرف شيئاً ـ

هل توجهون لهذا دعاءكم حيث هو؟ وتوجهون إليه الصلاة يومياً دون أن تعرفوا أين هو؟ قال الحاخام «غامالييل»: لقد سألتموني عن واحد تفصلنا عنه مسافة ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة (من وجهة نظرهم يسكن الله في السماء السابعة، والمسافة بين كل سماء حوالى خمسمائة سنة). دعوني أسألكم بدوري: أين يوجد الشيء الذي يرافقكم ليل نهار؟ قولوا لي: أين هو؟ من وجهة نظري عنيت بها روحكم. «أجاب الرجل»: أجهل ذلك. صرخ الحاخام: وماذا بعد ذلك؟ لا يمكن لأحد أن يعلمني عن المكان الذي يشغله شيء هام يلازمكم دائماً، تسألوني عن واحد يوجد على بعد ثلاثة آلاف عام ونصف سيراً على الأقدام ابتداء من هنا!.

حول هذا الوضع قال الرجل: نتصرف بشكل واضح بعبادة ما تلمسه أيدينا وما تشاهده أعيننا. أجابه الحاخام: نعم: يمكنكم رؤية نتائج أعمال أيديكم، غير أنه لا يمكنكم رؤية أنفسكم!. القدوس الواحد الممجد! الممجد يرى أعمالكم، لكنكم غير قادرين على رؤيته (المدراش).

رغم هذا التشديد على تجردية الله، فإن الأدب الحاخامي يحوي الكثير من المقاطع المجسّمة للإله والمُعظِّمة التي تدهش القارئ. يقولون: إن الله يحمل تمائم كثيرة، ويلف جسده بوشاح للصلاة. يوجِّه الصلوات لنفسه، يخصص ثلاث ساعات يومياً لدراسة القوانين والشريعة. يأسف للأخطاء التي ترتكبها مخلوقاته، تظهره وهو يقوم بالأعمال التي ينفذها الكائن البشري على الأرض، والتي ستكون جديرة بالتقدير. يهتم شخصياً بزواج آدم من حواء، يباشر بوظائف الوالد الشرعي لآدم، يجدل ذوائب حواء لتبدو جميلة أمام زوجها. يزور المرضى، يعبر عن تعاطفه وتعاضده مع المفجوعين، ويدفن الموتى.

بعض التفسيرات المعطاة لهذه النصوص، لا يؤمن مؤلفوها بوجود إله جسدي (متجسد) يُنفِّذ فعلاً الأعمال التي ينسبونها إليه. وحسب قول «شيشتر» فإن الأمر متعلق بتجسيد الألوهية، وذلك بإعطائها مزايا بكل رموزها كي يفهمها الناس عامة. أكثر الاحتمالات أن عقيدة التقليد، أوحت هذا التشابه والتماثل. تقليد الله هو مبدأ رئيسي للسلوك البشري في الآداب الحاخامية؛ تنظم الحياة كلها بقوانين دينية مثلما النظام الأخلاقي، في النتيجة: يُمثِّل الله مطيعاً لنفسه للمبادئ التي يريد رؤية الالتزام بها في إسرائيل.

تجد هذه النظرية صيغة واضحة لها في التلمود. إن الصفات المنسوبة للقدوس الواحد الممجد! تختلف عن تلك الممنوحة للكائن البشري. فالكائن البشري يعلّم الآخرين ما عليهم فعله، غير أنه يمكن أن لا يمارس ذلك. الأمر مختلف بالنسبة للقدوس الواحد الممجد! مهما فعل، فإنه يأمر إسرائيل بالتنفيذ.

4 ـ الموجود في كل مكان

نظراً لعدم طبيعته المادية، الله موجود في كل مكان. نظرتنا إليه كجسم فهو متمركز في السماء؛ وبالنسبة للروح فهو في اللامتناهي، لا يعني الفضاء أي شيء. «هل الأمر يتعلق بملكٍ دنيوي؟ عندما يكون في غرفة نومه لا يمكن أن يتواجد في غرفة الحضور» لكن القدوس الواحد الممجد! الممجد! يملأ الفضاءات العلوية والسفلية كما قيل: «جلاله فوق السماوات والأرض» (مزمور 148، 13). وفي ذات الوقت أيضاً: أليس حقاً أني مالئ السماء والأرض؟ [**أيستخفي إنسانٌ في الخفايا وأنا لا أراه يقول الرب. ألست مالئ السموات والأرض يقول الرب**] (نبوءة إرميا 23، 24).

يشار عادة في الأدب الحاخامي إلى الألوهية بكلمة «المكان» (موقع، فسحة). يأتي هذا الاستخدام من العقيدة المصوغة على النحو التالي: القدوس الواحد الممجد! مكانه في عالمه، لكن عالمه ليس مكانه (التكوين). بمعنى: أنه يعانق الفضاء، لكن الفضاء غير قادر على استيعابه.

تُظهِر الحكاية التالية بشكل واضح، الحضور الكلي للإله:

«كان أحد الوثنيين يملك سفينة للركاب عائمة على وجه الماء. وكان بين المسافرين طفل يهودي. وفجأة هبَّت عاصفة هوجاء. أمسك الوثنيون بأصنامهم وتضرعوا إليهم، ولكن عبثاً. وعندما وجدوا عدم استجابة دعائهم، قالوا للصبي: تضرع إلى ربك، لقد سمعنا أنه يستجيب لدعاء المستغيث به، وأنه قادر على فعل كل شيء». نهض الصبي على الفور، وتوجه من أعماق قلبه إلى الله الذي أصغى لصلاته، وهدأت العاصفة وسكن البحر. وعندما نزلوا إلى اليابسة، وتفرق المسافرون لشراء بعض حاجاتهم قالوا

للطفل: ألا تريد شراء بعض الحاجات؟ أجابهم: ماذا تريدون أن يشتري غريب فقير مثلي؟ غريب مسكين! صرخوا بأعلى أصواتهم: «إنما نحن المساكين الغرباء». بعضنا آلهته في بابل، وآخرون آلهتهم في روما، والباقون يحملون آلهتهم بين أذرعهم، لكنهم لا يحصلون منها على أي امتياز. أما أنت فحيثما تذهب يكون إلهك معك!.

يُروى أيضاً أن وثنياً سأل حاخاماً: لماذا كلَّم إلهكم موسى، وأسمعه صوته من وسط العليقة (شجرة العليق)؟ أجاب: نعلم أنه لا يوجد مكان في العالم إلا والإله حاضر فيه حتى لو كان دغلاً صغيراً.. قد يكون ذلك قول الله نفسه: في أي مكان تجد فيه أقدام الإنسان، فأنا موجود هناك.

إليكم برهاناً تلمودياً عن الوجود الإلهي في كل مكان:

«إن رسل الله لا يشبهون رسل البشر. رسل البشر مجبرون بالعودة من مهماتهم وتقديم تقرير عن أعمالهم لرؤسائهم. لكن رسل الله يعودون للمكان الذي أرسلوا منه. لقد كُتب: [**أزيل البروق فتنطلق وتقول لك نحن لديك**] (أيوب 38، 35)، وهل يقول له: (ها أنذا؟ ولا يقول: هل يعودون؟ لكن أينطلقون ويقولون؟ لأنه حيثما ذهبوا يكونون بحضور الله». نستخلص من ذلك أن «الشيخينا» (سلطة الله) موجودة في كل مكان.

كيف يمكن لله أن يوجد في كل مكان وفي كل الوقت؟ أجوبة متنوعة على هذا السؤال: والمشكلة تبدو محلولة بهذه المقارنة: يمكن مقارنة هذا الوجود بكهف واقع على شاطئ البحر، تندفع الأمواج لداخله، الكهف يمتلئ بالماء بينما مياه البحر لم تنقص. بنفس الطريقة خيمة الحضور بالتكليف كانت مليئة بوهج «الشيخينا» التي لم ينقص ما تبقى منها في الكون.

حلول أخرى تظهر في القصص التالية: طلب سامرائي من الحاخام «مائير»، كيف يمكن قبول هذا النص من التوراة نبوءة إرميا (23، 24) [ألستُ مالئ السماوات والأرض؟]. ألم يتكلم مع موسى بين جناحي الفلك؟ رجاه الحاخام بإحضار مرآة كبيرة وقال له: «انظر صورتك»، لقد بدت أكبر من الحجم الطبيعي. ثم طلب منه إحضار مرآة صغيرة ودعاه لفعل الشيء نفسه، فشاهد صورة أصغر من الطبيعية. عندها استأنف الحاخام «مائير» كلامه قائلاً: «أنت الصغير الميّت، يمكنك تبديل شكلك حسب رغبتك، فكم بالأحرى السلطة الكبيرة التي تتكلم عنها والتي تدير العالم!.

(سفر التكوين 4، 4، R). وأوضح حاخام آخر: «أحياناً يصعب على الكون احتواء مجد الله، وأحياناً يتحدث عن إنسان من خلال شعر رأسه».

قال أحد الهراطقة للحاخام «غماليل»: تؤكدون أنه حيثما اجتمع عشرة رجال للعبادة تكون «الشيخينا» بينهم، فكم يبلغ عدد (الشيخينا)؟ نادى الحاخام «جماليل» على خادمه الهرطقي وضربه بملعقة. «لماذا تضربه»؟ لأن الشمس دخلت بيت ملحد. وتابع الحاخام القول: «إذا كانت الشمس التي ليست سوى واحدة من مليون من عدد لا يحصى من خدم الله قادرة على أن توجد في كل مكان في العالم، فكم بالأحرى لروح الله «الشيخينا» أن تتسع الكون بكامله!».

الإلحاح على فكرة وجود الله في كل مكان، يهدف إلى نقل الحقيقة الرائعة للفرد: «أنا دائماً تحت مراقبة الله». يقول الحاخام (يهوذا): «عندما تفكر في هذه الأشياء، لن تسقط أبداً في إمبراطورية الخطيئة. اعرف ما هو فوقك: عينٌ ترى، أذن تسمع، واعلم أن هناك سجلاً مكتوباً لأفعالك وأعمالك» (آبوت 1، 2).

وبعبارات أدق، تعود هذه العقيدة إلى النصح والإرشاد، حيث قال الحاخام «جوخانان زكّاي» إلى تلامذته وهو على فراش الموت: لتتمكن إرادته من جعل مخافة السماء قوية فيكم بالخوف من الجسد والدم. صرخوا من جديد «متينة بهذا القدر!» كرر الحاخام: هكذا أمنيتهم، لأنه كما تعلمون عندما يضمر الإنسان في داخله ضغينة الاعتداء، يقول في قرارة نفسه: «آمل أن لا يراني أحد».

إذن، فالتفكير بأنك تبقى دائماً مراقباً من الله، سيكون ذلك رادعاً قوياً ضد الوقوع في الخطيئة.

إن استحالة الهروب من الوجود الإلهي، يظهر في حديث بين الحاخام «يشوع» وسيدة رومانية مُسنَّة، حيث كانت تقول له: «إلهي أكبر من إلهك، لأنه عندما ظهر إلهك لموسى وسط شجرة العليق الملتهبة، غطى موسى وجهه، لكن عندما رأى الأفعى التي هي إلهي، هرب للإفلات منها». أجاب الحاخام: «عندما ظهر إلهنا إلى موسى وسط شجرة العليق، لم يكن هناك من مكان لموسى أن يهرب إليه، لأن الله في كل مكان، بينما يمكن الرجوع للخلف عدة خطوات للتخلص من الأفعى إلهك!».

5 ـ كلي القدرة «القادر على كل شيء»

من الطبيعي جداً أن يكون الله مفهوماً لدينا بمثابة السلطة المطلقة اللامحدودة. ولذا شاعت مناداته، ووصفه «بالقادر». ويوصي الحاخامات في أوقات حدوث الزلازل والبراكين، وسقوط الشهب، وهبوب العواصف، والبروق والرعود والصواعق بتلاوة هذه الآية المباركة:

«ليتمجد اسمك ولتكن مباركاً أيها العلي إلهنا، ملك الكون، الذي سطوته وسلطانه يملآن العالم».

وبشكل عام يقال أنْ لا حدود للقدرة الإلهية. «المعطيات التي تملكها الكائنات البشرية لا تشبه ما لدى الله. ولا يمكن لكائن بشري قول شيئين في الوقت نفسه؛ القدوس الواحد الممجد، اسمه! كان يسمع دفعة واحدة الوصايا العشر كاملة. ولا يمكن لكائن بشري سماع صوت شخصين في وقت واحد: «القدوس الواحد الممجد! (الممجد!)، ينصت لصراخ جميع الذين يفدون إلى العالم».

هناك مبدأ حاخامي غالباً ما يتكرر وهو: «كل شيء خاضع لسلطان السماء، باستثناء الخوف من السماء»، هذا يدل على أن الله يحدد مصائر الناس، لكنه لا يتوقف إذا خاف من الله أم لا: هذا متروك لاختياره الذاتي.

لم تُطرح المناقشة مطلقاً حول حقيقة العجائب، التي يقوم بها الله «لتكريس وتقديس اسمه الكبير في العالم» (سفر ديترون). لكنه يتسم بالميل نحو تجنب تفسير الأحداث العجائبية كما لو أنه يبتعد عن النظام الطبيعي في الكون، لأن بمقدور هذا إظهار الخلق وكأنه غير كامل. وبالتالي يقال: «إن العجائب المروية في الكتاب المقدس، كانت منظمة مسبقاً منذ بداية العالم».

أثناء الخلق، اتفق الله مع البحر، أنه سيفتح ممراً لأبناء إسرائيل، ليخرجوا فيه مع الشمس والقمر اللذين سيتوقفان بأمر من يشوع مع الغربان التي كانت تغذي إيليا، بالنار التي كانت تحمي أنانياس، موصائيل، عازارياس مع الأسود التي لم تؤذ دانيال، والحوت الذي كان يلتهم يونان.

النظرية نفسها تشرح النص التالي: «عشرة أشياء خُلقت في مساء السبت (الأول)

في الغسق: فوهة الأرض (سفر الأعداد) (66، 32)، فتحة البئر (الأعداد 21، 16)، فم الأتان (الأعداد 22، 28)، قوس القزح، المنّ، العضو الذكري (الخروج 4، 17)، الصخور، حروف الكتابة، الكتابة، الألواح الحجرية (آبوت 9، 5).

بعد أن دمَّر الرومان الهيكل، والمصائب التي تعرض لها اليهود، أصابت بعضهم الشكوك بالسلطة الإلهية المطلقة. إنه شعور مماثل مسبب لهذا الكلام:

«إذا كان هو السيد لكل الأشياء، كما هو سيدنا، سنخدمه، وإلا سوف لن نخدمه مطلقاً. إذا استطاع تأمين حاجاتنا سوف نخدمه، وإلا سوف لن نخدمه أبداً» (خروج 17، 7).

الشهادة التالية من قطعة تدافع عن عقيدة القدرة الإلهية تفيض بوضوح عن عزيمة إثبات العقيدة: يُروى أنه عندما قتل تراجان أخويه جوليان وبابوس في لوديسيا، قال لهما: «إذا كنتما تنتميان إلى شعب «أنانياس ميزائيل» وآزارياس ليأتي ربكما ويخلصكما من يدي مثلما خلصهما من أيدي نبوخذ نصر». أجابوا: «كان هؤلاء الرجال صالحين ويستحقون أن تأتي الأعجوبة لصالحهم. لكن أنت، شخصية قبيحة لا تستحق أبداً أن تُخدم كوسيط لأعجوبة. بالنسبة لنا لقد حكم الله.علينا بالموت إذا لم تقتلنا، فالله يملك عدداً كافياً من الدببة، والفهود، والأسود ليهاجمونا ويقتلونا؛ إذا أوقعنا بين يديك، فذلك لكي نثأر لدمنا منك».

هل سمعت يوماً أن الشمس كانت مريضة، غير قادرة على الشروق والقيام بعملها؟ بالنسبة لخدم الله، فلن نستطيع منح عدم الجاهزية هذه والتي تؤدي إلى فقدان القوة.

كيف سنرجع ذلك إليه (إلى الله)؟ يمكن القول إنه أشبه بمحارب استقر في مدينة، اعتمد سكانها عليه؛ يقولون أيضاً، إنه ما دام معنا فلن يجرؤ جيش في العالم على مهاجمتنا. حصل أن جيوشاً قصدت المدينة، لكن ما أن لمحت المحارب حتى شرعت بالهرب. لكن في إحدى المرات شنَّت الجيوش الهجوم، فقال المحارب: يدي اليمنى مصابة بالضعف والوهن. لكن الأمر مختلف كلياً بالنسبة للقدوس الواحد (الممجد): **[إن يد الرب لا تقصُرُ عن الخلاص وأذنه لا تثقل عن السماع (إشعيا 59، 1)].**

«يُطلب من يهود روما القدماء: إذا كان لا يروق لإلهكم عبادة الأصنام، لماذا لا يضع حدّاً لها؟ ـ أجابوا: كان في نيّته فعل ذلك، إذا كان عبدة الأصنام يعبدون أشياء

يمكن للعالم الاستغناء عنها، لكنهم يعبدون الشمس، القمر، النجوم. هل يصل الأمر بنا إلى حد تدمير الكون بسبب هؤلاء الناس الحمقى؟ قالوا له: إذا كان الأمر كذلك فليدمر كل ما ليس له فائدة في هذا العالم، وليترك الهام منها في هذه الأجسام الصغيرة. لأنهم سيقولون عنها بأنها ألوهيات كثيرة لم تتعرض لنفس مصير الأخريات».

6 ـ العالِمُ بكل شيء

مثل مقدرة الله، كذلك معرفته فهي بلا حدود. تأخذ العقيدة التوراتية هذا العالم بكل شيء تطوراً وتفصيلاً لا حدود لهما في تعليم الحاخامات.

«كل من يرى جمعاً عليه ترتيل هذه النعمة الربانية: تبارك هذا العاقل الحكيم بأسراره المدبَّرة. كل وجه يختلف عن الوجوه الأخرى؛ كذلك كلُّ الأرواح مختلفة، لكن الله يعرفها جميعاً».

كل شيء مكشوف، معروفٍ أمامه، وكما قيل [**هو كاشف الأعماق والخفايا وعالم ما في الظلمة وعنده يحلُّ النور**] (دانيال 2، 22). لا يخفى شيء عن ناظريه. التوضيحات حول ذلك كثيرة. كما يحصل للمهندس المعماري الذي يشيد منازل مدينة مع شقق داخلها، الأقبية، الأقنية. وفيما بعد عُيِّن جابياً للضرائب. كان المواطنون قد أخفوا ثرواتهم داخل مخابئ سرية. حينئذ قال لهم: «أنا من شيَّد كل هذا؛ كيف تحجبون عني أموالكم؟».

كذلك قيل: [**ويلٌ للذين يتعمقون ليكتموا عن الرب مشورتهم فأعماهم في الظلام وهم يقولون من يرانا ومن يعلم بنا**] (إشعيا 29، 15).

مع أن الله مستقرٌ في السماوات، فإن عينيه تراقبان وتتفحصان أبناء البشر. إليكم حكمة: ملك يملك بستاناً، أشاد فيه برجاً عالياً، وطلب من العمال العمل في البستان. الذين يعملون بجد وإخلاص سيتقاضون راتباً كاملاً؛ أما المهملون فسيعاقبون (سفر الخروج 2، 2، R). يمكن للملك مراقبة هؤلاء العمال من أعالي برجه، ويحكم على

نوعية عملهم، كذلك يراقب الله أعمال خلقه.

الميزة الفائقة الطبيعة للعلم الإلهي، يُعبر عنها بقوة في مجمل الأحكام التالية: قبل أن يتكون أي كائن في أحشاء أمه، فإن فكره يتوضح لدى الله (تكوين 9،3، R). وقبل أن يُخلق الفكر في قلب الإنسان، يكون ذلك قد توضَّح عند الله. وقبل أن ينطق الإنسان، فالله يعرف ما في داخله (قلبه).

لا ينفصم عن العلم بكل شيء، إنه المعرفة السبقية.الله يعرف إلى جانب كل ما هو موجود، كل ما وُجد وكل ما سيوجد «كل شيء مُقدَّر» كان ذلك شعار الحاخام آكيبا. يُشكل جزءاً مكملاً للعقيدة التلمودية. كل شيء معروف مسبقاً لدى القدوس الواحد الممجد! (الممجد) (ناخوما شيلاخ). «الله يعلم ما سيأتي»، في مقاطع عدَّة يُقدَّم الله متنبئاً عن هذا الحدث وذاك، وما سيأتي، قبل حدوثه بوقت طويل. إليكم بعض الأمثلة: «لو أن القدوس الواحد الممجد! لم يتنبأ (عن الخلق) أنه بعد ست وثلاثين جيلاً ستقبل إسرائيل «التوراة» لما كتب الجمل التالية: «وصية إلى أبناء إسرائيل...» أو«قل لأبناء إسرائيل...» (تكوين 4، 1، R).

«خُلقت الشمس كي تنير العالم. عندها لماذا خلق القمر؟ هذا يعلِّمنا أن القدوس الواحد (الممجد) قد تنبأ بأنهم سيجعلون من هذا الكوكب أحد آلهتهم. وأوضح أيضاً: أنه لو كان هناك كوكبان يسيران باتجاهين متعاكسين فإن عبدة الأصنام سيؤلهونهما، وكم من المرات فعلوا ذلك لو لم يكن اله واحد!».

لماذا كانت رواية الاثني عشر جاسوساً مسبوقة فوراً برواية أن موسى اغتاب مريم، كان معلوماً للقدوس الواحد (الممجد)، أن الجواسيس سيغتابون البلاد؛ وحتى لا يتمكنوا من البرهان على جهلهم للعقوبة التي تنتظر المغتابين، وضع الله الحدثين جنباً إلى جنب، فصدر تعريف كل إنسان بماهية العقاب. من النظر في العجائب المطروحة أعلاه، ينتج حسب رأي الحاخامات، أن الله تنبأ بتاريخ العالم في اللحظة التي خلقه فيها. هذا التعليم مُعلنٌ بعبارات واضحة. «منذ بدء العالم، قدَّر القدوس الواحد (الممجد) الأعمال والمآثر التي يقوم بها الصالحون والأشرار» (التكوين 2، 5، R). سنرى فيما بعد كيف شهدت هذه العقيدة فكرة الحكم العادل.

حصل أنه كان على الحاخامات أن يدافعوا ضد الانتقادات المعادية. هذا ناجم عن الحوار التالي بين حاخام وملحد:

ـ هل أنتم متأكدون من أن الله يتنبأ بما سيحدث؟

ـ طبعاً.

ـ إذن، كيف يمكن كتابة الكتاب المقدس؟ ندم الرب لأنه خلق الإنسان على الأرض، وحزن قلبه لذلك.

ـ هل لديك ابن؟

ـ نعم.

ـ ماذا فعلت عندما وُلد؟

ـ فرحت وفرح الآخرون.

ـ هل تعلم أن سيأتي يوم يموت فيه ابنك؟

ـ كلا: إننا نفرح يوم الفرح فقط، كما أننا سنحزن يوم الحداد فقط.

ـ حسنٌ: هكذا كان القدوس الواحد (الممجد). قضى الله سبعة أيام حداداً على مصير عالمه قبل أن يرسل الطوفان (التكوين 27، 4، R).

7 ـ الخلود

بالنسبة لله، الزمن لا يعني شيئاً. فهو قادر على خلق العالم، وبالتالي حريٌّ به أن يكون أول العالم، وآخره، مُكملاً الوجود، عندما لم يكن هذا الجزء موجوداً في الماضي. «كل الأشياء تفنى (تزول)، لكنك أنت باقٍ» (لاوي 19، 2). هكذا يتكلم أحد الحاخاميين متوجهاً إلى الله. عن طريق تبديل الكلمات في «بلتيكا» بمعنى «لا يوجد أحد سواك» إلى «لا يوجد إله آخر»، كان ينطق في «بالّوتيكا» للوصول إلى المعنى: «لا أحد يُبقيك خالداً». حيث هذا التفسير: «رموز الإنسان مختلفة عن رموز الله» الإنسان يحيا بأعماله، لكن القدوس الواحد (الممجد) يحيا لأعماله.

«سمة الله هي الحقيقة»، عبارة جوهرية مصقولة نصَّت عليها حكمة حاخامية.

نلاحظ بهذا الخصوص أن الأحرف غير صائته بالعبرية ، HMT في الحقيقة إنها

الأولى والوسطى والأخيرة من الألفبائية؛ تدل على أن الله هو الأول والوسط والأخير، في الزمن (تكوين 2، 18، R). كثيراً ما يُلاحظ التناقض بين «كائن بشري موجود اليوم، وغداً في القبر، ورب الأرباب الذي عاش وخلد للأبد». هكذا يتم بالتالي شرح وجهين لكلمات الوصايا.

رافعاً وجهي (ليس لك آلهة أخرى أمامي): القصد هو التعليم، بما أنني أحيا وأبقى أزلياً، لك ولمن سيأتي بعدك حتى نهاية العالم، محرَّم عليك عبادة الأصنام.

إليكم الحكمة: ذات يوم، حضر ملك إلى مدينة، فأسرع سكانها لاستقباله وتحيته. شعر الملك بفرح عارم، وخاطبهم قائلاً: غداً سأبني لكم أنواعاً كثيرة من الحمامات. غداً سأزودكم بالماء.

ثم خلد إلى النوم ولم يره أحد بعد ذلك. أين هو، وأين وعده؟ القدوس الواحد (الممجد) لا يفعل هكذا، لأنه إله حي وسلطان للأبد (سفر الأحبار 26، 1، R).

حكمة أخرى تظهر مشهد شخص أضاع ابنه وشرع في البحث عنه وسط المقبرة.

رآه حكيم فسأله: الولد الذي أضعته هو حي أم ميت؟ ـ إنه حي ـ إذن، ألست بعيداً عن المنطق! هل تفتش عن الأحياء وسط القبور أم بالعكس؟ الأحياء يهتمون عادة بالأموات، وليس العكس!. هكذا، بالنسبة لله، الذي عاش ويخلد للأبد كما هو مكتوب: «أما الرب فهو الإله الحق؛ الإله الحي والملك الأزلي» (إرميا 10، 10). لكن آلهة عبدة الأصنام كائنات لا حياة فيها. لنهملها إذن، ولنعبد من هو حي للابد، ولا نعبد أجساماً وكائنات لا حياة فيها.

يلاحظ في هذا التسلسل للأفكار، شرح للآية السادسة سفر التكوين: «أُبيدَ الأعداءُ؛ ودمَّروا للأبد»: هذا الشرح «الأعداء أبيدوا؛ وبناؤهم قائم للأبد» (جاء في المدراش أن هذا الدمار لم يكن للممالك بل للمدن والقصور). مثال: قسطنطين بنى القسطنطينية، أبولوس بنى أبولي (القراءة الصحيحة أن فيليب بنى مدينة فيليبي في مكدونيا)، رومولوس بنى مدينة روما، والكسندر الإسكندرية، وسلوقس سلوقية. لقد اندثر البناؤون المؤسسون، لكن المدن التي أشادوها ما زالت باقية. أما أنت (يا الله!)، فإن المدن التي دمَّرتها، ماتت واختفى ذكرها. ينطبق هذا على القدس، وصهيون. كما كُتب: [**قد صارت مدن قدسك قفراً. صهيون صارت قفراً وأورشليم استوحشت**] (إشعيا 64، 10). لكن الرب يبقى على عرشه للأبد.

القدوس الواحد (الممجد) سيعيد بناءها. لم يكن (بناة المدن) إلا رجالاً؛ انتهوا من البناء، وأصبحوا مفصولين؛ كذلك المدن التي بنوها ستدمر للأبد. غير أن الرب الموجود سيخلد للأبد، «يحكم على عرشه للأبد، ويستوي على عرشه للدينونة». سيعيد بناء أورشليم، وصهيون، ومدن يهوذا، كما قيل: «في ذلك الوقت كانت أورشليم تسمى عرش الرب (المدراش، النص العبري)».

8 ـ العدل والرحمة

كان الحبر العبري الأول يتوجه للألوهية كما لو أنها تحكم العالم (التكوين 18، 25). [أديانُ كلِّ الأرضِ لا يدينُ بالعدل] التلمود له النظرة نفسها. خالق العالم والجنس البشري، الله يطلب الله الحساب لخليقته وطريقة حياتهم.

أحكامه عادلة دائماً. لا إجحاف، ولا نسيان، أو مراعاة لأي إنسان، أو فساد.

قال الحاخام «رابين زاكاي» وهو على فراش الموت إلى تلاميذه إنه سيُحاكم من قبل واحد لا يمكن كسب رضاه بالكلام المعسول أو رشوته بالمال. لا فتوى على قراراته. وقالت سيدة رومانية مسنة لأحد الحاخامات: «إلهكم يجذب إليه من يريد، دون اعتبار للعدالة». وضع الحاخام أمامها سلة تين، حيث بدأت بتناول أفضله لتأكله. عندئذ قال لها: «تعرفين كيف تختارين التين الجيد، وتدَّعين أنه هو، القدوس الواحد (الممجد) غير قادر على ذلك، أولئك الذين يجذبهم إليه، كانت أعمالهم صالحة».

وقد ظهر في الأدب الحاخامي جدل دائم بين عدالة الله ورحمته وشفقته. لا تجد فيه أي مقطع يعالج على وجه التقريب صفته كقاضٍ، حيث لا يلمح إلى وجود الشفقة.

الاسم الإلهي الذي نعني به «الله»، الدلالة عليه كما اعتقد تحت شكل المحاكمة التي يمارسها، بينما الرمز الرباعي JHVH «الرب»، الأزلي، يعبِّر عن عطفه ورحمته (التكوين 33، 3).

وجاء مزج JHVH الألوهية في سفر التكوين 2، 4: [**هذه مبادئُ السماوات والأرض إذ خُلقَت، يوم صنع الربُّ الإله حيث الله الأزلي خلق السماوات**

والأرض]، كانت مشروحة على النحو التالي: «يمكن إقامة مقارنة. الملك الذي لديه أوانٍ فارغة يقول: لو أنني سكبت فيها الماء الساخن لتمددت، ولو ملأتها بالماء البارد لتقلصت». ماذا فعل هذا الملك؟ لقد مزج الماء الحار مع البارد قبل أن يصب المزيج في آنيته، التي لن تصاب بضرر. القدوس الواحد «الممجد» يعمل الشيء نفسه. **[إذا خلقتُ العالم بالرحمة فقط، فإن الخطايا ستتدفق من جميع الجهات، وإذا ما خلقته بعدالة وحيدة، فكيف يستمر العالم؟ سأخلقه إذن مستخدماً هاتين الصفتين ليتمكن من الاستمرار]** (التكوين 12، 15).

بينما، إذا كان الجنس البشري مخولاً بالمجيء للوجود، فهذا لأنه في الخلق فقط، كانت الرحمة والرأفة مسيطرتان عندما كان القدوس الواحد (الممجد) على وشك خلق أول إنسان، فقد ارتضى أن يأتي للوجود الصالح، والشرير على قدم المساواة. قال: إذا ما خلقته، فإن الأشرار سيخرجون منه، وإذا لم أخلقه فكيف سيكون الصالحون مدانين له؟ ماذا عمل إذن؟ هل أبعد الأشرار من أمامه، وضمّ إليه صفة الرحمة وخلق الإنسان؟ (التكوين 8، 4، R).

إذا كانت الرحمة هي السبب الحاسم في الخلق، فإن انتصاره على العدالة الصارمة، يفسر لماذا استمر العالم في حضور الشر. كانت هناك أجيال بين آدم ونوح، ليُعرِّف بمقدار صبر الله، لدى رؤيتها جميعها مستمرة في آثامها قبل أن تبتلعها أمواج الطوفان».

عندما وجّه إبراهيم دعاءه إلى الله: «من يحاكم الأرض هل يستخدم العدالة؟»، هذا يعني: «إذا رغبت في استمرار العالم فيجب الاكتفاء بالعدالة الصارمة، وإذا تمسكت بالعدالة المطلقة، فإن العالم لن يكون قادراً على الاستمرار». (التكوين 39، 6، R).

العبارة العبرية التي تدل على رحابة الصدر أو الحلم الإلهي ليست «اريخ أف **erekh aph**»، بل «اريخ أبايم **erekh apayim**»، الكلمة الثانية تعطي شكل المناظرة. كانت توضح أن الله ليس صبوراً تجاه العادل المنصف فقط، بل أيضاً تجاه الشرير الخبيث.

جاء في التوراة، أنه عندما سلَّم الله (وصاياه) إلى موسى، فإن الأخير «خرَّ على الأرض ساجداً» (سفر الخروج 34، 8). حول مسألة «أي شعور سيطر عليه في تلك اللحظة؟» الجواب: الاعتراف بحلم ورحابة صدر الله.

كان يُفسَّر الانتصار الظاهري للشر على الخير في العالم، كمظهر لرحمته ورأفته. يصف موسى الله بـ«الكبير، القادر والرهيب» [**لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار الرهيب الذي لا يحابي الوجوه ولا يقبل رشوة**] (دوتيرون 10، 17). يتكلم «إرميا» عن «الله القوي الجبار» [**أنت الصانع رحمة إلى الألوف والجاعل جزاء إثم الآباء في أحضان بنيهم من بعدهم الإله العظيم الجبار الذي الرب القدير اسمه**] (إرميا 32، 18)، يتساءل: «أين أعماله الرهيبة، في حين يتجرأ الوثنيون على اللهو في قدسه»!. بينما يتوجه دانيال فقط إلى «الله القوي الجبار» ويقول: أين أعماله الدالة على جبروته، في وقت يجعل الوثنيون من أبنائه عبيداً لهم!. جاءهم بعد ذلك رجال الكنيس الكبير الذين أعادوا له جميع وصاياه. قالوا: «خلافاً (للمظاهر)، فإن أكبر إظهار لجبروته على قهر غضبه حيال الخبثاء الأشرار، هو الصبر الواسع، والتعبير عن أعماله المرعبة، لأنه بدون هذه كيف يمكن لأمة بسيطة الاستمرار على هذا المنوال».

يقال: «إن ميزة الرحمة تفوق خمسمائة مرة ميزة العقاب (العدل)». توصَّلنا إلى هذا الاستنتاج بملاحظة ما يخص العقاب، يصرِّح الله بأنه «يُعاقب ظلم الآباء للأبناء لغاية الجيلين الثالث والرابع» (خروج 20، 5): [**لا تسجد لهنّ، ولا تعبدهنّ لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الثالث والرابع**]، لكنه يقول فيما يتعلق بالرحمة: يبرهن عن رحمته حتى الجيل الثالث (الآلاف مُترجمة عن العبرية آلافيم حرفياً الآلاف ألفين على الأقل). ينتج من ذلك إذا ما أصاب الثواب أربعة أجيال على أبعد تقدير، فإن الرحمة تمتد لتشمل على الأقل ألفي جيل.

«حتى وهو غاضب يتذكر برحمته» يوضح التلمود: ويظهر لنا حقاً أنه يرجو نفسه بجعل رحمته تسيطر على غضبه. حول هذه الفكرة يتابع تأكيد جرأته: يذكر الحاخام «جوخانان» على لسان «ر. يشوع»: من أين تعرف أن القدوس الواحد (الممجد) يمارس طقوس الصلاة؟ لقد كُتِبَ:

[**آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرِّحهم في بيت صلاتي وتكون مُحرقاتهم وذبائحهم مرضية على مذبحي لأن بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الشعوب**] (إشعيا 56، 7). ليس صلواتهم فقط بل صلاتي؛ علينا القبول بأن القدوس الواحد (الممجد) يصلي. كيف يصلي؟ ينقل زوتراب عن طوبيا: «أنه تستطيع إرادتي السيطرة على

غضبي برحمتي وعطفي، من أجل أن أستطيع تطبيق موقفي عليها حيال أبنائي، والتدخل لمصلحتهم، دون الابتعاد عن العدالة الصارمة».

إليكم المعلومة التالية: يقول إسماعيل اليشع: «دخلت ذات مرة قدس الأقداس لأقدِّم البخور وسط الهيكل، رأيت (أوكترياك) إله الجيوش جالس على عرش مرتفع (يعطي هذا التعبير عادة للإله الجالس على العرش، وإلى الله»).

قال لي: «إسماعيل بني، باركني». أجبت: لتقوى إرادتك على غيظك بالعطف والرحمة، لتستطيع بسط هذه الصفة لمصلحة أبنائك، دون تجاوز حدود العدالة الصارمة.

توضيح آخر يصب في نفس الاتجاه: «يستوي الله على عرشه كل يوم لمدة ثلاث ساعات ليدين العالم كله، وعندما يرى أن العالم يستحق التدمير لتفشي الشر، ينهض عن عرش العدالة ويجلس على عرش الرحمة والعطف».

كثيراً ما تستخدم العقيدة النبوية هذا القول على لسان الله: [**قل لهم حيٌّ أنا يقول السيد الرب ليس مرضاتي بموت المنافق لكن بتوبة عن طرقه فيحيا**] (حرقيا 33، 11). هذه هي القاعدة النظرية للتوبة والندامة التي تحتل مكاناً هاماً ورئيسياً في الفكر الحاخامي. لا يطبق الشيء نفسه فيما يتعلق بمزايا القدوس الواحد (الممجد)، كما مرايا الإنسان. عندما يكون الإنسان مهزوماً أو مغلوباً، فإنه يحزن لذلك وعندما يكون القدوس الواحد (الممجد) مهزوماً، فباستطاعته تجاوز غضبه ويمنح الرحمة، فيفرح لذلك.

يتجلى العطف الإلهي بالحماسة اللامتناهية لتخليص الإنسان من العقاب. بالرغم من شهادة مئة وتسعة وتسعين ملاكاً على خطيئة رجل واحد، وأن واحداً فقط يدافع عنه، فإن القدوس الواحد (الممجد) يجعل كفة الميزان تميل لصالحه. وبينما هو مرغم بدافع العدالة على معاقبة المسيئين كما يجب، فإنه لا يفعل ذلك إلا بالحزن والأسف. نجد تعبيراً جميلاً لهذه المشاعر في الأسطورة التي تقول بأنه عندما كان البحر الأحمر يبتلع المصريين، أعرب الملائكة الحراس عن الرغبة في إهداء الله نشيد النصر. اعترض الله على ذلك بالقول: «لقد خرج العالم من يدي وهو غارق، وتريدونني أن أسمع نشيداً!».

كذلك، مهما بشروا بالإيمان بالله حاكم العالم، فإن الحاخامات يحبون مناداته دائماً بالرحمن، ويؤكدون أن (العالم) محكوم بالرحمة والنعمة.

9 ـ الأبوة

إن القرابة في جميع صفحات التلمود التي بين الخالق وخلقه، مصممة على صورة الآب وأبنائه «الآب الذي هو في السماء»، بهذه العبارة نتوجه دائماً بكلامنا إليه. على سبيل المثال، إليكم عظة حاخامية: «كن قوياً مثل الفهد، متألقاً كالنسر، سريعاً كالغزال، جباراً كالأسد، كي تنفذ إرادة أبيك الذي في السماء».

إن وجود هذه العلاقة الحميمة، وإظهارها للإنسان، تعتبر بمثابة علاقة مميزة للرحمة الإلهية. الإسرائيليون محبوبون، لأنهم سمّوا بأبناء الحاضر في كل مكان، لكن كان بمقتضى حب خاص أعلمهم بذلك، كما كُتب:

[**أنتم بنو الربِّ إلهُكم**] (تثنية 14، 1). مع أن هذا المثل المرتكز على نص توراتي، فقد حُدِّد خصيصاً لينطبق على إسرائيل، حيث إن أبوة الله لا تقتصر على شعب واحد، بل تمتد لتشمل كل الجنس البشري.

اختلفت الآراء حول معرفة فيما إذا كانت هذه الحظوة الثمينة معطاة للإنسان بشروط أو بدون شروط. إليكم شرح الحاخام «جودا» للنص: «أنتم بنو الرب إلهكم الأزلي»: [«ما دمتم تتبعون سلوك أبناء يقومون بواجبهم، فإنكم أبناء الله تدعون، لكن عندما تحيدون عن هذا السلوك، فلن تحملوا أبداً اسم أبناء الله». وبالمقابل، أوضح الحاخام «مئير» أن هذا الاسم ينطبق في حالة أو بأخرى، داعماً هذا الطرح بملاحظة أنه «تُقرأ في الكتاب المقدس» جمل كالتالي: [**إن شعبي سفيه. إنهم يعرفونني. إنما هم بنون حمقى لا فهم لهم هم حكماء للشر ولا دراية لهم للخير**] (إرميا 4، 22) هذا يدل على أنهم غير جديرين بحمل لقب الأبناء [**أحجبُ وجهي عنهم وأرى ماذا تكون أخرتهم لأنهم جيل متقلِّب بنون لا أمانة فيهم**]. (تثنية 32، 20) عندما يتوجه الله إلى شعب إسرائيل، مخوَّلاً بهذه العبارات.

هذا شأن خاص عندما يرجو الشخص المدعو ليعتبر نفسه كأنه يوجه هذه الالتماسات لشخص متعلق به بصفته كأب. إنه يتذكر الأتقياء المؤمنين، الذين كانت لديهم فيما مضى عادة تكريس ساعة واحدة للتأمل الصامت، ومن ثمَّ يقدِّمون صلواتهم رافعين، قلوبهم لأبيهم السماوي.

صلاة واحدة قديمة جداً في الطقس العبري تبدأ بهذه الكلمات: «أيها الرب إلهنا، أحببتنا حباً كبيراً؛ أظهر لنا عطفاً كبيراً وواسعاً. أبانا، ملكنا، رحمة بآبائنا الذين اتكلوا عليك، والذين علمتهم وصايا الحياة، كن رحوماً نحونا وعلّمنا».

صلاة أخرى يتلوها الحاخام «آخيبا» في حالة الحقد الدفين فيقول: «إلهنا، ملكنا، اخطأنا قدّامك. أبانا، ملكنا، ليس لنا ملك سواك. أبانا، ملكنا، ساعدنا وارحمنا!».

يفهم عادة، كم كانت فكرة الألوهية مألوفة لدى اليهودية التلمودية، وبخاصة عندما نلاحظ المكان الذي تشغله مرات كثيرة في حكم وأمثال الحاخامات. لشرح الفروقات بين هذه الكلمات «أسلُك أمامي»، عبارة وجّهها الله إلى إبراهيم (تكوين 17، 1)، وعبارة أخرى خاصة بـ (نوح): «سار مع الله» (تكوين 6، 9)، مشهد يصور أميراً له ولدان الأول راشد والثاني صغير، قال للصغير: «سرْ معي» وللراشد «سر أمامي» (تكوين 30، 10).

نقرأ في سفر الخروج: ملاك الرب الذي كان يتقدم جمع إسرائيل، عاد وسار خلفهم. على هذه العبارة بني المثل الثاني: كان رجل سائراً في الطريق يصحبه ابنه، سمح له بالسير أمامه. وفجأة هبط عليهما قطاع طرق يريدون اختطاف الولد، عندها وضعه الأب خلفه. غير أن ذئباً ظهر في الخلف، فأعاد الأب طفله للأمام ثم هاجمه الذئب وقطاع الطرق دفعة واحدة، عندها احتضن الأب ابنه بين ذراعيه وتابع طريقه. تضرَّر الطفل من حرارة الشمس الحادة، فنشر الأب عليه ثوبه. جاع الطفل، فأطعمه الأب، عطش فأعطاه ليشرب. وهكذا فعلَ الله مع شعب إسرائيل لدى خروجهم من مصر.

مثل آخر، له استيحاء مشابه يقول: بدأ ابن ملك بسلوك طريق سيئة. بعث الملك مربياً مع هذه الرسالة: عُد يا ولدي! لكن ابنه أجابه: بأي وسيلة أعود؟ أنا خجل من المثول أمامك. أرسل له الأب هذا النداء الجديد! هل يخجل الابن من العودة لأبيه؟ لو عدت، ألا يكون ذلك أمام أبيك؟

إن ذروة هذه العقيدة الأبوية، تظهر في تلك التي تعلّم أن الله يساهم في تأهيل الكائن البشري. والذين يساهمون في تكوين الكائن البشري هم ثلاثة:

القدوس الواحد (الممجد)، الأب، والأم، يقدم الأب المادة البيضاء المكوِّنة للعظام، والأظافر، والأعصاب، والدماغ، وبياض العين. ويعود الفضل للأم في تقديم المادة

الحمراء المكوِّنة للجلد، والجسد، والشعر، وحدقة العين. ويعطي القدوس الواحد (الممجد) التنفس، الروح، الملامح، النظر، السمع، الكلام، العقل والذكاء. وبعبارات أخرى، يقوم الأبوان بخلق الشكل الفيزيائي للكائن البشري؛ أما القدرات، وكل ما يشكل الشخصية فإنها هبة من الإله السماوي.

إن أبوة الله تساوي حبه للعائلة البشرية. كل مخلوق هو برهان حي على واقع أن أبا الجميع هو إله الحب. يندرج التعبير الأفضل عن هذه الفكرة في القول المأثور للحاخام عقبة: «الإنسان محبوب لأنه مخلوق على صورة الله، لكن بفضل حب خاص، أُخبر أنه قد خُلق على صورة الله، كما قيل: لأنه كالإنسان على صورة الله».

10 ـ القداسة والكمال

لم تكن فكرة الله بالنسبة للحاخامات أوهاماً فلسفية ميتافيزيقية، بل كانت أساساً للحياة البشرية الصالحة أخلاقياً. كما سبق أن رأينا، أن عبادة الأصنام تعني اللاأخلاقية، الوجود الحقير، المنحط.

بالمقابل فإن الإيمان بالله، كان إلهاماً لبرنامج رفيع للفكر والعمل. سيُظهر فيما بعد أن عقيدة تقليد الله، موجودة في صلب العقيدة التلمودية.

وفي هذا الصدد، فإن العبارة الخاصة التي تميز الألوهية هي «القداسة». فهي تعني الابتعاد عن كل ما يدنِّس، والكمال الإيجابي. يفكر الحاخام اليهودي دائماً بالله ذاكراً «القدوس الواحد (الممجد)»؛ وكل الأسماء التي يمنحها له، وهذا ما يتكرر مرات عدة.

يوضح النص التالي القدسية الإلهية وأهميتها للكائنات البشرية: «يقول القدوس الواحد (الممجد) للإنسان: [**انظر، أنا تقي، مسكين نقي، الروح التي وهبتك إياها نقية. لو أعدتها لي بنفس النقاء عندما وهبتها لك، فيكون ذلك شأناً حسناً، وإلا سأدمرها أمامك**] (سفر أحبار 18، 1).

ولكن عندما يُطبَّق على الله كلمة «قداسة»، فهي تتضمن مفهوماً خاصاً. إنها

قداسة منيعة على كل كائن بشري. في النص (لأن الله قدوس)، والصفة هنا بصيغة الجمع وهذا نشرحه كما يلي:

«هو قدوس لجميع أنواع القداسة»؛ وبعبارات أخرى: إنه قدس الأقداس. تُفسِّر الكلمات: قديسين [**وكلَّمَ الرب موسى قائلاً: مُرْ كل جماعة بني إسرائيل وقل لهم كونوا قديسين لأني أنا الرب إلهكم قدوس**] (سفر لاوي 19، 2)، قائلين: من المحتمل تصور أن يصبح الإنسان قديساً مثل الله؛ إليكم لماذا تضيف التوراة: [**«لأنني أنا الرب إلهك قديس؟»، قدسيتي أعلى بكثير من درجة القداسة التي يمكنكم بلوغها**]. (أحبار 24، 9).

لم يكن الحاخامات وحدهم يعتقدون بهذه القداسة الكاملة لله، بل يؤكدون على الواجب الأساسي لليهودي بالمحافظة عليها من كل دنس، بالامتناع عن سلوك السبيل المعيب. كنيس، شعب الله المختار، كان الحارس الأمين لشهرته في العالم، بأعمال جديرة به، فوَّضته، «قدَّست اسمه». وبالمقابل، فإن أي سلوك حقير منبوذ يؤدي إلى تدنيس اسمه.

هذا المبدأ المطبَّق على القرابة الداخلية بين الله وإسرائيل هو الأصل التوراتي، يجد تعبيره الأكثر كمالاً في تنبؤات حزقيال 36، 23[**لذلك قل لآل إسرائيل هكذا قال السيد الرب ليس لأجلكم أنا فاعل يا آل إسرائيل لكن لأجل اسمي القدّوس الذي دنّستموه في الأمم الذين دخلتم بينهم**]. تشبَّث به الحاخامات إلى درجة جعلوا منه أساساً للسلوك. فعل سيء لا يؤدي لليهودي الشعور بالذنب، بل يجعل منه خائناً لله وشعبه. لهذا يتم التمييز بين خطأ ارتُكب ضد وثني وآخر ضد أحد أبناء دينه. والأخطر التسبب بالضرر لغير اليهودي منه لليهودي.

كان تدنيس الاسم معتبراً كواحد من أشنع الخطايا. يمكن إدراك خطورته بتوضيح من هذا التصريح: «كل من دنَّس اسم الله فهو مذنب، ولا يمكن قبول ندامته، ولا يمكنه استعادة سمعته يوم التكفير، أو اللجوء للعذاب لمحو خطيئته؛ الموت وحده يمكنه أن يخلصه منها». وفي مكان آخر، تكون الصراحة أكثر قساوة أيضاً؛ إن من يدنِّس اسم الله يصنَّف في عداد الفئات الخمس التي لا تُنسى.

حالات كثيرة يميِّز فيها الشرع اليهودي بين خطأ أو ضرر ناجم عن عمد أو دون قصد، لكن بالنسبة للإهانة المعتبرة هنا، فهذا مستحيل. «كل من يدنس اسم الله سراً

يتعرض للقصاص علانية حتى لو دُنِّس الاسم السماوي عن قصد أو غير قصد»

حتى لو قبلنا هذا، صراحة، بالنسبة لفعل سبَّبه السلوك البشري للاسم الإلهي، فتبقى قداسة الله مستقلة عن أعمال وأفعال خلقه. من هنا تأتي الآية: «كونوا قديسين، لأنني، العلي، إلهكم، أنا قديس» وجاء شرحها بهذه العبارات: هذا يعني: إذا قدستم أنفسكم فإنني أمنحكم الشرف، كما لو أنكم قدَّستموني أنا ـ نفسي؛ لكن إذا لم تقدِّسوا أنفسكم فسأحاسبكم على ذلك، لو أنكم لم تقدسوني. مع أنه، من الممكن أن يراد بالنص ما يلي:

إذا قدستموني، «أي صرت قديساً»، لكن إذا لم تقدسوني «فلن أكون قديساً». قيل أيضاً: لأنني قديس، أملك حالة من القدسية، إن قدستموني أو لم تفعلوا. (سفر أحبار 19، 2) [**مُرْ كلَّ جماعة بني إسرائيل وقل لهم كونوا قدّيسين لأني أنا الربُّ إلهكم قدّوس**].

11 ـ الاسم الفائق الوصف (الذي لا يوصف)

بالنسبة للشرقيين، ليس الاسم بالنسبة لنا تعبيراً بسيطاً عن شخص أو شيء. هناك قناعة بأن الاسم يمثل نفس طبيعته. لهذا كان التعظيم خاصاً يحيط (الاسم المميز) بالكائن الإلهي الذي أبان إلى إسرائيل أحرفه الأربعة الرمزية المقدسة JHVH

في العصر التوراتي، لم يبدُ أن استعمال هذا الاسم في اللغة المستعملة يثير أية شكوك. أسماء الأشخاص المركبة كثيرة جداً (جاه، جاهو) حتى بعد السبي البابلي؛ هذا يدل على أن استعمال الرموز الأربعة لم يكن محرماً أبداً. لكن منذ الأزمنة الأولى للحقبة الحاخامية، لم يلفظ الاسم إلا في صلاة خدمة الهيكل. لقد صيغت القاعدة على النحو التالي: «في محراب العبد، يلفظ الاسم كما يكتب، لكن خارج المكان المقدس، فالاسم يستبدل باسم آخر».

كان الرمز الرباعي موجوداً ضمن العبارات الخاصة بالمباركة الكهنوتية المنطوقة يومياً في المعبد، وكان موجوداً أيضاً داخل الطقس النهاري للتكفير: يلفظ الكاهن الكبير

ثلاثة اعترافات بالخطايا: لشخصه، ولمجموع الكهنة، ولطائفة المجتمع: انظروا كيف يصوغ التلمود تلك الصلاة الثالثة، يقول: «يا يهوه!، شعبك، بيت إسرائيل، اقترف الظلم، عصا، أخطأ أمامك، أتوسل باسمك JHVH (JHVH الاسم الذي يعبر عن رحمة الألوهية). امنح الغفران للظالمين، للمخالفين، وللخطايا والشرور التي اقترفها شعبك بيت إسرائيل، والذي عصا، وخالف وعده أمامك، كما هو مكتوب في وصايا العهد القديم لخادمك موسى: [**لأنه في هذا اليوم يكفِّر عنكم لتطهيركم فتطهرون من جميع خطاياكم أمام الرب**] (أحبار 16، 30). وعندما سمع الكهنة والشعب المحتشد في باحة الكنيس اسم الكلي الطوبى والجلال الملفوظ بحرية بصوت الكاهن الكبير، بقداسة، ونقاء، ركعوا وسجدوا، ووجوههم ملتصقة بالأرض، وهتفوا «تبارك اسم العظيم الجلال، العلي القدير، الملك على الدوام وإلى الأبد».

في نهاية الحقبة مع وجود الهيكل، كان لفظ الرمز الرباعي واضحاً. هذه الممارسة يؤكدها الحاخام (تارفون) الذي ينتمي لعائلة كهنوتية. يروي أنه خلال فترة مراهقته، وقبل بلوغه السن المطلوب لإدارة الصلاة، تبع أحد أعمامه إلى السرادق، وتنصت إلى ما يتفوَّه به الكاهن الأكبر. وأضاف: لقد سمعته يقول شيئاً، كما لو أن الاسم المقدس مغطى بترتيل زملائه، الكهنة.

يمكن لهذا الاجتهاد أن يساهم في تجنب لفظ الاسم المقدس بوضوح، وبخاصة عندما يشعر الكاهن الاكبر بالانخفاض في المستوى الأخلاقي لرجال الدين. يوضح التلمود: «من عادة الكاهن الأكبر مناداة الاسم المقدس بصوت عالٍ، لكن عندما يكون عدد الرجال الفاسقين كبيراً، عندها ينادي الكاهن الأكبر الله بصوت منخفض».

غير أنه في وقت من الأوقات، يُسمح للعامة استخدام اسم الله بحرية وعلانية. وحسب الميشنا، كان يُطلب من كل واحد يلقي السلام على أصدقائه أن يذكر اسم الله. من المحتمل أن هذه الوصية جاءت للرغبة في تمييز اليهودي عن السامريّ الذي لا يقول (الله الرحيم) بل اسم العلم فقط، وأيضاً لفصل وتمييز اليهودي الحاخامي عن اليهودي المسيحي.

مهما يكن، فإن هذه العادة لم تتأخر عن الاختفاء. ومن بين الذين لن يكون لهم قسمة في العالم الآتي، فيكون هناك من يلفظ اسم الله بمحتواه الحرفي. قال أحد حاخامات القرن الثالث: من يلفظ اسم الله بوضوح، يكون مذنباً بجريمة قتل.

وقد تبدلت في مراسيم العبادة في الكنيس اسم (الله الرحيم) بقول آخر (مولاي)، لكن هناك تقليد بحسبه كان اللفظ الأصلي منقولاً دورياً من قبل العقلاء وتلامذتهم مرة، أو مرتين كل سبع سنوات. لكن هذا الإجراء توقف لاحقاً، وظلت طريقة لفظ الرمز الرباعي غير معروفة بالضبط.

يظهر فهم الألوهية كما صوَّرنا معالمها. فاليهود من الحقبة التلمودية مثل أسلافهم في الأزمنة التوراتية، لم يعبدوا قضية أولية مجردة. بل كانوا يتوجهون إلى إله جوهري (شخصي)، بمعنى أنه بالنسبة لهؤلاء الذين يعترفون به كان حقيقة حية. سنبحث فيما بعد، إذا ما كان سهلَ المنال قريباً، لكن النصوص السالفة الذكر، الكافية لتكوين الفكرة عن الله، كانت مُعدَّة سابقاً حسب اعتقاد اليهود، لتوحي لهم حياة مقدسة وعادلة.

كانت بعض العقائد المتعلقة بالألوهية، موضوعة في المقدمة وموضحة بشكل خاص من الحاخامات، بحسب الظروف الحاصلة في زمنهم. هكذا توجَّب إظهار صفة الوحدانية الإلهية في زمنهم. عندما برزت العقيدة المسيحية الجديدة، وبُدئ التبشير بالثالوث الأقدس. من ناحية ثانية، لم يتوقف اليهود عن المجاهرة بقوة لا مادية، بقدسية الله، احتجاجاً على الممارسات اللاأخلاقية والمهينة التي تعزيها الشعوب المجاورة لألوهياتهم الخاصة.

لقد جهد الحاخامات في المحافظة على نقاء عقيدتهم الإلهية، لتصبح مقدسة في حياة المنتسبين إليها. كان الله سهل المنال؛ يمكن للإنسان أن يتواصل دائماً بصحبته. أب عطوف برحمته؛ يحب عباده على الأرض ويبغي سعادتهم. إذا قضت الضرورة، فإن جلاله اللامتناهي وكماله المطلق يضعانه بمعزل عن خلقه، ومع ذلك تبقى صلته بهم أكيدة ومتينة، لأنه خلق الإنسان على صورته ومثاله. ذلك هو المبدأ الرئيسي الفاصل للجنس البشري عن باقي المملكة الحيوانية، رافعاً الإنسانية إلى مصاف الألوهية، دون أن يتجاوز الخط الفاصل بينهما أبداً.

الفصل الثاني

الله والعالم

١ ـ علم الكون

لم يبدِ دكاترة إسرائيل حيال التأمل بما وراء الطبيعة، بنفس المودة التي تميَّز بها المفكرون الرومانيون واليونانيون. وإذا كان بعض من الحاخامات قد عرف نظريات أرسطو وأفلاطون حول نشوء الكون، فإنهم لم يبقوا ساكنين دون التعرض لبعض تأثيرات العلوم الطبيعية كمواضيع للدراسة، التي لم تكن تدرَّس في مدارس فلسطين وبابل.

على عكس ما تقدم، كانت تلك الدراسة مطبقة كلياً، ويمكن التحقق من ذلك من خلال الإنذار التالي: «من الأفضل أن لا يولد كل من يفكر بالأشياء الأربعة: بما هو فوق، وما هو تحت، وبما هو قبل، وما بعد».

يؤكد التلمود ذلك، ويذكره في النص الكهنوتي والكنيسي:

«ما هو صعب عليك، لا يشكل موضوع أبحاثك؛ وما هو مخبأ لا تفتش عنه (لا تسبره)، فكر بما هو بمتناول يديك، ولا تهتم بالأشياء السرية». لا أحد يصف الموقف الرباني بشكل أفضل. حول السؤال:

لماذا تبدأ الرواية حول الخلق بالحرف العبري (بيت)؟ الجواب: «كما أن الباء مغلقة منْ جميع الجهات إلا من الأمام أو الأعلى، كذلك ممنوع عليك القيام بالأبحاث المتعلقة بما هو أمام وفوق أي الخلق، وعليك الاهتمام فقط بالزمن الحاضر للخلق».

يستوحى النفور من هذا النوع من الأبحاث لسببين:

أولها: لأنها تهدد الإيمان الديني؛ في الواقع فقد نظر العديد من دكاترة اليهود البارزين، بدهشة لهذا التصدي: «أربعة رجال صعدوا إلى الفردوس هم: بن عزاي، بن زوما، آشر، وعَقيبة. قال عقيبة: عندما تصلون درجات الرخام، حذار من الصراخ: «الماء! الماء!» بن عزَّاي تأمل ومات؛ وبن زوما تأمل وأصبح مختلاً: بينما آشر (أي الآخر) قطع النباتات، وسار عقيبة بسلام».

يبقى تفسير هذا النص المحكم غير مؤكد، لكن يمكن أن نستشف منه مفتاح التلميح إلى الماء. كان اليونانيون وبعدهم الغنوسيون أي الروحيون يجعلون من الماء العنصر الأولي لولادة الكون. هذا الاعتقاد تكرر في التلمود. ومن المحتمل أن يكون

عقيبة قد أراد تبيان أنه من الضروريِ التخلي عن نظرية أصل الكون العائدة لمبدأ العنصر السائل، عندما نقترب من درجات الرخام، أي من عرش الله، صورة للحقيقة المطلقة.

من جهة أخرى، حتى لو لم يحترم الحاخامات الميتافيزيكا، فهذا يعود لقناعتهم التي بموجبها كانت مسائل هذا العالم كافية، وأن التوجه لإشغال أفكارهم وتوجيهها نحو اعتبارات نظرية سامية قد تحوِّل انتباههم عن المواضيع العملية الهامة. «ما يهم قبل كل شيء، ليس التأمل، بل الفعل والعمل»، كان هذا مبدأهم الموجِّه.

بيد أن بعض الحاخامات تثقفوا بنوعين من فروع الدراسات المسماة (معازي بيريخيت) (عملية الخلق) بعد التكوين الأول، و(معازي ميركابا) (عملية التركيب) بعد حزقيا. كانوا لا يشرحون العقائد إلا في حلقات من التلاميذ مختارين فرداً فرداً. لا يوجد أي تعقيب أو شرح لهذا التعليم السري، باستثناء بعض العناصر الداخلة وسط المراجع المختصة بعلم الكون في التلمود والمدراش. هذه المراجع كثيرة، لكن قيمتها العلمية معدومة، فهي لم تأتِ بأبحاث قياسية منطقية للظواهر الكونية، بل تحاول الاستنتاج من الكتاب المقدس فقط، لما يعلمونه عن أصل وتركيب العالم.

يُفهم بسهولة أن الحاخامات فتشوا هناك ليستنيروا حول مسائل معقدة بهذا الشكل. تقول التوراة (إنها الحكمة التي تتكلم): [**أول أعمال الأزلي أنه خلقني قبل أعماله القديمة جداً. مُسحتُ من الأزل قبل أن تكون الأرض**] (أمثال 8، 22).

الحكمة المقدمة على أنها موجودة قبل خلقِ العالم، كانت بالطبع متمثلة بأسفار العهد القديم (تورا) إذا كان الله قد خلقها أولاً، فمن الضروري أن لديه سبباً لذلك: يتعلق الأمر بتصميم المخطط الذي سيتم بموجبه بناء العالم. تقول «تورا»: «كنت الأداة المعمارية البانية للقدوس الواحد (الممجد)». عندما يشيد ملك دنيوي قصراً، فمن عادته أن لا يبنيه حسب رغباته الشخصية، بل رغبات المهندس المعماري. وهذا بدوره، لا يعتمد على تصوراته المجردة، بل لديه المخططات والأوراق ليرسم عليها، بصورة مصغرة ترتيب النوافذ والشقق والمداخل بالشكل المناسب. هكذا فعل القدوس الواحد (الممجد): استشار الـ(تورا)، ومن ثم خلق الكون على هذا الأساس.

تلك فكرة أفلاطونية، اعتمدها فيلون (فيلسوف يوناني من أصل يهودي المولود في الإسكندرية عام 13 ق.م)، وهو يكتب: عندما قرَّر الله أن يخلق دولة قوية، فقد صمَّم

شكلها أولاً في عقله، وصنع حسب هذا الشكل، عالماً يمكن إدراكه بالذكاء فقط، ومن ثمَّ أكمله بخلق عالم يمكن رؤيته بالحواس، مستخدماً النموذج الأول لخلق الكون. تعكس الـ (تورا) عقل الله، لهذا كان الحاخامات يدققون بكل كلمة، ليتثقفوا حول عملية الخلق وبنية الكون. هكذا يتم شرح معظم النظريات الكونية الموجودة في الأدب الحاخامي.

لقد رأينا أن أحد رموز الله، ينص على وجوده قبل كل الأشياء. ينتج من ذلك أن كل شيء في الكون خُلق بالضرورة، ولا شيء مثل الله وُجد قبل أن يبدأ. حصل حوار حول هذه المسألة بين الحاخام غماليِّل وفيلسوف. كان الأخير يقول: «إلهكم فنان كبير ماهر، لكنه يملك تحت تصرفه مواد أولية مثل «توهو»، «بوهو» (اللاشكل، الفراغ)، الظلمات، الهواء، الماء، والبحار التي ساعدته في عمله». أجاب الحاخام: «أنت ملعون! جميعهم يؤيد أن الكتاب المقدس قد خلقهم جميعاً. وبالنسبة لـ«توهو، بوهو» الشكل، الفراغ قيل: «أمنَحُ الثروة والغنى، وأخلق الشدَّة» [**لتنفتح الأرض وليثمر الخلاص وليُنبت البر أنا الرب خلقته**] (إشعيا 45، 8).

وبالنسبة للظلمات: [**أنا مبدع النور وخالق الظلمة ومُجري السلام وخالق الشر أنا الرب صانع هذه كلها**] (إشعيا 45، 7).

وبالنسبة للماء: سبِّحيه يا سماء السماوات وأيتها المياه فوق السماوات لتسبِّح هذه اسم الرب لأنه أمر فخُلقت] (المزمور 148، 4 - 5) [**فإنه هوذا صانع الجبال خالق الريح المبيِّن للبشر ما فكرُه الجاعل الظلمة فجراً الواطئُ مشارف الأرض واسمه الرب إله الجنود**] (عاموس 4، 13) وفيما يخص البحار: [**ولدت حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه**].

ويُميِّز نفس اليقين العميق بالخلق من العدم في هذا الإعلان «في اليوم الأول خلقتُ عشرة أشياء» السماء، الأرض، (توهو ـ بوهو) أي، (الشكل، الفراغ)، النور، الظلمات، الريح، الماء، الليل، النهار. هذا هو تعداد العناصر الأولية التي تكوَّن منها الكون.

لنوضح أي مفهوم يكوِّن التلمود عن كل منها.

السماء: العبارة العبرية التي تشير إلى السماء، كانت مشروحة لمزيج من (شام، ومايبم) مكان المياه أو (إش ومايبم) أي النار والماء، الفضاء السماوي مؤلف إذن من هذين العنصرين.

وتوجد في التوراة سبعة تعابير تعني السماء. إذن يوجد سموات سبع. «عدد السموات سبع»: (فيلون، راكيا، شيخاكيم، زيبول، ماوون، ماخون، عرابوت). يقول فيلون: خاصيتها الوحيدة أنها تنبسط صباحاً وتتوسع ليلاً (جزر، ومدّ) كما كُتب: [**يبسط السماوات مثل قماش خفيف وينشرها كسرادق ليجعل منها مأواه**] (نبوءة إشعيا 40، 22).

راكيا: بمعنى الجلَدْ هو كل ما يحمل الشمس، القمر، النجوم، وسائر الكواكب كما قيل: [**وجعلها الله في جلد السماء لتضيء على الأرض**] (تكوين 1، 17).

شيخاكيم: هي الرحى التي تسحق المن للصالحين لأنه قيل: [**ثم أمر الغيوم من فوق وفتح أبواب السماء وأمطر عليهم المن ليأكلوا وأعطاهم منطقة السماء**] (مزمور 68، 23 - 24).

زبول: هو مكان القدس السماوي، والمعبد، حيث يرتفع الهيكل وإلى جانبه الملاك ميخائيل يقف الأمير الكبير الذي يقدم الذبيحة كما كُتب: [«**أقمت لك منزلاً لسكناك (ذبول) في مكان تقيم فيه للأبد**»]. (سفر الملوك الأول 8، 13). لماذا نعرف أن هذا المكان يدعى السماء؟ لأنه كُتب أيضاً: [**تطلَّعْ من السماء وانظر من سُكنى قُدسك وفخرك. أين غيرتك وجبروتك. هل احتبس زفير أحشائك ومراحمُك لي**]. (إشعيا 63، 15).

ماوون: مكان تواجد جماعات الملائكة المحتفلين بالقداس، يرتلون ليلاً، ويلتزمون الصمت نهاراً تمجيداً لإسرائيل كما كُتب: [**لن يمنح الأزلي بركته في النهار**]. وفي الليل ستكون تراتيل مادحيه معي (8، 32، A). لماذا نعرف أن الأمر متعلق بالسماء؟ لأنه كُتب: «تطلَّع إلى مأواك (ماوون) المقدس من السماء». يحتوي (الماخون) على احتياطي الثلج، البرد، قطرة الندى الضارة، قطرات كروية مميتة للنباتات؛ أبوابه ملتهبة كما قيل: [**يفتح رب لك السماء كنز خيره فيؤتي أرضك مطرحا في أوانه ويبارك جميع عمل يديك فيقترض منك أمم كثيرون وأنت لا تقترض**] (التثنية 28، 12). لماذا نحن نعرف أن (ماخون) تعني السماء؟ لأنه كُتب: «استجب من السماء من مكان / ماخون/ بيتك» (ملوك أول 8، 39). في (عرابوت) تكون العدالة، المحاكمة، الإحسان، المُلك الواسع، السلام النعمة؛ هناك الأرواح العادلة، الآمال، الأرواح التي توشك أن تخلق، والندى الذي بواسطته سيقوم القدوس الواحد (الممجد) بإحياء الأموات. هناك

تسكن الأوفانيم والسيرانيم (الأحياء والملائكة)، الكائنات المقدسة (خايوت)، الملائكة القائمون بالمراسم، عرش الشرف، الملك، الله الحي، السامي والممجد، الذي يستوي على السحاب، كما قيل [**افتح طريقاً لمن يستوي فوق السحب (عرابوت)؛ اسمه يهوه**] (مزمور 68، 4).

فيما يتعلق بالمادة التي صُنعت السماء منها، يوضح أحد الحاخاميين أنه في الزمن الغابر قال القدوس الواحد (الممجد): «توجد قبة في وسط المياه!»، الشلال المركزي تجمد، وخلقت السماوات العليا والسفلى في نفس الوقت» [**هذه مبادئ السموات والأرض إذ خُلقت يوم صنع الرب الإله الأرض والسموات**] (تكوين 2، 4). وحسب رأي آخر «النار الخارجة من فوق ولامست جلد السماء».

اسمعوا: لقد جفَّفت النار، سطح الماء، وجعلته صُلباً، تقول نظرية ثالثة معتمدة على الاشتقاق من كلمة (شمايم) سماوات: أخذ القدوس الواحد (الممجد) النار والماء ومزجهما، وكوَّن منهما السماء.

الأرض: مثل السماء، فقد تشكلت الأرض من سبع طبقات توضعت فوق بعضها، لأن التوراة تستخدم لها بالتناوب سبع عبارات مختلفة (أستير 12، 1، R).

يمكن القول أن الأرض والسماء صنعتا من مادة واحدة، غير أن الأرض تختلف بعدد عناصرها. «كيف خلق القدوس الواحد (الممجد) هذا الكون؟ يقول الحاخام جوخانان: كرتان: إحداهما من النار والثانية من الثلج، مزجهما ومن هذا المزيج أتى الكون».

حسب قول الحاخام «خاما بن خانِّينا» توجد أربعة عناصر تمثل رياح السماء الأربعة. ويضيف: كان يوجد ستة منها تمثل رياح السماء الأربعة، وريح إضافية آتية من الأعلى وأخرى آتية من الأسفل. (تكوين 3، 10، R).

لماذا كان لكل من السماء والأرض عناصره المستقلة؟ لا تزال المسألة موضع نقاش. «قال الحاخام أليعازر: كل ما هو موجود في السماء يأتي من السماء، وما هو موجود على الأرض يأخذ أصله من الأرض. يستنتج هذه الخلاصة من المزامير. سبحوا الأزلي من أعالي السماوات، إلخ.. سبحوه في الأرض إلخ..» يقول الحاخام «يشوع»: كل ما هو موجود في السماء أو في الأرض أصله من السماء. يستنتج من ذلك: [**لأنه (الله) يقول للثلج:اسقط على الأرض وكذا لوابل المطر لوابل أمطار عزَّته**] (أيوب 37، 6).

وبما أن الثلج يوجد على الأرض فهو يأتي من السماء، كذلك الشيء نفسه لكل ما هو موجود في السماء أو الأرض. وأوضح الحاخام «هونا» أن كل ما هو في السماء والأرض أصله من الأرض لأنه قيل: (إشعيا 5، 10) [**لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجع إلى هناك بل يروي الأرض ويجعلها تنشئ وتنبت لتؤتي الزارع زرعاً والآكل طعاماً**]. رغم سقوطه من السماء، فقد أخذ المطر أصله من الأرض، الشيء نفسه بالنسبة لباقي الموجودات في السماء أو الأرض.

أسطورة منقولة عن حجر موجود داخل معبد «ابن شتيّا»، ارتكز العالم عليها، وجعل منها النواة التي حولها تكونت الأرض. تعكس هذه الأسطورة الرأي القائل أن الأرض مقدسة، وكانت موضع الخيار الإلهي، وكان خلقها إلزامياً، وبدوره فإن توضُّع الهيكل الأكثر قدسية من كل شيء، يدل على النقطة الصحيحة التي بدأ منها عملية الخلق. الصخرة المشار إليها، تلمح إلى اعتقاد آخر واسع الانتشار قديماً، وأن الأدب الحاخامي يورد صراحة هذه العبارات:

«القدوس الواحد الممجد» ألقى صخرة في المحيط الأولي الذي جاء منه العالم.

كان الحاخامات يحافظون على المعتقد العام الذي يمثل الأرض على أنها مسطحة ومحمولة على أعمدة؛ وبالمقابل، فإنهم لم يقبلوا جميعاً العدد نفسه. «على ماذا ترتكز الأرض؟» على أعمدة كما يقال: «**ويزلزل الأرض من أساسها فترتجف عُمُدها**» (أيوب 9، 6). ترتكز الأعمدة على المياه كما كتب «مياه الجبال الأرض على مياه». ترتكز المياه على الجبال، كما قيل. ترتكز المياه على الجبال. وترتكز الجبال على مياه الجبال كما كُتب: كوَّن الجبال وأوجد الرياح (نبوءة عاموس 4، 13)، [**فإنه هو ذا صانع الجبال، خالق الريح المبين للبشر ما فكرُه الجاعل الظلمة فجراً الواطئ مشارف الأرض واسمه الرب إله الجنود**].

وكما قيل: ترتكز الريح على العاصفة: «ريح عاصفة تنفذ أوامره» وكما كُتب العاصفة محمولة على ذراعي القدوس الواحد (الممجد): «**ملجأك الإله الأزلي والأذرع** الأبدية من تحت» (تثنية 33، 27). يعلن العقلاء: تستريح الأرض على اثني عشر عموداً لأنه قيل: [**حين قسَّم العلي الأمم وفرَّق بني آدم وضع تخوم الأمم على عدد بني إسرائيل**] (تثنية 32، 8). بينما يؤكد آخرون عن سبعة أعمدة فقط لأنه قيل: [**الحكمة بنت بيتها ونحتت أعمدتها السبعة**] (أمثال 9، 1). أما الحاخام «أليعازر بن شاموعا»

فهو لا يقبل سوى عمود واحد «الأرض محمولة على عمود واحد اسمه (العدل)»، وكما كُتب: «العدل وحده أساس العالم».

إليكم ما كان يُدرَّس تناسباً مع أبعاد الأرض: «تشغل مصر مساحة أربعمائة فرسخ مربع؛ يعادل جزءاً من ستين من مساحة الحبشة، والحبشة تعادل جزءاً من ستين جزءاً من العالم». ويكون مجموع مساحة الأرض خمسمائة وستة وسبعين مليون فرسخ مربع. يعادل الحاخامات الفرسخ بكيلومترين وستة وستين متراً مربعاً. لكن للدرس معنى مرناً في التلمود لا يقصد به الدقة المطلوبة. ويعطى للأرض سماكة ألف ذراع أي ما يعادل خمسين سنتمتراً للذراع الواحد.

توحو ـ بوحو: بمعناها الحالي خط طول وعرض: توحو: هو خط كبير يحيط بالعالم، والذي منه انطلقت الظلمات، وكما قيل: «جبل الظلمات مأواه، وحولها خيمته»، بوحو: تدل على الحجارة المغطاة بالطمي مغروزة في الأعماق من حيث وُلد الماء، كما قيل: «لقد مدَّ منها خط الخواء للسديم» (توحو) ومستوى الفراغ (بوحو). (إشعيا 34، 11) **[ويرثها القوق والقنفذ ويسكن فيها البوم والغراب ويمدُّ عليها خط الخواء ومطمار الخلاء]**. تانك إذن المادتان الأساسيتان اللتان بواسطتهما وجد العالم: الظلمات المفهومة على أنها شيء مخلوق، وليس غياب النور والماء.

الضوء: هنالك جدل لمعرفة فيما إذا كان خلق الضوء قد سبق خلق العالم. يقول الحاخام إسحق: «إن الضوء خلق قبل أي شيء آخر. إليكم القصة التالية: أراد ملك بناء قصر في الظلمات. ماذا فعل؟ أوقد المشاعل والفوانيس ليعرف أين يضع أساس القصر. كذلك الضوء كان أول ما خُلق. حاخام آخر يقول: لقد خلق الله العالم أولاً، فكّروا بحكمة الملك الذي بنى قصراً، ومن ثمَّ أناره بالمشاعل والفوانيس» (تكوين 3، 1). **[في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلام وروح الله يرف على وجه الماء، وقال الله ليكن النور فكان النور، ورأى الله أن النور حسن وفصل الله بين النور والظلام]**.

بما أن الشمس لم تكن إلا في اليوم الرابع من الخلق، فمن أين مصدر الضوء إذن؟ أعطي جوابان لهذا السؤال، فسَّره أحد الحاخامات: «القدوس الواحد (الممجد) أحاط نفسه بالنور مثل معطف، وأن لمعانه أنار جميع أرجاء الكون». ويؤكد حاخام آخر أن الضوء انبثق من المكان الذي أشيد عليه الهيكل، كما رأينا عند خلق الأرض. تبدو

الفكرة نفسها من الناحيتين: بالضوء الروحي فقط الذي يشع من الله، مكّن السديم أن يكون منظماً.

الظلمات: عندما قلنا عبارة الظلمات، فإنه لم يكن القصد منها غياب الضوء، بل يقصد بذلك المادة المخلوقة، حسب الأسطورة، من بين الأسئلة التي طرحها الإسكندر المكدوني على «قدماء الجنوب».

كان السؤال التالي: «من خُلق أولاً؟ الضوء أم الظلمات؟» اتفقت الأغلبية على أسبقية الظلمات، هذا الآتي من الشمال. الريح: في العبرية (رواخ) يمكن ترجمتها بـ«روح» أو «ريح». فقد اعتمد التلمود المعنى الثاني، حيث كان يرى في الريح أحد الأعمدة الهامة والضرورية لتكوين العالم. «عُلم أنه كل يوم تهب أربع رياح تجمعها ريح شمالية مع بعضها وإلا فلا يمكن للعالم البقاء حتى لساعة واحدة». ويلاحظ المعلق «راشي» أن ريح الشمال ليست باردة جداً أو حارة، فهي تعدل الرياح الأخرى وتجعلها قابلة للتحمل.

إليكم قطعة من الأدب الشعبي التي تصف أفعال مختلف الرياح: «في نهاية اليوم الأخير من عيد المظلة لدى اليهود (في تشرين الأول)، تتجه أنظار الشعب إلى الدخان الذي يخرج من الهيكل. لو اتجهت الريح شمالاً، فسيكون الفقراء سعداء، وسيتعرض كبار الملاكين للخسارة، لأنه ستكون أمطارٌ غزيرة، وسيصاب محصول الأرض بالعفن. ولو اتجه الدخان جنوباً فسوف يتألم الفقراء ويفرح كبار الملاكين، لأن الأمطار ستكون قليلة ولن تؤثر على المحصول. ولو اتجه الدخان شرقاً فسيفرح الجميع. ولو اتجهت الريح نحو الغرب فالجميع يحزن (لأن الهواء القادم من الشرق يكون جافاً ومخرباً).

لا يتطابق هذا الرأي مع تأكيدات أخرى تنصب حول نفس الموضوع، برهان في مكان آخر يؤكد أن الريح الشرقية تجلب معها المطر والثلج. «تهز الرياح الشرقية العالم كله مثل إبليس» «تجعل الريح الشرقية قبة السماء سوداء مثل تيس الماعز». من جهة أخرى «تسبب ريح الشمال الحرمان من المطر». «تجعل ريح الشمال ثمن الذهب بخساً». وتجعل ريح الشمال قبة السماء صافية كصفاء الذهب. تطرح هذه الرياح الغيوم وتؤدي إلى الجفاف. الحصاد ضعيف وتفقد الدراهم قيمتها.

رياح الجنوب تجلب الأمطار الغزيرة التي تنبت العشب والزرع. يقال إن الحاخام

«زيرا» «كان لا يستظل تحت أشجار النخيل عندما تهب رياح الجنوب»، لأن شدتها كانت تهدد باقتلاع تلك الأشجار من جذورها.

وبالتالي، إليكم كيف تُفسَّر الرياح في أمكنة أخرى: «الرياح الشمالية نافعة صيفاً ضارة شتاء، والجنوبية تعمل بالعكس، الرياح الشرقية نافعة دوماً، الرياح الغربية مدمِّرة ومخرِّبة دائماً».

الماء: من بين الأسئلة المشكوك بها التي كانت تثار بين الجامعتين الرئيسيتين في القرن الأول، جامعة هلِّيل، وجامعة «شاماي» هي أن علم الكون كان يحتل مكاناً هاماً فيهما في ذلك الوقت. ستكون أمامنا فرصة للحديث عن خلافاتهما حول تسلسل نظام تكوين السماء والأرض، وقد أدت هذه الأحاديث إلى جدل حول العناصر الأولية التي يتشكل منها الكون، ويتساءلون فيما إذا كان الماء جزءاً منها.

يشرح الحاخام «نيحمي» من كفرسيحون النص التالي: لأن الرب خلق السماء والأرض والبحر وجميع ما فيها في ستة أيام (سفر الخروج 20، 11) **[لأن الرب في ستة أيام خلق السموات والأرض والبحر وجميع ما فيها وفي اليوم السابع استراح ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه]**. هذه الأشياء الثلاثة (سماء، أرض، ماء) هي العناصر الثلاثة الأولى لخلق الكون. بقي ثلاثة أيام، كوَّن كل منها الأشياء الثلاثة الأخرى. حسب رأي مدرسة «هلِّيل» خُلقت الأرض في اليوم الأول. بقيت ثلاثة أيام، الأول والثاني والثالث، حيث أنتجت الأشجار، النبات، وجنة عدن.

خُلقت السماء في اليوم الثاني، وبقيت ثلاثة أيام الثاني والثالث والرابع، وأنتجت الشمس والقمر والكواكب.

خلق الماء في اليوم الثالث وبقيت ثلاثة أيام، الثالث والرابع والخامس، وأنتجت الطيور والأسماك، والحيوانات البحرية الضخمة (الحيتان). لم يكن الحاخام «حازاريا» من هذا الرأي، حيث كان يبني حجته على النص التالي: «في اليوم الذي خلق فيه الرب السماء والأرض (تكوين 2، 4) **[هذه مبادئ السموات والأرض إذ خُلقت يوم صنع الرب الإله الأرض والسموات]**. شيئان هما العنصران الأوليان: السماء والأرض، بقيت كل واحدة منها ثلاثة أيام؛ وانتهى العمل بهما في اليوم الرابع. خُلقت السماء أولاً، حسب آراء مدرسة «الشاماي». بقيت ثلاثة أيام، الأول والثاني والثالث، أكمل العمل بهما في اليوم الرابع.

بأي شيء أكملها: بالأنوار السماوية. كوِّنت الأرض في اليوم الثالث وولدت لإنتاجاته الأساسية. بقيت ثلاثة أيام، الثالث، الرابع، الخامس، وأكمل عمله في اليوم السادس. ماذا كان هذا الإكمال؟ الإنسان.

وجاء في سفر التكوين [**سمَّى الله النور نهاراً والظلام سماه ليلاً. وكان مساء وكان صباح في يوم واحد. وقال الله ليكن جلد وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه... فسمى الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوم ثان... وقال الله لتنبت الأرض نباتاً عشباً يُبرزُ وشجراً مثمراً يخرج ثمراً حسب صنفه وكان مساء وكان صباح يوم ثالث.. وقال الله لتكن نيِّرات في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل.. فصنع الله النيرين العظيمين النيِّر الأكبر لحكم النهار والنيِّر الأصغر لحكم الليل والكواكب.. وكان مساء وكان صباح يوم رابع. وقال الله لتفض المياه زحافات ذات أنفس حية وطيور وكل داب من كل ذي نفس حية.. وكان مساء وكان صباح يوم خامس. وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض فخلق الله الإنسان.. وكان مساء وكان صباح يوم سادس**] (تكوين 1، 5-22).

رأي جوهري يؤكد أن الماء هو العنصر الأساسي، وإليه يعود الفضل في وجود العناصر الأخرى: في البدء لم يكن الكون إلا مياهاً متوضعة فوق بعضها، هكذا كتب «روح الله تتحرك على سطح الماءِ» (تكوين 1، 2) [**كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلام، وروح الله يُرف على وجه المياه**]، ثم حول الماء جليداً وكما كتب «قذف بالجليد قطعاً قطعاً» ثم حوَّل الجليد إلى يابسة. وكما كتب: قال للثلج كن أرضاً.

كان العالم كله محاطاً بالمياه. هذا ما تدعمه أسطورة الإسكندر المكدوني، الذي حمله تفكيره إلى القول: إن العالم مثل كرةٍ والبحر صحن يحملها. وقد قسم الله المياه إلى جزأين صنع من أحدهما قبة السماء ومن الجزء الثاني صنع المحيط.

أما أصل المطر فكان مصدر شك. فقد صرَّح الحاخام أليعازر: «يشرب الكون جميعه الماء من المحيط» وكما قيل «ارتفع بخار من الأرض وسقى جميع وجه الأرض» (تكوين 2، 6) [**كان يصعد منها بخار فيسقي جميع وجهها**]. ويقول الحاخام «يشوع» للحاخام أليعازر: لكن أليس ماء المحيط مالحاً؟ أجاب: «يتحلى في الغيوم».

أعلن الحاخام «يشوع» أن الكون جميعه يرتوي من المياه الواقعة خلف قبة السماء. كما قيل: [**الأرض التي أنتم عابرون إليها لتملكوها هي أرض جبال وأودية من مطر السماء**] (تثنية 11، 11). كيف يُشرح هذا النص؟ «هل يرتفع البخار من الأرض؟» يعلمنا النص أن الغيوم تنتفخ وترتفع في قبة السماء، وتفتح فمها مثل قارورة وتلقي مياه المطر على الأرض وكما قيل: [**يجذب قطار الماء ثم تهطل مطراً لثقلها**] (أيوب 36، 27). الغيوم مثقوبة مثل المنخل، تسمح للماء بالسقوط نحو الأرض: والمسافة بين قطرتين من المطر لا تتجاوز سماكة شعره. يعلمنا هذا أن يوم المطر أكبر أمام القدوس الواحد (الممجد) من اليوم الذي خلقت فيه السماء والأرض.

كانت الغيمة تُمثّلَ بوعاء فارغ تسكب فيه الماء الآتي من السماء. حسب هذه النظرية فإن الصاعقة مقرونة بالغيوم وأن الغيوم تسكب ماء الواحدة في الأخرى.

إليكم شروحات أخرى: يضرب برق قوي غيمة، فتنكسر هذه إلى بَرَد أو أن الغيوم ليست ممتلئة ماء؛ فإن نفحات الهواء تمر عبر فتحات الغيوم محدثة صوتاً مشابهاً للصوت الذي يخرج من فتحة القارورة. والاحتمال الأقوى أن الوميض ينفجر، وتدور الغيوم محدثة قرقعة، وينهمر المطر.

دوام الليل والنهار: لأنه حسب التوراة، بما أن النهار والليل وُجدا قبل خلق الشمس والقمر، فينتج من ذلك أن خلق الزمن كان فعلاً خاصاً. فقد ثبَّت الله مدة الليل والنهار، ثم طابق على ذلك ظهور الشمس والقمر. بموجب هذا الاعتقاد، نلاحظ الفكرة التي بحسبها لا يعني الزمن شيئاً بالنسبة إلى الله، ولم يكن موجوداً قبل أن يخلق الله العالم.

نص حاخامي يعيد جميع الأشياء إلى ثلاثة عناصر فقط: «ثلاثة أشياء مخلوقة سبقت تكوين الكون؛ هي: الماء، الهواء والنار، الماء حمل وأنجب الظلمات؛ والنار حملت وأنجبت الضوء؛ الهواء حمِلَ وأنجب الحكمة. تلك هي العناصر الستة المنظمة للكون: هواء، حكمة، نار، ضوء، ظلمات، ماء.

حسب نظرية غريبة طريفة، خلقت جميع الأشياء دفعة واحدة في اليوم الأول، وقد تطلب شكلها الذي أخذته عدة مراحل متتالية: الحاخامان جودا ونيحيمى تناقشا في علة الخلق. قال جودا: أتم الله خلق السماء والأرض في الوقت المحدد (سفر التكوين 2، 1) [**فأكملت السموات والأرض وجميع جيشها**]. أجاب نيحيمي: غير أنه كُتب:

[هذه مبادئ السموات والأرض إذ خُلقت يوم صنع الرب الإله الأرض والسموات] مما يدل على خلق كل شيء في يوم واحد. وفي نفس اليوم أنتجت السماء والأرض جميع جيشها. ردَّ الآخر: «لكن الكتاب المقدس يسمي الأيام: الأول، الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، السادس، والسابع. أعطى الحاخام نيحمي مثالاً: قطاف التين: جميعها موضوعة داخل السلة، لكن كل واحدة منها مختارة لموقعها».

أيٌّ من السماء والأرض خلق أولاً؟ تعطي مدرسة شاماي الأولوية للسماء، بينما مدرسة هيلِّيل تقول للأرض. كل مدرسة تبرِّر رأيها. فقد استعانت مدرسة «شامَّاي» بالمقارنة التالية: عمل الله مثل ملك يبني عرشاً، ومن ثمَّ جهزه بسلَّم صغير. هكذا يقول القدوس (الممجد): السماء هي عرشي، والأرض موطئ قدمي. (إشعيا 66، 1): **[هكذا قال الرب السماء عرشي والأرض موطئ قدمي فأي بيت تبنون لي وأي مكان يكون مقرَّ راحتي]**.

تعود مدرسة هلِّيل لقول: الملك يبني قصراً. يبدأ بالطوابق السفلى قبل أن ينتهي من الطوابق العليا.

ردَّ الحاخام سيمون بن جوخاي: «أندهشُ لدى رؤيتي هؤلاء آباء العالم رؤساء مدارس هيلِّيل وشامَّاي وهم يختلفون حول هذا الموضوع. من وجهة نظري فإن السماء والأرض تكوَّنتا مثل وعاء وغطائه». (جزءان من أصل واحد، تكوَّنا في وقت واحد). لأنه كُتب: **[يدي أسست الأرض ويميني شبَرَت السموات، أدعوهن فيقفن جميعاً]** (إشعيا 48، 13). في هذه الحالة طلب إليه، لماذا يذكر الكتاب المقدس تارة الأرض قبل السماء وطوراً السماء قبل الأرض؟ ليعلمنا أن الواحد والآخر لهما الأهمية نفسها.

نتيجة مقارنة مدرسة هيلِّيل، استخلص الحاخام «جوخانان» خاتمة مختلفة:

«عندما يشيد ملك بشري قصراً، يبني أولاً الطوابق السفلية ثم العلوية، غير أن القدوس الواحد (الممجد) يبني الأسفل والأعلى معاً».

فيما يتعلق بالنجوم، فقد نسب إلى الله هذا الكلام: «لقد خلقت في قبة السماء اثنتي عشرة مجرة، وخلقت لكل واحدة منها ثلاثين جيشاً، ولكل جيش ثلاثين فيلقاً، ولكل فيلق ثلاثين لواء، ولكل لواء ثلاثين كتيبة، ولكل كتيبة ثلاثين معسكراً، ووضعت في كل معسكر ستين ألفاً، تجمعات كثيرة من النجوم تتوافق مع أعداد السنة الشمسية».

هذا الإجمالي يتجاوز التقديرات الفلكية الحديثة، ويجب عدم الأخذ به حرفياً. في كافة الأحوال، يلاحظ كم كان لدى الحاخامات شعور برحابة وامتداد العالم السماوي. فقد صنَّف أحدهم النجوم في ثلاث فئات: «الكبيرة المرئية نهاراً، والصغيرة المرئية ليلاً، والمتوسطة التي نراها عند الغسق». وكان الإجماع يسود عندما يتعلق الأمر بالنقاش أن العالم هو من صنع الله الذي هو كامل، ويجب أن يملك صفة الإتقان والكمال. تأكَّد هذا لحظة ظهور العالم. ورد ذلك في نص (لسفر الجامعة 3، 11) [**أنشأ كل شيء حسناً في وقته وجعل مر الدهور أمام عقولهم من غير أن يدرك البشر أعمال الله من المبتدأ حتى المنتهى**]. يفسح المجال للملاحظة التالية: خَلْقُ الكون في وقته المحدد لم يكن مناسباً فيما لو خُلق قبل ذلك. يمكن الاستنتاج أن القدوس الواحد (الممجد) خلق الكثير من العوالم (مفردها عالم) ودمَّرها إلى أن خلق العالم الحالي وقال: «هذا العالم يعجبني عكس الآخرين»، حكمة الملك الذي بنى قصراً: تفحصَّه وشعر بفرح عظيم لرؤيته وقال: يا قصر! لتقدر دائماً أن تمنحني السعادة في هذه اللحظة بالذات.

في هذه النظرية يجب على كل شيء خلقه الله أن يكون هدفه خيِّراً. العبارة الظرفية (كثير) في هذا التقدير تنمُّ عن أن الله يرى كل شيء كان قد فعله، هو جميل جداً. (سفر التكوين 3، 1) [**وكانت الحية أجمل جميع حيوان البرية الذي صنعه الرب الإله...**].

شُرحت كما لو أنها لا تستثني لا الموت ولا الميول الشريرة العائدة للإنسان، لا الآلام ولا جهنم لأن كل واحد من هذه الأشياء يساهم أخيراً في راحة الجنس البشري.

«حتى الذي نحكم بعدم فائدته في هذا العالم، الذباب، البراغيث، البعوض جميعها كائنات صغيرة ضرورية للنظام الكوني؛ خلقها له القدوس الواحد (الممجد)، نعم حتى الأفاعي والضفادع. يُطوِّر التلمود هذه الفكرة ويوسعها». «من ضمن الأشياء التي خلقها القدوس الواحد (الممجد) في الكون، لم يخلق أي واحدة لا نفع منها. خلق الحلزون كدواء للجرب؛ الذباب دواء ضد لسع الدبابير، البعوض دواء ضد لسع الأفاعي، والأفعى دواء لبعض الأمراض، والعنكبوت دواء ضد لسع العقرب».

«لماذا يبدأ تاريخ الخلق بالحرف «باء» وليس بالحرف ألف أول الحروف الهجائية؟

لأن الباء هي الحرف الأول في (بيراخا) أي «بركة»، والألف هي الحرف الأول في «أريرا» أي اللعنة.

قال القدوس الواحد (الممجد): لا أريد خلق كوني أن يبدأ إلا بحرف الباء، كي لا يقول الذين يأتون إلى هذا العالم: كيف يمكن له (للعالم) أن يستمر، بينما خلق بحرف سيئ الطالع؟ نعم أريد خلقه بحرف حسن الطالع، بحيث أضمن له الاستمرار.

بالفعل، فإن العالم بعيد عن كل نقد، «عندما يشيد ملك بشري قصراً، ويدخل إليه عامة الشعب ويوجهون له النقد (لبناء القصر) ويقولون: من الأفضل لو أن الأعمدة كانت أعلى من ذلك لكن لم يحدث أن جاء إنسان ليقول: «لو أن لديَّ ثلاث أعين، وثلاث أيد، وثلاث سيقان، وأمشي على رأسي، ووجهي متجه نحو الخلف؟ لو أنه كان مسموحاً لنا التعبير بهذه الطريقة فإن الرب الأعلى رب الأرباب القدوس الواحد (الممجد) وحاشيته من الملائكة، سوف يتناقشون حول كل عضو من أعضائنا ويحددون موقعه الصحيح» (سفر تثنية الاشتراع).

خُلق الكون ليكون مأوى للإنسان، وكل شيء فيه أُعدَّ لراحته. خلق الله الإنسان عمداً، لأنه قبل ذلك خلق كل شيء ضروري لوجوده، وهو نفسه لم يخلقه إلا في النهاية. كان الملائكة يتحدثون هكذا أمام القدوس الواحد (الممجد): [**إني أرى سماواتك عمل أصابعك والقمر والكواكب التي كونتها، ما الإنسان حتى تذكُره وابن البشر حتى تفتقده**] (المزمور 8، 4، 5). بأي قصد خُلق موضوع هذا التشوش؟ أجابهم: في هذه الحالة لماذا خلق الغنم، والثيران وبهائم الصحراء. [**سلَّطْته على أعمال يديك، أخضعت كل شيء تحت قدميه. الغنم والبقر كلها وبهائم الصحراء أيضاً، وطير السماء وسمك البحر السائر في سبل البحار**].

إليكم هذه الحكمة: ملك لديه مائدة مملوءة بأشهى الأطعمة، إذا لم يدعُ إليها أي ضيف، فأي لذة سيجني من كل هذه التحضيرات؟ هتفت الملائكة: [**أيها الرب سيدنا ما أعظم اسمك في كل الأرض**].

«اعمل ما تراه خيراً». في أي نية خلق الله الإنسان والعالم منذ قديم الزمان؟ الهدف الأخير المشار إليه في هذه الحكمة: «كل ما صنعه القدوس الواحد (الممجد) في كونه (عالمه) فعله لمجده فقط». العقيدة الحاخامية حول الإنسان ما هي إلا تطوير وشرح لهذه الفكرة.

2 ـ السمو والمثولية (كائن مشابه لآخر)

ما هي العلاقة بين الله والعالم في التعليم الحاخامي؟ هل هناك سمو لله؛ هل تدركه كما لو أنه بعيد عن خليقته؟ أين يقف منها وهل هو على تماس معها؟ الجواب كامن في مزج أو دمج لفكرتين، لم يعتبرهما الحاخامات متناقضتين تمحو إحداهما الأخرى، بل مكملتين لبعضهما.

عندما كانوا يتصورون الخالق الفائق الوصف، الكمال المطلق، السلطان اللامحدود، كانوا يتكلمون عنه بإجلال واحترام، أمام كائن موضوع بصورة لا محدودة فوق خارج حدود هذا العالم. لكنهم في الوقت نفسه يدركون السهولة التي يستطيع بها الكائن البشري في صراعه مع الحياة الوصول لهذا الإله السامي القادر على دعمه ومساعدته في كفاحه. وكانوا يؤكدون أيضاً على عقيدة الله السامي في العالم:

«يقف الله إلى جانب الذين يذكرون دائماً اسمه بإخلاص».

ذكرنا سابقاً أن علم الكون في التلمود، قد حدَّد مكان الألوهية في السماء السابعة. وأن مسكنه بعيد جداً عن الأرض. ولم يكن باستطاعة أحد التصور في ذلك الوقت، بالتحليق بعيداً إلا في وصف بُعد المسافة التي تفصل بين الله والعالم: «تعادل سماكة كل قبة سماوية مسيرة خمسمائة سنة. والشيء نفسه للفراغ الذي بين كل من هذه السموات السبع. حيث أعلاهم يتواجد القديسون **Khayyoth**، قياس أقدامهم تعادل أطوال المسافات التي تكلمنا عنها، كذلك مفاصل رسغهم، سيقانهم، ركبهم، أفخاذهم، جذوعهم، أعناقهم، رؤوسهم قرونهم. وفي المقام الأعلى منهم ينتصب عرش الرب؛ أطوال قدميه نفس سابقها، كذلك جذعه: «الرب، الإله، الحي الأزلي، العالي المتسامي يجلس في الأعالي»».

إليكم طريقة وأسلوب شرحها منذ بداية نشيد موسى (في سِفر الخروج 15، 1): [**حينئذ سبَّح موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا: أسبِّح الرب فإنه قد تعظَّم بالمجد**]. يشير هذا إلى نشيد موجَّه لمن ترفَّع فوق أعلى الكائنات، كما أعلن أحد الحكماء: الأسد ملك الحيوانات المفترسة، الثور ملك الحيوانات المدجَّنة، النسر ملك الطيور، والإنسان في أعلى مراتبهم، وأعلى الجميع والكون بكامله هو القدوس الواحد

(الممجد). الأمر هنا يتعلق بتبيان كامل للسمو الإلهي، مع تجنب خطأ بوحدة الوجود، التي تماثل الخالق بخلقه.

مع ذلك، يوجد التلمود مكاناً أوسع لمفهوم سمو الله في العالم وقربه للإنسان. ينتج هذا، بمثابة لازمة لمبدأ حضوره الدائم. سيُظهر القول التالي، كيف كان الحاخامات يقومون بتركيبات تبدو موفقة لوجهي الألوهية: [**إنهم يفرغون الذهب من الكيس ويزنون الفضة بالميزان ويستأجرون صانعاً فيصنع ذلك إلهاً فيسجدون له ويخرُّون. يحملونه على الكتف ويجعلونه مكانه لا يبرح من موضعه يصرخ إليه صارخ فلا يُجيب ولا يخلِّصه من ضيقه**] (سفر الخروج 46، 6، 7). في النهاية، مع كل شخص إلهه في بيته معه يلازمه، يمكنه التوسل إليه بصوت عالٍ حتى الموت دون أن يسمعه أو ينجده. «خلافاً لذلك كلياً، فإن القدوس الواحد (الممجد) الذي يبدو بعيداً جداً، فهو في الواقع لا شيء في العالم أقرب إلينا منه». لنعد في الذاكرة إلى المسافة التي لا يمكن قياسها، والتي تفصل مقرَّه عن الأرض، نص ذُكر سابقاً وبالإمكان الحصول منه على الدرس الأخلاقي الذي يخرج من هذه الاعتبارات:

«مهما كان عالياً فوق عالمه، يكفي أن يدخل إنسان إلى كنيس، ويجلس فيه خلف دعامته، ويدمدم بصلاة في الخفية، لأن القدوس الواحد (الممجد) يصغي لهذا الدعاء».

جاء في سفر تثنية الاشتراع (4، 7): [**لأنه أيُّ أمة كبيرة لها آلهة قريبة منها كالرب إلهنا في كل ما ندعوه**]. الصفة «قريبة بالجمع» تُشرح بـ«كل ما ندعوه». فالله قريب منا إلى أقصى درجة ممكنة. جاءت رسالة إبراهيم نتيجة الإعلان عن سلطان الله على الأرض كما في السماء. [**الرب إله السماء الذي أخذني من بيت أبي ومن أرض مولدي والذي كلَّمني والذي أقسم لي قائلاً لنسْلِكَ أعطي هذه الأرض هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابني من هناك**] (سفر التكوين 24، 7). لكن من اللحظة التي جاء فيها إبراهيم لهذا العالم، أقام مُلْكَ الله على الأرض، كما قيل: [**والآن يا إسرائيل اسمعوا الرسوم والأحكام التي أنا معلمكم لتعملوا بها لكي تحيوا وتدخلوا وتملكوا الأرض التي يعطيكم الرب إله آبائكم**] (سفر تثنية الاشتراع 4، 1). سأجعلك تقسم بإله السماء وإله والأرض.

إن الاسم «ملك» المطبق عادة على الله، لا يوحي بأي فكرة عن المسافة، أو البعد. كان تصور شعوب الشرق عن الإله خاطئ، فهي ترى في هذا الملك أنه طاغية، يهمل

شؤون رعيته. إن ملك الله يظهر في جلاله إضافة إلى كلمات التعظيم والاحترام «أبانا» المشابهة لكلمة ملكنا المستعملة بمفردها، تبعد أي تلميح استبدادي.

عند الرغبة في استعمال عقيدة سمو الله، مع تجنب الاعتقاد بإمكانية تحديد مكانه في مقر معين، اخترع الحاخامات بعض العبارات عن الحضور الإلهي مستبعدين من هذا المفهوم أية نظرية مادية.

التعابير الشائعة: «شيخينا» ومعناها الحرفي «مكان الإقامة» تنطبق بظهور الله على مسرح هذا العالم، عندما يسكن هو نفسه في أبعد مكان في السماء. وبنفس الطريقة التي تنير الشمس بأشعتها جميع أنحاء الأرض، كذلك «الشيخينا» النور الإلهي، تشعرنا بوجوده في كل مكان من الأرض.

توصف «الشيخينا» أيضاً بأنها النور. وقد شرحت هذه العبارة في الكتاب المقدس كالتالي: «تتلألأ الأرض من مجده». [**فإذا تمجَّد إله إسرائيل قد أتى من طريق الشرق وصوته كصوت مياه غزيرة والأرض قد تلألأت من مجده**] (سفر حزقيال 43، 2): إنه وجه شيخينا أي نور الله. «وليمنحك نور شيخينا» تلك هي التفاسير المعطاة للمباركة الكهنوتية في سفر العدد (6، 25): [**يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك**].

يمكن القول أن الحضور الإلهي مبني على علاقات حميمة بين الله والكائنات البشرية؛ يقاسمها مذ خلقها همومها وآمالها. «ما دام الإنسان يعاني همّاً ما، فها هي كلمات «شيخينا» تقول: رأسي مُثقل، أذرعي ثقيلة. إذا كان القدوس الواحد (الممجد) يتألم عندما يُراق دم شرير فكم سيكون ألمه عندما يكون ذلك الدم دم رجل عادل؟

مع أن الشيخينا حاضرة دائماً، فيُشعر بحقيقتها في بعض الأماكن، وظروف طابعها المقدس التي تهدف إلى تنسيقها روحياً مع شخص الله نفسه. وبالأخص ما يتعلق بهذه الوصية. [**فيصنعون لي مقدساً فأسكن فيما بينهم**] (خروج 26، 5). [**بحسب جميع ما أنا مُريك من شكل المسكن وشكل جميع آنيه كذلك فاصنعوا**] (خروج 25، 8، 9). كانت الخيمة المخصصة عبارة عن مكان حيث «الشيخينا» تظهر بشكل أوضح وأقوى من أي مكان آخر. كان شمعدان الخيمة ينير. [**في خارج حجاب الشهادة في خباء المحضر، يرتبها هرون من العشي إلى الصبح**] (أحبار 24، 3). بطريقة تثبت لأي قادم إلى العالم أن الشيخينا تسكن وسط إسرائيل (شاب 22، B). كان الهدف من

بناء المقدس، هو تأسيس وسط ليستطيع الله الإقامة بين خليقته. هذه النظرة مشروحة بطريقة لائقة على النحو التالي:

عندما خلق القدوس الواحد (الممجد) الكون منذ اليوم الأول، شعر برغبة الاستقرار بين خلقه في المناطق السفلى، أي على الأرض، لكنه امتنع عن ذلك. ومع ذلك، ولكن فيما بعد، عندما نُصبت المظلّة، وأسكن فيها القدوس الواحد (الممجد) الشيخينا قال: «ليُكتب أن العالم خُلق في هذا اليوم» (العدد 13). وعلى ما يبدو يجب الفهم أن العالم لا يمكن أن نُبشِّر حقيقة أنه وُجد بالمعنى الكلي للكلمات، ما دامت الشيخينا لم تثبت مكان إقامتها بين البشر، بفضل تشييد المقدس.

الإجابة على السؤال: كيف يمكن من يملأُ وجودُه الفضاءَ أن يختار مقراً أرضياً؟ عندما قال القدوس الواحد (الممجد) لموسى: «اصنع لي مظلة» صاح موسى مندهشاً: «إن مجد القدوس الواحد (الممجد) يملأ العالم العلوي والسفلي، ويأمرني أن أصنع له مظلة». إلى جانب ذلك ما هو يُتوقّع أن سليمان الذي كان يريد إقامة هيكل أكبر من المظلة. وأن يعلن أمام القدوس الواحد (الممجد): هل حقيقة أن الله سيقيم على الأرض؟

ماذا: السموات، وسموات السموات لا يمكنها أن تتسع لك؛ ما أصغر البيت الذي بنيته». عندها قال موسى: «إذا كان معبد سليمان أكبر وأوسع من المظلة يتكلم هكذا، فالأحرى أن أتكلم بالشيء نفسه». ولفظ هذه الكلمات: يرتاح الواسع القدرة في الظل». لكن القدوس الواحد (الممجد) قال له:

«أفكاري ليست أفكارك. إذا كنت أريده، فيمكنني بناء مسكني في مساحة محصورة بين عشرين لوح خشب إلى الشمال والجنوب وثمانية إلى الغرب». **[وأصنع ألواحاً للمسكن من خشب السنط قائمة (15) عشرة أذرع لها وذراع ونصف عرضه (16). ولتكن للوح منها رجلان متقابلتان أحدهما تجاه الأخرى كذلك تصنع لجميع ألواح المسكن (17)، وتصنع الألواح للمسكن عشرين لوحاً جهة مهب الجنوب ولجانب المسكن الثاني من جهة الشمال تصنع عشرين لوحاً** (20)] (سفر الخروج 26، 15، 16، 17، 18). وأكثر من ذلك، يمكنني النزول وحصر الشيخينا في مساحة ذراع مربع واحد.

ما كان يطبق على الهيكل، كان صالحاً بنفس الطريقة فيما يتعلق بأماكن الصلاة والدراسة اللتين توجهان العقل البشري نحو الله. «من أين تعلم أن القدوس الواحد

(الممجد) هو في الكنيس؟ كما قيل: يمكث الله في الاجتماع الإلهي» (عدد المجتمعين عادة عشرة أفراد). ومن أين نعلم أنه عندما يجتمع عشرة رجال للصلاة تكون الشيخينا فيما بينهم؟ كما كتب: «يمكث الله في الاجتماع الإلهي»، ومن أين جاء أنه كلما اجتمع ثلاثة رجال معاً ليحكموا فتكون الشيخينا فيما بينهم؟ كما هو مكتوب: «يحاكم وسط القضاء». ومن أين نعلن أنه عندما يجتمع رجلان لدراسة «التورا»، فإن الشيخينا تكون فيما بينهم؟ كما قيل: «عندها أولئك الذين يخافون الرب تكلموا فيما بينهم. كان الرب يقظاً وأصغى» (ملاخي 30، 16). [**حينئذ تكلم خائفو الرب الواحد مع صاحبه وأصغى الرب وسمع وكُتب كتاب تذكرة أمامه لخائفي الرب المتفكرين في اسمه**]. ومن أين جاء أنه إذا جلس رجل وشرع في دراسة التورا فإن الشيخينا تكون معه؟

كما كتب [**لا تجعلوا معي آلهة من فضة وآلهة من ذهب ولا تصنعوا لكم. مذبح من تراب تُصنع لي وتذبح عليه محروقاتك وذبائح السلامة من غنمك وبقرك. في كل موضع يُذكر فيه اسمي آتيك وأباركك**] (سفر الخروج 20، 23 - 24)، وهو نفس ما يؤكده الحاخام شمعون جوخاي «أينما يذهب العادل فالشيخينا ترافقه».

إذا كانت الصلاة والتلاوة المقدسة تجعلان الواحد أكثر تقبلاً للشيخينا، فإن الخطيئة تقدم بالتأكيد عملاً معاكساً. تبعده، ولم يعد حضوره حسياً، وعملياً فهي غير موجودة بالنسبة للخاطئ. كان الحاخامات يقولون: «أي فرد يخطئ سراً فإنه يدوس بقدمه على الشيخينا».

«لا يستطيع إنسان السير مسافة أربعة أذرع بهيئة متعالية، لأن الأرض مملوءة بكاملها بمجد الله».

«عندما يُحزن رجل أباه وأمه، فإن القدوس الواحد (الممجد) يقول: حسناً فعلتُ بأن لا أبقى بينهم، لأنني لو بقيت هناك سأقاسي أنا أيضاً الحزن والألم».

في الأصل كانت الشيخينا تسكن المناطق السفلى من العالم. وعندما اقترف آدم الخطيئة، صعدت إلى السماء الأولى، وعندما أخطأ قايين، انتقلت للثانية واستقبلتها الثالثة، في عهد ذرية أنوش [**وعرف آدم امرأته أيضاً فولدت ابناً وسمَّته شيتاً وقالت قد أقام الله نسلاً آخر بدل هابيل إذ قتله قايين. ولشيتٍ أيضاً وُلِدَ ابن وسمَّاه أنوش. حينئذ ابتدئ بالدعاء باسم الرب**]. (التكوين 4، 26)؛ والرابع أثناء الطوفان، والخامس

زمن برج بابل؛ حيث سبب السادوميون (نسبة إلى سدوم) ذهابها إلى السماء السادسة؛ والمصريون المعاصرون لإبراهيم إلى السماء السابعة. وبالمقابل فإن ظهور الصالحين السبعة جعلها تنزل: أعادها إبراهيم إلى السادسة، وإسحق إلى الخامسة، ويعقوب إلى الرابعة، ولاوي إلى الثالثة، وكوهات (ابن لاوي) إلى الثانية وأمرام (ابن كوهات ووالد موسى) إلى الأولى، وكان موسى سبباً في نزولها من الأعلى إلى الأسفل (أي الأرض). يُدرَّس منهجياً أن الأشرار يُبعدون ويُنفرون الشيخينا عن مكان إقامة الناس. في حين يعيد الصالحون الأبرار بركتها للجنس البشري.

مفهوم حاخامي آخر مخصص للدلالة على قرب الله وتأثيره المباشر على الإنسان، هو مفهوم (رواخ هاكوديش) الروح القدس. يبدو أحياناً أنه مطابق للشيخينا، بالتعبير عن السمو الإلهي في هذا العالم المستأثر بما يجري فيه. يروى مثلاً، أنه بعد تدمير الهيكل، حمَّل الإمبراطور فيسباسيان قوافل من الشبان والشابات اليهوديات على ثلاثة مراكب، ونقلهم إلى بيوت الدعارة في روما. وخلال الرحلة ألقى هؤلاء المنفيون أنفسهم في البحر رافضين قبول هذا المصير المخزي. تنتهي القصة بالتصريح أنه حيال هذا المشهد القاسي بكى الروح القدس وقال: [**على هذه أنا باكية وعيناي تنهملان بالماء. إذ قد ابتعد عني كُل مُعزٍّ يردُّ نفسي بنيَّ هلكوا لأن العدو قد غلب**] (مراثي إرميا 1، 16).

غالباً ما تدل هذه العبارة على امتلاك قدرات خاصة، معطاة لفلان وفلان، تُفهم على أنها القدرة على ترجمة الإرادة الإلهية بأنها فعل سببه الروح القدس. وأن من يملكها يتلقى موهبة البصيرة.

هكذا قيل لنا، إن رجال أزمنة ما قبل التاريخ [**مواليد بني نوح وسام وحام**] الذين كانوا يملكون الروح القدس، أعطوا أولادهم أسماء تنبئ عن أحداث يجب أن تحصل خلال مجرى الحياة اللاحقة، نحن بالعكس الذي لا يمكننا استعمال الروح القدس، نسمي أولادنا بأسماء آتية من أجدادنا. (تكوين 7، 27، R).

منح إسحق إلى يعقوب بركة ثانية «لأن الروح القدس أوحى إليه أن أحفاده سيتفرقون بين جميع أمم العالم» (تكوين 75، R.8). بالسؤال: لماذا بكى يعقوب عندما أعطى قبلة إلى راحيل؟ [**فلما رأى يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغَنَمَ لابان خالِه تقدم ودحرج الحجر عن البئر وسقى غنم لابان خالِهِ. وقبَّل يعقوب راحيل ورفع**

صوته وبكى] (سفر التكوين 29، 11). الجواب: «رأى بواسطة الروح القدس أنه لن يُدفن إلى جانبها» (تكوين 70، 12، R). وبمساعدة الروح القدس، تنبأ موسى أن ملوكاً وثنيين سيضطهدون إسرائيل (اليهود القدماء).

الفعل المقرِّب أو المنفِّر الذي بواسطته يؤثر الجهد البشري على الشيخينا، يمكنه أيضاً إصابة الروح القدس. «كل من يدرس التورا قصد تطبيق تعاليمها هو جدير بتلقي الروح القدس» (أحبار 7، 35، R).

«عندما أصلح أبناء صموئيل سلوكهم أصبحوا جديرين بالروح القدس» (سفر العدد R، 10، 5). وبعكس «عيسو»، الذي حرمه أبوه من حضور الروح القدس لخبثه (تكوين 65، 5، R).

مظهر آخر للسمو الإلهي هو «بات كول» ومعناه حرفياً (الوحي): يقصد بها الطريقة ما فوق الطبيعية التي بموجبها مُنحت الإرادة الإلهية للبشر، خصوصاً عندما لم يظهر أي أنبياء «عبريون» بعد موت «أغجي» (أحد الأنبياء الصغار في الكنيس اليهودي»، زكريا، وملاشي الأخير بين الأنبياء، وتخلي الروح القدس عن إسرائيل. غير أنه تلقى اتصالات من الله بواسطة «بات كول» قائلاً: سمع الحاخام الكبير جوخانان (الوحي) أن الشباب الذاهبين للحرب ضد أنطاكية كانوا منتصرين. وعندما وجب على سليمان أن يقرر من هي أم الطفل المتنازع عليه، أشار إليه (الوحي) مَنْ مِنَ الاثنتين هي أم الطفل.

أعلمَ الوحيُ الإنسانَ بمشاعر ونوايا الله. ذات يوم توجه حاخام للصلاة وسط الأنقاض. أوحى إليه أن هناك صوت يتأوه كاليمامة ويدمدم: يا للأسف! يا أولادي! عدم إنصافهم دمَّر بيتي، حرق هيكلي، حرقهم، نفاهم بين الأمم. وعندما تعرض الحاخام «عقبة» لعذاب شديد لفظ أنفاسه لحظة وصول هذه الكلمات إلى شفتيه «الرب هو الواحد الأحد» وعلى الفور أتاه صوت الوحي ليقول: «سعيد أنت بتسليم الروح بهذه الكلمة (أوحد)».

يقال إن الوصية وضعت حداً للنزاع الطويل بين المدرستين الحاخاميتين الكبيرتين، مدرسة شامَّاي وهلِّيل اللتين استمرتا بالنزاع طيلة ثلاث سنوات، تحاول كل واحدة منها أن تترجم القوانين لصالحها. غير أن صوت الوصية سُمع وطَلب من كل منهما أن تلفظ كلام الله الحي، لكن قرار القانون جاء متوافقاً مع مدرسة هلِّيل.

وفي أمثلة مادية من هذا النوع لم يُعترف بالوصية أنها السلطة العليا. فقد جرت مناقشة حادة بين الحاخام أليعازر وزملائه على مسألة القانون. قدَّم أليعازر جميع الحجج الممكنة، غير أن زملاءه لم يعلنوا عن قناعتهم.عندها قال لهم: لو أن القانون يعطيني الحق، أن تقوم شجرة الخرنوب هذه بتقديم البرهان. انتقلت شجرة الخرنوب مسافة مئة ذراع، بعضهم قال أربعمائة ذراع. ردوا عليه: إذا كان القانون مطابقاً لآرائي، يثبت ذلك الجدول ويعكس اتجاه مائه. احتجوا على ذلك: إن مجرى الماء لا يقدم أي برهان. قال لهم: إذا كان القانون يدعم وجهات نظري فلتثبت ذلك جدران المدرسة. تجوَّفت الجدران وهددت بالسقوط. شرع الحاخام جوزيه بالتأنيب قائلاً: إذا كان الذين يدرسون القانون يتنازعون حول مسألةٍ شرعية، فماذا يعنيكم أنتم؟ لم تتهدم الجدران احتراماً لأليعازر ولم تعد لحالتها الأولى؛ فقد ظلت مائلة. أخيراً صرح أليعازر «إذا كان القانون من جهتي لترسل السماء البرهان. عندها سُمع صوت الوصية يقول: ماذا لديكم ضد الحاخام أليعازر؟ القرار الشرعي مطابق دائماً لرأيه. ارتمى الحاخام جوزيه على قدميه وقال: هذا ليس من السماء. [**لا هي في السماء فتقول من يصعد لنا إلى السماء فيناولها ويسمعنا إياها فنعمل بها**] (سفر تثنية الاشتراع 30، 12). ماذا تعني هذه الرواية؟ قال الحاخام إرميا: أُعطيت «التورا» نهائياً على جبل سينا، ونحن لا نعير انتباهنا لأي وصية». بهذه الطريقة تم الاتفاق على أن العقل والمنطق وحدهما يجب أن يقررا التفسير الصحيح للقانون.

ينتج مما سبق، أن التفوق المطلق للمفهوم التلمودي لله، لا يمكن الأخذ به. كما أن دكاترة إسرائيل (اليهود) يرفضون تشبيه الله بالكون الذي هو من عمله، ويلحون على واقع سموِّه فوق مجال البشر، ويمثلون العالم متداخلاً من أطرافه بالحضور الدائم للشيخينا. الله فوق الكون وفي الوقت نفسه روح الكون.

3 ـ علم الملائكة

العالم كما يتصوره التلمود، مسكون بفئتين من الكائنات: الإليونيم (الكائنات العلوية) أو الملائكة، والتختونيم (الكائنات السفلية) أو الجنس البشري. والتعليم

الحاخامي المتعلق بعلم الملائكة غني جداً، غير أنهم لم يكونوا مؤسسين له. نجد قبل ذلك في التوراة وصفاً كاملاً للدار السماوية، حيث الله هو الملك، محاطاً بعدد كبير من الخدم. والملائكة هم خدم العلي القدير وغالباً ما تذكرهم الروايات المقدسة.

والروح الشرقية مأخوذة دائماً بالألوان المثيرة للإعجاب، الفخمة المترفة، فتضخم اللوحات السماوية وتثقلها بالمعالم الأكثر غنى، يمكن تتبع هذا العمل عبر الأدب ما بعد التوراتي (الأناجيل، النقوش المكتوبة). والرغبة بجمعها في التلمود والمدراش.

من الطبيعي أنه، لم يتشكل علم الملائكة التلمودي بسبب تصور وسطاء بين الله والعالم كما كان الاعتقاد سائداً قديماً. ما قلناه عن المثولية الإلهية يثبت أنه لم يكن هناك حاجة لوضع كائنات أخرى بين الله والبشر، وإن لم تكن هناك أماكن ومناصب لمنحها لهم. الأمر يتعلق بتمجيد الله. وبالتجربة اليومية كان الشعب يرى سلطان بلاده (الملك)، محاطاً بالتشريفات العليا، ومعتبراً بأعمق مظاهر الاحترام. كلما كانت حاشيته كثيرة العدد، كلّما تضاعف الإعجاب به.

مع أن الدين يأمر اليهودي باحترام الملك ـ بحضور حكومة وثنية، كان عليه النطق بالمقولة التالية: «لتكن مباركاً أيها السيد إلهنا ملك الكون الذي جعلت خليقتك تشاركك مجدك». ويقتضي الواجب الوقوف عند مرور الملك لتحيته ـ ومع هذا فإن أي ملك أرضي هو كائن من لحم ودم، ميّتٌ مثله. كان الله ملك الملوك، سيد العالم كله، ولو أن تصوُّره يتمثل «بالمُلك الأرضي المشابه لمن في السماء»، رغم أن هذا كان على مستوى ضيق جداً. السيد يسمو على ملكوت لا حدود له. أمَّن لنفسه جيشاً كبيراً من الخدم لينفذوا أوامره، فهم جديرون إذن بالوقوف قرب عرش المجد، هذه الكائنات المسماة الملائكة، هي بالضرورة مخلوقات أعظم كمالاً من البشر. غير أنهم خلقوا أيضاً، وإن كمال خلقهم لم يصل أبداً إلى درجة كمال الله. متى خُلقت الملائكة؟ يقول الحاخام جوخانان «في اليوم الثاني» لأنه مكتوب «يشكل مع المياه مسكنه العالي» **[وقال الله ليكن جلد في وسط المياه]** (التكوين 1، 6). وجعل من الرياح رسله، ومن ألسنة النار وزراءه. وقال الحاخام «خانينا»: في اليوم الخامس لأنه مكتوب **[ولجميع وحش الأرض، وجميع طير السماء وجميع ما يدب على الأرض مما فيه نفس حية]** تكوين (1، 30) وبجناحين كان السيرافون (الملائكة يطيرون) **[من فوقه السيرافون قائمون ستة أجنحة لكل واحد باثنين يستر وجهه وباثنين يستر**

رجليه وباثنين يطير] (إشعيا 6، 2). الجميع متفقون على أن الملائكة لم يُخلَقوا في اليوم الأول، حتى لا يقول الشعب إن ميخائيل قد شغل مساحة الجهة الجنوبية من القبة السماوية، وجبرائيل الجهة الشمالية.

عثر على فكرة أخرى حول خلق الملائكة مستوحاة من حديث بين الإمبراطور «أوريان» والحاخام «يشوع خنانيا». سأل الإمبراطور: هل تؤيدون أن جيشاً من الملائكة الخدم لا يقدمون مدائحهم لله إلا مرة واحدة في اليوم، وأنه يخلق كل يوم جماعة جديدة ترتِّل أمامه ومن ثم تختفي؟ - هذا صحيح - أين يذهبون؟ - إلى المكان الذي خُلقوا فيه - من ماذا خلقوا؟ - من نهر من نار - **[من أمامه يجري ويخرج نهر من نار وتخدمه ألوف ألوف وتقف بين يديه ربوات ربوات]** (نبوءة دانيال 7، 10) - ما هي طبيعة نهر النار؟ - أهو شبيه بنهر الأردن، الذي لا يتوقف عن الجريان ليلاً ونهاراً؟ - من أين يأتي؟ - من عرق الحياة الذي يفرزونه وهم يحملون عرش القدوس الواحد (الممجد).

كانت هذه النظرية حول أصل الملائكة موضع جدل قديم قدم النظريات الأخرى. يُخلق ملاك عند كل صوت ينطلق من فم القدوس الواحد (الممجد)، كما قيل: «تكونت السماء بكلام الرب وكل جيشها (جموع الملائكة) بالزفير الخارج من فمه. رأي مختلف يقول بأن الملائكة مكونة من نفس عناصر السماء: «الملاك مكون من نصف جزء من النار ونصف آخر من الماء. وله خمسة أجنحة».

معتقد آخر ينسب للملائكة «الأزلية» ولا يُقبل ديمومة جنسهم. (تكوين 11، 8، R). يحصل أن يقوم الله بعزل عدد كبير منهم عندما يعارضون إرادته. فهم ليسوا بحاجة إلى تغذية مادية لأن وهج الشيخينا يضمن بقاءهم (خروج 32 ,4). ولا تقلقهم النزوة الشريرة وهذا يعني أنهم غير معرضين للأهواء والانفعالات البشرية. (تكوين 11، 48، R).

الكائنات البشرية تشكل مع الملائكة ثالوثاً:

«يملكون المعرفة، فهم كالملائكة الذين يخدمون الله، قاماتهم منتصبة مثلهم، يتكلمون اللغة المقدسة (العبرية)». فيما يتعلق باللغة حصراً، فإن جبريل مدرَّبٌ على جميع لغات العالم، وكان الملائكة يجهلون الآرامية لذلك من الأجدر بهم عدم عرض مطالبهم على الله باستعمالهم تلك اللغة. لأن الملائكة تحمل الصلوات والابتهالات إلى السدة الإلهية.

القصد من طرح هذه الفرضية هو المحافظة على استعمال العبرية على الأقل في الصلاة، بينما تظل الآرامية كلغة أصلية لليهود.

هناك بعض الواجبات الخاصة موكلة لقسم من الملائكة. بعضهم مكلفون بكل ما يتعلق بالصلاة كان يقال: «عندما تنتهي أعمال العبادة، تقوم الملائكة المخصصة للصلاة بجمع (التضرعات) المقدمة لله، ويصنعون منها الأكاليل ويضعونها على رأس القدوس الواحد (الممجد)» (خروج 4، 21، R). بما أنه يوجد إرشاد على هذا النص: «آه، أنت من يسمع الصلاة، وكل البشر يتجهون نحوك» (مزمور، 65، 2). لم يتمكن الملاك من تقديم نفسه كوسيط بين المتعبد والله. وهذا يناقض بشكل قاطع المبدأ العام: «يقف الله إلى جانب أي شخص يتوسل إليه بإخلاص وصدق» وهذا النص المأخوذ به لم يكن سوى تلاعب بالكلمات «أديخا» بمعنى «إليك»، ويمكن لفظها «إيديخا» بمعنى «حلّتك»، «زينتك» والصلوات المقصودة هي مدائح لله، العنصر المسيطر في الديانة اليهودية.

بيد أنه من الممكن أن تكون عادة التوسل للملائكة قد تطورت في التدين الشعبي. هناك بقايا في طقوس الصلوات العبرية، يجب قراءتها قبل الخلود للنوم، تبدأ الصلاة بهذه الكلمات: «باسم الرب، إله إسرائيل، ليأخذني الملاك ميخائيل من يميني وجبرائيل من يساري، أوريال، أمامي رفائيل خلفي، ليسكن الإله في مخيلتي». وكان الحاخامات يعترضون على هذه الكلمات المنسوبة إلى الله: «إذا تعرض رجل للألم، يجب ألا ينادي على ميخائيل وجبريل، ليدعوني أنا (الله)، فأستجيب له في الحال».

لا يوجد أي ملاك يشار إليه باسمه في التوراة السابقة لرؤيا دانيال. إن هذه الرؤيا تذكر لأول مرة جبرائيل وميخائيل (واحد من الزعماء الرئيسيين) أو الرئيس الأعظم [**وسمعت صوت إنسان من وسط أولاي قد نادى وقال يا جبرائيل بيِّن الرؤيا لهذا**] (دانيال 8، 16). [**بينما كنت أتكلم بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا عند البداءة قد طار سريعاً ولمسني في وقت تقدمة المساء**] (دانيال 9، 21). [**وقد قاومني رئيس مملكة فارس واحداً وعشرين يوماً فأتى لنصرتي ميكائيل أحد الرؤساء الأولين**] (دانيال (10، 13). [**في ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك**

الزمان] (دانيال 12، 1). لهذا كان الحاخامات يصرِّحون: «لقد جاءت أسماء الملائكة إلى إسرائيل من بابل». الإشارة إلى ميكائيل كأحد الزعماء الرئيسيين، اعتقاداً بوجود مرتبات بين الملائكة. يقف في القمة أربعة رؤساء للملائكة، تتوافق مع الأقسام الأربعة للجنس الإسرائيلي حسب الأعداد 2. «بنفس السبب الذي خلق فيه القدوس الواحد (الممجد) الرياح الأربع (الجهات الأصلية)، والرياح الأربع (لجيش إسرائيل)، خلق أيضاً أربعة ملائكة ليحيطون بعرشه: ميكائيل، جبرائيل، أوريل، رفائيل. ميكائيل إلى يمينه منتمياً إلى عشيرة روبين، أوريل إلى يساره منتمياً لقبيلة «دان» الموجودة في الشمال، وجبرائيل إلى الأمام منتمياً لعشيرة يهوذا، وإلى موسى وهارون اللذين كانا موجودين إلى الشرق؛ روفائيل في الخلف متطابقاً مع عشيرة «ايفراهيم» إلى الغرب (الأعداد 10، 2، R).

ميكائيل وجبرائيل هما أعلى الملائكة؛ يظهر اسماهما عدة مرات كمتعاونين في نفس الخدمة. يشكلان عضوي شرف أثناء زواج آدم، الذي صنعه الله بنفسه (التكوين 10، 11، R). تفوَّق ميكائيل على جبرائيل بالجدارة، وحيثما يظهر، يكون مجد الشيخينا حاضراً (خروج 5، 2، R). وكان لكل أمة ملاكها الحارس؛ ميكائيل إله إسرائيل، يتخذ من نفسه محامياً عنها عندما قام الملاك الشرير (صموئيل) باتهام شعب إسرائيل أمام الله. ميكائيل الذي سيبشر سارة أنها ستلد ابناً. وهو من أشرف على تثقيف موسى. وأثبت مرات كثيرة في تاريخ الأمة فعاليته كمحامٍ يمكن الوثوق به. ضرب جيش سنحاريب (خروج 18, 5، R). حاول تجنب خطرَ النفي مدافعاً عن قضية إسرائيل أمام الله: أنقذهم حباً بالمؤمنين الموجودين بينهم. غير أن خطايا الشعب كانت دامغة جداً. عندما تآمر «هامان» على قتل ونفي جميع اليهود الفرس، دافع عنهم ميكائيل في السموات (أستير 12، 7، R).

أوكل الله لجبرائيل مهمات كثيرة. وكان واحداً من الملائكة الثلاثة الذين زاروا إبراهيم، وهو من أوكل إليه أيضاً تدمير «صادوم». وعندما حاول تخليص إبراهيم من أتون النار الذي ألقاه فيه الملك النمرود، قال الله له: أنا الواحد الأحد في هذا الكون، وإبراهيم وحيد؛ ينبغي أنا الوحيد أن أنقذه بنفسي. كما أنقذ جبرائيل «تامار» من المصير الحتمي الذي كان سيعاقب عليه لفجوره، وهو الموت حرقاً بالنار، وهو من حمى يوسف من نوايا فوطيفار السيئة، وعلمه سبعين لغة من لغات العالم. وهو من

خلص الخادمات من ابنة فرعون عندما كنَّ يحاولن إقناع سيدتهن بإنقاذ موسى. وفي الوقت نفسه كان يصدم الطفل ليبكي، بطريقة يثير فيها عطف الأميرة. كما أنقذ للمرة الثانية حياة موسى، حسب ما جاء في الأسطورة؛ عندما جرَّب فرعون العمل بنصيحة مستشاره «جيرّو» ليعرف إذا ما كان هذا الطفل مهيأ في المستقبل لقلب قوانينه. فقد وضع الفرعون أمام موسى جمراً متقداً وتاجاً، فإذا ما لمس الطفل التاج فإن النمرعون سيقتله. فاختار الطفل جهة الموت، (أي التاج)، لكن جبرائيل أبعد يديه إلى الفحم المتقد.

وحسب أسطورة غريبة: «عندما تزوج سليمان ابنة أحد الفراعنة، نزل جبرائيل إلى الأرض، وغرس وتداً في البحر ووضع حوله طبقة من الرمل الطمي، فأضحت جزيرة بنيت عليها مدينة روما الكبيرة. يراد بهذا التعبير، فكرة العمل الطائش لسليمان الذي سبَّب فيما بعد خلق إمبراطورية ساهمت في تدمير مملكة إسرائيل.

كان جبرائيل الملاك الذي تكلم عنه حزقيال والذي أمدَّه بأدوات كتابة، ليضع علامة على جبين سكان أورشليم الذين يجب استثناؤهم. كما مَنَعَ أنانياس، وموصائيل، وعازار ياس من الموت حرقاً. وساهم في المحافظة على الأمن والسلام لإسرائيل في عهد أسّوريوس، مقنعاً «فاستي» بإطاعة أوامر الملك الذي دعاه بالحضور إلى مأدبته؛ ضَمِنَ فيها اختيار «أستير» ملكة مكانه، وكتب في الحوليات الملكية قصته المقدمة من «ماردوشيه» بإنشائه المؤامرة المعدَّة لقتل الملك، بعد أن محاها «شيمشاي».

أما الملاكان الآخران الكبيران، فلا يروى عنهما سوى القليل. روفائيل كما يدل عليه اسمه كان «أمير الشفاء». ميكائيل وجبرائيل يرافقان زوّار إبراهيم وإليه يعود الفضل في شفاء رب العائلة من القسم الذي تلا ختانه. أما «أوريل» الذي يعني اسمه نور الله، فواسطته تلقى البشر معرفة الله. لماذا سمي أوريل؟ لأنه بسبب «التورا» والأنبياء والمؤرخين القديسين، فقد عفا القدوس الواحد (الممجد) عن الخطايا، وأنار إسرائيل.

كل ملاك كان بمثابة أمير لأحد عناصر العالم، كان «جبرائيل» أمير النار، «جوركيمي» أمير البَرَد، «ريديا» أمير المطر، «رحاب» أمير البحر، «ليلي» أمير الليل والحمْل (الولادة)، «دوما» ملاك الموت، وأمراء آخرون مذكورون دون أسماء خاصة مثل: أمير العالم، أمير جهنم.

تمكن الكتاب المتأخرون من تعيين هوية «أمير العالم»،إنه الملاك ميثاترون. هذا الاسم مأخوذ من اللاتينية metator استطلع، كان يُرى فيه الملاك الذي يسبق الإسرائيليين في الصحراء [**ها أنا مُسيِّر أمامك ملاكاً يحفظك في الطريق ويأتي بك إلى الموضع الذي أعددته**] (الخروج 23، 2).

كان في أحد الأوقات محاطاً بتقدير عظيم، لأنه يُنوِّه عن أهمية عدم توجيه الصلوات إليه.

قال أحد الصدّوقيين للحاخام إيديث: كما هو مكتوب: يقول موسى: اصعد إلى جانب الرب (الخروج 24، 1). [**وقال موسى اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد**]، يجيب الحاخام إيديث: إنه ميثاترون الذي كان يتكلم، (اسمه هو نفس اسم سيده) لأنه مكتوب: «اسمي موجود فيه». [**فتحفَّظْ له وامتثلْ قوله ولا تعصه فإنه لا يصفح عن جرمكم لأن اسمي فيه**] (خروج 23، 21) ـ في هذه الحالة يقول الصدّوقي يجب أن تقدم الصلاة له ـ أجاب الحاخام بالنفي لأن النص الكامل يقول: «لا تبدِّلوني به» (يُفهم من النص العبري أن المعنى الحقيقي، لا تقاومه أبداً).

إذا كان الأمر كذلك، لماذا تُتابع الآية القول: لأنه لن يغفر لكم خطاياكم؟ ـ أؤكد لك أننا لم نقبله حتى كإنسان لأنه مكتوب: [**قال إن لم يسر وجهك فلا تصعدنا من هنا**] (خروج 33، 15).

يلمح في بعض الأماكن إلى هرطقة ميثاترون لدى تشبهه بالله. يُروى أنه عندما صعد المرتد «آشِر» إلى الفردوس شاهد ميثاترون الذي بقي جالساً حتى الانتهاء من تسجيل مزايا إسرائيل. يقول «آشر»: لقد قيل أن لا تعب في السماء، ولا يجلس أحد هناك، لأن لا ظهر لأحد. (يظهر الملائكة كأنهم لا ظهور لهم، وأنهم بأربعة أشكال ليتمكنوا من النظر إلى الله. وما مشاهدة ميثاترون جالساً بخلاف الملائكة ما هو إلا دليل على أن ميثاترون يتمتع بسلطة إلهية)، فهل هناك سلطتين؟

ميثاترون هو مساعد الله لتعليم الشباب. وبينما يكرس الله لهم الساعات الثلاث الأخيرة من النهار، يمارس ميثاترون هذا العمل في باقي الوقت.

يُرافق ميثاترون ملاك آخر هو «سندالفون» وهي كلمة يونانية معناها أخٌ مشارك (لأخيه). يتمتع سندالفون بقامة أطول من جميع الملائكة «يصل رأسه وهو واقف

إلى السماء». يتحمَّل فرق الطول هذا بينه وبين الملائكة في المسافة التي يقطعها طيلة خمسمائة سنة. يقف خلف العربة السماوية (حزقيال 1، 10، PS). يصلي إلى الله، ينسج أكاليل الخالق.

تشكل الملائكة عائلة الله، تنشب أحياناً خلافات فيما بينهم تعكر صفو السلام على الأرض. كان من عادة الحاخامات أنهم يضيفون لصلواتهم اليومية هذا الطلب: «لتكن إرادتك يا إلهنا، حافظ على السلام العائلي في السموات وعلى الأرض».

تشكل الملائكة محكمة سماوية، لا يعطي الله أي قرار في العالم دون استشارتهم. لكن القرار الأخير لا يعود إلا إليه. وهكذا جمع آراءهم حول خلق الإنسان، ورفض اعتراضاتهم.

العدد الكبير من الملائكة الذين يؤلفون جسماً واحداً إن أمكن القول، هم قوة فعالة لخدمة العدالة في العالم كما سنرى فيما بعد، حيث يوجد ملائكة أشرار لا بدَّ من مقاومتهم.

إليكم نصين مدهشين في هذا السياق: في المرة الأولى التي صرَّح فيها الإسرائيليون: «سنفعله» ثم «سنسمع» [**وأخذ كتاب العهد فتلا على سامع الشعب فقالوا كل ما تكلم الرب به نفعله وتأتمر به**] (خروج 24، 7). فقد حضر ستون من آلاف الملائكة الخدم، ملاك لكل فرد يهودي (إسرائيلي) وشكلوا إكليلين فوق الشعب واحدٌ من أجل «سنعمل» وآخر «سنسمع». لكن إسرائيل ارتكبت الخطيئة بعبادة العجل الذهبي، فظهر مئة وخمسون من آلاف الملائكة المدمِّرين الذين خربوا واقتلعوا هذين الإكليلين.

ـ ملاكان خادمان يصحبان رجلاً عائداً إلى بيته من الكنيس عشية يوم السبت. أحدهما صالح والآخر شرير. ولدى دخوله المنزل رأى قنديل السبت مضاءً، والطاولة والسرير جاهزين، صاح الملاك الصالح: لتكن إرادته أن يكون كذلك في السبت المقبل! واضطر الملاك الشرير بالإجابة: آمين.

لكن لو لم يكن البيت معدًّاً بصورة لائقة تشريفاً ليوم السبت، يصرخ الملاك الشرير: «لتحاول إرادتك أن يتكرر المشهد يوم السبت المقبل!» ويجد الملاك الصالح نفسه مرغماً على الإجابة: «آمين».

الملاك إذن مثل شعاع للنعمة الإلهية، يشجع الكائن البشري على الاستمرار في

جهوده ليظهر مخلصاً في القيام بواجباته الدينية. غير أنه يقال أحياناً بأن ملاكين خادمين لم يتوقفا أبداً عن مرافقة الفرد، ليشهدا على سلوكه اليومي. وهذا يؤكد الفكرة القائلة إن أي عمل وفعل وحركة للإنسان حتى ولو جرت سراً، فستكون مسجلة على حسابه.

الرواية التاريخية لسقوط الملائكة التي نجدها في أدب الرؤيا، غائبة من التلمود والميدراش. الملائكة الأشرار لدى الحاخامات ليسوا سوى تخيل أو تصور معد للتعبير عن فكرة الغضب الإلهي، وظيفتهم تنفيذ القرارات التي يتخذها الله لمعاقبة الإجرام البشري. يُرى ذلك بوضوح في نصوص كثيرة. أمثلة: ماذا يعني التعبير التالي: بطيء حتى الغضب المطبق على الله؟ تعني أن غضبه الآن بعيد المنال، يمكن مقارنة الوضع بحالة ملك كان في خدمته فيلقان من الجنود القساة. قال في قرارة نفسه، لو أنني جعلتهم يقيمون في منزلي وأقدم السكان على إزعاجي، فسيُقْدم هؤلاء على معاملة السكان بقسوة. إذن سأبعدهم بقوة جحافلي، لكن عند حصول ما هو متوقع، سيعمل المواطنون على تهدئتي، هذا ما سأمنحهم إياه. بنفس الطريقة يقول القدوس الواحد (الممجد): «آف، وخيما: هما ملاكا التدمير والغضب. سأرسلهم بعيداً جداً، بطريقة فيما لو أزعجني فيها أبناء إسرائيل، وقبل استعانتي بالملاكين (آف وخيما)، يكون المذنبون قد تابوا وقبلت توبتهم». عندما قال القدوس الواحد (الممجد) لموسى: (سفر تثنية الاشتراع 9، 12) [**وقال لي الرب قم فانزل سريعاً من ههنا لأنه قد فسد شعبك الذين أخرجتهم من مصر زاغوا سريعاً عن الطريق التي سننتها لهم وصنعوا لهم تمثالاً مسبوكاً**]. سمع خمسة ملائكة هم: آف، خيما، كتزيف، مشخيث (مخرب)، ميخاللي (المهلك) وهمُّوا بمهاجمة موسى.

لدى كلامنا عن الملاك الشرير صاموئيل، زعيم كل الشياطين «يقصد به جميع الملائكة الأشرار وزعيمهم (الشيطان) المتقمص الخبث». هذه ملاحظة ذات مغزى؛ «الشيطان جيتزرهارا» و«ملاك الموت»، لم يكونا سوى شخص واحد. فهي تشير إلى أن نزوة الشر هي قوية ومتأصلة في الإنسان أكثر من أن مصدرها خارجي. تشرح أيضاً، لماذا سمح الله للشيطان بالعمل ولم يقضِ عليه. سنرى ذلك، «جيتزرهارا» سيشغل جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة البشرية التي بدونها سيفنى الجنس البشري.

يجب على كل إنسان أن يحرص دائماً على الإفلات من سلطة الشيطان. يوصي

أحد الحاخامين لأي شخص يستضيفه بلفظ هذا الدعاء أمام من يستقبله: «لينجح في كل مناحي الحياة؛ وليكن الشيطان دون سلطان على عمل يديه وأيدينا؛ وأن لا نسايره، وطرد أي رغبة منا في الخطيئة، وعدم إطاعته، وعدم ارتكاب المظالم من الآن وإلى الأبد».

إليكم نصيحة أخرى: «بأن لا يفتح أحد فاه للشيطان» (ابيبديم A 19)، أي لا يتلفظ بأي كلام سيئ النية قد يرتد عليه. دعماً لهذا التحذير، نعود بالذاكرة للرواية الجميلة الطريفة لـ«بيليمو»: كان من عادته تكرار مقولة: أن سيفقأ عين الشيطان، ويتصدى له. غير أنه حصل في يوم التكفير، أن ظهر له الشيطان على هيئة رجل متسوِّل مستجدياً على بابه، فأعطاه بيليمو قطعة من الخبز. قال الشيطان: في مثل هذا اليوم يلتزم جميع الناس منازلهم لكنني غريب ولا مأوى لي! أدخله بيليمو منزله ووضع طعاماً أمامه. استدرك الشيطان قائلاً: في هذا اليوم أيضاً يجلس الناس إلى مائدة محضرة، وأنا يجب أن أبقى وحيداً على المائدة: فكان له ذلك. كان جسم المتسول مليئاً بالدمامل والتقرحات. قال له بيليمو: كن نظيفاً على المائدة وحافظ على نفسك. أجاب الشيطان: أعطني كأس ماء، أحضر الكأس ووضعه أمامه. سعل المتسول وبصق في الكأس، زجره بيليمو وأنَّبه لتصرفه، ألقى المتسول بنفسه على الأرض متظاهراً بالموت. وسمع بيليمو صراخاً حاداً يقول: بيليمو قتل، قتل رجلاً.. أسرع بيليمو واختبأ في خزانة تبعه الشيطان إليها وأرغمه على الركوع أمامه بالقوة. نظر إليه بشزر وعرَّفه بنفسه. قال بيليمو: لماذا تستعمل هذه الأساليب، أجابه ما العمل إذن؟ الرحمن الرحيم يقاطع الشيطان. وبما أنه ليس للشيطان قدرة الحضور في كل مكان، فقد يلزمه الكثير من الرسل والمبعوثين لينفذوا أوامره.

ولاحظنا أن الملائكة الصالحين يرافقون الإنسان الصالح، والملائكة الأشرار يرافقون الخبثاء.

من أجل هذا يُعطى الرأي التالي: «إذا رأيت إنساناً صالحاً يسرع بالسفر، فعليك تتبع طريقه بعد ثلاثة أو أربعة أيام من سفره بطريقة تجد نفسك بصحبة هذا العادل، لأن رجلاً من هذا القبيل يسافر مع الملاك الحارس، ألم يقل: [**سيأمر ملائكته بحفظك ورعايتك في كل أسفارك**] لكن لو رأيت خبيثاً أو شريراً يتهيأ للسفر، وعليك اتباع الطريق نفسه، فيجب تقديم أو تأخير سفرك بطريقة لا تجد نفسك بصحبته لأنه كُتب:

«ضعه تحت سيطرة الشرير، بحيث يقف الشيطان على يمينه».

يقوم الشيطان بثلاث وظائف: يغري البشر، يتهمهم أمام الله، يصدر عقوبة الموت. إنه يغري لدرجة الامتياز؛ طرقه مميزة بتصرفه حيال الأحبار الأولين. يقرأ في التوراة سفر التكوين (21، 8) **[وكبُر الصبي وفُطم وصنع إبراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام إسحق]**، ويقول التلمود في ذلك: «وجَّه إبليس هذا الكلام إلى القدوس الواحد (الممجد) يا سيد العالم، لقد منحت بكرمك الفائق الوصف ذرية لهذا الشيخ في المئة عام من عمره، ومن ضمن هذه الأفراح التي يقوم بها، لا يحلم بأن يقدِّم لك حمامة أو يمامة! ـ هل يفعل هذا فقط من أجل ابنه؛ أجاب الله: لو أنني طلبت منه أن يضحي به إليَّ فإنه سيطيع فوراً».

بهذه الطريقة أصبح الشيطان مسؤولاً عن القضية، فعل ذلك كي لا ينفذ إبراهيم هدفه. رأى الشيطان صموئيل أبانا إبراهيم وقال له: «أيها الشيخ هل فقدت عقلك؟ هل ستقتل ابنك الذي وُلد وعمرك مائة عام؟ قال إبراهيم: طبعاً ـ إن الله يفرض عليك امتحانات أكثر شدة فهل ستكون قادراً على تحملها؟ ـ نعم حتى لو كانت أكبر من ذلك ـ لكن الله سيصفك غداً بالقاتل؛ ويتهمك بسفك دم ابنك! حتى في هذه الحالة، قال إبراهيم: عليَّ الطاعة: أمام هذا الفشل يتوجه إبليس إلى إسحق ويقول له: إنك طفل منكود الحظ، سيقتلك أبوك ـ أجاب إسحق: لا يهم. عليَّ الطاعة فقط. عندها استأنف إبليس الكلام قائلاً: جميع الملابس التي أخاطتها لك أمك ستكون من نصيب إسماعيل عدو أهلك، ألا تخاف من ذلك؟» لم تنفع جميع هذه الإيحاءات في الدخول إلى فكر إسحق وثنيه عن موقفه، ولكن كان لها مفعول جزئي. فقد وجه إسحق الكلام لأبيه إبراهيم فقال: يا أبتِ (سفر التكوين 22، 7) **[فكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبتِ. قال لبيك يا بني. قال هذه النار والحطب، فأين الحمل للمحرقة]**. لقد لُفظت كلمة أب مرتين؛ وهذا يعبر أن رغبة إسحق وحتى إبراهيم كانت مملوءة بالعطف المتبادل.

كان إبليس مسؤولاً أيضاً عن صناعة العجل الذهبي: يحمل النص هذه الكلمات **[ورأى الشعب أن موسى قد أبطأ في النزول من الجبل فاجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا فإن ذلك الرجل موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه]** (خروج 32، 1) عندما رأى الشعب أن موسى كان

تأخر (بوشيش) عن النزول من الجبل. تفسير تلمودي: لا تقرأوا (بوشيش)، بل (باوشيش)، عندما تسلق موسى الجبل كانت الساعة تشير إلى السادسة، وه تسلق موسى الجبل قال الإسرائيلي (اليهودي): بعد انقضاء أربعين يوماً ومع بداية الساعة السادسة سأعود»، غير أنه وبعض مضي أربعين يوماً ظهر إبليس وبث البلبلة في الأذهان. سألهم: أين معلمكم موسى؟

ـ لقد صعد إلى الجبل ـ لكن الساعة أصبحت بعد السادسة.

لم يصغِ الشعب لأقواله. عندها استأنف قوله: «لقد مات موسى». لم يتأثر الشعب بهذا الكلام. لجأ إبليس إلى رؤيا، حيث عرض أمام أعين الإسرائيليين (اليهود) صورة نعش موسى. في هذه اللحظة توجهوا بالطلب إلى هرون «هذا موسى لا نعرف ما حلّ به».

لم ينشر الشيطان الرقيّات المؤذية على الأرض فقط، بل اتهم البشر أمام الله. قيل: يتهم إبليس فقط عندما يكون هناك خطر. هكذا عندما يأتي طفل إلى هذا العالم، فيكون ملاك الموت (إبليس) قد وجه الاتهام للأم. إنه يوجه الاتهام في ثلاثة ظروف خطيرة: عندما يوجد إنسان ما في بيت متصدع معرض للانهيار، عندما نسير في الطريق مسرعين، عندما نخطط لسفر في البحر.

رُوي أنه عندما خرج اليهود من مصر، ظهر الملاك صموئيل ليتهمهم. قال أمام القدوس الواحد (الممجد): «يا سيد الكون، حتى الآن ما زالوا يعبدون الأصنام، وتريد إبعاد أمواج البحر من أمامهم».

كان إبليس يبذل جهوداً كبيرة في بسط نشاطه بقوة خصوصاً خلال الأيام الستة التي تفصل السنة الجديدة عن يوم الغفران، وهي الفترة التي يلتمس فيها اليهود الغفران عن خطاياهم. لكن الله، وبفضل نعمته، شلّه عن العمل ضد شعبه. غير أن صوت بوق النفير في اليوم الأول من السنة قد أربك إبليس. «في يوم التكفير يكون الشيطان مشلولاً لا سلطة له، غير قادر على اعتراض التماسات اليهود الطالبين العفو والغفران. الأحرف المدرجة في كلمة (ها ـ الشيطان) لها قيمة عددية: ثلاثمائة وأربع وستون، هذا يدل على أن قوته وسطوته وقدرته على توجيه الاتهام يمارسها خلال ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً من أيام السنة، وتتوقف في يوم التكفير.

أخيراً، إنه إبليس من يُميت الإنسان لذا يُعرف باسم «ملاك الموت». يظهر بهذا

اللقب في نصوص كثيرة. مثال: عندما تمرَّد «كوري» على موسى، تقدم ملك الموت ليفرِّق اليهود ويصيبهم بالأضرار، لو استطاع تنفيذ نواياه لأباد أمة بكاملها (أعداد 7، 5، R) غير أن موسى ردعه.

نصيحة واحدة من النصائح الكثيرة، يقدمها الحاخام يهودا الأمير لأبنائه وهي: لا تقفوا في مواجهة ثور قادم من مستنقع ماء، لأن الشيطان يرقص فوق قرونه، يميل الحيوان إلى نطح الناس بقرونه وقتلهم. حاخام آخر صاغ هذه الوصية: إذا ما انتشر وباء في منطقة أو محلة، عليكم ألا تسيروا وسط الطريق، لأن ملاك الموت يسير هناك. بما أنه حصل على تفويض في القتل، فإنه يسير علانية. أما إذا كانت الحالة الصحية لمنطقة ما مرضية، فعليكم ألا تسيروا على جانبي الطريق، لأن ملاك الموت لم يتلقَّ أي تفويض بالتسلل إليها خلسة.

العلاج الأساسي والوحيد الذي يجب تقديمه ضد مغريات الشيطان، وأمام خطر ملاك الموت هي (التورا). جاء في (سفر الخروج 24، 7) [**وأخذ كتاب العهد فتلا على مسامع الشعب فقالوا كلُّ ما تكلم به الرب نفعله ونأتمر به**]. أَوْكَلَ الرب الممجد ملاك الموت وقال له: رغم أنني وضعتك حاكماً للعالم، تمارس سلطتك على البشر، فليس من حقك التدخل في شؤون هذا الشعب لأنهم أبنائي (أحبار 3، 18، R).

رغم أن الجذور العميقة التي غرستها عقيدة الإيمان بالملائكة ـ ما سبق يثبت ذلك بوضوح ـ في الديانة اليهودية خلال فترة الزمن التلمودي، فليس أقل وضوحاً أن محاولات إضعاف هذا الإيمان وتقليص أهمية الملائكة قد انطلقت بحرية. يقال خاطئة بأن الإنسان عندما يخاف الله، يكون أعلى مرتبة من الملائكة.

يُستنتج من هذا، الوصف التالي: «عندما كان آدم يسكن في جنة عدن (دون خطيئة)، كان يجلس مرتاحاً، تقوم الملائكة على خدمته، تأتيه باللحم، وتقدم له النبيذ المصفَّى. ويقال أيضاً: «الصالحون هم أكبر من الملائكة الخدم. وإذا امتنع رجل عن ممارسة السحر، فإنه يدخل إلى جزء من السماء حيث لا يسمح للملائكة الخدم الدخول إليه. هذه الآراء تبلغ ذروتها في تصريح نموذجي».

«في الحياة المقبلة، سينظم الرب الواحد (الممجد) الإقامة السماوية للصالحين داخل المنطقة التي يتواجد فيها الملائكة الخدم» إذن القريبة جداً من عرشه.

على الأرض لها تداعياتها على الله في السماء. كل من يتمرد أو يقف ضد إسرائيل، فإنه يتصرف كما لو أنه يتمرد على الرب القدوس الممجد. وكل من يكره إسرائيل يشبه من يبغض الله (ميخ على خروج 15، 7، a36) (سفر الأعداد 84، 22، B).

في حين لو أن إسرائيل هي شعب الله المختار، فهي ليست بفعل تلقي الشهادات الخاصة لصالحها من الله. لا تتلقّى إسرائيل بسبب هذا الاختيار، أي مكسب مادي أفضل من الأمم الأخرى، لكن إسرائيل تتحمل مسؤولية أكبر، وستجد نفسها معرضة أكثر للتأنيب والعقوبات. إسرائيل هي حاشية الملك، ومن واجبها تقليده (سفر لاوي أحبار، 2، 19) هذا لأن الله يعز ويجلّ إسرائيل أكثر من آلامها. (خروج 1، 10، R) لقد منح الرب القدوس الممجد إسرائيل ثلاث هبات ثمينة، بعد عذابها، هذه الهبات هي: «التورا»، بلاد إسرائيل، العالم الآتي المستقبل.

المسؤولية الأساسية لإسرائيل بصفتها حارسة «التورا» تفرض عليها الوحي الإلهي لأن الهدف من خلق العالم كان تسبيح الله وتمجيده بواسطتها، وأن إسرائيل دُعيت لتلقيها.

كانت إسرائيل فكر الله قبل خلق الكون (تكوين 4، 1، R). لم تخلق السماء والأرض إلا مراعاة لإسرائيل (لاوي 4، 30، R).

وبما أن العالم لا يمكن أن يوجد بلا رياح، كذلك من المستحيل له أن يوجد دون إسرائيل (Taam ،3b). يُستبعد هنا أية نيّة في تمجيد النفس، لأن كل هذه الأقوال المأثورة يقصد بها إسرائيل حارسة «التورا»، ومن ثم تفرض فيما بعد واقعاً من نوع روحي.

لم يكن اختيار إسرائيل اختياراً اعتباطياً، وحتى لا توجد إمكانية لوصف الله بالمحاباة، يروي تقليد أن التوراة كانت قد أعطيت لجميع الأمم، وإسرائيل وحدها قبلت بها. لماذا اختار الرب القدوس الواحد (الممجد) إسرائيل؟ لأن جميع الشعوب رفضت «التورا» ورفضت استقبالها، بينما قبلت إسرائيل بها واختارت الرب القدوس (الممجد)، والتوراة (الأعداد 10، 14، R).

هذه الفكرة موضحة بشكل واسع في الأسطورة التالية: عندما أراد الله منح التورا لإسرائيل، لم يظهر لهذا الشعب فقط بل لجميع الأمم. توجّه أولاً لأبناء إسرائيل وقال لهم: أتقبلون الـ«تورا»، سألوا ما فحواها؟ قال الله لهم: لا تقتل ـ أجابوا سيد الكون:

أصلاً كان جدنا يريق الدماء كما قيل: [**فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فجسَّه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو**]. (تكوين 27، 22).

لهذا تنبأ له والده بما يلي: [**بسيفك تعيش وأخاك تخدم ويكون أنك إذا قويت تكسر نيره عن عنقك**] (تكوين 27 ,40).

التفت الله إلى أبناء عمّون وموآب وقال لهم: هل تقبلون الـ «تورا»؟ أجابوا: ماذا تنص؟ أجاب: لا تزنِ. قالوا له: يا سيد الكون إن وجود هذا العالم ناتج من فعل الفجور! تركهم وذهب إلى أولاد إسماعيل، قال لهم: هل تقبلون الـ «تورا»؟ أجابوا بماذا كانت توصي؟ أجاب: لا تسرق. قالوا له: يا سيد الكون إن حياة جدنا متعلقة بالسرقة لأنه مكتوب: [**ويكون رجلاً وحشياً يدُه على الكل ويدُ الكل عليه وأمام جميع أخوته يسكن**] (التكوين 16، 12).

لا توجد أي أمة لم يذهب إليها الله ليقدم لها الـ «تورا»؛ أليس مكتوباً: [**جميع ملوك الأرض يوجهون إليك الرحمة أيها الأزلي، لأنهم سمعوا الكلام من فمك**] (4، 138، مزمور). لقد قبل أبناء نوح الوصايا السبع، لكنهم أصبحوا فيما بعد غير قادرين بالمحافظة عليها، رفضوها، وأعطوها لإسرائيل (تثنية الاشتراع 343؛ b 142). إذا لم تقبل أية أمة الوحي، فيكون الخلق عندها قد أخطأ هدفه، وأبيدت معه شعوب الأرض لأن التورا هي سبب وجوده.

مثال: ملك لديه في بستانه صفوف من أشجار التين، والكرمة والرمان والتفاح؛ أوكل بعنايتها لمزارع وسافر. وبعد رجوعه جاء ليتفقد البستان وليقدِّر عمل المزارع، فوجد فيه ركاماً من الشوك والعوسج. كلَّف مزارعاً آخر بنزع الأعشاب الضارة والأشواك، لاحظ الملك وجود وردة رائعة، قطفها وشمَّ عطرها الذي سحره. عندها قال الملك: بسبب هذه الوردة سيترك الأعشاب والأشواك في الحديقة. هكذا الكون كله خلق من أجل التورا. وبعد ستة وعشرين جيلاً تفقد الرب الواحد الممجد الكون ليقف على الحالة التي وصل إليها. فوجده مليئاً بالماء الذي استخدم للقضاء على الأجيال الفاسقة. عندها كلف من هم مهتمون بالتدمير ليخربوا العالم، هكذا كتب: كان الرب جالساً أثناء الطوفان (10، 29، مزمور) غير أنه ميَّز وردة أسماها إسرائيل، أخذها وشم عطرها في الوقتِ الذي كان يعطيها الوصايا العشر وأعجبته. [**فكتب موسى جميع كلام الرب وبكَّر في الغداة وبنى مذبحاً في أسفل الجبل ونصب اثني**

عشر نصباً لاثني عشر سبطاً في إسرائيل]. (خروج 24، 4).

أعلن الرب الواحد الممجد: «بسبب هذه الوردة سيعفو عن الحديقة. وبفضل الوصايا وإسرائيل سينقذ العالم» (أحبار 3، 23، R).

بعد الخروج، كانت إسرائيل الخارجة من مصر قد هلكت في الصحراء لأنها رفضت الوحي. قَلَبَ الرب القدوس الممجد جبل سيناء فوقهم مثل غطاء كبير ونادى: «إذا قبلتم الوصايا فهذا جميل، وإلا ستجدون نعشكم هنا» (Shab ،88a).

من الواضح إذن من وجهة نظر الحاخامات، أن شعبهم لم يكن موهوباً بأي تفوق استثنائي أو فطري يؤهله التمييز والمحاباة التي منحهما إياه الله. كان وضعه المميز سيؤخذ منه في اللحظة التي كان سيتخلى بها عن الوصايا. وبالمقابل يجب على إسرائيل ألا تعتبر أن الوصايا مُلْكٌ قاصر عليها. بالعكس إنها مُعدَّة للإنسانية جمعاء. يوم سعيد حين تقبل الأمم هذه الوصايا.

من هذا الأمل تأتي النصوص التالية: كل جملة خارجة من فم العلي القدير تنقسم إلى سبعين لغة (Shab ،88b). شرح موسى الوصايا في سبعين لغة (تكوين 2، 49، R). التعبير الأكثر تنوعاً في هذه النظرية نجده في التفسير الحاخامي [**فاحفظوا رسومي وأحكامي فمن حفظها يحيا بها أنا الرب**] (أحبار 18، 5).

من أين يستنتج أنه حتى الوثني الذي يطيع الوصايا هو مساوٍ للكاهن الأكبر؟ كلمات: من سيحيا سيعيش بها. الشيء، نفسه يقال: إنه قانون بشرية، السيد الإله (2 صموئيل 7، 19). لا قانون الكهنة، أو اللاويين أو إسرائيل. بل هو قانون البشرية كذلك وصية (إشعيا 26، 2) لا تصاغ هكذا: افتحوا الأبواب، دعوا الكهنة أو اللاويين أو إسرائيل يدخلون بهذه العبارات بل: [**افتحوا الأبواب ولتدخل الأمة الصديقة الحافظة للحق**] وفي مكان آخر غير مكتوب: هو ذا باب خالد، سيدخل منه الكهنة، ثم الصالحون، ولا يقال ابتهجوا بالرب أيها الكهنة، اللاويون، إسرائيل.. بل ابتهجوا بالرب أيها الصالحون (4، 125 مزمور) هكذا حتى أن أي وثني يطبق الوصايا يصبح مساوياً للكاهن الأكبر.

لا شيء مدهش سوى البعد الكوني الخلاصي لهذه العقيدة، الفكرة السائدة المنسوبة لليهودية الحاخامية ترفض صفة ضيفة، حصرية عرقية.

حتى الأضاحي المحتفل بها في الهيكل كانت تجري من أجل سعادة الإنسانية. في

اليوم الثامن من عيد المظلة، يُقدم سبعون عجلاً إكراماً لسبعين أمة. الويل للشعوب؛ كم كانت خسائرها كبيرة، لكنهم لا يعلمون ما فقدوه: طالما بقي الهيكل، فالمذبح يشكل بالنسبة لهم الغفران؛ الذي لم يعرفوه في ذلك الزمن؟ (Souk ،55b).

بيد أنه من المحتم أحياناً مصادقة لبعض التأكيدات التي تظهر فكراً مخالفاً. إليك بعض النماذج: كل وثني يقوم بدراسة التوراة يستحق الموت لأنه قيل: [**أمرنا موسى بالتوراة ميراثاً لجماعة يعقوب**] (تثنية الاشتراع 33، 4)، الإرث لنا وليس للآخرين.

طلب موسى أن تبقى الشيخينا في إسرائيل ووافق الله على ذلك كما يقال: [**فإنه بماذا يُعرف أني نلت حظوة في عينيك أنا وشعبك أليس بسيرك معنا فنختار أنا وشعبك من كل أمة على وجه الأرض**] (خروج 33، 16).

كان يطلب أن لا تحل الشيخينا على شعوب العالم الأخرى، ورضي الله بذلك لأنه قيل: بشكل نكون مميزين أنا وشعبك. على الأرجح فإن تصريحات من هذا القبيل تعود أسبابها لانتشار المسيحية، لأن المسيحيين كانوا يدرسون الكتب المقدسة ويؤكدون أن النعمة الإلهية ترتكز عليهم.

كان المثل الأعلى للديانة الحاخامية هو أن سلطة الإله تشمل جميع شعوب العالم، والقاعدة التالية تذكر به اليهود دائماً. التبركة التي لا تتضمن أي عودة للسلطة الإلهية، هي ليست تبركة أو نعمة إلهية. هذا معناه أن على التبركة البدء بهذه الصيغة: «لتكن مباركاً أيها السيد إلهنا، ملك الكون» ينتج من ذلك أنه لا يمكن غلق الباب بوجه أي وثني يطلب قبوله لأسباب منصفة.

في البداية كان يرحب بالمنقلبين مع التقدير والاحترام [**لأن بني إسرائيل عبيد الذين أخرجتهم من أرض مصر أنا الرب إلهكم**] (أحبار 25، 55). أطفال إسرائيل يدعون عبيداً وكذلك الوثنيون المتهودون لأنه قيل: [**وبنو الغريب المنضمون إلى الرب ليخدموه ويحبوا اسم الرب ويكونوا له عبيداً كلّ من حافظ على السبت من أن يُنقض وتمسَّك بعهدي**] (إشعيا 56، 6).

الإسرائيليون يسمَّون وزراء لأنه قيل: «ينادوننا كهنة الرب، وزراء إلهنا» (إشعيا 61، 6).

[**أما أنتم فتدْعَوْن كهنة الرب ويقال لكم خَدَمَةُ إلهنا تأكلون غنى الأمم وبمجدهم تفتخرون**] (إشعيا 61، 6). والشيء نفسه بالنسبة للوثنيين المتهودين لأنه

مكتوب «الغرباء الذين يتعلقون بالرب للقيام بخدمته». لأنه قيل: أبناء إسرائيل يدعون أصدقاء، وقيل أيضاً: «نسل إبراهيم خليلي» (إشعيا 41، 8). [**أما أنت يا إسرائيل عبدي ويا يعقوب الذي اخترته نسل إبراهيم خليلي**].

والوثنيون المتهودون يتلقون اللقب نفسه لأنه مكتوب: «الله صديق الوثنيين المتهودين». (تثنية الاشتراع 10،18) [**قاضي حق اليتيم والأرملة ومحب الغريب يرزقه طعاماً وكسوة**].

وكلمة «تحالف» استعمال مطبق على إسرائيل لأنه قيل: عهدي سيكون في جسدك [**يُختن المولود في بيتك والمُشترى بفضتك فيكون عهدي في أبدانكم عهداً مؤبداً**] (تكوين 17، 13).

ويطبق بصورة مشابهة على الوثنيين المتهودين الذين قيل عنهم: يثبت في عهدي إشعيا (56،6). [**وبنو الغريب المنضمون إلى الرب ليخدموه ويحبوا اسم الرب ويكونوا له عبيداً كل من حافظ على السبت من أن يُنقض وتمسَّك بعهدي**].

الكلمة «مقبول» تطبق على إسرائيل لأنه قيل: لكي يكون مقبولاً أمام الرب (خروج 28،38) [**وتكون على جبهة هرون فيحمل هرون إثم الأقداس التي يقدِّسها بنو إسرائيل لجميع عطايا أقداسهم وتكون على جبهته دائما للرضى عنهم بين يدي الرب**].

كذلك الوثنيون المتهودون الذين تقبل تضحياتهم الكبرى وتقدماتهم على مذبحي (إشعيا 56،7) [**آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرِّحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مرضية على مذبحي لأن بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الشعوب**].

(خروج 22، 20) [**من ذبح لآلهة إلا للرب وحدَه فليُبسلْ**].

شروحات أخرى تحاول إثبات أن الإسرائيلي والوثني، المتهود موضوعان على قدم المساواة.

على هذه الآية (تكوين 12،5) [**فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وجميع أموالهما التي اقتنياها والنقوش التي امتلكاها في حاران وخرجوا ليمضوا إلى أرض كنعان وأتوا أرض كنعان**].

نصل إلى الاستقراءات التالية: جنَّد إبراهيم وثنييْن متهودين من بين البشر، وأخذ سارة من وسط النساء، أي إنسان يأتي بوثني إلى جوار الله ويجعله يعتنق اليهودية، يكون كما لو أنه خلقه.

توصل أحد الحاخامات للقول: أن الرب القدوس الممجد عزل إسرائيل عن باقي الأمم لسبب واحد فقط: هو أن يتمكن الوثنيون المتهودون من الانضمام إليه (87b، Pes).

فكرة مناقضة تظهر بشكل منعزل: إن الوثنيين المتهودين مزعجون لإسرائيل كالجرح. لكن هذا ناتج من التجربة التي جرت في فترة كان المتقلبون قد تصرفوا بطريقة سببوا فيها للطائفة اضطرابات مزعجة ووضعوها في حالة من الخطر. لقد دُقِّقت هذه المسلمات بعناية فائقة، وأخضعت الأسباب التي كانت تحددها لتمحيصات دقيقة. انظروا كيف تمَّ احتفال القبول: عندما يصل وثني متهوِّد، في الوقت الذي كان يُقبل فيه كمنقلب، يُسأل: «ما هي الأسباب التي دعتك لتغيير دينك؟ هل تعلم أن إسرائيل تتعرض حالياً للبليَّة والاضطهاد، للإذلال، وللأحزان، وتعاني العقوبات؟» فإذا أجاب: أعرف ذلك وأنا غير جدير (لمقاسمة قساوتها)، يُقبل، ويُثقف، ببعض المبادئ الأولية، القليلة الأهمية والتي منها أساسية. وكذلك العقوبات المتعلقة بها. يقال له: «إعلم أنه قَبْلَ اجتيازك هذه المرحلة، فإنك تستهلك حصتك من الشحوم الممنوعة، وتدنس السبت دون أن تتعرض لأي عقوبة، لكن من الآن وصاعداً إذا ما ارتكبت هذه المخالفات فستلحق بك عقوبات رهيبة». وبالطريقة التي أعلمناه بها عن العقوبات المتعلقة بالمبادئ، سنُعلمه بالمكافآت. يقال له: «إعلم أن العالم الآتي مخصص للصالحين، وأن إسرائيل حالياً غير قادرة على قبول غزارة المكافآت، أو كثرة العقوبات». مع ذلك من غير الضروري ردعه بجفاء. إذا وافق على ذلك يُختن فوراً. وبعد أن يتعافى من ذلك نُخضعه للتغطيس (في حوض خاص مع مراعاة الشعائر الدينية) دون تأخير، بينما يقف تلميذان من تلاميذ العقلاء على جانبيه، ويعرِّفونه بالمسلمات العادية والهامة. بعد أن يخضع للغطس ويخرج من الماء يصبح بنظر الجميع يهودياً.

يعتبر هلِّيل مميزاً عن الجميع بالدفاع عن الوثنيين المتهودين. فقد نادى بهذا الشعار: «كونوا من عداد تلاميذ هرون، أحبوا السلام وابحثوا عنه، أحبوا رفاقكم، وجميع المخلوقات، وآتوا بهم إلى التوراة. يُروى أن وثنياً جاء إلى «شمَّاي» وطلب منه قبوله

كمنقلب عن الوثنية شرط أن تتلى عليه التورا كاملة وهو يقف على قدم واحدة. طرده الحاخام بالعصا التي كانت بين يديه. ثم ألحَّ بالطلب للحاخام هلّيل الذي قال له: «ما تمقته لنفسك لا تفعله لقريبك. هذه هي كل الشريعة، اذهب وتعلمها».

لقد أُعدَّ نظام أخلاقي خاص للوثنيين غير المحضرين للدخول في حظيرة إسرائيل، يُعرف باسم «الوصايا السبع لأبناء نوح» وهذه الوصايا هي: «مارسوا العدالة، امتنعوا عن تجديف اسمه، لا تعبدوا الأصنام، إياكم والفسق، لا تقتلوا، لا تسرقوا، لا تأكلوا عضواً مأخوذاً من حيوان حي». بالسلوك المستقيم المبني على هذه القوانين الأساسية، فإنهم سيستحقون القبول الإلهي. النص التالي: [**البرُّ يُعلي الأمة وعار الشعوب الخطيئة**] (الأمثال 14، 34). كان مطبقاً على إسرائيل، وقد أشير إليه في الجملة الأولى، وعلى الوثنيين بالجملة الثانية. مثل الكلمة المترجمة «عار» أي خزي، تعني بشكل خاص «تقوى»)، حيث يُترجم النص: حتى الأفعال التقية للوثنيين هي بالنسبة لهم خطيئة، لأن الأسباب كانت ملطخة بعدم الطهارة. لكن الحاخام «جوخانان زكّاي» لم يقبل بهذه النظرية، فكان يقول: «الحقيقة أن التقدمة بالنسبة للخطيئة تشكل تكفيراً لإسرائيل، وتؤمن العدالة لباقي شعوب العالم». فضلاً عن ذلك، فإن الله عادل لدرجة أنه «يحاكم الوثنيين حسب أفضلياتهم».

الأحكام القاسية التي يفرضها التلمود على غير اليهود، نابعة من قناعة التي بحسبها «أن الوثنيين معرضون للخلل وعدم الانتظام». كان الحاخامات يغتاظون لدى التثبت إلى أي درجة كان السلوك حيالهم متساهلاً؛ وكانوا يشعرون بعرفان شديد لمزايا الأفكار المتشددة التي يقدمها لهم دينهم. صلاة تتلى لدى مغادرة بيت الدرس، تقال هكذا: «أشكرك أيها الرب إلهي، إله أخوتي، لأنك وضعتني في صف أولئك في بيت الدرس والكنيس، وليس مع أولئك الذين يرتادون المسارح والملاهي، فأنا أعمل لإرث الفردوس وهم يعملون لهوّة الفناء».

هناك بعض التصريحات المرّة التي كانت تنبثق من القلق الذي يسببه الاستفزاز الكبير: ما هو مرفوض كلياً هو التالي: اقتلوا أفضل الوثنيين، اسحقوا رأس أفضل الأفاعي (Mekh على خروج 14، 7، a27). لكن يجب أن نتذكر أن مؤلفها هو الحاخام «شمعون بن جاكاي» الذي عاش زمن اضطهاد أدريان، والذي شاهد معلمه الحاخام عقبة يتعرض لإهانات شيطانية من الرومان، واضطر للتخفي مع ابنه مدة ثلاث

عشرة سنة لينجوا من الطغاة المستبدين. لا تعبر كلماته عن مشاعر شخصية، ومن الظلم أن نجد فيها الصورة الصحيحة عن العقيدة التلمودية.

إن معارضة اليهود للوثنيين تندرج في إطار طابع أخلاقي؛ ولا تخرج عن نطاق باقي الأعراق. هذا ما يوضحه النص التالي: صرَّح الحاخام اليعازر: «ليس لأي وثني حصة في العالم الآتي، وكما يقال: يعود الشرير إلى مقام الموتى»؛ كذلك الأمم التي تنسى الله. الشرير يدل على الأشرار من شعب إسرائيل. يرد الحاخام يشوع: «إذا كان النص يقول: يعود الشرير إلى مقام الأموات وكذلك الأمم، فسأكون متفقاً معك، لكن النص يضيف: الذين ينسون الله». فيجب أن يكون والحالة هذه بين الأمم أناس صالحون، سيكون لهم موضع في العالم الآتي. الصالحون من جميع الشعوب يرثون سعادة المستقبل، هذه هي العقيدة المتلقاة في الديانة اليهودية الحاخامية.

الفصل الثالث

عقيدة الإنسان

١ ـ الكائن البشري

خلق الله الإنسان على صورته ومثاله. إنه المبدأ الأساسي لعلم الإنسان الحاخامي. ومنذ ذلك الوقت أضحى الإنسان أعلى الكائنات المخلوقة، ويمثل الذروة في عملية الخلق. «الإنسان محبوب لأنه مخلوق على صورة الله، لكنه ولسبب خاص أكثر من خلقه على صورة الله، زوَّده بالمعرفة»، كما قيل. لأن الله صنع الإنسان على صورته. **[إن يكن سافِكُ دم الإنسان إنساناً فدمه يُسفك لأنه بصورة الله صُنع الإنسان]** (تكوين 9، 6) (18، 3، Aboth).

يعطي هذا الواقع للكائن البشري الأهمية العظمى في البنية الكونية. «كائن بشري واحد مساوٍ لكل الخلق». في البدء خُلق الإنسان وحيداً، وأن أي فرد يقضي على وجود واحد، يُعزي إليه الكتاب المقدس، كما لو أنه دمَّر العالم كله. وأي فرد يُنقذ وجوداً واحداً فإن الكتاب المقدس يحاسبه بالطريقة نفسها كما لو أنه أنقذ العالم كله. (Sanh ،4, 5) إضافة لذلك، بما أن البشر صُنعوا على الشبه الإلهي، فهم ملزمون بالحفاظ على هذه الحقيقة الحاضرة في ذهنهم خلال علاقاتهم المتبادلة. وأي إساءة توجَّه للإنسان تصيب الله من تلقاء نفسها. يصرح الحاخام عقبة: إن هذه الوصية: **[لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك وقريبك أحببه كنفسك أنا الرب]** (أحبار 19، 18) تشكل المبدأ الأساسي للوصايا ويستخلص منها: لا تقل أبداً: نظراً لأني محتقر، فسيكون قريبي محتقراً من قبلي، وبما أنني ملعون، فسيكون قريبي ملعوناً من قبلي. يقول الحاخام «توخوما»: إذا ما تصرفتم بهذه الطريقة فاعلموا من احتقركم، لأن الله صنع الإنسان على صورته (تكوين 7، 24، R).

مع قبولنا بفكرة تسلسل نسب الإنسان بالنسبة إلى الله، فإن الحاخامات لم يلحوا على الهوة التي كانت تفصلهم عنه. إذا كان الإنسان إلهياً جزئياً فمن جهة أخرى يظل أرضياً. جميع المخلوقات التي تكونت من السماء مؤلفة من جسد وروح وهي من أصل سماوي؛ وكل التي خلقت من التراب هي جسد وروح أيضاً ومن أصل أرضي باستثناء الإنسان الذي تأتي روحه من السماء وجسده من الأرض.

منذ ذلك الوقت إذا ما أطاع إنسان التورا، وعمل بإرادة أبيه الذي في السموات، فهو يشبه المخلوقات الآتية من الأعالي. كما هو مكتوب: «قلت: أنتم آلهة، أنتم جميعاً أبناء العلي» (82,6، Ps). لكن من لا يطبق التورا، ولا ينفذ إرادة أبيه السماوي، فيكون أشبه بالمخلوقات السفلية، كما قيل: [**بيد أنكم ستموتون مثل البشر**] (سفر تثنية الاشتراع).

يوصف الكائن البشري بطريقة مخالفة للطبيعة المختلطة، بأربعة ألقاب تشبه إنسان الكائنات العلوية، وبأربعة أخرى السفلية. مثل الحيوانات يأكل ويشرب، يحافظ على النوع، يحيا، يموت. ومثل الملائكة يقف منتصباً، يتكلم، موهوب الذكاء، يرى (بمعنى له عينان في الأمام وليس على الجانبين كالحيوانات).

كان للخلق هدف واحد، هو منح الإنسان فرصاً لتمجيد خالق العالم.

منذ بداية تكوين العالم، ارتفع المديح نحو القدوس الواحد «الممجد!» نابعاً من وسط المياه، لأنه قيل: «فوق صوت البحار، فوق أمواج البحر العاتية» (93,4، Ps). ماذا كان يعلن هذا الصوت؟ الآتي: «الرب في عليائه يعلن القدوس الواحد «الممجد»: هذه البحار التي لا فم لها ولا لغة تقدم لي مديحاً من هذا القبيل، فكم سأكون ممجداً عندما خلقت الإنسان!».

نحو هذا النور يجب فهم وتوجيه الحياة. بهذه الطريقة يشرح النص القائل: «الأموات لا يهتفون للرب» (115، 17، Ps). يوضح التلمود، أنه على الإنسان الاهتمام دائماً بالتورا قبل الموت، لأنه ما أن يصبح في عداد الموتى فهو معفى منها ولا يمكن للقدوس الواحد «الممجد» تلقي أي مديح منه.

يقضي الإنسان حياته بالحصول على المكتسبات المادية بصعوبة، هذا ناجم عن إدراك أن هذا النوع من التملك ليس له سوى قيمة عابرة. كان لدى أبزوب حكمة تشرح هذه الحقيقة: «مرَّ ثعلب من جانب بستان محاط بالسياج من كل جانب؛ حاول تسلق السياج فلم يستطع، عثر في النهاية على ثقب صغير حاول المرور منه فلم يستطع لأن الثقب أصغر من جسم الثعلب. ماذا فعل؟ صام ثلاثة أيام، عندها سمح له ضعفه بالمرور من الثقب، فحصل في البستان على مأدبة فاخرة من الفواكه وغيرها، بالطبع أكل وسمن. وعندما أراد الخروج من الثقب لم يستطع. عاد ثانية وصام ثلاثة أيام إلى أن ضعف واستطاع الخروج من البستان. وبعد أن أصبح خارجاً التفت متأملاً

البستان قائلاً: يا كرم، يا كرم: ما أطيبك وأطيب ثمارك ولكن ما الفائدة منك. مثلما دخلنا سورك كذلك خرجنا».

هكذا الحال بالنسبة للعالم، عندما ندخله، يجمع كل واحد قواه ويقول: «سأرث كل ما هو حولي. وعندما نخرج من العالم تكون اليدان مفتوحتين كما لو يقال: لم أكسب شيئاً من هذا العالم» .

ما يجب أن يكسبه الإنسان، والذي يجب أن يجهد في جمعه، هو كنز من الأعمال الجديرة بالتقدير. هذا يُجِلُّ من شأنه بعد الموت. ما يصاحب الإنسان في ساعة الرحيل لا الذهب ولا الفضة، ولا الأحجار الكريمة أو اللؤلؤ، بل الشريعة والأعمال الصالحة، كما قيل: [**هي تهديك في سيرك وتحافظ عليك في رقادك وإذا استيقظت فهي تحدثك**] .

- في القبر سيحدثونك عندما تستيقظ - في العالم الآخر. (Aboth ،6 ،9).

يحكى أن «مونوبازوس» ملك «آديابين» المنقلب لليهودية (القرن الأول بعد الميلاد) قد وزع ثروته على الفقراء في فترة من المجاعة. كان المحيطون به يلومونه لتبديد ثروته بهذا الشكل. ردَّ عليهم قائلاً:

«كان أجدادي يجمعون الكنوز لهذه الدنيا، أما أنا فقد جمعتها إلى هناك، إلى فوق في السماء. كانوا يجمعونها هناك حيث القوة هي السيِّد، أما أنا فسأضعها هناك حيث تكون القوة عاجزة. كنوزهم لا تحمل أية ثمرة، أما كنوزي فستكون منتجة. كانت كنوزهم من الفضة والمال، وكنوزي أرواح. جمعوها للغير، وأنا جمعتها لراحة نفسي. عملوا لهذا العالم، وأما أنا فعملت للآخرة».

لحثِّ الإنسان على العمل، وعدم تبذير السنوات العابرة، يُكرر على مسامعه أنه سيمضي سريعاً: «الإنسان حاضر اليوم، ومغادر في الغد» (P. Sanh ،23d). هذا الكلام يشبه أيامنا على الأرض: «إنها كالظل؛ لا شيء يدوم» (ichrom ،15 ،29). نرغب أن تكون الحياة كظِل جدار أو شجرة، لكنها مثل ظل طائر محلق (تكوين 2، 96، R). الفكرة نفسها مُعبَّر عنها بطريقة أخرى: «النهار قصير، العمل كثير، الفلاحون كسالى، المكافأة ضخمة، سيد البيت يتعقبنا» .

إذا كانت الحياة تتعزز وتغتني لأي شخص يتفرغ للبحث في مبادئ الـ«تورا» وممارسة العمل الصالح، بالمقابل هناك بعض الأخطاء التي تجرد الحياة من سعادتها حتى

أنها تقصِّر مدتها. «الحسد، الخنوع، الحقد على بقية المخلوقات، وطرد الإنسان خارج العالم» (2، 16، Aboth). وبعبارات أخرى: «الحسد، الجشع، الطمع، كلها تعزل الإنسان عن هذا العالم».

رغم أن الحاخامات يحبون التوقف في خطاباتهم عند الطبيعة الروحية للإنسان، ومع ذلك لا يقللون مطلقاً من قيمة وأهمية الجسد. يشكل جسد الإنسان التحفة الفنية لله؛ فهو يثبت بدوره طيبته اللامتناهية، وحكمته اللامحدودة. فالشخصية التي وهبها لكل إنسان، والتي تميز الفرد عن الآخرين تثير الإعجاب. فهي تظهر ببلاغة عظمة العلي، ملك الملوك، القدوس الواحد (الممجد!): يقوم الإنسان بصك العديد من الميداليات على نفس الوجه الواحد، جميعها متشابهة فيما بينها. لكن القدوس الواحد (الممجد!) يصك صورة كل إنسان على نمط الإنسان الأول دون تشابه بين الواحد والآخر. لماذا لا يعطيهم الملامح نفسها؟ كي لا يطالب أي إنسان عندما يرى بيتاً جميلاً أو امرأة فائقة الجمال ويدعي أنهما مُلكه.

ثلاثة أشياء تميز الفرد عن شبيهه: «الصوت، الملامح، العقل. السمتان الأوليان من السمات الثلاث موضوعتان للحفاظ على الأخلاق، أما الأخيرة فبسبب وجود السارقين والناس الأشداء».

هناك نص يصف الإنسان بالقزم: «كل ما خلقه القدوس الواحد (الممجد!) في العالم خلقه في الإنسان» (31، A.R.N)، ويخضع لتطور مفصَّل دقيق جداً. يمثل: الشعر بالغابات، الشفاه بالأسوار، والأسنان بالأبواب، والعنق بالأبراج، والأصابع بالمخالب.

تلك هي الكيفية التي كان الحاخامات يمثلون بها الحياة الجنينية والولادة: بماذا يشبه الطفل في بطن أمه؟ بكتاب مطوي وموضوع جانباً. يداه على صدغيه، المرفقان على الركبتين، الفم مغلق، السرَّة مفتوحة لتغذية الطفل، كل ما تتناوله الأم يتغذى به الجنين دون أن يطرح شيئاً، خوفاً من قتل الأم. عندما يخرج للحياة، ما كان مغلقاً يُفتح، وما كان مفتوحاً يُغلق، وإلا فلن يبقى الطفل على قيد الحياة ولو لساعة واحدة. ضوء مشتعل فوق رأسه، يستطيع به رؤية العالم من أطرافه. كما قيل: [**يوقد مصباحه على رأسي فأسلك الظلمة في نوره**] (أيوب 29، 3).

لا تتعجبوا لذلك، لأن كل واحد ينام في هذا المكان، يرى في الحلم ما يجري في

إسبانيا. لا يمر الإنسان بسعادة أكثر من تلك الأيام. عندها يتدرب على الـ«تورا» كلها. لكنه عندما يدخل في جو العالم، يأتي ملاك يضربه على فمه ويُنسيه كل شيء. لا يخرج من بطن أمه قبل أن يفرض عليه ويتعهد بصراحة مع القسم:

«كن عادلاً منصفاً وليس ضالاً شريراً، حتى لو قال لك كل العالم أنك عادل، كن شريراً بنظرك واعلم أن القدوس الواحد (الممجد!) طاهر نقي، وأن وزراءه أنقياء أيضاً، والروح التي وضعها فيك طاهرة.فإذا ما حفظتها سليمة، فكل شيء يسير على ما يرام، وإلا سأستعيدها منك».

هكذا يفسِّر التشريح جسم الإنسان: «يحوي جسم الإنسان مئتين وثمانية وأربعين عضواً بما فيها الأعضاء الجزئية، ثلاثون في مشط القدم (ستة لكل إصبع قدم)، وعشرة في العرقوب/الكاحل/، اثنان في الساق وخمسة في الرضفة، واحد في الفخذ، ثلاثة في الورك، أحد عشر ضلعاً، ثلاثون في راحة اليد، (ستة في كل إصبع)، واحدة في الذراع، اثنتان في الكوع، واحد في الذراع وأربعة في الكتف. التعداد الكامل 101 من كل جهة، بالمقابل يحتوي العمود الفقري على ثماني عشرة فقرة، الرأس تسعة، العنق ستة، الصدر ستة الأعضاء التناسلية خمسة ،

أثار البناء الرائع للجسم إعجاب الحاخامات، وانتزع منهم هتافات المديح «وخزة بسيطة بالإبرة لكل مطاطية منتفخة تكفي لتفرغها من الهواء، لكن الإنسان مجهز بعدة فتحات فإنه لا يفقد الروح الموضوعة بداخله. (تكوين 3، 1، R). الوجه الذي أعطاه القدوس الواحد (الممجد) إلى الخليقة البشرية يقيس مسافة متساوية لتلك الموجودة بين أطراف الأصابع المبسوطة فهي تحتوي على عدة مصادر للسوائل لا تختلط. السائل العيني مالح، سائل الأذنين دهني، سائل الأنف كريه الرائحة، سائل الفم عذب. لماذا سائل العينين مالح: لأنه عندما يبكي الإنسان الموتى دون توقف، فإنه يُعمي بصره، لكن حموضة الدموع تكسب العينين جمالاً وتوقف البكاء. لماذا يكون سائل الأذنين دهنياً؟ لأنه عند سماع الأخبار السيئة، إذا ما سمعناها بالأذنين فإن ذلك سيصل إلى القلب فيفسده ويسبب الموت وبما أن سائل الأذن دهنياً، فهو يسمح للأخبار أن تدخل من جهة وتخرج من جهة أخرى. لماذا السائل الأنفي كريه الرائحة؟ لأنه عند تنفس رائحة كريهة، وعدم وجود احتياطات، فيكون الموت فوريا. لماذا طعم اللعاب طيباً؟ لأنه عند تناول طعام مُنفر، يتم التقيؤ، فإذا لم يكن اللعاب

طيبا فالشخص يغيب عن الوعي (الأعداد 22، 18، R). تعالوا وانظروا كم من العجائب أنجزها الرب الممجد للإنسان، والتي لا يعرفها. فإذا تناول قطعة من الخبز اليابس، وهبطت إلى الأمعاء، فسوف تصاب الأخيرة بجروح، غير أن الرب «الممجد» تنبه لذلك فخلق في وسط البلعوم نبعاً من الماء يطري الخبز ويسمح له بالهبوط دون أدنى خَطر لرطوبته.

يستعين الحاخامات ببعض المعارف الفيزيولوجية التي يمتلكونها، وكانوا حريصين على إظهار كيف خص الله كل عضو، بوظيفته لتأمين سعادة ورفاهية الفرد وإطالة حياته. كانوا يعتقدون أن الأعضاء المختلفة من الجسم، خاضعة لبعض الانفعالات أو لأفعال أخرى: «الكليتان تنشطان الفكر. القلب يشعر بالذكاء، اللسان يلفظ الكلمات (للنطق)، الفم يكمل اللفظ، البلعوم: يدخل ويخرج جميع أنواع الأطعمة. الرغامى تمنح الصوت، الرئتان تمتصان مختلف السوائل، الكبد يحد من الغضب، تسقط الصفراء فيه قطرة صغيرة فتوقفه. الطحال يثير الضحك، الأمعاء تطحن الأغذية. المعدة تجلب النعاس، الأنف للاستيقاظ، لو أن العضو الذي يسبب النعاس قد سرّعه أو أبطأه وبالعكس، فإن الإنسان سيصاب بالارتخاء، لو أن عضوين يقومان بمهمة التنويم والإيقاظ، فسيحدث الموت حالاً.

من وجهة نظر أخلاقية، هذا هو التصنيف لمختلف أجزاء الجسم «تقوم سبعة أعضاء بخدمة الإنسان، وهي خاضعة لمراقبته، ثلاثة منها تخرج عن طواعيته هي: العين، الأذن، الأنف. يرى الإنسان ما لا يريد رؤيته يسمع ما لا يرغب بسماعه، يشم ما لا يروق له شمُّه. أما الخاضعة لحكم الأعضاء فهي: الفم، اليد، القدم. رغبته في قراءة التوراة أو استعمال لغة بذيئة، أو أن يطلق التجديفات والشتائم. يمكنه بيده وحسب رغبته القيام بأفعال خيرة أو السرقة، أو القتل. القدم الشيء نفسه، الذهاب حيث يريد، مسرح، سيرك، أو أماكن الدراسة والعبادة.

المراحل السبع للحياة التي ميزها شكسبير تتجسد في «المدراس»؛ الأباطيل السبعة التي يذكرها سفر الجامعة، تطابق العوالم السبعة التي لكل منها تجربته. في السنة الأولى من الحياة، يكون الإنسان مثل ملك؛ موضوع في سرير بأغطية جيدة، يتلقى المداعبات والقبلات من جميع البشر. وفي سن عامين أو ثلاثة، فإنه يشبه الخنزير يعيش في الأماكن القذرة. وفي العاشرة يقفز هنا وهناك كالجداء. في العشرين أشبه بحصان

جامح يصهل، يعتني بهندامه، يبحث عن امرأة. يتزوج يصبح كالحمار (على ظهره حمل ثقيل). ومن ثم رب عائلة. يلهث مثل الكلب يبحث دائماً عن عمل لكسب قوت عائلته. أخيراً في الشيخوخة يصبح كالقرد.

تضع الدراسة التي قدَّمها مؤلف «آبوت» والمخصصة لعلم الأخلاق، توزيعاً مختلفاً، لأن رأيها ليس مشابها. ففي سن الخمس سنوات مدعوٌّ لدراسة الكتاب المقدس، في العاشرة، لدراسة الميشنا، في الخامسة عشرة لدراسة التلمود، في الثامنة عشرة للزواج، في العشرين للبحث عن وسائل البقاء؛ في الثلاثين لكسب كامل قواه؛ في الأربعين للإدراك والفهم، في الخمسين لإسداء النصائح؛ في الستين نصل إلى الشيخوخة، في الثمانين نشعر بأننا كنا متمتعين بحيوية خاصة. في التسعين ننحني تحت ثقل السنين. في المائة نصل إلى حالة كما لو أننا فارقنا بها العالم للموت.

كان يُنظر إلى الموت كنتيجة للخطيئة، ولولا الخطيئة لكان الإنسان بالضرورة أزلياً (لا يموت). لا يوجد موت خارج الخطيئة (Chab ،55a). كان الملائكة الخدم يقولون أمام القدوس الواحد (الممجد!): لماذا تعاقب آدم بعقوبة الموت؟ أجاب: «فرضت عليه قانوناً صارماً وخالفه (Chab ،55b). إذا قيل لكم في حالة لم يرتكب آدم خطيئة، ولم يأكل من الثمرة المحرمة، لعاش طويلاً. أجيبوا، تلك كانت حالة إيليا».

الموت هو الحكم الأشد قساوة الذي نفذه الله في خلقه، إذن لا يمكن قهره، ولا مفر من سلطته. عشرة أشياء صلبة خلقت في هذا العالم: الجبل صلب وقاس، غير أن الحديد قادر على كسره؛ الحديد متين لكن النار قادرة على صهره؛ النار قاسية لكن الماء قادر على إطفائها؛ الماء قوة عظيمة، لكن الغيوم قادرة على حمله؛ الغيوم قوية، لكن الريح قادرة على تفريقها؛ الريح قوية، لكن الجسم قادر على حملها (في حالات الشهيق والزفير)؛ الجسم قوي ونشيط غير أن الرعب يهدُّه؛ الرعب مقاوم عنيد، لكن النبيذ يبدّده؛ النبيذ قوة، والنوم يبطله؛ والموت أقوى من الجميع.

يتخذ الموت أشكالاً عدة، فقد خلق الله في العالم تسعمائة وثلاثة أنواع من الموت كما قيل: منافذ الموت وعددها 903 (68، 20، Ps). الموت الأكثر رعباً وفظاعة هو الموت خنقاً، وأكثرها عذوبة قبلة الموت. يشبّه بعضهم الخناق بشوكة في كرة من الصوف المقرَّض التي تمزقها من الخلف، آخرون يشبهونه بالماء المضطرب على شكل

دوامة في مجرى ضيق. تشبه قبلة الموت، شعرة تُسحب من وسط الحليب، تمثل هذه الآية معنى العذوبة في موت هرون [**صعد هرون الكاهن إلى جبل هور بأمر الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في اليوم الأول منه**] (سفر العدد 33، 38)، كذلك موت موسى: [**فمات موسى عبد الرب في أرض موآب بأمر الرب**] (تثنية الاشتراع 43، 5).

توصف عملية الموت بالشكل التالي: «عندما سيغادر إنسان هذا العالم، يظهر ملاك الموت ليأخذ روحه (نيشاما). تشبه الروح وريداً مليئاً بالدم، تتفرع عنه أوردة أصغر قطراً منتشرة في أنحاء الجسم. يمسك ملاك الموت بطرف الوريد وينتزعه من الجسم. إذا كان الرجل صالحاً، فإن عملية نزع الوريد تتم بهدوء، كما تخرج الشعرة من الحليب؛ أما لو كان شريراً فتؤخذ روحه كزوبعة مياه في مدخل مجرى ضيق، أو حسب قول آخرين، كما تُنزع الأشواك من كرة صوف ممزقة من الخلف. ومن ثم تنزع من مكانها وتكون بداية الموت. تخرج روحه وتستقر على أنفه حتى يتشنج الجسم كله. في هذه اللحظة يبدأ بالبكاء ويصرخ أمام القدوس الواحد (الممجد!) قائلاً: «أين تقودنا يا رب»؟ يأخذ الملاك «دوما» روحه ويقوده إلى محكمة الموت بين الأرواح.

فإن كان قد سلك حياة صالحة يعلن أمامه: جهز مكاناً لأحد الصالحين ويتقدم مرحلة بعد مرحلة إلى أن يقف أمام الشيخينا (العدالة الإلهية)» .

مشهد آخر لظاهرة الموت: «يقال بأن ملاك الموت يملك عدة عيون تغطيه بالكامل. عندما يكون المريض على وشك الموت، يقف هذا الملاك فوق سريره، مجرداً سيفه، وفي رأس السيف قطرة صفراء معلقة. يخاف المحتضر لدى رؤية ملاك الموت، ويفتح فمه خوفاً فيسقط الملاك القطرة الصفراء، ويليها الموت. ينتج من ذلك، أن الجثة تنشر رائحة كريهة، ويصبح الوجه شاحباً جداً» .

كان شعب تلك الحقبة محباً للنبوءات والفألات كظروف مرافقة للوفيات: «من يمت وهو ضاحك يكن حاملاً لفأل حسن، وبالعكس، الموت باكياً يجلب فألاً سيئاً. إذا كان ينظر للأعلى نِعْمَ ذلك، وإلى الأسفل بِئْسَ ذلك. إذا كان ينظر للحضور فأل حسن، وإذا نظر إلى الجدار فأل سيئ. إذا كان وجهه شاحباً فوا أسفاه؛ قرمزياً أفضل. من يمت عشية السبت يكن سعيداً، ويكن بائساً من مات لحظة انتهاء السبت؛ الموت

يوم الغفران أمر سيئ، والموت في نهايته فأل حسن. الموت في اضطرابات هضمية أو بطنية موت مناسب، وهي ميتة الكثيرين من الصالحين.

جهد الحاخامات في التقليل قدر الإمكان من الخوف الذي كان يسببه عادة التفكير بالموت. كانوا يرددون بأن الموت شيء طبيعي **[للولادة وقت، وللموت وقت. للغرس وقت ولقلع المغروس وقت]** (الجامعة 3، 2). تلاحظ المدراش «أنه منذ لحظة الولادة يكون احتمال الموت قائماً». ومن هنا جاءت هذه العظة: «توبوا قبل موتكم بيوم واحد» (ehab ،139a). والأفضل فوراً، لأن يوم الموت غير معروف. وكما رأينا، كان الموت محسوباً ضمن الأشياء الصالحة التي قام بها الخالق.

الله وحده من يحدد لحظة الموت؛ ولا يحق لأحد استباق ما هو مرسوم. كان يُنظر للانتحار بهلع وخوف ينددون به كما لو أنه خطيئة مميتة. شرح الحاخامات ما جاء في سفر التكوين (9، 5): **[أما دماؤكم فأطلُبُها من يد كل وحش أطلُبُها ومن يد الإنسان أي إنسان قتل أخاه أطلبُ نفس الإنسان]**، طبعاً سأطلب دمكم، دم أرواحكم، كما يلي: الكلمة «طبعاً» تدل على الحالة التي يخنق فيها الإنسان نفسه بملء إرادته (تكوين 13، 34، R)، أي من يقتل نفسه دون سفك دمه (إسالة الدم).

نجد أن المسألة تناقش على النحو التالي: لا يحق لأي إنسان قتل نفسه. بعض السلطات تعتبر ذلك عدلاً. لكن النص «طبعاً» سأستعيد دماءكم دماء أرواحكم المقصود بها الانتحار، وهنا اختلاف واضح. هذا يعني أن الضربات المؤدية للانتحار محرمة بإجماع الدكاترة.

التطبيق العملي أكثر تأكيداً من النظري، كما تعرضه رواية «خانِّينا ب. تاراديون» الذي حرقه الرومان حيّاً. كان جلادوه قد غلَّفوا جسده بلفة من الـ(تورا)، ووضعوا حوله كرات من الصوف مبللة بالماء بغية إطالة مدة الاحتراق وبالتالي إطالة فترة احتضاره. كان تلاميذه ينادونه بأعلى أصواتهم: افتح فمك ودع النار تدخل جسدك (لتسريع الموت). أجاب: الأفضل أن يستعيد الله الروح التي أعطاها؛ ولا يحق لأحد ممارسة العنف على نفسه.

تعليق مقبول لمجمل الحياة والموت ورد في سفر الجامعة (7، 1) **[فإنه من يدري ما هو خير للبشر في الحياة مدة أيام حياتهم الباطلة التي يقضونها كالظل ومن يخبرُ البشر بما يكون فيما بعد تحت الشمس]**. هذا النص:

يفرح الناس عند الولادة ويبكون وقت الوفاة. يجب ألا تكون الأمور كذلك بل العكس؛ عندما يأتي أحدهم إلى العالم فلا مكان للفرح، لأنه لا أحد يعلم ما هو المصير، وماذا تكون حياة الوليد، هل سيكون صالحاً أم فاسقاً، طيباً أم خبيثاً. من جهة أخرى عندما يموت، تكون المناسبة للفرح والسرور إذا ما غادر بشهرة صالحة، وترك العالم بسلام. سفينتان تبحران إحداهما غادرت المرفأ، والثانية باتجاه الميناء. يفرح الناس لدى مغادرة السفينة لا لوصولها المرفأ. قال حكيم وُجد في ذلك المكان: رأيي مخالف لرأيكم، عليكم ألا تفرحوا لمغادرة السفينة، لأنه لا أحد يعلم ما ينتظرها، أية بحار هائجة، أية عواصف مدمرة يمكن أن تصدمها؛ لكن عندما تصل السفينة إلى مكان وجهتها يجب على الجميع أن يفرحوا لوصولها سالمة.

2 ـ الروح

الإنسان مدين لله لأنه وهبه الروح. ونظراً للشبه مع الله، فهناك قرابة بينه وبين الخالق، وهذا سبب تفوُّقه على جميع المخلوقات الأخرى. كنَّا قد أشرنا إلى أن الحاخامات يقولون بأن للكائن البشري طبيعة مزدوجة: الروح تأتي من السماء، والجسد من الأرض (سفر تثنية الاشتراع 132a، 306) يقدمون الجسد على أنه «غلاف للروح» (Samh ،108a)، ويحكمون أن العلاقة بين الروح والجسد هي نفس العلاقة بين الله والكون.

تتعلق صفة الوجود بالعناية التي يكرسها الفرد ليحافظ على روحه نقية بلا دنس. حول هذا النص تعود الروح إلى خالقها الذي وهبه إياها [**فيعود التراب إلى الأرض حيث كان ويعودَ الروح إلى الله الذي وهَبهُ**] (الجامعة 12، 7). ورد في إحدى الخطب: «أعيدوها له؛ كما أعطاكم إياها نقية، أعيدوها له سليمة». يحكى أن ملكاً وزَّع على عبيده ثياباً ملكية. قام العبيد الحكماء بطيّها وحفظها في علبة. أما العبيد الحمقى فقد ارتدوها أثناء عملهم. وبعد فترة من الزمن استعاد الملك ثيابه. أعادها العقلاء سليمة، وأعادها الآخرون وسخة مهترئة. كان الملك راضياً عن العقلاء،

واغتاظاً من سلوك الآخرين. أمر الأولين بإعادة الثياب إلى خزانته وأن يغادروا بسلام. وأمر الآخرين بتسليم الثياب إلى المغسل لتنظيفها وأمر بسجنهم فيما بعد.

كذلك يقول القدوس الواحد (الممجد!) فيما يخص الجسد الصالح: «سيدخل بسلام وينام على فراشه كل من سار على الصراط المستقيم» [**السالكون باستقامتهم يدخلون في السلام ويستقرون في مضاجعهم**] إشعيا (57، 2). وفيما يختص بروحه، روح إلهي ستوضع في حزم الأحبار مع الرب إلهك (29، 25، Isam). أما بالنسبة لجسم الأحمق، فلا يمكن أن يصله السلام. أما إلى روحه، روح أعدائك فإن الرب يرميها مثل حصاة ألقيت من جوف مقلاع.

يعلموننا أنه يشار إلى الروح بخمسة أسماء: النفس، الروح، (روح) نيشاما، يخيدا، الحياة، نيفيش (بمعنى الدم). كما كتب: الدم هو الحياة (تثنية الاشتراع 12، 23) [**لكن إياك أن تأكل الدم فإنه نفسٌ فلا تأكل النفس مع اللحم**]. الروح هي من يصعد ويهبط كما هو مكتوب: من يعلم ما إذا كانت روح الإنسان ترتفع إلى الأعلى؟ (سفر الجامعة 3، 21) [**من يرى روح بني البشر التي يصعَدُ إلى الملأ وروح البهيمة الذي ينزل إلى أسفل الأرض**]. (النشاما) هو الاستعداد. و(خيًّا) منح الحياة. سميت هكذا لأنها تحيا عندما تكون الأعضاء قد ماتت. يخيدا (الوحيدة) تشير إلى أن كل الأعضاء موجودة بشكل مزدوج بينما الروح وحيدة في الجسم.

الثلاثة الأوائل من أصل خمسة تعابير مستعملة بكثرة في الأدب الحاخامي. غير أنه من الصعب تحديد وجهة الخلاف بينها. (نيفيش) مشبَّهة بالدم، تدل على الحيوية وتطبق على الحيوان كما الإنسان. يقال مثلاً: كل روح تعيد الروح، وكل شيء قريب من الروح يعيد الروح (Ber ،44b). هذا يعني أن كل مخلوق حيوان أرضي أو سمك، يملك الحياة، يضيف حيوية لمن يأكله، وهذا صحيح خاصة لجزء من هذا المخلوق الموضوع على مقربة من الأعضاء الحيوية. والنتيجة: أن الروح تنتهي عندما يأتي الموت.

يبدو أن (رواخ)، و(نيشاما) تستعملان لا لعدم التعيين للدلالة بل على العقل لدى الكائن البشري. هذه التعابير تطبق عليه حصراً. هذا ما لديه كأزلي (الروح) التي نفخها الله به.

في أي وقت توهب الروح للجنين؟ يُروى أن هذا السؤال كان قد نوقش بين

الحاخام جودا ناشر (الميشنا) وصديقه الروماني (أنطونيوس). سأل أنطونيوس الحاخام جودا: في أي وقت توضع الروح في الكائن البشري؟ عند الحمل أم عندما يتكون الجنين؟ أجاب: عند التكوين. استأنف الآخر: هل من الممكن فساد قطعة لحم إذا لم يضف إليها الملح؟ يجب أن يعود وضع الروح إلى تاريخ الحمل. عندها صاح الحاخام جودا: ما قاله أنطونيوس مدعَّم بنص: [**الذي في يده نفس كلٍّ حي وأرواح البشر أجمعين**]، (أيوب 12، 10).

يعلم التلمود الوجود المسبق للأرواح في السماء، الأرواح والأنفس المخلوقة تتوضع في السماء السابعة (عربوت). أي الأرواح التي لم تولد بعد والتي ستتحد مع الأجساد المخصصة لها.

الاعتقاد الشائع أن العصر المسيحي لن يظهر قبل أن تكون جميع هذه الأرواح التي ستولد، قد بلغت نهاية وجودها على الأرض. لن يأتي المسيح ابن داود قبل أن تكون جميع الأرواح الـ (غوف) قد وصلت إلى نهايتها. (تدل كلمة غوف gouph على المقر السماوي حيث تنتظر الأرواح لتأتي وتسكن جسداً بشرياً).

الروح هي القوة الداخلية التي ترفع الإنسان فوق الوجود الأرضي، وتوحي له بمثل أعلى، وتقنعه باختيار الخير وطرد الشر. السبت هو أيضاً قوة إضفاء روح (روحنة) للحياة البشرية، يمكن قراءة هذه المعلومة الحاخامية: «روح إضافية مُنحت للإنسان عشية السبت، وأخذت منه في نهاية يوم السبت». هذا يعني أن احترام اليوم المقدس يقوي قدرة الروح ويضاعف ديناميتها في الحياة الإنسانية.

عندما يكون الإنسان منتبهاً لهذه الهبة الغالية، فيمكن لحياته أن تخضع لتأثير الإرادة الإلهية. انظروا لماذا طُلب منه أن يلفظ كل صباح عند النهوض من النوم هذه الصلاة الأولى: «يا إلهي. الروح التي وهبتني إياها نقية طاهرة خلقتها معي وفي داخلي؛ نفختها فيَّ؛ تحفظها معي وفي داخلي، ستستعيدها، لكن ستعيدها لي فيما بعد. ما دامت الروح معي وفي داخلي، سأوجه إليك الشكر أيها الأزلي، إلهي، إله آبائي، رب العالم، سيد جميع الأرواح. ليمجَّد اسمك أيها الرب، يا من يعيد الأرواح إلى أجساد الموتى».

3 ـ الإيمان والصلاة

تختص علاقة القرابة مع الله من ناحية ألوهية الروح التي يمتلكها الإنسان، وهو ملزم بأن يظهر أنه جدير بها. إذا كان شرف للإنسان أن يُخلق على صورة الله التي وهبها له، فعليه والحالة هذه أن يعيش حياة تحظى برضى خالقه.

ماذا ينتظر الله منه؟ الحُكم التالي يجيب على السؤال:

سبع خصال مفيدة أمام عرش الممجد: الإيمان، الاستقامة، الحب، الرحمة، والعطف، الإخلاص، السلام (A.R.N. ،37). تلكم هي الفضائل الأساسية، يحتلُّ الإيمان المكان الأول الذي ترتكز عليه مجمل علاقة الإنسان مع الله. ستمائة وثلاث عشرة وصية أعطيت لموسى، ثلاثمائة وخمس وستون، منها محرم وخطرٌ تعود لأيام السنة الشمسية، ومئتان وثمان وأربعون أمراً إيجابياً، يتطابق مع أعضاء الجنس البشري.

واختصرها داود فيما بعد إلى أحد عشر مبدأً مرقمة في المزمور 15. اللهم احفظني ـ قلت لربي أنت سيدي ـ في قديسي الأرض ـ كثرت أصنام المتهافتين أما أنا لا أسكب سكبُها ـ الرب حفظ قسمتي وكأسي ـ حبال التقسيم وقعت لي ـ أبارك الرب الذي نصح لي ـ جعلت، أما في كل حين ـ فرح قلبي وابتهج مجدي ـ لا تترك نفسي في الجحيم ـ عرَّفتني سبل الحياة.

اللهم احفظني فإني بك اعتصمت ـ قلت للرب أنت سيدي وما عداك لا خير لي ـ في قدِّيسي الأرض وأماثلها هواي كله ـ قد كثرت أصنام المتهافتين وراء آلهة أخرى أما أنا فلا أسكبُ سُكبَها من الدم ولا أذكر أسماءها بشفتيَّ ـ الرب حفظ قسمتي وكأسي أنت عُمدة قُرعتي ـ حبال التقسيم وقعت لي في أراضي خصبٍ وميراثي جليل ـ أبارك الرب الذي نصح لي وفي الليالي أيضاً وعَظتني كُليتاي ـ جعلت الرب أمامي في كل حين فإنه عن يميني لكي لا أتزعزع ـ لذلك فرح قلبي وابتهج مجدي وجسدي أيضاً سيسكن على الرجاء ـ لأنك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فساداً ـ قد عرَّفتني سُبل الحياة وستملأني فرحاً مع وجهك ولي عن يمينك لذَّاتٌ على الدوام.

بدوره خفضها إشعيا إلى ستة كما قيل:

[**أما السالك بالعدل والمتكلم بالاستقامة والمستكف من سُحتِ المظالم، والنافض كفيه من قبض الرشوة السادُ أذنيه عن خبر الدم والمغمض عينيه عن رؤية البشر**] (إشعيا 33، 15).

ثم جاء ميخا ولخَّص الكل بثلاثة مبادئ: [**قد بيَّن لك أيها الانسان ما هو صالح وما يطلب منك الرب إنما هو أن تُجري الحكم وتحب الرحمة وتسير بتواضع مع إلهك**] (ميخا 6، 8). ثم جاء إشعيا وأبقى على اثنتين: [**هكذا قال الرب حافظوا على الإنصاف وأجروا العدل فقد اقترب خلاصي أن يجيء وبرِّي أن يتجلى**] (إشعيا 56، 1).

أخيراً يصوغ حبقوق وصية واحدة: [**ها إن نفسه منتفخة غير مستقيمة. أما البار فإيمانه يحيا**] (حبقوق 2، 4).

بالنسبة للعقلاء، كان الإيمان السمة المميزة لأبطال التوراة وإسرائيل. استحقوا بفضلها رضى الله. «ما أعظم ما آمنت به إسرائيل الذي قال: ووهب العالم الحياة. مكافأة لهذا الإيمان حلَّ عليهم الروح القدس، ورتَّلوا نشيداً يقول: آمنوا بالرب وبموسى خادمه» [**وشاهد إسرائيل القوة العظيمة التي صنعها الرب بالمصريين فخاف الشعب من الرب وآمنوا به وبموسى عبده**] (خروج 14، 31). وفي الحال: أنشد موسى وأبناء إسرائيل للرب هذا المزمور، نرى أنه بفضل الإيمان وحده، ورث أبونا إبراهيم من هذا العالم والعالم الآخر. هكذا قيل: (تكوين 15، 6) [**فآمن بالرب فحسب له ذلك برًّا**». أمثلة أخرى وردت في النص، انتهت بنا لهذه النتيجة: «**من يتأمل مبدأ بسيطاً بالإيمان، فهو جدير بتلقي الروح القدس**» (**ميخ على خروج** 14، 31، b 33). من بين الوصايا الكثيرة التي أنزلها الله لموسى، تلك التي تهدف إلى ترسيخ الإيمان بين الشعوب. يرجع الحاخامات إلى نصَّين بيِّنين ويفسرونهما على هذا النحو: يروي سفر الخروج (17، 11) [**فكان إذا رفع موسى يده يستظهر بنو إسرائيل، وإذا حطَّها تغلبُ العمالقة**].

إن موسى يبقي يديه مرفوعتين نحو السماء خلال معركة بين إسرائيل والعمالقة. يُطرح إذن هذا السؤال:

هل يمكن ليديْ موسى المرفوعتين أن تمنح النصر لإسرائيل لكسر سلطة العمالقة؟ هذا بينما موسى يظل رافعاً يديه نحو السماء، لم يتوقف الإسرائيليون عن النظر إليه،

واثقين بمن أوحى لموسى أن يتصرف هكذا؛ وبالتالي فإن القدوس الواحد (الممجد!) صنع العجائب لسلوكهم. كذلك فيما يتعلق بالثعبان البرونزي [**فقال الرب لموسى اصنع لك حيَّة وارفعها على سارية فكان أي لديغ ينظر إليها يحيا**] (سفر الأعداد 21، 8).

هل كان باستطاعة صورة الثعبان أن تقتل أو تنقذ حياة؟ لكن الإسرائيليين لم يتوقفوا عن النظر إليها، وظلوا واثقين بما صنعه موسى، وقام القدوس الواحد (الممجد!) بشفائهم.

يخبرونا أن المؤمنين كانوا محترمين جداً في إسرائيل. كانوا يضعون بداخلهم ثقتهم بالله باستمرار مهما حصل. من المؤسف أنه منذ تدمير الهيكل، اختفى المؤمنون (12.9 سوت)

ما كان يعنيه الإيمان ندركه في الملاحظة التالية: من لديه في جيبه كسرة خبز ويتساءل ماذا سآكل غداً؟ فإنه ينتمي إلى ضعفاء الإيمان.

يتضمن التلمود رواية تتعلق برجلين مميزين بثقتهما التي لا تتزعزع بالله. الأول اسمه «ناحوم غمزو». تشرح الرواية كيف تلقى هذا الاسم: «لماذا سمي ناحوم رجل من غمزو؟ لأنه مهما يحصل كان من عادته الصراخ» هذا (غمزو) صانع الخير. ذات مرة أراد الحاخامات إرسال هدية للإمبراطور بعد مناقشة طريقة إرسالها، قرَّروا ذلك بواسطة ناحوم (رجل من غمزو) لأنه اعتاد أن تحصل معه العجائب. كلفوه بتوصيل الهدية. فوصل متأخراً واستراح في الخان. وفي الليل ظهر فجأة ضيوف آخرون، أفرغوا محتوى كيسه ووضعوا فيه كمية من التراب. عندما وصل ناحوم أمام الإمبراطور فتح كيسه فوجد أنه مليء بالتراب. صرخ الإمبراطور: اليهود يهزؤون مني! وأمر تنفيذ حكم الإعدام بناحوم؛ قال (ناحوم) هذا أيضاً خير. عندها ظهر إيليا وسط حاشية الإمبراطور وقال: «قد يكون هذا التراب جزءاً من مادة كان يستخدمها أبوهم موسى: في كل مرة كان يرش قليلاً منه على أعوانه فيتحول التراب إلى سيوف، وعندما يرمي عليهم القش تتحول العيدان إلى أسهم». في ذلك الوقت كان الإمبراطور في موقف صعب لعدم قدرته الاستيلاء على بعض المناطق (احتلالها). استخدموا قليلاً من تراب ناحوم ضدها فسهَّل عليهم ذلك احتلالها. عندها اصطحب الإمبراطور ناحوم إلى خزانته، وملأ كيسه بالجواهر والأحجار الكريمة وصرفه. لما عاد إلى نفس الخان قال له

النزلاء: ماذا فعلت للإمبراطور كي يحيطك بكل هذا التقدير؟ أجاب: سلمته ما كنت حملته من هنا. شرع النزلاء بحمل التراب إلى الإمبراطور، لكن عندما جرَّبوه لم يتحول إلى سيوف وسهام، فطلب الإمبراطور إعدامهم.

النموذج الآخر رجال مؤمنون بدورهم أمثال الحاخام عقبة. وهذا ما يروى عنه: «على كل إنسان أن يعتاد على القول: مهما يعمل الرحمن الرحيم فإنه يفعل ذلك نحو الأفضل». في أحد الأيام كان الحاخام عقبة في سفر. وصل إلى مدينة ما وطلب الضيافة. رُفض طلبه. صرخ عندها: «مهما فعل العلي الرؤوف، فإنه يسعى نحو الأفضل». ذهب ليقضي الليل في الحقول، وكان معه ديك، وحمار، ومصباح (الديك للنهوض من النوم، الحمار للركوب، المصباح للقراءة أثناء الليل).

هبَّت الريح فانطفأ المصباح؛ انقضّت هرة على الديك والتهمته، ثم هاجم أسدٌ الحمار وافترسه.

صرخ الحاخام: «مهما فعل العطوف الرؤوف (الله)، فإنه يفعل ذلك بقصد الأفضل». وفي نفس الليل، هاجم المدينة عدد من قطاع الطرق واللصوص. قال الحاخام عقبة لسكانها: «ألم أعلن لكم، أنه مهما يفعل القدوس الواحد (الممجد!)، فإنه يفعل ذلك من أجل الأفضل.

تصوغ المشنا هذه القاعدة: «كل واحد ملزم بحق قول التبركة للشر كما للخير».

يجد الإيمان تعبير الخلاص في ممارسة الصلاة، لأنها وحدها توجه التماساً لله الذي نؤمن به وبإرادته في نجدة ومساعدة خليقته. أن تصلي لا يعني فقط الطلب وفقاً لحاجاتك الخاصة. وبالمعنى الأكثر سمواً، الصلاة هي: وحدة الشعور الحار بين الخالق والمخلوق، تلتمس الروح البشرية من أعماقها الروح الإلهية. وحدة الشعور هذه مستحبة من الله كما هي معين للإنسان. يقال: إن القدوس الواحد (الممجد!) يتلقى الصلوات من الصالحين العادلين. لماذا تُشبه صلاة الصالح بالرفش؟ كما أن الرفش يحمل أو ينقل الأشياء من مكان لآخر، كذلك صلاة الصالح تحوِّل الطبع الإلهي من الغضب إلى الشفقة.

كي تكون الصلاة مسموعة لدى الله، يجب ألا تأتي فقط من روح صادقة صالحة؛ بل أن يكون من يقدمها جديراً بالحصول على جواب. «من يعمل بإرادة

الحاضر في كل مكان، ويوجه قلبه نحوه مصلياً، يُستجاب له» (خروج 3، 21، R).
- عندما تتضمن كلمات أي إنسان التقوى والورع إلى الله، فهي مسموعة منه ومستجابة (Ber ،6b). من يمتنع عن الصلاة لشعوره بأن صلاته غير مستجابة، فعليه الاستمرار في صلاته. إذا وجد إنسان أنه يصلي ولا يتلقى جواباً، فعليه أن يكرر صلاته (BeR 32.b). وأكثر من ذلك أيضاً: «حتى لو أن سيفاً مسلطاً على عنقه، فلا ييأس من الرحمة الإلهية» (Ber ،10a). حتى اللحظة الأخيرة من الحياة يجب عدم فقدان الأمل.

عند الصلاة، يجب أن لا نفكر فقط بذواتنا، بل الانتباه إلى حاجات وضرورات القريب. «أي شخص يكون قادراً على الصلاة لجاره ويمتنع عنها فهو خاطئ لأنه قيل: محال أن أخطئ تجاه الرب، وأنقطع عن الصلاة من أجلكم» (Ber ،12b). (23، 12، 1Sam). كل من يصلي لرفيق أو صديق، وهو نفسه بحاجة إلى الصلاة، سيكون أول من يستجاب له

قام أحد الحاخامات، بتأليف الصلاة التالية لتلاوتها عند السفر، بسبب الخطر الذي كان قائماً في ذلك الوقت:

«لتكن إرادتك يا ربي وإلهي، بأن تقودني إلى السلام، وتوجه خطايَ بأمان، وتحفظني بسلام، من كل عدو أو مكيدة على طريقي. امنحني البركة على ما تصنعه يداي، وامنحني نعمتك ومحبتك وانظر إليَّ بعين عطفك وعين كل من يرونني. لتكن ممجداً يا رب، يا من يصغي لصلاتي». لكن زميلاً آخر انتقد التعابير المستعملة. فقد برَّر نقده، بوجوب إرفاق عبارة الجمع عند تلاوة الصلاة. يجدر القول: لتكن إرادتك يا ربنا وإلهنا، بأن تقودنا إلى السلام، وتقود خطانا بأمان..

لقد طغى هذا التصور أيضاً على شعائر العبادة في الكنيس، حيث نادراً ما يُستخدم المتكلم الفرد في الصلاة.

برزت أهمية الصلاة بتصريحات منها: الصلاة أعلى مرتبة من الأضاحي. وهي أعلى منزلة من الأعمال الصالحة، لا أحد يفوق بأعماله الخيرة معلمنا موسى؛ كانت صلواته مستجابة، كما قيل: [**لكن سخط الرب عليَّ بسببكم ولم يسمع لي بل قال لي الرب حسبك لا تزد في الكلام معي في هذا الشأن**] (سفر تثنية الاشتراع 3، 26). وبعد ذلك: [**اصعد إلى قمة الفسجة وارفع طرفك غرباً وشمالاً وجنوباً وشرقاً**

وانظر بعينيك لأنك لا تجوز هذا الأردنُ] (تثنية الاشتراع 3، 27). يستنتج من ذلك أن صلاة موسى منحته الأذن بالتأمل في الأرض الموعودة قبل موته.

الصلاة الحقيقية، ليست تلك التي تخرج من الشفاه، بل التي تصدر عن القلب، الصلاة التي يلفظها الإنسان لا يُستجاب لها، إلى أن يضع قلبه بين يديه، كما قيل: [**لنرفع قلوبنا مع الأيدي إلى الله في السماوات**] 3, 41 (مراثي إرميا)، (8a، Taan). بمعنى «أنه عندما نصلي علينا أن لا نكتفي برفع أيدينا بل قلوبنا». يتضمن التلمود تعريفاً واضحاً ومحدداً للصلاة: أحبوا الرب إلهكم، واعبدوه بكل قلوبكم. [**فإن سمعتم لوصاياي التي أنا آمركم بها اليوم فأحييتم الرب إلهكم وعبدتموه بكل قلوبكم وبكل نفوسكم**] (تثنية الاشتراع 11، 13). ما هي عبادته في قلوبنا؟ إنها الصلاة

نؤكد بشدة على الخشوع الذي يجب أن يميز هيئة من يصلي. على المصلي توجيه قلبه نحو السماء. عندما تتلى الصلاة يجب خفض الرأس وتوجيه النظر نحو الأرض والقلب إلى الأعلى. كل شخص يجب أن يتخيل أمامه الشيخينا. كما قيل: «إن الرب دائماً أمامي». «عندما تصلُّون اعرفوا أمام من تقفون». من يُسمَعْ صوته وهو يتلو الصلاة يكنْ قليل الإيمان؛ ومن يرفع صوته مصلياً يكن من أتباع الأنبياء الكذبة. لأنه يشبه أنبياء بعل، الذين يصيحون بصوت عالٍ.

تبين حكاية تلمودية بوضوح هذه العظات: «حصل أن مؤمناً كان يصلي على حافة الطريق. ألقى عليه السلام رجل نبيل عابر سبيل، غير أنه لم يحصل على رد. انتظر إلى أن انتهى المؤمن من صلاته. قال له: حقاً إنك إنسان بلا ذوق! لماذا لم تجبني عندما ألقيت السلام عليك؟ لو أنني لمست رأسك بسيفي، من كان سيسترجع دمك؟ قال الآخر: انتظر سأجد كلاماً يرضيك. وتابع: لو وجدت نفسك أمام ملك في تلك اللحظة، وألقى السلام عليك واحد من أصدقائك، فهل كنت ستجيب؟ - كلا - وإذا كان نعم وأجبته على صلاته فماذا سيكون مصيرك؟ - كانوا سيقطعون رأسي بضربة سيف - حسناً ألسنا مخولين باستعمال الحجة التي تنتهي بالأولى: لو أن هذا هو موقفك بحضور ملك بشري، الذي يكون اليوم حياً وغداً في القبر، بالأحرى عليَّ أن أفعل الشيء. أنا من يقف أمام ملك من أسمى الملوك، القدوس الواحد (الممجد!) الحي الأزلي. هدأ النبيل بسرعة وعاد المؤمن بسلام إلى منزله.

تضاف العبادة المشتركة الجامعة للأفراد، إلى أعمال التقوى الشخصية التي يقدم بها كل فرد طلباته الخاصة إلى الله. وتبرز أهميتها بمثل التصريحات التالية: لا تستجاب صلاة الإنسان من الله إلا عندما يقدمها في الكنيس ـ إذا كان أحدهم معتاداً على الذهاب بانتظام للكنيس وانقطع مرة واحدة فإن القدوس الواحد (الممجد!) يسأل عنه كما قيل: أين هو، منكم، من يخاف الله، ليستجب لصوت خادمه، أو ليمشِ في الظلمة ويخسر النور. [**من منكم خائف للرب سامع لصوت عبده سالك في الظلمات ولا ضوء له. ليتوكل على اسم الرب وليستند إلى إلهه**]. (إشعيا 50، 10). إذا تغيب بهدف القيام بواجب ديني فسيحصل على التورا، وإذا كان ذلك للتفرغ لعمل الدنس، فلن يحصل على شيء منها «فليكشف عن قلبه باسم الأزلي». لماذا يُرفض له التورا؟ لأن من واجبه أن يركن لاسم الرب! عندما يدخل القدوس الواحد (الممجد!) إلى كنيس ولا يجد فيه نصاباً من عشرة حضور، يغضب بسرعة، كما قيل: إذن والحال هذه، أتيت ولم أجد أحداً؟ ناديت: لماذا لم يجب أحد؟ [**فما بالي أتيتُ وليس من أحد دعوتُ وليس من مجيب. أفقصرتْ يدي قصوراً عن الاقتداء ولم تكن في طاقة بالإنقاذ. هاأنذا بزجري أجفِّف البحر وأجعل الأنهار قفراً يُنتِنُ سمكها لعدم الماء ويموت من العطش**] (إشعيا 50، 3).

مسألة النصاب هامة جداً، لدرجة أن الحاخام إليعازر كان قد دخل أحد الأيام كنيساً، ولم يجد فيه عشرة مصلّين، اعتق رقيقه ليكمل المطلوب (Ber ،47b).

بخصوص الصلاة المقامة في الكنيس كان يقال: من أقام في مدينة فيها كنيس، ولا يذهب إليه للصلاة يدعى جار سيئ كما قيل: [**هكذا قال الرب على جميع جيراني الأشرار الذين يمسون الميراث الذي ورَّثته لشعبي إسرائيل هاأنذا أقتلعهم من أرضهم وأقتلع آل يهوذا من بينهم**] (إرميا 12، 14) يقال لحاخام من فلسطين (جوخاتان) هناك شيوخ في بابل. هذا ما يدهشه؛ صاح: مكتوب: [**لكي تطول أيامكم وأيام بنيكم على الأرض التي أقسم الرب لآبائكم أن يعطيها لهم ما دامت السماء على الأرض**] (سفر التثنية الاشتراع 11، 21).

عندما علم أن هؤلاء الشيوخ يقيمون في الكنيس صباح مساء، قال: هذا ما يسمح لهم بالعيش طويلاً. كان الحاخام «يشوع. ب. ليفي» يقول الشيء نفسه لأولاده:

«استيقظوا باكراً وابقوا لساعة متأخرة في الكنيس، بطريقة تطيلون فيها حياتكم» (8a، Ber).

إذا وُجد أن حاخاماً يعتبر أن «أي واحد يصلي كثيراً سيستجاب له» (7b، P. Ber)، فإنه بشكل عام لا يعني أن طول الصلاة تيسير لفعاليتها. حصل أن تلميذاً كان يسجد أمام العرش بحضور الحاخام أليعازر، بالغ في إطالة صلاته. قال له تلامذة الحاخام: يا معلم: كم يصلي طويلاً! أجاب: هل أطول مما فعله موسى معلمنا حسب ما هو مكتوب أنه صلّى مدة أربعين يوماً وأربعين ليلة؟ [**فجثوت أمام الرب الأربعين يوماً والأربعين ليلة التي جثوت فيها لأن الرب كان قد توعدكم بالهلاك**] (تثنية الاشتراع 9، 25). إلا أن تلميذاً آخر كان يركع أمام العرش بحضور الحاخام اليعازر، قصَّر من صلاته بشكل كبير، قال له تلامذته: بما أنه أتمَّها بسرعة. أجاب: هل صلاته أفضل من صلاة موسى معلمنا؟ لأنه مكتوب: [**فصرخ موسى إلى الرب قائلاً اللهم اشفها**] (العدد 12، 13).

كذلك هناك تحذير حيال المديح المطنب في الصلوات بحجة زائغة لله. فلان كان يركع أمام العرش بحضور الحاخام خانينا. كان يقول: اللهم الكبير، الكبير، القادر، المبجل، الظريف، القوي، المريع، المهيب، الشجاع، الحازم، المكرَّم. انتظره الحاخام حتى انتهى من صلاته ثم سأله: ما فائدة كل هذه الصفات؟ يوجد من كل ما ذكرته ثلاث: العظيم، الجبار، الرهيب. والتي لم نكن قادرين على لفظها، لو لم يكن موسى قد استعملها في الـ(تورا) [**لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب، الإله العظيم، الجبار الرهيب الذي لا يحابي الوجود ولا يقبل رشوة**] (سفر التثنية الاشتراع 10، 17). ولو أن رجال الكنيس لم يلحقوها في الطقوس. وأنت تصفُّ منها سلسلة كبيرة! كان ملك في هذا العالم يملك مليون قطعة ذهبية، وكيل له المديح لأنه يملك مليون قطعة فضة، ألم تكن هذه إهانة له؟

يعلن التلمود أن الصلوات المطوَّلة عمداً لا معنى لها، يأمل بأن تطويلها سيؤدي إلى الاستجابة؛ أملٌ من هذا النوع محكوم عليه بالبطلان.

كان الحاخامات يأمرون بالمشاركة في ثلاث صلوات يومية فرضاً، لكنهم حرصوا على توصية بأن لا تتحول تمارين التقوى إلى ممارسة آلية، تلك هي القاعدة التي أوصوا بها: «عندما تصلي، لا تنظر إلى صلاتك على أنها قانون ثابت بل طلباً

للرحمة والفضيلة للرب الحاضر في كل مكان» (Aboth ،2 ،18). يناقش التلمود معنى كلمة كيبا (قانون ثابت) ويعطي لها تعاريف متنوعة. يتوجه نحو الشخص الذي يرى أن الصلاة مُسخَّرة، وإلى من يتلوها بصيغتها الدعائية التوسلية، وإلى من يبدو عاجزاً عن إضافة أي شيء إليها. فقد صرَّح: على غائب الذهن ألا يصلي. (Eroub ،65a): «يجب على كل فرد أن يتفحص ضميره قبل الصلاة، إذا كان باستطاعته توجيه قلبه نحو الله عليه أن يصلي، وبغير ذلك عليه الامتناع» (6b، Ber).

«هناك العديد من حاخامات التلمود، الذين ألفوا الصلوات وأضافوها لطقوس الكنيس. نذكر بعض الأمثلة: كما هي مشيئتك، يا رب، امنحنا الحياة الطويلة، حياة سلام، منيرة، مباركة، مجهزة بكل ما هو ضروري، بالقوة الجسدية، متميزة بالخوف من الخطيئة، حياة دون وجل ولا خوف، حياة غنى وشرف، حياة تربطنا بحب الـ(تورا) والسماء، حياة تستجيب للرغبات الصالحة لقلوبنا».

«يا إلهي، قبل أن تكوِّنني، لم أكن أساوي شيئاً، والآن بعد أن كونتني، لست أكثر من ذلك الشيء لم أكن حياً، أنا تراب، لن أكون أكثر من ذلك عند وفاتي. انظر، أنا أمامك مثل وعاء مملوء بالخجل والارتباك. امنحني يا ربي وإلهي الإرادة بأن لا أخطئ، وطهرني من الخطايا التي اقترفتها، اشملني برحمتك الغنية، وأبعد عني الأمراض الموجعة» (Ber ،17a). هذا يشكل جزءاً من الاعتراف بالخطايا، يا إلهي احفظ لساني من الشر، واحفظ فمي من كل حيلة، في حالة كهذه، لتكن روحي صامتة خرساء، نعم ولتكن روحي فوق كل شيء، مثل الغبار. افتح قلبي لوصاياك، وتبحث روحي عنها. حرِّرني من البؤس، والنزعات الشريرة، من امرأة خبيثة، من جميع المشاكل التي يمكن أن تنفجر في هذا العالم. إذا كان أحدهم يحمل نوايا سيئة ضدي، اقضِ فوراً على كل تأثيراته واعترض رغباته. ليكن الكلام الخارج من فمي، وتبصُّر قلبي مقبولين لديك، يا رب أنت صخرتي ومخلِّصي.

هذه صلاة قصيرة مخصصة لأيام الخطر: حقق إرادتك في السماء؛ امنح الطمأنينة للنفوس على الأرض وللذين يخافونك، واعمل بكل ما هو صالح بنظرك.

بعد الصلاة النظامية، عاد حاخامي يصلي بالعبارات التالية: «أسألك أيها الرب إلهي، إله آبائي أن لا يدخل الحقد قلب أي واحد ضدنا، وأن لا يدخل الحقد في قلبنا

ضد أي كان؛ وأن لا يحسدنا قلب أي إنسان وأن لا يحسد قلبنا أي إنسان، وأن يكون كتابك الـ(تورا) همَّنا وشاغلنا كل أيام حياتنا، وأن ينص كلامنا على رجائك».

أضاف حاخام آخر ما يلي: «وحِّد قلوبنا على الخوف من اسمك، احفظنا من كل ما هو مكروه منك، قربنا من كل ما تحب، وتصرف بعدل معنا، بسبب اسمك العادل»؛

عند النهوض من النوم تكون الصلاة هكذا: «لتكن ممجداً، يا رب، يا من يذكرنا بالموت والحياة. لقد أخطأنا أمامك ربَّنا. وحتى نحظى بإعجابك، أيها الرب إلهنا اضمن لي قلباً نقياً، قسمة سعيدة، حباً جيداً، صديقاً صالحاً، شهرة صالحة، عيناً كريمة، روحاً تحررية، ولا تدعنا مستهزئين من أشباهنا. مُدَّ بحياتنا رغم آثامنا، ولا تلقنا في مهاوي اليأس. لا تتركنا نحتاج لمساعدة الآخرين، لا تدع وجودنا يتعلق بالآخرين، لأن ما نتلقاه ليس إلا الجزء اليسير، ليكن عقاب الضغينة كبيراً. ضع قسمتنا في كتابك (التورا) مع أولئك الذين ينفذون إرادتك. ارفع سريعاً عن أيامنا، معبدك، مدينتك».

سنذكر نصاً أخيراً للصلاة: «أتوسل إليك يا ربي وإلهي، إله آبائي، أن تنزع من قلوبنا نير الرغبات السيئة، لأنك خلقتنا لإتمام إرادتك، ولأجل ذلك، نحن متعلقون بك، هذه هي رغبتك ورغبتنا لكن ماذا يوقفنا؟ الخميرة في العجين (النزوات السيئة). إنه موحىً ومعروف أمامك أن لا قوة لنا بمقاومتها. كي ننال رضاك، نتوسل إليك يا ربنا وإلهنا إله آبائنا، بأن ترفع هذا السور عنا، وتهدمه لتحقق إرادتك وتصبح كإرادتنا بقلب كامل».

تظهر هذه النصوص بوضوح، أنه كان للحاخامات فكرة عن الصلاة أعلى مما لو كانوا يعتبرونها كطلب بسيط يقصد منه إرضاء الرغبات المادية. ودون إهمال المتطلبات الجسدية، كانوا يجدون في الصلاة وسيلة في الوصول إلى صداقة سعيدة مع الله، وتطوير كل ما تحويه الطبيعة البشرية من نقاء ونُبل. تأدية الصلاة بالنسبة لهم تعني تمريناً روحياً لمضاعفة ديناميكية حياتهم، وجعلها قوة مهيمنة على كل تصرفاتهم، وتضمن لهم السيطرة على شهوات الجسد.

4 ـ النزوتان

ورد في بعض الصلوات المذكورة سابقاً ذكر «النزوات السيئة»، قوة تقود للشر، ملكة بشرية تشكل عائقاً كبيراً أمام السلوك الحسن للحياة. تدعى هذه النزوة «الخميرة في العجين»، عامل الفتنة التي تشكل العناصر السيئة في الطبيعة البشرية، والتي إذا لم نقضِ عليها، فإنها ستسيطر على الغرائز الأفضل، وستطلق العنان للأفعال السيئة.

يحتل هذا الاعتقاد مكاناً رئيسياً في العقيدة التلمودية، في كل كائن بشري نزعتان: الأولى تدفعه إلى الشر، والثانية إلى الخير. وللعثور فيهما على قاعدة توراتية، كان الحاخامات يعملون عن طريق الاستنتاج: «ماذا يعني هذا النص من الكتاب المقدس» الرب الإله كوَّن الإنسان [**وإن الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفْساً حيَّة**] (تكوين 2، 7). الكلمة Ouayyitzer (اوايتزر) تحتوي على حرفي (Y) أي أن القدوس الواحد (الممجد!) خلق نزوتين: (Yetzertob نزوة صالحة، Yetzerhata نزوة شريرة).

الصفة المميزة لإنسان ما محددة بصفة واحدة من هاتين النزوتين وكما قيل: تحكم النزوة الخيرة الصالح: «قلبي مجروح في داخلي (بمعنى سيطرة النزوة السيئة)» (2، 109، Ps). النزوة السيئة تحكم الخبثاء كما قيل: «الكلام الكافر الذي يقوله الخبيث في صميم قلبه، ومخافة الله ليست أمام عينيه» (1، 36، Ps)، تحكم النزوتان أولئك الذين يمثلون الوسط.

بالتفسير المجاز في سفر الجامعة، نجد فيه فكرة النزوتين [**مدينة صغيرة فيها رجال قليلون أقبل عليها ملك عظيم وحاصرها وبنى عليها حصوناً عظيمة فوُجد فيها رجل مسكين حكيم فنجَّى المدينة بحكمته ثم لم يذكر أحد ذلك الرجل المسكين، قلة الحكمة خير من القوة ومع ذلك حكمة المسكين مزدراة وكلامه غير مسموع**].

«جاء ملك عظيم وحاصرها ـ هذه هي النزوة السيئة ـ وبنى عليها حصوناً قوية ـ الخطايا ـ وُجد في المدينة رجل مسكين حكيم ـ إنها النزوة الخيِّرة، بحكمته خلَّص المدينة ـ الندامة والأعمال الخيرة ـ وفيما بعد حكمة المسكين مزدراة وكلامه غير

مسموع ـ لأنه عندما نطرد النزوة الخيرة، فإن الأخيرة ستكون في طي النسيان.

تفسير مشابه أعطاه سفر الجامعة (4، 13) [**ولدٌ مسكين وحكيمٌ خيرٌ من ملك شيخ وجاهل لا يحسن التبصُّر فيما سيجيء**]. تدل العبارة الأولى على النزوة الحسنة، لماذا تخص الطفل؟ لأنها لا ترتبط بأي شخص قبل عمره الأدنى أي ثلاث عشرة سنة. لماذا فقير؟ كي لا يصغي إليه أحد. لماذا عاقل وحكيم؟ لأنه مرشد المخلوقات الأخرى إلى الصراط المستقيم.

يُقصد بالعبارة الثانية النزوة الشريرة. لماذا نسميها ملك؟ لأن الجميع يصغون إليه. لماذا مسنّ؟ لأنها مرتبطة بالإنسان منذ شبابه حتى شيخوخته. لماذا أحمق؟ لأنها ترشد الإنسان للطريق السيئ.

بينما، وحسب النص، تكون نزعة الشر طبيعية ومتأصلة، وإن موهبة الخير لا تظهر إلا بعد سن الثالثة عشرة عندما يصبح الطفل مسؤولاً عن أعماله. وفيما بعد، تُنسب نزوة الخير إلى الضمير الأخلاقي. تعبر هذه الفكرة عن نفسها بوضوح في المقطع التالي: إن عمر نزوة الشر أكثر بثلاث عشرة سنة من نزوة الخير. توجد في الإنسان منذ ولادته، وتكبر معه وتصاحبه طول حياته. تبدأ بتدنيس السبت، والقتل، والتصرف اللاأخلاقي، ولا من رادع يحيده عن هذا السلوك. عندما يصبح عمره ثلاثة عشر عاماً تظهر لديه نزوة الخير. فإذا ما دنَّس السبت فإنها تنذره (ابقَ مستقيماً) يا أحمق؛ انظر ما هو مكتوب: [**فاحفظوا السبت فإنه مقدسٌ لكم ومن خرقه يقتل قتلاً كل من يعمل فيه عملاً تنقطع تلك النفس من شعبها**] (خروج 31، 14). إذا تعمَّد ارتكاب جريمة قتل، فإن النزوة الصالحة تَعلَمه أيضاً. أنت لست إنساناً تقول له لأنه مكتوب: [**إن يكن سافكُ دمٍ الإنسان إنساناً فدمُه يُسفك لأنه بصورة الله صُنع الإنسان**] (تكوين 9، 6). إذا فكّر باقتراف ذنب لا أخلاقي، فإنها توجِّه له تنبيهاً: بائس! تذكَّر أنه مكتوب: [**أيُّ رجل زنى بامرأة إن زني بامرأة قريبه فليقتل الزاني والزانية**] (أحبار 20، 10). عندما يفلت إنسان العنان لأهوائه، ويضع نفسه في موقع القادر على ارتكاب الفجور، فإن كل أعضاء جسمه مطواعة له، حيث تكون نزوة الشر هي الأقوى على مائتين وثمانية وأربعين عضواً. وعندما يقرر القيام بعمل جدير بالتقدير فإن جميع أعضاء جسمه تبدأ بالتألم، حيث النزوة السيئة

تتحكم بها كلها، وتصبح الحسنة أشبه بسجين أو أسير كما قيل: [**لأنه قد يخرج من السجن إلى المُلك والمولود في المُلك قد يفتقر**] (الجامعة 4، 14). هذا عائد للنزوة الحسنة.

في اللحظة الحرجة حيث يتلقى الكائن البشري النزوة الشريرة، فإنها حددت مادة للجدل بين الإمبراطور الروماني انطونيوس والحاخام (يهودا الأمير)، وكما رأينا سابقاً، فقد أعطي الميل نحو الشر أصلاً متوافقاً مع ولادة الإنسان «اعتباراً من أي لحظة تمارس النزوة الشريرة تأثيرها على الإنسان؟ هل عند تشكّل الجنين، أو عند ولادة الطفل؟ أجاب الحاخام من لحظة تكوينه. أجاب الآخر: في هذه الحال كان على الجنين أن يدفع بطن أمه بقدميه يمنة ويسرة، ويخرج منه بإرادته! هكذا، النزوة الشريرة لا تظهر إلا بعد الولادة». قال عندها الحاخام يهودا: ما يؤكد لي مدعوم من الكتاب المقدس عندما يقول: [**إلا أنك إن أحسنت تنالُ وإن لم تُحسن فعند الباب خطيئة رابضة وإليك انقياد أشواقها وأنت تسود عليها**] (تكوين 7، 4).

«الخطيئة نائمة على الباب» أي أنه لحظة بدء الولادة .

تقول إحدى النظريات أن نزوة الشر متمركزة في أحد أعضاء الجسم. فهي مثل ذبابة مستقرة وسط فتحتي القلب. والإنسان يملك كليتين إحداهما تجعله يميل نحو الخير والأخرى نحو الشر. وكما يقال: الصالحة مستقرة في الجهة اليمنى والشريرة في الجهة اليسرى، ولأنه مكتوب أيضاً: [**قلب الحكيم عن يمينه وقلب الجاهل عن شماله**] .

يعتبر آخرون، أن قوة خارجية تحلُّ على الإنسان لتمتلكه إذا سنحت لها الظروف بذلك. لقد أوضحنا سابقاً مقارنة النزوة الشريرة بالشيطان. توصف أعماله (الشيطان) بهذه التعابير: «النزوة الشريرة لا تمشي إلى الأمام متبعة جانبي الطريق، بل تتصدر الطريق. عندما تلمح إنساناً مُتعجرفاً ثرثاراً تقول: هذا تابع لي».

لكن الرأي الأكثر شيوعاً يجعل من النزوة الشريرة أن تظل متهيئة عند الكائن البشري، باعتبارها نتاج غرائزه الطبيعية، خصوصاً عن الرغبة الجنسية. فيما بعد ليس كله شريراً، لأن الله لم يخلق إلا كل ما هو حسن. هذا سيئ بمقدار من يمكن قياسه. نراه بوضوح لدى تفسير تعبير (حسن جداً) في سفر التكوين (1، 31) [**ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جداً**]. كان مقدراً أن هذا النص يعني النزوات الحسنة

والشريرة. لكن لنتساءل، هل النزوة الشريرة هي أيضاً صالحة جداً؟ إليكم الجواب: «بدون هذه النزوة لا يمكن لأي إنسان أن يبني بيتاً، يتزوج امرأة، ينجب أطفالاً، يدير أعمال البشرية».

الصفة الأساسية في الإنسان أن لديه ميلاً يقوده إلى سلوك طريق الشر. مع منحه إمكانية أن يصبح كائناً أخلاقياً. وبدون هذه الصفة لا يمكنه فعل الشر، فالعمل الصالح قد لا يكون له معنى أيضاً. يستنتج منطقياً أنه لا توجد لدى الحيوانات نزوة شريرة، من واقع أنها لا تملك الحسّ الخلقي. الفكرة نفسها موجودة في هذا التوضيح: «لنفخر بأجدادنا لأنهم لو لم يخطئوا لما وُلدنا على الأرض». لقد وقعوا في الخطيئة، أي أنهم خضعوا للنزوات الشريرة، واعتبرت أعمالهم سامية بسبب إدامتها للجنس البشري. كذلك الكلمات [**فاحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك**] (تثنية الاشتراع 6، 5)، أعطي لها تفسير لنزوتين، صالحة وشريرة. حتى النزوة الشريرة يمكن أن تستخدم في خدمة الله، وتصبح طريقة للتعبير عن الحب الذي نشعر به تجاهه.

إذا سُمِّيت شريرة، وإذا كان على الإنسان أن يحذر إغراءاتها، فهذا عائد لكونها تقوده إلى المحرَّم. النزوة الشريرة تحرف الإنسان في هذا العالم عن الطريق القويم، وفي العالم الآتي ستشهد ضدَّه. يميل الإنسان غالباً نحو فعل الخير، غير أن النزوة الشريرة المستقرة في داخله تقول: ماذا ينفع البر الذي ينقص ما تملكه؟ بدلاً من إعطاء الغرباء، قدِّم الهبات لأطفالك. غير أن النزوة الصالحة تحمله دائماً على فعل الخير. النزوة الشريرة قوية جداً لأن خالقها يدعوها شريرة، كما قيل: [**فتنسَّم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان بما أنَّ تصوُّر قلبِ الإنسان شريرٌ منذ حداثته ولا أعود أهلك كل حيٍّ، كما صنعت**] ليس لديك آلهة غرباء. من هو الإله الغريب داخل الجسم البشري؟ إنه النزوة الشريرة.

الخطر الكبير الذي نخشاه من هذا الميل، أنه قادر على النمو دائماً وبشكل واسع، إذا لم نسيطر عليه منذ البداية. أقوال مأثورة وأمثال لافتة مُعبرة عن هذه الفكرة. النزوة الشريرة يمكن أن تشبَّه بنسيج بيت العنكبوت، لكن في نهاية المطاف لها أبعاد حبلٍ. في البداية عابر طريق، ثم مستأجر، ثم سيد البيت النزوة الشريرة عذبة حلوة في بدايتها، ومُرَّة في النهاية. إليكم خطة النزوة الشريرة: في البداية تهيئ الإنسان للقيام بعمل تافه، وفي الغد شيء آخر أكثر أهمية، وتنصحه في النهاية بالتوجه لخدمة الأوثان

ولا بدَّ أنه سيفعل. وبعبارات أخرى تقوده عند الضرورة لهجر أي نوع من الضوابط المفروضة لخدمة الله.

الفرق بين الحكيم والأحمق معرَّف بالشكل التالي: «الحمقى محكومون بنزواتهم الشريرة لكن الصالحين الحكماء يسيطرون ويحكمون قلوبهم». السؤال: من يقدر؟ جواب: من يقهر نزوته؟.

ألا يخامر الحاخامات أي شك حول القوة المستبدة لهذه الغريزة المتأصلة بعمق كبير؟ «يمكن للنزوة الشريرة أن تسبب سقوط إنسان يبلغ من العمر السبعين وحتى الثمانين» ويطلبون: كيف يمكن للإنسان أن يحفظ نفسه بعيداً عن النزوة الشريرة الموضوعة فيه، لأن ولادته كانت من عمل النزوة؟ يجب إذن محاربتها وتجاوزها، بأي وسيلة؟ المجابهة بالعقل المنظم المدرب بأفكار جدِّية. على كل إنسان أن يدعم النزوة الحسنة ضد الشريرة. فإذا ما قهر الأخيرة، فكل شيء على ما يرام. وإذا لم يتوصل إلى ذلك، فلينكب على دراسة (التورا). إذا ما ساعدته التورا على النصر، فنعم الحدث. وإذا لم تكف عنه، فعليه تلاوة الصلاة الليلية. فإذا حصل على النصر، فهذا عمل رائع. وإلا فعليه التفكير بما سيكون عليه يوم الموت. مسلمات أخرى تقصد الهدف نفسه. قال القدوس الواحد (الممجد!) لإسرائيل: أبنائي؛ لقد خلقت النزوة الشريرة، وخلقت التورا ترياقاً لها. فإذا ما كرستم أنفسكم للتورا فإنكم لن تقعوا تحت سلطة النزوة الشريرة. إذا ما صادفتم هذا الشيء المقيت اقرنوه (كما يقرن الحيوان عند الحراثة) إلى بيت الدراسة. سعداء الإسرائيليون! عندما يدخلون في خدمة التورا، وينجزون أعمال الإحسان، عندها تُسلِّم نزوتهم الشريرة إلى سلطتهم، وهم يهربون من سلطتها.

لا يكفي التلمود أن يقدِّم نصائح بسيطة، لبلوغ الكمال؛ بل يعرف بوقائع الحياة كما هي.

ماذا يفعل من يناضل بجد، ولكن عبثاً ضد الميول الشريرة؟ إليكم الجواب: «إذا رأى أحدهم أن نزوته الشريرة في طريق السيطرة عليه، فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ويرتدي ثياباً سوداء، ويفعل ما يرغب به قلبه؛ وبالمقابل عليه عدم تدنيس الاسم الإلهي علانية». إذ من المستحيل أن يسمح بالخطيئة المرتكبة خلسة، بحجة أن الله لا يعرفه أبداً.وفي السياق نفسه، يُعثر على إنذار واضح يستبعد أيَّ فرضية من هذا القبيل. أي فرد يرتكب انتهاكاً على حدة، يعادل أي فرد يعتدي على الشيخينا. تنشر العقيدة

الحاخامية الحضور الكلي للإله؛ «القيام بالعمل الشرير خلسة، يعني إنكار مبدأ العقيدة». إليكم الصيغة الحقيقية: إذا خضع إنسان لطبيعته الشريرة فعليه على الأقل عدم الإضافة إلى خطيئته الثأر الشخصي الذي كان سيسببه تدنيس الاسم الإلهي. التمييز بين الخطيئة المرتكبة علانية، والمرتكبة سرّاً، سنشرحه أفضل فيما يلي:

بما أن الله خلق النزوة الشريرة، فهو يهدف إلى المحافظة على الجنس البشري، وينتج من ذلك أن العالم الآتي، عندما لا يكون لهذا الكلام من وجود، عندها تتوقف النزوة الشريرة عن كونها ضرورية. من ذلك الإرشاد. في العالم الثاني سيرغم القدوس الواحد (الممجد!) النزوة الشريرة على المثول أمامه، ويجعلها تتلاشى بحضور الأخيار والأشرار. بالنسبة للصالحين تبدو كجبل عالٍ، وللأشرار مثل شعرة. جميعهم سيبكون. الصالحون يبكون ويصيحون: «كيف تمكنا من السيطرة على قوة بهذا القدر الكافي؟ والأشرار الباكون ينوحون قائلين: لماذا كان من المستحيل علينا التحكم بترهات من هذا القبيل؟».

5 ـ الإرادة الحرَّة

تشكل النزوة الشريرة بالضرورة جزءاً لا يتجزأ من البنية البشرية؛ منذ ذلك الوقت ألم يكن الإنسان مرغماً على الخطيئة؟ يجيب الحاخامات بالنفي القطعي. يبقى هذا العنصر من الطبيعة البشرية، أساساً في المحافظة على الجنس البشري تحت تحكمه. «إذا كانت نزوتكم تسعى لتوحي لكم بسلوك طائش، اطردوها بكلام من التوراة. هل باستطاعتكم التأكيد أنها تفلت من مراقبتكم، بينما أنا «الله» قلت لكم في الكتاب المقدس: رغباتها تنصب نحوك، لكنك سيطر عليها».

يروي حاخام جوزيف، أن عقيدة الحكم الحر كانت تميز الفرّيسيين، عندما يقولون إن كل الأشياء تحدث بمقتضى القدر، فإنهم لا يجردون الإنسان أبداً من حرية العمل، كذلك يقولون دون قيود إن الله يتلذذ في تركيب قوانين القدر والإرادة البشرية. بطريقة يستطيع الإنسان معها أن يصنع في أعماله قدراً من الفضيلة أو الرذيلة.

هذا الادعاء موجود في التلمود بلا تحفظ. النصوص التالية تبرهن على ذلك. يطلق على الملاك المكلف بمراقبة الحمل اسم ليلى. يأخذ قطرة من البذار (نطفة)، ويقدمها للقدوس الواحد (الممجد!) ويعرض عليه هذا الرجاء: «يا سيد الكون، ماذا سيكون مصير هذه النطفة؟ شخصاً قوياً أم ضعيفاً، عاقلاً أو أحمق، غنياً أو فقيراً؟» غير أن الموضوع ليس بمعرفة ما إذا كان هذا سيصير صالحاً أم شريراً. حقيقة عامة (حكمة) تؤكد هذا: «كل شيء بين يدي السماء، إلا مخافة السماء». هذا يعني لو أن الله له مصير الفرد، فإن تردداً يجري فيما يتعلق بالسمة الأخلاقية لحياته.

إن فكرة الخيار، متروكة لكل واحد، ومشروحة بوضوح لدى تفسير هذا النص: [**انظروا، إني تالٍ عليكم اليوم بركة ولعنة**] (تثنية الاشتراع 11، 26). لمَ هذا التصريح لأنه قد قيل أيضاً: [**انظر، إني قد جعلت اليوم بين يديك الحياة والخير والموت والشر**] (سفر تثنية الاشتراع 30، 25). من المحتمل أن يقول الإسرائيليون: «بما أن الله وضع أمامنا طريقين، طريق الحياة وطريق الموت، فيمكننا سلوك الطريق الذي يروق لنا». وقيل أيضاً: «اختر الحياة، كي تتمكن من العيش أنت وذريتك». جلس أحدهم على مفترق طرق. أمامه طريقان مفترقان، أحدهما بحالة جيدة وممهدٌ ينتهي بغابة مليئة بالأشواك، بينما ينطلق الثاني وسط الغابة وينتهي في خط مستقيم. كان الرجل يحذر المارة بانتظام: «هل تشاهدون هذا الطريق الذي يبدو سهلاً، ستسيرون فيه بضع خطوات دون جهد، وبسرور، لكن في النهاية ستسقطون وسط الأشواك. انظروا الطرقي الآخر، يبدأ بالأشواك، ستسيرون عليه بضع خطوات بصعوبة، ومن ثم تصلون إلى طريق مستقيمة». كذلك قال موسى لإسرائيل: «تنظرون إلى الشرير الذي يغتني؛ فهذا يستمر يومين أو ثلاثة أيام في هذا العالم، لكن في النهاية سيكون منبوذاً. تنظرون إلى الصالح الذي يتألم، يستمر حاله يومين أو ثلاثة أيام على الأرض، لكنه سيجد في الآخرة ما يفرحه». في سياق الأفكار نفسها، وبخصوص هذه الكلمات: [**وقال الرب الإله هو ذا آدم قد صار كواحدٍ منا يعرف الخير والشر والآن لعله يمدُّ يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الدهر**] (تكوين 3، 22). لقد وضع الحاضر طريقين أمامه: طريق الحياة، وطريق الموت؛ بيد أنه اختار الثاني (تكوين 5، 21، R). من واقع أن الجنس البشري بكامله يستمد أصوله من فرد واحد، فقد أعطي تَفسيرٌ غريب لذلك: هذا بسبب الصالحين والأشرار، وكي لا يقول الصالحون، نحن أحفاد

جدٌ كان صالحاً، وكان يقول الأشرار نحن ننحدر من جدٍّ كان شريراً، أو أخلاقياً: لا أحد يقدر على أن ينسب تأثير الوراثة كعامل قاطع لسمته (مزاجه).

أدرك الحاخامات جيداً المسألة الفلسفية التي تطرح مسألة الحكم الحر، غير أنهم رفضوا تفويض أنفسهم بتقليص درجة الإيمان بالقوة التي يملكها الإنسان للسيطرة على أفعاله. لم يحاولوا التوفيق بين المعرفة الكلية لله والإرادة الحرة، لكنهم يمنحون عملياً هذه القاعدة للحياة، كل شيء متوقع من قبل الله في حين حرية الاختيار ممنوحة لنا.

غير أن الله يتدخل فيما بعد بالاختيار الذي قام به الإنسان، أكان صالحاً أو شريراً، والإمكانية متوفرة له للاستمرار في الاتجاه الذي خطّه لنفسه. الإنسان مُسيَّر بالنسبة للطريق الذي يرغب السير عليه. إذا أراد أحدنا أن يلطخ نفسه، فإنه سيجد المناسب لذلك؛ وإذا أراد الآخر تنقية نفسه، فإنه سيتلقى العون في هذا الخصوص. إذا لطّخ الإنسان نفسه قليلاً، فإن الله سيلطخه كثيراً. وإذا ما تلطّخ على الأرض، فإنه سيتلطخ في السماء؛ وإذا ما تلطخ في هذا العالم، فإنه سيتلطخ في العالم الآخر. وإذا ما قدّس إنسان نفسه بمقدار قليل، فإنه سيقدس كثيراً، وإذا ما قدّس نفسه في هذا العالم، فإنه سيُقدَّس في العالم الآتي. إذا أصغى إنسان لوصية، يحضِّر نفسه ليصغي للكثير؛ غير أنه لو نسي واحدة فسيحصل على الكثير.

وهكذا فإن الاقتناع بغياب العوائق أمام الإرادة البشرية هو أساس الأخلاقية الحاخامية.

إن طبيعة هذه الحياة مصوغة ومكيفة حسب رغباته. يمكن للإنسان تقدير ظروف الحياة، إذا ما أراد ذلك. لا تتوقف النزعة الشريرة عن تجربته، لكنه سيخضع نفسه وذاته فقط وسيتحمل مسؤولية ذلك.

6 ـ الخطيئة

يروي التلمود أن «مدرستي هيلِّيل وسامّاي» كانتا على خلاف استمر عامين ونصف حول الموضوع التالي: كانت مدرسة سامّاي تقول: من الأفضل للإنسان أن

لا يخلق مطلقاً، بينما حسب مدرسة هيلّيل من الأفضل للإنسان أن يُخلق. وُضعت المسألة قيد التصويت. وجاءت الأغلبية تقول: من الأفضل ألا يُخلق الإنسان. لكن بما أنه قد خلق، فعليه أن يتفحص أعماله الماضية وحسب رواية أخرى أفعاله (الحاضرة والمستقبلية). وسط هذا التناقض تكمن الفكرة المقبولة عموماً، والتي ترى في الإنسان مخلوقاً هاماً مُستعبداً بالخطيئة، ومرغماً على أن يقوم طيلة حياته بأعمال كثيرة تجعله يستحق الحكم الإلهي. لقد رأينا أن جزءاً من الطبيعة البشرية وهو النزوة الشريرة، التي يمكن السيطرة عليها، غالباً ما تتفوق على الإنسان، وتمارس عملها المفسد.

السؤال المطروح: هل يمكن أن يكون الإنسان كاملاً بشكل مطلق بلا خطيئة؟

يقدِّم الأدب الحاخامي أجوبة متعارضة، فهو يعلن من جهة أنه لا يوجد أي أثر للشذوذ الأخلاقي أو الخطيئة في أشخاص الآباء الكبار الأوائل. وقد عثرنا على هذا التأكيد بالتالي: توفي أربعة أشخاص بسبب نصيحة أفعى (التي أغرت حواء) وهم: بنيامين بن يعقوب، عمرام والد موسى، وجيسّي والد داود، وكليب بن داود. هذا يعني أن هؤلاء الأشخاص الأربعة كانوا بلا خطيئة، والنتيجة يجب ألا يموتوا أبداً. خلافاً لهذه النظرية يتلو الحاخام النص التالي: [**الحكمة تؤيد الحكيم أكثر من عشرة ذوي سلطان في المدينة**] (الجامعة 7، 20)، لا يوجد على وجه الأرض أي شخص صالح يعمل الخير ولا يخطئ مطلقاً. بهذه العبارة كان يجيب على أسئلة تلامذته، مؤكداً أن حياته كانت منزهة عن الخطيئة.

هذه الآراء المتباعدة المختلفة، هي على علاقة مع المسألة التي تتساءل فيما إذا كان التلمود يعلِّم عقيدة الخطيئة الأصلية، والتي بموجبها يرث الإنسان الجرم الذي اقترفه أجداده الأوائل، وبالنتيجة فالإنسان يصبح فاسداً جوهرياً، بالطبيعة. لقد ظهر سابقاً، أن الحاخامات كانوا يقبلون بنتائج الخطيئة المرتكبة في جنة عدن على جميع الأجيال. تُعدُّ هذه الخطيئة السبب المباشر للموت الذي يجتاح البشرية بكاملها. كانوا يعتقدون أيضاً، أن خطيئة العجل الذهبي قد أدامت الدّنس، بطريقة تؤثر بها دوماً على مصير البشرية. ما دامت ذرة واحدة موجودة من خطيئة العجل الذهبي، فليس هناك أي جيل بلا خطيئة.

البعدُ واضح بين هذه العقيدة، والعقيدة التي بحسبها يرث الإنسان الخطيئة. قد

يكون مُحمَّلاً بنتائج الأفعال السيئة لأجداده، لكن ما من حاخام من الحقبة التلمودية لا يقبل أن يكون كائن بشري واحد قادراً على ارتكاب خطيئة دون أن يتحمل شخصياً مسؤوليتها. وهذا لا يتوافق مع مبدأ الإرادة الحرة.

توضيحات تلمودية كثيرة تبرهن أن الإنسان بطبيعته دون خطيئة، يُقرأ فيه مثلاً: طفل عمره سنة لم يذق طعم الخطيئة بموجب قول سفر الجامعة (3، 2): [**للولادة وقت وللموت وقت، للغرس وقت ولقلع المغروس وقت**]. على هذا ترتكز أمنية: «سعيد الإنسان الذي تشبه ساعة موته ساعة ولادته، وبما أنه عندما يولد يكون خالياً من الخطيئة، فليكن الشيء نفسه خالياً من الخطيئة عندما سيموت!». إمكانية الوجود بلا وصمة عار ليس مقبولاً فقط، بل كمقدمة مثالية يجب أن يسعى إليها كل إنسان. نستخلص من هذا عظة مشابهة للآية القائلة: [**فيعود التراب إلى الأرض حيث كان ويعود الروح إلى الله الذي وهبه**] (الجامعة 12، 7). أعيدوها إليه بنقاوتها كم أعطاكم إياها.

من وجهة نظر حاخامية ليست الخطيئة شيئاً آخر، سوى التمرد على الله. أوصى الله بإرادته في التورا. من يخالف وصايا التورا كمن يرتكب جرم مخالفة. الفضيلة هي التقيد بالتورا. الخطيئة تعني الإهمال والاحتقار. هذا الموقف مشروح في الأسطر التالية: على الإنسان أن لا يقول محرَّم عليَّ أكل لحم الخنزير، محرَّم عليَّ ارتكاب المحرَّمات. بل يجب عليه أن يقول: مسموح لي التصرف بهذا الشكل، لكن ماذا سأعمل، إن كان أبي الذي في السموات قد أخضعني لهذه الوصايا؟. لا يوجد أي فضل بالامتناع عن كل ما هو محرم، لأنه غير مرغوب، بل يجب أن توجد الرغبة، لكنها رغبة مقهورة، مكبوتة، لأن هناك تحريم أو منع.

نظرياً، لا يوجد فرق في الخطورة أو الأهمية بين هذه وتلك من الخطايا، حيث إن كل إساءة هي فعل تمرد ضد الإرادة الإلهية. لكن عملياً توضع ثوابت مميزة. كان مقبولاً سابقاً بأن هناك ثلاث خطايا رئيسية وبارتكابها يتعرض الإنسان لحالة رهيبة من الإجرام بنوع خاص. يروى أنه خلال فترة اضطهاد آدريان، في النصف الأول من القرن الثاني للميلاد، وبينما كان الطغيان الروماني يمنع الممارسات الدينية تحت طائلة العقاب بالموت، تشاور مجمع الحاخامات لتحديد ما يجب أن يكون عليه الواجب الديني لليهود المعرضين لهذه الكوارث. توصلوا للقرارات التالية: «فيما يتعلق بالمحرمات

الواردة في التورا، إذا ما قيل لليهودي خالف واحدة وسننقذ حياتك. يمكن الاستجابة لذلك لتجنب الموت، شرط أن لا تكون المخالفة عبادة الأصنام، أو النجاسة، أو القتل». الموت أفضل من ارتكاب هذه الأنواع من المخالفات.

خطيئة رابعة مميزة جسيمة جداً، إنها النميمة. هناك أربع خطايا يقتضي معاقبتها في هذا العالم، لكن الأهم من بين هذه الخطايا ما يبقى في العالم الآتي. عبادة الأوثان، الدنس، القتل، النميمة.

إن خطيئة عبادة الأوثان تعادل الثلاث الأخريات مجتمعات. من أين ستنتهي؟ [**لأنه استهان بكلام الرب ونقض وصيته فيقطعُ ذلك الإنسان قطعاً وِزرَهْ عليه**] (سفر الأعداد 15، 31). ما هو وزن هذه الكلمات؟ ستحمل وزر فسادها؟ يظهر أن الروح ستؤخذ من هذا العالم، وأن فسادها سيبقى بداخلها. من هنا جاء الاستنتاج المتعلق بالفسق؟ [**وليس في هذا البيت شيء فوق يدي ولم يُمسكْ عني شيئاً غيرك لأنك زوجتُهُ. فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطأُ إلى الله**] (التكوين 39، 9). وبالنسبة للقتل؟ نستند إلى النص التالي: [**قال قاين للرب: ذنبي أعظم من أن يُغفر**] (تكوين 4، 13). أما النميمة: [**ليدمر الله جميع الشفاه المتملقة، المخادعة، اللسان الذي يخطب بتبجح**].

يلمح التلمود دائماً لخطورة الخطايا. كانت الأولى منسوبة لعبادة الأصنام، لأنها مرغمة على نكران الوحي الإلهي، وبالتالي تدمر الأساس الحقيقي لمجمل منظومة الدين والأخلاق. كلٌ من يعترف بعبادة الأوثان ينكر الوصايا العشرة والمبادئ المعطاة لموسى والأنبياء والبطاركة. أي إنسان يرفض عبادة الأوثان يعترف بالتورا كاملة. كل ما يأمركم نبي بفعله، ويتضمن انتهاكاً للتورا فاسمعوا له، باستثناء عبادة الأوثان، حتى ولو سبَّب هذا توقف الشمس وسط الغيوم، لا تسمعوا له.

يطالب التلمود بالأخلاقية الجنسية الصارمة. يعلن أن الزنا فعل مُلحد، وبالرجوع إلى النص التالي: [**عيناي إلى الرب في كل حين لأنه يخرج من الشبكة رجليَّ**] (المزمور 24، 15). عين الزنا تراقب الشفق؛ ولن تراني عين. لا يقال: سوف لا يراني أحد، بل لن تراني عين، لا عين الإنسان على الأرض، ولا عين الله في السماء (أعداد 9، 1، R). حتى الشهوة بالعين مرادفة لفعل نجس. «ليس من يخطئ بجسده فقط زانياً، بل من يخطئ بعينيه». للمحافظة على الأخلاق، من الواجب قطعاً تجنب كل ما

يثير الشهوة الشريرة. مثال هذه التوصية: «لا تتحدث كثيراً مع النساء، هذا ينطبق حتى على زوجتك، وكم بالأحرى مع زوجة جارك». لذلك يقول الحكماء: من يتحدث كثيراً إلى النساء، يجلب لنفسه التعاسة، يهمل قراءة التورا، ومعبره جهنم. على الرجل أن لا يمشي خلف امرأة طيلة مسافة الطريق، حتى لو كانت زوجته. إذا ما صادفته امرأة على جسر، عليه أن يتركه ويمشي أمامها، أو يتركها تمشي إلى الجانب، أي واحد يعبر مجرى ماء خلف امرأة، سوف لن تكون له حصة في العالم الآخر. كل من يدفع مالاً لامرأة، ناقلاً القطع النقدية من يده إلى يدها ليتلذذ بالنظر إليها، هل يملك التورا أو ما يعادل ذلك من الأعمال الصالحة التي لم يهرب موسى، معلمنا من عقاب جهنم. الأفضل للرجل أن يمشي خلف أسد من أن يتبع امرأة. المزاح والحماقة تقودان إلى الفسق.

حكم قاس يصبُّ السفاهة في الكلام: «كل من يستعمل كلاماً غير لائق، حتى لو ادعى أن لديه قراراً يسمح له منذ سبعين عاماً، فإنه سيخضع لقرار مضاد. بالنسبة لمن يستعمل هذا النوع من الكلام فإن جهنم بانتظاره.

هذا ينطبق على من يقتصر سماعه على كلام من هذا القبيل دون احتجاج. لماذا تنتهي الأصابع في نهايتها كالأوتاد؟ «ليستطيع أحدنا سدَّ أذنيه لدى سماعه كلاماً فاسقاً».

الخطيئة الثالثة من بين الخطايا الرئيسية هي القتل، وحكمها كما لو أنه اعتدى على الله، فهو بعمله هذا يدمِّر مخلوقاً على صورة الله.

كيف أعطيت الوصايا العشر؟ كان خمس منها مكتوباً على لوح والباقي على لوح آخر. تبدأ الوصية الأولى: «أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيري». ومقابلها على الوجه الآخر: «لا تقتل»، يستنتج من ذلك أنه إذا سفك أحدهم دماً، فإن الكتاب المقدس، يتهمه بجرم كما لو أنه اعتدى على صورة الرب الإله (خروج). جاء رجل يبحث عن رابًّا (Raba) قائلاً: أَمرني حاكم المدينة أن أقتل شخصاً ما، إذا رفضت عليك أن تقتلني أنا ـ أجابه رابًّا: دعني أنا أقتل ولا تقتل أنت، أتعتقد أن دمك أكثر حمرة من دمه، وقد يكون ذلك بالعكس.

كان قتل الإنسان مبرَّراً في الظروف التالية:

ـ إذا جاء أحد لقتلك، اسبقه واقتله.

- إذا قال الوثنيون لمجموعة من الإسرائيليين، حدِّدوا واحداً منكم لنقتله، وإلا فسنقتلكم جميعاً.

عليهم جميعاً أن يتعذَّبوا كثيراً على أن يسلموا واحداً منهم. لكن بما أن الوثنيين طلبوا تسليم شخص معين، فلنسلمهم إياه: لأنه سيُقتل معهم جميعاً، ليتخلوا عن الضحية الوحيدة، ولا يذهبوا جميعاً للموت الحقد مدان بقوة أيضاً، لأنه قد يؤدي للقتل. الحقد لا كابح له، فهو يعادل ثلاث جرائم: عبادة الأوثان، النجاسة، القتل: وهو من أسباب التدمير الثاني للهيكل. كانت الوصية: [**لا تبغض أخاك في قلبك بل عاتبه عتاباً ولا تحمل وزراً**] (أحبار 19، 17)، مشروحة على الشكل التالي: يمكن التفكير بالاكتفاء، لا تضربه، أو تصفعه، أو تلعنه، لهذا يضيف النص موضحاً بجلاء أن الأمر يتعلق بالحقد فقط، بالمفهوم الداخلي.

كم يكره الله الحقد، نرى ذلك بالملاحظة التالية: «مثل أولئك الذين بنوا برج بابل، كانوا يحبون بعضهم بعضاً، لم يقرر القدوس الواحد (الممجد!) إبادتهم، بل اكتفى بتشتيتهم في كل الاتجاهات. أما سكان سدوم الذين حقدوا على بعضهم البعض فقد اجتثهم القدوس الواحد (الممجد!) من هذا العالم والعالم الآتي. الخطيئة الرابعة الأساسية هي النميمة، يشار إليها بتعبير غريب: «اللسان الثالث» لأنها تؤدي لموت ثلاثة أشخاص: المتكلم، والمخاطب، والغائب (Arak ،15b). التعابير الأقوى مستعملة لإظهار كل ما تتضمنه النميمة من فعل أثيم. أي إنسان ينطق بالنميمة فإنه يفعل كما لو أنه ينكر المبدأ الأساسي (أي وجود الله) أي واحد يلفظ نميمة، فإنه يضخم الظلم حتى السماء - كل من يتلفظ بنميمة يستحق أن يرجم حتى الموت - يقول القدوس الواحد (الممجد!) عن ذلك الإنسان: «لا يمكن أن نبقى معاً في هذا العالم». كل من ينطق بنميمة فإنه يُشيد بالظلم ويجعله مساوياً لمن يمارس الخطايا الثلاث: عبادة الأوثان، الدنس، القتل.

- كل من يتلفظ بالنمائم سواء بالتلقي، أو الإدلاء بشهادة زور ضد قريبه، يستحق أن يلقوا به طعاماً للكلاب. قول مأثور للحاخام اليعازر: «شرف جارك عزيز عليك مثل شرفك». تماماً كما يحترم الإنسان شرفه الشخصي عليه احترام شرف جاره، لأنه لا أحد يرغب برؤية شرفه مقدوحاً، وأن لا يتنازل مطلقاً عن الإغواء بذم سمعة جاره».

الاستعمال السيئ لموهبة النطق، ما زالت موضع تحذيرات عدَّة. كان الحاخامات

يعلمون لأي درجة يمكن للسان أن يكون غير مطيع، لهذا يقولون: «إن الله أخضعه لرقابة شديدة». يقول القدوس الواحد (الممجد!) عن اللسان: «كل أعضاء الجسم شاقولية، لكن اللسان أفقي»؛ جميعها خارج الجسم، أما اللسان ففي داخله، بالمقابل أحطتُك بجدارين الأول من العظم والآخر من اللحم.

الكلام مخفض لأدنى حدوده. تقول الحكمة: الكلام من فضة والسكوت من ذهب. لها مثيل في التلمود: «كل كلمة تُعادل «سيلا» (قطعة نقود)، السكوت يساوي قطعتين»، كذلك: «الصمت أو السكوت يشفي جميع الأمراض». «السكوت مفيد للعاقل، وفائدته أكثر للأحمق». أجلسُ كل يوم وسط العقلاء، ولم أجد أكثر فائدة من السكوت.

الكذب يساوي السرقة، وهو الأسوأ. «هناك سبع فئات من السرقات؛ الأولى يرتكبها من يسرق العقل من أقرانه بكلام كاذب». قيل أيضاً: لا يمكن لجماعة الكذب حضور الشيخينا. في هذا الصدد يمكن جمعهم مع المرائين، والنمامين. من كان غير صادق في كلامه، يعمل كما لو كان يعبد الأوثان. القدوس الواحد (الممجد!) يأنف من الذي ينطق كلاماً بفمه، بينما يضمر شيئاً آخر في قلبه. «إن عقوبة الكاذب أن لا تصدِّقه عندما يقول الحقيقة». ليس من واجب أي فرد أن يعِدَ طفلاً بإعطائه شيئاً ما، دون الإيفاء بوعده، لأنه بهذه الطريقة يعلمه النفاق.

يقسِّم التلمود الفريسيين إلى سبع طبقات، ويهجو الذين يظهرون ميولاً مخادعة: الفريسي «شيحيمي» الذي يتصرف مثل «شيشيم»؛ الفريسي «نيكبي» الذي يضرب قدميه ببعضهما؛ الفريسي «اكيزاي» الذي يسيل دمه على الجدران، الفريسي «بيلون» الذي يمشي منحني الرأس مثل مدقة الجرن؛ الفريسي الذي يتوقف عن الصياح؛ ما هو واجبي، لأقوم به! الفريسي حبا الله، والفريسي خوفا.

خطيئة أخرى تتعرض لهجوم قاسٍ هي عدم الاستقامة. يصرِّح بشجاعة في هذا الخصوص، أنه عندما يقف كائن بشري أمام المحكمة السماوية ليقدم كشف حساب عن حياته، فالسؤال الذي سيطرح عليه: هل كنت مستقيماً شريفاً في علاقاتك العامة؟. «انظروا ما أرهب سلطة السرقة: الجيل السابق للطوفان، مارس كل أنواع التعديات، لكن مصيره لم يتقرر» عندما يضع يده على المسروقات وكما قيل: لقد ملأوا الأرض عنفاً، أريد تدميرهم على الأرض [**فقال الله لنوح لقد دنا أجل كل**

بشرٍ بين يدي فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهاأنذا مهلكهم مع الأرض] (تكوين 13،6).

كل من لطَّخ يديه بالسرقة، يمكنه التضرع للقدوس الواحد (الممجد!)، دون أن يحصل على جواب.

افترضوا أن شخصاً اختلس مكيال قمح، ليصنع منه الطحين، ثم يعجنه، ويخبزه، وقسم قطعة من العجين: ليصنع منها بركة: **[فمتى ما أكلتم من خبز الأرض فقدموا منه تقدمة للرب، من أول عجينكم تقدمون جردقة تقدمة، كتقدمة البيدر تقدمونها، ومن أول عجينكم تجعلون للرب تقدمة مدى أجيالكم]** (عدد 15، 20 - 21 - 22) أي بركة يمكن النطق بها؟ إنسان من هذا النوع لا يمكنه قول شيء؛ إنه يجدِّف. شريك السارق لصٌّ مثله. قام بالسرقة وأكلت مما سرقه. هذا أيضاً اختلاس: يقول المثل: من وضع عنده مسروقاً أو باعه، فهو شريك للسارق، والحكمة التالية تفسر هذا القول: «ليست الفأرة هي السارق بل الجحر، لأنه لو لم تكن هناك فئران فلا حاجة للجحر»؟.

يستنكر التلمود الكثير من الخطايا الأخرى، بيد أن النصوص المذكورة تكفي لإظهار وجهة النظر التي بمقتضاها اعتبار أي عيب مُقترف ضد الغريب إهانة لله. كان لهذه الخطيئة خطورة أكبر من خرق المبدأ المتعلق بالعلاقة بين الإنسان وخالقه والصفح الذي لا قدرة عليه. وفيما يتعلق بالعلاقة بين الإنسان وقريبه، فإن يوم الغفران لن يمحو منها شيء، إلا بعد أن يعطى تعويض للمُهان قبل المهين. الندم والتوبة غير كافيين، إذا لم تكن الترضية قد تمَّت.

تنص الخطيئة الأكبر بين الخطايا على جعل الآخر يخطئ. جرُّ الآخر إلى ارتكاب خطيئة هو أسوأ من قتله، لأن تدمير شخص ما يعني اختفاءه من هذا العالم، أما جعله يخطئ فهو استبعاده أيضاً من العالم الآخر تثنية الاشتراع. نعم، عندما يتعلق الأمر بالأشجار، التي لا تقدر أن تأكل أو تشرب أو تشعر، فإن «التورا» تأمر بحرقها بعد أن استُخدمت في طقوس عبادة الأوثان **[وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون غاباتهم بالنار وتحطمون منقوشات آلهتهم وتمحون أسماءهم من ذلك الموضع]**. لأنه بواسطتها سيق أناس إلى السقوط، «ما هي العقوبة التي يستحقها فرد، أزاح قريبه عن طريق الحياة، وقاده إلى طريق الموت!». وبالعكس: أي إنسان يقود قريبه

لتطبيق إحدى الوصايا، يُمنح له كما لو قام هو نفسه بهذا الواجب.

تمييز هام نوعاً ما، حُكم فيه بين الخطيئة المرتكبة في السر وتلك المرتكبة في العلن. إذا ما وضعنا أنفسنا في وجهة نظر ما، يكون الأول أخطر، لأنه يستتبع النفي التقديري لله وحضوره الدائم» ذلك هو طريق من يرتكبون الانتهاكات، ظناً منهم أن القدوس الواحد (الممجد!) لا يرى أفعالهم. من هنا جاء هذا التمييز: إذا ارتكب شخص انتهاكاً للقانون سرّاً، فإن الله ينادي به علانية. من وجهة نظر أخرى، ارتكاب الخطيئة علانية هو الإهانة الحقيقية. هذا واضح في طريقة معالجة النص التالي:

[فاحفظوا رسومي وأحكامي فمن حفظها يحيا بها أنا الرب] (أحبار 18، 5).
ـ سيحيا ولن يموت بها ـ كان من عادة الحاخام إسماعيل القول: من أين يأتي الدعم؟ لو أن أحدهم تلقى أمراً بإقامة مراسيم لعبادة الأوثان ليخلص حياته، إنه مُخوَّل بالعمل هكذا؟ بسبب الكلمات «سيعيش أو سيحيا بها» عندها، هل يمكنه الانصياع لعبادة الأوثان علانية (ليخلص حياته). لهذا يعلق الكتاب المقدس: «لن تدنس اسمي المقدس».

لماذا يعتبر الانتهاك العلني في مثل هذا الظرف أكثر خطورة؟ لأن باستطاعة من يرتكبه أن يقود الآخرين إلى الاقتداء به، خصوصاً إذا كان شخصية هامة وسط جماعته. يمكن مسامحته فيما لو أخطأ سرّاً لأن الله يفهم بأنه فعل هذا مُرغماً ليس جهلاً بما فعله، لكن ارتكاب الخطيئة علانية يتضمن «تدنيس اسم الله» ويجعله مذنباً بأبشع الذنوب، لأنه جعل الآخرين يخطئون.

الخطيئة كالنزعة الشريرة يجب ردعها في مرحلتها الأولى؛ وإلا فإنها ستترسخ وتدخل في مرحلة العادة. تحليل نفسي سليم في هذه الملاحظة: لو أن إنساناً ارتكب إساءة وكرَّر ذلك، فتصبح بالنسبة له شيئاً مشروعاً. خطيئة تأتي بأخرى «احرص على القيام بتطبيق وصية أو مبدأ مهما كانت أهميته، لأن الوصية تأتي بأخرى بعدها، والحال نفسه بالنسبة للانتهاك؛ مكافأة الوصية هي وصية، ومكافأة الانتهاك هو انتهاك». الفكرة نفسها مفصلة بشكل أوسع: إذا انتهك شخص وصية قليلة الأهمية، سينتهي به الأمر بالتعدي على مبدأ أكبر: إذا ما تعدى على وصية «أحبب قريبك كنفسك»، فإنه سينتهك لاحقاً المبدأ التالي: **[لا تبغض أخاك في قلبك بل عاتبه عتاباً ولا تحمل فيه وزراً]** (أحبار 19، 17). **[لا تأخذ منه ربى ولا ربحاً بل اتق إلهك**

فيعيش أخوك معك] (لاوي 25، 36). وأخيراً قد يتوصل إلى سفك الدم أي فرد يطبق مبدأ تعليمياً لنفسه، عليه ألا يفرح، لأنه بالتالي سيكون ملزماً بتطبيق أكبر قدر من التورا. أي فرد يرتكب إساءة واحدة، فعلية ألا يعذب نفسه لأن هذا سيقوده إلى اقتراف الكثير منها. العكس صحيح أيضاً: إذا ما حصلت مخالفة لشخص ما، مرة ومرتين دون أن يكون قد ارتكبها عن سابق تصميم، فهو مستثنى من الخطيئة.

لا يمكن للشر أن يأخذ طريقه للتنفيذ إلا بعد فقدان الصبر. ويمكن للإنسان أن يرتكب إساءة، إذا دخله مسٌّ من الجنون (Sot ،3a). النتيجة: يجب الهرب من كل ما من شأنه اضعاف السيطرة على الذات. هناك سببان موجودان في النصيحة، حسب قول النبي إيليا للحاخام (يهودا الأمير) وابنه (غامالييل). قال الأول: «فكر بثلاثة أشياء، وبعدها لن تسقط في شرك الخطيئة: اعرف ما فوقك: عين ترى، أذن تسمع، وجميع أعمالك تسجل في كتاب». قال الثاني: أمر رائع هو دراسة التورا مُنَسَّقة مع بعض المشاغل الآتية لأن العمل الذي يطلبه كلاهما يُنسي الخطيئة. كل دراسة للتورا دون أن يرافقها نشاط عملي، سيكون بلا فائدة وسبباً الخطيئة (5، 1، 2، Aboth).

هذه هي العقيدة الحاخامية حول الحياة الصالحة. صيانة الذهن وشغله بأفكار سليمة، واليدان مشغولتان بعمل شريف. عندئذ لن تكون هناك شهوة للدخول في أفعال مدانة.

7 ـ التوبة والتكفير (الغفران)

خلق الله الإنسان مزوداً بالنزوة الشريرة، التي تأتي من ميله نحو الخطيئة. تقتضي العدالة أن تكون هناك قوة معاكسة مُعدَّة لسلامته. إذا كان الشر مرضاً يتعرض له الإنسان، فمن الضروري الحصول على دواء قادر على شفائه. الدواء هو في التوبة والتكفير.

أيضاً، طريقة منطقية جداً، حيث كان الحاخامات يصرِّحون بأن الندم هو أحد الأشياء التي أراد الله فعلها حتى قبل أن يخلق العالم. هناك سبعة أشياء خُلقت قبل أن يتلقى

الكون الوجود هي: التورا، الندم، الفردوس، جهنم، العرش السماوي، واسم المسيح (Pes ،45a). بالنظر لأن العالم خُلق ليكون محل إقامة للإنسان، فيجب أن يكون مُهيأً لاستقباله. تتضمن التورا رسماً مبسطاً للحياة الصالحة التي يجب التقيد بها.لكن يجب أيضاً وضع إمكانية التباعدات التي يمكن للإنسان فعلها خارج طرق الكمال.

أعطي الندم المكانة الأولى، لأنه بدونه لن يتمكن الإنسان من الاستمرار. سيظل غارقاً وسط أمواج الشر. ليس للندم القدرة على إبعاد أمواج الشر، بل باستطاعته تطهير الحياة بعد أن أفسدتها الأعمال السيئة. للندم شأن عظيم لأنه يوصل لعرش المجد، ويقرِّب الخلاص الذي نادى به المسيح، ويمدُّ بحياة الإنسان (Yoma ،862 et se g). المكان الذي يشغله التائب لا يمكن أن يشغله الإنسان العادل. لا شيء أعظم من الندم (تثنية الاشتراع). ساعة من الندم، وأعمال صالحة عديدة في هذا العالم، أفضل من الحياة في العالم الآخر.

وحسب التوراة، فإن الله لن يكون مسروراً بموت الشرير، بل يحب أن يتوب ليحيا **[قل لهم حيٌّ أنا يقول السيد الرب ليست مرضاتي بموت المنافق لكن بتوبة المنافق عن طريقه فيحيا. فتوبوا توبوا عن طُرقكم الشريرة فلم تموتون يا آل إسرائيل]** (حزقيال 33، 11). ينتظر الإنسان الندم بلهفة، وتتيسَّر مساعيه في هذا الاتجاه. الميزات التي يتمتع بها القدوس الواحد (الممجد!) لا تشبه ما لدى الإنسان. عندما يغلب الكائن البشري على أمر فإنه يحزن، وعندما يكون الله مغلوباً يفرح. يشير هذا القول في رؤيا حزقيال (1، 8) **[من تحت أجنحتها أيدي بشر على أربعة جوانبها وأجنحتها لأربعتها]** إلى يد الله الممدودة تحت أجنحة الخالق لتلقي التائبين الناجين من سلطة الدينونة. يقول القدوس الواحد (الممجد!) لإسرائيل «أبنائي افتحوا من أجلي مدخلاً إلى الندم، ضيقاً كخرم الإبرة، وسأفتح لكم أروقة لدخول العربات والمركبات القوية». أبواب الصلاة مفتوحة أحياناً، ومغلقة أحياناً أخرى، غير أن أبواب الندم مفتوحة دائماً. كما أن البحر سهل المنال دائماً، كذلك أيدي القدوس الواحد (الممجد!) مفتوحة دائماً لاستقبال التائبين (سفر تثنية الاشتراع 20، 12، R).

من الواضح، وهذا بديهي، أن التلمود يعني بالتحديد إسرائيل (اليهود)، لا تمثل عقيدته حول الندم أي شيء حصري (مقصور على اليهود). فهو صالح لجميع الذين يودون استخدامه. قيل إن «القدوس الواحد (الممجد!) ينظر إلى شعوب العالم متمنياً

لهم الندامة، وأنه سيأخذهم آنذاك إلى جواره، تحت أجنحته». وفي مكان آخر أيضاً، يدعو القدوس الواحد (الممجد!) شعوب العالم للندم بطريقة يتمكن فيها من أخذهم لجواره تحت أجنحته.

بعد دمار الهيكل، توقفت أضاحي التكفير، لذلك برزت أهمية الندامة كطريقة للتكفير. هذا ينطبق على فاعلية يوم الغفران. وحتى عندما كانت منظومة الأضاحي سارية المفعول، كان الحاخامات يؤكدون بشكل رئيسي أن يحصل هناك ندم وتوبة، لتكون التقدمة مقبولة من الله. يعلنون عن ذلك بوضوح: «لا قرابين للخطيئة، ولا قرابين تكفيرية إذا لم يكن هناك ندم (توبة)». عندما أصبح تقديم القرابين مستحيلاً، فأصبح من المهم بمكان تذكير الشعب أن أمله بالتكفير لا يتعرض لأي ضرر. من هنا نجد التصريح التالي: من أين تأتي القرابين إذا لم يكن هناك نادم، وإذا ندم أحدهم فهذا يُعدُّ كأنه صعد إلى أورشليم وبنى المعبد، وأقام مذبحاً وقدَّم القرابين (الأضاحي) التي تعدِّدها التورا؟ من هذا النص: «القرابين المقبولة من الله هي روح محطمة» (أحبار)، لا لأطلب منكم أضاحي وقرابين بل كلامَ ندامةٍ وتوبة.

قيل: اصطحبوا الكلام معكم وارجعوا للرب.

حول هذا الموضوع يصرِّح نص هام: كان يطلب من الحكمة كتابة تاريخ ما هو متعلق بالكتاب المقدس: ما هي عقوبة الخاطئ: كان الجواب: [**الشر يضطهد الخطأة والخير يجاري الصديقين**] (أمثال 13،21) عندما طُرح نفس السؤال على النبوة أجابت: [**إن جميع النفوس هي لي. كَمَثلِ نفس الأب مَثَلُ نفس الابن كلتاهما لي. النفس التي تخطئ هي تموت**] (حزقيال 18، 4).

عندما وُجِّه السؤال إلى التورا، أجابت: «ليأت بقرابين تكفيرية، فيسامح، لأنه قيل: [**ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عنه تكفيراً عنه**]» (أحبار 1، 4). عندما طُرح السؤال على القدوس الواحد (الممجد!) أجاب: التوبة أولاً وسيحصل بعدها على المغفرة لأنه مكتوب: الرب طيِّب وعادل، فهو يرشد الخطاة للطريق المستقيم».

ليس هناك من مجال لرؤية التناقض بين جواب الله، وأجوبة الفروع الثلاثة للكتاب المقدس. خلاف من هذا النوع غير ممكن بالنسبة للحاخامات الذين يجدون في الكتب المقدسة العبارة التي أوحت بها الروح الإلهية. ما يأتي به النص عبارة عن وسائل متنوعة للتكفير بالنسبة للخاطئ، وأن الوسيلة الوحيدة الأساسية هي الندم، فهو يصف الخطة

المخصصة للتكفير، ويستنتجه من كامل الديانة اليهودية، ومن كل عنصر يستحق التقدير.

وحسب الأدب التوراتي (الحكمة) يتم التكفير عبر «التعاسة» هذا ما يدل على الألم. الفكرة موضحة بفضل التأكيدات: «العقوبة تنظف جميع تعسفات الإنسان» ـ أي فرد يشعر بأعراض الطاعون، يجب أن يعتبرها مذبحاً للتكفير ـ فرح الإنسان عندما يتألم أكثر من فرحه في أيام سعادته، لأن أي خطيئة من خطاياه التي اقترفها لم تتلقَ المغفرة، في حين أن الذي غفر العذاب فمغفور له. احمدُ الله على الآلام. إنها مثل القرابين تضمن قبول الله. والعذاب يعطي المفعول نفسه قبولاً عضوياً، لأن القرابين لا تكلف سوى المال بينما الآلام تصيب جسم الإنسان.

وبتوسع غريب للنظرة نفسها، فقد ساد الاعتقاد أن الاضطرابات المعوية تؤدي إلى تنقية أخلاقية وجسمية. «المسنون الأتقياء يصابون بآلام في أحشائهم قبل موتهم بعشرين يوماً، ليتنظّفوا كلياً، بحيث يصلون مطهَّرين إلى العالم الآخر» ـ هناك ثلاث فئات من الناس الذين لن يروا جهنم: الفقراء والمساكين، المصابون بأمراض معوية، الذين عانوا الاستبداد الروماني. إن ظروف الحرمان التي تعرضوا لها، كانت عقاباً على أعمالهم السيئة. وبتذوقهم المرارة، فقد خرجوا مطهَّرين.

يشير جواب النبوَّة إلى الموت. والموت في الواقع وسيلة للتكفير تطبق على النوعين الأكثر خطورة للخطيئة:

«إذا انتهك أحد وصية إيجابية وندم، فإنه لن يترك مكانه قبل أن يُغفر له. إذا ما انتهك أحدهم تحريماً وندم، فإن ندمه يبقى معلقاً، ويأتيه الغفران يوم التكفير. وإذا ارتكب أحدهم إساءة عقوبتها الفناء لدى الله، والإعدام في المحكمة، فإن ندمه، يبقى معلقاً يوم التكفير، الألم والعذاب هما من ينقّيانه. ولكن من ارتكب جرم تدنيس اسم الله، فليس للندم أي معنى، ليس له أي غفران في يوم التكفير، كما أنه ليس للآلام أي قوة تطهير، جميعها تبقى مُعلَّقة، الموت وحده يعمل لخلاصه».

والموت نفسه لا يقوم بالتكفير إلا إذا كان مسبوقاً بالتوبة: «الموت ويوم التكفير، تكفير إضافي للندم. أما تفسير سفر الأعداد فهو: [**لأنه استهان بكلام الرب ونقض وصيته فيقطعُ ذلك الإنسان قَطْعاً وِزرُهُ عليه**] (أعداد 15، 31). جميع الذين يموتون يتلقون الغفران بموتهم، ولكن يبقى السؤال مطروحاً، سيبقى ظلمه في داخله. هل سيكون الشيء نفسه عندما يندم؟ يقول النص: سيبقى حقده وظلمه في داخله، إذا لم

يندم (سيفري). نستنتج من ذلك أن التوبة تُبعد الخطيئة. مجرم مساق إلى الإعدام، حُثَّ على التوبة بالاعتراف «ليكن موتي تكفيراً عن جميع أعمالي الجائرة».

تورد التورا أجوبة للقرابين المكفرة، التي كانت معتبَرَة في الماضي حتى بداية العهد التلمودي. مثل: المكان والشعب والمنبر، والطقس والكنيس والتكفير كوسائل للحصول على التطهير من الخطيئة. ولكي تكون هناك القدرة للقيام بهذا التطهير، فقد وضعته اليهودية الحاخامية في مصاف المبدأ أو النظرية «بالنسبة للتعديات والانتهاكات الخفيفة، جريمة مبهمة، امتناع، نسيان أو إهمال، الندم يؤدي إلى المغفرة؛ أما بالنسبة للاعتداءات الخطيرة فإن الندم يعلّق القضية إلى يوم الاستغفار، الذي سيأتي بالغفران». في حالة الخطيئة في المحكمة يقوم التكفير بفعل الغفران حتى لو لم يكن هناك ندم، لكن ليس له الفعل بالنسبة لخطيئة ناتجة من إهمال أو امتناع إذا كان المتهم قد ندم أولاً. إن نظرية التكفير التي حصلت بصورة آلية، عما جرى في ذلك اليوم لبعض الفئات من الإساءات، التي حصل فيها على المغفرة دون ندم، فهذا شيء نادر: «إذا قلتم، سنرتكب خطيئة وأن يوم التكفير سيجلب الغفران، فأنتم مخطئون، هذه العلانية لا تكفر لكم عن خطاياكم».

ميزة خاصة بيوم التكفير تتجلى في الصوم الصارم المرافق لها. وقد أعطى الزعماء الدينيون أهمية خاصة للصوم على أنه فعل توبة. يُروى أنه من عادة الحاخامات تلاوة الصلاة التالية يوم الصوم: «يا رب الكون: أوحيَ أمامك أنه، عندما كان المكان المقدس موجوداً، فكل خاطئ يحضر تقدمة (حيوانية) يضحي بلحمها ودمها؛ تقبل تكفيره، لكني الآن أقوم بالصوم الذي ينقص من شحمي ودمي. تفضل واقبل شحمي ودمي الناقصين، كما لو أنني قدمتهما لك على مذبحك، وامنحني عفوك». منظر آخر أكثر سمواً يظهر في الممارسة المعتمدة لأيام الصوم: متقدم في السن لدى إحدى الجماعات وجه اللوم التالي للمتعبدين: أخوتي، لِمَ يقال عن سكان نينوى: رأى الله أنهم أخذوا الكيس وصاموا؟ [**فرأى الله أعمالهم أنهم تابوا عن طريقهم الشريرة فندم الله على الشر الذي قال إنه يصنعه بهم ولم يصْنعه**] (سفر يونان 3، 10).

تشترط العقيدة التلمودية بوضوح، أنه مهما جمعنا من صلوات واعترافات بالخطايا، فإن التكفير لن يكون مضموناً إذا لم تترافق هذه الممارسات بتغيير السلوك. من يُتهم بإساءة فعليه الاعتراف بها، وإذا لم يغير ما في نفسه فإنه يشبه من يمسك بيده ثعباناً

نجساً، فلو غسل يديه في جميع أنهار العالم، لن ينفعه ذلك، بل عليه إلقاء الحيوان الزاحف بعيداً والاستحمام في أربعين سطلاً من الماء. عندها سيحصل على نتيجة إيجابية حالاً. هكذا قيل: «من يعترف بخطاياه، ويبتعد عنها سيحصل على العطف» [**من كتم معاصيه لم ينجح ومن اعترف بها وأقلع عنها يرحم**] (الأمثال 28، 13). هكذا نصل إلى الجواب الرباني: الندم هو الوسيلة السامية لتطهير النفس، والبرهان على الصدق.

من يقل: سأرتكب خطيئة، ومن ثمَّ أندم، وأخطئ من جديد وأندم، فهو بذلك ينكر قدرة الندم. الضمير شيء حي إذا ما تمَّ تحدّدُه فإنه سينحرف. يجب أن يأتي الندم من تبكيت ذاتي من أعماق القلب. «من يرتكب إساءة ويخجل ستغفر جميع خطاياه، قصاص في داخل الإنسان (تأنيب يوجهه الإنسان لنفسه)، يساوي عدداً كبيراً من ضربات السوط (الجلد)، لضمان التكفير. ولإظهار الصدق، يجب أن تكون الكلمات المعبرة عن الندم مصحوبة بأعمال الإحسان «الندم والأعمال الصالحة هما المحاميان عن الإنسان» (Chab ،32a). الندامة والأعمال الحسنة هما الدرع الواقي من القصاص. ثلاثة أشياء قادرة على إلغاء قوانين الشر: الصلاة، الإحسان، الندم. إنه معيار للتائب الحقيقي: «سيأتيه الإغواء بارتكاب الإساءة على دفعتين، وسوف يقاومهما».

وحسب النص التالي، فإنه لن يتأخر في تغيير ما بداخله: «إذا عاش أحدهم حياة، كلها شريرة، وندم في سن متأخرة، فسوف لن تُذكر أعماله الشريرة أمام الله ضده» كما سنرى لاحقاً أن أعمال التوبة لا تؤجل، خوفاً من الموت المفاجئ.

هل يمكن الندم بعد الموت؟ يعلن التلمود «أنه لا يمكن للشرير أن يندم حتى ولو على مدخل جهنم». غير أن بعض الحاخامات يقولون: هذا لا يعني سوى الوثنيين. في حين يحفظ للإسرائيليين (اليهود) بالقدرة على الندم. والمسألة معالجة بطريقة انطباعية في المدراش [**المؤوَّد لا يمكن أن يُثقَّف والخلل لا يمكن أن يسدَّه**] (الجامعة 1، 15) بمعنى: «الأعوج لا يستقيم، والناقص لا يزيد». إليكم هذا النص: يوجد في هذا العالم من هو معوج (أخلاقياً) يمكنه أن يستقيم، ومن تنقصه الفضيلة يمكن أن تُحسب. افترضوا أن شريرين اشتركا في أرض. أحدهما تاب قبل موته، والآخر لم يفعل. أخذ الأول بفعل الندم مكانه بين الصالحين. أما الآخر فقد وُضع بين الأشرار. صاح رفيقه: يا لتعاستي! ما هذا الظلم! لقد سلكنا سوية نفس الطريق، سرقنا، اختلسنا، ارتكبنا كل أنواع الدناءات الواحد مثل الآخر. لماذا يكون هو بين الصالحين وأنا بين الأشرار؟ أجابته

الملائكة: أيها الأحمق: عوملت باحتقار طيلة يوم أو يومين بعد موتك، وعوضاً أن تدفن بشرف في نعش، فقد سُحبتَ إلى الحفرة بالحبال. فإن صديقك مقابل خزيك، أقسم أن يحيد عن طريقه الشريرة. ندم مثل رجل بار، وبسبب توبته مُنح الحياة الأبدية، ونصيبه مع الأبرار الصالحين. كانت لديك الفرصة لتندم، لكنك امتنعت عنها وكانت أفضل بالنسبة لك. عندها قال لهم: «اسمحوا لي بأن أندم! أحمق، ألا تعلم أن هذا العالم مثل يوم السبت، والعالم الذي تأتي منه مثل عشية السبت؟ لو أن أحدهم لم يُحضر طحينه عشية السبت، فماذا يأكل يوم السبت؟ ألا تعلم أن العالم أرض قاسية، وأن لهذا العالم بحراً يجب أن تخوضه».

إذا لم يقم الإنسان بتحضير مؤونته عندما يكون على الأرض، فماذا سيأكل بعد أن يُبحر؟ ألا تعلم أن هذا العالم أشبه بصحراء، والعالم الذي تأتي عالم متحضر مثقف، فماذا يأكل الإنسان في الصحراء؟ يشدُّ صاحبنا على أسنانه ويعض أصابع يديه ويقول: دعوني أتأمل مجد رفيقي ـ كان الجواب: أحمق، فقد أمرنا العلي القدير بمنع الأبرار من الإقامة مع الأشرار ومنع الأشرار من مشاهدة الأبرار، وفصل الأتقياء عن الأشرار الدنسين: «يئس، وهمَّ بتمزيق ثيابه وقلع شعر رأسه».

لكن إذا ظلَّ الندم حتى ساعة الموت، فمن غير الحكمة تأجيله. يقول الحاخام اليعازر: «اندم يوماً قبل موتك» ـ سأله تلاميذه: هل يمكن لإنسان أن يعرف متى سيموت؟ أجاب: علينا أولاً الندم اليوم، لأنه يمكن لكل واحد أن يموت غداً، بالتالي فإننا نقضي كل أيامنا بالندم.

8 ـ الجزاءات: المكافآت، العقوبات

العدالة هي إحدى صفات الله، والله يعامل خلقه بالتساوي. ومن المعلوم طبيعياً، أن العالم المحكوم من حاكم عادل، أن يكافأ الرجل الصالح لإطاعته الإرادة الإلهية، وأن يعاقب الشرير لتمرده. إذا كان مجرى الحياة يناقض هذا الاستنتاج، فمن الواجب إيجاد شرح يوفِّق الغياب الظاهري لنظام عادل مع التأكيد على العدالة المطلقة في كل مسألة.

عندما جازف أحد الحاخامات بتفسير بعض آيات التوراة على هواه، مفترضاً أن الله ليس ملزماً بتطبيق قواعد العدالة والمساواة، وأنه قادر على أن يعمل على هواه، أُنّب بشدة. وكان الحاخام «بابوس» يشرح هذه الكلمات: [**لكنه هو القيوم فمن يردُّه. إنه ما أحبت نفسه فعل**] (أيوب 23، 13). قال هذا الحاخام: الله يحكم بمفرده بكل ما يحصل في هذا العالم، لا أحد يستطيع التشكيك بقراراته. قال له الحاخام عقبة: يكفي - إذن كيف تفسر هذه الآية؟ لا يمكننا التشكيك بقرارات من كوَّن، وكان العالم؛ لكنه يحاكم كل شيء، وحقاً كل شيء مطابق للعدالة الصارمة.

السمة المميزة لتعاليم الحاخام عقبة هي الإلحاح على العدالة التي أعلنها الله في علاقاته مع البشر تستخدم إحدى أقواله المأثورة في اللغة المستعملة في الحياة اليومية لتقوية الفكر. كل شيء معطى كضمان؛ شبكة مبسوطة على كل نواحي الحياة، الحانوت مفتوح، التاجر يسمح بالاقتراض، الكتاب الكبير مهيأ، اليد تكتب، أي واحد يبغي الاستدانة يمكنه فعل ذلك، الجباة يتجولون بانتظام يومياً، ويطالبون بدفع ما على كل مدين، قد يروق هذا له، عليه توقع مطالبتهم. المحاكمة مبنية على الحقيقة، كل شيء مهيأ للعيد (20، 3، Choth). تعني الجملة الأخيرة أنه بعد طلب التعويض من الخاطئ يُقبل في الوليمة المخصصة للأبرار في العالم الآخر.

يؤيد الحاخام عقبة هذا الطرح: (مزمور 36، 6) [**يخرج كالنور برَّك وكالظهيرة فضاءك**]. عدالتك تشبه الجبال الشامخة، أحكامك لجة عميقة. كان الحاخام إسماعيل يقول: باعتبار أن جدارة العادل الذي يقبل التورا المسلمة على الجبل الشامخ سيناء ستنصفه إلى أن يصبح شبيهاً بالجبل الشامخ. لكن الشرير الذي يرفض التورا المقدمة من الجبل الشامخ، سترغمه على السقوط في الهوة السحيقة «جهنم». وللحاخام عقبة الموقف التالي: هناك فئتان من البشر يسقطهما الله في الهوة العميقة. يخفِّض للصالحين ويعاقبهم على العدد الضئيل من الأعمال السيئة التي اقترفوها في هذا العالم، بطريقة تضمن لهم السكينة والراحة، والمكافأة في العالم الآتي، ويضمن في هذا العالم سكينة الأشرار، ويكافئهم على الأعمال الحسنة النادرة التي أنجزوها قصد معاقبتهم على الأعمال السيئة في العالم الآخر.

بما أن العدالة تنظم بالضرورة الحكومة الإلهية للكائنات البشرية، فكل واحد مُلزم

بالإيمان بأن الله يكافئ الأبرار حسب استحقاقاتهم، ويعاقب الأشرار بما يناسب آثامهم. إنها فعلاً العقيدة العامة للتلمود: «لا عذاب حيث لا ظلم» من هذه القناعة يتكرر التعبير تحت أشكال عدة. من ينفذ وصية يحصل على محام، ومن يرتكب معصية فقد جعل من نفسه متهماً. لكن لأحكام القدوس الواحد (المُمجد!) قاعدة: فعل كذا، ثوابه كذا.

وجد الحاخامات هذه الرؤيا مؤكدة بالروايات التوراتية، وفي الوقت نفسه بالعقوبات والمكافآت. أمثلة عن العقوبات: (احكم على المصريين حسب المخطط الذي وضعوه لإبادة إسرائيل. إغراقهم في الماء لن أعاقبهم بصورة مخالفة إلا بالماء). تبع شمشون شهوة عينيه، لذلك فقأهما الفلسطينيون، شمشون كان يفخر بشعره، وكان شعره أسباب خسارته»

إليكم مثلين حاخاميين: شاهد هلِّيل جمجمة طافية على وجه الماء، قال لها: لأنكِ أغرقتِ آخرين، ها أنت غارقة، وبما أنهم أغرقوكِ فإنهم سيغرقون. حالة مبالغ فيها، هي حياة القديس ناحوم غمزو، كان قد فقد عينيه الاثنتين، وبُترت يداه وساقاه، بينما جسمه مغطى بالدمامل، وأطراف فراشه موضوعة في حوض ماء، لمنع النمل من الهجوم عليه. حصل أن وضع فراشه ذات يوم وسط منزل مهدد بالانهيار. حاول تلاميذه إبعاده عن تلك الدار. فقال لهم:

خذوا الأثاث أولاً، وفي النهاية سريري، ففعلوا كما أمرهم، وانهار المنزل في الحال. قال له تلامذته: بما أنك بشر، كيف تعرضت لهذا القدر من الآلام والعذاب؟ أجاب: أنا مسؤول عنها. في أحد الأيام ذهبت إلى منزل والد زوجتي، حاملاً لهم المؤن على ثلاثة حمير، أحدهم يحمل الأغذية، والآخر الشراب، والثالث قطعاً من الحلوى من كل الأصناف. قابلني رجل فصاح بي: يا ربي، أعطني قليلاً من الطعام. أجبته: انتظر حتى أنزل عن حماري. عندما ترجلت عن ظهر الحمار، وتوجهت نحوه، وجدته قد مات. ارتميت إلى جواره وقلت: لتفقأ عيناي اللتان لم ترأفا بعينيك. وأن تقطع يداي اللتان لم ترأفا بيديك، وأن تُبتر ساقاي اللتان لم تشفعا بساقيك. وبما أنني شعرت بالهدوء بعض الشيء أضفت: «ليت جسمي كله مغطًى بالدمامل». عندها قال له تلاميذه: بئس نحن، لأننا رأيناك في حالة كهذه! أجابهم: ستكونون بؤساء لو أنكم لم تشاهدوني على هذه الحال!.

إليكم بعض الأمثلة عن المكافآت المتناسبة مع الحدث: «دفن يوسف والده في أرض كنعان واعتبر نفسه جديراً أن يدفن فيها أيضاً (1، 9، Sot). بخصوص هذه الآية: [**وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود من غمام ليهديهم الطريق، وليلاً في عمود من نار ليضيء لهم ليسيروا نهاراً وليلاً**] (خروج 13، 21) يلاحظ ما يلي: يكاد الإنسان نفس الكيد الذي استخدمه [**ثم قام الرجال من هناك واستقبلوا جهة سَدُوم ومضى إبراهيم معهم ليُشيِّعَهم**] (تكوين 18، 16). رافق إبراهيم الملائكة المحتفلين بالقداس في طريقهم، كذلك رافق كل حاضر من أحفاده عبر الصحراء أربعين عاماً. يقال إن أبانا إبراهيم نطق بهذه الكلمات: «سأذهب وآخذ من أجلكم قطعة من الخبز» [**وأقدِّم كسرة خبز فتسندون بها قلوبكم ثم تمضون بعد ذلك فإنكم لذلك جُزتم بعبدكم. قالوا: اصنع كما قلت**] (تكوين 18، 5). كذلك أنزل القدوس الواحد (الممجد!) المنَّ مدة أربعين سنة. ويقول إبراهيم أيضاً: [**فيقدَّم لكم قليل من الماء فتغسلون أرجلكم وتتكئون تحت الشجرة**] (تكوين 18، 4). وجعل القدوس الواحد (الممجد!) الماء ينبثق من نبع في البرية: [**ورحلوا من ثمَّ إلى البئر وهي البئر التي قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماء**] (العدد 21، 17) حينئذ ترنَّم إسرائيل بهذا النشيد: اصعدي يا بئر. [**أسرع إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلاً رخصاً طيباً ودفعه إلى الغلام فأسرع في إصلاحه**] (تكوين 18، 7). أسعف القدوس الواحد (الممجد!) أحفاده بأن جلب لهم طيور السلوى خلال سيرهم في البرية [**وهبَّت ريح من لدن الرب فساقت سلوى من البحر وألقته على المحلة على مسيرة يوم من هنا ويوم من هناك حوالي المحلة على نحو ذراعين عن وجه الأرض**] (العدد 11، 31). قال إبراهيم لضيوفه استريحوا تحت الشجرة [**فيقدَّم لكم قليل من ماءٍ فتغسلون أرجلكم وتتكئون تحت الشجرة**] (تكوين 18، 4). في الحال قام القدوس الواحد (الممجد!) بنشر سبع غيوم ممجدة لتظللهم والنار لإنارة الليل (105، 39، Ps). وقف إبراهيم إلى جانبهم (وبالدقة أمامهم) [**ثم أخذ زُبداً ولبناً والعجل الذي أصلحه وجعل ذلك بين أيديهم وهو واقف أمامهم تحت الشجرة فأكلوا**] (تكوين 18، 8). وحمى القدوس الواحد (الممجد!) أحفاده في مصر لكي لا يصيبهم مكروه.

يبدو أن القانون المناسب للعقوبات التي تطبق على الأعمال كان صارماً لدرجة اعتقد فيها بعض الحاخامات بأن الأحكام تتبع حتماً درجة الخطايا. سبعة أنواع من

العقوبات أتت إلى العالم مقابل سبعة أنواع من الانتهاكات الخطيرة. إذا سدَّد البعض عشورهم وامتنع الآخرون، يُستدلّ على وجود مجاعة ناجمة عن القحط، البعض يتألم من الجوع، بينما الآخرون في رغد العيش. لو رفض الجميع دفع العشور، فستكون هناك مجاعة سببها القحط وقيام الاضطرابات. إذا ما قرروا بالمقابل تقديم كعكة العجين، فإن مجاعة ستحل بهم وتبيدهم. أما الطاعون فقد ظهر في هذا العالم لينفذ أحكام الإعدام (الموت) المنصوص عنها في التورا غير أن التنفيذ ليس من صلاحيات محكمة بشرية؛ وتنطبق أيضاً على انتهاك القانون المتعلق بثمار السنة السابعة (لاوي 25، 55.1). جاء السيف ليعاقب التأخير وفساد العدالة، والآثام المرتكبة من الذين لا يفسرون التورا بشكل صحيح. الحيوانات الضارة تعاقب بالقتل دون مبرر، وتدنيس اسمه (الله)، العبودية تقود لعبادة الأوثان، الفسق، القتل، عدم اتباع دورة زراعة الأرض. نجد الفكرة نفسها في مكان آخر: «تموت النساء الإسرائيليات (اليهوديات) في الولادة بسبب انتهاكات ثلاثة: لأنهن أهملن تطبيق قواعد الابتعاد عن أزواجهن، أو لتقديسهن العجين المندور، أو لأنهن لم يشعلن مصباح السبت». عقوبة الجروح سبع: النميمة، القتل، قَسَم غير مبرر، النجاسة، التكبر، السرقة، الشهوة (الحسد). بالنسبة للخطايا التي تنص على قَسَم لا مبرر له أو كاذب، تدنيس اسم الله، وانتهاك حرمة السبت، فإن الحيوانات البريّة ستتكاثر لدرجة تقضي فيها على الحيوانات الأهلية، ويتشتت الشعب، وتقفر الطرقات.

لكن مهما كان إيمانهم بالعدالة الإلهية، فلن يستطيع الحاخامات تجنب المشكلة الناتجة من التجربة العملية. من البديهي أن الصالح لا يكافأ بالغنى والسعادة؛ غالباً ما يبدو أنه اختير لتحمل محنة خطيرة جداً.

من جهته، لا يتعرض الشرير ظاهرياً لغضب الله، رغم قساوة الآلام التي يسببها. وبالعكس يبدو أن الثروة تجلب له الفرح وتذوق طعم الرفاهية. من المستحيل تحرير هذه الوقائع بصمت؛ كان من الواجب تصحيحها لتنسجم مع المخطط الإلهي لحكومة العالم. نجد في الأدب الحاخامي محاولات متفرقة للإجابة، غير أنه لا يوجد حل يحقق الإجماع. سنرى أن المسألة تدعو غالباً لدراستها بطرق مختلفة.

لقد استحوذ تبرير الطرق الإلهية خلال الحقبة الحرجة السابقة التي تلت هدم الهيكل وتدمير الدولة، بشكل خاص انتباه الزعماء الدينيين. كان انتصار الرومان

الكفّار، قد خيّب آمال الشعب. الحاخام الذي سمع هذه النصيحة: «لا تتخلوا عن الإيمان بالثواب» لم يكن مقتنعاً كثيراً في هذا الكلام. تشوُّش الفكر هذا جاء في أكثر من أسطورة: «عندما صعد موسى إلى السماء، ورأى الحاخام عقبة (ولم يكن وُلد بعد) وهو يشرح التورا ببراعة، قال لله: لقد أريتني إياها وهي تُعلِّم؛ أظهر لي الآن مكافأتها». طُلب منه الالتفات نحو الخلف، فشاهد جسد عقبة يباع في السوق. قال: يا سيد الكون، هذا جزاء نشاطه كمعلم!. أجابه الله: اصمت، تلك كانت فكرتي. يبدو أن هذه الأسطورة تخفى على الفهم البشري. فالأشياء أو الأحداث التي لا يمكن شرحها للإنسان كانت محددة من الله، وما على الإنسان سوى الانقياد والخضوع. صرَّح الحاخام بجرأة: إذا كان تفسير النص صحيحاً، فليس من سلطتنا شرح الحياة الرغيدة للشرير، أو العذاب للصالح.

يجب أن يخص المشكلة واحد من النصوص المتعلقة بها. يناقش فيه معنى الالتماس المقدم من موسى إلى الله: أرني طرقك: [**الآن إن كنت قد حظيت في عينيك فعرفني طريقك حتى أعرفك لكي أنال حظوة في عينيك. انظر. إن هذه الأمة هي شعبك**] (خروج 33، 13). قال له موسى: لماذا يتمتع الصالح هنا بالسعادة ويتعرض الشرير للقسوة، بينما في المكان الآخر، يكون مصيرهما عكس هنا تماماً؟ أجابه الله: يا موسى: إن الصالح الذي يتمتع بالرفاهية هو ابن الصالح، والصالح الذي يتألم من الشدة هو ابن الشرير، والشرير الذي ينعم بالرفاهية هو ابن الصالح، والشرير الذي يتألم هو ابن الشرير.

لكن يجب الانتباه: فقد كُتب أيضاً: [**يحفظ الرحمة لألوف ويغفر الذنب والمعصية والخطيئة ولا يتزكّى أمامه الخاطئ. يفتقد ذنوب الآباء في البنين وفي بني البنين إلى الجيل الثالث والرابع**] (خروج 34، 7). وأيضاً لا يقتل الأبناء بسبب آبائهم: [**لا تقتل الآباء بالبنين ولا تقتل البنون بالآباء بل كل امرئ بذنبه يُقتل**] (تثنية الاشتراع 24، 16). لنقارن هذه النصوص فنجد أنها غير متناقضة.

لأن الأول ينطبق على الأولاد الذين يتبعون نفس طريق آبائهم، والثاني لمن لا يتبعونه. غير أنه يمكن الاعتراض على أن الله قد أجاب موسى بالطريقة التالية: الصالح الذي يتمتع بالسعادة هو صالح تماماً، والصالح الذي تضربه الشدة ليس صالحاً كلياً، والشرير الذي يُسعد برغد العيش ليس شريراً كلياً، والشرير الذي يتعذب هو شرير

تماماً. صرَّح الحاخام مئير: «عندما يقول الله: اعفُ عن كل من يطلب العفو»: [**قال أنا أجيز جميع جودتي أمامك وأنادي باسم الرب قدَّامك وأصفح عمن أصفح وأرحم من أرحم**] (خروج 33، 19). يظن أنه يتلقى الرحمة والصفح ولو لم يكن يستحق ذلك. وكذلك عندما يقول: سأظهر عطفي ورحمتي لمن أرحم.

المسألة معتبرة بأشكال مختلفة. يقدِّر الحاخام مئير أن توضيحها يتجاوز حدود العقل البشري. يتصرف الله في حكمته التي يعجز الإنسان عن فهمها. وفيما يتعلق بالحل المذكور أولاً، فهو يتضمن نظرية «فضل الأجداد» القادرة من التخفيف نوعاً ما من حدة القصاص المستحق على الأحفاد المذنبين. هذا الفهم راسخ جداً وسط اليهود؛ ويعبِّر عنه مراراً في طقوس الكنيس. سنكتفي باستعارة قول واحد من التلمود: يقول إبراهيم للقدوس الواحد (الممجد!): [**لا يسوءُ عينك أمر الصبي وأمر أمتك. كل ما تقوله لك سارة فاسمع لقولها لأنه إسحق يُدعى لك نسلٌ**] (تكوين 21، 12). بينما تأمرني الآن بأن أقدمه ذبيحة لك. [**قال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق وامضِ إلى أرض موريَّة وأصعده. هناك محرقة على أحد الجبال الذي أريك**] (تكوين 22، 2). لكن ليكن بعيداً عني هذا الجواب! سيطرت على مشاعري، ونفذتُ أمرك أيضاً يا ربي وإلهي، عندما يتعرض أحفاد ولدي إسحق للعذاب والآلام، فلا يوجد أحد يدافع عنهم، أنت بذلك مكرَّم وافعل ذلك.

إذا كانت مزية الأجداد أن يذكر من المبتهل في صلواته، بالمقابل فلن يكون هناك أي دليل قادر على حل مشكلة الشر. وهذا خاصة لأنه يكافح ضد فكرة المسؤولية الفردية. نكتشف هذا الاعتراض في الملاحظة التالية: قال موسى لله: عوقب الأبناء بسبب خطايا الآباء. لكن النبي حزقيال عارض ذلك ويقول: [**إن جميع النفوس هي لي كمثل نفس الأب مَثَلُ نفس الابن كلتاهما لي. النفس التي تخطئ هي تموت**] (حزقيال). كل يجيب بطريقته الخاصة.

البديل هو الأكثر قبولاً. إذا تألم إنسان صالح، فهذا لأنه غير صالح كليّاً. وإذا عاش شرير بهناء، فهذا لأنه ليس شريراً بالكليَّة. لم يكن الحاخامات ينظرون إلى الحياة الأرضية كمادة اكتفاء ذاتية. هناك حياة ما بعد القبر، ومزج التجارب المتعلقة برحلتي الحياة على الأرض وفي السماء ليست إلا الحكمة الإلهية. تبدو وجهة النظر هذه مثلاً في تفسير سفر تثنية الاشتراع [**الصخرِ الكاملِ الصنيعِ الذي كل طرقه حكمة. الله**

حقٌّ لا جَوْرَ عنده هو العدل المستقيم]. كما أن القدوس الواحد (الممجد!) يمنح في العالم الآخر مكافأة للأبرار لكل وصية قليلة الأهمية طُبقت في هذا العالم. كما يمنح كل التزام صغير للأشرار قاموا به ـ دون ظلم ـ كذلك يعاقب القدوس الواحد (الممجد!) في العالم الآتي الأشرار لأي خطيئة ارتكبوها مهما كانت صغيرة في هذا العالم كذلك يعاقب الصالحين لأي خطيئة صغيرة ارتكبوها ـ عادل نزيه: يقال إنه عند موت إنسان ما تتلى أفعاله أمام الله: فعلتَ هذا في ذلك اليوم والمكان. يعترف بذنبه، ويُطلب منه توقيع سجل أفعاله كما هو مكتوب: [**يختم على يد كل بشر ليعرفه خلقه كافةً**] (أيوب 31، 7). من جهة أخرى يعترف بعدالة ما أصابه ويقول: لقد حكمتَ عليَّ بعدل، كما هو مكتوب: بطريقة كنتَ فيها منصفاً في نطق الحكم دون معاتبة في الحكم.

بماذا يشبَّه الصالح في هذه الحياة؟ بشجرة تتفرع معظم أجزائها في شكلها المناسب، بينما تمتد تتدلى بعض الأغصان في غير موضعها إلى مكان بخس. ما أن تقطع هذه الأغصان، حتى تشغل جميعها مكاناً صالحاً. كذلك يرسل القدوس الواحد (الممجد!) الآلام والعذاب للصالح على الأرض، كي يتمكن من إرث العالم الآخر. لأنه قيل: [**حتى تكون أولاك قليلة الخصب عندما لآخرتك من كثرة النضرة**] (أيوب 8، 7). من يشبه الشرير في هذا العالم؟ شجرة تمتد أغصانها في أرض نجسة، لكن فروعها تمتد لتصل إلى الأماكن الطاهرة. عندما تقطع الفروع فالشجرة تشغل مكاناً نجساً. كذلك القدوس الواحد (الممجد!) يمنع السعادة عن الشرير في هذا العالم، ليرميه في أعماق جهنم لأنه قيل: [**رُبَّ طريق يستقيم في عيني الإنسان وأواخره طرقٌ إلى الموت**] (الأمثال 14، 11).

لا توجد في التورا أية وصية تتكلم عن مكافأة مستقلة عن الحياة الآخرة. بالنسبة لشرف العائلة قيل: [**أكرم أباك وأمك كما أمرك الرب إلهك لكي تطول أيامك وتُصيبَ خيراً في الأرض التي يعطيك الرب إلهك**] (تثنية الاشتراع 5، 16). بعد تحريم قتل أم أفراخ العصافير في العش. مكتوب: [**تطول أيامك وتصيب خيراً**]. لكن انظر ماذا يصيب إنساناً تلقى من والده أمراً بالصعود إلى قمة البرج والإمساك بالحمام الموجود فيه. ذهب إلى هناك ترك الأم حرة طليقة وقبض على الفراخ الصغار، لكنه عند نزوله من البرج هوى إلى الأرض ومات. بماذا كان سعيداً وأطال أيام حياته؛ هذه

الكلمات: «من أجل أن يكون سعيداً، يجب أن يطبق في هذا العالم كل ما هو صالح، وإن إطالة الأيام سيتم في العالم الذي لا ينتهي أبداً».

إليكم القصة التي تشرح هذه العقيدة: تقول زوجة الحاخام حنينا لزوجها: «اطلب في إحدى الصلوات أن يوهب لك بعض الصالحين العادلين في العالم الآتي. فعل ذلك، فألقيت إليه رِجلُ طاولة من ذهب. ثم حلم أنه في العالم الآخر، يأكل الإنسان على طاولة لها ثلاث قوائم، بينما لم يكن لطاولته سوى اثنتين. عندما سمعت زوجته قالت له: صلِّ لتستعيد قائمة الطاولة، فحصل ذلك». من الواضح بالنسبة للحاخامات أنه لا يمكن لإنسان واحد أن يحصل على الأفضل على الأرض والسماء أو كما يقولون: «الأكل على مائدتين».

تجد العقيدة التي تقضي أن يكون الصالحون متهيئين لقبول الألم في هذا العالم، شرحاً غريباً عندما يقال: إن العقوبة التي يطبقها الله على الأشرار، تضر بالصالحين في المقام الأول: هذا يعني أنه عندما نعرف نتائج الأعمال السيئة، لا نُخضع لها البريء بشكل حتمي، أو أن يقاسي الألم أكثر من المذنب. القصاص لا يأتي لهذا العالم إذا لم يكن هنالك أشرار أحياء. لم تكن هذه سوى بداية إصابة الصالحين كما قيل: [**وإن خرجت نار ولاقت شوكاً وأحرقت أكداساً أو سنبلاً قائماً أو سائرَ ما في الحقول، فالذي أوقدته النار يُعوِّض**] (خروج 22، 6). في وقت اشتعال النار (قصاص)، عندما يوجد هناك أشرار (الأشواك) ولا يصيب الصالحين (حبات القمح) إلا في البداية، لأنه قيل: بطريقة يتلف معها القمح الطازج. النص لم يأتِ على ذكر سيتلف (بعد الأشواك) بل (كان قد تُلف). لقد احترق أولاً. ماذا تريد هذه الآية القول: «لا أحد منكم سيخرج من منزله حتى الصباح عندما سيأمر الرب بضرب المصريين» [**خذوا طاقة زوفى واغمسوها في الدم الذي في الطست ولطِّخوا العتبة العليا وقائمتي الباب من الدم الذي في الطست ولا يخرج أحدكم من باب منزله إلى الغداة**] (خروج 12، 21). لأن ملاك الموت قد تلقى أمراً بالتدمير، وليس له أن يميز الأخيار من الأشرار وأكثر من ذلك، يبدأ بالصالحين. كما قيل: [**وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب هاأنذا آتِ إليكِ فأجرِّد سيفي من غمده وأقرِضُ منكِ الصديق والمنافق**] (حزقيال 21، 3). لقد ذكر اسم الصالحين أولاً.

بالصدفة ومن الثابت أن الأخيار يتألمون بدل الأشرار. مثال: عندما يتضمن جيل

أناساً صالحين، فالصالحون يعاقبون بسبب خطايا هذا الجيل. وإذا لم يكن من ذرية لهم، فإن أطفال المدارس يتألمون للشر المرتكب آنذاك. يحصل أن تظهر فكرة التكفير الاستبدالي عندما يتساءل لماذا رواية موت مريم. [**وكلّم الرب موسى وهرون قائلاً: هذا رسم الشريعة التي أمر الرب بها كلِّم بني إسرائيل أن يأتوك ببقرة صهباء صحيحة لا عيب فيها ولم يرفع عليها نيرٌ**] (أعداد 19، 1 و2). الجواب: البقرة الصهباء تؤدي إلى التكفير عن الخطايا، الشيء نفسه يقوم به موت الصالح. نصوص أخرى لها الاتجاه نفسه. هكذا يقول موسى للقدوس الواحد (الممجد!): ألن يأتي وقت حيث لن يكون لإسرائيل خيمة ولا هيكل؟ ماذا سيكون مصيرها (بالنسبة للتكفير)؟ أجاب الله: سآخذ صالحاً من عامة الشعب، وسيكون رهينة عنكم، وسأمحو ظلم الجميع (خروج). وأما بشأن العجل الذهبي فقال موسى: [**والآن إن غفرتَ خطيئتهم فامحني من كتابك الذي كتبته**] (خروج 32، 32) قدم حياته تكفيراً عن خطيئة الشعب.

اعتبرت مسألة الشر من ناحية معينة، عندما لم تكن الآلام في هذه الحياة معدَّة من الله لتستخدم كعقاب، أو أنها لم تكن تُظهر قضاءه. بل العكس كانت تأتي من حبه للأعمال الخيرة. الإعلان: [**ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جداً**] (تكوين 1، 31). طبّق هذا على العالم: هل العذاب شيء جيد؟ نعم، لأنه بواسطته سيبشر الإنسان بالعالم الآخر: ما هو الطريق الذي يقود الإنسان للعالم الآخر؟ تكون الإجابة: إنه طريق الآلام (خروج). من يفرح بالآلام التي تصيبه في هذه الحياة يحمل السلام للعالم.

إليكم استنتاج فكرة أن العذاب هو إظهار الحب الإلهي: هل يرى الإنسان أن العذاب يأتي من الله؟ ليتفحص أعماله كما قيل: [**لنفحص طرقنا ونختبرها ونرجع إلى الرب**] (مراثي إرميا 3، 40). لو أنه تفحص أفعاله ولم يكتشف السبب، فعليه أن يرجع آلامه إلى إهماله التورا، لأنه قيل: سعيد من تعاقبه وتثقفه بشريعتك (94، 12، Ps). إذا كان يُعزي آلامه لإهماله التورا، فإنه لن يتوصل لتبرير الفرضية، في حين يعلم جيداً أن الله عاقبه، لأنه مكتوب: الرب يعاقب من يحبُّه [**فإن الذي يحبه الرب يؤدِّبه ويرتضي به كأب بابنه**] (أمثال 3، 12). إذن، لماذا يحب الحكم على الصالحين بالآلام؟ الرد المقترح: لا يقوم صانع الفخار

بتجاربه على آنية مصدَّعة، لأنه يكفي لمسها حتى تنكسر؛ وعليه تجربة آنية متينة يمكن طرقها دون أن تتحطم. كذلك القدوس الواحد (الممجد!)، لا يجرب الأشرار، بل الصالحين. هكذا قيل: يسبر الرب الصالح. [**وكان بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم..**] (تكوين 22، 1). كان لرب بيت بقرتان واحدة قوية ضخمة، والثانية ضعيفة هزيلة. أي منهما سيوضع نير الفلاحة على رقبتها؟ طبعاً القوية كذلك الله يمتحن الصالح.

على ضوء الإدراك المرتفع للآلام إليكم هذا الدرس المفيد: [**لا تجعلوا معي آلهة من فضة، وآلهة من ذهب لا تصنعوا لكم**] (خروج 20، 23). لا تتصرفوا تجاهي كما يتصرف عبدة الأوثان تجاه آلهتهم. عندما يكونون سعداء، يغنون ويرتلون لآلهتهم. إذا منحتكم السعادة فاشكروا، وإذا تألمتم فاشكروا أيضاً. هذا هو رأي القانون الحاخامي: الإنسان ملزم بذكر التسبيح ومباركة الشر كما الخير؛ ألم يُكتب: [**فاحبب الرب إلهك بكل قلبك وكلٍّ نفسك وكل قدرتك**] (تثنية الاشتراع 6، 5). من كل قلبك، أي بالنزوتين الخيرة والشريرة؛ من كل روحك، أي حتى أنه لو استرد روحك؛ بكل قوتك، أي بكل أملاكك. شرح آخر يمكن إعطاؤه لهذه الكلمات: بكل قوتك، معناه: مهما كان القدر الذي تتعرض له، يجب أن تشكره.

مع أن التعليم التلمودي يعطي لعقيدة العقوبات المقام الأول، فإنه يكرر دون انقطاع أن خدمة الله يجب أن تكون مترفعة، وأن تُطاع أوامره لأسباب طاهرة نقية. سنعالج هذا الأمر لاحقاً. يكفي أن نورد هنا نصين: «ليمجد من يعمل بوصاياك». ليس من الوصايا التي تكافأ عليها. لا تكونوا مثل الخدم الذين يخدمون سيدهم لأخذ أجرهم، بل كونوا خدماً دون شروط، ولكن مخافتكم السماء.

الفصل الرابع

الوحي

1 ـ النبوة

إن مجمل العقيدة الدينية والأخلاقية التي يحتويها التلمود، مبنية على التوراة العبرية، حيث لايمكن لحقيقة النبوة إلا أن تكون من أولى البديهيات. وأن الله أبلغها بإرادته وبواسطة بعض الخطباء الملقبين بالأنبياء، هذا هو الإحساس الحقيقي للإيمان الحاخامي.

تقول النظرية المؤتمنة بين الفلاسفة اليهود المتأخرين: إن النبوة لم تكن هبة أعطاها الله اعتباطاً لعدد من الأشخاص، بل إنها وسمت تتويجاً للقدرات العقلية ـ الروحية الرائعة. لم تكن وجهة النظر هذه غائبة في التلمود، فهو (أي التلمود) يعدد بقدر من التفصيل الدرجات التي يصبح فيها الإنسان مؤهلاً لتلقي هبة النبوة، فالحماسة تقود للنظافة، والنظافة إلى النقاء الشعائري، والنقاء الشعائري إلى امتلاك الذات، وامتلاك الذات إلى القداسة، والقداسة إلى التواضع، والتواضع إلى مخافة الخطيئة، ومخافة الخطيئة إلى القداسة السامية وهذه إلى الروح القدس.

علاوة على هذه الخصال الأخلاقية وإلى جانبها، هناك شروط أخرى رئيسية: لا يجعل القدوس الواحد (الممجد) نور الشيخينا يسطع إلا على رجل ثري، عاقل ومتواضع. لا يسطع القدوس الواحد (الممجد!) نور الشيخينا إلا على رجل حكيم، قوي، غني، طويل القامة وإذا حدثت ثغرة ما في الكمال الأخلاقي، فإن موهبة النبوة تضيع إما بشكل مؤقت أو نهائي، وإذا أظهر النبي نوعاً من التعجرف، فإن النبوة تغادره، وتتركه نهائياً لو استسلم للغضب. بما أن إسرائيل مؤتمنة على الوحي لذلك اختير الإسرائيليون (اليهود) أن يكونوا رسلاً له، غير أن هذا الخيار لم يكن مقصوراً عليهم، فقد بشر الوثنيون بسبعة أنبياء: بلعام وأبوه، أيوب وأصدقاؤه الأربعة. كانت عدالة الله تحث خطباء الوثنيين ايضاً، فيما يتعلق بهذه الآية: الصخرة، عملها كاملٌ، جميع طرقها صالحة: تلاحظ المدراش أن «القدوس الواحد» (الممجد!) لم يترك لشعوب العالم حجة للحياة الآخرة: لقد تركتنا بعيدين ـ ماذا جرى؟ تماماً كما نصب ملوكاً، وحكماء، وأنبياء لإسرائيل، كذلك فعل الشيء نفسه لباقي الأمم. ومثلما أوجد موسى لإسرائيل، فقد منح بلعام للوثنيين.

لم يكن إلهام الأنبياء الوثنيين، وإلهام الأنبياء العبرانيين مفهوماً على أنهما من مستوى واحد، المستوى العالي مُنح لأنبياء إسرائيل، مما يؤدي إلى ارتفاع مناسب في الهوية النبوية. يقول: [**فأتى الله أبيملك في حلم الليل وقال له إنك بسبب المرأة التي أخذتها فإنها ذات بعلٍ**] (تكوين 20، 3). يستنتج من ذلك، أن القدوس الواحد (الممجد !) لم يوحِ لأنبياء وثنيين إلا في زمن كان من عادة الناس استئذان بعضهم البعض. ما الفرق بين أنبياء إسرائيل وأنبياء الوثنيين؟

كان ملك مع صديقه في قاعة يفصل بينهما ستارة. عندما يريد الملك التحدث إلى صديقه يبعد الستارة، وهذه هي الطريقة التي تكلم بها الله مع أنبياء إسرائيل. غير أنه عندما يتوجه للأنبياء الوثنيين، لم يكن يبعد الستارة.

كان يكلمهم من خلف الستارة. وكان للملك زوجة ومحظية، كان يذهب لزيارة زوجته علانية، بينما كان يزور محظيته خلسة.

كذلك القدوس الواحد (الممجد!)، لم يتكلم مع الأنبياء الوثنيين إلا بالتلميح، بينما يتحدث مع أنبياء إسرائيل علانية. كان يستخدم كلمات حب وقداسة، كالتي يستعملها الملائكة الخدم لتسبيحه.

يشار إلى السبب في ظهور القليل من الأنبياء بين الشعوب الوثنية، ثم انتهى الأمر إلى العدم: «انظروا الفرق بين أنبياء إسرائيل وأنبياء الوثنيين. كان أنبياء إسرائيل (اليهود) يحذرون المستمعين إليهم من الانتهاكات كما قيل» (يا ابن البشر إني جعلتك رقيباً لآل إسرائيل فاسمع الكلمة من فمي وأنذرهم عني) (حزقيال 3، 17).

لكن النبي بلعام الذي ظهر بين الشعوب الأخرى، جلب الفوضى القادرة على تدمير المواطنين ومحوهم من على سطح الأرض. بالمقابل، أظهر أنبياء إسرائيل الحب والعطف على شعبهم والوثنيين أيضاً، كما جاء في نبوءة إرميا (لذلك يرن قلبي على موآب كالمزمار ويئن فؤادي كالناي على رجال قير حارس. لقد هلكوا لكثرة ثروتهم) (إرميا 48، 36). كما قيل: (من فمي وأنت يا ابن البشر أشد برثاء على صور) (حزقيال 27، 2).

لكن النبي الآخر، رجل فظ، يهدف لاستئصال أمة كاملة (إسرائيل) دون سبب.

انظروا، لماذا كانت الرواية المتعلقة بـ بالعام قد أدخلت في التوراة (الكتاب المقدس).

وهذا يعلمنا لماذا ابعد القدوس الواحد (الممجد!) الروح القدس عن الشعوب الوثنية. لأن بلعام ولد من أحشائهم، وأن الله رأى ما فعل.

كان موسى أهم أنبياء العبرانيين، يقف في مقدمتهم وحيداً وبجدارة. بماذا يتميز موسى عن الأنبياء الآخرين؟ الآخرون ينظرون إلى الله من خلف تسعة ألواح الزجاج، بينما يفصل موسى عن الله لوحٌ واحد، زجاج الآخرين غير شفاف بينما زجاج موسى شفاف. إن موسى كان يفهم رسالة الله بصورة أكثر حميمية منهم.

فالوحي الذي منحه الله إياه كان النبع الذي استمد منه جميع الأنبياء الذين جاؤوا بعده، ولم يكن للأنبياء علاقة بالأجيال اللاحقة، ولم يتلقوا الوحي من جبل سينا. ألغى موسى جميع كلام الأنبياء الآخرين وكلامه أيضاً. وكل من بشَّر، لم يفعل سوى التعبير عن ماهية نبوة موسى. ينتج من ذلك، أن لا شيء مما قيل من نبي جاء بعد موسى يمكنه نقض كتاباته الخاصة به، أو لا يضيف أو ينقص أي شيء منها.

ثمانية وأربعون نبياً وسبع نبيات بشروا بعد موسى لصالح إسرائيل، لم يحذفوا أي شيء مما كتب في التورا ولم يضيفوا شيئاً، باستثناء القانون حول تحرير اليهود الفرس الناجين من مؤامرة هامان الموجود في كتاب أستير،

من بين الثمانية والأربعين حبراً وشخصيات توراتية كبيرة. النبيات السبع هن: سارة، مريم، ديبورا، حنة، أبيجائيل، هولدا، أستير.

وفي مكان آخر، يتضاعف عدد الإسرائيليين الملهمين كثيراً. فقد نشأ العديد من الأنبياء في إسرائيل، وبلغ عددهم ضعف عدد العبرانيين الذين خرجوا من مصر (بلغ عددهم ستة آلاف).

النبوة الوحيدة المقبولة لدى الأجيال القادمة هي المكتوبة. ولم يكن الأمر هكذا بالنسبة لمن لا يتمتع بهذه الصفة.

حتى بين الأنبياء الرسميين إضافة لموسى، اعتمدت درجات متفاوتة في الإلهام: الروح القدس الذي يسطع على الأنبياء لا يفعلها إلا باعتدال. بعضهم ملأ كتاباً من نبوءاته، وآخرون كتابين. ولم يبشر أو يتنبأ إلا بآيتين، بما أن هذا غير كاف ليشكل كتاباً، فقد أضيفت الآيات للنبي إشعيا. حسب رأي بعض الحاخامات، كان «هوشع»، أكبر أنبياء زمانه وفي وقت آخر هناك أربعة أنبياء مبشرين هم: هوشع، إشعيا، عاموس، ميخا، وأبرزهم هوشع، بعضهم يعطي سعفة النخل إلى إشعيا ـ كل واحد من الأنبياء

تلقى نبوءته عن سلفه، بينما تلقاها إشعيا مباشرة من القدوس الواحد (الممجد!) (أحبار، 2، 10، R). في هذه الحالة يظهر إشعيا تفوقاً على حزقيال. كل ما رآه حزقيال رأته إسرائيل، لكن من يشبه حزقيال؟ رجلٌ فظٌ يلقي نظراته على الملك، بينما إشعيا رجل حضري يحترم الملك.

يتفق الجميع على قبول أن النبوة بشكلها الخاص، توقفت مع الخراب الأول للهيكل. مع العلم أن لها بعض الممثلين في المنفى. عندما مات آخر الأنبياء حجاي، زكريا، ملاخي، انسحب الروح القدس من إسرائيل (سانح 14a). يصرح حاخام آخر: «منذ تدمير الهيكل» انتزعت هبة النبوة من الأنبياء، ومنحت للعقلاء (B.b، 12a) وهذا يشير إلى الحلقات في سلسلة التقليد التي اجتازت بها التورا الأجيال من موسى حتى العصر التلمودي.

رأي آخر أقلُّ إطراء: «من يوم تدمير الهيكل انتزعت النبوة من الأنبياء ومنحت لضعفاء العقول والأطفال». وهذا تلميح لجدل ديني. حيث يعلمنا يشوع أنه كانت تحضر من حين لآخر شخصيات تطالب بلقب نبي وتعتبر نفسها المحرر المنتظر لإسرائيل.

تنص الرسالة العليا للنبوة العبرانية على دعوة الرجال والنساء التائهين ليسلكوا طريق الله.

«كل نبي تنبأ بأيام المسيح فقط وبشر بالتوبة» (بير 34a).

في هذا المعنى يجب فهم حكم يبدو على الأصح غريباً وظاهرياً، سيأتي وقت يلغى فيه الأنبياء وكاتبو سير القديسين، لكن ليس كتب التوراة الخمس الأخيرة. عندما يطيع جميع الناس الوصايا، لن تكون هناك حاجة للإرشادات النبوية، لأنها لم تكن معدة إلا الى عالم خاطىء، وليس لعصر الكمال الذي سيدشنه المسيح.

عندما يأتي هذا الزمن السعيد، هناك سبب سيجعل من النبوة غير ذات فائدة. بما أن جميع الناس سيكونون عقلياً وأدبياً (أخلاقياً) كاملين، فسيحصلون دفعة واحدة على قدرة تلقي الهبات النبوية.

يقول القدوس الواحد (الممجد!) بعض الأفراد في هذا العالم ستفيض عليهم النبوة، غير أنه في العالم الآخر ستكون إسرائيل جميعها أنبياء، لأنه قيل: «سيكون بعد هذه أن أفيض روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبانكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً» (يوئيل 2، 28) (أعداد 25، 15، R).

2 ـ التورا

يوضِّح من كل ما سبق، أن جذور التلمود ترسَّخت في التوراة العبرانية. في كل فكرة يطرحها، وفي كل واحدة من تأكيداتها، يبحث عن ضمان لها في النص المقدس. عملياً تستعمل الصيغ الثابتة: كما قيل، هكذا كتب وذلك بعد كل تصريح تلمودي، لم يكن الحاخامات الذين وضعوا بتجاربهم هذا الكتاب الكبير الجامع يقصدون منه التعليم، أو أن يقدموا أنفسهم بمثابة المؤلفين الفعليين للفكر اليهودي. لكنهم اعتبروا انفسهم جميعاً مستكشفين لهذا المنجم الذي لا ينضب، والذي يشكله الوحي الإلهي الموجود في الكتاب المقدس (التوراة)، كانت رسالتهم تهدف إلى إلقاء الضوء على الكنوز المخبأة في أعماق هذا الخزان الرائع.

منذئذ، المزية الكبرى، والواجب الأول لليهود لم يكونا سوى دراسة الكتابات المستوحاة، وتأملها، واستخراج كل ما هو جدير بالإنتاج. إن كل محاولة مجربة لفهم وتقدير التعليم الحاخامي، قد تكون مستحيلة، إذا لم نقدِّر المكانة التي تشغلها التورا في حياتهم، والموقف الذي يتخذونه تجاهها. الوسيلة الأفضل، والممكنة للحصول على إيضاحات دقيقة في هذا الغرض، ستكون بجمع مراجع التورا التي يتضمنها كتاب «بيركيه آبوت» للميشنا.

(بيركيه آبوت: هي مقاطع أو فصول الآباء المؤلفين، الذين تملأ أحكامهم هذا الكتاب والذين عاشوا في الفترة ما بين /200 ق و200م/. لقد أعطت أعمال رواد التلمود الحقيقيين الدفع لهذه الدراسة المستمرة، المخلصة للتورا، والتي أنتجت الأدب الحاخامي، لقد أخذنا منها بعض المقاطع، ونجمع هنا كل ما يسمح للقارئ تقدير العمل الناتج لهؤلاء الرواد.

تلقى موسى «التورا» على قمة سيناء، نقلها إلى يهوشع، والذي نقلها بدوره للأقدمين، وهؤلاء نقلوها للأنبياء، والأنبياء إلى رجال الكنيس الكبير، كانوا يؤكدون على ثلاثة أشياء: كونوا حذرين في أحكامكم، اجمعوا أكبر عدد من التلامذة، أقيموا سياجاً حول التورا.

ـ كان شمعون الصالح أحد آخر الناجين من الكنيس الكبير. من عادته القول:

العالم بني على ثلاثة أشياء: التوراة، عبادة الله، والأعمال الحسنة (1.2).

ـ أن تكون بيوتكم مكاناً للقاء العقلاء (تنهلون من معارف التورا). اجلسوا على تراب أقدامهم (الأرض) وانهلوا بحماسة أقوالهم (1.4).

ـ من يتعاط الأقوال التافهة مع النساء، فإنه يجلب التعاسة لنفسه، ويهمل دراسة التورا، وأخيراً سيرث جهنم (51).

ـ ارتبطْ مع أستاذ التورا، واربحْ رفيقاً، واحكمْ على كل إنسان حسب ما يستحق (6. 1).

ـ كن من بين تلامذة أهارون، محباً للسلام، وباحثاً باستمرار، محباً قريبك، وأرشده إلى التورا (12. 1).

ـ كل من لا يضاعف معرفته ينقصها، وكل من لايدرس التورا يستحق الموت، ومن يجعل من التورا عادة للزهد سيفنى (13. 1).

ـ حدد لنفسك وقتاً لدراسة التورا (15. 1).

ـ من المفيد جداً، دراسة التورا، إضافة لبعض الأعمال المفيدة، لأن العمل الذي يتطلبه هذان الشيئان ينسي الخطيئة. كل دراسة للتورا دون علم آخر، ستكون في النهاية عديمة الفائدة وتقود للخطيئة (2. 2).

ـ الإنسان الفارغ الرأس لا يخاف الخطيئة، ولا يمكن لمن يجهل التورا أن يكون نقياً، الرجل الورع ليس بحاجة للتثقيف، الرجل الانفعالي لايقدر على تثقيف غيره، الرجل المشغول إلى الحد الأقصى في العمل لا يمكنه اكتساب الحكمة بممارسة التورا (6. 2).

ـ حكماً زادت ممارستنا للتورا، طالت معها حياتنا. ومن استوعب كلام التورا يكسب الحياة في العالم الآخر (8. 2).

ـ إذا واظبت على قراءة التورا، فلن يكون لك أجر، لأنه من أجل هذا خلقت (2، 9).

ـ اجعل نفسك جديراً بقراءة التورا، لأنك لا تتلقاها مثل ورقة، وأن جمع أفعالك تكون بفضل السماء (2، 17).

ـ اسهر على دراسة التورا، واعلم أنها الردّ المناسب على الملحدين، واعلم أيضاً من

الذي تعمل أمامه، من يستخدمك من يجازيك ويكافئك على عملك (19. 2).

ـ ليس من واجبك أن تنجز عملك كاملاً، لكنك لست حراً بالامتناع عن ذلك. إذا درست التورا كثيراً فإن مكافأتك عظيمة، إنه مؤمن من يستخدمك، ليكافئك على عملك، أعرفه، ضمان المكافأة العادل سيكون في العالم الآخر (21. 2).

ـ إذا لم يتحدث رجلان جالسان معاً أي حديث عن التورا، فهما ساخران (1. 1. ps).

(طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة المنافقين، وفي طريق الخطأ لم يقف وفي مجلس الساخرين لم يجلس).

بينما لو اشترك رجلان جالسان معاً في الكلام عن التورا، فإن الشيخينا تكون فيما بينهم. لأنه قيل (حينئذ تكلم خائفو الرب الواحد مع صاحبه وأصغى الرب وسمع وكتب كتاب تذكرةٍ أمامه لخائفي الرب المتفكرين باسمه) (ملا خي 3، 16) والحالة هذه، إذا لم تسمح التوراة بالتفكير لهذين الرجلين، فمن أين نستنتج إذا كان واحد منهم مهتماً بالتورا، وأن القدوس الواحد (الممجد!) يكافئه؟ من هذا النص نجد: «رغم أنه يبقى وحيداً منعزلاً، متأملاً بصمت، فإن الرب سيكافئه (الرب صالح للذين ينتظرونه خير أن ينتظر خلاص الرب بسكوت) (مراثي إرميا 3، 27).

إذا جلس ثلاثة رجال على مائدة واحدة دون النطق بأي كلمة عن التورا، فسيكونون كما لو أنهم استهلكوا أشياء مقدسة لفائدة تماثيل ميتة، التي قيل عنها (كل الموائد امتلأت من القيء القذر فلم يبق موضع) (إشعيا 28، 8).

لكن لو أن ثلاثة رجال تناولوا الطعام على مائدة واحدة، ذاكرين التورا، مثلهم كما لو تناولوه مع الحاضر في كل مكان (الله)، ويطبق عليهم النص التالي من الكتاب المقدس (التوراة) (والمذبح الذي من خشب سمكه ثلاث أذرع وطوله ذراعان وزواياه وجدرانه من خشب: وقال لي هذه هي المائدة التي أمام الرب) (حزقيال 41، 22).

ـ من يحمل على كتفه نير التورا، فيرفع عنه نير المملكة وهموم هذا العالم لكن من يتملص من حمل نير التورا فيخضع لنير المملكة ونير هذا العالم (6. 3).

ـ عندما يكون عشرة رجال مجتمعين، ومهتمين بالتورا، تكون الشيخينا فيما بينهم،

هكذا كتب: (يجلس الله في مجمع القديسين) كيف يمكن البرهان أنه ينطبق على خمسة أشخاص؟.

لأنه مكتوب: (هو الذي يشيد في السماء علاليه ويؤسس على الأرض قبته) (عاموس 9، 6). ومن أجل ثلاثة؟ لأنه قيل: (يقضي بين القضاة) (1. 28. ps) ومن أجل اثنين؟ لأنه مكتوب (حينئذ تكلم خائفو الرب الواحد مع صاحبه، وأصغى الرب وسمع وكتب كتاب تذكرة أمامه) (ملاخي 16/3). أخيراً وبالنسبة لرجل واحد؟ لأنه مكتوب (في كل موقع يذكر فيه اسمي آتيك وأباركك) (خروج 20، 24).

ـ من يمشِ في الطريق وهو يقرأ التورا، ثم يتوقف ليقول: ما أجمل الشجرة، ما أبدع المنظر الجميل فإنه من وجهة نظر الكتاب المقدس (التوراة) خسر حياته (9. 3).

ـ من ينس كلمة واحدة من القراءة، يعتبره الكتاب المقدس (التوراة) كأنه فقد حياته. لأنه قيل (إنما احترسِ واحتفظ لنفسك جداً كي لا تنسى الأمور التي رأتها عيناك ولا تزول من قلبك كل أيام حياتك بل علمها بنيك وبين بينك) (تثنية الاشتراع 4، 9).

والحالة هذه يمكن الافتراض أن هذه النتيجة تحدث أيضاً إذا كانت الدراسة صعبة جداً لمن يتابعها.

يحذرنا الكتاب المقدس من استنتاج لهذا النوع، فيقول: (إن هذه الأشياء تخرج من فمك كل ايام حياتك).

إذن لا يثبت جرم الإنسان ما دام لم ينتزع عمداً وبمحض إرادته الدروس من قلبه (10. 3).

من يسبق فيه الخوف من الخطيئة قبل الحكمة، فتكون له حكمة دائمة، لكن من تدخل فيه الحكمة قبل الخوف من الخطئية، فلن يملك حكمة دائمة، ومن تفُقْ أفعاله العقل، فتكون حكمته دائمة، ومن تفُقْ حكمته الأفعال، فلن يملك حكمة دائمة.

ـ محبوبة إسرائيل، لأنها منحت الأداة المرغوبة (أي التورا)، لكن هذا كان بفضل حب خاص أعلمت به أن هذه الأداة المرغوبة، التي بواسطتها تم خلق العالم، لأنه قيل (فإني منحتكم تعليماً صالحاً فلا تهملوا شريعتي) (الأمثال 4، 2).

هناك حيث لا تورا، فلا أخلاق، وحيث لا أخلاق لا تورا، وحيث لا حكمة، لا

خوف من الله، وحيث لا خوف من الله، فلا حكمة. وحيث لا معرفة، فلا ذكاء. وحيث لا ذكاء فلا معرفة. وحيث لا طعام، فلا تورا، وحيث لا تورا، فلا طعام (21. 3).

- القوانين المتعلقة بأضاحي الطيور وطهارة النساء، قوانين هامة، أما علم الفلك، والهندسة فليس هما سوى ملاحق للحكمة (23. 3).

- من يتعلم التورا للتعليم فيحصل على الوسائل اللازمة للتعليم والتدريس، ومن يتعلمها للممارسة فيحصل على وسائل التعليم والتثقيف والالتزام والممارسة (664).

- لا تجعل من التورا تاجاً لتكبر أنت فقط، ولا معزقة للحفر. من عادة هليل القول: من يجعل من التورا استعمالاً مديناً سيموت. يستنتج من ذلك أن من يحصل على منفعة شخصية من أقوال التورا فإنه هالك لا محالة (7. 4).

- من ينفذ أوامر التورا وسط الفقر، فإنه سيقوم بها أخيراً وسط الثراء، ومن يهملها وسط الغنى سيهملها في زمن الفقر(11. 4).

- اقتصد في عملك المخصص لكسب الثروة في هذا العالم واهتم بالتورا، إذا ما أهملتها، فإن الأعذار لن تعيبك، لكن إذا درستها بحماس، سوف تكون لك مكافأة مجزية (12. 4).

- اتخذ احتياطات لدراسة التورا، لأن أي خطأ في الدراسة قد يؤدي إلى خطيئة التكبر (16. 4).

- هناك ثلاثة تيجان: تاج التورا، تاج الكهنوت، تاج الملكية، لكن التاج الناجم عن السمعة الطيبة يتغلب على الثلاثة (17. 4).

- اذهب إلى بيت التورا، ولا تقل إن التورا ستأتي خلفك، لأن رفاقك هم من يضعونك في ملكيتها، ولا تدعي بذكائك الخاص (8. 4).

يمكن تمييز أربعة طرق لارتياد بيت الدراسة. هناك من يرتاده ولا يمارس، وسيتلقى المكافأة من واقع أنه ذاهب إليه، هناك من لا يرتاده ويمارس، فإنه سيكافأ لممارسته، هناك من يرتاده ويمارس: إنه القديس، أخيراً الأحمق الذي يمتنع عن الذهاب إليه وعن الممارسة (17. 15).

في سن الخمس سنوات، نكون قد وصلنا إلى السن المطلوبة لدراسة الكتابة المقدس

(التوراة)، وفي سن العاشرة، سن مناسب لدراسة الميشنا، والخامسة عشرة لدراسة التلمود (24. 5).

قلِّب صفحات التورا عدة مرات وستجد فيها كل شيء، تأملها وأنت منكب على دراستها، لا تبتعد عنها، لا يمكنك رؤية قاعدة أفضل منها في الحياة (25. 5).

النص السادس الذي أضيف للكتاب، يعرف تحت اسم «فضل التملك للتورا» وهو عملياً ما يتعلق بموضوعنا. من يعمل في التورا بسببها ذاتها، يستحق الكثير من الأشياء، بل أكثر، العالم كله مدين له. يتلقى أسماء: الصديق، المحبوب، كذلك: من يحب الحاضر في كل مكان (الله)، ومن يحب الجنس البشري، تُلبسه التورا اللطافة والاحترام، وتجعله منصفاً صالحاً، نقياً، مستقيماً، مؤمناً، بعيداً عن الخطيئة وتقربه من الفضيلة. يتلقى العالم بها النصائح بكل سرور، ومعرفة علمية وذكاء وقوة كما قيل: (لي المشورة والحول. أنا الفطنة. لي الجبروت) (الأمثال 8، 14). كما تعطيه التورا السلطان والسيطرة، الحكم الثاقب، توحي إليه أسرار التورا، يصبح شبيهاً بنبع لا ينضب، بنهر يجري دون أن يفقد قوته أو جزءاً من مائه. يصبح متواضعاً، صبوراً، يغفر الإهانات، تشجعه التورا، وتمجده فوق كل شيء (1. 6).

يخرج من جبل سيناء «بات كول» يومياً، ينادي بتعاسة الجنس البشري بسبب ازدرائه بالتورا لأن أي إنسان لا يعمل بالتورا يعلن عن تعرضه للخطر الإلهي. قيل أيضاً: (اللوحان هما صنعة الله والكتابة هي كتابة الله منقوشة على اللوحين) (خروج 32، 16)، لا تقرأوا: خاروت (منحوت) بل خيروت (حرية) لأنه ما من رجل إلا من يعمل في التورا أي واحد يعمل هكذا اعلموا أنه ممجد كما قيل (من المتانة إلى نحليئيل ومن نحليئيل إلى باموت) أعداد (21، 19). (متانو: معناها حاضر)، نحليئيل: ميراث الله - باموت/ أمكنة مرتفعة).

- هوذا الطريق الواجب سلوكه لدراسة التورا: ستأكل قطعة الخبز مع الملح، ستشرب الماء باعتدال، ستنام على الأرض وتسلك حياة العذاب طوال مدة دراستك التورا. (إذا فعلت هكذا فتكون غنياً) (ps. 128.2)، سعيداً في هذا العالم، وغنياً في العالم الآخر (664).

- التورا: أعلى من الكهنوت ومن الملكية، والملكية تتطلب ثلاثين ميزة، والكهنوت أربعاً وعشرين، بينما الحصول على التورا يتطلب الأمر ثماني وأربعين صفة، يحب

الدراسة الواضحة التي يدركها العقل، اللفظ المميز، الذكاء، بصيرة القلب، الخوف الموقر، الإجلال، التواضع، الاغتباط، خدمة الحكماء، الهدوء، معرفة الكتاب المقدس (التوراة) و(الميشنا)، الاعتدال في الأعمال، ممارسة التجارة مع العالم، النوم، المحادثة، الضحك، الصبر، القلب الطيب، يثق بالحكمة، يتحمل القصاص بخضوع وتواضع، معرفة مكان كل واحد، يفرح بقسمته الخاصة. يحيط كلامه بسياج، لا يطلب لنفسه استحقاقاً أو فضلاً، أن يكون محبوباً، يحب الحاضر في كل مكان (الله)، يحب البشرية، يحب السير العادل للأشياء، الاستقامة، التأنيب، البقاء بعيداً عن الأمجاد، عدم التبجح بالمعرفة. عدم التلذذ بالبت في المسائل، أن يتحمل نير قريبه، أن يحكم عليه برضى، أن يقوده للحقيقة والسلام. أن يكون جدياً في دراسته، يسأل ويجيب، أن يصغي ويوجه الملاحظات الإضافية (العائدة لأفكاره الخاصة)، معرفة ما يجب علمه ومن ثم ممارسته، أن يتخذ له حكيماً معلماً، أن يركز انتباهه على كلامه، ويتلو النصوص تحت اسم مؤلفيها (6. 6).

كبيرة وعظيمة التورا، التي تمنح الحياة لمن يمارسها في هذا العالم والعالم الآخر (7. 6).

كان الحاخام «يشوع بن قسمة» يقول: سأسلك طريقي ذات يوم، عندما سأقابل رجلاً يلقي علي السلام. سأجيبه بدوري، يقول لي يا معلم من أين أنت؟ فأجيبه أنا قادم من مدينة كبيرة للحكماء والكتبة.

ـ إذا أردت أن تستقر معنا في مسكننا، فإني سأمنحك مليون دينار من الذهب إضافة إلى الأحجار الكريمة واللؤلؤ.

ـ قلت له: لو منحتني كل الذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة في العالم فلن أستقر في مكان إلا في بيت التورا، هذا ما كتب في المزامير بيد داود ملك إسرائيل: [**خير لي شريعة فمك من ألوف ذهب وفضة**] (مزمور 118، 72). ليس هذا فقط، بل في الساعة التي يفارق فيها الإنسان هذا العالم، لا الذهب ولا الفضة، ولا الأحجار الكريمة، ولا اللؤلؤ يتبعونه، التورا وحدها والأفعال الحسنة هي التي ترافقه (9. 6).

القدوس الواحد (الممجد!) جعل خمسة أشياء أملاكه الخاصة في العالم هي: التورا، السماء والأرض، إبراهيم، إسرائيل، الهيكل. كيف نعرف أن هذا مقترن بالتورا؟ لأنه مكتوب: (الرب حازني في أول طريقه قبل ما عمله منذُ البدء) (الأمثال 8،22).

هذه الشهادات المجموعة في كتاب واحد، تظهر بوضوح المكان المميز الذي كانت تحتله التورا في حياة اليهودي من العصر التلمودي، لم تكن التورا الأساس الذي بنيت عليه هذه الحياة، بل اعتبرت أساساً للنظام الكوني بكامله. بدونها لن تكون هناك سوى فوضى أخلاقية، لذلك يجب أن تبقى التورا موجودة منذ الأزل، قبل خلق العالم. إذا لم يكن ذلك بسبب التورا، فلماذا استمرت السماء والأرض بالبقاء، كما قيل: (هكذا قال الرب إن كنت لم أتخذ عهداً مع النهار والليل ولم أجعل رسوماً للسموات والأرض) (إرميا 33، 25). سبب آخر لأسبقية التورا ستجدون في طرقات الحاضر دائماً أنه يضع في المقام الأول ما هو عزيز عليه. لذلك خلق التورا قبل كل شيء، والتي هي بالنسبة له أعز من جميع أفعاله الأخرى كما قيل: (كان الرب يملكني في البدء، قبل أعماله، منذ الأزل). بحسب قول بعض الحاخامات، أن التورا سبقت الخلق بألفي عام (تكوين (R. 8 .2). والآخرون قدموا تقديراً مختلفاً: «تسعمائة وأربعة وسبعين جيلاً قبل خلق العالم» كتبت التورا، ووضعت داخل القدوس الواحد (الممجد!) (A.R.N. 31). إليكم كيفية شرح نظرية تنظيم العالم المتعلق بالتورا: «وضع القدوس الواحد (الممجد!) في عمليات الخلق الشرط التالي: إذا قبلت إسرائيل التورا، فإنكم ستبقون، وإذا لم تقبلها فأعيدكم إلى حالة الفوضى» (shah. 88 .0). فيما يخص الكائن البشري فإنه لا يمكنه أن يسلك حياة سلمية وأخلاقية إلا في جو التورا. يُستنتج ذلك من النص التالي: (وتعامل البشر كسمك البحر كدبابات لا قائد لها) (حبقوق 14،1). «لم يقارن الإنسان بالأسماك؟ ليعلمنا أنه إذا نفذت اسماك البحر من جراء خروجها ونزولها على اليابسة، فإن البشر سيتعرضون للمصير نفسه ما أن يبتعدوا عن كلام التورا (A.Z. 3b). في حكمة مشهورة للحاخام «عقبة» يعتبر أن تلك الفكرة مطبقة بشكل خاص على شعب إسرائيل «أعلنت حكومة وما الضالة أنه لن يسمح لإسرائيل ذات يوم الاهتمام بالتورا. عندها جاء «بابوس» حاخام يهوذا إلى الحاخام «عقبة» الذي يتجمع حوله طالبو دراسة التورا. قال «بابوس»: ألا تخاف يا عقبة من الحكومة الكافرة؟ أجاب عقبة: سأروي لك حكمة: بماذا نقارن هذا الوضع؟ بكلب يمشي على شاطىء البحر. رأى مجموعة أسماك تتجمع وتنتقل معاً، سألهم: لماذا تهربون؟ ـ من الشباك التي يأتي بها بعض البشر للإمساك بنا ـ تعالوا إلى الرصيف ونجلس معاً، أنتم وأنا أقرباء، آباؤكم آبائي ـ أجابته الأسماك: هل تعلم من هو الأشد ضرراً من جميع الحيوانات؟ إنك لا تظهر ولو قليلاً من الذكاء. أنت تتكلم كأخرق.

إذا كنا نشعر بالخوف من العنصر الحيوي، فكيف يكون الحال في العنصر المميت بالنسبة لنا، ليس الأمر مختلفاً علينا، ها نحن مجتمعون لدراسة التورا حيث كتب: (بأن تحب الرب إلهك وتطيع أمره وتتشبث به لأن به حياتك وطول أيامك فتقيم في الأرض التي أقسم الرب لآبائك) (تثنية الاشتراع 30، 20).

إذا كان هذا وضعنا الحالي، فماذا سيحصل عندما نتخلى عن التورا (Ber .61.B).

يروق لنا الإلحاح باستمرار على القدرة المنعشة للتورا. (هذه هي التوراة التي وضعها موسى لبني إسرائيل) (تثنية الاشتراع 4، 44). إذا كان الإنسان جديراً بها (لإخلاصه بمبادئها) فيصبح أهلاً للحياة، وإذا لم يكن جديراً بها فتصبح بالنسبة له سماً زعافاً.

إنها ترياق لجميع الأوجاع والآلام. إذا سافر أحدهم دون رفيق، عليه الاهتمام بالتورا لأنه قيل: «اسمع يابني تأديب أبيك ولا تنبذ شريعة أمك، فإنهما إكليل نعمة لرأسك وأطواق لعنقك» (الأمثال 1، 8). إذا شعر بألم في رأسه فعليه الاهتمام بالتورا، لأنه قيل: «هي زينة لعنقك». إذا كانت أمعاؤه تؤلمه، فعليه الاهتمام بالتورا، لأنه قيل: «فتكون الصحة في عضلك والري في عظامك» (الأمثال 3، 8). إذا كانت عظامه تؤلمه فليهتم بالتورا، وإذا كان مصاباً بكامل جسمه ليهتم أيضاً بالتورا لأنه قيل: «فإنها حياة للذين يصادفونها وصحة للجسد كله» (أمثال 4، 22) (Eroub. 54.a).

التورا مرآة الروح الإلهي، كاملة على جميع الوجوه. ماذا يعني ما هو مكتوب: (من يحرس تينة يأكل من ثمرها ومن يرع سيده يمجد) (أمثال 27، 18). لماذا تقارن التورا بشجرة التين؟ في كل الثمار هناك أجزاء تعتبر نفايات: في التمر الحجارة، في العنب البذور، في الرمان القشور، لكن ثمرة التين صالحة للأكل بكاملها، كذلك كلام التورا لا يترك أي حثالة.

فيما يلي مديح للتورا وكمالها المطلق: ـ«تُشبَّه كلمات التورا بالماء، بالنبيذ، بالزيت، بالعسل، بالحليب».

(أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذين لا فضة لهم هلموا ابتاعوا وكلوا هلموا ابتاعوا بغير فضة ولا ثمن خمراً ولبناً» (إشعيا 55، 1).

إنها مثل الماء تحيط بالعالم، التورا هي حياة العالم، إنها كالماء تهبط من السماء. إنها كالماء تثلج الروح. كالماء تنظف الأشياء من القذارة، تعطره من النجس، تجعل جسمه

نظيفاً، إنها تسقط من السماء قطرة قطرة، لتشكل أنهاراً، وتعطي مفعولاً مشابهاً. يُصغي الإنسان في اليوم إلى إرشادين، وفي اليوم الثاني لإرشادين آخرين وهكذا حتى تصبح مصدراً غزيراً للمعرفة. لا يتلذذ الإنسان بالماء ما دام لا يشعر بالعطش، كذلك التورا لا تعجب الإنسان قبل أن يشعر بانجذابه إليها. يهبط الماء من الأعلى إلى الأسفل، كذلك التورا تترك النفس المتعالية المتعجرفة، وتميل نحو الرجل المتواضع، لا يحتفظ الماء بعذوبته في آنية من الذهب والفضة، بل في أوعية من الفخار، ولا تبقى التورا إلا مع البسيط والمشابه لوعاء الفخار.

الشخصية الكبيرة لا تشعر بالخجل عندما تطلب الماء من شخص أقل منزلة، لن يتردد عن القول إلى مأمور «علمني مقطعاً، آية أو حرفاً من التورا». من لا يجيد السباحة يعرض نفسه للغرق، كذلك من لا يعرف كيفية التوجه عبر كلام التورا ويتخذ الإجراءات لذلك، سوف يغرق. إذا اعترضنا قائلين مثل الماء الراكد للبحيرات يمكن لكلام التورا أن يثبت في مكانه مثل الماء في البحيرات، ولنقارن التورا بالخمر، الذي تزداد قيمته وفعله بحفظه، كذلك أقوال التورا، تختبر نفسها عندما تبقى طويلاً عند الإنسان. إذا قيل إن الماء لا يفرح القلب كذلك أقوال التورا. لنقارن التورا بالنبيذ. إنها مثله تفرح القلب. الادعاء أن النبيذ ضار للجسم والعقل، وأن كلام التورا ضار، سنقارنها بالزيت: التورا كالزيت تجلب الراحة للجسم والرأس. لكن أليس الزيت والتورا طعمهما مرٌّ في البداية وحلو فيما بعد؟ لنقارن التورا بالعسل والحليب لا أطيب ولا ألذّ من طعمها سوى كلام التورا. ستقولون إن العسل يحتوي على خلايا الشمع المقزز الطعم، كذلك أن يكون بين أقوال التورا، أقوالٌ مَغيظة؟ لنكتف بالحليب، التورا نقية مثله. يمكن أيضاً وصف الحليب وكلام التورا أنهما عديما الطعم. لنقارنها بمزيج من العسل والحليب. لن يسببا معاً أي توعك للجسم. كذلك لا تسبب أقوال التورا أي فعل ضار للإنسان.

ينتج من كمال التورا أنها لن تكون متجاوزة، وبالتالي فإن الله لا يحل مكانها أي وحي آخر. إنه مبدأ لليهودية. يستنتج من النص التالي: [**إن هذه الوصية التي أنا آمرك بها اليوم ليست فوق طاقتك ولا بعيدة منك. لا هي في السماء فتقول من يصعد لنا إلى السماء فيتناولها ويسمعنا إياها فنعمل بها**] (تثنية الاشتراع 30،11، 12). هذا هو التفسير: كي لا نستطيع الادعاء أن نبياً آخر اسمه موسى سيأتي إلينا من السماء بتورا

أخرى لقد سبق أن أعلمتكم أنها ليست في السماء، أي لم يبق منها شيء في السماء •

3 ـ دراسة التورا

بما انه يجب على التورا أن تصبح القاعدة والمرشد لجميع نواحي الحياة، فمن الطبيعي أن تكون معرفتها في المقام الأول، كي تتمكن من ممارسة تأثير هذا النوع. تشكل دراستها الواجب الرئيسي لليهودي، فقد كانت هذه الدراسة بمثابة الغرض الديني الرئيسي. وهي تشكل جزءاً من خدمة الله. يقول الرب: [**فإن سمعتم لوصاياي التي أنا آمركم بها اليوم فأجبتم الرب إلهكم وعبدتموه بكل قلوبكم وبكل نفوسكم**] (تثنية الاشتراع 1، 13) هكذا تشير عبادته إلى دراسة التورا.

لم ييأس الحاخامات من إلقاء الخطب حول الواجب المحتم على كل واحد أن يخلص لهذه الدراسة، وستتمكن النصوص التالية من تلخيص عدد كبير منها واستخراجها بسهولة من التلمود. من جملتها الأشياء التي تُحفظ في زاوية من الحقل، [**إذا حصدتم أرضكم فلا تستقص إلى أطراف حقلك في حصادك ونثار حصيدك فلا تلقطه للمسكين والغريب تتركه أنا الرب إلهكم**] (أحبار 23، 22)، بواكير الثمار (وأوائل بواكير أرضك تحملها إلى بيت الرب إلهك) (خروج 23، 19). التقدمة للأعياد الثلاثة (ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذُكرانك أمام الرب إلهك في الموضع الذي يختاره في عيد الفطير وفي عيد الأسابيع وفي عيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين) (تثنية الاشتراع 16، 16) ممارسة الإحسان ودراسة التورا. هذه هي الأشياء التي تجمع ثمارها بفرح في هذا العالم، بينما جوهرها يبقى للعالم الآخر. التكريم الواجب تقديمه للأهل، الإحسان، السلام القائم بين الإنسان وقريبه، ودراسة التورا التي تساوي كل الآخرين.

إن تفوق الدراسة على ما تبقى، يأتي من واقع أن معرفة الله يجب أن تسبق تطبيقها لهذا يجب عدم إيقاف هذه الدراسة تحت أي ذريعة، في فترة اضطهاد آدريان عندما منع اليهود من ممارسة شعائرهم الدينية أو دراسة التورا. أقيمت محاضرة في اللّد حيث

نوقشت خلالها مسألة أهمية الدراسة والممارسة. يقول الحاخام «طرفون»: الممارسة العملية هي الأسمى ـ بينما أعطى الحاخام عقبة الأولوية للدراسة، وقد شاركه بعض الحاخامات فكرته وأعلنوا عن تفوق الدراسة لأنها تؤدي للممارسة العملية. نستنتج ذلك من هذا النص: لكي تتعلمها وتلتزم بممارستها **(واستدعى موسى جميع إسرائيل وقال لهم اسمع يا إسرائيل الرسوم والأحكام التي أتلوها على مسامعكم اليوم وتعلّموها واحرصوا أن تعملوا بها)** (تثنية الاشتراع 5،1).

«إن دراسة التورا أهم من إعادة بناء الهيكل». هكذا يعبر الأستاذ، صياغة أخرى لهذه المعادلة (الإرشاد) يجب ألا ينسحب أحد من بيت الدراسة، ويبتعد عن كلام التورا، حتى ولو في ساعة الموت، كيف تشغل هذه الدراسة كل شيء؟ نلمس ذلك في السؤال والجواب التالي: سأل الحاخام: بما أنني حفظت التورا كلها، هل أستطيع الآن دراسة الفلسفة اليونانية؟ كان الجواب: **[يجب أن لا يبتعد كتاب التورا عن فمك، ستتأمله نهاراً وليلاً (لايبرح سفر هذه التوراة من فيك بل تأمل فيه نهاراً وليلاً لتحفظه وتعمل بكل المكتوب فيه فإنك حينئذ تقوم طرقك وحينئذ تفلح)]** (يشوع 1، 8). وتضاف هذه الملاحظة: ابحث عن وقت لا يكون فيه ليل ولا نهار، وخصص تلك الساعة لدراسة الفلسفة اليونانية.

هذا برهان قوي على عدم قبول أي عذر متعلق بدراسة التورا. فقير، وغني، وأحمق مثلوا أمام المحكمة السماوية. سئل الفقير: لماذا تهتم بالتورا؟ إذا أجاب أنه كان ممنوعاً عن ذلك لبؤسه وقلقه الدائم لتأمين قوته اليومي، سيقال له: هل كنت أشد فقراً من هيليل؟ يروى أن هيليل القديم كان يكسب من عمله اليومي أقل من نصف «ديناريوس» وكان يعطي نصف أوبول (قطعة نقود يونانية قديمة) إلى حاجب بيت الدراسة كي يُقبل فيه، ويعيش مع عائلته في النصف الآخر. حصل أنه ظل عاطلاً عن العمل دون أي راتب، عندها منعه الحاجب من دخول بيت الدراسة، تسلق الحافة الخارجية للنافذة وجلس عليها ليتمكن من سماع كلام الله الحي وشروحات «شيمايا» و«أبتاليون». حصل هذا الفعل عشية السبت ووسط طقس بارد من أيام الشتاء، والثلج يتساقط بغزارة. عند بزوغ النهار قال سيمايا لأبتاليون: أيها الزميل، العادة أننا كنا نرى جيداً داخل الغرفة في مثل هذا الوقت، أما اليوم فهناك ظلمة، فهل من غيوم في السماء؟ نظر باتجاه النافذة، فشاهدوا جسماً بشرياً، توجها خارجاً، فوجدا هيليل مغطى

بسماكة ثلاثة أذرع بالثلج. أنزلاه عن حافة النافذة ونظفا جسمه وأجلساه قرب النار وقالا: «هذا الرجل يحق له انتهاك حرمة السبت» سئل الغني: لماذا لا تهتم بالتورا؟ إذا أجاب أنه كان غنياً ومشغولاً بالاهتمام بأمواله، فسيقال له: هل كنت أغنى من «أليعازر بن خرصوم» الذي يقال إن والده أورثه ألف مدينة وأسطولاً من ألف مركب» لكنه كان كل يوم يحمل كيساً من الطحين على كتفه، وينتقل به من مدينة لأخرى ومن منطقة لأخرى ليعلم التورا. حصل ذات مرة أن خدمه (الذين لا يعرفونه) احتجزوه لعمل شاق. قال لهم: أتوسل إليكم دعوني أذهب لدراسة التورا، أجابوا: قسماً بحياة الحاخام أليعازر بن خرصوم لن نلبي طلبك أبداً.

هكذا رغم أن هؤلاء الناس كانوا في خدمته ولم يروه أبداً، فقد كان مكرساً أيامه ولياليه لدراسة التورا. طرح السؤال نفسه على الأحمق: لماذا لا تهتم بدراسة التورا؟ إذا أجاب أنه كان شاباً وسيماً جميلاً، معذباً بأهوائه، فيقال له: هل كنت أكثر جمالاً من يوسف؟ يروى عن هذا الصالح العادل أن زوجة فوطيفار كانت تغريه يومياً، تتزين له صباحاً ومساءً تهدده بالسجن، بالعذاب وتشويه الجسد، بفقء عينيه، تحاول رشوته بمنحه مبالغ كبيرة من المال، ولم يستسلم. النتيجة يدين هيليل الفقير، ويدين أليعازر بن خرصوم الغني، ويوسف يدين الأحمق.

إذا كانت دراسة التورا تتطلب استنفاد الوقت والطاقة عند كل إنسان، فكيف يجب الاستجابة إذن لضرورات كسب العيش اليومي؟ الجواب على هذا السؤال، نجده في الحوار المفتوح حول النص التالي:

[**آتيت أرضكم مطرها في أوانه وسيماً وولياً فتجمع بُرَّك وخمرك وزيتك**] (ثنية الاشتراع 11، 14) تجمع برك أي قمحك: ماذا يعلمنا هذا؟ بما أنه مكتوب: [**لا يبرَحْ سفر هذه التوراة من فيك بل تأمل فيه نهاراً وليلاً لتحفظه وتعمل بكل المكتوب فيه فإنك حينئذ تُقوِّم طرقك وحينئذ تفلح**] (يشوع 1، 8).

من الضروري سماع هذه الكلمات: «لا يبرح سفر هذه التورا فيك» أي يجب أن تتعلمه دائماً وفي الوقت نفسه تكمل عملك الدنيوي هذا ما قاله الحاخام إسماعيل. كان الحاخام «شمعون بن جوخاي» يقول: ليس من المستحيل أن يحرث الإنسان ويزرع في الوقت المناسب ويحصد وينقل المحصول إلى البيادر في الوقت المحدد أيضاً ويقوم بفصل القمح عن التبن بعملية التذرية، فهل يجد الوقت للاهتمام بالتورا؟ الواقع

أنه عندما أتمت إسرائيل إرادة الحاضر في كل مكان (الله) كان عملها المادي ينجزه أشخاص آخرون كما قيل: [**ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغربة حرَّاثكم وكرَّامكم**] (إشعيا 61،5) وعندما لم تنفذ إسرائيل وصية الحاضر في كل مكان (الله) عليها أن تقوم هي بهذا العمل كما قيل: [**ستجني قمحك وعليها حتى القيام بعمل الآخرين**]، لم يكتب واستخدم أعداءك [**وتستعبد لأعدائك الذين يرسلهم الرب عليك بجوع وعطش وعري وفاقة إلى كل شيء ويضعُ نيراً من حديد على عنقك إلى أن يفنيك**] (سفر تثنية الاشتراع 28، 48) يقول أبّاي: كثيرون من يتقيدون بتعاليم الحاخام إسماعيل ويدركون مردودها وفعاليتها. لكن من يعمل كما يشير الحاخام شمعون بن جوخاي فهو ليس من هذا الرأي يقول: «راب» لتلامذته: أرجوكم لا تظهروا أمامي في أشهر نيسان (أبريل) وتشرين الأول والثاني بطريقة لم أكن فيها مرغماً على الاهتمام بحياتكم طيلة أيام السنة.

بصورة عامة، يعتبر الحاخام أن الدراسة لن تزيل الادعاء بكسب العيش وهناك حل وسط يمكن اعتباره مثالياً ويجب اتباعه، وهو تجنب النظريتين المتطرفتين: هكذا قيل: تعالوا وانظروا كيف تختلف الأجيال الأخيرة عن القديمة. هذه أي القديمة تجعل من التورا شغلها الشاغل الأساسي، وأن علمها لم يكن سوى صدفة، كل شيء يزدهر بين أيديهم. وبالعكس فإن الأجيال الأخيرة انصرفت لعملها فقط، ولم تهتم إلا عرضياً بالتورا، ولا شيء يزدهر بين أيديها. غير أن حاخاماً من القرن الثاني كان يبشر بنظرية أخرى، فيقول: «أودع جانباً أي عمل دنيوي، ولا أعلِّم ابني سوى التورا، التي تُستهلَك ثمارها في هذا العالم، بينهما الرئيس يبقى للعالم الآتي. شيء آخر يؤدي إليه الانشغال الدنيوي. عندما يمرض إنسان ما، يهرم، يتألم، يصبح غير قادر على العمل، يموت جوعاً. أما بالنسبة للتورا فإنها تحفظ الإنسان من كل سوء في شبابه وعندما يهرم، وتضمن له مصيراً مملوءاً بالأمل.

كثيرون الذين اتبعوا طريق هذا الحاخام، وأهملوا حياتهم ليكسبوا معارف التورا. من هنا جاء حث المؤمنين على الظهور بمظهر الكرماء باستضافة التلاميذ. هذا الواجب جاء استنتاجاً من عدة تصورات توراتية. إليكم المثال: «بارك الرب عبده آدم وجميع أهل بيته لعرش الله». ألا يمكن التعليل هنا إذا كان العرش لا يأكل ولا يشرب بل عبد آدم من يكنس ويسقي فاستحق البركة، فكم سيكون مباركاً من يقبل تلميذاً من

تلامذته العقلاء، ويقدم له المآكل والمشرب ويسمح له بالاستفادة مما يملكه (ber. 63b) كان معتبراً مقدراً من الغني، بأن زوج الحاخام غيزي ابنته لتلميذ التورا، مما جعله بمنأى عن أي هم مادي يسمح له بالانصراف لكسب المعرفة.

يجب تفعيل واجب التثقيف حتى في إدارة أعمال الجماعة. عندما ينصرف من يدرس التورا إلى التسلية فإنها تبعده عن دراسته. ومن يهتم بحاجات الجماعة يعرض نفسه لنسيان ما كان قد تعلمه. وقد قيل: يبكي القدوس الواحد (الممجد!) يومياً على ثلاث فئات من الناس، من لديه الإمكان للاهتمام بالتورا لكنه يمتنع عن ذلك، ومن يملك القدرة الذهنية المطلوبة لتلك الدراسة لكنه يخاصمها، أخيراً على رئيس يحكم الجماعة بسلطة قوية.

يشير آبوت في كتابه، إلى أن التورا يجب أن تكون هدفاً للدراسات التي بدأها ليعلي بها نفسه. يؤكد أن الدراسة تتطلب (المتابعة لذاتها) (ليشما) الأسباب واضحة ومترفعة: ماذا تعني هذه الكلمات؟ [**تفتح فاها بالحكمة وفي لسانها سنة الرأفة**] (أمثال 31، 26)، فهل هناك قانون صلاح وآخر مضاد؟

القانون المدروس بالنسبة لها هو قانون صلاح ورحمة، والمدروس في عقلية أخرى ليس بقانون صلاح. إذا درس أحدهم التورا للتورا، فإنها تمنحه أداة إطالة الحياة. وإذا لم يدرسها لذاتها، فإنها ستنقلب ضده إلى سم قاتل. أوضح ذلك أيضاً التعليم المبني على هذا النص [**بأن تحب الرب إلهك وتطيع أمره وتتشبث به لأن به حياتك وطول أيامك**] (تثنية الاشتراع 30، 20). لا أحد يقول: أريد دراسة الكتاب المقدس (التوراة) لكي ينادوني حكيماً، أريد أن أتعلم لأصبح أستاذاً في الأكاديمية. أدرس بحب، وسيأتي الشرف في النهاية بمحض الإرادة.

بما أنه كان ينصح بالكمال، فإن المبدأ المقبول بشكل عام اتركوا الإنسان يعكف على دارسة التورا حتى لو لم يكن من أجلها، لأنه إذا بدأ بنوايا أخرى، فإنه سيتوصل إلى دراستها لنفسها وليس لأي شيء آخر. لقد عبر عن هذه الفكرة أحد الحاخامات الذي كان يصلي يومياً بهذه العبارات: مُكرَّمٌ، أيها السيد إلهنا، جعل السلام يستقر في المقام السماوي هنا فوق. وعلى الأرض ومن بين الذين يدرسون التورا، أن يخلصوا لها أولاً من أجلها تفضل واجعل الذين لا يكرسون أنفسهم للتورا لذاتها أن يتوصلوا لفعل ذلك ولذاتها.

مهما كان الاستحقاق المكتسب من قبل من يُمضي حياته لكسب معرفة التورا كبيراً، فستكون قيمة نشر المعرفة بالتعليم أكبر بكثير. بماذا يشبه الأستاذ؟ بقارورة صغيرة تحوي على مرهم يفوح منه العطر عندما نرفع سدادتها يفوح العطر، وعندما نغلقها تختفي رائحته. أي إنسان يتعلم التورا ولا يعلّمها فهو أشبه بشهيد في صحراء. من يعلم التورا إلى جار قريب أو ابن، يعتبره الله كما لو خلق تلميذاً.. الآية التي تقول: [**وكررها على بنيك وكلمهم بها إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وإذا قمت**] (تثنية الاشتراع 6، 7) مطبقة على التلاميذ المساوين لأطفال معلمهم (سيفري تثنية الاشتراع 34، 47).

إليكم رواية توضح دور الأستاذ: وصل «راب» إلى مكان حيث صام بسبب الجفاف الذي كان سائداً هناك، سمع مرتل الرهبانية يتلو الصلاة، وعندما لفظ هذه الكلمات: أمر الريح أن تهب، وفي الحال هبت الريح، وعندما قال: «ليسقط المطر» انهمر المطر في الحال. طلب «راب» من المرتل: ما هو استحقاقك الاستثنائي؟ أجاب: أنا أستاذ ابتدائي، أعلم الأطفال الفقراء مثلما أعلم الأطفال الأغنياء. إذا لم يتمكن أحدهم من دفع الأجور، فإنني أعفيه منها. لدي حوض للسمك، عندما أرى أحد التلاميذ مهملاً في دراسته، أجعله يكسب، ببيع بعض السمك من الحوض، وبهذه الطريقة يثابر على الدراسة بانتظام.

ورغم القيمة العليا المعترف بها للدراسة والتعلم، فعلى الذين شرعوا بهذا العمل الكبير، أن لا يأخذوا أجراً وإكباراً. فهم بنظر الله ليسوا سوى كادحين كسائر الناس الذين يقومون بالأعمال اليدوية.

حكم جميل للحاخامات في مدرسة «يابني» أنا مخلوق من الله وكذلك جاري، أعمل في المدينة ويعمل في الحقول، أذهب باكراً إلى عملي وهو إلى عمله. لا أستطيع الإبداع في عملي كما هو في عمله، قد تقولون إنني أقوم بأعمال صغيرة، هو أيضاً يقوم بأعمال صغيرة مثلي، لقد تعلمنا أنه ليس من المهم إن كان ما نعمله صغيراً أو كبيراً شرط أن يوجه قلبه نحو السماء.

ما يهم فوق كل شيء، هو هذا الإصرار على واقع أن دراسة التورا لا تشكل غاية بحد ذاتها. المعرفة التي اكتسبت بهذه الطريقة تقدم ما يساعد كل إنسان على سلوك حياة مستقيمة «كلام التورا ينير طريق الإنسان عندما يدرسه، وأي إنسان يجهله ولا

يهتم به يتعثر في الحياة».

كان أحدهم يقف في الظلمة، عندما أراد السير اصطدم بحجر وتعثر به، ثم صادف حفرة فسقط فيها، واصطدم وجهه بالأرض. لماذا حصل له كل هذا؟ لأنه لم يكن يحمل فانوساً. هذه هي حالة الجاهل الذي لم يتسلح بتعاليم التورا. تصادفه الانتهاكات يسقط ويموت. هذا لأنه لا يعرف التورا. شرع بارتكاب الخطيئة، كما قيل: [**وطريق المنافقين كالديجور فلا يعلمون بأي شيء يتعثرون؟**] (الأمثال 4 ،19). ومقابل هؤلاء الذين يدمنون التورا، هم دائماً في النور. إنسان يقف في الظلمة لكنه يملك فانوساً، يرى الحجر ولا يصطدم به، هكذا قيل.

4 ـ التورا المكتوبة

يتضمن الوحي المحفوظ كتابياً أربعة وعشرين كتاباً (بينما يقول يشوع 22 كتاباً، مجموعة ومرتبة حسب الترقيم التلمودي) ذكر هذا التعداد في النصوص أمثال: عندما تمتلك خطيبة أربعاً وعشرين زينة، إذا ما نسيت واحدة، فالزينة تفقد قيمتها، كذلك تلميذ العقلاء، مرغم على القبول بأربعة وعشرين كتاباً التي تشكل مجموعها التوراة، إذا ما نقص واحد منها فإن الكل لم يعد يساوي شيئاً. كان لأحد الحاخامات عادة تلاوة دروسه أربعاً وعشرين مرة، طبقاً لعدد كتب البنتاتوك (الكتب الخمسة الأولى للتوراة) والأنبياء، والكتبة، قبل أن يدخل إلى معلمه (Taan. 8,a)

يطلق هذا التنويه الأخير على الفصول الثلاثة الموجودة في التوراة العبرانية: البنتاتوك (المذكور غالباً تحت اسم التورا)، الأنبياء، الكتبة. الإسنادات إلى الفصول الثانية والثالثة يجمعها أحياناً عنوان (كابّالا) (التقليد).

يتضمن البنتاتوك (التورا) خمسة كتب: جاءت هذه التسمية استناداً إلى أن شرح هذا العدد وهو ظهور الكلمة «نور» خمس مرات في سفر التكوين (قال الله ليكن نور فكان نور)، (ورأى النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلام) (وسمى الله النور نهاراً) (تكوين). يقول الله فليكن النور أنه التكوين عندما عمل القدوس الواحد

(الممجد!) على خلق الكون. وكان النور. هذا ينطبق على الخروج، حيث انتشلت إسرائيل من الظلمات إلى النور: «رأى الله النور أنه حسن». هذا يشير إلى التشريع المملوء بعدد كبير من القوانين.

لقد فصل الله النور عن الظلمات، هذه سمة سفر الأعداد، نرى فيه الله يفرِّق بين أولئك الخارجين من مصر، والذين أعدهم للدخول إلى أرض الميعاد. وأطلق الله على النور اسم النهار، وهذا يتطابق مع سفر تثنية الاشتراع المليء بأعداد كبيرة من القوانين ويقال في مكان آخر إن الكتب الخمسة تستجيب لأصابع اليد الخمسة.

وكما أشرنا إليه سابقاً، فإن كتب موسى الخمسة تعتبر المصدر الأساسي للوحي، حيث استقى منه الأنبياء الذين أتوا بعده. بموجب التقليد، فإن التورا (أي أسفار موسى الخمسة) كانت قد أعطيت في البداية على شكل لفائف منفصلة. ومن ثم جمعت في كتاب موحد دون إخلال أو إنجاز في النص.

فيما يتعلق بالأسفار التي يصنفها التقليد فهي: يشوع، القضاه، صموئيل، الملوك، إرميا، حزقيال، إشعيا والأثني عشر نبياً (أنبياء صغار) من بين الاثني عشر[1] هوشع الذي سبق الآخرين من حيث الزمن كما هو مكتوب: (بداية كلام الرب بلسان هوشع. قال الرب لهوشع انطلق فاتخذ لك امرأة زنى وأولاد زنى فإن الأرض تزني زنى عن الرب) هوشع (1، 2)، وهذا يعني أنه كان الأول زمنياً بين الأنبياء الآخرين.

لكن بداية كلام الرب، هل جاء حقاً من نبوءة هوشع؟ ألم يكن هناك أنبياء سبقوه ومنهم موسى وبنوه؟ هذا ما يقوله الحاخام جوخانان «وهو يعني أن هوشع كان أول الأنبياء الأربعة الذين بشروا في تلك الحقبة وهم: هوشع، إشعيا، عاموس، ميخا. في هذه الحال يأتي هوشع قبل إرميا. نكن بما أن نبوءته كتبت في نفس الزمن الذي كتبت فيه نبوءة «حجاي» وزكريا، وملاخي، فإن الأنبياء الآخرين أضيفوا إلى مجموعة الاثني عشر لنعتبره كما لو أنه كون لنفسه كتاباً، ووضعناه في المقام الأول. وقد سبب اتساعه الضعيف إهماله. أما إشعيا الذي بشر بالنبوءة قبل إرميا وحزقيال فيجب أن يسبق كتابه كتبهم؟ مع ذلك انتهى كتاب الملوك بتهديم الهيكل، الذي يعالجه كتابا إرميا وحزقيال،

(1) دعيت المجموعة بالأنبياء الصغار دلالة على إنجاز الأسفار وليس على قيمة دون قيمة الأنبياء الأربعين الكبار. إن جمعهم على هذا النحو قديم جداً وقد وردت أسماؤهم في سفر يشوع بن سيراخ.

لينتهيا برسالة مأساوية التي هي موضوع كتاب إشعيا بكامله، جامعين تدميراً إلى تدمير ومواساة إلى مواساة.

إن نظام ظهور الكتب المكملة لمجموعة في القرن الثالث، الكتبة وما يلي: راعوت، مزامير، أيوب، الأمثال، الجامعة، نشيد الإنشاد، دانيال، أستير، عزرا، والحوليات[1] يلاحظ أن هذه القائمة لا تحوي كتاب نحميا. كان قد أضيف إلى كتاب عزرا في مجموعة وحيدة. وهذا هو السبب الذي من أجله منع عنه شرف وجود اسمه في القانون المختص بالكتاب المقدس: كان ذلك لأن نحيميا حلم بتراثه الشخصي ألم يقل: [**فاذكرني اللهم بالخير علي جميع ما صنعته إلى هؤلاء الشعب**] (نحميا 5، 19). سبب آخر أنه أطلق كلاماً مزدرياً بحق أسلافه (من سبقوه) فيقول: [**وأما القواد الأولون الذين كانوا قبلي فنقّلوا على الشعب وكانوا يأخذون منهم من الخبز والخمر والفضة مايزيد على أربعين مثقالاً من الفضة ـ بل غلمانهم أيضاً كانوا يظلمون الشعب. أما أنا فلم افعل مثل ذلك خشيةً لله**] (نحميا 5، 15).

إليكم أسماء المؤلفين الذين تنسب إليهم الكتب المقدسة: كتب موسى كتابه، الرواية المتعلقة ببلعام، وأيوب، يشوع كتب كتابه والآيات الثماني الأخيرة من سفر تثنية الاشتراع (موت موسى). صموئيل كتب التقاة، وسفر راعوت، وداود كتب المزامير بالتعاون مع عشرة من القدماء وهم: آدم (المزمور 139)، ملك صادق (المزمور 110)، إبراهيم (المزمور 89)، موسى، هامان (مزمور 88)، يدوتون (مزمور 39، 62)، عساف (مزمور 73، 83)، وأبناء «كوري» الثلاثة (مزمور من 42، 49)، ألف إرميا في كتاب، الملوك والموائي، كتب حزقيال وشركاؤه، كتب إشعيا، الحكمة، ونشيد الإنشاد، وسفر الجامعة، كتب رجال الكنيس الصغير حزقيال، الاثني عشر، دانيال، استير كتب عزرا، حوليات الأنساب ولم بنته منه أنهى نحميا الحوليات.

التقليد غير أكيد فيما يخص قانون الكتاب المقدس، يروي في أحد المرات ما يلي: في البداية، رفضت أسفار الأمثال، نشيد الأناشيد، سفر الجامعة، لأنها تحتوي على أمثال لا تخص التوراة، بقيت مبعدة هكذا إلى أن جاء الكنيس الكبير، الذين شرحوها في معنى روحي. حسب هذه النظرية فقد وضع هذا القانون على أبعد

(1) الترتيب العبري مختلف وهو كما يلي: المزامير، الأمثال، أيوب، نشيد الإنشاد، راعوت، المرائي، الجامعة، أستير، دانيال، عزرا، نحوم/ حوليات.

تقدير خلال القرن الثالث الميلادي. ومن الواضح أنه خلال فترة خمسة قرون اخرى، فقد ظلت منزلة بعض الكتب ضمن المجموعة المقدسة، موضع جدل.

يظهر النص التالي الشك المتعلق ببعض الكتب التي كانت موجودة في نهاية القرن الأول الميلادي:

«جميع الكتب المقدسة تدنس الأيدي»، يقول الحاخام يهوذا: يدنس نشيد الأناشيد الأيدي، هناك شك بالنسبة لسفر الجامعة. قال الحاخام يوشع: سفر الجامعة لا يلوث الأيدي، أما نشيد الأناشيد فالأمر مشكوك فيه. قال الحاخام شمعون: «يعد سفر الجامعة من أهم قرارات مدرسة «شاماي» وواحداً من المواقف الصارمة لمدرسة هيليل»: يقول الحاخام سيمون بن عزاي: أمتلك تقليداً الأكثر من اثنين وسبعين قديماً من الذين وضعهم أليعازر بن عازاريا على رأس المجمع الديني. إن نشيد الأناشيد وسفر الجامعة يدنسان الأيدي. يقول الحاخام عقبة: ما الخوف؟ لم يدعم أي واحد في إسرائيل استبعاد نشيد الأناشيد لأن العالم كله لم يكن جديراً منذ أن أعطيَ هذا الكتاب لإسرائيل. التوراة مقدسة، لكن نشيد الأناشيد مقدس أيضاً بكامله. إذا وجد هناك بعض الشك، فيكون بخصوص سفر الجامعة (yad. 3. 5).

رأي الحاخام عقبة حول القانونية الصحيحة لنشيد الأناشيد، ليست مؤكدة لدى فحص التلمود.

يعثر فيه مثلاً على التالي: يعتبر الحاخام مئير أن سفر الجامعة لا يدنس الأيدي، وأن نشيد الأناشيد يشكل موضوع جدل. يقول الحاخام يوشع: بالنسبة لسفر الجامعة هناك شك فيما يخص نشيد الأناشيد، فهو لا يدنس الأيدي. الأمر يتعلق بتحديد ما إذا كانت هذه مستوحاة إلهيّاً أو ذات تركيب مدنس. وبصورة أدق، فيما يتعلق بنشيد الأناشيد، يتساءل فيما إذا كان نوعاً من الغزل البشري، أو رموزاً للعلاقات بين الله وإسرائيل. ظلت وجهة النظر الأخيرة مهيمنة وأدت إلى القول بأن «نشيد الأناشيد يدنس الأيدي، وأن الروح القدس هو من نطق به» سفر الجامعة لايدنسها، لأنه يعبر عن حكمة سليمان.

تأتي الصعوبة المتعلقة بسفر الجامعة، من تناقضاته الظاهرية. كان الحكماء يسعون لاستبعاد سفر الجامعة لتناقض تأكيداته. لماذا احتفظوا به؟ لأنه يبدأ وينتهي بكلمات من التورا. يبدأ بالقول هكذا: [**أي فائدة للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت**

الشمس] (جامعة 3. 1). هذا معناه حسب مدرسة الحاخام «جاناي» أن الإنسان لا يحصل على أي منفعة مما هو تحت الشمس، لكنه يستخدم منفعة ما هو موجود قبل الشمس، أسميتها التورا. فيما يخص نهاية الكتاب، الخاتمة التي جاء فيها ما يلي: **[فلنسمع ختام الكلام كلَّه. اتق الله واحفظ وصاياه، فإن هذا هو الإنسان كله]** (جامعة 13. 12). ماذا تعني الكلمات الأخيرة؟ إن العالم كله خلق لهذا فقط، لأجل التورا.

ظلت قانونية نسخ الكتب المقدسة غير مؤكدة لبعض الوقت. كانوا يبحثون أيضاً استبعاد كتاب الأمثال، لأن تأكيداته متناقضة. لماذا حافظوا عليه إذن؟ يقولون: ألم ندرس سفر الجامعة واكتشفنا أسباب عدم استبعاده؟ لنقم هنا ببحث دقيق، كيف يبدو هذا الكتاب متناقضاً؟ جاء في النص السادس والعشرين الآية الرابعة: (لا تجادل الجاهل بحسب سفهه لئلا تكون أنت نظيره) وفي الآية التالية يقول: (أجب الجاهل بحسب سفهه لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه)، حسن لا يوجد تناقض: واحدة من هذه الآيات تستند إلى أقوال التورا، والاخرى تعالج مواضيع مدنسة. إليكم القرار النهائي الدقيق:

«حل الروح القدس على سليمان وألف ثلاثة كتب: كتاب الأمثال، نشيد الأناشيد، سفر الجامعة». أثار كتاب أستير شكوكاً أخرى: ألم يكن ذلك الكتاب ملحقاً غير مضمون أُضيف للكتاب المقدس؟ نهائياً، إننا لا نعرف فيما إذا كتب بوحي من الروح القدس. نلاحظ أن بعض الحاخامات لم يعتبروا كتاب «أيوب» كرواية تاريخية، سنجد هذا في التصريح التالي. كتاب أيوب غير موجود بتاتاً، هذا الكتاب أشبه برمز.

جرى نقاش أيضاً حول قانونية حزقيال. كانت لتلك الاعتراضات قاعدتان: في المقام الأول، العديد من مقاطع هذا الكتاب، خاصة شعائر الهيكل، تُظهر اختلافات من حيث المظهر مع أسفار العهد الخمسة (التورا)، لكنه أمكن التوصل إلى إعادة التناسق. «احتفظ بذكرى طيبة عن الحاخام» خنانيا بن حزقيا (هذا الحاخام عاش بين السنة الأولى والسنة الخمسين ميلادية)، لأنه لولاه لا ستُبعد كتاب حزقيال كمناقض للتورا. ماذا جرى؟ أحضروا إليه ثلاثمائة مقياس للزيت (ليتمكن من العمل ليلاً)، وبدأ دراسة هذا الكتاب في سقيفته إلى أن تمكن من التوفيق بين حزقيال والتورا.

اعتراض آخر ورد ذكره: قد يقرأ طفل كتاب «حزقيال» في بيت معلمه، كان يدرس «الخسمل[1]». (الكهرمان، لازورد، النحاس اللامع). بيد أن النار خرجت من

الخسمل وحرقته حياً. لهذا السبب كانت الرغبة في استبعاداً الكتاب، لكن خنانيا بن حزقيال قال لهم: «إذا كان هذا الطفل عاقلاً فهل أنتم عقلاء؟». يهدف من قوله إلى أن الطفل كان تلميذاً استثنائياً، ونادراً ما يكون أولئك على أمثاله الذين أرادوا سبر المشاكل الغامضة كمسألة «خسمل» من الضروري، طبعاً، أنه يجب التفريق هنا بين بعض التخوفات: ألا تهدف دراسة هذه الفقرات المستعارة والتزهدية لكتاب حزقيال إلى زعزعة الإيمان الديني؟

في نهاية المطاف عندما حصل اتفاق حول الكتب التي توجب إدخالها في الشريعة، وضعت صيغ تحذيرية صارمة بهدف إبعاد أي محاولة للجمع والضم. قال القدوس الوحيد (المجد!): [**بقي يا بني أن تتعظ بهذه فإنه لا نهاية لتأليف كتب كثيرة والدرس الكثير يتعب الجسد**] (الجامعة 12، 12). كتبت لكم أربعة وعشرين كتاباً، احذروا جيداً أن تضيفوا إليها أي شيء. من يقرأ آية غير موجودة في الأربعة والعشرين كتاباً، يعمل كما لو أنه كان يقرأ في كتب أخرى. احذروا من الكتب العديدة التي يجهد البعض في إضافتها للكتاب المقدس، لأن من يفعل ذلك لن يكون له نصيب في العالم الآخر.

كان الوحي الإلهي للتورا عقيدة متلقاة، من يقول إن التورا لم تأت من السماء، لن تكون له حصة في العالم الآخر. إن كل كلمة من الأسفار الخمسة (التورا) تعتبر موحاة من الله شفهياً. [**وأطفالكم الذين قلتم إنهم يصيرون غنمة إياهم أدخل الأرض التي رذلتموها وهم سيعرفونها**] (أعداد 14، 31). يقصد بها الإنسان الذي يدعي أن التورا ليست ذات أصل سماوي. حتى لو أن أحدهم يعترف بهذا الأصل السماوي للتورا باستثناء كلمة واحدة التي لم ينطق بها القدوس بواسطة موسى، فهذا لا يتكلم إلا حسب مزاجه الشخصي. لكن الترجمة كانت تحتفظ بحرية تصرف واسعة، فلا تقدّم من السذاجة التي بمقدور كل واحد اكتشافها في النصوص. أو إضافة وجهات نظر إليها لتبدو متناقضة كلية مع المعنى الحرفي [**أليست حكمتي كالنار يقول الرب وكالمطرقة التي تحطم الصخر**] (إرميا 23، 29). ضربة مطرقة تسبب آلاف الشرارات، كذلك فإن آية واحدة من التوراة تتحمل عدداً لا يحصى من التأويلات.

(1) جاء في التلمود أن كلمة (خسمل) تطبق على مجموعة من الملائكة ذوات الطبيعة النارية (حزقيال 1،27).

5 ـ التورا الشفهية

إلى جانب التورا المكتوبة، فقد قبل الحاخامات تورا تقليدية كشيء أساسي، منقولة شفهياً من جيل إلى جيل. يدَّعي هؤلاء بأن لهذه التورا نفس قدم النص المكتوب. أي أنها أرجعت تفصيلياً أو مبدئياً إلى الوحي في سيناء. اثنتان وأربعون وصية لم تذكر في أسفار التورا الخمسة، بل وصفها التلمود على أنها بمثابة وصايا أعطيت إلى موسى في سينا، الفائض من التورا الشفهية وجد في الكتاب المقدس التوراة ويمكن استخراجه باستخدام بعض القواعد التأويلية أو التفسيرية.

أثارت هذه النظرية حول التورا الشفهية معارضة قوية من الصدوقيين. وبالطبع فإن الحاخامات أعطوا وزناً استثنائياً لأهميتها وقيمتها، من هنا جاء التصريح التالي: ماذا يعني النص الذي يقول: [**وقال الرب لموسى اصعد إليَّ إلى الجبل وأقم هناك حتى أعطيك لوحي الحجارة والشريعة التي كتبتها لتعليمهم**] (خروج 24، 12). الألواح الحجرية هي الشريعة، الأسفار الخمسة (الوصايا)، إنها «الميشنا» التي كتبها الأنبياء وكتبة الكتب المقدسة، وكي تعلّموها «إنها الجمارا» يظهر النص أن كل هذا أعطي لموسى على جبل سيناء (Ber ،5a).

عندما ظهر القدوس الواحد (الممجد!) على جبل سيناء، ليعطي التورا لإسرائيل، سلمها إلى موسى في الترتيب التالي:

التوراة، الميشنا، الهاغّادا. وذهب الحاخامات إلى حد التصريح: «عقد القدوس الواحد (الممجد!) حلفاً مع إسرائيل بسبب التورا الشفهية، لأنه قيل لموسى: (قال الرب لموسى أكتب لك هذا الكلام لأني بحسبه عقدت عهداً معك ومع إسرائيل) (خروج 34، 27).

نجد هذا الوحي المزدوج مذكوراً في المحادثات مع الأجانب والمتعلقة باليهودية هكذا: طلب الحاكم الروماني كونيس من الحاخام «غامالييل»: ما مجموع التورا التي أعطيت لإسرائيل؟ أجاب الحاخام: اثنتان، واحدة مكتوبة والثانية شفهية. (سفر تثنية الاقتراع 351، 145) القصة نفسها بين الحاخام هيليل والضابط الوثني المتهوِّر. يري فيها بشكل عرضي أن للتقليد هدفاً الغاية منه تفسير النص المكتوب. جاء وثني إلى الحاخام شاماي

وسأله: كم لديكم من التورا؟ أجاب: اثنتان مكتوبة وشفهية. رد عليه: أصدقك فيما يتعلق بالتورا المكتوبة، لكني لا أقبل بوجود واحدة شفهية هل تتفضل وتقبلني كمنتسب لليهودية، شرط أن تعلّمني أول تورا؟ رفض شاماي عرض الرجل، وطرده باحتقار. عندئذ حضر إلى هيليل وتقدم بالطلب نفسه، فقبله. في اليوم الأول علمه هيليل الألفبائية (الهجائية) حسب تسلسلها الطبيعي، وفي اليوم التالي بدأ من النهاية. قال له الوثني: «البارحة علمتني بالعكس» أجاب هيليل: أليس من واجبك الخضوع لي لأدرّبك على الأحرف الهجائية؟ وارتباطك نفسه عندما يتعلق الأمر بتفسير التورا (ehab .31.a).

لماذا كان هذان الشكلان من التورا ضروريين؟ إليكم الجواب المقترح: أعطى القدوس الواحد (الممجد!) إسرائيل اثنتين من التورا مكتوبة وشفهية. أعطاهم التورا المكتوبة التي تتضمن ستمائة وثلاث عشرة وصية، لتزويدهم بمبادئ يتمكن الإسرائيليون بواسطتها من الحصول على الاستحقاقات. وأعطاهم التورا الشفهية ليميزهم عن الأمم الأخرى. لم تكتب التورا الشفهية، كي لا يتمكن الإسماعيليون من صنع نسخة عنها كما فعلوا بالنسبة للتورا المكتوبة والادعاء بأنهم شعب إسرائيل.

يراد بكلمة الإسماعيليين أنها إحدى التسميات المستعملة في العصور الوسطى للتهرب من الرقابة والنقد. ومن الواضح أن المقصود هم المسيحيون. بما أن الكنيسة اعتمدت التوراة العبرانية، ورفضت أن تكون وقفاً على اليهود فقط. لذلك كانت التورا الشفهية غير مقبولة لدى الكنيسة. وهي التي حفظت السمة النوعية للشعب اليهودي المشتت بين المسيحيين.

تفسير آخر وُصف بالتالي: **[وقال الرب لموسى أكتب لك هذا الكلام لأني بحسبه عقدت عهداً معك ومع إسرائيل]** (خروج 34، 27)، وبالمقابل فإنه بموجب هذا الكلام «عقدت عهداً معك». كيف يمكن فهم هذا؟ يجب أن لايسجل كلام التورا المكتوب شفهياً، وأن لاينقل المنقول شفهياً كتابة. مدرسة الحاخام إسماعيل تقول الشيء نفسه كما يلي: اكتب هذا الكلام«يعني أن هذا الكتاب للكلام وليس نصاً تقليدياً».

هذه الاعتراضات المناوئة لتحرير وكتابة التورا الشفهية، تجعلنا نرى واحدة من أهم الوظائف الهامة التي تُوصِّل إليها. ترتيبات التورا المكتوبة أزلية ولم تتغير، لكن عندما فرضت الظروف أن استحالة تطبيقها ـ بالنسبة للأضاحي، هدم الهيكل، القوانين

الزراعية ـ فقد علقت مؤقتاً إلى أن تتمكن من العودة للتطبيق. بقيت التورا الشفهية غير المكتوبة أكثر مرونة، وهذا ما سمح بتكييف الوصايا المكتوبة حسب الظروف المستجدة للأزمنة المتعاقبة. وبعبارات أخرى، فقد سبقت التورا الشفهية التشريع المكتوب للمجتمع، لتصبح منظومة متصلبة، منغلقة على أي تقدم.

هذه الغاية محددة بوضوح في النص التالي: «إذا أعطيت التورا تحت شكل محدد، فلن تجد قدمها في أي مكان». ماذا تعني الجملة المكررة مراراً: خاطب الرب موسى؟ يقول له موسى: يارب الكون، اجعلني على معرفة بالقرار النهائي حول كل مادة من الشريعة. يجيبه الله: «يجب اتباع الأكثرية عندما تعلن عن سماح هذا الشيء، فليكن كذلك، وعندما تنهى عنه فهو غير مقبول» هكذا تصبح التورا قابلة للتفسير بتسع وأربعين نقطة مقابل تسع وأربعين نقطة مضادة.

والنتيجة، كان الزعماء الدينيون لكل جيل يتلقون من التورا الشفهية السلطة، بالتشريع لحقبتهم على ضوء الظروف المعاصرة. أخذ هذا المبدأ الهام من نص غريب تفسيره: «مكتوب» أرسل الرب «جيروب بعل» «بيدان»، «جفتي» (سام 12، 11) وفي مكان آخر: موسى وهارون بين كهنته، وصموئيل وسط من يذكرون اسمه. هكذا فإن التورا تعطي أهمية إلى ثلاثة من الشخصيات الأقل أهمية ووزناً مساوياً لوزن وأهمية الثلاثة الأكثر أهمية. قصد الإعلام أن «جيروب بعل» في جيله، مواز لموسى في جيله «بيدان» لهارون، «وجفتي» لصموئيل في أجيالهم الخاصة بهم. هذا يظهر لنا، أنه عندما يصنف الرجل الأقل قيمة زعيماً لجماعة، يعامل على قدم المساواة مع الشخص اللامع والأكثر أهمية. **[وصز إلى الكهنة اللاويين وإلى القاضي الذي يكون في ذلك الزمان واسألهم فيرشدونك في أمر الحكم]** (تثنية الاشتراع 17، 9).

هل يمكنكم تصور رجل يذهب إلى قاضٍ غير موجود في ذلك الزمان؟ هذا معنى النص: يجب أن لا تتوجه إلا إلى سلطة معاصرة لأنه مُعلن: **[لا تقل لِمَ اتَّفَقَ أن كانت الأيامُ الأولى خيراً من هذه فإنه ليس عن حكمةٍ سؤالُك هذا]** (الجامعة 7، 11).

على ضوء هذا يمكن فهم التصريح التالي: حتى أن تلميذاً مميزاً كان معداً ليعلّم بحضور معلمه، قيل ذلك لموسى على جبل سيناء.

هكذا زرعت العقائد الحاخامية بذورها في زمن الوحي الأصلي الأولي.

6 ـ ممارسة التورا

حدد التلمود لنفسه هدفاً رئيسياً هو تسليح الشعب اليهودي بشبه عقيدة لم تكن موضع إيمانٍ فقط، بل الدليل الدائم لحياته. هكذا خلق العالم حيث يروج الوجود اليهودي والجو الذي يتنفس فيه. متجذرة على ستمائة وثلاثة عشر مبدأ موجوداً في التورا، لترتفع شجرة ذات فروع لا حصر لها، تؤمن ثمارها الغذاء اليومي لكل من يعتني بها ويستمر في خدمتها.

غالباً ما يوجه النقد للتلمود لأنه يلزم اليهودي بأن يكون معلقاً بأواصر العدالة، حيث يجعله يفقد بهذه الطريقة مفهوم الحرية والروحانية، هذه النظرة الخارجية تماماً، لا تجد في التلمود أي تأكيد مهما كان صغيراً. فهو يقدم شهادة قطعية لروح الفرح والحب، محركاً أولئك الذين يخضعون «لنير التورا» راقَ للقدوس الواحد (الممجد!) أن يجعل إسرائيل تكتسب الاستحقاقات، لذلك ضاعف من أجلها التورا والوصايا كما هو مكتوب: [**كانت مرضاة الرب ببره وبأن يعظم الشريعة ويكرمها**] (إشعيا 42، 21) هذا التنويه الذي يضيفه كتاب طقوس الصلاة إلى فقرات كتاب آبوث الذي يقرأ في الكنيس في بعض أيام السبت، يلخص ببراعة ودقة المفهوم الحاخامي للوجود الخاضع للتورا. هذا النوع من الخضوع بعيداً عن أن يكون بمثابة عبودية، بل إشارة للفضل الإلهي، يُفضل معالجتُه بالحب والعرفان.

كلمات مؤلف المزامير «آه! كم أحب التورا الخاصة بك» كانت تستدعي هذا التعليق، يقول سليمان: [**لتكن لك أيِّلة مُحِبَّةٍ ووَعْلَةُ نعمةٍ يُرويك ثدياها كل حين وبحبها تهيم على الدوام**] (الأمثال 5،19). إليكم ما هي التورا: الجميع يحبها، من لا يحب التورا لا يحب شيئاً آخر سوى الحياة. إن حب داود للتورا جعله يصرخ: «آه ! كم أحبها!» أينما أذهب تصحبني، تنام معي، لم أفترق عنها لحظة واحدة، لم تكن عبئاً عليَّ بل نبع أناشيد وتراتيل كما يقال: [**كانت رسومك نشائد لي في دار غربتي**] (مزمور 118، 54).

احتلت البركات التلمودية التي سنذكرها مكاناً في الشعائر الدينية اليومية، فهي تعكس المشاعر الصادقة لليهودي حيال التورا: «لتكن مباركاً أيها الرب إلهي، ملك

السماء والأرض، الذي قدسنا، بوصاياه وأمرنا الاهتمام بكلمات التورا. لتهنأ في ملكك، ونتوسل إليك أيها الرب إلهنا، أن تضع كلمات التورا على شفاهنا وشفاه شعبك، وبيت إسرائيل، بطريقة نتمكن نحن وذريتنا وذرية شعبك من بيت إسرائيل من ذكر اسمك، وأن تهتم بالتورا، لتكن ممجداً يا رب، أنت من علمت التورا لشعبك في إسرائيل/ ليمجد اسمك أيها الرب إلهنا ملك السموات والأرض، أنت من اخترتنا من بين جميع الأمم، ومنحتنا التورا. ليتمجد اسمك أيها الرب إلهنا، أنت من أعطانا التورا».

المبدأ الراعي للنشاط والعمل كان التالي: «كل من يطبق أو يتم (الوصايا) برضاه، هو أعظم ممن يطبقها خوفاً. نجد التعبير عن حب التورا في الحاجز المحيط بها لوقايتها من أي عدوان، المطلوب فيما بعد، أن لايلتزم إلى المبدأ الديني بطريقة يكون فيها حسب الأصول مع الشريعة، بل العمل أكثر من الحد الأدنى الضروري ليكون متأكداً قطعاً أنه أتم واجبه. بماذا تقارن هذه المسالة؟ بحالة رجل مرشح لحراسة أرض مسورة، إذا راقبتها من الخارج تراها محمية بأكملها، وإن راقبتها من الداخل تجد السور مقابلاً لك، بينما القسم الخلفي مخفيا عن الأنظار. يعطى كمثال: القاعدة التي توحي بالإضافة إلى المقدس، الأخذ بما هو غير مقدس (R.h. 9.a). يطبق هذا على الأيام المقدسة في التقويم. مثلاً، ستتوقف عن العمل قبل اللحظة المعنية لبداية يوم السبت، أو أي يوم عيد آخر، بطريقة لا تنال فيها سهداً من قداسة اليوم الاحتفالي.

تظهر الرغبة في المحافظة على الواجبات الدينية بشكل آخر أيضاً: «يقيم العقلاء حاجزاً، أمام كلامهم، بطريقة لا يتمكن معها أي شخص من أن يأتي من الحقول مساء ويقول: أريد العودة إلى داري للأكل والشرب ومن ثم الصلاة ثم يتمالكه النعاس وينام طوال الليل. والأفضل، أن على الإنسان الذي يعود من الحقول مساء أن يدخل الكنيس إذا كان معتاداً على قراءة الكتاب المقدس فليقرأه؟ وإذا كان مدرباً على دراسة مسائل عميقة في العقيدة، فليثابر على هذه الدراسة. ومن ثم ليتلُ صلواته، بعدها يتناول طعامه ويشكر خالقه. من يهاجم أو يخالف كلام هؤلاء الحكماء المتعلق بهذا الموضوع يستحق الموت.

قاعدة تعمل من الإخلاص مخلصة للتورا إنها «هيدُّور ميزراخ» أي تجميل الوصايا، وبمعنى أخر الإضافات التي يؤتى بها، تتجاوز ما ينطبق على النص الحرفي

للوصايا، لإتمامها بطريقة أفضل، ويتمكن كل واحد من قبولها، هذه القاعدة ترتكز على سفر الخروج (2،15): [**الرب عِزّي وتسبيحي لقد كان لي خلاصاً. هذا إلهي فإياه أمجد إله أبي فإياه أعظم**] يوسع بهذا الشكل: جملٍ نفسك بمبادئ التورا، وابنِ أمامها مظلَّه جميلة [**تقيمون في المظال سبعة أيام كلّ صريح في إسرائيل فليقم في المظالّ**] (أحبار 42،23) [**خذوا لكم في اليوم الأول ثمر أشجار نضيرة وسعف نخلٍ**] (أحبار 40،23) [**مُرْ بني إسرائيل وقل لهم ليضعوا لهم أهداباً على أذيال ثيابهم مدى أجيالهم، ويجعلوا على أهداب الذيل سلكاً سمنجونياً**] (العدد 38،15). جهز لنفسك لفافة توراة فاخر للشريعة، اكتب على شرفه بأفخر أنواع الحبر، بأفضل ريشة، بناسخ أكثر خبرة، مرتدياً ثياباً من الحرير نقية وطاهرة (ehab. 133.b). يجب أن لا تطبق القوانين اليهودية بقليلٍ من الوعي، أو الإهمال بل بدواعي الحب والحماسة، من ناحية أخرى، كان معترفاً به، وأنه باستطاعة هذه الرغبة تمجيد الله. أو أن تحيد عن ذلك مسببة تجاوزات مؤسفة، يمكنها أيضاً إفقار من يمارسها بمغالاة. أملت هذه القاعدة أيضاً. يجب أن لا يتجاوز «حيدُّور متيزفا» (أي تجميل الوصايا) ثلث قيمته. أي أنه من أجل تجميل الوصايا يجب أن لا تتجاوز بثلث التكاليف الشرعية الواجب دفعها.

تلك كانت الشروط الواجب إدخالها في الالتزام بوصايا التورا. بدلاً من تبعية الظلم، يمكن تأدية خدمة سارة للإله، تقود إلى تقديس وجوده الوحيد. في الواقع كانت تهدف التورا إلى تنقية ورفع شأن الحياة البشرية، هذا مؤكد. إنه كلام الله النقي (ps. 18. 30). كان يستخدم كقاعدة للتعليم: «أعطيت الوصايا لتنقية وتطهير الكائنات البشرية. ماذا يهم بالنسبة للقدوس الواحد أن يكون للحيوان رقبة مقطوعة من الأمام أو الخلف؟» لكن الوصايا التي منحها كانت تهدف إلى تنقية وتطهير الكائنات البشرية.

كانت سلسلة من الوصايا معدة للتذكير بالحضور الإلهي، موجهة العقل باتجاه الإرادة الإلهية. هذه الوصايا الأساسية مثبتة على عتبة الباب، وأطراف الثوب، وبالتعاويذ المحمولة على الأذرع والجبين. مرتكزة على هذا التصريح: حبيبتي إسرائيل، لقد أحاطها القدوس الواحد (الممجد!) بالمبادئ والإرشادات. الإسرائيليون يملكون تمائم على القلب والأذرع، وشرابات على ألبستهم، والـ(mezouza) (الكتابات على

عتبات أبوابهم)، وفي هذا الشأن قال داود: [**سبّحتك سبع مرات في النهار على أحكام عدلك**] (مزمور 118، 164). لنأخذ بعين الاهتمام وباختصار هذه العادات الثلاث.

[هذه هي الوصايا والرسوم والأحكام التي أمرني الرب إلهكم أن أعلمكم إياها، لتعملوا بها في الأرض التي أنتم جائزون إليها لتمتلكوها، لكي تتقي الرب إلهك حافظاً جميع رسومه ووصاياه التي أنا آمرك بها. فأحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك، ولتكن هذه الكلمات التي آمرك بها اليوم في قلبك كررها على بنيك وكلمهم بها إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وإذا قمت. واعقدها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك، اكتبها عل عضائد أبواب بيتك وعلى أبوابك] (تثنية الاشتراع 6 لغاية 9).

تطبق العلامة وبشكلها التقليدي، وهي عبارة عن قطعة من الرق تحمل نصين مكتوبين ومحاطة بإطار تثبت على عضادة باب البيت لدى دخوله من الجهة اليمنى، في الخارج نقرأ حكمة «شداي» بمعني القادر. الهدف الأول والأساسي من هذه الكتابات والرسوم، تذكير اليهودي دائماً أنه حتى في داخل منزله يعيش تحت أعين الله الذي يرى كل شيء، وأمنه تحت رحمته، لهذا يقال: من له شرابات على الرأس والذراعين، والثياب، والعلامة على الباب، مقدر له أنه لن يرتكب الخطأ.

بيد أنه في المعتقد الشعبي تصبح العلامة (ميزوزا) كتعويذة تضمن لأحدهم العناية الإلهية. حكايتان تثبتان ذلك بوضوح: أرسل أرتيان ملك البارثيين إلى الحاخام يهودا لؤلؤة غالية الثمن، طالباً منه بالمقابل شيئاً بنفس القيمة. فأرسل له الحاخام تميمة. رد له الملك قائلاً: أنا أعطيتك كنزاً لا يقدر بثمن، وتعيد إليَّ هذه التفاهة؟ رد الحاخام: إن ما أرسلته أنت وبعثته إليك مختلفان جداً. لقد أرسلت لي شيئاً علي الاحتفاظ به، ووهبتك شيئاً ستحتفظ به حتى خلال نومك (p.pea. 15.b) الرواية الثانية مرتبطة بأحد أعضاء العائلة الرومانية الحاكمة ويدعى أونكيلوس والذي اعتنق اليهودية. عندما علم الإمبراطور بذلك، وجه الجيوش إليه لاعتقاله، لقد فاز بإيمانه الجديد، وطلب الإمبراطور من جيوشه إيقافه وتم له ذلك، ولدى خروجه من البيت نظر إلى التميمة «ميزوزا» المثبتة فوق عتبة الباب ووضع يده عليها وقال: [**سأشرح لكم ما هذا: من عادة الملك البشري أن يقوم الحراس بحراسته لكن الأمر**

مختلف لدى القدوس الواحد (الممجد!) إن خدمه موجودون داخل البيت وهو يحرسهم من الخارج كما قيل: سيسهر الرب على دخولك وخروجك من الآن وإلى الأبد] (مزمور 121، 8).

الشيء نفسه بالنسبة للعُصابة المكتوبة (التعويذة) والشرابة، تتضمن الأولى عدة خانات صغيرة موصولة مع بعضها بأحزمة أو بسير من الجلد، وقد ربط بكل منها رقاقة جلد كتب عليها أربعة نصوص توراتية: (خروج 13،1 - 10، 11 - 16) **[وكلم الرب موسى قائلاً: احفظ هذه الفريضة في وقتها سنة فسنة، إذا أدخلك الرب أرض كنعان كما أقسم لك ولآبائك وأعطاها لك، فيكون علامة على يدك وعصابة بين عينيك لأن الرب بيد قديرة أخرجنا من مصر]**.

سفر تثنية الاشتراع 6، 4 - 9، 11، 13 - 21: **[اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا رب واحد، واكتبها على عضائد أبواب بيتك وعلى أبوابك فإن سمعتم لوصاياي التي أنا آمركم بها اليوم فأحببتم الرب إلهكم وعبدتموه بكل قلوبكم وبكل نفوسكم، لكي تطول أيامكم وأيام بنيكم على الأرض التي اقسم الرب لآبائكم أن يعطيها لهم مادامت السماء على الأرض]**. إنها الطريقة التقليدية لتطبيق الوصايا: **[واعقدها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك]** (تثنية الاشتراع 6، 8). الهدف منها منح مبادئ التورا قوة تتحكم وتسيِّر الحياة، بطريقة يتمكن بها اليهودي المثالي من سبك أفكاره وتوجيه أفعاله.

يمكن رؤية هذا، فيما يروى عن حكيم تلمودي يدعى رابا: كان أباي جالساً بحضور رابا ويشعر أنه مليء بالسعادة، قال له رابا: مكتوب «اعبدوا الرب بخشية وابتهجوا برعدة» (مزمور 2، 11) أجاب أباي: لقد وضعت العصائب المكتوبة. لم يدع له مجالاً للقول بأن الذين يحملونها كل يوم، يقولون إن تأثيرها شافٍ تمنعهم من تجاوز الحدود الطبيعية، أما الجماهير فتعتبر أن العصائب المكتوبة تملك سحراً ضد الآلام وتكرارها مفيد ونافع، من يحمل العصائب المكتوبة يعش طويلاً.

إليكم الآية التي تعطي معنى الهدُب **[مُرْ بني إسرائيل وقل لهم ليصنعوا لهم أهداباً على أذيال ثيابهم مدى أجيالهم ويجعلوا على أهداب الذيل سلكاً سمتجونياً، فيكون ذلك لكم هدباً فترونه وتذكرون جميع وصايا الرب وتعلمون**

بها ولا تهيمون بأتباع قلوبكم وعيونكم التي أنتم فاجرون باتباعها] (العدد 15 ـ 38 و39). يلاحظ التلمود في هذا الخصوص أن «هذه الوصية تعادل كل المبادئ، لأنه لدى رؤيتها نتذكر، وبالتذكر نفعل». يذكر النص مثلاً لرجل معصوم عن أي عمل لا أخلاقي، كانت هدابة ثوبه تذكره بما كان غافلاً عنه. من ذلك جاء التأكيد التالي: «من يطع الوصية جدير بتلقي حضور الشيخينا، لا يقول النص سترونها بل سترونه بالمفرد. هكذا فإن من يتم وصيّة الهدب يشبه من حصل على حضور الشيخينا، لأن لون الخيط الأزرق يشبه لون المحيط، الذي يلون بدوره قبة السماء التي هي عرش الإله».

سفر الإعداد (34.b. 115) هذا يعني أن الاستعمال الذكي للهدبة يحفظ حياة الإنسان، ويقوده إلى التقرب مع الله.

أضيفت هنا أيضاً، قيمة خرافية وهمية إلى الطقس الديني، واعتبرت كقوة واقية فإهمال حمل الهدبة أشبه بنسيان تثبيت التميمة على دعامة الباب، مما يسبب الموت للأطفال والمراهقين (chab. 32.b)، وبالعكس كل من يلتزم حرفياً بقانون الهدبة أو الشرابة، يكون أهلاً لقيام ألفين وثمانمائة خادم على خدمته[1].

لأنه مكتوب: **[هكذا قال رب الجنود إنه في تلك الأيام سيتمسك عشرة أناس من جميع السنة الأمم بذيل إنسان يهوذا قائلين إنا نسير معكم فقد سمعنا أن الله معكم]** (زكريا 8،23).

المثال المؤثر قد يكون الطريقة التي كان الحاخامات بموجبها يوسعون وصايا التوراة، وهي وصية يوم السبت. تكتفي التوراة بصياغة القانون العام الذي يمنع العمل في هذا اليوم. مقابل هذا التحفظ، نرى كاتباً تلمودياً متخصصاً لدراسة الآثار الناجمة عن خرق حرمة يوم السبت. الأفعال موزعة ضمن تسعة وثلاثين عنواناً: البذر، الحراثة، الحصاد، ربط أحزمة القمح، دراسة السنابل، التذرية، فصل القمح، الطحن، التنخيل، العجين، الطهي، القص، الدهن، الحلج، الصباغة، النسيج، صنع السداة، الغزل، الجدل، فصل خيطين عن بعضهما، عقد الحبل، حل العقدة، خياطة،

(1) إليكم كيف تم الحصول على هذا العدد: هناك سبعون أمة، يوجد في كل واحدة منها عشرة رجال فيصبح 1070 =700 يخص كل واحد من هذا العدد أربع زوايا في اللباس فيصبح المجموع 4700 = 2800.

قطع خيط الخياطة، صيد الغزال، قتله،جلده، التمليح، تحضير الماء، السلخ، تقطيعه إلى قطع، كتابة حرفين من الأحرف الهجائية، محوهما، من أجل كتابة حرفين، البناء، الهدم، إشعال النار، إطفاؤها، الطرق بالمطرقة، نقل شيء من مكان لآخر.

كل عبارة من عبارات هذا التعداد تثير مشاكل متنوعة عند تعريفها وتنفيذها، مع إمكانية بداية جدال لا حدود له لمعرفة فيما إذا كانت هذه الحالة الخاصة تدخل أو لا تدخل ضمن الفئة المذكورة. لنأخذ مثالاً واحداً: تؤدي الفئة الأخيرة إلى سلسلتين من الاستقصاءات. في المقام الأول، كيف يمكن تحديد وسيلة نقل مخلة بحرمة يوم السبت؟ هذا هو موضوع الفقرة الأولى ليوم السبت. الشرط الأول للميشنا مَصوغٌ بالطريقة التالية: هناك فعلان لنقل الأشياء من مكان لآخر، وهذان يصبحان أربعة داخل المحلات، وأربعة خارجها. كيف هذا؟ يقف شحاذ خارج الباب والحارس في داخله، يمد الشحاذ يده للداخل ويضع شيئاً ما في يد الحارس، أو يأخذ منه شيئاً ما وينقله للخارج. في هذه الحالة يكون الشحاذ مذنباً (بانتهاك حرمة يوم السبت) والحارس بريئاً. لو أن الحارس مد يده ووضع شيئاً ما في يد الشحاذ أو أخذ منها شيئاً ويدخله للبيت يكون الحارس مذنباً والشحاذ بريئاً، إذا مد الشحاذ يده للداخل وأخذ الحارس منها شيئاً ووضع فيها شيئاً ما، فكلاهما بريئان. إذا مد الحارس يده للخارج وقام الشحاذ بأخذ شيء منها أو وضع شيئاً فيها يدخله معه الحارس لداخل البيت، فهما مذنبان، يلقي هذا المثال الضوء على مدى التعقيدات التي تكتسبها مسألة ما ومعالجتها من قبل الحاخامات.

من جهة ثانية يجب تحديد ماهية الحمل الممنوع نقله يوم السبت. مثلاً قاعدة تميز الألبسة النسائية، البزة بنوع خاص، وما يتعلق بالزينة، إذ إن الأخيرة معتبرة كحمولة زائدة، فإنه يسمح للمرأة بالخروج إلى ساحة المنزل يوم السبت، حاملة جدائل، مصنوعة من شعرها الخاص، أو شعر امرأة أخرى، أو من وبر حيوان، يمكنها وضع تزيينات مختلفة مخيطة بالشيء نفسه ما يغطي الرأس، مثل الشبكة أو الشعر المستعار. ويمكنها وضع القطن في الأحذية أو الأذنين، أو لسبب صحي وضع حبة من الفلفل أو الملح أو أي شيء آخر في فمها، هذا إذا كانت معتادة، شرط أن لا تقوم به لأول مرة يوم السبت، إذا ما سقط هذا من فمها، فيمنع عليها إعادته إلى الفم. أما الأسنان

المستبدلة (طقم أسنان) أو أسنان مذهبة، فإن الحاخام يهوذا يوافق على ذلك، لكن بعض الحكماء، يحرمونه.

إليكم نموذجاً من القوانين المتعلقة بيوم السبت، ستبدو عادلة في تبرير النقد المصوغ حولها، والتي تعتبر مدخلاً لبحث الذمة الحاخامي، بجعل اليوم المقدس كابوساً أليماً لليهود، نازعاً منه أي فرح أو تأمل روحي. والواقع أن الشعب الخاضع لهذه القوانين وصرامتها، لم يلاحظ فقط ثقلها الساحق، بل طالب بفرح النور، والجمال، والقداسة ليوم سبته.

إليكم صلاة قصيرة ألفها حاخام لتلاوتها عشية السبت: «في حبك ياربنا وإلهنا، حب أظهرته لشعبك بالعطف، يا ملكنا برهن لأبنائك عن تحالفك، أعطيتنا أيها الرب إلهنا هذا اليوم السابع المقدس، يوماً للحب» (Tosift A. Ber ،3 ،11). لكي تلفظ هذه الكلمات، يجب اعتبار السبت نعمة وفرحاً عظيمين. وكان الشعور العام حول النص التالي: «لكي تعلموا أنني الرب الذي تقدسون» أما الشرح فهو الآتي: «يقول القدوس الواحد (الممجد!) لموسى: «لدي» في كنزي هبة ثمينة اسمها يوم السبت، وأريد إعطاءها لإسرائيل، اذهب وقل لهم ذلك».

لم يكن التقيد بيوم السبت متضمناً أية مظاهر للتقشف ومن أي نوع كانت. المظاهر العامة للحداد مثلاً، والتي تستمر عادة لمدة أسبوع بعد دفن الميت، كان من الواجب تعليقها يوم السبت. نص مفضَّل إشعيا 58، 13) يقول: [**إن كففتَ عن السبت رجلك عن قضاء مراميَ في يومي المقدس ودعوت السبت نعيماً ومقدَّسَ الرب مكرَّماً وكرمته غير مباشرٍ في مذاهبك ولا واجدٍ مرامكَ ولا ناطقٍ بكلامك**] كان يرجع إليه للنصح بإلغاء المصباح مشتعلاً في البيت. وارتداء افضل الملابس، وتحضير وجبات طعام طيبة، والإنفاق بسخاء لتمجيد يوم السبت لأن ذلك يعتبر عملاً جديراً بالتمجيد والمديح، ويؤكد أن من يقرض مالاً يوم السبت سيستوفي ماله.

تُروى قصة عن حاخام زار صديقه يوم السبت. قدم له صديقه أطباقاً شهية من الطعام قال الحاخام، هل تعلم شيئاً عن زيارتي هذا اليوم حتى جهزت هذه الأطباق ؟ أجاب مضيفه: وهل أضعك في مرتبة احترام أعلى من يوم السبت؟ هذه العادة بتمجيد يوم السبت أدت إلى تطبيق ما جاء في نشيد الأناشيد (5،1): [**لا تلتفت إلى كوني**

سوداء فإن الشمس قد لوحتني]. أنا سوداء أيام الأسبوع، لكني جميلة يوم السبت (المدراش).

أي تقوى مليئة بالحب، يروى عن الحاخام خانانيا: أن من عادته : ارتداء أجمل ثيابه يوم الجمعة، عند غياب الشمس وكان يصرخ: تعالوا لنذهب للقاء ملكة السبت. أما الحاخام «جاناي» فيفعل الشيء نفسه عشية السبت ويصرخ: ادخلي ياخطيبة! أيتها الخطيبة ادخلي!.

كان السبت مخصصاً لتقديس الحياة [**فاحفظوا السبت فإنه مقدس لكم ومن خرقه يقتل قتلاً كل من يعمل فيه عملاً تنقطع تلك النفس من شعبها]** (خروج 31،14). هذا يدل على أن السبت يضاعف ويزيد القداسة لدى إسرائيل. وكما مر معنا الاعتقاد الشائع بأن اليوم المقدس يمنح من يمجده روحاً إضافية ثمة نصان مختلفان لقصة يظهران أي طعم خاص يعطيه يوم السبت لحياة الناس. طلب الأمبراطور من الحاخام «يشوع بن خنانيا» من أين تؤتى الأطعمة التي تنشر رائحة طيبة بهذه الدرجة يوم السبت؟ أجابه: لدينا نوع من البهارات يدعى «السبت» نضعه على الأطباق فيعطيها النكهة التي تشم رائحتها. لكنه قبل ذلك ليس له تأثير إلا لمن يحترم يوم السبت.

كان الحاخام يهودا يتحدث مع أنطونيوس يوم السبت، حيث قدمت أطباق الطعام باردة، أكل منها فوجدها طيبة المذاق، وتحدث الحاخام مع ضيفه في أحد أيام الأسبوع، حيث قدمت له الأطباق ساخنة، قال أنطونيوس: كنت أفضل تناول طعام مشابه للمرة السابقة، إذ إن الطعام تنقصه التوابل، أجاب الحاخام: هل كنز الملك ينقصه شيء؟ تكوين.

لو أن السبت هو الشاهد المهم للتحضير ضخّمه التلمود، ضمن تنظيم شرعي للتوراة، علينا الإشارة إلى إختفاء العنصر الهام للتشريع المختص بالكتاب المقدس يختفي عندما جعلت ظروف الالتزام منه شيئاً غير ممكن. فقد لعب الهيكل وشعائره دوراً رئيسياً في حياة الشعب، وكرَّر التلمود شروحات مفصَّلة في وصفها.

إن الأضاحي كانت نظاماً إلهياً، فماذا كان الموقف إذن عندما غاب الهيكل من الوجود؟ الجواب الصحيح المفصل جاء عن رواية للحاخام زكاي جوخانان وتلميذه الحاخام يوشع، حصل أنه عندما غادرا أورشليم، وأن الحاخام يوشع اعتبر أن الهيكل

مدمر، صرخ قائلاً: «ويح لنا، لقد دمر المكان الذي تحصل فيه إسرائيل التكفير عن خطاياها». قال الحاخام جوخانان: «يا بني لا تأسف، يبقى لنا تكفير فعال هو ممارسة الإحسان، يقال إن الله نادى: أُحبُّ العدالة أكثر من الأضاحي، والاستقامة التي عليكم ممارستها». تصريح آخر نسب إلى داود هو: أعتبر أن يوماً أمضيه في قراءة التورا هو أفضل من ألف ضحية مقدمة على مذبحي من قبل ابنك سليمان».

إن أعظم إنجازات التلمود هي ما حققه للشعب اليهودي، حيث إن نهاية الهيكل لم تؤدِ إلى نهاية الديانة. مهما كان القدر قاسياً فالطريق يظل مفتوحاً للتقرب إلى الله. وإلى جانب البر والعدالة ودراسة التورا، كانت الصلاة تُعتبر أفضل من الأضاحي. وانطلاقاً من كلام أحد الأنبياء: [**خذوا معكم كلاماً وارجعوا إلى الرب وقولوا له ارفع كل الأثم واقبل الخبز فنردُّ عجول شفائنا**] (هوشع 14، 3) تصاغ هذه العقيدة: بماذا يمكننا استبدال الثيران التي سنقدمها لك بانتظام. بشفاهنا التي تقدم الصلاة لك.

لم نتمكن من وضع سوى الملامح النظرية الحاخامية للتورا. يلزم لدراسة ذلك مجلد بكامله لدراسة هذا الموضوع بكل رحابة عندما نشرع بدراسته انطلاقاً من رأي الأفكار الدينية الحديثة. بغية فهمه جيداً، يجب الحصول على المقدمات المنطقية للحاخامات، وهو الحكم الوحيد المناسب ليكون برغماتياً (عملياً). لقد سمح التفسير الحاخامي للتورا ببقاء اليهودية بعد اختفاء شعائر هيكلها ودمار الدولة، بينما كان يختفي من التاريخ خصوم مؤلفي التلمود من الصدوقيين. لقد كان هدف الحاخامات إبقاء دين إسرائيل، وكانوا مجمعين على أن بقاء الدين برهان على صحة تعاليمهم.

الفصل الخامس

الحياة العائلية

أ - المرأة

تستقر المرأة في قاعدة الحياة الاجتماعية اليهودية، ويسهر التلمود دائماً على المحافظة على طهارتها وتأمين استقرارها، معترفاً بالمكانة الفائقة الأهمية التي تشغلها المرأة في الحياة لعائلية، إذ يمنحها أعلى المراتب احتراماً. ومع الأخذ بعين الاعتبار أوضاع المرأة لدى شعوب تلك الحقبة،، فإن التلمود يحفظ للمرأة كرامة عالية وفي صلب علاقاتها، فهو لا يعتبرها أقل شأناً من الرجل، وإذا كان مجال نشاطها يختلف عن مجال عمل الجنس الآخر، فذلك دليل على انتظام مسيرها ضمن الجماعة.

أعطى خصوم اليهودية بعداً كبيراً جداً لهذا المثل: مطلوب من كل جنس ذكر النطق بثلاث تبريكات يومياً: ليشكر الله على انه جعل منه إسرائيلياً: (يهودياً)، وأنه لم يخلق امرأة، ولم يجعل منه إنساناً فظاً. (وفي بعض المخطوطات القديمة في طقوس الصلاة صيغة أخرى للشكر: يارب لا تجعلني وثنياً، ولا عبداً، ولا امرأة). يُظهر النص بوضوح أن أفعال النعمة تتوجه بالشكر لله على الامتياز المتعلق بإلزامية تطبيق تعاليم التورا، وفي هذا الاتجاه، كانت مسؤولية الرجل تفوق مسؤولية المرأة، وبما أنه أنيطت بالمرأة مهام الحياة المنزلية، فهي معفاة من سلسلة من الواجبات الدينية. القاعدة الشرعية هي: «أنت تعمل». (ولكن ليست هناك أية قاعدة تقول: أنت لا تعمل) وتنفيذ العمل يتم في فترة محددة من اليوم. الوصية التي تلزم السكن تحت الخيام أثناء أعياد المظلة مثلاً، أو ارتداء العصابة المكتوبة هي غير إلزامية للمرأة. أما الاستثناء الوحيد فهو أن التلمود لا يضع أي تمييز بين الجنسين بالنسبة للمسؤولية الدينية. المبدأ العام استُنتج من النص التالي: [**هذه هي الأحكام التي تجعلها أمامهم**] (خروج 21،1)، فالتوراة تضع الرجال والنساء في مرتبة واحدة أمام قوانين التورا.

والحقيقة أن المرأة الفاضلة هي التي تستخدم نفوذها في تشجيع زوجها وأولادها في اكتساب معرفة عميقة بالتورا، وهي المحرومة منه بسبب أشغالها التي تملأ بها حياتها. كيف تحصل النساء على الجدارة والاستحقاق؟ بإرسال أولادهن إلى الكنيس لدراسة التورا والتثقيف في مدارس الحاخامات.

يظهر المثل التالي بقوة أي عمل يمكن للمرأة القيام به، مع وجود زوجها إلى جانبها:

«يقال أن تقياً إسرائيلياً تزوج من امرأة تقية صالحة أيضاً. بما أنهما لم يرزقا بأطفال، طلبا الطلاق من بعضهما، تزوجت المرأة المطلقة ثانية من رجل سيىء الطبع فأعادته إلى جادة الصواب. كل شيء إذن متعلق بالمرأة.

حكاية أخرى تتعلق بشرف المرأة وتتمثل بما يلي: قال إمبراطور للحاخام غماليل: إلهك سارق لأنه مكتوب: (فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فاستل أحد أضلاعه وسد مكانها بلحم) (تكوين 2،21). عندها قالت ابنة الحاخام لوالدها: «دعني أجيبه»ثم توجهت للإمبراطور بهذه العبارات: تفضل وعيِّن ضابط شرطة تحت تصرفي لأرفع شكوى. لأي سبب؟ لأن لصوصاً دخلوا منزلنا أثناء الليل، فسرقوا إبريقاً من الفضة، لكنهم تركوا بدلاً منه إبريقاً من الذهب ـ أجاب الإمبراطور: لماذا لا يأتيني لص من هذا النوع؟ تابعت ابنة الحاخام كلامها: أليس من الرائع أن ينام رجل وحيد ويؤخذ منه ضلع ويتلقى بدلاً منه امرأة موضوعة تحت تصرفه!.

لماذا اختار الله ضلعاً لخلق المرأة؟ إليكم الجواب: تساءل الله أي جزء من جسم الرجل يجب أن يكوِّن المرأة. لن أختار الرأس حتى لا تتباهى وترفع رأسها وتفخر بنفسها، ولا العينين حتى لا تكون فضولية، ولا الأذن حتى لا تتنصت على الأبواب، ولا الفم حتى لا تكون ثرثارة، ولا القلب حتى لا تكون غيورة جداً، ولا اليد حتى لا تمارس التبذير والإسراف، ولا القدم حتى لا تخرج كثيراً من منزلها، سآخذ جزءاً من الجسم مخبأً لأجعلها متواضعة.

الهدف الإلهي الظاهري لخلق المرأة لم يتحقق، لأنه سيكون هناك حاخامات ينسبون للمرأة الأخطاء التي كان الخلق يريد أن يبعدها عنها. صفات أربع تنسب للنساء:

ـ شراهة، تنصت من خلف الأبواب، كسالى، حسودات، إلى جانب ذلك هن ثرثارات محبات للخصام (اييدم 45.5). فيما يتعلق بميلهن للثرثرة يقال على الأصح بنوع من الفظاظة: «أنزلنا عشرة مكاييل من الكلام للعالم، أخذت النسوة تسعة وأبقين للرجل واحداً». أما الكسل الأنثوي فقد أصبح ذلك مثلاً. عندما تنام تسقط السلة. ولكن قيل بالمقابل «المرأة ليست معتادة أن تبقى فارغة الأشغال». فيما يتعلق بقدرتها العقلية، فالإجماع لا يعطيها أكثر. يُعلن أحياناً أن لدى النساء ذهناً وقاداً متنوراً. وأحياناً أخرى تنزع عنهن هذه الصفة بالعبارات التالية: «تستقر المرأة في منزلها والرجل يتجول بين الشعب يكتسب الذكاء بمعاشرة الرجال الآخرين». خلافاً لهذا الحكم إليكم تصريحاً

قطعياً: أعطى الله المرأة هبة أكثر من الرجل. هناك حكم وأمثال شعبية تشهد أن للمرأة عقلاً صائباً حتى لو لم تظهر ذلك للناس، تتابع تحقيق مشاريعها، إليكم مثلين شعبيين من هذا القبيل: المرأة مشغولة دائماً بغزل الصوف، حتى وهي تتحدث مع غيرها. تمشي الأوزة وعنقها ملتوٍ، لكن لا شيء يخفى على عينيها» (Meg ،14b). يطيب لنا الاعتراف بأن لها قلباً حنوناً رقيقاً. «النساء يظهرن بحنانهن» (اييديم).

يلاحظ أيضاً حبها للزينة، والأهمية التي تعطيها لمظهر شخصها، والأشياء التي ترغبها المرأة تخص ما يتعلق بجمالها. إذا أراد رجل إسعاد زوجته، فيجب أن يقدم لها الثياب المصنوعة من الكتان الناعم.

إليكم تفاصيل أكثر: «الحلي المخصصة للنساء هي التالية: الحمرة حول العينين، الشعر المجدول على شكل خصل، بودرة حمرة الوجه. كانت زوجة الحاخام «خيسدا» تفرح بتزيين وجه زوجة ابنها. في أحد الأيام وجد الحاخام «هونا بن خانانيا» نفسه أمام زوجة الحاخام «خيسدا»، عندما رأي زينتها قال: هذا ليس مسموحاً إلا للفتاة الشابة، وللنساء الفتيات وليس للنساء العجائز المسنات، أجابته والله إنه مسموح حتى لأمك ولجدتك حتى ولو كان لها قدم في القبر، لأنه كما يقول المثل: «امرأة الستين مثل فتاة الست سنوات تركض عندما تسمع صوت الطبل».

سمة خاصة تتميز بها جميع النساء وهي ميلهن إلى الإخفائية، والتنجيم والسحر يكرر التلمود ذلك مراراً «النساء يستسلمن للسحر. كلما ازداد عدد النساء كلما زاد السحر». معظم النساء يملن نحو الرقية المؤذية. (سانح 67a). لذلك تقول وصية الكتاب المقدس (ساحرة لاتستبْق) (خروج 22،18). وقد صيغت بالمؤنث.

2 ـ الزواج ـ الطلاق

كان الزواج وتربية العائلة من الواجبات الدينية، وهو أولى الوصايا التي وجهها الله للبشر: (وباركهم الله وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوانات الدَّابة على الأرض) (تكوين 1،28)

ويؤكد التلمود أن من لا يتزوج يعيش دون فرح، ودون بركة وبلا مال. الرجل العازب ليس رجلاً بالمعنى الواسع للكلمة، لأنه قيل: (ذكراً وأنثى خلقه وباركه وسماه آدم يوم خلق) (تكوين 2،5). أن تكون لك امراة فمعناه أن يكون لك بيت، ومن هنا المثل القائل: «بيت الرجل زوجته»، وكان الحاخام يشوع يقول: لم أنادِ زوجتي إلا باسم بيتي.

يوصى بالزواج المبكر. بالنسبة للرجل يفضل في سن الثامنة عشرة. زوجوا أبناءكم بينما أيديكم ما زالت تمسك رقابهم (بمعنى أنهم لا يزالون تحت رعايتكم). أو من السادسة عشرة إلى الثانية والعشرين ورأي آخر من الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين.

يقال: إن القدوس الواحد (الممجد!) يحرص على أن يكون الزواج في سن العشرين كأقصى حد، ويلعنه إن لم يفعل خلال ذلك التاريخ (ايبيديم 2q.b). لكن ما يثني الرجال عن الزواج هي الأوضاع القاهرة، أو عندما لا يسمح لهم وضعهم المادي بتأمين حياة المرأة. يستنتج التلمود من سفر تثنية الاشتراع (20، 7) [**أي رجل خطب امرأة ولم تزف إليه فليمض ويرجع إلى بيته كيلا يقتل في الحرب فيأخذها رجل آخر**].

(ثم يكلم العرفاء الشعب قائلين أي رجل بنى بيتاً جديداً ولم يدشنه فليمض ويرجع إلى بيته كيلا يقتل في الحرب فيدشنه رجل آخر) هذا هو التوجيه نحو إلزامية الزواج. وتعلِّم التورا السلوك الحسن الواجب اتباعه: على الرجل أن يبني بيتاً أولاً وقبل كل شيء، ومن ثم يغرس كرمه، ثم يتزوج. يقتضي الأمر من أجل الحصول على المرأة «أنه يجب على كل طالب زواج بيع لفافة من التورا ليتزوج، والسبب الوحيد المقبول للتخلي عن الزواج هو ضرورة الحصول على الوسائل اللازمة لمتابعة الدراسة، أما الزواج من أجل المال فهو عمل مقيت ومدان بشدة. (من يتزوج امرأة طمعاً بثروتها، فسيكون أولاده جبناء). إذا لم يكن هناك حب زوجي، فإن صفة الخلق ستصاب بالخلل.

على الأب واجب رئيسي هو التفتيش مبكراً عن زوج مناسب لابنته حسب هذه الآية: «سوف لن تدنِّس ابنتك بإجبارها على البغاء» (أحبار 19،29). هذه الآية تطبق أيضاً على الأب الذي يتأخر عن تزويج ابنته متى بلغت سن الزواج. هذه السن هي الثانية عشرة والنصف، مع أن سن القصور للبنات ينتهي في نهاية عيد ميلادها الثاني عشر (أو في مطلع الثالث عشر) وبموجب القانون التلمودي: «يمنع على الرجل تقديم ابنته للزواج ما دامت قاصراً إلى أن تكبر وتقول: أريد الزواج من فلان أو فلان». لو

زوّجها والدها قبل ذلك فيكون لديها الحق بالرفض حتى يصل عمرها إلى اثنتي عشرة سنة، ويتم إلغاء الزواج من دون طلاق.

الاعتقاد السائد هو أن الزواج لا يتم في السماء فقط، بل هو مقرر حتى قبل الولادة يعلن الشاب أنه سيتزوج ابنة فلان قبل ولادتها بأربعين يوماً. إليكم قصة كلاسيكية ترتكز على هذا المعتقد: «سألت سيدة رومانية أحد الحاخامات: كم يوماً استغرق القدوس الواحد (الممجد!) لخلق الكون؟ ـ قال في ستة أيام ـ ماذا كان يعمل منذ ذلك الوقت حتى الآن؟ ـ ينظم الزواج ـ أحقاً، إنه يهتم بهذا؟ يمكنني فعل الشيء نفسه، فلدي الكثير من الأرقاء من الجنسين، وفي وقت قصير أجعلهم يتزاوجون. قال الحاخام: هذا أمر سهل بنظرك ولكنه أصعب للقدوس الواحد من فصل أمواج مياه البحر الأحمر، استأذنها حول هذا الموضوع. ماذا فعلت السيدة الرومانية؟ استدعت ألف رقيق من كل جنس ووضعتهم صفاً على نسق، وأمرت كل رقيق ذكر الزواج من رقيقة أنثى يرغبها، وفي ليلة واحدة قامت بحل مسألة ألف عملية زواج، وفي اليوم التالي ظهر الرجال أمامها بعاهات مختلفة: بعضهم كانت جباههم محروقة، وآخرون فقئت أعينهم، وآخرون كسرت سيقانهم، سألت السيدة ماذا حصل لكم ؟ قالت إحداهن لا أريده، وقال أحدهم: لا أريدها. أرسلت السيدة في طلب الحاخام وقالت له: ألا يوجد آلهة شبيهة بإلهك؟ إن كتاب التورا صحيح وصحيح جداً. ما قلته لي هو صحيح كلياً. النصائح القيمة والحكيمة التي يقدمها التلمود في اختيار الزوجة، تقود إلى التفكير بأن الاختيار يجب أن يكون حراً. وكمثال، فإنه يدين بشدة الفارق الكبير في السن. النص اللاوي المذكور أعلاه كان مطبقاً على من يزوج ابنته إلى شيخ مسن ويقول الشيء نفسه «كل من يزوج ابنته إلى رجل مسن أو يزوج ابنه من امرأة عجوز يسقط تحت أحكام هذه الآية: [**فإذا سمع كلام هذا القسم تبجح بنفسه قائلاً يكون لي سلام إني بإصرار قلبي أسلك لكي يفنى الريان مع العطشان**] (تثنية الاشتراع 18،29). من المعلوم أنه عندما يموت الرجل من دون أن يخلف أولاداً، وجب على أرملته الزواج من أخي المرحوم، يعلن الكتاب المقدس في هذا الخصوص [**فيستدعيه شيوخ مدينته ويكلمونه في ذلك فيقف ويقول إني لا أرضى أن أتخذها، فتتقدم إليه امرأة أخيه بحضرة الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتتفل في وجهه وتجيبه قائلة: هكذا يصنع بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه**] (تثنية الاشتراع 8،25 ـ 9) يعطي

التلمود هذا التفسير: «هذا يظهر أن القدماء يقدمون نصيحة أو رأياً مفيداً، وإذا كان الرجل فتياً والمرأة مسنة، أو العكس، يقولون له: من غير الحكمة الزواج من امرأة أصغر منك بكثير (أو أكبر منك بكثير)، بل تزوج من امرأة يكون عمرها مناسباً لعمرك، ولا تدخل الخلاف إلى منزلك.

من الضروري إذن، اتخاذ احتياطات حكيمة عند الاختيار، ينصح التلمود بـ «التروِّي في اختيار المرأة». خلافاً للعادات الشرقية، ينص القانون الحاخامي على أنه «يمنع على الرجل الزواج من امرأة دون أن يكون قد سبق ورآها، خوفاً من أن يكتشف فيها لاحقاً عيباً، وتكون مكروهة». ولم يكن مبدأ النسل أيْ تحسين النسل مهملاً أيضاً، ويمكن رؤية ذلك في الرأي التالي: «على الرجل الطويل القامة عدم الزواج من امرأة طويلة القامة أيضاً، كي لا يكون لهم أولاد ضعفاء، وعلى الرجل القصير القامة عدم الزواج من امرأة قصيرة القامة مخافة أن يأتي أولادهما أقزاماً. وصية أخرى بهذا الخصوص: «انزل درجة عند اختيارك المرأة». لأنه عندما تُزوج شخصاً من مرتبة اجتماعية أعلى من مرتبته، فإن أهلها سينظرون إليه من فوق، ويكون التعالي من المظاهر الدائمة مما يؤدي للمشاجرة.

على الزوج تربية أفراد العائلة تربية مثلى، وتعليمهم التورا. الإيمان بالوراثة يثير رغبة جامحة بالزواج من ابنة «بروفسور». على الرجل بيع كل ما يملك للزواج من ابنة عالم، لأنه عندما يموت يكون مطمئناً إلى أن أولاده سيكونون منتفعين. وعلى الرجل عدم الزواج من ابنة جاهل، لأنه إذا مات فلن يتعلم أولاده شيئاً. على الرجل أن يبيع جميع ممتلكاته ليتزوج من ابنة بروفسور، أو ليزوج ابنته إلى بروفسور. ذلك كما لو جمعنا بذوراً من عنب مع بذور عنب أخرى ذاك جيد وهذا رديء. لكن عليه ألا يتزوج من ابنة جاهل، سيكون ذلك توحيد بذور العنب الجيد مع الرديء، هذا الزواج غير مقبول وسيىء. الزواج المثالي الذي أقرّه التلمود، هو من أرفع المُثل. فهو يشير إليه بكلمة كيد وشين (قديسين) سمي هكذا، لأن الزوج يأخذ زوجته من العالم كما لو كانت مهداة للدير (kid ،2b). هذا يفترض الطهارة الصارمة من الجانبين. «اللاأخلاقية في البيت، مثل دودة على نبتة». إنه بؤس وضياع الزوجين. تقول الحكمة: «الرجل من الثمار الناضجة، والمرأة من النباتات النامية». هذا يعني أن عدم إخلاص الزوج (الخيانة) يقابله خيانة المرأة أيضاً.

وللتوضيح أكثر، فإنه عندما يكون الزوجان صالحين، فالشيخينا تسكن معهما، وعندما يكون الزوجان سيئين فالنار تحرقهما (ايبيديم 17a). يرتكز هذا المبدأ على واقع أن الكلمات العبرية «إيش» بمعنى زوج و«إيشا» بمعنى امرأة، تشكلان جناساً تصحيفياً، مع تلك التي تعني «ياه» بمعنى الله و«أيخ» بمعن النار. نصوص أخرى توصي بحياة عائلية شريفة هي: من يحب زوجته كنفسه، يكرمها، ويوجه أبناءه وبناته عل طريق الصلاح والتقوى، يزوجهم باكراً عندما يكونون جديرين، وعلى هذا الرجل يطبق الكلام التالي: **(وتَعلَمُ أن خِباءك أمنٌ وتتعهد منزلك فلا تفقِدُ منه شيئاً)** (أيوب 5،24). احترم زوجتك فإذا فعلت ذلك أصبحت غنياً. يجب على الرجل المحافظة دائماً على شرف زوجته، عندها فقط تظهر البركة في بيته (59a، B.m). على الرجل أن ينفق أقل مما تسمح له إمكاناته، لغذائه ولباسه، وأن ينفق وقدر طاقته لتكريم زوجته وأولاده لأنهم متعلقون به ويتحمل مسؤوليتهم، بينما هو متعلق بخالق الكون.

زوج وزوجة كانا مندمجين مع بعضهما كشريكين في الحياة. من هنا جاءت هذه الحكمة: إن كانت زوجتك قصيرة القامة، انحن وتكلم معها بصوت منخفض. وبعبارات أخرى يجب على الرجل عدم التعالي على زوجته لدى استشارته ببعض الأعمال. الرأي المعاكس صحيح وموجود في نفس النص، «كل من يعمل بنصائح زوجته يكون مصيره جهنم» لكن هذا النص مأخوذ من حالة خاصة متطرفة للملك آشاب الذي أصيب بخسارة فادحة لقبوله مقترحات زوجته جيزابيل.

ومع بداية الحقبة التلمودية، عندما كان الهيكل موجوداً، كان إبرام الزيجات لا يسير أحياناً دون إفساح المجال لسانحة شعرية. هذا ما يُروى لنا: لم يكن للإسرائيليين يوما يسعدون فيه أكثر من يوم 15 آب (الشهر الخامس في التقويم العبري)، وأيام التكفير، عندما كان الشباب من سكان أورشليم يخرجون مرتدين بزات بيضاء، مستعارة لهذه المناسبة لتجنب إذلال الذين لا يملكون واحدة نظيفة منها. كانت صبايا أورشليم يذهبن للرقص في حقول الكرمة صائحات: أيها الفتيان الشباب، انهضوا وانظروا من تريدون أن تكون زوجة لأحدكم. لا تنتبهوا للجمال بل إلى النسب العالي. عادة ما يكون الحب الكبير للزوجة الأولى. من هنا جاءت هذه الأمثال: «عندما تموت الزوجة الأولى للرجل قبله، فهذا كما لو أنه رأى بعينه تدمير

الهيكل»، عندما تموت الزوجة الأولى قبل زوجها يصبح العالم مظلماً أمام عينيه، من يتزوج للمرة الثانية سيتذكر دائماً ما عملته زوجته الأولى.

التلمود كالتوراة يسمح بتعدد الزوجات، غير أنه لم ينصح به. حول هذه النقطة، يذكر في صفحاته آراء متعددة: «يمكن للرجل الزواج بعدد ما يروق له من النساء». هذا ما تؤكده السلطة الدينية، وفي مكان آخر يصرح أنه «لا يمكن وجود أكثر من أربع زوجات». بيد أن حاخاماً ثالثاً يضع المبدأ التالي: «الرجل ملزم بطلاق زوجته إن رغبت هي بذلك، عندما يتزوج ثانية وهي موجودة». أما الكاهن الأكبر فيقول: غير مسموح للرجل الزواج بأكثر من واحدة. إذا كان بعض الناس يمارسون تعدد الزوجات، فهذا غير مؤكد ولم يثبته أي من الحاخامات. الحكاية التالية تظهر أن تعدد الزوجات كان عادة غير مستحبة. «كان ابن الحاخام يهودا الأمير قد كرس اثنتي عشرة سنة من حياته للدراسة بعيداً عن زوجته. وعندما عاد وجدها عاقراً. عندما علم أبوه بالأمر قال: ما العمل؟ لو أنه هجرها فسيقول الناس إن هذه الزوجة الطاهرة انتظرت زوجها سنين طويلة. وإذا ما تزوج بأخرى فسيقال إن له زوجة وخليلة (عشيقة). شرع بالصلاة من أجل زوجة ابنه فشفيت من عقمها. رغم جميع الاحتياطات المتخذة، كان هناك زوجان غير متناسبين. الموضوع لا تنقصه الكلمات: عندما يريد الرجل الزواج من امرأة في فلسطين، جرت العادة أن يسأل هل هي حلوة أم مرة؟ (ماتزا = حلو، موتزي = مر). مفتاح هذا اللغز يكشف عن نفسه في نصين توراتيين: [**من وجد زوجة صالحة وجد خيراً ونال مرضاة من لدن الرب، من طرد زوجة صالحة طرد خيراً، ومن أمسك الزانية فهو ذو سفهٍ ونفاق**] (أمثال 18،22). [**فوجدت أن ما هو أمرُّ من الموت المرأة التي قلبها أحبولة وشبكة ويداها قيود. من كان صالحاً أمام الله ينجو منها أما الخاطئ فيقتنص بها**] (الجامعة 7،26) جميع النسوة لا يبلغن الكمال، نستنتج هذا بوضوح من الملاحظات في الأمثال التالية: «من بين الذين لن يروا جهنم الرجل المحكوم من زوجته الشريرة». «الرجل المحكوم من زوجته هو من عداد أولئك الذين لا وجود لهم في الحياة» (بيتزا 32b). «الرجل المحكوم من زوجته هو كمن يصرخ ويستجير دون أن يسمعه أو ينجده أحد».

ينص التشريع التلمودي على أنه إذا أراد الزوجان الانفصال فإن إبطال زواجهما لا يشكل أي صعوبة. «الزوجة الشريرة كالجذام لزوجها. كيف يتم معالجة ذلك؟

ليهجرها بالطلاق، وبذلك يشفى من مرضه» يقال: «إذا كان لأحدهم زوجة سيئة، فإن الطلاق واجب ديني» (أيبيديم).

في القرن الأول الميلادي، كانت مدرستا هليل وشاماي، تبشران بوجهات نظر متناقضة في تفسير النص التوراتي، [**إذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلاً ثم لم تحظ عنده لعيب أنكره عليها فليكتب بها كتاب طلاق ويدفعه إلى يدها ويصرفها من بيته**] (تثنية الاشتراع 1،24) العبارة وجود «عيب أنكره عليها» تعني حرفياً «العري» أو «الضعف بشيء ما» هذا ما تفسره مدرسة شاماي «لا يحق للرجل هجر زوجته إلا عندما يكتشف أنها غير مخلصة له». أما مدرسة هليل فقد امتنعت عن التفسير: «شيء ما غير لائق» وتقول ما يلي: «يمكنه الطلاق حتى لو أنها أهملت الطبخ لمرة واحدة». وأيضاً «إذا لم تجد حظوة في عينه» يستنتج الحاخام عقبة من ذلك «أنه يمكن هجرها إذا وجد امرأة أجمل منها». حجة النظرية الأكثر تسامحاً هي نظرية تلامذة هليل، التي أصبحت فيما بعد قانوناً.

كان الحاخامات يفضلون النظام البطريركي للتوراة، الذي بمقتضاه يمارس الزوج سلطة مطلقة. لم تناقش هذه القاعدة في التلمود أبداً «يمكن هجر المرأة إذا وافقت أم لم توافق، لكن لا يمكن للزوجة أن تهجر زوجها إلا بموافقته» (yed ،14.1). كان فسخ الزواج يستوجب رسالة طلاق تسمى (Git)، تُعطى للزوجة مباشرة من الزوج أو بواسطة من يكلفه، والواقع أن الزوج هو أول من يتخذ المبادرة بالطلاق، ولا يمكن للزوجة أن تهجر زوجها. هذا الإجراء يؤدي لإصابة المرأة بهوس عقلي. هذا الواقع كان موجوداً ومعترفاً به، ويؤدي للبحث عن بعض الضمانات للمرأة لاحقاً. يعلن القانون التلمودي: «أن المرأة الزانية يجب هجرها» (keth ،3.5)، إلا في مثل هذه الحالة، فإن الزواج غير محبذ، مع أنه موافق عليه. إليكم التصريح الرسمي: من يهجر زوجته الأولى فإن الهيكل يبكي لأجلها، هكذا قيل: [**وهذا أيضاً صنعتم، غشيتم مذبح الرب دموعاً وبكاء وعجيجاً حتى أني لا التفت إلى التقدمة من بعد ولا أقبل من أيديكم شيئاً مرضياً**] (ملاخي 13،2) والله يكره الهجر: [**إذا أبغضتها فطلقها قال الرب إله إسرائيل لكن الجور يغطي لباسه قال رب الجنود: فاحفظا روحكم ولا تغدروا**] (ملاخي 16،2). وقد شرح أحد الحاخاميين ذلك: «إذا أبغضت زوجتك فاطردها». لكن آخرين يشرحونها بصورة مختلفة: «مبغوض من يطرد زوجته» النصان

متوافقان بقبول أن النص الثاني يعني الزوجة الأولى، والنص الأول يخص الزوجة الثانية.

يمكن لظرف ما أن ينذر بحدوث الطلاق الذي يأتي متأخراً جداً، لأن هذا الافتراق كان يجب أن يحدث خلال فترة الخطوبة. تعويض الزواج يعود شرعاً للزوجة. كذلك الآية التي تقول: [**شدَّ نير معاصيَّ في يده فاحتكت وثقلت على عنقي. أسقط قوتي، جعلني السيد في أيد لا أستطيع معها القيام**] (مراثي إرميا 1،14) هل كان هذا مطبقاً على من لديه امرأة شريرة، بفصل خطوبتها سيكون مديناً لها بمبلغ كبير. لكن إذا كان سلوك المرأة يشكل فضيحة، يمكن للزوج الطلاق دون دفع مبلغ الخطوبة. إليكم الحالات التي يفسخ فيها الزواج دون أن تتلقى الزوجة حقها من الخطوبة: إذا انتهكت الزوجة الشرع اليهودي، بتجوالها عارية الرأس (عندما تتزوج المرأة يجب أن تضع غطاء على رأسها، وهذا يمنع عنها أعين الفضوليين)، إذا حاكت الصوف في الشارع، وإذا أقامت حديثاً مع المارة، إذا لعنت أطفال زوجها، إذا كان صوتها جهورياً، أي سماع جيرانها ما تتحدث به في بيتها.

بما أن هدف الزواج إنجاب الأولاد، فإن عقم المرأة يشكل عائقاً أمام هذا الهدف، لذلك وضع شرط: أنه إذا تزوج رجل ولازم امرأته عشر سنوات دون أن تضع طفلاً، فمن غير الجائز، أن يبقى الرجل دون إنجاب. وعندما تتزوج المرأة المهجورة سيلازمها زوجها الجديد عشر سنوات أيضاً، فإذا كان هناك عقم جديد فإن العشر سنوات تحسب منذ حدوث فشل الحمل.

أما الاضطرابات العقلية والنفسية، فلم تكن سبباً للطلاق إلا إذا كانت عائقاً أمام الزواج. «إذا أصيبت امرأة بمس من الجنون، فلا يستطيع زوجها هجرها، وإذا أصبح الرجل مجنوناً فليس باستطاعته الطلاق»، لماذا؟ لأن المرأة لا معين ولا حامي لها وستصبح المرأة المريضة عقلياً ضحية الناس السيئين، وإذا كان الرجل مصاباً بنفس الاضطرابات فلا يمكنه الطلاق، لأنه لا يعلم نتيجة أفعاله.

ومهما نوهنا إلى ذلك نظرياً، فالزوج وحده من يضع نهاية للزواج، والواقع أنه ليس كذلك، إذ يعلن الشرع التلمودي أنه يمكن للمحكمة أن تمارس ضغطاً على الزوج إلى أن يقول: «أقبل بهجر زوجتي». إليكم الحالات التي يعطى فيها الطلاق دون عائق: «رفض إتمام الزواج»، العجز الجنسي عند الرجل، إظهار عدم القدرة على تحمل المرأة،

والتصرف نحوها بنوايا سيئة. إذا تمنى الرجل عدم إقامة أي علاقة زوجية مع زوجته، فإن مدرسة «ساماي» تمنحه أسبوعين، ومدرسة هليل أسبوعاً واحداً، وإذا لم يقم في نهاية المهلة بإلغاء أمنيته والعودة لمساكنة زوجته، فإنه يرغم على الطلاق. يمكن للمرأة أن تتحرر من الزواج الذي لا يعجبها، تصميمها على رفض زوجها، فإن للزوج الحق بإلغاء هذه الأمنية، وإذا استمرت الزوجة في موقفها فيمكنه هجرها دون أن يدفع لها مبلغ الخطوبة.

يمكن للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا أصيب بمرض معد، أو قام بأعمال مثيرة للاشمئزاز «عندما تظهر عيوب في الزوج، فإن المحكمة لن ترغمه على هجر زوجته». كان الحاخام شمعون بن غاماليل يقول: يكون الطلاق إجبارياً في الحالات التالية: إذا كان مصاباً بالجذام، أو يشكو من ورم مخاطي، إذا كان يجمع بعر الكلاب (كان يستخدم قديماً لتحضير الجلود) إذا كان عاملاً في صهر النحاس أو دباغة الجلود، هذه المهن كان يمارسها قبل زواجه ولم يمارسها فيما بعد. صرح الحاخام مئير، أنه في جميع هذه الحالات، حتى ولو حصلت موافقة مسبقة بين الزوجين، فإن الزوجة مخولة بإظهار هذه الحجة: كاعتقادها أنها قادرة على تحمله، لكني الآن أرى أنني غير قادرة على ذلك، من وجهة نظر العقلاء أنه إذا كان هناك وفاق فالزوجة ملزمة بتحمل هذه الأشياء باستثناء البرص الذي تصيبها عدواه.

الغياب والإهمال، لم يكونا سبباً للطلاق، مهما كانت المدة التي لم تتلق فيها المرأة أي خبر عن الزوج. لم يكن مسموحاً للمرأة بالزواج من جديد إلا في حالة شهادة جديرة بالثقة كأن تقول مثلاً: إن الغائب قد مات. كان التنازل واضحاً حول هذه النقطة خلافاً للحق العام. في الواقع ليس هنا الزام بالقانون الذي يتطلب شاهدين لإثبات دافع معين، شهادة واحدة كانت تكفي لإثبات موت الزوج (yeb ،88a). من جهة أخرى وفي بعض الحالات يمكن السماح للمرأة بأن تهاجر مع زوجها، إذا كان لايروق لها أن يرغب الزوج بالسفر إلى فلسطين، والزوجة ترفض ذلك؟ سترغم على اللحاق به، إذا ما استمرت في معارضته ستهجره دون أن تأخذ من مبلغ الخطوبة. أما إذا كانت المرأة ترغب بالسفر إلى فلسطين والزوج يرفض ذلك فسيضطر الأخير إلى تحديد موقفه، وإذا لم يوافق فسيكون الطلاق ومن ثم سيدفع مبلغ الخطوبة، إذا أرادت المرأة مغادرة فلسطين والزوج لا يرغب بذلك فستضطر المرأة إلى البقاء، وإذا رفضت

فسيتم هجرها دون مبلغ الخطوبة. إذا كان الزوج يرغب بمغادرة فلسطين والمرأة تعارض ذلك، فسيضطر الزوج إلى البقاء، وإذا رفض فسيكون ملزماً بالطلاق ودفع الخطوبة.

مع الأخذ بعين الاعتبار، يبدو أن قانون الطلاق لم يؤثر على مصير المرأة. مهما كان إلغاء الزواج سهلاً وغير مثبت فهناك مبالغة واضحة، المثل العالي للحياة الزوجية هو المعلم والممارس لنظام التلمود، قد يكون الانفصال ممكناً في حال الزواج التعيس. تلك محاولات جادة في رفع مستوى العلاقات الزوجية بشكل كبير وسط المجموعة اليهودية.

3 ـ الأولاد

يتميز الشرقيون ومنهم اليهود بامتلاك رغبة قوية في إنجاب الأولاد، والتي غالباً ما تنعكس على صفحات التلمود. التلاعب بالكلمات يتطلب «إنجاب البنين والبنات» إنهم يضمنون مستقبل العائلة والمجتمع (Ber ،47a 1). «شخص بلا أولاد هو إنسان ميت» (تكوين R ،71.6) إنه لا يقوم بالواجب الرئيسي الذي يقع على عاتقه، إن اسمه سيموت معه. العقم المقصود خطيئة كبرى. يمكن التحقق من ذلك بقراءة رواية أو أسطورة. جرى حديث بين النبي إشعيا وحزقيال الملك عندما اشتد عليه المرض. حضر النبي إشعيا بن آموص للسلام على حزقيال الملك وقال له: هكذا يقول الرب: **[في تلك الأيام مرض حزقيا مرضَ موتٍ فوافاه إشعيا بن أموص النبي وقال له: هكذا يقول الرب أوص لبنيك لأنك تموت ولا تعيش، فحوَّل حزقيا وجهه إلى الحائط وصلى للرب]** (إشعيا 38، 1 ـ 2). ماذا تعني هذه الكلمات «ستموت»، لن تعيش أبداً؟ «ـ» ستموت في هذا العالم ولن تعيش أبداً في العالم الآخر. سأل حزقيا: «لم هذا القصاص القاسي؟» لأنك لم تقم بإنجاب الأطفال ـ هذا هو السبب؟ رأيتُ أنه بمساعدة الروح القدس سيولد أبناء غير جديرين مني، هل هذا يدخل في أسرار الرب العطوف؟ يكفي أن تنفذ ما أمرت به، تاركاً القدوس الواحد (الممجد!) يفعل ما يراه مناسباً.

في الحالات التي يضع الحمل الأم في حالة الخطر، فإن استعمال وسائل منع الحمل ليس مسموحاً بل مطلوبٌ. يعبر القانون عن ذلك بالشكل التالي: هناك ثلاث فئات من النساء اللواتي عليهن تجنب الأمومة: القاصرات، النساء الحاملات، المرضعات، الأوائل خوفاً من أن يكون الحمل مميتاً لهن، النساء الحوامل خوفاً من الإجهاض، المرضعات خوفاً من أن يحملهن الحمل الجديد على فطام مبكر للطفل، والذي قد يموت بسبب ذلك.

القصة المؤثرة للحاخام مئير وولديه، تظهر جيداً الطريقة التي كان يعامل بها الأولاد: «حصل أنه بينما كان الحاخام مئير يقرأ في بيت الدراسة في فترة ما بعد ظهر أحد أيام السبت، مات ولداه في منزله. وضعتهما أمهما على السرير وغطتهما بالكفن. انتهى السبت وعاد الحاخام إلى البيت، سأل: أين الأولاد؟ ردت زوجته: «أريد أن أطرح عليك سؤالاً. منذ بعض الوقت جاء أحدهم إلى هنا وسلمني أمانة ثمينة. ويريد أن يستردها الآن. هل يجب أن أعيدها له أم لا؟ طبعاً، كل أمانة يجب أن ترد إلى صاحبها حسناً! ودون أن أطلب موافقتك فقد أعدت الأمانة». عندها أخذته بيده إلى الغرفة العليا ورفعت الكفن الذي يغطي الجسدين، بكى الحاخام لهذا المنظر بكاءً مراً، قالت الأم المسكينة لزوجها: ألم تقل لي إن كل من له أمانة يجب أن تعاد إليه عند الطلب؟ الرب أعطى والرب أخذ فليمجد اسم الرب». [**فقام أيوب وشق رداءه وجز شعر رأسه وخر على الأرض وسجد. وقال عرياناً خرجت من جوف أمي وعرياناً أعود إلى هناك. الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً**] (أيوب 1، 20، 21).

هذه الرواية لا تعبر فقط عن الامتثال التام للأوامر أو القوانين الإلهية، بل تظهر أيضاً أنهم كانوا يعتبرون الأطفال بمثابة أمانة غالية وثمينة مرسلة من الله، بهدف الحرص عليها أشد الحرص. نصوص عديدة تظهر تفضيل البنين على البنات. وأسباب ذلك ما يفسره النص التالي: [**وشاخ إبراهيم وطعن في السن وبارك الرب إبراهيم في كل شيء**] (تكوين 24، 1). ما معنى «كل شيء»؟ أجاب أحد الحاخامات: إنه لم يرزق بالبنات. حاخام آخر أكثر لطفاً: إنه رزق بابنة واحدة.

وضعت زوجة الحاخام طفلة واحدة، وبدا منزعجاً لذلك. ولكي يخفف عنه قال له والده: لقد زاد تعداد العالم واحدة. لكن حاخاماً أخر قال له: والدك يواسيك حقاً،

لأن هذا مثل حاخامي، إذ لم يكن باستطاعة العالم المحافظة على الوجود إلا بجنسين، سعيد من كان أطفاله ذكوراً، وتعيسٌ من لديه بنات فقط «أبيديم».

يفضلون الأبناء الذكور لأنهم سيكونون عوناً لأهلهم عند الشيخوخة، وبمقدورهم إرضاء الطموح الأبوي برؤيتهم وهم يصبحون أطباء ورجالاً مشهورين. الاستياء من إنجاب البنات جاء في رواية «سيراسيد» التي حفظها التلمود. لقد كتب: البنت كنز كاذب لوالدها. لا يغمض له جفن من الخوف. يخاف عليها من السحر في سني طفولتها ومراهقتها، يخاف عليها من الضياع، يخاف عليها في سن الزواج لعدم قدرتها على إيجاد الزوج، وعندما تتزوج يخاف أن تكون عاقراً، مسنة عجوزاً، لا يعرف فيما إذا كانت ستتعاطى السحر والشعوذة؟. الفكرة نفسها في تفسير البركة الكهنوتية: «ليباركك ويحرسك الرب، يجنبك من أن ترزق بالبنات، لأنهن يتطلبن مراقبة دقيقة». الواقع أن الإنسان يحب أطفاله قبل كل شيء، وهذا الحب يفوق حبه لأهله حتى اصبح مثلاً: «حب الأب للأطفال وحب الأطفال يذهب لأطفالهم». الاعتناء بالأطفال والسهر على راحتهم وسعادتهم، وبالأخص الاهتمام باليتامى مطلوب كعمل صالح جدير بالتقدير. «مبارك من يمارس العدل في كل وقت». يقصد بهذا القول الإنسان الذي يطعم أطفاله منذ الصغر. يصرح حاخام آخر أن هذا النص ينطبق أيضاً على أي واحد يأوي الأيتام في بيته ومن ثم يزوجهم.

تحذيرات كثيرة حكيمة توجّه للأهل حول الطرق الصالحة والسيئة للتصرف مع الأطفال. النتيجة المؤسفة التي أوحت هذا الرأي هي انحياز يعقوب ليوسف. «على الإنسان أن لا يميز بين الأولاد». يوصى بأخذ موقف وسط بين المبالغة في المسامحة التي لا تصلح الأخطاء والقسوة المفرطة. «إذا امتنع أحدهم عن معاقبة الطفل، فإنه سيبقى فاسداً دون أمل». لكن يجب عدم معاقبة الولد عندما يصبح في سن الرشد. من ناحية ثانية: على الرجل ألا يبالغ في إرهاب أطفاله. تنص الحكمة تجاه الأطفال والنساء، على ردعهم باليد اليسرى، وضمهم باليد اليمنى (سيماخوت 6,2).

الجدير بالذكر، أن هنالك حالات لبعض التهديدات، قادت صبياً إلى الانتحار. لهذا يقال إنه على الرجل ألا يهدد طفله، بل يعاقبه فوراً، ويفضل أن لايقول له شيئاً (المصدر نفسه).

وصية أخرى هامة ذكرت سابقاً: «يجب عدم القول لطفل أنه سيعطيه شيئاً ما

ولا يفي بوعده، لأن ذلك يعلم الطفل الكذب». وبما أن الأطفال يميلون بطبعهم إلى تكرار ما سمعوه في المنزل، فإن الحكمة تدعو الأهل إلى الحذر في كلامهم بحضور أطفالهم، ما يقوله الطفل في الشارع هو ترداد لكلام أمه وأبيه.

4 ـ التربية

تقضي المسؤولية الرئيسية المنوطة بالأهل، تعليم أطفالهم العيش كأعضاء فاعلين في المجتمع اليهودي، الأمر يتعلق بوضعهم في حلقات متينة في السلسلة المتواصلة التي يجب عليها نقل الإرث الديني، دون مساس بالعقيدة من جيل إلى جيل. لهذا فإن من أهم الواجبات هي تعليم التورا للأطفال [**ولتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك كررها على بنيك وكلمهم بها إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وإذا قمت**] (تثنية الاشتراع 7،64). هذه الوصية ستعلمها بحماسة إلى أطفالك.التصريحات التلمودية التي تظهر أهمية هذا الواجب كثيرة. من يرسّخ التورا في ذهن أولاده فهو أحد أولئك الذين يجمعون ثمارهم بفرح في هذا العالم، ورأسمالهم سيبقى للعالم الآخر (ehab ،127a). «من يعمل ابنه في التورا، كما لو أنه لن يموت أبداً» (تكوين 49.4، R) وقيل ايضاً: [**إنما احترس واحتفظ لنفسك جداً كيلا تنسى الأمور التي رأتها عيناك ولا تزول من قلبك كل أيام حياتك بل علمها بنيك وبني بنيك يوم وقفت أمام الرب إلهك في حوريب حين قال لي الرب: «اجمع لي الشعب حتى أسمعهم كلامي لكي يتعلموا مخافتي طوال الأيام التي يحيونها على الأرض ويعلموا بنيهم**] (تثنية الاشتراع 4،9 ـ 10).

السبب الذي بموجبه منحت التربية مكاناً مرموقاً، هو حب التعليم بحد ذاته. حكمة شائعة تؤكد أنه: «إذا اكتسبت المعرفة فلا شيء ينقصك، لكن إذا نقصتك المعرفة، فأنت لن تكسب شيئاً» (أحبار 1.6، R). وأكثر من ذلك، نحن مقتنعون بعمق أن وجود الجماعة بحد ذاته متعلق بنشر المعرفة. ومن الصعب استعمال مصطلح يعبر عن أهمية التربية. التعابير القوية هي الموجودة في الأمثال التالية: لا تلمس الممسوحين، ولا تؤذ أبنائي (1 حوليات16.23). (الممسوحون أو المدهونون) هم أطفال المدارس،

وأبنائي هم معلموهم. لا يوجد العالم إلا من خلال إلهام التلاميذ. ليس لدينا الحق بتعليق تثقيفهم، حتى لو كان من أجل إعادة بناء الهيكل. المدينة التي لا يوجد فيها أي تلميذ سيكون مصيرها الخراب والدمار.

المعنى الكبير هو ما عبرت عنه الأسطورة التي شكلت جزءاً من عظة (إرشاد) قديمة. لا يوجد فلاسفة في العالم يمكن مقارنتهم ببلعام بن بيور، وبأونيماوس غادارا. فقد قصد جميع الوثنيين هذا الأخير وقالوا له: «كيف يمكننا محاربة شعب إسرائيل وننتصر عليهم؟». أجاب: «اذهبوا إلى كنائسهم (جمع كنيس) ومدارسهم إذا ما سمعتم صخب أطفالهم وهم يتلون دروسهم، فلن تتمكنوا من التغلب عليهم، لأن بطريركهم (أباهم) إسحق أعطاهم هذه الثقة». [**الصوت صوت يعقوب، لكن اليدين يدا عيسو**] (تكوين 27،22) هذا يعني أنه عندما سُمع صوت يعقوب في بيوت المجمع، فإن يدي عيسو تصبح مقيدة.

نظراً للرغبة في تعليم الأطفال وتثقيفهم، فقد تأسست مدارس كثيرة، تعود أول تجربة إلى «شمعون بن شتاخ»، في النصف الأول من القرن الأول ق.م. لكن مخططاً مدرسياً أفضل تنظيماً وصفه «يشوع بن غاملا» قبل عدة سنوات من تدمير الهيكل: «احتفظوا بذكرى طيبة عن الرجل المسمى «يشوع بن غاملا» الذي لولاه لكانت إسرائيل نسيت التورا». كان الواجب يقضتي من كل أب أن يثقف ابنه، وينتج من ذلك أن اليتيم لا يتلقى أي تعليم، فقد حزم الأمر على تعيين معلمين مستقرين في أورشليم لتعليم الأطفال، حيث توجّب على الآباء القاطنين خارج المدينة أن يصطحبوا أطفالهم ليتعلموا ويتثقفوا. لكن الأيتام يظلون محرومين، وقد تم الاتفاق فيما بعد على تعيين مدرسين أو مدربين بمستوى جيد في كل مقاطعة، وبوضع الأطفال بين سن السادسة والسابعة عشرة تحت إدارتهم. ولكن قد يحصل أنه عندما كان المعلم يتذمر من بعض تلامذته فإن هذا التلميذ يتمرد ويهرب من المدرسة. أخيراً جاء «يشوع بن غاملا» وقرر توزيع المدرسين على المناطق والمدن ويوكل إليهم تعليم الأطفال بين سن السادسة والسابعة.

تلك كانت أقدم وثيقة تثبت إقامة مراكز تدريب جماعية موزعة في المناطق والمدن. ومع مرور الزمن، يبدو أن هذه المنظومة العالية بدأت بالهبوط والتدني، حيث صرَّح أحد الحاخاميين: «إذا كانت أورشليم قد دمرت، فإن ذلك سيكون بسبب الناس الذين

أهملوا إرسال أولادهم للمدرسة». لقد قصد الحاخام بهذا التعبير أنه كان يبحث عن سرد بسيط لواقع تاريخي، هدفه إقناع معاصريه بالخطر الذي ينتظرهم من جراء عدم استخدام المدارس لتثقيف أطفالهم. لم يقل إن الأهالي جميعاً متهمون بالتقصير. من جهة ثانية يروي أحد الحاخامات أنه لم يكن يتناول إفطاره إلا بعد أن يصطحب طفله إلى المدرسة.

وفي القرن الثالث بذل الحاخام خيّا جهوداً مضنية لإحياء التعليم الابتدائي وتعميم فائدته، إليكم أقواله: «أجتهد كي أمنع إسرائيل نسيان التورا، كيف سأتدبر الأمر؟ أغزلُ الكتان، أنسج الشباك، أصطاد الغزلان، أطعم اليتامى من لحمها، أحضِّر جلودها لأصنع منها أوراقاً أنسخ عليها التوراة، بعد ذلك أستقر في أحد الأمكنة، وأثقف خمسة أطفال من أسفار موسى الخمسة، وستةً آخرين من فصول الميشنا الخمسة. ثم أقول لهم: منذ بدء غيابي وحتى عودتي، على كل واحد منكم تعليم الآخرين التوراة، والميشنا هكذا منعت التورا من السقوط في عالم النسيان في إسرائيل. تجدر الملاحظة هنا، إلى حماسة الناس واجتهادهم في تثقيف جميع الأطفال مهما كانت أوضاع أهلهم، لم يكن الأطفال الفقراء مهملين ابداً، كان هناك من يقول: اعتنِ بالأطفال الفقراء لأن التورا تأتي منهم».

يبدأ التدريس في منظومة «يشوع بن غاملا» المدرسية في سن السادسة أو السابعة، تُعطي موسوعة آبوث (5، 24) ابتداء من السن الخامسة لكنه يعثر في مكان آخر على هذه التوصية: قبل ست سنوات علينا عدم قبول أي طفل ما كتلميذ، بل نستقبله بعد سن السادسة، ونسمنه بالتورا، كما لو أن الأمر متعلق بثور. جميع السلطات متفقة على بدء التثقيف باكراً (في سن مبكرة) لكن الدراسة المتلقاة في فترة الشباب، قادرة وحدها على إحداث انطباع دائم، وبهذا الخصوص صرح أحد الحاخامات: بماذا نشبه من يتعلم وهو الطفل: إنه اشبه بالحبر الذي نكتب به على ورقة نظيفة، ومن يشبه الذي يتعلم في شيخوخته؟ بالحبر المستخدم للكتابة على ورق مسودة (آبوث 4،2). تأكيدٌ آخر حول الموضوع نفسه. إذا تعلم أحدهم التورا في شبابه فكلام التورا يسري في دمه، ويخرج واضحاً من فمه، والعكس إذا تعلَّم في سن الشيخوخة فإن الحكمة صادقة في قولها: إذا لم تكن لديك الرغبة في التعلم وأنت في سن الشباب، فماذا تفعل عندما تصبح عجوزاً.

وكما جاء في التلمود، فإن المدارس كانت منتشرة وشائعة والتلاميذ كثيرون وقد أدلى، أحد الحاخامات في القرن الثاني بشهادة تفيد أنه كان يوجد في مدينة «بيثار» أربعمائة كنيساً، في كل منها أربعمائة معلم ابتدائي، ولكل معلم أربعمائة تلميذ. لا شك في أن هذه الأرقام مضخمة، لكنها توضح جيداً أن المؤسسات التعليمية كانت منتشرة ولا ينقصها شيء.

الشخصية المهتمة بمهنة التربية كانت محترمة للغاية. لكن الشريعة اليهودية تضع المعلم في بعض الحالات في مرتبة أعلى من مرتبة عائلته. «الأهل يكتفون بإنجاب الطفل إلى هذا العالم، بينما المعلم يقوده للحياة الآخرة». يُروى أن ثلاثة حاخامات كانوا يذهبون معاً لتفقد أحوال التربية في فلسطين، وصلوا إلى منطقة لا يوجد فيها أي معلم، قالوا للسكان: أحضروا لنا حاكم المدينة، فأحضروا لهم حاميتها. صاح الحاخامات: هؤلاء ليسوا حماة المدينة بل مخربوها ـ سألوهم: من هم حماتها؟ ـ أجاب الحاخامات: إنهم المعلمون. لقد كانوا فعلاً حراساً لليهودية، وهم الذين يمكن إعطاؤهم هذه السمة، «ليكن الخوف من معلمك مساوياً للخوف من السماء».

الميزات الأخلاقية والدينية العالية المطلوبة من المربي تنطبق على المثال في نبوءة ملاخي (2.7) [**لأن شفتي الكاهن تحفظان العلم ومن فيه يطلبون الشريعة إذ هو ملاك رب الجنود**] يشرح هذا النص على النحو التالي:إذا كان المربي هو ملاك رب الجنود، فاطلبوا التورا من فيه، وإلا فلا تطلبوها منه. كان الصبر بالنسبة للمربي ضرورة أساسية، لأن الرجل الانفعالي لا يمكنه التعليم.

تُعطى سلطة التفضيل للمثقف المدرَّب والأكبر سناً:ـ«من يذهب للتثقيف عند مُربٍّ شاب، فمن يشبه؟ بمن يأكل العنب الأخضر (الحصرم) ومن يشرب الخمر من دنِّه. ومن يطلب التثقيف من رجل مسن، فمن يشبه؟ بمن يأكل العنب ناضجاً ويشرب النبيذ المعتق. لكن أحد زملائه قدم له هذا الاعتراض البسيط: لا تنظر للكأس بل إلى ما تحتويه. قد تكون الكأس الجديدة مملوءةً نبيذاً معتقاً، وأن الكأس القديمة قد تكون مملوءة بالخمر الجديد.

يدلنا التلمود على بعض الطرق التي كانت سائدة في التثقيف منها: تحديد عدد التلاميذ في الصف الواحد، وليستطيع المعلم ممارسة شخصيته ومراقبة كل منهم: «العدد الأقصى من التلاميذ الموكلين إلى معلم واحد للتعليم الابتدائي هو خمسة

وعشرون. فإن بلغ عدد التلاميذ الأربعين، يمكن لأحد التلاميذ الأكبر سناً، مساعدة المعلم. الثرثرة الزائدة غير محبذه لدى المثقف. على المعلم أن يعبر لتلاميذه بطريقة مختصرة ومع استعمال كتب القراءة، وفن الكتابة، فالمواد الضرورية كانت نادرة وغالية الثمن، يقتصر التعليم على تمرين الذاكرة بالتكرار المستمر. على المعلم تكرار الدرس على مسامع التلاميذ لحفظه (ايروب 54b) فيما يخص الطالب: إذا تعلم التورا، ولم يثابر على مراجعتها، فيشبه من بذر الحب ولم يحصد. من يكرر الدرس مئة مرة ليس مثل من يكرره مئة مرة ومرة.

لمساعدة الذاكرة على الحفظ، كان يطلب من التلاميذ الدراسة بصوت عال. يحكى أن معلماً كان يقول لتلميذه: افتح الفم، وادرس الكتاب المقدس، افتح الفم وادرس الميشنا، لكي تبقى معك. (ايروب 54a) وفي هذا الاتجاه أيضاً، الأمر يتعلق بتلميذ يتعلم دروسه دون لفظها بشكل واضح، المحصلة أنه بعد ثلاث سنوات لن يعرف شيئاً.

قطعة من التلمود لافتة للنظر، تدلنا كيف يتعلم الأطفال الهجائية العبرية، دعماً للذاكرة ولجعل التعليم ممتعاً وسهلاً، كان يشكّل كل حرف من حروف الكلمات، لكن الأحرف الهجائية كانت تستعمل سابقاً لإعطاء ثقافة دينية وأخلاقية، فتستحق أن يذكر هذا الدرس بكامله:

الأطفال يذهبون إلى المدرسة، يستظهرون أشياء لم تكن حتى في عهد يشوع، ابن نون (A و B)، هما الأحرف الأولى من كلمتين معناهما على التوالي: «كسب الذكاء» (G. D) أحسن للفقير. لماذا G متوجهة نحو D: لأن الرجل المحسن يجري نحو الفقير. لماذا قدم (D) متجهة نحو (G)؟ لأن الفقير يتقدم نحو من يساعده. لماذا وجه (D) يبتعد عن (G)؟ ليتعلم أن الإحسان يجب أن يتم سراً، بهدف عدم إذلال المحتاج للحسنة. H وV تشيران إلى اسم القدوس الواحد (الممجد!)، يظهر لك نعمته، ويجزيك خيراً، ويعطيك إرثاً، ويتوجك في الدهر الآتي: L.K.Y.T.K.H.Z. . (كل واحد من هذه الأحرف يعطي مفتاح العبارة أو الجملة التي تليه). إذا تصرفت على هذا النحو تجاه الفقير، فإن القدوس الوحيد(الممجد!) يساعدك، ويشملك بنعمته ويجزيك خيراً، ويعطيك إرثاً، ويتوجك في الدهر الآتي: انظر M مفتوحة وM مغلقة، تشير إلى أن بعض العقائد يمكن للعقل إدراكها، بينما تصعب عليه العقائد الأخرى. انظر ن

منحنية وN قائمة، ذلك من يخلص لله عندما ينحني أمام الشدة وفي الحالة العادية S وA تعطيان كلمتين بمعنى «تحمل الفقير» أو حسب رواية أخرى، «استخدم وسائل مساعدة للذاكرة» عندما تدرس التورا، لتساعد الذاكرة على الحفظ. انظر P قائمة، وP منحنية تصور فماً مفتوحاً وآخر مغلقاً. انظر TZ منحنية وTZ قائمة تظهر أن الرجل إذا كان عادلاً ينحني وقت الشدة، وكذلك في الزمن العادي. K هي الحرف الأول لـ «قديس» R هي الحرف الأول من «شرير خبيث» لماذا K تدير ظهرها لـ R؟ يقول القدوس الواحد (الممجد!): لا أستطيع رؤية الشرير. لماذا قدم K تتوجه نحو R؟ لأن القدوس الواحد (الممجد!) يقول: إذا ندم الشرير فإني سأمنحه تاجاً يشبه تاجي. لماذا ساق K تنفصل عنها؟ إذا ندم الشرير يمكنه الدخول من الفسحة ليجد نفسه مع القدوس الواحد (الممجد!) C H هي الحرف الأولى، بطلان أو كذب، خطأ.

T H الحرف الأول من «حقيقة». لماذا كلمة «كذب» مؤلفة من ثلاثة أحرف هجائية متتابعة في بداية ووسط ونهاية الأحرف الهجائية؟ لأن الكذب هو شيء شائع، والحقيقة شيء نادر. لماذا كلمة «كذب» ترتكز على نقطة بينما حكمة الحقيقة ذات أساس متين؟ لغرض تعليم أن الحقيقة باقية والكذب زائل.

يتعلق الأمر في المدارس الابتدائية بتعليم التلاميذ اللغة العبرية والتوارة، يخبروننا أنه لدى دراسة كتب موسى الخمسة، كانوا يبدأون باللاوية، لماذا نجعل الأطفال يأخذون بسفر الأحبار دون التكوين؟ قال القدوس الواحد (الممجد!): لأن الأطفال أشقياء، والأضاحي قرابين طاهرة نقية. والأنقياء يبدأون الاهتمام بالقرابين.

هناك تنوع في الآراء حول مسألة ما إذا كان من الضروري دراسة اللغة اليونانية، وخاصة ما يتعلق منها بالفكر اليوناني. الإجماع ضد هذه الآراء. يصرح الحاخامات بقسوة: (ملعون من يعلم ابنه الفلسفة اليونانية) الجواب هو الفعل المقلق الذي تسببه تلك الفلسفة في أذهان أولئك الذين يتفرغون لها. يعلمنا أحد الحاخامات ما يلي: كان في مدرسة والدي ألف تلميذ، خمسمائة منهم يدرسون التورا، وخمسمائة آخرون يدرسون الفلسفة اليونانية، من هؤلاء الآخرين لم يبق منهم سوى ابن أخي وأنا. يجب التمييز بين اللغة اليونانية وفلسفتها، بعض الدكاترة كانوا يوجهون بحرارة نحو دراسة اللغة اليونانية. بركة نوح: [**ليرحب الله ليافث، يسكن في أخبية سام ويكون كنعان عبداً له**] (تكوين 27،9) شُرحت عل النحو التالي: أن يكون كلام يافث (أي اللغة

اليونانية) موجودة في أخبية سام. من جهة أخرى أجاب حاخام على سؤال ما إذا كان مسموحاً لرجل لديه متسع من الوقت كي يعلم اليونانية لابنه، أجاب: أنه مسموح له إذا توفر لديه وقت لا في الليل ولا في النهار. كما في سفر يشوع (1،8) [**لا يبرح سفر هذه التوراة من فيك بل تأمل فيه نهاراً وليلاً لتحفظه وتعمل بكل المكتوب فيه فإنك حينئذ تقوم طرفك وحينئذ تفلح**]. لكن أحد زملائه صرح بأنه يمكن لرجل أن يعلم اليونانية لابنه لأن ذلك يكسبه المهارة.

كان الطلاب يوزعون على أربع فئات: هناك أربعة أنواع من التلاميذ: سريع الفهم وسريع النسيان، يختفي ربحه بخسارته، يفهم بصعوبة وينسى بصعوبة، خسارته تعوض بربحه، من يفهم بسرعة وينسى بصعوبة كمن يكون نصيبه جيداً، من يفهم بصعوبة وينسى بسرعة، نصيبه سيىء. ميزة أخرى: هناك أربعة أنواع من الذين يجالسون الحكماء يُشبَّهون بالإسفنج، القمع، المصفاة، والمنخل، الإسفنجة تستوعب كل شيء، القمع يتلقى من أحد طرفيه ويطرح من الآخر، المصفاة تدع الخمر يمر وتبقى الحثالة أما المنخل فيطرح النخالة ويحتفظ بزهرة الدقيق (أبيديم 18).

ما هو المكان الذي تعطيه المنظومة التربوية التلمودية للبنات؟ نصادف في هذا الإطار نظريات متعاكسة تماماً فيما بينها. صرح أحد الدكاترة: كل رجل ملزم بتعليم التورا لابنته، لكن يقرأ بعد ذلك على التورا: أي شخص يعلِّم التورا لابنته يفعل كما لو كان يدرب على الفحش، والأغلبية تؤيد ذلك حيث كانت تُبشر وتؤيد الرأي الأخير: مثلاً في سفر تثنية الاشتراع (11،19) [**وعلموها بينكم وتدارسوها إذا جلستم في بيوتكم وإذا مشيتم في الطريق وإذا نمتم وإذا قمتم**] الكلمة العبرية تعني حرفياً أبنائك الذكور وهذا يستثني البنات. قال أحد الحاخامات: «الأفضل أن تأكل النار كلام التورا من أن ينقل للنساء».

وعندما تسأل امرأة أحد الحاخامات بخصوص العجل الذهبي، فإنها تتلقى هذا الجواب «ليس لدى المرأة ما تتعلمه اللهم إلا معرفة استعمال المغزل».

من الممكن أن تعود وجهات النظر هذه إلى ما اعتبرناه التربية العليا، جميع الواجبات الدينية تهم الرجال كما تهم النساء، لذلك هن بحاجة لتثقيف أقل عمقاً. في تلك الحقبة كانت حياة المرأة داخل منزلها. ويمكن الخوف من أن إدارة بيتها ستتأثر كلياً خلال المدة التي ستقضيها في الدراسة، والجهد الذي ستبذله لها. غير أن هذا

النفور تجاه التثقيف الموسع الذي سيُعطى للمرأة، قد يعود لأسباب أخرى. كان الزعماء الدينيون في إسرائيل يعرفون كل ما يجري في اليونان وروما حيث كان تثقيف النساء يضعهنَّ في علاقات متواصلة مع الرجل، دون أن ينتج من ذلك انحلال كبير في أخلاقهن. الخوف من الوصول إلى هذا الوضع يمكن ملاحظته في المثل الذي يشير للعجز. وبالمقابل لم يكن الحاخامات يجهلون ما كان يجري في المسيحية حيث دفعت الحماسة الدينية نساء مهمات، ليكرسن أنفسهن للعزوبية على عكس الطائفة اليهودية التي اعتبرت أن الزواج حالة يريدها الله. لا يمكنهم اعتبار المستقبل بهذا الشكل إلا بشيء من الاشمئزاز. يستنكر التلمود بعض الأمراض (مدمرو العالم) ضمنها إناث الفريسيين (Sot ،3.4) أي نساء ذوات تقوى مبالغ فيه. كان احتمالاً جداً من أجل ممارسة ميول من هذا النوع حيث بدا الحاخامات غير موافقين للنساء على دراسة عميقة للتوراة.

5 ـ حب الوالدين

يعطي التلمود أهمية رئيسية للاحترام الواجب تقديمه للأهل ويعتبره إلزاماً دينياً. ومن جراء هذا الالتزام فإن كل واحد يقطف بفرح الثمار في هذا العالم بينما أهم من ذلك مخصص له في العالم الآخر. تضع التوراة (الكتاب المقدس) الطاعة والاحترام الواجب تقديمهما للأهل في مصاف طاعة وتكريم الحاضر في كل مكان (الله) [**أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك**] (خروج 12،20)، وأيضاً: [أكرم الرب من مالك ومن أوائل جميع أغلالك] (الأمثال 9،3). يضع الكتاب المقدس أيضاً مخافة (أي الاحترام) الأهل على قدم المساواة مع مخافة الله قيل: [**كل واحد يحترم أباه وأمه**] (لاوي 3،10) وأيضاً: [**فاحذر أن تنسى الرب الذي أخرجك من ارض مصر من دار العبودية بل الرب إلهك تتقي وإياه تعبد وباسمه تحلف**].

يستنتج من النصين الآنفي الذكر أن الواجب تجاه الأهل أكثر صرامة من المطلوب تجاه الله: ما أعظم مبدأ احترام الأهل، لأن القدوس الواحد (الممجد!) يعطيه أهمية

أكبر من احترامه لذاته. مكتوب: احترم أباك وأمك وأكرم الرب من مالك. بماذا تكرم وتخدم الله؟ بما منحك إياه، بإتمام الشرائع مثل تلك الحزمة من العشب الملقاة في زاوية الحقل، العشور، الإحسان إلى الفقراء. إذا كنت تملك وسائل الاستجابة لهذه الوصايا، فافعل ذلك، لكن إذا كانت هذه الوسائل غير متوفرة فإن الالتزام بها لايطالك. ليس الأمر كذلك بالنسبة لاحترام الأهل، إن كنت تملك الإمكانات فأنت مرغم على إطاعة الوصية حتى لو كنت متسولاً من باب لآخر.

هناك حالة من الاحترام والتكريم الواجب تقديمهما لله تتجاوز ما يجب تقديمه للأهل، عندما يؤدي هذا الاحترام إلى عصيان أو مخالفة إحدى وصايا الله. يمكن التفكير لو أن أباً أمر ابنه بتدنيس أو عدم إعادة شيء ضائع عثر عليه، فواجب الابن ملزم بإطاعة والده، ويجب تعليم هذا النص: [**كل من يحترم أباه وأمه، عليه أن يلتزم بأيام السبت**] (أحبار 19،3)، كل واحد منكم عليه استحقاق الشرف لي).

عبارتان مختلفتان مستعملتان أعلاه: المخافة والتكريم، إليكم كيفية تعريفهما: كلمة مخافة يجب أن يفهم منها بأن لا يأخذ مكان والده، أو يجلس مكانه، يناقض كلامه، أو يعمل خلافاً لرأيه. يجب أن يفهم أن عليه واجب الطاعة والاحترام، وتقديم الطعام، الشراب، المأوى، ومساعدته في كل شيء.

يذكر الأب في المقام الأول في الوصية الخامسة، لكن في (أحبار 19،3) تُذكَرُ الأم أولاً، [**ليهب كل إنسان أمه وأباه وسُبوتي فاحفظوها أنا الرب إلهكم**] لشرح هذا الفرق تطرح نظرية مبنية على الموقف النفسي للابن تجاه كل واحد من والديه. أوصي أمام من قال (الله) منذ وجود العالم أن على الابن أن ينحني ويكرم أمه أكثر من أبيه، لأن أمه تمنحه الحنان والحب والعطف، لهذا أعطى القدوس الواحد (الممجد!) للأب المقام الأول في المقام الأول من الاحترام الواجب تقديمه للأهل. لقد أوحي عرف أمامه أيضاً (الله) أن الابن يميل للخوف من والده أكثر من أمه، لأن أباه هو من علمه التورا، لذلك أعطى القدوس الواحد (الممجد!) الأم في القيادة المتعلقة بالمخافة الواجب إظهارها تجاه الأهل.

يستنتج من ذلك وجود مساواة بين الأب والأم في مجال حب الوالدين. غير أنه بموجب القانون التلمودي وفي حال وجود خلاف في الواجبات البنوية، يجب تفضيل

الأب. سئل حاخام: إذا قال لي أبي: أعطني ماء لأشرب، وأمي وجهت لي الطلب نفسه، لمن استجيب أولاً؟ أجاب الحاخام: عندها دع التكريم الواجب لوالدتك وكرم أباك أولاً، لأن من واجبك أنت وأمك أن تكرما والدك.

يتلقى البيت الذي يقدم الاحترام للأهل، النعمة والحضور الإلهي. يقول القدوس (الممجد!) عندما يكرم شخص أباه وأمه: أقدِّر ذلك كما لو أنني اسكن معهم وكنت مكرماً. وعندما يُحزِن شخصٌ والديه، يقول القدوس الواحد: «فعلتُ حسناً أنني لم أسكن معهم، لأنه في هذه الحالة سأكون خائفاً. حتى لو كان شاهداً على تحريض من والديه فإنه ملزم بضبط النفس وعدم القيام بأي عمل يدل على قلة الاحترام. سئل حاخام: إلى أي حد يجب أن يكرم الإنسان أهله؟ أجاب: افترضوا أن أباه أمسك بكيس مليء بالنقود وألقاه في البحر بحضور ابنه، فعل الأخير هو عدم تأنيب أو إذلال والده. فرضية أخرى: إذا رأى ولد والده يخالف إحدى وصايا التورا فعليه ألا يقول: أبي أنت تخالف التورا. بل أبي: أنظر إلى ما كتب في التورا، اعترضه بالقول. إنه عندما يعبر بهذه الطريقة فإنه سيشعر بالحزن، لذلك طلب القول بشكل أفضل: «أبي، يوجد في التورا آيات كذا وكذا..» تاركاً حرية الاستنتاج.

ليس على التكريم فقط أن يتقدم، بل الوحي الصحيح للأفعال. يقال في التلمود: «أطعم رجل أباه طيوراً سمينة، فكان نصيبه جهنم، بينما رجل آخر أرسل والده للطاحون فاستحق الفردوس. كيف حصل هذا؟ بالنسبة للأول: سأله أبوه، يا بني: أين وجدت هذه الطيور؟ أجابه ابنه: أيها العجوز، كل واسكت، لأن الكلاب تأكل دون أن تتكلم، أما الثاني فكان يطحن القمح بنفسه في الطاحونة، عندما جاء أمر من الملك بمصادرة عمال المطاحن عندها قال لوالده: خذ مكاني وأنا أذهب للملك، فإذا كانت هناك شتيمة ومذلة أو ضرب، من الأفضل أن أكون أنا من يتحملها.

اشتهر بعض الحاخامات بتقديم الاحترام لأمهاتهم، فقد قيل عن أحدهم: «عندما كان يسمع وقع اقدام أمه كان يصرخ» سأنهض أمام الشيخينا. يروى عن الحاخام «طرفون» قصصٌ كثيرة مثلاً: في كل مرة تريد أمه أن تستلقي على السرير، كان يركع لتصعد على ظهره، وكذلك عندما تنزل. كانت أمه تريد الذهاب إلى فناء الدار، يوم السبت فزلت قدمها، عندها وضع يديه تحت قدمي أمه وتابعت سيرها على يدي ابنها إلى السرير. في أحد الأيام بينما كان «طرفون» مريضاً جاء العقلاء لزيارته. قالت لهم

أمه: صلوا من أجل ابني طرفون الذي يعاملني باحترام أكثر مما يجب، طلبوا منها أن تقول لهم ماذا يفعل، فروت لهم القصة عندما زلت قدمها. عندها صرخوا، حتى لو أنه فعل أكثر من ذلك بمليون مرة، فلن يسدي إليك بنصف ما تأمر به التورا حول تكريم الأهل.

أفضل القصص حول هذا الموضوع نسبت إلى شخص غريب طلب من حاخام: ـ«إلى أي حد يجب أن يصل تكريم الأهل؟ أجاب:انظر ما فعله أحد الوثنيين الذي يسكن عسقلان ويدعى داما ابن نيثينا. فقد أراد العقلاء شراء بعض الأحجار الثمينة لترصيع ثوب أحبار اليهود ومما ربحه ستمائة ألف وآخرون قالوا ثماني مئة ألف. لكن المفتاح كان تحت الوسادة ووالده يغط في نومه آنذاك، رفض الابن إزعاج والده. وفي العام التالي، أعطاه القدوس الواحد (الممجد!) مكافأة بأن أنجب قطيعه عجلة شقراء (صهباء) جاء حكماء إسرائيل لشرائها منه. قال لهم: أعرف أني لو طلبت منكم مال العالم فستقبلون بدفع المبلغ، لكني أطلب منكم فقط المبلغ الذي فقدته وأنا أكرم والدي.

بدت والدته بلهاء، قليلاً ظاهرياً، وتصرفت علانية معه بطريقة، مؤلمة غير أنه تحملها بتفانٍ كبير، كان يرأس مجلس مدينته. في إحدى المرات صفعته أمه أمام كل المجلس، وقد أفلت الخف الذي ضربته به من يدها. فالتقطه وأعاده أليها، كي لا تبذل جهداً وتنحني لتأخذه.

مرة أخرى كان يلبس جلباباً من الحرير مطرزاً بالذهب. خلعت عنه الثوب وضربته على رأسه، وبصقت في وجهه، لكنه لم يحرك ساكناً كي لا يخجل من عملها.

الاحترام الواجب للأهل، يجب أن يستمر أيضاً حتى بعد موتهم، على كل إنسان أن يكرم أباه حياً أو ميتاً. وإذا كانت لابنه مناسبة للتحدث عنه، عليه ألا يقول: هكذا كانت يتكلم والدي، بل هكذا يتكلم والدي معلمي، والتكفير عن موته، يجب أن يستمر لسنة كاملة بعد الوفاة. وبعدها عليه أن يقول: ليكن ذكره مؤبداً.

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية

1 ـ الفرد والجماعة

لم يكن الإنسان مهيأً للعيش منفرداً، بل عضواً في المجتمع. إنه عضو في جسم البشرية (الإنسانية). ولهذا السبب أوجد الله له واجبات كثيرة مرتبطة بعلاقاته مع الناس الآخرين. حياته ليست ملكاً له يعبث بها كيفما يشاء، سلوكه يؤثر على جيرانه، كما يؤثر سلوكهم عليه. هذه الحقيقة واضحة في النص التالي (إعداد 16،22) [**فسقطا على أوجههما، وقالا اللهم يا إله أرواح كل ذي جسدٍ رجلٌ واحد يخَطأ وعلى الجماعة كلها تَسخطُ**]. **الأمر أشبه بطاقم على متن سفينة، أخذ أحدهم مثقاباً وبدأ يفتح ثقباً تحت مقعده. قال له الآخرون: ماذا تعمل هنا؟ أجاب: ما هُمّكم؟ أليس هذا المكان مخصصاً لي إنني أثقب تحت مقعدي، لكن الماء سيدخل منه ويغرقنا جميعاً**].

وقد لخص هلِّيل في هذا المثل الموقف الواجب على الفرد اتخاذه تجاه الجماعة بما يلي: إذا لم أكن أنا لنفسي، فمن يكون لي، كوني لنفسي، فمن أكون؟ (1.14، Aboth) في الحالة الأولى يجب الثقة بالنفس وتجنب التبعية للآخرين. بينما كان المطلوب جهاراً القيام بأعمال البرّ تجاه المحتاجين،فإن فكرة تلقي الإحسان من الآخرين لذاته كانت تنفر اليهودي. «اجعل من سبتك يوماً عادياً (بما يخص الطبخ)، لكن لا تلجأ لمساعدة قريبك». وقيل في مكان آخر: «قم واجمع العظام من الشارع (عند احتلال المدينة)، واكسب بهذه الطريقة رزقك، ولا تقل: «أنا رجل محترم ولي مكانة مرموقة، والعالم تحت سيطرتي». مقطع من أعمال النعمة تتبع وجبة الطعام، تعود للحقبة الحاخامية يتضمن هذا الدعاء: «نتوسل إليك يا ربنا وإلهنا أن لا تجعلنا بحاجة إلى الصدقات من لحم ودم (الكائنات البشرية) أو لقروضهم، لكن فقط المحدودة، المفتوحة، المقدسة، الكريمة بطريقة لا نكون خجلين ومرتبكين للأبد».

إليكم نصوصاً أخرى تظهر الإرشاد نفسه: يصبح العالم مظلماً لكل من يسقط تحت هيمنة مائدة الآخرين، عندها لا تكون حياته وجوداً حقيقياً. عندما يتصدق إنسان من ماله، يرتاح فكره، غير أنه إذا تلقى جزءاً من مال أبيه، أمه، أبنائه، فلن يهدأ باله، ومن غير المجدي إضافة الشيء نفسه إلى من يملك حصة في مال الغرباء. الفرح

بمكيال واحد من ملكنا الخاص هو أكبر من تسعة مكاييل من مال الغير. جاء في سفر التكوين (8،11) [**فعادت إليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه جفت عن الأرض**].

تقول اليمامة أمام القدوس الواحد (الممجد!): أن يكون طعامي أمرّ من الزيتون، ولكن عندما يتقدم منك يصبح حلواً كالعسل، لكنه متعلق بالجسد والدم. ماذا تعني هذه الكلمات، في أي وقت تكون الدناءة معظّمة بين أبناء البشر؟ ما أن يجد إنسان نفسه بحاجة إلى مساعدة قريبة، فإن وجهه يتبدل قبل الكيروم. ما هو الكيروم؟ طائر ساحلي سمي هكذا، لأنه عندما تسطع الشمس يتبدل لونه ويأخذ أشكالاً عدة. الرجل الذي يقتصر دوره على تلقي المعونة من قريبه، يكون كما لو حكم عليه بجرمين: حكم النار، وحكم الماء.

مع أن روح الاستقلالية فضيلة، فمن الضروري عدم الاعتقاد بأن الفرد قادر على أن يكون منفصلاً عن قريبه. كوني لذاتي، من أكون؟ لقد أخذت الحياة منحىً تطورياً معقداً جداً يشعر الإنسان بحاجات كثيرة، لدرجة أن من واجبه الأخذ بعين الحسبان الراحة التي يدين بها لعمل الآخرين. استسلم حاخام لهذا التأمل: «أي عمل كان ضرورياً لآدم كي يحصل على الخبز ليأكله؟ حرثَ الأرضَ، بذَرَها، حصدَ القمحَ ودرسَهُ، ذَرَّاه لفصل السنابل، طحَنهُ، عجَنهُ، خبَزَه، بعد ذلك أكَله. أما أنا فعكس ذلك أنهض صباحاً فأجد كل شيء أمامي. كذلك بالنسبة للملبس: أي عمل كان عمله؟ جزَّ الصوف، غسَلَه، حلَجَه، غزَله، نسَجَه قبل أن يصبح لباساً لارتدائه. أما أنا فما عليّ سوى النهوض صباحاً فأجد كل شيء جاهزاً. جميع الحرفيين تحت تصرفي، يقرعون بابي، أنهَضُ فأجد نتاج عملهم مدركاً لكل ما هم مدينون به للناس البسطاء، وللذين ساهمت جهودهم في تأمين رفاهيتهم، فمن واجب الأغنياء التقليل في تمييز وفصل الطبقات الاجتماعية. حكمة من تلك الحقبة تقول: إذا استؤصل الجسد فما نفع الرأس؟ هذا يؤكد على الترابط بين الناس في جميع الظروف. مثل آخر يظهر تضامن وتلاحم الفرد مع المجتمع: «إذا انهار البيت، فيا لتعاسة نوافذه». إذا توجب على الفرد أن يفهم وهو يشحذ ضميره، أن نشاطه هو في خدمة الجماعة، فعليه تجنب الفكر الشرير لغطرسة الطبقة، لقد شرحت وجهة النظر هذه بطريقة لافتة من حاخامات أكاديمية «يا بني» الشهيرة: أنا من خَلْقِ الله، وجاري أيضاً، أعمل في المدينة، ويعمل

في الحقول أنهض باكراً للعمل وهو أيضاً، إذا لم أستطع أن يكون بارعاً في مهنتي، فأنا لا أقدر أن افعل مثله في مهنته. قد تقولون إنني أرغب في فعل أشياء كبيرة، وهو أشياء صغيره؟ عملنا في هذه الأشياء أكان كبيراً أم صغيراً، فنحن نعمل لما هو ضروري، وكل واحد منا يوجه قلبه نحو السماء.

القصة التالية، نُسجت من وحي حاخامي أصيل. يُروى أن شخصاً يدعى شمعون من قرية سخنين، يعمل في حفر الآبار، قال في أحد الأيام للحاخام «جوخانان بن زكاي» أنا رجل كبير مثلك، أجاب الحاخام: كيف ذلك؟ لأن عملي أهم من عملك بالنسبة للجماعة، عندما تقول لرجل أو امرأة بضرورة استخدام الماء للطهارة الطقسية، فأنا من يؤمن ذلك. على 4، 17) أفضل مغزى هو تفسير هذه الكلمات: [**الرب راعيَّ فلا يَعْوزُني شيء**]. لا يوجد في العالم مهنة مختصرة أكثر من مهنة الراعي الذي يمضي حياته متجولاً حاملاً عصاه وخرجه، ومع ذلك فإن داود يسمي القدوس الواحد (الممجد!) بالراعي (ميدراش).

أن يعيش الإنسان وحيداً فذلك ضرب من المستحيل. هذه الحقيقة الهامة اكتشفها «خوني» راسم الدوائر. ويروى عنه أنه كان طوال حياته يربك نفسه بالنص الذي يقول: [**إذا ردَّ الربُّ سبيَ صهيون كنا كالحالمين**] (مزمور 1.125) وكان يسال: هل يمكن لسبعين سنة أن تنقضي كالحلم؟ في أحد الأيام، بينما كان سائراً في الطريق، شاهد رجلاً، يزرع شجرة خَرَوب. قال له: إن هذه الشجرة لن تحمل ثمراً قبل سبعين سنة، فهل أنت متأكد أنك ستعيش طويلاً لتأكل منها؟ أجاب الرجل: وجدت العالم مجهزاً بأشجار الخرّوب، مثلما زرعه لي أجدادي فأنا أزرع لأحفادي، هناك جلس «خوني» وتناول طعامه، ثم استسلم للنوم، وخلال نومه تشكلت مغارة حوله بطريقة لا يستطيع أحد رؤيته، فنام سبعين سنة. وعندما استيقظ من نومه؟ شاهد رجلاً يقطف الثمار من نفس شجرة الخروب ريأكلها. سأله: هل تعرف من زرع هذه الشجرة؟ إنه جدي. صاح «خوني» صحيح، إن سبعين سنة مضت مثل حلم. عاد إلى منزله وسأل ما إذا كان ابن خوني راسم الدوائر ما زال على قيد الحياة. قالوا له إن ابنه غير موجود، ولكن حفيده حيٌّ الآن. قال للحفيد ولسكان البيت: أنا خوني، لكنهم لم يصدقوه. ذهب بعد ذلك إلى الأكاديمية حيث سمع الحاخامات يقولون: إن دراستنا اليوم سهلة مثلما كانت في زمن «خوني» راسم الدائرة. وعندما دخل الأكاديمية وجد نفسه أنه

قادر على حل جميع المسائل الصعبة التي تعترض الدكاترة ـ قال لهم: أنا من يدعى «خوني» لكنهم لم يصدقوه، وامتنعوا عن تقديم الاحترام الذي كان يقدم له. عندها طلب من الله أن يميته، ومات. ومن هنا جاءت الحكمة: «إما أن تعيش في المجتمع أو تموت».

آية من سفر الجامعة 4، 9 [**اثنان خير من واحد لأن لهما جزاءَ خيرٍ عن تعبهما**] هذه الآية تلخص العلاقات الاجتماعية، من هنا يعلن أن على كل إنسان الحصول على صديق، ليقرأ الكتاب المقدس معه وليدرسا الميشنا سوية، ليأكلا ويشربا معاً، يتبادلان أسرار بعضهما (سيفري) التعاون المتبادل هو السمة الرئيسية في الحياة كما تقوله الحكمة: إذا أردت أن تنزل حملاً فأنا أريد أيضاً، وإذا لم ترد فأنا لا أريد.

فكرة أخرى يتم التلميح إليها للغرض نفسه وهي الالتزام بالتقاليد الموضوعة: «لا تفصل نفسك عن الجماعة (آبوث 5،2). هذا رأيِ هلِّيل، لا تتسرع كي تجعل من نفسك استثناء. يجب على الإنسان أن يبقي فِكرهُ متناغماً مع فكرة قريبه. المثل التالي يقدم النصيحة: «إذا دخلت إلى مدينة أو بلدة فالتزم بقوانينها». تدعم التوراة هذا الاتجاه بقوة وبطريقة غريبة [**وأقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر**] (خروج 34، 28). وعندما نزل الملائكة المحتفلون على الأرض، كان القوم يأكلون [**ثم أخذ زبداً ولبناً والعجلَ الذي أصلحه وجعل ذلك بين أيديهم وهو واقف أمامهم تحت الشجرة فأكلوا**] (تكوين 18،9).

كان معروفاً أن الإنسانية تحوي نماذج كثيرة، بعضها جدير بالمديح والثناء، والآخر في تناقض واضح. هناك أربع صفات بين الناس: منهم من يقول: ما هو لي هو لي، وما هو لكم هو لكم. هذه ميزة محايدة إذا صح القول أشبه بشعب سدوم. الذي يقول: ما هو لي هو لكم، وما هو لكم هو لي. والإنسان القديس يقول: ما هو لي هو لكم، وما هو لكم هو لكم، ومن يقول: ما هو لكم هو لي، وما هو لي هو لي إنه إنسان خبيث وشرير.

أكبر كنز يكسبه الإنسان هو احترام قريبه، هناك ثلاثة تيجان: تاج التورا، تاج الكهنوت، تاج الملك. لكن تاج السمعة الحسنة يفوقهم جميعاً. ما هو الطريق المستقيم الذي يجب على الإنسان أن يسلكه في الحياة؟ ذلك من يشعر أن الطريق صالح

ومشرِّف له، الطريق الذي تشرفه به البشرية. من هو المحترم؟ هو من يحترم الآخرين.

وقد اعتبر الذين يظهرون أنفسهم أنهم شعبيون مع رفاقهم سينالون استحساناً ورضىً من الله. ذلك من يروق له فكر الآخرين، فإن روح الحاضر تفرح له في كل مكان. إنه تصريح نموذجي جداً للحاخامات يظهر أن العلاقة بالنسبة لهم، ليست بين الإنسان وخالقه فقط، بل أيضاً علاقاته مع أقرانه.

مقولات أخرى تعبر عن نفس العقيدة في «التورا»، الأنبياء، الكتبة، تفرض على كل إنسان القيام بواجبه تجاه الآخرين، كما تجاه الله. كيف يحصل هذا من التورا؟ [**فإذا خضعت الأرض بين يدي الرب وبعد ذلك رجعتم تكونون أبرياء عند الرب وعند إسرائيل وتكون هذه الأرض ميراثاً لكم أمام الرب**] (العدد 22،32). ومن الأنبياء؟ [**الرب هو الإله القادر هو الإله القادر. إنه هو يعلَمُ وإسرائيل سيعلَمون إن كان بتمرد أو عصيان على الرب فلا يُنجِّنا في هذا اليوم**] (يشوع 22،22).

والمقدَّسات؟ [**فتنال الحظوة والتعقل عند الله والناس**] (أمثال 4،3).

كان كلام إشعيا مفهوماً في هذا السياق [**قولوا للصديق لك الخير لأنهم يأكلون من ثمرة أفعالهم**] (إشعيا 20،3). هناك عادل وصالح وآخر سيئ. الصالح تجاه الله وقريبه هو الصالح العادل، ومن هو صالح تجاه الله وشرير تجاه قريبه إنه عادل وغير صالح. «الويل للشرير التعيس» (سيك، إيبيدم 11) هناك شرير تعيس وشرير غير تعيس، من يكن شريراً تجاه الله وقريبه فهو شرير تعيس، ومن يكن شريراً تجاه الله وغير شرير تجاه قريبه فهو شرير غير تعيس.

يحتوي التلمود على هذه القواعد العامة للسلوك: اخضع للأعلى، كن لطيفاً تجاه المتضرع، استقبل جميع الناس بسرور ورحابة صدر ـ على الإنسان دائماً أن يضع في أجوبته الدماثة التي تهدئ الروع والغضب، وتزيد من السلام مع إخوته وعلاقته مع الجميع، حتى مع الوثنيين السائرين في الشارع، بطريقة يكون فيها محبوباً فيها من الأعلى، وشعبياً على الأرض، ومستحباً من القريب.

يشكل الإخلاص الصارم للدولة موضوع أوامر ووصايا قطعية: «صلِّ من أجل ازدهار الحكومة، فعندما يخافونها فالناس يستوعبون جميع الكائنات الحية» يضخم التلمود هذا المبدأ «عامل الناس مثل أسماك البحر» لأنه بين أسماك البحر الكبير يأكل الصغير كذلك يفعل الناس، فلولا خوفهم من الحكومة، فإن الأقوياء يبتلعون الضعفاء

(A.Z ،4a). أبدى الحاخامات الحب الظاهري لكل حكومة جديرة بممارسة الحكم، فهي تتلقى الرضى الإلهي في عملها. مرتبة واحدة من المراتب الثلاث يطالب بها الله نفسه هي: «زعيم أو حاكم صالح» يحصل على موافقة الشعب عندما يبدأ بالحكم. فيجب عدم تنصيب أي زعيم للطائفة أو الجماعة دون استشارة الشعب أولاً، لأنه قيل: [**وقال موسى لبني إسرائيل انظروا إن الرب قد دعا بصلائيل بن أوري بن حور من سبط يهوذا باسمه**] (خروج 35،30) طلب القدوس الواحد من موسى: هل يناسبك بصلائيل؟ أجاب موسى: يا سيد الكون، إذا كان مقبولاً منك، فكم بالحري بالنسبة لي! لكن الله قال له: مع ذلك اذهب وكلِّم الشعب عن ذلك. ذهب موسى وسأل إسرائيل: هل تقبلون بصلائيل؟ أجابوا: إذا كان مقبولاً بالنسبة للقدوس الواحد الممجد! ومنك، فكم سيكون مقبولاً أكثر بالنسبة لنا.

يذهب التلمود إلى حد التصريح بما يلي: «حتى المسؤول عن الينابيع تعينه السماء».

من أجل هذا، يمكن فهم الملاحظات التالية: من يتصرف بوقار أمام الملك، يعادل من يعمل الشيء نفسه أمام الشيخينا من يتمرد على السلطة الملكية، يعد مذنباً ويستحق الموت.

هذه العقيدة مؤكدة وثابتة بالمثل الذي وضعه بعض أبطال التوراة: عليكم أن تكونوا دائماً جديرين بأقدام الملكية وهكذا قيل: [**فيصير إليَّ جميع عبيدك هؤلاء ويسجدون لي قائلين اخرج أنت وجميع الشعب الذين في عقبك وبعد ذلك أخرج. ثم أخرج من عند فرعون بغضب شديد**] (خروج 11،8) احتراماً للملك، لم يقل موسى أنت (فرعون) ستنزل إليَّ. يمكن استنتاج الشيء نفسه من موقف إيليا الذي أحاط كليتيه بحزام وركض أمام عربة أشاب.

بموجب هذا المبدأ يعبَّر عن القانون بالشكل التالي: من يعتبر ملوك إسرائيل عليه أن يقول: «لِتُمَجَّد أيها الرب إلهنا، ملك السماء والأرض، يا من أعطيت جزءاً من مجدك للذين يحبونك ويخافونك».

وبما يتعلق بملوك الشعوب الأخرى، سيقال: «لِتُمجَّد... يا من أعطى لخلقه جزءاً من مجده»، على كل من يتحرك ويسرع لملاقاة ملوك إسرائيل، وغيرهم، وأيضاً للقاء ملوك الشعوب الأخرى، لأنه إذا كنا جديرين بهم، فسوف نميز (في زمن المسيح) بين ملوك إسرائيل وملوك الشعوب الأخرى.

المبدأ الأساسي لسلوك اليهودي حيال الدولة معبرٌ عنه في هذه الجملة: «قانون البلد هو القانون المطبق» على كل يهودي يعيش في بلد خاضع لقوانين مختلفة، غير قوانينه فواجبه احترام هذه القوانين. حتى أنه من الواجب أيضاً توفيق قانون اليهودي مع قانون الدولة، إذا كان هذا ممكناً، شرط أن لا يشكل هذا التوافق خرقاً للمبادئ الأساسية للتورا، يعبِّر عن هذه القاعدة بوضوح في النص التالي: [**أنا المتكلم احفَظْ أمر الملك وعلى الخصوص لأجلِ اليمينِ لله**] (الجامعة 8،2). يقول القدوس الواحد (الممجد!) لإسرائيل: «أرجوكِ، إذا فَرَضتُ عليك الدولة متاعب كثيرة، فلا تتمردي عليها بأي شكل، بل أطيعي أوامر الملك» ومع هذا إذا حدث ذلك، وأعلن عن إلغاء التورا، والوصايا، عندها لن تطيعي أبداً بل قولي: أنا طوع أوامر الملك مهما كانت إرادته؟ غير أنه بسبب القسم الذي تم أمام الله، لا تسرعي بالابتعاد عنه [**لا تعجل في الانقطاع عن وجهه ولا تصر على أمر خبيث فإنه يصنع كل ما يشاء**] (جامعة 8،3).

هذه المراسيم لن تجعلكِ تهملين وصايا الله، بل تبغي إرغامك على أفكار القدوس الواحد الممجد!.

رغم الاحترام الواجب للسلطات المعنية، يوصي التلمود بقوة بعدم طلب رضاهم «أحبب العمل، اكره السلطة ولا تبحث عن صداقة الحكام» يعطى السبب لذلك: كن حذراً حيال الحكام، لأنهم يستميلون أي إنسان نحوهم إذا كان لمصلحتهم الشخصية متخذين إياه بشكل صديق عندما تتطلب مصالحهم ذلك، ولن يكونوا حاضرين لمساعدتك عند الشدة.

نصيحة أخرى «كن ذيل أسد ولا تكن رأس كلب» هذا يعني: كن بالأحرى عضواً متواضعاً وسط جماعة بارزة بدلاً من أن تكون مشتركاً مع من هم أقل مرتبة منك، قصد إظهار العجرفة والكبرياء، ويكرر أيضاً أنه من الواجب تجنب ذر الغبار بالعيون ورفض المواقف الباهرة. وكما يقول التلمود: إن أحد الأسباب التي تنتقص الحياة ما هي إلا بسبب الظهور بمظهر الفوقية. لماذا مات يوسف قبل إخوته؟ (ومات يوسف وجميع إخوته وسائر ذلك الجيل) (خروج 1،6) لأنه كان يظهر ملامح فوقية. وكما يقال: «السلطة تدفن من يستلمها» وهي ليست سوى عبودية.

لا يقصد بهذا، إبعاد الناس عن القيام بمسؤولية منصب رسمي، بل توجيه اللوم

للبحث الملح الذي يأتي رغبة بطموح أناني. هذا الرأي مفسر في الحكمة التي تقول: حاول أن تكون رجلاً حيث لا رجال (آبوث 6،2). يلاحظ التلمود في هذا الخصوص ما يلي: الاستنتاج أنه عندما يكون هناك رجل، فيجب ألا يكون غيره. والمعنى هو التالي: عندما يكون هناك عمل عليك فعله لصالح المجتمع فلا تكن مغروراً، ولا تقف في المقدمة، لكن عندما يهمل الجميع هذا العمل فابدأ أنت بتنفيذه حتى نهايته. وفوق ذلك، يجب إنجاز العمل دون الطمع أو دون انتظار ثناء أو مديح: «الذين يهتمون بشؤون المجتمع، يفعلون ذلك، باسم الرب»، لأن فضائل آبائهم تدعمهم وتبقى استقامتهم أبدية. وبالنسبة لك (سيقول الله في هذه الحالة: أعتبرك جديراً بمكافأة عظيمة، كما لو قمت بكل هذا بمفردك).

2 ـ العمل

من واجب الإنسان أن يعمل، ليس فقط لكسب عيشه، بل ليساهم بدوره في المحافظة على النظام الاجتماعي. وكما رأينا سابقاً، فإن دراسة التورا كانت مطلباً هاماً، والأجدر من كل الاهتمامات، حيث كان لدى الحاخامات ما يكفي من الحس العلمي لفهم أن وجود العالم نفسه يصبح غير ممكن فيما لو اقتصر جميع الناس في حصر أنفسهم بعمل معين في الأبحاث المثالية. من هنا جاءت الحكمة: العمل الرائع هو دراسة التورا المترافقة ببعض الاهتمامات الزمنية، لأن العمل المطلوب من هذه الجهة أو تلك ينسي الخطيئة. وكل دراسة للتورا دون أن يصحبها عمل آخر، ستكون ضارة وتؤدي للخطيئة.

إليكم في هذا السياق الوسيلة الصحيحة المطلوبة من إنسان عادي: إذا ردَّد رجل خلال الفترة الصباحية فقرتين من الشريعة، وفقرتين في الفترة المسائية، وانكب طوال يومه على عمله، يعتبر كما لو أنجز التورا بكاملها، قد يكون من المناسب تمييز احتجاج حاخامي ضد الحياة التي كان يسلكها أولئك الذين كانوا يمتنعون عن القيام بأي عمل زمني، ليصرفوا اهتمامهم فقط للتفكير والتأمل الروحيين: عظيم من يقطف ثمرة عمله ممن يخاف الرب، لأنه كتب: سعيد من يخاف الرب. ونقرأ بالنسبة للأول: «عندما

تفرح بعمل يديك فأنت سعيد، وغني» أنت سعيد في هذا العالم، وستكون غنياً في العالم الآخر. غير أنه ليس مكتوباً سيكون غنياً لمن يخاف الرب.

تظهر كرامة وقدسية العمل دائماً عبر الأدب التلمودي: ما أعظم العمل، عندما يرفع من شأن الحرفيين. تلك هي اللازمة لهذا الكلام. يجب أن يكون هكذا، لأنه عنصر هام للمخطط الإلهي المتعلق بالإنسان، هذه هي الحكمة الحاخامية: «أحبب العمل» وهذه عظة: «لم يتناول آدم طعامه إلا بعد أن عَمل»، وكما قيل: [**وأخذ الرب الإله الإنسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرثها**] (تكوين 2،15) وقيل بعد ذلك: [**وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً من جميع شجرة الجنة تأكل**] [(تكوين 16/2) كذلك القدوس الواحد الممجد! لم يدع الشيخينا تسطع على الإسرائيليين إلا بعد أن شرعوا بالعمل، كما قيل: [**فيصنعون لي مقدساً فأسكن فيما بينهم**] (خروج 25،8). إذا كان أحدهم غير مستخدم فماذا عليه أن يفعل؟ إذا كان يملك، فناء، أو حقلاً مهملاً، أو مكاناً خرباً، ليعمل به، كما قيل: [**في ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك**] (خروج 20،9) هذا من أجل تبيان أن من يملك، فناء، أو حقلاً أو خراباً عليه أن يعمل به لتحسينه. «الإنسان لا يموت إلا من البطالة».

وحسب الأسطورة عندما أعلم القدوس الواحد الممجد آدم أن الأرض ستنتج له السنابل والطين: [**وقال الرب لآدم إذا سمعت لصوت امرأتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً لا تأكل منها فملعونة الأرض بسببك بمشقة تأكل منها طول أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الصحراء**] (تكوين 18/3). اغرورقت عيناه بالدموع، فقال له آدم: يارب، هل أنا وحماري سنأكل من نفس الغذاء؟ ولكن عندما أضاف الله: [**بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود**] (تكوين 19/3). وفي الحال انفرجت أساريره وعادت إليه فرحته (8a، ps.11). فالإنسان يرقى بأخلاقيته عن مرتبة الحيوان.

والحقيقة، فإن العمل أساس وجود البشرية، اختر الحياة: [**وقد أشهدْت عليكم اليوم السماء والأرض بأني قد جعلت بين أيديكم الحياة والموتَ والبركةَ واللعنةَ فاختر الحياة لكي تحيا أنت وذريتُكَ**] (تثنية الاشتراع 30،19) بمعنى اختر مهنة. هكذا تعبر الفكرة عن نفسها بنفس القدر من القوة والأناقة (لا تسطع البركة إلا بالعمل

اليدوي للإنسان) (توسيفنابير 8،7)، تصريح آخر يجعل من العمل الطريق المؤدي للسعادة، تعلن الشريعة حتى لو استطاع الرجل أن يقدم لزوجته مائة خادم، فعليها أن تقوم بنفسها بجزء من عمل المنزل، لأن البطالة والفراغ يؤديان إلى الفسق والخلل العقلي.

المكانة الهامة التي يشغلها العمل في كوادر الكون منوه عنها بالطريقة التي يفسر بها هذا النص: ظهر الله في الحلم ليلاً إلى «لابان» وقال له كما كتب: [**فاشتد ذلك على يعقوب وخاصم لابان وأجاب يعقوب وقال للابان ما جرمي وما خطيئتي حتى ترث في عِقَبي**] (تكوين 26،31) نعلم من هذا، أن أفضل العمل يؤدي إلى مكانة قد لا يمكن بلوغها باستحقاق من الأجداد، كما قيل: [**ولولا أنَّ إله أبي إبراهيم ومهابة إسحق معي لكنت الآن قد صرفتني فارغاً وقد نظر الرب إلى مشقتي وتعب يديَّ ووبخك البارحة**] (تكوين 42،31). إذا كان الأمر كذلك، فإن فعل الأجداد لم يؤمن له سوى حماية أملاكه، وقد نظر الرب إلى مشقتي وتعب يدي، ووبخك ليلة البارحة. يظهر هذا بأن الله وبخ لابان لإساءته إلى يعقوب بسبب عمل يديه، بهذا الشكل يصرح بأن على الرجل أن لا يقول: آكل، سأشرب، سأعتني دون جهد، لأن السماء ترأف لحالي. لهذا قيل: [**ألم تكن سيَّجت حوله وحول بيته وحول كل شيء له من كل جهة وقد باركت أعمال يديه فانتشرت أمواله في الأرض**] (أيوب 10،1). على الإنسان أن يعمل بكلتا يديه، عندها سيضمن له القدوس الواحد الممجد! البركة.

وكما جاء في الحكمة الشعبية: من لا يعمل لا يأكل (تكوين 10، 14، R). أكثر من ذلك على المرء أن لا يجعل من حاجاته الشخصية سبباً لعمله. وهذا ما يُشار إليه بالحكاية التالية: كان الإمبراطور أدريان يتجول على شاطئ بحيرة طبريا، فشاهد رجلاً مسناً يحفر الأرض ليزرع الأشجار. دنا منه وقال له: أيها العجوز لو أنك عملت وأنت شاب لما كنت مضطراً للعمل وأنت في مثل هذه السن. أجابه العجوز: لقد عملت جيداً في شبابي كما الآن، وأن الرب تصرف معي حسب مشيئته. سأله أدريان عن عمره فأجاب العجوز: مائة سنة. بهت الإمبراطور، مائة عام وما زلت تحفر الأرض لتزرع الأشجار! أتعتقد أنك ستأكل من ثمارها؟ أجاب العجوز: إذا كنت أهلاً لذلك فسوف آكل منها، وإلا كما أن آبائي عملوا لأجلي، فأنا أعمل من أجل أبنائي (أحبار 25.5، R).

لم يكن الحاخامات يحضّون على العمل اليدوي فقط بل يوافقون أفعالهم مع تعاليمهم. قيل لنا إذا كان البعض منهم ينتمي لعائلات ميسورة، فتبقى الغالبية العظمى من الصناع البسطاء، يؤمنون حياتهم بصعوبة بالغة. قصة هلّيل الفقير التي أشرنا إليها سابقاً. ومن الحاخامات من يعتبر أن كسب قوت يومه هو أن يصنع كل يوم بالة من الصوف ليبيعها. كان يشوع يصنع الفحم ويعيش في غرفة جدرانها ملطخة بالسواد من جراء ذلك. كان ميئير يعمل ناسخاً، كان يشوع بن خلفتا صانعاً للجلد وكان جوخانان يصنع الصنادل (أيوب 4، 14) ويهودا خبازاً. آبّاسول يعجن الطحين، كان حفاراً للقبور.

يقول الحاخام جوزيف بما يتعلق بالشعب اليهودي في القرن الأول للميلاد: لا يسرنا أن نهتم بالتجارة ولكننا نظراً لوجود أماكن سكننا في أرض خصبة، فقد اقتصر جهدنا على ممارسة الزراعة (12، 1، C. Apion). قد يكون هذا التأكيد عاماً، لكن ما يدعو للملاحظة أنه عادة عندما يرجع التلمود إلى أناس قائمين على رأس عملهم، فالأمر يتعلق بالأعمال الزراعية. المقطع المذكور سابقاً، والمتعلق بإنشاء حاجز للتورا، هو البرهان على ذلك، لأنه يتحدث عن رجل عائد من الحقل الشيء نفسه في حديث الحاخام «يابني»: عملي في المدينة، وعمله في الريف.

عندما يراد المقارنة بين الحياة الزراعية والأعمال اليدوية الأخرى والتجارة، فإن الآراء منقسمة كلياً: هناك تأكيدات كالتالي: العمال من كافة قطاعات الدولة سيعودون في النهاية إلى الأرض. من لا يملك قطعة أرض، فهو ليس رجلاً في الواقع وتطبق في فلسطين الآية التالية: [**شدَّ نيرَ معاصيَّ بيده فاحتبكت وثقلت على عُنقي. أسقَطَ قوتي. جعلني السيدُ في أيدٍ لا أستطيع معها القيام**] (مراثي إرميا 1، 14). أحدهم يتعلق غذاؤه بماله وليس بالزراعة. وكان قد أعلن بجدية أنه لا عمل أكثر دناءة وتواضعاً من زراعة الأرض. مائة زوز (درهم) مستثمرة في الأعمال تقدم تكاليف الغذاء يومياً، بينما نفس المبلغ المكرس للزراعة يعطي ما يكاد يكفي العيش على الملح والخضار. إضافة لذلك، يجب النوم في الحقل فوق التراب لحراسة المحصول ليلاً، مما يسبب احتجاجاً من الجوار. حاول حاخام التوفيق بالتوصية التالية: على الرجل أن يقسم ما يملكه إلى ثلاث حصص: حصة في الزراعة ومثلها في الأعمال، والباقي يحتفظ به لنفسه.

وبشكل خاص، عندما يكون مردود الأرض ضعيفاً، عندها تعطي المهنة اليدوية الأخرى الأمان وتحفظ الكرامة تقول الحكمة: [**استمرت المجاعة سبع سنوات، لكنها لم تصل إلى باب الصانع**]. إنه يشعر بقليل من الضيق أوقات الأزمات التي تصيب المزارعين.

وبالتطرق لمهن العمل يقول الحاخامات: كل رجل ملزم بتعليم ابنه مهنة، ومن يمتنع عن ذلك فإن ابنه يصبح لصاً. ومن يملك مهنة يدوية يشبَّه ببستان كرمةٍ محاط بالحواجز، لا تستطيع المواشي أو أي حيوانات أخرى الدخول إليه، كما لا يستطيع المارة قطف ثماره أو رؤية ما في داخله، لكن من ليست لديه مهنة يشبه بستاناً أسواره مهدمة تدخله المواشي وسائر الحيوانات، يرى المارة ما بداخله ويختلسون ثماره.

كان يميز بين مختلف المهن التي يمكن اعتمادها، البعض موصى بها، والبعض الآخر كان معيباً على الرجل أن لا يعلم ابنه مهنة تضعه بصحبة النساء. بل يعلمه مهنة نظيفة وسهلة. وأن لا يعلم ابنه مهنة سائق الحمير، أو أن يكون جمالاً، بحاراً، حلاقاً، راعياً، حانوتياً، لأنها أعمال اللصوص. حاخام آخر قدم نفس الملاحظة: معظم سائقي الحمير خبثاء وأشرار، ومعظم الجمالين شرفاء، وغالبية البحارة أتقياء، وأفضل الأطباء مصيرهم جهنم، وأشرف الجزارين غير طاهر. رأي آخر أيضاً: لن تختفي أية مهنة من هذا العالم، سعيد من يرى أهله يمتهنون أعمالاً رفيعة المستوى، وتعيس من يراهم يمتهنون أعمالاً خسيسة، لا يمكن للعالم مثلاً الاستغناء عن دباغ الجلود، وكذلك بائع العطور، لكنه سعيد من يمارس مهنة العطار، ومسكين من يمارس مهنة دباغة الجلود.

يحاول التلمود شرح أسباب استمرار القيام ببعض الأعمال من حيث طبيعتها، والتي تسيء لمن يتعاطونها. ماذا يعني هذا الكلام من الكتاب المقدس: [**أنشأ كل شيء حسناً في وقته وجعل ممرَّ الدهور أمام عقولهم من غير أن يدرك البشر أعمال الله من المبتدأ إلى المنتهى**] (الجامعة 3،11). نعلم أن القدوس الواحد الممجد! قد جعل كل عمل مقبولاً بنظر من يقوم به.

هناك وسيلة لكسب العيش يحتقرها الحاخامات ويصفونها بتعابير قاسية ورهيبة، إنه الرّبا. شهادة المرابين غير مقبولة في المحاكم (سانح 3،3). تعالوا انظروا ضلال المرابين، إذا نعت رجل أحد أصحابه بالفسق، يقاضيه الأخير أمام العدالة، وقد يصل الأمر إلى سجنه وقطع مصدر عيشه. لكن المرابين يعملون بطريقة مختلفة: يأخذون شهوداً،

ناسخ الكتاب المقدس، ريشة كتابة، حبر، يكتبون ويزوِّرون وثيقة تفيد أن هذا الرجل ينكر إله إسرائيل، ويقولون: من لديه المال ويقرضه بدون فائدة يطبق عليه ما هو مكتوب.«من يطلب الفائدة» على ماله فلن يتزعزع مطلقاً. يمكن الاستنتاج من ذلك أن من يقرض بفائدة سيفقد ما يملك. يمكن تشبيه المرابين بسفاكي الدماء. ومن يتقاض فائدة فإن الكتاب المقدس سيلصق التهمة به، كما لو ارتكب الأفعال السيئة وكل التعديات في العالم، لأنه مكتوب: [**ويعطي بالربا ويأخذ ربحاً أفيحيا. أنه لا يحيا بل بما أنه قد صنع جميع تلك الأرجاس يموت موتاً ويكون دمع عليه**] (حزقيال 18،13) لكن من يقرض دون فائدة؟ فالقدوس الواحد الممجد! يأخذ ذلك بالحسبان كما لو أنه أتم كل المبادئ والتعاليم لأنه قيل: لم يمارس الربا بماله، إلخ.

3 ـ العامل ورب العمل

العلاقات بين المستخدِمين والمستخدَمين محددة بدقة متناهية في التلمود، مع التمييز بدقة كبيرة بين مسؤوليات كل منهما ويعتبر تنفيذ شيء بمثابة عقد بين الطرفين، يجب على كل منهما احترامه. والغبن يكون عندما يوقف رب العمل راتب العامل أو العكس.

واجبات المُستخدِم: الالتزام بالأعراف والعادات التي تنظم العمل في مكان وجوده أو إقامته: «من يستخدم عمالاً لخدمته، يأمرهم ببدء العمل باكراً، والانتهاء متأخراً. أما في الأمكنة التي لا يسود فيها بدءُ العمل باكراً وانتهاؤه متأخراً، فمن غير الجائز إجبارهم على تجاوز عدد ساعات العمل المعتادة. وإذا اقتضت العادة إطعام العمال فيجب إطعامهم، وإذا اقتضت العادة تقديم الحلويات والفواكه بعد الطعام فعليه الامتثال لذلك يجب أن يتم كل شيء حسب عادة المدينة أو المقاطعة».

على المُستخدِم أن يراعي حق العامل الذي يعمل عنده في حالة تعرض العامل لحادث ما، فليس من حقه التأكيد على حقِّه في تطبيق العدالة القانونية. الحكاية التالية توضح بدقة أكثر: أقدم عمال استخدمهم (رابا بار بار خانا) على كسر برميلَ نبيذ (دن) له. فعاقبهم بمصادرة ثيابهم، تقدموا بشكواهم إلى «راب» حيث أمره بإعادة

ثيابهم تساءل هل هذا شرعي؟ - أجاب «راب» نعم لأنه مكتوب [**لكي تسير في طريق الأخيار وتحفظ سبل الصديقين**] (الأمثال 2، 20) فأعاد لهم ثيابهم. عندها قال العمال: نحن فقراء، لقد عملنا طوال النهار، ونحن جياع، وفي فاقة. قال «راب» لـ «رابًا» ادفع لهم ضمانهم، سأله: أهذا قانوني؟ أجابه: نعم لأنه مكتوب: [**لأن المستقيمين لا يسكنون الأرض والسُلماء يبقون فيها، أما المنافقون فيُستأصلون من الأرض والغادرون يقُتلعون منها**] أمثال (2، 21، 22).

فوق كل شيء على المستخدِمين دفع أجرة العمل المنفذ فور استحقاقه. تأمر الشريعة بما يلي: العامل المستخدَمُ ليوم واحد يتلقى أجره في الليلة التالية؛ إذا ما استخدم لليلة واحدة فإنه يتلقاها خلال النهار الذي يليه؛ وإذا ما استُخدمَ لأسبوع، شهر، سنة، فترة سبع سنوات فإنه سيتلقى راتبه في اليوم الذي تنتهي فيه فترة الاستخدام، إذا ما انتهت نهاراً أو ليلاً.

تأخير الدفع إلى ما بعد الزمن المحدد، يعاقب عليه كخطيئة وثنية، ويلام دون شفقة [**من يؤخر الأجر المستحق لعامل، فإنه يخالف خمساً من وصايا التورا**] (أحبار 13، 19) وكتب أيضاً: [**لا تهضم أجرة مسكين أو فقير من أخوتك أو من الدخلاء الذين في أرضك ومدنك**] (تثنية الاشتراع 14،24) [**لا تؤجل أجر عامل ليوم الغد. بل ادفع له أجره في يومه وقبل أن تغيب عليها الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه لئلا يصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطيئة**] (تثنية الاشتراع 15،24) وقبل غياب الشمس. وشُرِّدَت إسرائيل لتأخرها في دفع رواتب الأجراء (مراثي إرميا 3، 1) من يؤجل دفع ضمانات أجير، يعتبر كما لو أنه خذله في حياته. وقد فسر الحاخام هذه العبارة بقوله: كما لو أنه أخرج روحه من جسده. كما قيل: [**لا تسلب الفقير لكونه فقيراً ولا تسحق البائس عند الباب لأن الرب يخاصم لخصومتها ويقبض نفوس الذين قبضوهما**]. حاخام آخر يعتبر أن المقصود هو الشخص المظلوم، لأنه قيل: [**الفقير السائد في سلامته خير من المنحرف**].

واجبات المُستخْدَمين: وقتُهم، وقدرتهم أو طاقتهم قد بُحثت أيضاً، عليهم بذلها بإخلاص كتعويض عن أجرهم وعدم إعطاء رب العمل أفضل ما يمكن من الخداع والغش الشبيه بفعل ذلك التاجر الذي لا يقدم قياسات دقيقة. هذه فكرة الحاخامات العملية دون النظرية، كما تنص على ذلك الروايات التالية: يُروى عن جوزيف «أبًا»

البناء، أن طَلَبَ أحدهم منه إعطاء رأيه في بعض الأمور، بينما كان يعمل فوق السقالة: «لديَّ شيء ما سأطلبه منك. أجاب جوزيف: لا أستطيع النزول، لأنني مستخدم طوال النهار». كان مقتنعاً بأنه ليس لديه الحق بإنقاص أي وقت من الزمن العائد لرب العمل ولحل المشاكل.

رواية أخرى من نفس النوع: حصل خلال أزمة جفاف أن أرسل الحاخامات اثنين من مرشديهم إلى «أبًا هيلكيا» حفيد خونت راسم الدوائر ليطلب منه صلاة الاستسقاء. قصدا منزله فلم يجداه، توغلا في الحقول فشاهداه يحرث الأرض ألقيا عليه السلام لكنه لم ينتبه لهما. عندما عاد إلى منزله سألاه لماذا لم ترد علي تحيتهما. فأجاب: كنت مؤَجَّراً لعمل طوال النهار، وظننت أنه ليس من حقي التوقف عن عملي.

لقد بنيت قاعدة على هذا المبدأ: ليس الرجل مخولاً ليعمل ليلاً في حقله، وأن يؤجر نفسه خارجاً في اليوم التالي. وليس من حقه أن يودي بحياته جوعاً، أو أن يفرض على نفسه تضحيات جسيمة تنقص من مردوديته الواجبة عليه من رب العمل. وللسبب نفسه كان القانون التلمودي يسمح للعمال القيام بجزء من عباداتهم اليومية حينما يكونون على قمة شجرة أو سقالة واختصار أعمال الشكر بعد وجبات الطعام، مبدأ آخر، من يخالف تعليمات رب العمل يسمى لصاً.

إلى جانب العمال المستأجرين، كان يُطلَب تشغيل الرقيق من اليهود أو الوثنيين. يصوغ التلمود أيضاً قواعد محددة حول طريقة معاملتهم. قبل كل شيء العبد أو الرقيق العبري، حسب الشريعة التوراتية يمكنه الانقطاع عن العمل كونه رجلاً حراً، للسببين التاليين: أن يبيع نفسه لكي يطعم ويسكن، أو يمكن أن يباع بأمر من محكمة حكمت بمعاقبته لذنب ارتكبه كالسرقة مثلاً. حرمان الذات من الحرية يعتبر عملاً ذميماً. وبموجب سفر الخروج (21، 6) [**يقدمه مولاه إلى الآلهة يقدمه إلى مصراع الباب أو قائمته ويثقب مولاه أذنه بالمثقب فيخدمه إلى الدهر**] يعطي هذا التفسير الرمزي، لماذا ولأي غرض تم اختيار الأذن من بين أعضاء الجسم؟

قال القدوس الواحد الممجد!: سمعت الأذن صوتي على جبل سيناء عندما أعلنتُ: [**لأن بني إسرائيل عبيد لي إنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر أنا الرب إلهكم**] (أحبار 25، 55) ليسوا عبيداً بمعنى العبيد، غير أنه عندما يتخذ الفرد له معلماً

أو سيداً، يجب أن تكون أذنه مثقوبة. ولماذا يتم ذلك أمام الباب أو العارضة بدلاً من أي مكان آخر في المنزل؟ قال القدوس الواحد الممجد!: العمود والباب هما شاهديَّ في مصر، عندما كنت أمر فوق عتبة الباب وأصرح أن إسرائيل خادمتي ولن تكون عبدة العبيد، وسأقودها من العبودية إلى الحرية، ومنذ ذلك الزمن وعندما يتخذ أحدهم له معلماً، يجب أن تكون أذنه مثقوبة أمام الباب والعمود.

ما هو أسوأ أن العبري كان يبيع نفسه ليحقق ربحاً شخصياً وحول هذه الكلمات قيل: [**وإذا رقّت حال أخيك معك فباع نفسه لك فلا تستخدمْه العبيد**] (أحبار 25، 39) ويؤكد الحاخامات أنه لا يسمح للرجل ببيع نفسه قصد جمع المال في كيس نقوده، لشراء المواشي، أو الأثاث، أو البيت.

ما يحق لرب العمل فرصة على عبد (رقيق) عبري، كان خاضعاً لقيود حسب ما يلي: (إذا ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين وفي السابعة يخرج حراً مجاناً) (خروج 21، 2) يمكن أن نستنتج أن على الرقيق القيام بعمل خاص، لهذا يحدد النص: [**لن تفرض عليه عمل الرقيق**] (أحبار 25، 39). من ذلك يأتي أنه لا يكون مرغماً على غسل قدمي سيده، أو يلبسه حذاءه، ويحمل إليه الآنية في الحمامات، ويسنده عند صعود الدرج، أو حمله على كرسي مريح، إضافة لجمع الأشياء التي يقوم بها الأرقاء لأسيادهم.

في نفس نص سفر الخروج نجد التعليق التالي: يمكن الفهم انه ملزم بالقيام بالمهمة المسببة أو غير المسببة للإذلال لهذا يقول الكتاب المقدس: [**بل كأجير ونزيل يسكن معك. إلى سنة اليوبيل يخدم عندك**] (أحبار 25، 40). بما انك لست مخولاً بتبديل نوع الأجر، كذلك لن تفرض على عبد عبري عملاً يخالف عمله المعتاد. من هنا يأتي القول أنه لا يحق لسيده إرغامه على فعل أشياء تخدم العامة: خياط، حلاق، قصاب، خباز. أما إذا كان عمله السابق يتضمن مثل هذه المهن، فيمكنه القيام بها بأمر سيده.غير أن سيده لا يمكنه تبديل العمل لصالحه: مثله كأجير ونزيل يسكن معك، الأجير يعمل في النهار دون الليل، والأمر سيّان بالنسبة للعبد العبري.

فيما يخص معاملة الرقيق عامة، فالقاعدة هي: [**فإن قال لا أخرج من عندك لأنه أحبك وأحب بيتك ووجد الإقامة عندك خيراً له**] (تثنية الاشتراع 15، 16). من أجل الغذاء والمشرب، فلن يأكل الخبز العفن، بينما أنت تأكل الخبز الطازج، لن

يشرب خمراً جديداً وأنت تشري الخمر المعتقة، لن تنام على فراش وثير بينما سينام هو على فراش من القش، من هنا جاء هذا القول: «من يتخذ عبداً عبرياً يتخذه كسيد له».

كانت نهاية خدمته منظمة بالأمر التوراتي في سفري الخروج (21، 2): [**إذا ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين وفي السابعة يخرج حراً مجاناً**]، و(الأحبار 25، 39SS) غير أن التلمود يفسر القانون أكثر ما أمكن لصالح الرقيق: [**إذا باع منك أخوك العبراني أو أختك العبرانية نفسه فيلخدمك ست سنين وفي السنة السابعة أطلقه من عندك حراً**] (تثنية الاشتراع 15،12).

[**وإذا أطلقته حراً فلا تطلقه فارغاً بل زوده بغنمك وبيدرك ومعصرتك ومما باركك الرب إلهك فيه تعطيه**] (تثنية الاشتراع 15، 13). وإذا فرّ ثم عاد، فكيف يمكننا معرفة أن عليه إكمال عدد سنوات خدمته؟ يصرح النص: «سيخدمك ست سنوات» فإذا مرض واستعاد عافيته، فيمكن تعويض فترة مرضه لذلك يعلن النص: «سيُعتَقُ حتماً في السنة السابعة».

ويتساءل التلمود إذا ما كان هذا يطبق في الحالة القصوى حيث الرقيق العبري ظل مريضاً ست سنوات كاملة، يقرر فيما إذا كان مرضه قد استمر ثلاث سنوات، وفي أقصى حد سيخدم الثلاث سنوات الباقية. لكن إذا جاوزت فترة مرضه هذه المدة فعليه أن يخدم ست سنوات. وإذا مات سيده، سيبقى العبد في خدمة ابنه حتى نهاية المدة وليس في خدمة ابنة سيده أو الورثة الآخرين.

فيما يعني العبد الذي كانت أذنه مثقوبة، تأمر التوراة أن عليه البقاء في خدمة سيده [**يقدمه مولاه إلى الآلهة يقدمه إلى مصراع الباب أو قائمته ويثقب مولاه أذنه بالمثقب فيخدمه طوال الدهر**] (خروج 21،6). غير أن الحاخامات يفهمون الكلمة «دائماً» حتى سنة الله وهي خمسون سنة في الديانة اليهودية حيث يستعيد بعدها حريته. إضف إلى ما يقوله النص «في خدمته» يفهم منها أنه بعد السنوات الست الأولى غير ملزم بخدمة ابن أو ابنة سيده أو ورثته الآخرين، وأن موت السيد سيحرره. عندما ينهي العبد فترة خدمته تأمر التوراة بعدم إطلاقه فارغ اليدين (تثنية الاشتراع 15،13). ويحدد التلمود ثلاثين شيكلاً القيمة الواجب دفعها. وكان امتلاك العبد الوثني منظماً في الشريعة. يحصل عليه بناء على عقد خدمة، ويقدر السعر آنذاك

بثلاثين سيلا (السيلا تعادل ثلاثة فرنكات) هذا المبلغ يتلقاه كتعويض من مالك العبد من أحد الجنسين، إذا أماته الثور بضربة من قرونه. إن نموذج عقد امتلاك العبد كان موجوداً في التلمود وفيما يلي نصُه:

«إن هذا العبد مستعبد شرعاً، وهو مستثنى من أي حق بالحرية، ومن كل استيلاء عليه من مالك أو ملكة. لا يحمل جسمه أي إشارة أو علامة تعود لشخص آخر إلا إشارة المالك. إنه سالم من أي عيب جسدي لا يحمل في جسمه قروحاً تدل على مرض الجذام قديماً أم حديثاً».

الطريقة الثالثة محددة على النحو التالي: ما هو واقع الخدمة التي يؤديها؟ سحْبُ حذاء سيده، أو حَمْلُ حوائجه إلى الحمام،أو خلعه ثيابه، أو غسله، أو دهْنِ جسده، أو تسريح شعره، أو حَمْلِ حذائه. ويبين المالك أنه يستطيع المطالبة بكل ذلك (Kid. 22b) لأن هذا هو العمل الطبيعي للعبيد. وفي النظام الأساسي للعبد الوثني، النقطة الهامة الواجب ملاحظتها والمتعلقة بالبيت الإسرائيلي، تخضع لكثير من المبادئ والوصايا التوراتية. مع أنه لم يكن عضواً من الجماعة، غير أنه كان موجوداً بداخلها. والالتزام الأول الذي كان خاضعاً له هو الختان فقط. يتساءل التلمود هل يمكن أن يختتن ضد إرادته. القاعدة المقبولة هي إذا تم شراء عبد من وثني، ولا يريد الختان، فعلى السيد منحه مهلة سنة، وإذا استمر في الرفض عند نهاية السنة، فيسمح لمعلمه بيعه ثانية للوثنيين.

لا يطبّق على العبد الوثني بعد اختتانه النظام والقانون المدني الديني اللذين يخضع لهما العبد الإسرائيلي. لا تقبل شهادته أمام المحكمة، ولا يتلقى أي تعويض عن أضرار سببها له شخص آخر غير سيده «مس بالكرامة» ولا يمكنه الحصول على ملكية خاصة (حق التملك)، ما يمتلكه العبد يعود إلى سيده الذي اشتراه.

من وجهة نظر دينية، هذا العبد غير ملزم بالذهاب إلى الهيكل خلال الأعياد السنوية الثلاثة الكبرى، فهو كالنساء والقاصرين، لم يكن ملزماً بتلاوة بعض أجزاء الشعائر الدينية اليومية ولا ارتداء العصائب المكتوبة، ولا يمكنه الدخول وسط الأشخاص الثلاثة المطلوبين كحد أقصى لتلاوة صلاة الشكر بعد تناول الطعام، غير أنه كان مسموحاً للعبيد إكمال العدد اللازم للصلاة. وفيما يتعلق بتشكيل الرجال العشرة الذين كان وجودهم ضرورياً لأداء صلاة الجماعة، يقول التلمود: يمكن قبول تسعة

رجال أحرار وعبد واحد للحصول على النصاب، وهنالك رأي مخالف، حيث يُروى أن الحاخام أليعازر قدم إلى الكنيس ولم يكن هناك عشرة أشخاص، فاعتق عبده ليكمل العدد المطلوب. وبما أنه أعتقه، فقد اصبح من عداد العشرة، ولو لم يعتقه لما تمكن من احتسابه. ينقصه اثنان لإكمال النصاب، فأعتق عبداً وأتم الالتزام بعشرة. وهكذا، فإن العبد لا يمكنه المشاركة في صلاة الكنيس إلا بعد إعتاقه، ويتفق جميع الحاخامات على الظن بأن ثمانية رجال أحرار وعبدين، لا يلبُّون متطلبات قانون صلاة الجماعة.

لم يكن مسموحاً للعبيد حضور حفلات المآتم إلا في بعض الحالات الاستثنائية. عندما مات «تابي» عبد الحاخام غامالييل، قَبِل الحاخام بتقبُّل التعازي، عندها قال له تلامذته: يا معلم، علمتنا أنه من غير الواجب قبول التعازي لموت العبيد ـ أجاب الحاخام: هذا عبدي «تابي» لم يكن كالآخرين كان رجلاً طيباً ذا فضل. إليكم كيف يتم هذا في التلمود:

لدفن العبيد من الجنسين، لا تشكل الصفوف لتشريفهم، ولا تتلى عليهم بركة الحزاني، ولا تعازي الحداد، حدث أنه لدى موت زوجة عبد الحاخام أليعازر، جاء إليه تلامذته للتعبير عن تعاطفهم، خرج إلى الباحة فتبعوه داخل غرفة الأصدقاء عندها قال لهم: أظن أنكم تريدون تسخين أنفسكم بالماء الغالي.(ضعوا في فكركم جيداً بأني أرفض تقبلَ تعازيكم) غير أنكم لن تتلقوا سوى الماء الغالي ألم أقل لكم إنه عند موت عبد من أحد الجنسين، فإننا غير ملزمين بالوقوف صفين من أجلهم، ولا تلاوة بركة التعازي؟ ماذا قلنا عنهم؟ ما كنا نقوله لإنسان فقد ثوره وحماره «الله يعوض عن الخسارة» إليكم تعليماً آخر: لا ينبغي لنا تأبين العبيد من الجنسين فقد كان الحاخام يشوع يقول: لو كان هذا الرجل ذا فضل واستحقاق، نقول عنه: آه يا للشخص الصالح والمخلص، الذي يرى اللذة في عمله! سئل: ماذا كنت ستقول في هذه الحالة عن الناس العقلاء الذين لم يكونوا عبيداً؟ تعليم آخر، لا يحق بتسمية العبيد الوالد فلاناً والأم فلانة. لا شك أنه من عادة الحاخام غماليل تسمية عبيده بهذا الشكل، ليس هذا تدميراً للتعليم، لكنهم كانوا أناساً معتبرين جداً.

عموماً، كانت الأنظمة المطبقة على النساء، سائدة على العبيد منهن، لكنهن معفيات من الالتزام بالوصايا الواجب إتمامها في لحظة محددة من الزمن.

وكانت رفاهية العبد مراقبة بدقة، ولم يترك ألعوبة تحت رحمة سيده. تقول الشريعة: [**وإن ضرَبَ إنسان عبده أو أمته بقضيب فمات تحت يده يُنتَقَمُ منه**] (خروج 21، 20). كان هذا مطبقاً على العبد الوثني كذلك في الحالة المذكورة في (خروج 26،21) [**وإن ضرب إنسان عين عبده أو أمته فأتلفها فليطلقه حراً بدل عينه**]، [**وإن أسقط سن عبده أو أمته فليطلقه حراً بدل سنه**].

بشكل عام كان اليهودي القديم يراعي عبده. مثلاً عندما كان الحاخام جوخانان يتناول اللحم، فإنه يقتطع جزءاً منه ويقدمه لعبده، وعندما يشرب النبيذ يقدم لعبده منه، وينطبق هذا على النص: [**أوليس الذي صنعني في البطن هو صنعه وواحد كوَّننا في الرحم**] (سفر أيوب 31، 15).

عادة ما يظل العبد في خدمة سيده، إلى أن يعتقه الموت، لكنه كان قادراً في السابق على استعادة حريته فيما لو دفع أحدهم لمالكه الثمن السائد، أو أعطاه وثيقة إعتاق. ظروف أخرى كثيرة يمكنها أن تساهم في إعتاقه «إذا أوصى رجل بماله إلى عبد، فإن العبد يعتق فوراً، تلك كانت الإرادة الظاهرة للأستاذ، لأن العبد مستبعد من أي ملكية. إذا تزوج عبد بحضور سيده من امرأة حرة تعطى له حريته فوراً. إذا ارتدى عبد القماطات بحضور سيده فيعتق فوراً. في هاتين الحالتين، تتدخل النية في إعتاقه، بالانتظار لا يمكنه الزواج من امرأة يهودية حرة، لأن ارتداء القماطات غير مسموح له. هذا الواجب يطبق على الإسرائيليين القدماء وحدهم. قاعدة أخرى مليئة بمراعاة العبد: إذا باع أحدهم عبده إلى وثني أو إلى شخص مقيم خارج الأراضي المقدسة، عندها يحصل العبد على حريته.

إلا أن طبقة العبيد الأرقاء، كانت محتقرة وموصوفة بمختلف النقائص، كانوا يوصوفون بالكسل. عشرة مكاييل من النوم نزلت العالم، أخذ العبيد تسعة وبقي واحد للأحرار، العبد لا يستحق غذاء معدته. غير مخلصين، لا إخلاص من العبيد، مستواهم الأخلاقي منحط، كلما ازداد عدد النساء العبيد، ازداد الفجور وكلما ازداد عدد الرجال العبيد كثرت السرقات. يفضل العبد حياة الفسق مع العبيد من النساء على الزواج الشرعي.

4 ـ السلام والعدالة

لا يمكن لأي مجتمع العيش باستقرار وسعادة ما لم يضمن لنفسه أسساً سلمية لوجوده. الحكم التلمودية المتعلقة بهذا الموضوع كثيرة، وفيما يلي بعض الأمثلة: «يستمر العالم بفضل ثلاثة أشياء: الحقيقة، الرأي، السلام، وقد قيل: [**وهذه هي الأمور التي تصنعونها. كلموا كل واحد قريبه بالحق وأجروا في أبوابكم الحق وحُكمَ السلام**] (زكريا 8، 16)، لن تنقسم إلى أجزاء، بل ستبقى كلاً متكاملاً [**لا تكون الشمس من بعد نورا لك نهاراً ولا ينيرك القمر بضيائه ليلاً بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك يكون فخرك**] (إشعيا 60، 19) [**وأما أنتم المستعصمين الرب إلهكم فكلكم أحياء اليوم**] (تثنية الاشتراع 4، 4) تبرهن التجربة أنه إذا أمسك رجل برزمة من القصب وحاول كسرها وهي مجتمعة فلن يستطيع، لكن إذا أخذ كل قصبة على حدة من الرزمة فيستطيع كسرها بسهولة.

في غياب السلام لا وجود للرفاهية والازدهار، ستعطي البلاد ثمارها [**أنزلتُ غيوثكم في أوانها وأخرجتُ الأرض غلالها وشجر الحقل يُخرج ثمره**] (أحبار 4،26) سيكون باستطاعتكم القول بلا شك: لدينا الطعام والشراب فماذا نطلب أكثر من ذلك؟ لكن في حالة غياب السلام فلا يوجد شيء «ويتابع النص بهذا الشكل» سأنشر السلام في البلد [**وأُلقي السلام في الأرض فترقدون وليس مزعج وأزيل الوحوش الضائرة من الأرض وسيفٌ لا يمر في أرضكم**] ويبين أن «قيمة السلام مساوية لجميع الأشياء» السلام أمنية، لأن البركات لا تنتهي إلّا بأمل السلام، كذلك البركة الكهنوتية المنتهية بهذه العبارة [**يرفع الرب وجهه نحوك ويمنحك السلام**] موضحة بهذا الشكل، أن أي بركة أخرى ستكون بلا فائدة إذا لم يصحبها السلام.

أراد الله مباركة العالم فمنحه السلام، توضيحاً لذلك: «ولد الإنسان من شخص واحد ومنه تكاثر النسل. وكي لا تتصارع الشعوب فيما بينها منحها السلام. فإذا وجدت النزاعات بولادة فرد واحد في الماضي، فماذا تكون عليه الحال لو ولد شخصان!».

من يؤمِّن السلام للآخرين يتلقى الثناءات الكبيرة. إنها إحدى الفضائل التي يتذوق الإنسان ثمارها في هذا العالم، بينما الأهم يستمر إلى الأبد، وفي إقرار السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان، إليكم أسطورة جمالها لافت للنظر: كان أحد الحاخاميين واقفاً في الساحة العامة عندما تجلى له إيليا. سأله الحاخام: هل في هذه الساحة رجل واحد سيكون له نصيب في العالم الآخر؟ أجاب إيليا بالنفي عندئذ مرَّ رجلان: فقال إيليا: هذان الرجلان سيكون لهما نصيب في الآخرة. سألهما الحاخام: ماذا تعملان؟ نحن نجلب السعادة للبشر، فعندما نرى أفكارهم مشوشة، نشد من عزيمتهم، وعندما نرى رجلين يتشاجران نجعل الوئام والسلام بينهما.

كانت إحدى الحكم المفضلة لدى هلِّيل: كونوا من تلامذة هارون الذين يحبون السلام ويتابعونه وقد شُرحت بهذه العبارات: كيف يكون الإنسان الذي يحب السلام؟ هذه الحكمة تُعلِّم أنه يجب رؤية السلام مستتباً بين اليهود. هذه هي الطريقة التي يرى بها هارون السلام سائداً بين الجميع لأنه قيل:

[شريعة الحق كانت في فمه والإثم لم يوجد في شفتيه. سار معي بالسلام والاستقامة وردَّ كثيرين عن الإثم] (ملاخي 2،6). ماذا تعني: وردَّ الكثيرين عن الإثم؟ عندما كان هارون يسير في الطريق ويصادف شريراً، كان يلقي عليه السلام، وفي اليوم التالي إذا كان الرجل على وشك ارتكاب إثم، كان يقول في نفسه كيف يمكنني رفع عيني والنظر إلى هارون بعد ارتكابي الإثم؟ سأكون خجلاً جداً أمامه، فهو من بدأ بالسلام عليّ. فهل منعني عن فعل الإساءة؟ كان رجلان في نزاع، ذهب هارون إلى بيت أحدهما وقال له: يا صديقي: انظر كيف يتصرف صديقك: إنه يضرب على صدره، ويمزِّق ثيابه ويصرخ، ويل لي كيف سأقابل رفيقي؟ أنا خجل منه، عصبي أمامه لأني البادئ بسوء التصرف تجاهه! ظل هارون إلى جانب ذلك الرجل حتى طرد العداء من قلبه. ثم ذهب ليقول الشيء نفسه للرجل الثاني إلى أن أقلع الأخير عن عدائه. ماذا ينتج من ذلك؟ ما أن تلاقى الرجلان حتى اندفع كل منهما نحو الآخر وقبّلا بعضهما وصفا قلباهما.

كان الحاخام مئير داعية للسلام، تُروى عنه القصة التالية: كان من عادته القراءة في الكنيس عشية كل سبت وكانت امرأة تستمع إلى صلاته. حصل مرة أن طالت قراءته، فعادت المرأة إلى بيتها فوجدت المصباح مطفأً. أراد زوجها معرفة سبب غيابها،

أجابته: ذهبت لسماع تلاوة الحاخام. أقسم زوجها إنه لن يسمح لها بدخول بيته إلا بعد أن تبصق في وجه الحاخام. وبإلهام من الروح القدس، عرف الحاخام ما جرى للمرأة، فقد ادَّعى بألم في عينيه وأعلن: «المرأة القادرة على شفاء أمراض العيون بالسحر لتأتِ وتعاينني» قال جار المرأة: «هذا الوقت مناسب للعودة إلى بيتك ادعي بأنك قادرة على شفائه وابصقي في عينيه». ذهبت إلى الحاخام الذي بادرها القول: «هل أنت قادرة على شفاء العيون بالسحر؟ احتراماً له أجابته بالنفي لكنه دعاها للبصق سبع مرات في عينيه (دون سحر)، وعندما نفذت ما طلبه منها، ادعى الحاخام أنه شفي تماماً. وقال لها: اذهبي الآن وأخبري زوجك بأن ما أراد منك فعله مرة واحدة، قمت به سبع مرات. «عندها صرخ تلامذة الحاخام» أليس هذا هزءاً بالتورا؟ لو أن المرأة أخبرتنا بما حصل، لأحضرنا الزوج إلى هنا، وقمنا بجلده حتى يتصالح مع امرأته. أجابهم الحاخام: أليس من الضروري أن يكون شرف الحاخام مئير مشابهاً لشرف خالقه؟ إذا سمحت التورا بمحو الاسم الإلهي المكتوب بقدسية الماء من أجل إحلال السلام بين الزوج والمرأة فمن الضروري أن يكون أكثر من ذلك من قبل الحاخام **[فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ويمحوها بالماء المر] [ويسقي المرأة بالماء المر الجالب اللعنة فيدخل فيها الماء الجالب اللعنة المرارة]** (العدد 5، 23) إن النتائج المؤسفة للنزاعات مكتوبة بشكل بارز. يشبَّه النزاع بفجوة يمر عبرها الماء. كلما اتسعت يزداد اندفاع الماء ويصبح أسرع. ويشبه النزاع أيضاً بألواح الخشب المكونة للجسر، كلما كانت الألواح طويلة، قست وتعمقت. تقول الحكمة: «من يطلق العنان لتفسير قضية فهو يسعى لدمار بيته».

هناك ثلاثة أنواع من البشر منهم من لا تستحق حياتهم هذا الاسم: من تستدعي حالتهم الشفقة، سريعو الغضب، المكتئبون.

يجري التأكيد على تجنب الشجار. حكمة أخرى تعبر عن نفسها بهذا الشكل: ليقرَّ عيناً كل من يسمع إهانة ويتجاهلها، فإنه يتجنب مئات العلل. وعندما يتشاجر رجلان، فالذي يصمت هو من يستحق الثناء والمديح. هناك أربعة أنواع من الأمزجة:

ـ من يمكن إثارته وتهدئته بسهولة، فإن أرباحه تعوض عن خسارته. من يمكن إثارته وتهدئته بصعوبة، فإن خسائره تفوق أرباحه. ومن يُثار بصعوبة ويهدأ بسهولة، فهو

قديس، ومن يثار بسهولة ويهدأ بصعوبة فهو الأخرق.

غير مسرور عن ترتيل المدائح للسلام، يدل التلمود على أن المهم هو ما نفعله للإبقاء عليه، وإلغاء ما يزيله. تلخص الأسباب في النص التالي: جُرِّدَ السيف على العالم بسبب التأخر الذي طرأ على العدالة، وبسبب فسادها، وللإهانة التي ارتكبها أولئك الذين يفسرون التورا بحسب أمزجتهم. يتقدم السلام العدالة والحقيقة، اللتين هما ضمانته الأكيدة. الحكمة المذكورة سابقاً: «يستمر العالم بفضل ثلاثة أشياء: الحقيقة، العدالة، السلام» ويفسرها التلمود على النحو التالي: الأشياء الثلاثة تشكل كلاً لا يتجزأ، إذا نفذت العدالة فالحقيقة راضية ويسود السلام. عقيدة أخرى مبنية على القاعدة نفسها: [**لا تُحتَقَرُ العدالة لأنها إحدى الدعائم الثلاثة التي يرتكز عليها العالم، أحذر إفساد أو رشوة العدالة فهذا يؤدي إلى زعزعة العالم**».

بغية الإشارة إلى أهمية العدالة، يُعلَّم بأنها أعلى من أضاحي الهيكل: الأضاحي لا تقدم إلا في الهيكل، بينما الاستقامة والعدالة تمارسان في الداخل كما في الخارج.

الأضاحي تحقق التكفير لشخص ارتكب خطيئة سهواً، لكن الاستقامة والعدالة تكفِّران من يخطيء سهواً أو عن قصد. الأضاحي تقدمها كائنات بشرية، بينما العدالة والاستقامة تمارسها عناصر بشرية ومخلوقات سماوية. لا تقدم الأضاحي إلا في هذا العالم، بينما الاستقامة والعدالة تنجزان معاً في هذا العالم والآخر.

يقول القدوس الواحد الممجد! ما يلي: تحقيق العدالة والاستقامة أعز من الهيكل من بين الأجوبة على هذا السؤال: على ماذا يرتكز العالم؟ على دعامة اسمها العادل (الله)، كما يقال: [**كما تمضي الزوبعة يزول المنافق، والصديق أساس مُؤبَّد**] (أمثال 10، 25).

الفكر الحاخامي حول دور العدالة، في حكومة الدولة، يعبر عنه في الأسطورة التالية: كان الإسكندر المكدوني قادماً لرؤية «كاتزيا» الذي عرض أمامه أكواماً من الذهب والفضة. قال له الإسكندر: لست بحاجة إلى هذه الأموال، فقد رغبت وأنا في طريقي إليك مشاهدة عاداتكم والوقوف على تطبيق العدالة عندكم. وفيما كانا يتحادثان حضر رجل أمام الملك، وكان على خلاف مع شخص آخر اشترى منه حقلاً مع نتاج محصوله. وكان قد وجد في هذا الحقل كيساً من النقود كان مدفوناً فيه. قال

البائع: لقد بعتَ الحقل وليس الكنز المخبأ فيه أجاب الشاري: «لقد اشتريت كل شيء الحقل وما فيه» وبينما كانا يترافعان ضد بعضهما، توجه الملك إلى أحدهما وسأله: هل لك ولد؟ أجاب: نعم ـ وقال للثاني هل لك ابنة؟ أجاب: نعم ـ حسناً! زوجوهما وأعطوهما الكنز. ضحك الإسكندر لهذا القرار. سأله كاتزيا: لماذا تضحك؟ ألم أحكم بالعدل؟ افترض أن حالة مماثلة عرضت عليك ماذا سيكون قرارك؟ ـ لأمرت بقتل الاثنين ومصادرة الكنز. أتحب الذهب إلى هذا الحد؟ بعدها أقام الملك وليمة على شرف الإسكندر، فقدَّموا له أطباقاً من أضلاع الطيور من الذهب. صاح الإسكندر: أنا لا آكل الذهب! استدرك الملك وقال: ويل لك إذا كنت لا تأكل منه، فلماذا إذن تحبُّه بهذا الحماسة؟ هل تسطع الشمس في بلدكم، وهل تمطر عندكم؟ بالطبع؟ هل عندكم مواشٍ صغيرة؟ بكل تأكيد. ويل لكم! فإن بقاءكم أحياء ليس إلا بفضل هذه الحيوانات.

بناء على ذلك، كانت مسؤولية الذين يشرفون على العدالة ثقيلة، لأن مصير المجتمع يتعلق بعدالتهم وعلى القاضي الافتراض بأن سيفاً مسلط على قلبه ورأسه دائماً، وأن جهنم تحت قدميه. من أين جاء هذا القول: عندما يجتمع ثلاثة ليحتكموا تكون الشيخينا فيما بينهم، يقال: «يحكم وسط القضاة». القاضي الذي يحكم بالعدل والإنصاف يجعل الشيخينا تسطع على إسرائيل، وكما قيل: يقضي وسط القضاة قاضٍ لا يحكم بإنصاف وعدل، يسبب ابتعاد الشيخينا عن إسرائيل، وكما قيل: الفقراء يُضطهدون والفقراء يتألمون: يقول الرب: سأتوقف الآن.

يلاحظ النص التالي بقوة، كم يهدم الظلم (عدم العدل) سعادة المجتمع: «إذا رأيتم جيلاً مضطرباً كثير المشاكل عليكم أن تتفحصوا قضاة إسرائيل»: لأن جميع محن العالم بسببهم، وهكذا قيل: [**اسمعوا هذا يا رؤساء آل يعقوب، وحكام آل إسرائيل الذين يمقتون العدل ويعوِّجون كل استقامة**]، [**إنما رؤساؤها يحكمون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة، وأنبياؤها يتخذون العرافة بالفضة يعتمدون على الرب قائلين أليس الرب في وسطنا فلا يحل بنا شرٌّ**] (ميخا 3، 11) إنهم أشرار ومع ذلك يضعون ثقتهم بالله الذي أوجد العالم. لذلك أنزل بهم القدوس الواحد الممجد! ثلاث عقوبات، للانتهاكات الثلاث التي اقترفوها. وهكذا قيل: [**لذلك ستُحرَثُ صهيون بسببكم كحقل وتصير أورشليم رُجماً وجبل البيت مشارف غاب**] (ميخا 3،12).

إضافة لذلك، لن يدع القدوس الواحد الممجد! الشيخينا تسطع على إسرائيل حتى يزول القضاة السيئون والضباط (الحراس) من داخلها، كما قيل: [**وأردُّ يدي عليك وأحرق خبثك بالحرُض وأنزع قصديرك كله**] (إشعيا 1، 25). [**وأعيد قضاتك كما في الأول ومشيريك كما في الابتداء وبعد ذلك تُدعَيْنَ مدينة العدل القرية الأمينة**] (إشعيا 1، 26).

إن الصفات المطلوبة والواجب توفرها في القاضي عظيمة وسامية: «يجب أن يكون مستقراً في مدينته، حكيماً، متواضعاً، يخاف الخطيئة، سمعته طيبة، محبوباً من أفراد الشعب (مواطني بلدته)» (فوسيفتا سانح 7،1) بالمقابل: أي شخص يُنصَّبُ كقاضٍ وهو غير أهلٍ لهذه المهمة، فهو أشبه بمن يجلب الوثنية لإسرائيل. يُطلب من القاضي الحد الأقصى من عدم الانحياز [**لا تجوروا في الحكم ولا تحابوا فقيراً، ولا تجلّوا عظيماً بل العدل تحكم لقريبك**] (أخبار 19،15) لن تقول: هذا مسكين وذاك غني، ونحن مرغمون على تحمله، سأنطق بالحكم لصالحه، وبعدها سيعيش بشرف.

التحذير من أي فساد، كان يتلقى تفسيراً أكثر تصلباً وصرامة [**لا تأخذ رشوة فإن الرشوة تعمي البصراء وتفسد أقوال الأبرار**] (خروج 23،8) ماذا يعلّم هذا النص؟ لا يمكن للقاضي أن يبرئ المذنب ويجرِّم البريء، لكن قد قيل سابقاً [**لا تحرِّف حكم المسكين في دعواه**]، [**ابتعد عن الكلام الكاذب والبريء والذكي لا تقتلهما فإني لا أبرئ المنافق**] (خروج 23،6،7) ليس من الضروري إثبات أنه يجب على القاضي عدم قبول هبات المال، وحتى الهدايا. مثال: كان أحد الحاخامات ماراً على جسر، فجاءه رجل ماداً يده ليستند إليه. سأل الحاخام: لماذا فعلت هذا؟ أجاب: لدي دعوى معلقة. أجابه الحاخام: لست أهلاً لأقضي فيها.

نظراً لهذا التعلق الصارم بالعدالة، يبدو من غرائب الصدف رأي الحاخام إسماعيل: «عندما يكون إسرائيلي (يهودي) ووثني يتقاضيان، من المستحسن مقاضاة الأول حسب القانون اليهودي، وقل له إن هذا قانونكم، ويمكن مقاضاة الثاني حسب القانون الوثني، وقل له: هذا شرعكم. وإذا كان القانونان لا ينطبقان، فعليك استخدام ذريعة، لكن الحاخام عقبة يقول: كل ذريعة غير مقبولة بسبب تقديس اسم الله. استنكر الحاخام شمعون بن غماليل فكرة الحاخام إسماعيل فقال: إذا حدث أن حوكم

الوثني حسب الشرع اليهودي فليكن كذلك، وإذا رغب في المحاكمة حسب الشرع الوثني لنمنحه ذلك أيضاً (سيفري دوتيرون 16، 8، b) هدفت فكرة الحاخام إسماعيل إلى موازنة حالات عدم القدرة والإجحاف اللذين كان يتعرض لهما اليهود لدى مثولهم أمام المحاكم الأجنبية. لكن السلطات الحاخامية لم تنظر إليه.

الفصل السابع

الحياة الأخلاقية

1 ـ تقليد الله

تقول نظرية التوراة، إن مجمل العقيدة التلمودية، هي الوسيلة الوحيدة التي يجب البحث عنها في الحياة الروحية والأخلاقية، والتي لا يمكن العثور عليها إلا في الوحي الإلهي. ما تأمر به التورا، وما تدافع عنه، يعطي الدليل الأكيد، على أن الأخلاقية تخضع لتعاليمها ونظمها.

يعبر الحاخامات بوضوح عن هذه الفكرة، إليكم كيف يتكلمون عن الإرشاد الذي نقرأه في سفر تثنية الاشتراع (6،6): [**ولكن هذه الكلمات التي آمرك بها اليوم في قلبك وكرِّرها على بنيك وكلِّمهم بها إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وإذا قمت**]. [**ضع هذا الكلام في قلبك لتتعرَّف على القدوس الواحد الممجد! وتسير على طريقه**] نص آخر يقول: [**لكي تتذكروا وتعملوا بجميع وصاياي وتكونوا مقدَّسين لإلهكم**] (العدد 15، 40): يمكن تفسير هذا الدعاء الهام كالتالي: إليكم مثالاً: سقط رجل في البحر، ألقى له القبطان حبلاً وقال له: تمسك جيداً بهذا الحبل، لا تتركه يذهب بعيداً عنك! إذا كنت جباناً، فأنت هالك! كذلك قال القدوس الواحد الممجد! لإسرائيل: [**وأما أنتم المستعصمين بالرب إلهكم فكلكم أحياءٌ اليوم**] (تثنية الاشتراع 4،4) وقيل أيضاً: [**في سبيل المنافقين لا تدخل ولا تنهج في طريق الأشرار**] (أمثال 4،13) وستكونون مقدَّسين ما دمتم ملتزمين بالوصايا، وستكونون قديسين.

لم يضع الله وصايا التورا فقط، بل أعطى الإسرائيليين مثلاً في الطاعة بإعطائها لذاته: «إذا أصدر ملك فرماناً، ووجده جيداً فيكون أول من يلتزم به، لكن إذا لم يرق له ذلك، فعلى الآخرين الالتزام به، الأمر مختلف بالنسبة للقدوس الواحد الممجد! فعندما يصوغ أمراً أو مرسوماً، فإنه أول من ينفذه، [**قم قدَّام الأشيب وكرِّم وجه الشيخ واتقِ إلهك أنا الرب**] (أحبار 19، 32).

ستخشى إلهك أنا الرب أنا أول من أتمَّ الوصية بالنهوض أمام الشعر الأبيض (هذا التعبير نتيجة أو محصلة نظرية حاخامية وردت في سفر التكوين بأن إبراهيم ظل واقفاً أمام الرب: [**وانصرف الرجال من هناك ومضوا نحو سدوم وبقي إبراهيمُ واقفاً أمام**

الرب] (تكوين 18،22) إنها تعبير عن الاحترام للتوراة وقد وردت في التوراة كلمة الرب أمام إبراهيم لأن العنوان يبدأ عادة باسم الرب).

ولم يتقدم الله بوصاياه للكائن البشري دليلاً ومرشداً يقوده إلى السراط المستقيم في الحياة فقط، بل أعطى المثل بشخصه للاقتداء به. وفي الأدب الحاخامي، إن محاكاة الله هي المثال لكل من يريد الوصول إليه. الله نموذج ترتسم بموجبه الحياة الإنسانية، والسمات البارزة فيه هي التي يجب أن تشغل المقام الأول في سلوك البشر.

هذه العقيدة مكررة في عدة مناسبات. ماذا يعني النص: [**الرب إلهكم تتبعون وتتقون ووصاياه تحفظون ولصوته تسمعون وإياه تعبدون وبه تتشبثون]** (تثنية الاشتراع 13،4) من الممكن للإنسان اتباع الشيخينا التي كتب عنها: [**لأن الرب إلهك هو نار آكلة، إله غيور]** (تثنية الاشتراع 4،24). الأمر يتعلق باتباع مزايا القدوس الواحد الممجد! كما أنه يكسو العريان [**وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وكساهما]** (تكوين 3، 21) كذلك تكسو العريان، وتزور المريض وتساعد بحضورك الذين يتعذبون، كما تعّزي الحزانى [**وكان بعد موت إبراهيم أن الله بارك إسحق ابنه]** (تكوين 25، 11) وكما يُدفن الموتى [**ودفنه في الوادي في أرض موآب تجاه بيت فغور ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا]** (تثنية الاشتراع 34،6) فأنت تدفنهم أيضاً.

إنه إلهي، أريد تزيينه [**الرب عزِّي وتسبيحي لقد كان لي خلاصاً. هذا إلهي فإياه أمجد إله أبي فإياه أعظم]** (خروج 15، 2). هل من الممكن تزيين الله؟ نعم مشبهاً به. بما أنه رحوم عطوف، كن مثله عطوفاً وشغوفاً، للملك حاشية، ما هي واجباتها؟ تقليد الملك: [**شبهني مثلما الخير مقابل الشر، اعبدوا الخير وانبذوا الشر]** (خروج 2.L 6R). على كل إنسان أن يتخذ خالقه مثلاً له، انظروا القدوس الواحد الممجد! كيف يتجاهل الجبال العالية والهضاب، فقد جعل الشيخينا تسطع على هضبة سيناء (قليلة الارتفاع) تجاهل كل الغابات الجميلة، وجعل الشيخينا تسطع على دغل بسيط، كذلك يجب على الإنسان أن لا يكون متعالياً، وعليه مصادقة المتواضعين.

من جهة أخرى، لم يخف، على الحاخامات أن وجدوا في التوراة بعضاً من الصفات المعطاة لله، والتي على الإنسان عدم نسخها، كالغيرة والغضب. أرادوا أن

يشرحوا لماذا لا يطبق الاقتداء بالله في حالة كهذه؟ [**لا تسجد لهن ولا تعبدْهنَّ لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الثالث والرابع من مُبغضِيَّ**] (خروج 5،20) أنا سيد الغيرة، لكن الغيرة ليست سيدتي. عندما يتعلق الأمر بملك دنيوي، فإن الغضب يتحكم به، لكن القدوس الواحد الممجد! يتحكم بغضبه أيضاً كما قيل: [**الرب إله غيور ومنتقم، الرب منتقم وذو غضب، الرب منتقم من مقاوميه وحاقد على أعدائه**] (نحوم 3،1)

مجمل القول، أن عقيدة الاقتداء أو التمثل بالله ليست في الواقع قاعدة الأخلاق والأدب التلمودي، بل هي سبب وحيه وإرشاده. تعطي الإنسان شعوراً بالحصول على رضى الله إذا ما سلك حياة أخلاقية نوعية، والمهم أيضاً، أنها تؤسس قرابة ونسباً مع الله. هذه العقيدة كافية لتقديم دوافع قوية من أجل سلوك عادل وسليم.

2 ـ الحب الأخوي

يقول الحاخام عقبة أن الوصية التي تقول: [**لا تبغض أخاك في قلبك بل عاتبه ولا تحمل فيه وزراً لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك وقريبك أحببه كنفسك أنا الرب**] (أحبار 18 ـ 18، 19)، تشكل المبدأ الأساسي للتورا، أما زميله عوزي فيذكر ما هو أكثر أهمية أيضاً فقد جاء في سفر التكوين (1،5) [**هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على مثال الله عمِلهُ**] هذا الحب الكوني مُعلن ليس فقط بالمثالي المطلوب من التورا، بل بمثابة المنظم للعلاقات البشرية. يقول الحاخام الأول بأن الوصية واضحة بينما الثاني يبحث عن المثالي في العقيدة التي مؤدَّاها أن البشرية تنحدر من جد واحد، وبالتالي فهم مرتبطون فيما بينهم بالنسب الناتج من أصلهم المشترك، ويساهمون بامتياز لا يقدر بثمن بأنهم خُلقوا على صورة الله ومثاله. إنذار علني جاء بالتصريح التالي، ستحب قريبك كنفسك لأن الله خلقه، وإذا أحببته فأنت مخلص تستحق مكافأة مجزية، وإذا لم تحببه، فسوف أحاكمك وأنزل بك عقاباً.

تعبير آخر للفكرة نفسها: «أي رسالة أتت بها التورا إلى إسرائيل؟ ضعوا على

عاتقكم نير الملكوت السماوي، تناقشوا فيما بينكم مخافة لله، ومارسوا أفعال حب البعض تجاه الآخرين. لا تبحث هنا في هذا المجال عن كلمة «قريب» فيما إذا كان لها بعدٌ محددٌ لا ينطبق إلا على المواطنين الإسرائيليين (اليهود القدامى)، أو أنه لا يتضمن أي تحديد ويأخذ معنىً كونياً.

غير أنه يجب توضيح الزعم المطروح بكثرة، الذي بموجبه، أن قانون الحب كما يشرحه التلمود، يقتصر على أفراد المجتمع الإسرائيلي (اليهود القدامى). صحيح أنه عندما يشرح التلمود كلمة «قريب» في أطر الشرع التوراتي، يكون قد حدَّد أن الأمر يتعلق باليهودي (الإسرائيلي) مستبعداً الوثني، ولأن النص المقدس يتطلب هذا التفسير، فلا يمكن الاستنتاج منه بصورة منطقية أن الحاخامات لا يؤيدون ممارسة المبادئ الأخلاقية إلا تجاه الناس من دينهم.

يجب التحقّق أنه من بين آلاف الحاخامات، هناك المئات منهم لا يفصحون عن مشاعر الحب الأخوي حيال الناس الذين لا يقاسمونهم إيمانهم، ولا ينتمون إلى عرقهم، وكثيراً ما تعبر تصريحاتهم عن نوع من القسوة، وهذا ما ألمحنا إليه سابقاً. غير أن فحصاً دقيقاً وعادلاً وغير منحاز لهذا الأدب، يقودنا للاستنتاج بصورة عامة أن البعد الحاخامي بما يخص الأدب الأخلاقي كان كونياً وليس قومياً (وطنياً)، فكثير من الحِكَمْ الأخلاقية ترد في نهايتها حكمة «مخلوقات» «كائنات بشرية» دون تحديد «أحبب رفاقك، المخلوقات». ذلك إرشاد أورده الحاخام هلِّيل. هناك إشارات محددة لغير اليهودي. أمثلة: يجب عدم سرقة (فكر) رفاقه (أي تخيِّب أملهم)، من المخلوقات حتى فكر الوثني، من الأسوأ سرقة وثني من أن تسرق إسرائيلياً لأن ذلك تدنيس لاسم الله.

هذا المبدأ الواسع ينطبق على الشريعة كما هو التالي: [**إذا لقيت ثور عدوك أو حماره ضالاً فأردده إليه**] (خروج 23، 4)، ثور عدوك إشارة للوثني، هكذا نعلم أن عبدة الأوثان هم أعداء إسرائيل، هذا يشير إلى أنه رغم وجود العداء تجاه عبدة الأوثان، فذلك لا يعني السكوت تجاه المتطلبات الإنسانية البسيطة. حالات كثيرة من هذا النوع يسمح التلمود اليهودي بالذهاب بعيداً عن مضمون القانون «بسبب صون السلام» أي بطريقة قطع العلاقات دون تردد.

إليكم مثلاً، قاعدة تتعلق بالفقير: [**وإذا حصدتم حصيد أرضكم فلا تستقصِ إلى**

أطراف حقلك في الحصاد ونثار حصيدك لا تلتقطه] (أحبار 19، 9) وبصورة أوسع يعلن عن ما يلي: قال حاخامكم: علينا تحمل ومساعدة الوثني الفقير كما الفقير اليهودي عليكم زيارة الوثني المريض كما الإسرائيلي، ومنحُ قبر مناسب للوثني كما الإسرائيلي، من أجل أن يسود السلام».

ورد سابقاً أن هلّيل استقبل كاهناً وثنياً أراد التحول إلى اليهودية، فاشترط عليه أن تتلى له التورا بكاملها وهو واقف على قدم واحدة، ردَّ حاخام آخر: «ما تكرهه لنفسك لا تفعله لقريبك».

إنها الصيغة التلمودية للقاعدة الذهبية. وقد ألح علماء اللاهوت الذين ينتمون لمدارس مختلفة على واقع أن المثل الذي قاله هلّيل يبدو ذا أثر سلبي. بينما تعبر عنه الأناجيل بشكل إيجابي يستخلصون منه خلافات أخلاقية عميقة. غير أن الذين يمتنعون عن التدخل، فستكون الاعتبارات اللاهوتية على اتفاق ما يطرحه البروفسور «كينَّل» الذي يعبر عن نفسه بالشكل التالي: «في الواقع، فقد مكّنت الخلافات الدقيقة الحكم بين الإيجابي والسلبي في هذا النوع من التكفير الحديث حول الموضوع. وفي عصر السيد المسيح لا يمكن إدراك وجود فرق واضح بين هاتين الصيغتين. البرهان موجود في الأدب المسيحي القديم، وكلاهما مذكوران دون تمييز، وفكرة الفرق بينهما كانت خافية على الإنسان القديم، بحيث يمكن للشكل السلبي نفسه أن يبدو فعالاً أخلاقياً، ليس دون تمييز كما نراه في قصة هليل: «يروى أن صاحب حمار جاء إلى الحاخام عقبة وقال له: يا حاخامي، علمني فوراً كل التورا. أجابه: يا بني: لقد استغرق موسى أربعين يوماً وليلة على الجبل قبل أن يتعلمها، وأنت تطلب مني أن أعلمك إياها في لحظة واحدة! حسناً! يا بني: إليك المبدأ الأساسي للتورا: «ما تكرهه لنفسك لا تفعله لقريبك»إذا أردت أن يسيئ أحد إلى ما تملك، فلا تسيء إلى أملاك الغير. إذا أردت أن لا يحرمك أحد مما هو لك، فلا تحرم قريبك مما له». سافر رجل مع اثنين من رفاقه حتى وصلوا حقلاً مملوءاً بسنابل القمح. فأخذ الاثنان بعض السنابل بينما لم يأخذ الثالث شيئاً. استأنفوا طريقهم ووصلوا حقلاً مزروعاً بالملفوف، فأخذ كل من رفيقيه ملفوفتين، والثالث لم يأخذ شيئاً. سألوه لماذا؟ أجابهم: هذا ما علمني إياه الحاخام عقبه: ما تكرهه لنفسك، لا تفعله بقريبك».

أعطى التلمود لهذه القاعدة تطبيقات كثيرة: «على الإنسان أن يكون مع من يتبعهم، وليس مع من يتبعونه». مع المضطهدين لا المضطَهِدين، ومع من يتلقون الإهانات دون الرد عليها، والذين يعملون بحب وهم سعداء، ويتعرضون للمحن، فقد كتب عنهم: [**هكذا فليبد جميع أعدائك يا رب وليكن محبوك كالشمس المشرقة في بهائها**] (سفر القضاة 5، 31). وإليك الحكمة «كن ملعوناً ولا تكن لاعناً».

يصبح هذا واضحاً في الإعداد لحكمتين: «أن يكون شرف قريبك عزيزاً مثل شرفك» ماذا يعني هذا القول؟ يعني بدقة أنه مثلما يحافظ الإنسان على شرفه، عليه المحافظة على شرف قريبه. تماماً مثلما لا يرغب أن يسيء أحد لشهرته، عليه عدم التسبب بأي ضرر لشهرة قريبه. كذلك بالنسبة للمثل القائل: أن تكون ملكية قريبك، عزيزة عليك مثل ملكيتك. هذا يعلِّم أنه كما يعتبر الإنسان ملكيته، عليه اعتبار ملكية قريبه، وكما يريد أن لا يلحق أي تشهير بملكيته، فعليه الحرص بعدم التشهير بملكية قريبه.

يضاف لوصية الحب، وصية عدم الحقد. [**لا تبغض أخاك في قلبك بل عاتبه عتاباً ولا تحمل فيه وزراً**] (أحبار 19، 17). يمكن التفكير بأن التورا اقتصرت على الطلب بأن لا نلعنه ولا نضربه، ولا نلطمه على الوجه، كذلك يضيف النص: «لأنه يريد تحريم الحقد الذي يعبر عنه في القلب»: الحقد على الرفاق والمخلوقات هو أحد العيوب الثلاثة التي تُبعد الإنسان عن العالم.

يعلن توضيح ملموس لهذا التعليم بخصوص إحدى بطلات التلمود: «بعض الأفراد المفسدين الذين يعيشون في جوار الحاخام مئير لم يتوقفوا عن إزعاجه. في أحد الأيام بدأ الحاخام مئير بالصلاة طالباً موتهم. صاحت زوجته «بروريا» بماذا تفكر؟ هل لأنه مكتوب: «أن يختفي الخطاة عن الأرض» غير أنه يمكن القراءة أيضاً: ليختف الأشرار للأبد».

أي عندما تختفي الخطايا فلن يكون هناك أشرار، من واجبك الصلاة وطلب الندامة والمغفرة لهم ليبتعدوا عن الشر. عندها قدَّم مئير صلاته من أجل ندامتهم.

لا يمكننا أن نجد تحليلاً موجزاً أكثر دقة للتعليم الحاخامي المتعلق بالحب الأخوي، سوى العبارة التوجيهية التالية: «من هو القوي؟ هو من يحوِّل عدواً إلى صديق».

3 ـ التواضع

بينما كان أحد الحاخاميين يجعل من القداسة الفضيلة الأعلى، كان بعض زملائه يؤكدون «أن أكبر الفضائل هي فضيلة التواضع» كما قيل: [**إن روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأجبر المنكسري القلوب وأنادي بعتقٍ للمسبيِّين وبتخلية للمأسورين**] (إشعيا 61، 1). فالنص لم يقل «للقديسين» بل «للمتواضعين» من هنا نعلم أن التواضع هو الفضيلة العليا. يُمنَحُ الإنسانُ الثناء الكبير لأنه يمتلكها (الفضيلة). «من هو ابن العالم الآتي؟» إنه المتواضع، الطموح الساكن غرفة استأجرها بعيداً عن العالم، والمنكب دائماً على دراسة التورا، دون طلب ثناء أو حظوة، من خفض رأسه، فإن القدوس الواحد الممجد! سيرفعه. ومن رفع نفسه فإن القدوس الواحد الممجد! سيخفضه (أيروب 1،13). من يجرِ خلف العظمة، فالعظمة تهرب منه، ومن يهرب منها، فإنها تجري خلفه (أيروب 1، 14).

يلقى المتواضع قبولاً من الله لدرجة أنه يجذب الشيخينا، بينما الكبرياء تؤدي إلى فعل عكسي. «القدوس الواحد الممجد!» يجعل الشيخينا تسطع على الرجل الشجاع، الغني، العاقل، المتواضع (الغني هنا غني النفس والأخلاق وليس الغني بالمادة) [**فوقف الشعب على بعدٍ وتقدَّم موسى إلى الضباب الذي فيه الله**] (خروج 20، 21). التواضع جعل موسى يتصرف على هذا النحو: [**وكان موسى رجلاً حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض**] (العدد 12، 3). تعرِّفنا التوراة أن كل متواضع يجعل الشيخينا باقية معه على الأرض، والمتكبر يدنس الأرض وتبتعد الشيخينا عنه. إنها الكراهية لأنه قيل: [**كل مترفع القلب رِجْسٌ عند الرب من جيل إلى جيل لا يُزكَّى مبدأ الطريق الصالح العمل بالبرِّ وهو مقبول عند الله أكثر من ذبح الذبائح**] (أمثال 16،5) من يمشِ وهو منتصب القامة (متعجرفاً) لمسافة أربعة أذرع، يتصرف كما لو يطرد الشيخينا بقدمه لأنه قيل: [**وكان هذا ينادي ذاك ويقول قدوس قدوس قدوس رب الجنود. الأرض كلها مملوءة من مجده**] (إشعيا 6، 3).

يتعرض المتعجرف لإدانة جذرية «من كان متعجرفاً فهو أشبه بعبدة الأوثان، ينكر مبادئ الدين الأساسية، يرتكب كل أنواع الفجور، يستحق القتل والتمزيق كصورة

وثنية، ولن تجمع ذرات جسده، والشيخينا تبكي عليه. إن ميزات الكائن البشري، لا تقارن بما لدى القدوس الواحد الممجد! نلاحظ بين البشر معظَّمين يتطلعون إلى معظمين غير أنهم لا يأبهون للوضعاء. والأمر مختلف مع القدوس الواحد الممجدّ!: إنه ممجّد ومُعظِّم يرعى الوضعاء. من يتملكه حب العظمة، يقول القدوس الواحد الممجد! بشأنه: «لا يمكنني اللقاء معه في هذا العالم وفي الآخرة».

يعثر في كتاب آبوث عل بعض الأمثال والحكم حول هذا الموضوع. فنقرأ مثلاً: «فكِّر بثلاثة أشياء ولن تقع تحت سيطرة الخطيئة، اعرف من أين تأتي، وأين تذهب وإلى من ستقدم حسابك مستقبلاً، من أين تأتي؟ من قطرة لمادة سقطت متفسخة. أو من التراب، الدود، اليرقان؟ أمام من ستمثل وتقدم حسابك في المستقبل؟ أمام العالي ملك الملوك، القدوس الواحد الممجد!. «كن متواضعاً بالروح، لأن نهاية الإنسان هي الدود». كن متواضعاً بالروح أمام البشر، عينك صالحة (غير حسودة)، روحك متواضعة وخاشعة، جميعها من صفات ومزايا تلامذة أبينا إبراهيم».

كان يرفض العجرفة، ويحب التواضع. الأهمية الأساسية للدكاترة، هي أن أكبر التشريعات تعزى إليهم، كثيراً ما كانوا معرضين للسقوط في تمجيد أنفسهم، لذلك ترد فكرة أن يكون العلم مصحوباً بالتواضع مرات عديدة. هذه الفضيلة هي واحدة من ثمان وأربعين تطلب من الفرد الراغب في دراسة التورا، ماذا تعني هذه المصطلحات المكتوبة: **[بئرٌ احتفرها الرؤساء احتفرها أشراف الشعب بمخصرة بعصيِّهم ومن البرِّيَّة إلى متَّانة]** (أعداد 21،18) (كلمة متّانة تعني حدّ، والكلمة نفسها تعني بالعبرية سيِّد، وهنا تدل على سيادة التورا). إذا عزل رجل نفسه في صحراء، حيث يسمح لكل شيء بالمرور، فإن علمه سيبقى معه، **[لا هي في السماء فتقول من يصعد لنا إلى السماء فيتناولها ويسمعنا إياها فنعملَ بها]** (تثنية الاشتراع 30،12). لن تجد التورا لدى المتعجرفين والمتغطرسين، ولا بين المسافرين الملزمين بأعمالهم والمعرضين لمشاكل كثيرة (إيروب 55a). من يحمس نفسه بكلام التورا، ماذا يشبه؟ مثل جيفة ملقاة على الطريق، يبتعد عنها المارة وأنوفهم مسدودة، لو أن رجلاً أبله اعتمد على كلام التورا، لا يتغذى إلا بالتمر والجراد، ويرتدي ثياباً رثة، ويقف دوماً على باب العلماء، سيظنه الناس أخرق لكن في نهاية المطاف سيملك التورا بكاملها.

يثبت التلمود بوضوح، أن الحاخامات بشكل عام يتميزون بتواضعهم. وأكبر مثال

هو: الحاخام هليل، الذي كان أكثر تواضعاً من الجميع، ومن أقواله المفضلة: تواضُعي يُحمِّسني، وحماستي تخفضني (أخبار 5.1.R). وقد كتبت على ضريحه هذه العبارة الجنائزية: يا للأسف! ياله من رجل متواضع وتقي، ياله من تلميذ لـ «أسدراس».

والحكمة التالية توضح تواضعه: «يقول حاخاماتنا: على الإنسان أن يكون متواضعاً مثل هليّل، ولافظاً مثل سامّاي. تراهن رجلان فيما بينهما، على أن من يتوصل منهما إلي إخراج هلّيل عن طوره سيربح أربعمائة «زوز» كان ذلك عشية يوم السبت، وبينما هلّيل مشغول بتسريح شعره، جاءه أحد المتراهنين وقرع باب منزله ونادى بصوته: هل هلّيل هنا؟ هل هليل هنا؟ تناول هليل معطفه وجاء إليه وسأله: ماذا تريد يا بني؟ أجاب: لدي سؤال أود طرحه عليك. اسأل يا بني ـ لماذا رأس البابليين مكورٌ؟ ـ سؤال وجيه لأن ليس لديهم قابلات ماهرات. غادر الرجل ولكنه عاد ثانية وقرع الباب: هل هليل هنا؟ هل هلّيل هنا؟ تناول الحاخام معطفه ثانية وجاء إليه وسأله: ماذا تريد يا بني ـ لدي سؤال أود طرحه عليك ـ اسأل يا بني ـ لماذا أعين سكان تدمر مغمضة؟ سؤال وجيه وهام؟ لأنهم يسكنون في مناطق رملية. غادر الرجل وانتظر قليلاً ثم قرع الباب ونادى، هل هلّيل هنا؟ هل هلّيل هنا؟ تناول الحاخام معطفه للمرة الثالثة وجاء إليه وقال له: ماذا تريد يا بني؟ لدي سؤال أودُّ طرحه عليك ـ اسأل يا بني ـ لماذا أقدام الأفارقة مفلطحة؟ ـ سؤال هام، لأنهم يعيشون في بلاد مستنقعية. قال الرجل: لديَّ أسئلة كثيرة أودُّ طرحها، لكنني أخشى غيظك وغضبك. طوى هليل معطفه وجلس ثم قال: اسأل كل ما تريد ـ هل أنت هلّيل الذي يطلق عليه سيد في إسرائيل؟ ـ نعم ـ في هذه الحال: هل يوجد الكثير من أمثالك ـ لماذا يا بني؟ ـ لأنك جعلتني أخسر أربعمائة زوز. عندها قال له الحاخام: «لا تخف، ستفقد أربعمائة زوز أخرى بسبب هليل، على أن تراه يتخلى عن صبره».

4 ـ البر والإحسان

من بين المعالم المميزة للحياة الأخلاقية، تتأكد الرغبة في تقديم المساعدة الممكنة للقريب المحتاج. الإحسان كما يُفهم من التلمود، يكتسي وجهين مختلفين. أولهما

الصدقة، الاستعمال الذي تشير إليه هذه الكلمة بأن الغرض منها هو المساعدة المالية يعتبر فهماً خاطئاً. المعنى الحقيقي للصدقة هو «العدالة»، أغلب الظن أنه تم العثور على كلمة الإحسان في التوراة. وذلك في جزء من سفر دانيال المكتوب بالآرامية (4، 24) حيث جاء فيه: [**لذلك أيها الملك لتحسُن مشورتي لديك وافتدِ خطاياك بالصدقة وآثامك بالرحمة للبائسين عسى أن تطول دَعتك**] ومن المستحيل تحديد ما إذا كانت كلمة «صدقة» تعني «عدالة». في جميع الأحوال فقد ورد في كتاب «سيراوس» القرن الثاني ق.م أن التغيير في المعنى أمر واقع حيث تقرأ في سفر يشوع بن سيراخ (3،14) [**يا بني أعن أباك في شيخوخته ولا تحزُنه في حياته**]، والنص العبري يعني الصدقة [**ولا تهمل الصدقة**] أي لا تتأخر في الصدقة، انتبهوا لا تمنحوا الصدقة أمام أحد، لأن الصدقة لا تمنح إلا في الخفاء لتنال أجرك عند الله.

هذا التبدل في مضمون الكلمة لا يمكن حدوثه عرضياً. وإن نتيجة النظرية التي تجعل من مساعدة الفقراء ليست فعل كرم، بل هي قيام بالواجب، وإعطاء الصدقات هو ممارسة للعدل، لأن كل ما يملكه الإنسان قد أقرضه إياه خالق الكون ومالك الأرض وجميع ما عليها. والإحسان يضمن توزيعاً عادلاً لعطايا الله إلى البشرية. الفكرة الحاخامية عن الصدقة لا تكون بشكل أفضل إلا بفضل هذه التعابير: أعطه ما هو له، حيث إن كل ما هو لك يعود له، وقد عبر عن هذا من قبل داود الذي قال: كل شيء يأتي منك ونحن نتلقى من يدك، وهو ما نقدمه له. هذا ما يفسره القانون التلمودي: «المتسول الذي يعيش من الإحسان، عليه ممارسة الصدقة» لا أحد معفى من هذا الواجب.

إن فعل الإحسان لا يقتصر على مساعدة المحتاجين فقط، بل يجلب الخير لمن يقوم به. يقدم المتسول لرب البيت حسنة أكثر مما يقدم رب البيت له محادثة غريبة تتحدث عن ذلك، فالحاخام عقبة كان قد حفظ حواراً مع «تينيوس ريفوس» الحاكم الروماني على فلسطين. سأل تينيوس ريفوس: لو أن إلهكم يحب الفقراء، فلماذا لا يعتني بهم؟ فيجيب عقبة «هذا لنتمكن بواسطتهم النجاة من جهنم» أجاب الحاكم الروماني: بالعكس هذا يجعلكم تستحقون عقوبة جهنم. إليكم هذا القول المأثور. غضب ملك روماني من عبده فأودعه السجن، وأمر بألا يقدم له الطعام والشراب. بيد أن أحدهم أحضر له الغذاء والشراب. فإذا علم الملك بذلك، هل سيغضب على الأخير؟ يطلق

عليكم اسم العبيد هكذا قيل: [**لأن بني إسرائيل عبيد لي إنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر أنا الرب إلهكم**] (أحبار 25، 55).

أجاب عقبة: إليك حكمة أخرى: غضب أحد الملوك من ابنه، فأدخله السجن، وأمر بأن لا يقدم له الطعام والشراب، غير أن أحدهم أحضر له الطعام والشراب. عندما سيعلم الملك بذلك فهل يندم؟ يدعوننا أطفالاً كما قيل: [**أنتم بنو الرب إلهكم لا تهشِّموا أجسادكم على ميت ولا تنتفوا ما بين عيونكم**] (تثنية الاشتراع 14،1).

أترى أنه هو من صرّح بهذا [**أليس هو أن تَكسر للجائع خبزك وأن تُدخل البائسين المطرودين بيتك، وإذا رأيت العريان أن تكسوه، ولا تتوارى عن لحمك**] (إشعيا 58، 7).

وفي مكان آخر من التلمود، هناك ملاحظة للحاخام عقبة تتعلق بمفهوم الإحسان كوسيلة للتكفير عن الذنوب «من يطل وقت الجلوس على المائدة يمد الله في عمره، حيث من الممكن أن يحضر فقير أو جائع فيأكل، وفي فترة وجود المعبد كان المذبح يعمل للتكفير لصالح إسرائيل، لكن الآن فإن مائدة الإنسان تكفر له (Ber. 55a) باستضافة الفقراء».

العبرة الأخلاقية من القصة ليست سوى عظمة الاستحقاق لممارسة الصدقة: يقال إن الحاخام طرفون كان ثرياً جداً غير أنه بخيل. التقى به الحاخام عقبة وسأله: هل ترغب أن أشتري لك مقاطعة أو مقاطعتين؟ قبل الحاخام ودفع له على الفور أربعة آلاف دينار ذهباً، أخذ الحاخام عقبة الدراهم ووزعها على الفقراء. بعد فترة من الزمن التقى به الحاخام طرفون وسأله: أين المقاطعتان اللتان وعدتني بشرائهما لي؟ أخذه عقبة من يده واقتاده إلى بيت الدراسة، ثم جاء بنسخة من كتاب المزامير وبدأ بقراءته حتى وصل إلى هذه الآية: [**إنه كريم، يعطي للمحتاجين، عدالته تبقى للأبد**] (مزمور Ps.q. 112) صاح عندها عقبة: «يا سيدي ومرشدي، يا من علمني الحكمة والسير في السلوك القويم» نهض طرفون وطلب منه توزيع مبلغ آخر على شكل إحسان.

بما أن الله يوافق على ضرورة مساعدة أبنائه المحتاجين، ينتج من ذلك رضاه بمكافأة من يعطي. هذه القناعة أو الرضا موجودة في الأناجيل المختلفة. الآية التوراتية: [**كنوز النفاق لا تنفع، والبرُّ يُنقذ من الموت**] (أمثال 10، 2) يمكن

صياغتها بهذا الشكل الجديد: «الصدقة تخلص من الموت، وتطهر من الخطيئة، من يقدم الصدقة يقم بأعمال البر، سيشبعه الله مدى الحياة». [**لأن الصدقة تنجِّي من الموت وتمحو الخطايا وتؤهل الإنسان لنوال الرحمة والحياة الأبدية**] (طوبيا 12،9). ويحتوي التلمود على الكثير من الروايات المعدَّة لتوضيح قوة الإحسان الشافية سنذكر من ذلك بعض الأمثلة:

«كان للحاخام عقبة ابنة يقول المنجمون عنها، إنها ستتعرض للدغة أفعى وتموت في أول يوم من عرسها، كان أبوها يتعذب كثيراً وفي يوم عرسها، أخذت مشبكها وثبتته على الجدار، وحصل أن رأسه المدبب ثقب عين الأفعى وفي صباح الغد عندما استعادت المرأة الشابة مشبكها، كانت الأفعى معلقة به. سألها الحاخام عقبة، من فعل هذا؟ أجابته: البارحة مساء جاء محتاج ووقف أمام الباب، وكان الجميع منشغلين بتحضيرات الزواج، ولم يسمعه أحد، نهضت وقدمت له هدية العرس التي قدمتها لي. قال لها والدها: بهذا العمل قمت بفعل يستحق التقدير»، وانطلق يبشر بأن الإحسان يخلص من الموت، ليس الموت العادي بل الموت المحتم (شاب 6، 15).

كان بنيامين العادل مكلفاً بإدارة صندوق الإحسان خلال فترة جفاف، جاءته امرأة متوسلة إليه: أرجو مساعدتي. أجابها: لم يبق شيء في الصندوق مع خَدَمَةِ الهيكل. قالت له: «إذا لم تساعدني فإن الموت سيحصد أمّاً وأطفالها السبعة» عندها قدَّم لها من ماله الخاص: بعد مدة من الزمن أصيب الحاخام بمرض عضال، وكان على فراش الموت. أعلنت الملائكة الخدم للقدوس الواحد الممجد! لقد أعلنت أن من ينقذ حياةً فهو كما لو خلّص العالم كله. وبنيامين الصالح أنقذ امرأة وأطفالها السبعة؟ هل سيموت وما زال شاباً؟ وعلى الفور، تبدّل قدره، وأضيفت اثنتان وعشرون سنة إلى حياته.

«لاحظ الحاخام مئير أثناء زيارته لمدينة «ماملا» أن جميع سكانها شعرهم بلون أسود»، سألهم: هل تنحدرون من أصل «إيليا» الذي قيل له: «جميع من في بيتك سيموتون في سن مبكرة؟ (سام 2، 33) أجابوه: نرجوك أن تصلي من أجلنا. قال لهم: اذهبوا ومارسوا الإحسان وستشيخون».

يعطي الاعتقاد الشعبي الصدقة ميزات مادية أخرى: ماذا يفعل الرجل للحصول على أولاد ذكور؟ عليه أن يوزع ماله على الفقراء. من يجر خلف الإحسان ليمارسه،

فإن القدوس الواحد الممجد! يقدم له جميع الوسائل لفعله. أي يقوده للثراء. إذا وجد رجل أن موارده بدأت تتناقص، فعليه تكريس جزءاً منها للإحسان، فيتحرر من عقاب جهنم. حملان كانا يعبران مجرى ماء، أحدهم جُزَّ صوفه، والثاني يحتفظ بكامل صوفه. اجتاز الأول مجرى الماء بسلام، أما الآخر فلم يستطع. قال أحد الحاخامات لزوجته: عندما يأتينا متسول فأعطيه خبزاً، كي يصنع أطفالك الشيء نفسه أجابته: لكنك تلعنهم، ردَّ عليها: في العالم دولاب يدور. يجب عليه عدم رفض أي طلب محتاج، إذا وجد أن أطفاله بحاجة، وعدم إعادته خائباً. الإحسان يحمل الأمن والطمأنينة.

عندما كان الهيكل موجوداً، فكل رجل يساهم بمقدار وزنه، فتغفر له خطاياه والآن لم يبق وجود للهيكل، فإذا مارس الإنسان الإحسان فكل شيء يسير على ما يرام، أما في الحالة المعاكسة، فسيأتي الوثنيون ويصادرون أموالكم بالقوة. توضح الحكمة ما يلي:

«الباب الذي لا يفتح للإحسان، سيفتح للطبيب».

لكن من الخطأ الاستنتاج مما تقدم أن الصدقة مستوحاة من أسباب نفعية، نصوص كثيرة توضح أن الإحسان بحد ذاته فضيلة سامية مثلاً: يعادل الإحسان جميع الوصايا الأخرى مجتمعة. من يمارس الإحسان والعدالة كمن يملأ العالم طيبة ومحبة. ممارسة الإحسان أفضل من جميع الأضاحي. الإحسان عظيم لأنه يقربنا جداً من المسيح (المنتظر). إن لذة المال هي في تناقصه. عندما يقف متسول أمام بابك، فإن القدوس الواحد الممجد! يقف على يمينه. من يغمض عينيه عن الإحسان، يفعل كما لو أنه يعبد الأوثان. الاعتراف بالصدقة المنفذة دون وضوح مغزاها تكون ضارة لا يُنصح بها. حاخام واحد لم يبال بخطر مساعدة الناس الذين لا يستحقونها، يقول: «يجب الحذر من المحتالين الذين يندسون بين الفقراء» عندما نكون حذرين ويطالبوننا بالصدقة، فإن رفضها يعرضنا للعقاب.

الحاخام «إلعازر بن بدَّا» كان فقيراً جداً، لم يكن لديه ما يأكل ومع ذلك لم يبدأ صلاته دون التصدُّق ببعض الأشياء الزهيدة.

من المؤكد أن الهبة مهما كانت صغيرة فإنها تحقق عوناً حقيقياً. ماذا يعني الكلام التالي من الكتاب المقدس: (فلبس البرّ كدرع وخوذة الخلاص على رأسه، وتسربل

ثياب الانتقام لباساً، واشتمل بالغيرة كرداء) (إشعيا 59، 17). الصدقة تشبه حلقات متصلة ببعضها، عندما تجمع القروش بعد مدة يصبح المبلغ كبيراً، ويحقق الإحسان نتائج رائعة. يحتوي التلمود على سلم متدرج للمساعدات: كسرة خبز عند بيع مكيال طحين، إذا حل الليل يجب تأمين النوم له، وإذا كان يوم السبت يجب أن يتلقى ثلاث وجبات من الطعام في اليوم.

يجب أن لا تنص الصدقة بتسليم المساعدة. يجب الأخذ بعين الاعتبار الظرف الشخصي لمن يتلقاها وإلى نوع الحياة التي اعتاد عليها [**بل ابسط له يدك وأقرضه مقدار ما يُعْوِزه**] (تثنية الاشتراع 15،8). ليس المطلوب منك أن تجعله غنياً بل أعطه ما يسد حاجته حصاناً أو عبداً: «يُروى أن هلِّيل أعطى فقيراً منحدراً من عائلة ميسورة، الحصان الوحيد الذي كان يستخدمه لعمله الخاص، ومعه العبد في خدمته» وفي رواية أخرى تقول أن هلِّيل لم يجد في المدينة عبداً يجري أمام حصانه، فقام بهذه المهمة بنفسه.

لا أحد يتصور أنه قام بواجب الإحسان، بمنح حسنة قليلة القيمة «ليبارك الله من يهتم بالفقير» ليس ذاك من يعطي الفقير فالأمر متعلق بالرجل الذي يتساءل كيف يمكن القيام بعمل يستحق التقدير المثل التالي معادل لما سبقه من يعطي الفقير مالاً، فإن صدقته أسمى من باقي الصدقات، وأفضل شيء من يموِّل فقيراً اتخذه شريكاً له.

بمعنى آخر، يجب إظهار الاعتبار للفقير، من أعطى قريبه جميع ما في العالم بوجه عبوس، يُسجَّل عليه كأنه لم يعطِ شيئاً. بيد أنه من يستقبل قريبه بحب ولطف حتى وإن لم يعطه شيئاً، سيحسب له كما لو أنه أعطى الأشياء الثمينة. وكما قيل: [**إذا أبرزت نفسك للجائع وأشبعت النفس المعناة يشرق نورك في الظلمة ويكون ديجورك كالظهر**] (إشعيا 58، 10).

إذا لم يكن لديك شيء للإحسان، هوّن عليه بكلامك. قل له: روحي فداك، ليس عندي ما أعطيه) أحبار ما هو أهم من كل شيء، ممارسة الإحسان الحقيقي سراً، الصدقة الأفضل تتم عندما يقوم شخص ما بحسنة دون أن يعرف من هو المتلقي، ومن تلقاها لا يعلم مرسلها. يُروى أن في الهيكل غرفة لتلقي الحسنة السرية، يضع فيها الأشخاص الصالحون سراً مساهماتهم، كذلك الفقراء المنتمون سابقاً لعائلات ميسورة

يساعدون سراً، مؤسسات مشابهة كانت موجودة في معظم المدن الفلسطينية. رأى أحد الحاخامات رجلاً يقدم جهاراً قطعة نقود إلى متسوِّل. قال له الحاخام: كنت فعلت حسناً لو لم تعطه شيئاً، بدلاً من إهانته بصدقتك.

هذا كل ما يخص الصدقة: أما الوجه الثاني للإحسان فهو «القيام بأعمال الخير» وهي الأكبر في ميزاتها الأخلاقية، وقيمها الهامة للبشرية، إنها أحد الأعمدة التي يرتكز عليها النظام الاجتماعي (آبوث 3، 1).

إن مرحلتي الإحسان موضوعتان بشكل متناقض بهذه العبارات، «الإحسان أعلى من الصدقة بثلاث مراتب: تتم الصدقة بالنقود، الإحسان يتم بخدمة شخصية أو بالمال، الصدقة تمنح للفقراء بينما الإحسان يعطى للفقراء والأغنياء. الصدقة تمنح للأحياء، بينما الإحسانُ يعطى للأحياء والأموات».

تبدأ أسفار موسى الخمسة بالإحسان وتنتهي به، قيل في البدء: [**وضع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وكساهما**] (تكوين 3،21) وفي النهاية قيل: [**ودفنه في الوادي في أرض موآب تجاه بيت فغور ولم يعرف أحدٌ قبره إلى يومنا هذا**] (تثنية الاشتراع 34، 6).

تتضمن أعمال الخير (جميلوت خسَّاديم) كل الأفعال التي تمت بقلب طيب، والتي تخفف من آلام الحزانى، وتلطف العلاقات بين أفراد المجتمع. وقد وردت بعض هذه الأفعال في التلمود مثل: العناية بالمسافرين، زيارة المرضى. فضيلة يفرح الإنسان بقطف ثمارها في هذا العالم، بينما عمل الخير الأساسي يُحفظ في العالم الآخر. فيما يتعلق بحسن ضيافة الغرباء والمعوزين، إليكم ما يقال عن ذلك: «إن استقبال المسافرين افضل من استقبال الشيخينا». يقرأ في الوصية التالية: [**ليكن بيتك مفتوحاً على مصراعيه، ويكون الفقراء فيه أشبه بعائلتك**]. اثنان من أبطال التوراة يحتذى بهما لممارستهما هذه الفضيلة هما: أيوب وإبراهيم. يروى عن النبي أيوب أنه فتح أربعة مداخل لمنزله بطريقة لا يضطر فيها المساكين للدوران حول البيت ليجدوا مدخله. جاء في التوراة: [(**وغرس إبراهيم شجراً مثمراً في بئر سبع ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدي**) (تكوين 21، 33). انظروا كيفية شرح ذلك: الشجر المثمر يدل على مكان السكن، حيث يستقبل إبراهيم المسافرين بعد أن يأكلوا ويشربوا (إيخيل اختصار لثلاث كلمات: أكل، بشهية، شرب لبناً، بات في الليل)

كان يقول لهؤلاء: «أمضوا الليل هنا ومجدوا الله».

ويقال أيضاً: إن منزله الشخصي كان مفتوحاً دائماً للمسافرين. ويُروى عن الحاخام «هونا» أنه كلما جلس لتناول طعامه، كان يفتح الباب وينادي: ادخلوا، وليأكل من يحتاج للطعام.

لقد نوّهنا سابقاً عن العمل الذي يستحق التقدير وهو جمع شمل اليتامى. فعل آخر للإحسان جدير بالتقدير ينص على مساعدة فتاة فقيرة على الزواج، بتقديم جهاز العرس، وتوفير المهر لها. يستنتج من وحي الإرادة الإلهية لـ «ميخا»: [**قد بيَّن لك أيها الإنسان ما هو صالح وما يطلب منك الرب. إنما هو أن تُجري الحكمَ وتحب الرحمة وتسيرَ بتواضع مع إلهك**] (ميخا 6، 8). ممارسة العدالة معناها الحكم بالعدل، وحب الشفقة أي الإحسان، السير بتواضع معناه دفن الموتى ومساعدة الفتيات المخطوبات.

يوصى أيضاً عند عمل الإحسان بزيارة المرضى، وهي واحدة من أعمال الله التي يجب على الإنسان تقليدها. «من يزر مريضاً فإنه يُشفى من ستين بالمائة من مرضه، وإذا قام ستون شخصاً بزيارة مريض، فسيجعلونه يقف على قدميه! هذا يعني أن كل واحد يستأصل جزءاً من ستين مما يبقى للآخرين». مرض أحد تلامذة الحاخام عقبة، ولم يحضر أحد من العقلاء لزيارته، فجاء الحاخام عقبة بمفرده، فوجده يكنس الغرفة ويرش الماء فقال له تلميذه المريض: «لقد أعدت لي الحياة» خرج الحاخام من منزل تلميذه وبدأ يعظ بما يلي: «من لا يزور مريضاً فكأنه سفك دماً» أعلنت سلطة أخرى، أن من يزور مريضاً سيشفى ومن لا يزوره فسيكون عدم زيارته سبباً لموته.

الإحسان الكبير هو ما يمارس تجاه الموتى، لأنه ينم بالضرورة عن نوايا صافية. قال يعقوب ليوسف: [**ولما دنا أجل يعقوب دعا ابنه يوسف وقال له إن أصبتُ حُظوة في عينك فضع يدك تحت فخذي وأصغ إليّ رحمة ووفاء. لا تدفنّي في أرض مصر**] (تكوين 37، 29). يطلب الحاخامات: هل هناك نوايا سيئة؟ تريد هذه الكلمات القول: إذا قمت تجاهي بعمل طيب، فهذا قمة الإخلاص. يطلق على الجثة غير مدفونة بالعبرية «مت مترفا ودفنها واجب ديني» يعطى للدفن أهمية كبرى، لدرجة أن الحاخام الكبير إذا لم يجد شخصية تقية تقوم بواجب الدفن، فعليه أن يقوم بها بنفسه، مع العلم أنه ممنوع عليه ملامسة الجثة.

كذلك حضور مراسم الجنازة واجب مقدس، يمكن التوقف عن دراسة التورا عند

دفن الميت، وعند مساعدة فتاة مخطوبة على الزواج. ومن يرَ موكباً جنائزياً ولم يرافقه، يرتكب انتهاكاً وقيل في هذا الصدد: [**المستهزئ بالمعوزْ يُعَيِّر صانعه، والشامت للعطب لا يتزكىَ**] (أمثال 17، 5) إذا رافقه فما هي المكافأة؟ جاء في التوراة: [**من يرحم الفقير يُقرض الرب فيجَزيه بصنيعه**] (أمثال 19، 17)، [**من يُعسف الفقير يُعيِّرْ صانعه والذي يُمجِّده يرحمُ المسكين**] (أمثال 14، 31) أخيراً يقضي الواجب بتقديم العزاء للحزانى، هذه أيضاً من الأعمال التي يقلد بها الإنسان الله، لنحترس بهذا التحذير: «لا تعزٍّ قريبك في الوقت الذي يُبكى عليه وما زال يرقد أمام ناظريك» (آبوث 4، 23) لأن وضعه النفسي لا يسمح له بتلقي تعابير التعزية، بعد مراسيم الدفن تمر سبعة أيام من الحداد، تجري خلالها زيارة أهل الميت وتقديم التعازي.

5 ـ الاستقامة

ما يميز الحياة الأخلاقية هو الاستقامة في العمل، ويعطي التلمود أهمية خاصة وكبيرة لها.

الجميع مقتنع بأنه «عندما يمثل الإنسان بعد الموت أمام محكمة العدل العليا (الله) فالسؤال الأول الذي سيسمعه هو: هل كنت مستقيماً شريفاً في معاملاتك مع الآخرين؟

التأكيد على النص يأتي من القول التالي: [**وقال إن أطعت أمر الرب إلهك وصنعت بالاستقامة أمامه وأصخت إليٍ وصاياه وحفظت جميع فرائضه فجميع الأمراض التي أحللتُها بالمصريين لا أحِلّها بك لأني أنا الرب معافيك**] (خروج 26،15). القصد هنا الأعمال التجارية، يعلمه أن من يعمل بنزاهة فهو من شعبي، ويعتبر كما لو أنه أتمَّ التورا بكاملها.

النتائج السيئة لعدم الاستقامة في حياة المجتمع يعبر عنها بالشكل التالي: «دُمِّرت أورشليم لأن المستقيمين اختفوا منها».

يتضمن التلمود قوانين صارمة لتنظيم عمل البشرية.وفيما يلي بعض العينات: الحانوتي ملزم بتنظيف مقاييسه مرتين في الأسبوع، والأوزان مرة واحدة، والموازين بعد كل زنة.

[لا تجوروا في الحكم ولا في المساحة والوزن والكيل]، [بل موازين عادلة وعيارات عادلة وإيفةٌ عادلة وهينٌ عادلٌ تكون لكم أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر] (أحبار 19، 35، 36).

تؤخذ مساحة الأراضي كمرجع لمقاييس الأبعاد، فلا تقاس واحدة في الصيف والأخرى في الشتاء. الأوزان: لا يسمح حفظها بالملح، المكاييل: لا يسمح ترك السوائل لتشكل الصدأ والرغوة من أين نأتي بالمقياس الصحيح، حيث العادة المنتشرة هي المقياس التقريبي والعكس بالعكس؟ يقول النص: **[بل ليكن لك معيارٌ وافٍ عادلٌ ومكيال وافٍ عادلٌ لكي تطول أيامك في الأرض التي يعطيها الرب إلهك]** (تثنية الاشتراع 25، 15). وإذا قال البائع من أين جاء؟ «أريد إعطاء مقياس تام في المكان الذي يمارس فيه المقياس التقريبي وتخفيض السعر، أو أريد إعطاء مقياس تقريبي في مكان يمارس فيه مقياس خالٍ من العيب، وزيادة في السعر أليس هذا مسموحاً به؟ يأمر النص وزناً عادلاً منصفاً».

من أين نأتي بالوزن الصحيح حيث نمارس زيادة في الوزن والعكس بالعكس؟ يقول النص: «معياراً خالياً من العيب، لو قال البائع من أين جاء هذا المعيار؟ أريد الوزنَ الصحيحَ في مكانِ العادةُ فيه وجودُ الميزان التقريبي ومنحُ زيادة في الوزن، أو أريد إعطاء زيادة في الوزن في مكان يمارس فيه السعر الصحيح وزيادة السعر أليس هذا مسموحاً به؟ يأمر النص مكيالٌ خالٍ من العيب ومعيار عادلٌ بما أن هنالك احتمالاً للغش عند الابتعاد عن العادة المحلية، فالانحراف هنا غير مسموح به.

يدين التلمود بعض الممارسات المشروعة بنظر البعض «الاحتفاظ بالمنتوجات لرفع أسعارها، ممارسة الربا، الذين لا يملؤون مكاييلهم، والذين يثيرون الاضطراب في السوق» يقول الكتاب المقدس: (قد أقسم الربُّ على زهو يعقوب أني لا أنس عملاً من أعمالهم إلى الأبد) (عاموس 8، 7).

تظهر بعض الخطابات أيّاً من المسائل المتشككة التي كان يستعملها الحاخامات. «حصل أن فينياس بن جائير» الذي كان يسكن إحدى المدن وسط البلاد، زاره بعض

الرجال، ووضعوا عنده مكيالين من الشعير، وفي كل سنة كان يضعهم كمدخر لديه، عاد هؤلاء الرجال بعد سبع سنين، حيث تعرَّف إليهم ورجاهم أن يأخذوا ما هو ملك لهم. حصل أيضاً أن شمعون بن شيتاخ اشترى حماراً، فرأى تلاميذه قلادة جميلة معلقة على عنق الحمار. قالوا له: أيها الحاخام، ينطبق عليك هذا المثل: بركة الرب تغني ولا يضاف إليها ألم) (أمثال 10، 22)، أجابهم: «لقد اشتريت الحمار ولم اشتر الحجرة الكريمة» أذهبوا وأعيدوها لصاحبها، صاح البائع «ليمجَّد شمعون بن شيتاخ» (تثنية الاشتراع 3R، 3).

الغش ممنوع، وكذلك أي نوع من أنواع الخداع، هناك سبع فئات من اللصوص: أسوأهم من يخدع قريبه ممنوع خداع الآخر ولو كان وثنياً إن نَعَمَ المنصف هي نعم، ولاءَه هي لا. القدوس الواحد الممجد! يكره الإنسان الذي يقول شيئاً في العلن، ويضمر في قلبه شيئاً آخر.

6 ـ التسامح والمغفرة

الانسجام الذي يجب أن يسود المجتمع، سيتعرض حتماً للاضطرابات المكونة للخلافات بين أفراده، وبالتالي فإن كل مواطن صالح، يرغب أن تنتهي هذه الخلافات بسرعة لتسود العلاقات السلمية. هناك شرطان ضروريان للحصول على هذه النتيجة: الأول هو أن من وقع في الخطأ عليه الاعتراف بخطئه ومن ثمَّ يطلب السماح من الشخص الذي وجهت إليه الإهانة.

يقف التلمود بحزم تجاه هذا الوضع، فيوضح الطريقة التي يجب اتباعها: «من أخطأ تجاه قريبه مُلزمٌ بالقول له: لقد تصرفت بالسوء نحوك»، إذا قُبل اعتذاره فلا باس، وإلا فعليه اصطحاب شهود ويتصالح مع قريبه أمامهم كما قيل: [**فيرنِّم بين الناس ويقول قد خطئت وزغتُ عن الاستقامة ولم يُجْزِني**] (أيوب 33، 27) إذا فعل هكذا فيقول الكتاب المقدس عنه: [**بل أفتدي نفسي من الهبوط إلى الفساد وحياتي تبصر النور**] (أيوب 33، 28). إذا كان المُعتدى عليه ميتاً، فعلى المعتدي أن يتصالح معه على قبره ويقول هناك: «لقد أسأت التصرف نحوك».

دكتور آخر يصرح بما يلي: «إذا شك أحدهم خطأ بشخص آخر، فعليه التصالح معه، والأكثر من ذلك عليه مباركته» بيد أن عدد محاولات المصالحة يجب أن لا تقل عن ثلاث. كان أحد الحاخامات يقول عن نفسه: «بل تصعد لعنة قريبي إلى سريري» هذا يعني أنه ينجح دائماً في تهدئة الذين أهانوه في نفس اليوم، قبل الذهاب لمنزله ويستريح.

في المقام الثاني، يحق للمُعتدى عليه قبول الاعتذارات المقدمة إليه، وعدم إطالة الضغينة في صدره: «على الإنسان أن يكون دائماً مرناً مثل الخيزران وليس مثل شجر الأرز».

«اصفحوا عن الإهانة الموجهة إليكم» كان أحد الحاخامات ينطق بهذه العبارات عند صلاته قبل النوم: «اصفح يا سيدي عن الذين وجهوا إهانات لي وأحزنوني في هذا اليوم».

إرشاد حكيم يهدف إلى التخفيف من حجم النزاعات وتهدئتها فيما لو حدثت،يُعبَّر عنه بالتالي: «إذا ارتكبتَ إهانة خفيفة بحق شخص آخر، فلتكن الإهانة كبيرة بنظرك، وإذا قدمت له خيراً كثيراً، فليكن هذا الخير قليلاً بنظرك أيضاً، ولو فعل لك القليل من الخير، فليكن كبيراً في عينيك ولو أساء إليك بشكل كبير، فلتكن الإساءة تافهة بنظرك».

الدفاع المقدم من سفر الأحبار (19، 18) [**لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك وقريبك أحببه كنفسك أنا الرب**]. الثأر موجود، إذا طلب أحد من قريبه درهماً وقابله بالرفض، وفي الغد يقول الثاني للأول «أقرضني معولك» فيتلقى الجواب التالي: «لن أقرضك شيئاً لأنك رفضت إعارتي ما طلبته منك». عندما يقول أحدهم لقريبه أعرني معولك ويُرفض طلبه، وفي الغد يقول الآخر للأول: أعرني ثوبك،ويتلقى منه الجواب التالي: ها هو، لست مثلك، أنت من رفض إعارتي ما طلبته منك، هؤلاء الذين أهينوا أعرضوا عن الانتقام، الذين يتعرضون للمهانة واللوم ولا يردُّون هم الذين يعبِّرون عن حب إرادة الله، فهم سعداء في حزنهم، وعنهم يقول الكتاب المقدس: [**هكذا فليَبِد جميع أعدائك يا رب وليكن محبوك كالشمس المشرقة في بهائها**] (قضاة 5، 31). من يثأر ستغفر له خطاياه عندما يطلب العفو والندامة، وسيحصل عليه.

يوجَّه اللوم لمن يرفض الصفح، ولمن يدفع إلى زيادة حدَّة العداء «من يشفق على

قريبه، ويغفر أخطاءه سيتلقى رحمة من السماء». يذكر حاخام من القرن الأول هذا النص بالتفصيل: [**إذا سقط عدوُّك فلا تشمت وإذا وقع فلا يتهج قلبك، لئلا يرى الرب ويسوء الأمر في عينيه فيرُدَّ عنه غضَبهُ**] (أمثال 24،17). هذا يعني أن من يرفض الصفح أو العفو، ويختزن بداخله الكراهية والحقد ويفرح عندما تحل مصيبة بالآخرين، يُصبح بهذا مذنباً، وسيحل غضب الله عليه.

7 ـ القناعة

اتخذ التلمود حيال ملذات الحياة موقفاً مميزاً مقرّاً بأن ما خلقه الله لسعادة الإنسان صالح جوهرياً، فهو لا ينصح فقط بالاستفادة منه، بل يدين من يمتنعون عن ذلك. فقد اقتنع الحاخامات أن الله يبغي سعادة مخلوقاته، وبالتالي هناك خطيئة عند التجنب المُتَعمَّد للاكتفاءات المادية للراحة الجسمية. الشعور بوجوده (أي الله) هو مصدر للنور والفرح، لا حزنٌ بحضور القدوس الواحد الممجد! كما قيل: «القوة والفرح هما في بيته» لا تسطع الشيخينا وسط الكبرياء، الحزن، الهزل، الثرثرة بلا فائدة، بل وسط الفرح لإتمام الواجب الديني.

نلاحظ عبر مجمل التعليم الحاخامي توصية بالقناعة المستندة للحكمة: ضدان: التقشف، وحب اللذة، ممنوعان كما هما ضاران، الفقر لا يُعتبر فضيلة بحد ذاته «حيث لا طحين فلا تورا»، وبعبارات أخرى، إن نقص أو غياب ما هو ضروري للوجود (البقاء) يمنع اكتساب العلم الجوهري لإتمام الإرادة الإلهية: «الفقر في البيت أسوأ من خمسين جرحاً».

كان الحاخامات يعطون قيماً للجمال مثل: بيت جميل، امرأة فاتنة، ثياب جميلة زاهية، مما يوحي فعلاً بأجواء مستحبة كانوا يصرِّحون أنه حتى في العالم الآخر سيكون للإنسان حق التمتع بكل ما تراه عيناه، لكن دون التذوق، ويعرِّفون الغني بأنه «من يجد اللذة في ثرواته».

يروى أن الحاخام شمعون بن جوخاي قد أرغم على التخفي لانتقاده الإدارة

الرومانية، للمحافظة على حياته، وظل بعيداً مع ابنه في كهف مدة اثنتي عشرة سنة. وعندما علم بوفاة الحاكم الروماني وألغي أمر ملاحقته، خرج من مخبئه، وأثناء سيره صادف رجالاً يحرثون ويبذرون الأرض، ولدى رؤيته لهم قال: «هؤلاء الناس أهملوا حياتهم الأزلية ويهتمون بالحياة الزمنية العابرة». وفي كل جهة يلتفت إليها مع ابنه، كانا يشاهدان الحرائق تلتهم كل شيء، عندها دوَّت النعمة قائلة: هل من أجل تدمير عالمي خرجتم من الكهف؟ عودوا إليه. المحافظة على النظام الاجتماعي مدعوم من الله، ومن حق كل إنسان التمتع بثمار عمله.

لكنه يجب أيضاً تجنب النوع الآخر، ألا وهو تجميع الثروات بغرض الترف الذي لا يتفق مع إرادة الله. عندما بنى سليمان الهيكل، قال للقدوس الواحد الممجد! في صلاته: «سيد الكون إذا توسل إليك إنسان بأن تمنحه ثروات كبيرة، وأنت تعلم أنه يريد تبذيرها، فلا تسامحه، لكن إذا وجدت إنساناً يتصرف بثرواته للخير والإحسان، فأرجوك تلبية طلبه»، هكذا قيل: **[فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر واجز كل واحد بحسب طرقه كما تعرف قلبه لأنك أنت وحدك تعرف قلوب بني البشر]**. (أخبار).

تعريف له مغزاه أعطي للغني: «من هو الغني؟ ذلك من يتمتع بثروته كما قيل» عندما تتمتع بتعب يديك فأنت سعيد، وستتحسن أحوالك». أنت سعيد في هذا العالم وستنجح في العالم الآخر (آبوث 4، 1) هذا ما يلخص رأي الحاخامات بشكل واضح.

من أجل أن يقوم الإنسان بعمله جيداً، فمن واجبه السهر على تغذية جسمه: شدّوا على أسنانكم ستشعرون بذلك في أعقاب أقدامكم أي أن الغذاء الوفير يقوي الجسم، تقول الحكمة: «المعدة تحمل الأرجل»، الرواية التالية المتعلقة بهلّيل هدفها الروح الأخلاقية ذاتها: «عندما أنهى الدرس لتلامذته رافقهم في جزء من الطريق إلى منازلهم. سألوه: يا معلم إلى أين أنت ذاهب؟ أجاب: لأعمل خيراً لضيف في بيتي - هل لديك دائماً ضيوف في بيتك؟ أجاب: أليست الروح التعيسة ضيفاً على الجسم، اليوم بداخله وغداً ترحل عنه؟».

ما يتعلق بالمشرب، كما المواد الغذائية الأخرى الصلبة. الامتناع التام لا يعتبر فضيلة. هناك تأكيدات مثل ما يلي: «لا فرح دون خمر». يُشرب الخمر على قائمة وصفات الأدوية. متى فقد الخمر يستعان بالأدوية والعكس. لماذا قيل: «ستقوم بالتكفير

لأجله (الناصري)، لأنه ارتكب خطيئة ضد الروح (فيعمل الكاهن أحدهما ذبيحة خطأ والآخر محرقةً ويكفر عنه ما خطئ به بسبب الميت ويقدس رأسه في ذلك اليوم) (أعداد 6، 11) ضد أي روح أخطأ؟ لقد امتنع عن شرب النبيذ، يمكننا التفكير بالأولى: «إذا كان من يمتنع عن شرب الخمر يُعَدُّ خاطئاً، فما أكثر الذين يحرمون أنفسهم من الملذات».

مهما قدم الحاخامات من كشوفات تبيِّن الخطر الناجم عن التطرف والتجاوزات، فهم مستمرون في صياغة التحذيرات ضدها. هذه أسطورة تبدو غريبة نوعاً ما: (وابتدأ نوح يحرث الأرض وغرس كرماً) (تكوين 9، 20) ظهر له الشيطان وسأله: ماذا تزرع؟ - كرمة - ما نوعها؟ هل ثمارها حلوة وطيبة عندما تؤكل طازجة ومجففة، وهل النبيذ المستخرج منها ينعش القلب؟ - حسن! لنتعاون سوية ونزرع الكرمة، قال نوح: حسن للغاية!. عندها ماذا فعل الشيطان؟ جاء بخروف وذبحه عند جذع الكرمة، ثم أحضر على التوالي سبعة خنازير وقرداً وفعل بهم الشيء نفسه وهكذا أشبعت دماؤهم الأرض حول شجرة الكرمة. بهذا الشكل قدَّم عبرة ليدرك الإنسان أنه قبل شرب الخمر يكون لطيفاً وديعاً ومسالماً كالحمل يقدم صوفه للاستفادة منه، وعندما يشرب باعتدال يظل قوياً كالأسد ويعلن أن لا مثيل له في هذا العالم. وعندما يشرب الخمرة بشراهة يصبح كالخنزير يتمرغ بالقمامة، وعندما تأخذ الخمرة كامل عقله يرقص كالقرد، يرتكب الفحشاء علانية، لا يعلم ماذا يصنع.

أقوال حول الموضوع نفسه: «عندما تدخل الخمرة الرأس، تطرد الرشاد والحلم، وعندما تسيطر الخمرة تتفشى الأسرار» «الشجرة التي أكل آدم ثمرها كانت الكرمة، لأنه لا يوجد شجرة في العالم غيرها يلحق الأذى والتدمير والحزن للإنسان» لماذا ما نعالجه يتعلق بالناصري، ويكون ملحقاً بالقانون حول المرأة المتهمة بالزنى؟ بالنسبة لنا من شاهد امرأة من هذا النوع في لحظة زوال حظوتها، فإنه سيمتنع عن شرب الخمر. الخمرة تثير الرجل والمرأة على حد سواء، وتدفعهما لتعاطي الفسق. إذا لم تثمل فلن تقع في الخطيئة. كأس نبيذ واحدة مفيدة للمرأة، واثنتان تحطان من قدرها، وثلاث تجعل منها امرأة سيئة السلوك، وأربع تفقدها احترام ذاتها وحشمتها. الخمر يدخل في الدم: «النبيذ ظهراً» واحد من الأشياء التي تخرج الإنسان من هذا العالم. تأثيره سيئ على الجسم البشري، يقول: «أبّا سول» كانت مهمتي في الماضي دفن الموتى، أراقب

عظامهم، من بالغ في شرب الخمر، كانت عظامه ضعيفة ومُقوَّسة، فقدت لُبَّها، بينما من كان يشرب باعتدال فقد ظهرت عظامه سليمة جيدة.

لكن رغم المثل، فإن من يفرط في تعاطي الخمر، يُعدُّ خاطئاً، يُحكى أن بعض الحاخامات الذين كانوا يمارسون حياة التنسك،كان منهم من يصوم أيام السنة بكاملها، عدا بعض الأيام التي يُمنع فيها الصوم. حاخام آخر يكتفي بمكيال من الجراد ليبقى حياً من عشية السبت حتى عشية السبت المقبل.

لقد أدت المصائب التي حلت باليهود إلى اعتمادهم على نوع من حياة التنسك والتقشف وقام بعض الحاخامات بمحاولة لثنيهم عن ذلك، مظهرين لهم التناقض في تصرفاتهم. عندما دُمِّر الهيكل قرر الكثير من اليهود القدامى الإسرائيليين، الامتناع عن أكل اللحم وشرب الخمر، ناقش الحاخام جوزي الأمر معهم وقال: يا أبنائي، لماذا لا تريدون أكل اللحم وشرب الخمر؟ أجابوا: هل يجب علينا أكل اللحم، بينما توقفت القرابين والأضاحي التي كانت تقدَّم على مذبح الهيكل؟ وهل يجب علينا شرب الخمر، بينما توقف تدفق الخمر على الهيكل، قال لهم: في هذه الحال لنتوقف عن تناول الخبز، لأنه لا توجد أضاح من الدقيق، حسناً جداً، سوف لن نتغذى إلا بالخضار والفواكه ـ أجاب الحاخام: لا يمكننا ذلك، لأننا لا نقدم البواكير كأضاح ـ حسناً سنكتفي بالنوع الآخر من الثمار (التي لم تقدم للهيكل) ـ في هذه الحالة لا يمكننا أيضاً حتى شرب الماء، لأن تدفق الماء للهيكل قد توقف، فالتزموا الصمت.

الميل والرغبة لاعتماد حياة الزهد والتقشف، هي شيء موصى به لأنه مستوحى من اعتبارات جديدة بالموافقة عليها، هذا ما يرويه أحد الحاخامات، في أحد الأيام حضر ضابط إلى الناصرة من وسط البلاد. عيناه جميلتان، جسمه ممتلئ، شعره على شكل خصل منتظمة. قلت له: «يا بني لأي سبب تريد قص شعرك الجميل؟ أجاب: كنت راعياً عند أبي في قريتي، وبينما كنت ذاهباً لشرب الماء من النبع، نظرت إلى نفسي وشاهدت وجهي على سطح الماء، عندها أحاطت بي العواطف من كل جانب، وحاولت الخروج من هذا العالم، عندها قلت في نفسي: شخصية خبيثة، لماذا هذا التعجرف والتباهي في عالم لا يخصني، وخاصة أنني كائن معدٌّ ليصبح دوداً ويرقات! عبر خدمة الهيكل أريد حلاقة شعري لخدمة السماء. ويتابع الحاخام قائلاً: نهضت في الحال وقبلته على رأسه وقلت: يا بني ليحذُ الناصريون مثلك ويتكاثروا في أرضهم،

ولأمثالك يقول الكتاب المقدس: [**كلِّم بني إسرائيل وقل لهم أيُّ رجلٍ أو امرأة نَذَرَ نَذْرَ نُسكٍ لينسُكَ للرب**] أعداد (6، 2).

وكان الحاخامات يحذرون الثقة المفرطة بالذات نتيجة النجاح والازدهار. سنأكل وسنشبع [**وأنبتُ عشباً في صحرائك لبهائمك فتأكل أنت وتشبع**] (تثنية الاشتراع 11، 15) قال لهم موسى «احرصوا أن لا تتمردوا على القدوس الواحد الممجد! لأن الإنسان لا يتمرد على الله إلا عندما يكون مكتفياً». ماذا تعني «وديزهب؟» [هذا هو الكلام الذي كلَّم به موسى جميع إسرائيل عبر الأردن في البرية في الصحراء مقابل القُلْزم بين كاران وتوفل ولابان وحصيروت وديزهب] (تثنية الاشتراع 1، 1). حكمة؟ يقول موسى للقدوس الواحد الممجد: سيد الكون هذا كان بسبب الفضة والذهب الذي أعطيته بسخاء لإسرائيل إلى أن صرَخَتْ: هذا يكفي (داي) لقد انقادوا إلى صنع عجل من الذهب. تقول مدرسة الحاخام جانّاي: «لا يزأر الأسد في عرين مملوءٍ بالقش، بل في عرين مملوء باللحم». وكان الحاخام أوشعيا يقول: يمكن، مقارنة الشيء برجل يملك بقرة هزيلة لكن بنيتها قوية، غذّاها بفول الصويا فقدَّمت له لبطات كثيرة. عندها قال لها: ما الذي جعلك تلبطينني، هذا مقابل الغذاء الذي قدَّمته لك!؟ قال الحاخام آخا: ما يؤكد هذا المثل، هو أنه عندما يملأ الإنسان معدته، فإنه يتصرف بسلوك سيئ تجاه الناس.

وللسبب نفسه، يوصى بعدم الإفراط في السرور، الذي قد يؤدي إلى سلوك قابل لتوجيه اللوم. «اخدموا الرب بمخافة وافرحوا وأنتم ترتعدون» (Ps. 2.11) هذا يعني: حيث يكون الفرح يوجد الخوف والقلق. أقام «مارب رابينا» وليمة عرس لولده، ولاحظ أن النشوة بادية على وجوه الحاخامات. أمسك بكأس ثمينة جداً تساوي قيمتها أربعمائة (زوز) وكسرها أمامهم فأصبحوا اكثر جدية في فرحهم.

تلك هي الزاوية التي يُعبِّر فيها التلمود عن الشكل العام للحياة، تجنب الإفراط والمبالغة في الزهد، التقشف، يدعو الإنسان ليتمتع بالفرح العادي عل سطح الأرض ويستخدم بحكمة قدراته التي منحه إياها الله واللذات التي وضعها في متناول يده ليجعله سعيداً. تضع قوانينه هذه حداً للشهوات التي تسبب الفوضى، إن الذهاب إلى ما هو أكثر من المعايير الموضوعة يعتبر خطأً واضحاً. يظهر هذا الرأي في النص التالي: من يفرض على نفسه رغبات بالصوم، يشبه من يضع طوقاً من الحديد حول عنقه،

ويشبه أيضاً رجلاً يبني هيكلاً مُحرَّماً، ومن يمسك سيفاً ويغرسه في قلبه، ما تمنعه التورا كاف لكم، لا تحاولوا إضافة أية انتقاصات أخرى.

8 ـ الواجبات تجاه الحيوانات

علاقات الإنسان مع الحيوانات هي أيضاً أحد العناصر الأخلاقية. حيث تأخذ الوصايا العشر بعين الاعتبار الحيوانات البكم (الخرساء) وتأمر، (أي الوصايا) بأن تشارك باستراحة يوم السبت، وبما أن الكثير من مقاطع التوراة توصي بمعاملتها بلطف، يمكن توقُّع إيجاد تنظيم لتلك المعاملة في التلمود.

والحقيقة، فإن الطريقة التي يعامل بها الإنسان الحيوانات، تعطي فكرة عن مزاجه وخلقه. عندما كان موسى يداوي قطعان الغنم، كان يبقى الخراف المسنَّة في المؤخرة كي تتقدم الفتية منها وترعى العشب الطري، ويترك الأكبر منها في الوسط، لترعى العشب القاسي. يقول القدوس الواحد الممجد! من يعرف كيف يرعى القطيع، ويعطي لكل حسب قوته، يصبح قائداً شعبياً. ذات مرة، تمكن أحد الجداء من الهرب، ذهب موسى للبحث عنه ووصل إلى قرب شجرة حيث صادف مستنقعاً. وكان الجدي يشرب من الماء. عندما شاهده موسى هناك قال: لا أعلم أنك هربت بسبب العطش وأغلب الظن أنك منهك من التعب، فحمله على كتفه وأعاده للقطيع. يقول القدوس الواحد الممجد: (بما أنك تشفق على القطيع، فستكون راعياً لقطيع إسرائيل).

التصرف غير اللائق تجاه الحيوان، يسبب عدم الرضى الإلهي، هذا ما تظهره القصة التالية:بينما كان ثور مقاداً للمسلخ، خبأ رأسه داخل ثياب الحاخام يهودا وشرع بالخوار. قال له الحاخام: «ابتعد عني فقد خُلقت للذبح» لقد أعلن في السماء، بما أنه لم تظهر عليه أية شفقة، فإنه سيتعرض للآلام. بيد أن هذه الآلام قد توقفت لحصول حادث آخر. في أحد الأيام بينما كانت خادمته تكنس المنزل، حاولت دفع صغار ابن عرس بمكنستها فقال لها الحاخام: دعيها لأنه مكتوب: «عواطفه فوق أعماله» فقد أعلن في السماء من أظهر العطف يُقدَّم له العطف».

يتساءل التلمود إلى أي مدى يمكن انتهاك القانون السبتي، عندما يتعلق الأمر بإنقاذ حيوان في حالة الخطر، «إذا سقط حيوان في مستنقع، فيسمح بجلب الوسائد لوضعها تحته» إذا تمكن بهذه الطريقة من الخروج لليابسة، فكل شيء على ما يرام، ومقابل هذا التدبير الشرعي، لوحظ ظهور نظرية أخرى: إذا سقط حيوان في مستنقع، فيقدم له الكلأ مكان وجوده حتى لا يهلك، ينتج من ذلك أنه بالإمكان تغذيته، لكن دون إحضار الوسائد له. يلاحظ عدم وجود تناقض، فالحالة الثانية تنص على إمكانية بقاء الحيوان حياً بتغذيته فقط. بينما في الحالة الأولى وهذا ليس ممكناً، إلا عندما لا توجد طريقة أخرى لإنقاذ الحيوان دون استخدام الوسائد.. بيد أن التصرف على هذا الشكل، يعتبر مخالفة للقانون الذي يمنع إتلاف أي شيء، لكن هذا النظام هو نظام حاخامي، بينما تأمر التورا، بالتخفيف عن ألم الحيوان إلى أدنى درجة، ومما توصي به التورا هو الأصح والمتفوق على ما يقرره الحاخامات.

العناية والإسعافات الواجب تقديمها للحيوانات، هناك العديد من الإرشادات: «لا يسمح لأي إنسان بالحصول على حيوان بري أو أهلي أو طائر، قبل أن يكون قد اتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتغذيته بشكل مناسب، وتأمين مأوى له. لا يتناول الإنسان طعامه قبل أن يطعم حيوانه، هكذا قيل: [**وأنبتُ عشباً في صحرائك لبهائمك فتأكل أنت وتشبع**] (تثنية الاشتراع 11، 15) الاستنتاج نفسه بهذا القول: يقول إبراهيم لملكصادق: «كيف تمكنت الخروج من السفينة سالماً معافىً؟ أجاب: بسبب الإحسان الذي مارسناه على متنها ـ أي إحسان يمكنكم ممارسته عليها؟ هل من فقراء على ظهر السفينة؟ـ لم يكن هناك سوى نوح وأولاده ـ إذن إلى من كنتم تحسنون؟ ـ كنا نحسن للحيوانات، الدواب، الطيور. لم نكن ننام إلا بعد أن نعطي لكل دابة علفها اليومي خلال الليل. تُكال المدائح لبعض الحيوانات وتذكر كمثال يُحتذى للكائنات البشرية: «إذا لم تعطنا التورا دليلاً فباستطاعتنا تعلم التواضع من الهر، النزاهة من النحل، العفة من الحمام التصرف الحسن واللباقة من الديك».

هكذا نجد أن منع استئصال عضو من حيوان حي كان واحداً من سبع وصايا مطلوبة من أولاد نوح، كما لو أنها تشكل قانوناً قابلاً للتطبيق على الجنس البشري قاطبة.

بموجب هذا القانون، فإن أي عمل أو لعب من شانه تشويه حيوان حي، توجب

إدانة مرتكبه، لهذا كان المؤمنون يهربون من حلبات مصارعة الثيران، من يرتَدِ الحلبة، يُصنَّف من الناس المحتقرين.

يصف التلمود بدقة متناهية جميع التفاصيل المتعلقة بذبح الحيوانات المعدة لذلك، الغرض من هذه الأنظمة أن يُذبح الحيوان بأقل ألم ممكن. في المقام الأول، هناك ثلاث فئات من الأفراد ليسوا مؤهلين وغير مقبولين لذبح الحيوانات. الصم، البكم، ضعاف العقل والقاصرون. الأول لا يمكنه لفظ التبركة المطلوبة، والآخرون لا يتمتعون بالمسؤولية الكافية لهذه المهمة. وفي المقام الثاني، يجب أن تكون السكين المستعملة قاطعة، ملساء، خالية من أي ثلم، يجب تجريبها من حديها بمساعدة ظفر الإصبع.

أخيراً تذكر خمسة أسباب لجعل الرجل غير مؤهل لهذا الغرض «الشهيّة» «بدون تأخير»، فترة استعمال السكين دون توقف من الخلف إلى الأمام، ومن الأمام للخلف، (ديراسة) «الضغط»، ويجب أن يتم القطع بلطف، دون بذل أي قوة مفرطة، (خلادة)، «تعميق» القطع يجب على السكين أن لا تقطع اللحم بدل البلعوم، (هاجراما)، «انزلاق»، يجب قطع العنق حسب الإرشادات المناسبة (أيكّور) «تمزيق»، يجب عدم تمزيق أو خلع الرغامى، إن مخالفة واحدة لهذه القواعد، كافية لجعل الحيوان المذبوح غير صالح للاستهلاك، لأنه تعرَّض لآلام مُحرَّمة.

الفصل الثامن

الحياة المادية

1 ـ العناية بالجسم

في واحد من الأحاديث التي حصلت بين الحاخام يهودا وصديقه أنطونيوس، كان الموضوع حول المسؤولية المنوطة بالروح والجسد في حياة الكائن البشري. «قال أنطونيوس للحاخام يهودا: يمكن للجسد والروح، أن يعبرا عن الدينونة في الحياة والآخرة. ـ كيف هذا؟ ـ يمكن للجسد أن يقول: الروح هي التي أخطأت، لأنها منذ أن فارقتني ظلت في القبر كحجر أصم. ويمكن للروح أن تقول: الجسم أخطأ، لأني مذ فارقته، حلَّقتُ في الفضاء مثل عصفور. أجاب الحاخام: سأوضح لك ذلك بالمثل التالي: كان مالك يملك بستاناً رائعاً فيه الثمار من أجود الأصناف. وضع على حراسته عاملين، الأول أعرج، والثاني أعمى. قال الأعرج للأعمى: أرى في البستان ثماراً من الصنف الأول، احملني على ظهرك وسوف أقطف منها ثماراً لنأكلها. صعد الأعرج على ظهر الأعمى، قطفا الثمار وأكلاها. بعد فترة من الوقت حضر مالك البستان وقال للحارسين: ماذا حصل لثمار الصنف الجيد؟ أجاب الأعرج: هل أستطيع بدون أرجل الصعود للشجرة وقطف الثمار؟ وقال الأعمى: كيف أستطيع رؤية الثمار وأنا أعمى؟ ماذا فعل المالك، أمر الأعرج أن يصعد على ظهر الأعمى وحكم عليهما كما لو أنهما رجلٌ واحدٌ. كذلك في الآخرة سيأخذ القدوس الواحد الممجد! الروح ويُدخلها الجسد وسيحكم عليهما معاً.

ما مدى المعنى الآخر لهذا المثل؟ إنه يوضح مفهوم الفصام المخصص لمن يعملون سيئاً. إنه يعبِّر أيضاً عن فكرة المسؤولية المتساوية للجسد والروح حول الطريق التي يسلكها الإنسان طوال حياته. الواحد يؤثر على الآخر. الروح الفاسدة تفسد الجسد، والجسد المريض لا يمكنه أن يكون الأداة المناسبة لروح نقية طاهرة.

تقول الحكمة الحاخامية: «نظافة الجسد تقود إلى نقاء الروح». والنظافة المعنية هنا ليست النظافة الخارجية بل الداخلية التي تشير إلى طهارة منتظمة. سنرى أنه يجب إعطاء أهمية كبيرة لانتظام تفريغ الأمعاء، كقاعدة صحية، وسبب ردات فعل أخلاقية. لهذا يُلاحظ أن أي شخص يتأخر عن نداء الطبيعة، فهو متهم بانتهاك الوصية التي تقول: [**فميِّزوا البهائم الطاهرة من النجسة والطير النجسة من الطاهرة ولا تُرجِّسوا**

أنفسكم بالبهائم والطير وسائر ما يدبُّ على الأرض مما أنبأتكم أنه نجسٌ] (أحبار 20، 15). وعليكم عدم جعل شخصياتكم كريهة. على كل واحد من التلامذة الحكماء، أن يجلس في محلة الخلاء في غير أماكن الراحة المعدة لذلك. إذا لم تكن وظائف الأمعاء على ما يرام، فإن الروح لن تكون قادرة على تركيز العبادة الصباحية لله. إليكم ماذا كان يقال: من يُرِدْ أن يدخل ملكوت السموات، فعليه أن يفرغ أمعاءه ويغسل يديه، ويرتدي عباءته المقصبة ومن ثم يقيم صلواته.

سبب آخر يوجب الاعتناء بالجسد توضحه قصة تُروى عن هلِّيل: عندما انتهى من إعطاء الدرس لتلاميذه رافقهم في قسم من الطريق فقالوا له: يا معلم، إلى أين أنت ذاهب؟ ـ أجاب: لإتمام واجب ديني ـ أي واحد؟ ـ الاستحمام ـ وهل الاستحمام واجب ديني؟ ـ أجاب: إذا كان أحد مكلفاً بتنظيف تماثيل الملك المنتصبة في المسارح وحلبات السيرك، وإذا طلب منه القيام بهذا العمل، وإذا ما أراد الانضمام إلى الطبقة النبيلة فيما بعد، أليس من الواجب الاعتناء بجسدي، وأنا الذي خلقني الله على صورته ومثاله.

تعلِّمنا هذه الحكاية أن صيانة وتنظيف الجسد واجب ديني، لأن الجسد من صنع الله، لذلك يجب معاملته باحترام. هذه الفكرة هي أساس القانون الذي يجعل من الجسد عامل فساد، كما يُروى في المدلول التالي: يقول الصدُّوقيون «نحن نلومكم أيها الفريسيون لادعائكم أن الكتب المقدسة تدنس الأيدي، بينما أعمال هوميروس لا تدنسها» ردَّ عليهم الحاخام (جوخانان. بن. زكَّاي): «ليست هذه هي النقطة الوحيدة التي يتعرض فيها الفريسيون للنقد؛ بل يصرحون أيضاً أن عظام الحمار لا تدنس، لكن عظام الكاهن الكبير تدنِّس». القدرة على تدنيس هذه الأشياء تتناسب والاحترام الذي نشعر به إزاءها، لا تصنع الملاعق من عظام موتى والده وأمه. الشيء نفسه بالنسبة للكتب المقدسة [**وأنت فليكن الله في قلبك جميع أيام حياتك وأحذر أن تُرضى بالخطيئة وتتعدى وصايا الرب إلهنا**].

يتوافق هذا الرأي مع المبدأ الذي يقول: على الإنسان أن يغسل وجهه كل يوم، ويديه ورجليه احتراماً لخالقه. هكذا نرى إلى أي حد كانت هذه القاعدة مأخوذة على محمل الجد عندما تُقرأ الرواية التالية، بخصوص الحاخام عقبة عندما كان سجيناً لدى الرومان: كان الحاخام جوزيه يتاجر بأفراخ الكركي، فكان يجلب الماء

يومياً للحاخام عقبة في السجن إضافة إلى مؤونة الطعام. قابله السجان ذات مرة فقال له: «إنك تُحضر ماء كثيراً؛ قد تستخدمه لحفر نفق في أرض السجن لتهرب. تناول السجان وعاء الماء وسكب نصفه على الأرض، وسمح للحاخام بنقل الباقي للسجين. عندما وصل الحاخام جوزيه إلى غرفة سجن الحاخام عقبة، قال له الأخير: ألا تعلم أني عجوز، وحياتي متعلقة بما تجلبه لي من الماء؟ أفهمه الحاخام جوزيه ما حصل له مع السجّان. عندئذ قال الحاخام عقبة: «أعطني الماء لأغسل يدي»، صاح الآخر: «لن يبقى ما يكفيك للشرب»! ـ أجاب: الذين يقدرون على ذلك الآن ولا يفعلون يستحقون الموت؟ والأفضل أن أموت بملء إرادتي عطشاً، من أن أنتهك إرادة زملائي». «يروى أنه لم يكن يشرب قطرة واحدة من الماء قبل أن يغسل يديه» (ايروب 216).

النتيجة فإن الهدف المفروض على الكائن البشري هو تحقيق شيئين كاملين، جسدي وروحي، الجسد الجيد كما يقال يتلقى الرضى الإلهي. «القدوس الواحد الممجد!» فخور بطوال القامة. من بين الصفات المطلوبة لتسطع الشيخينا على شخص ما، هي جسد حسن الشكل والمظهر، مهيب. أما الناس غير المحظوظين بالشيخينا فهم الذين يشكون من عاهة وعدم اكتمال جسدي. هذا ما يطلبه التلمود: من ينظر إلى شخص أسود، وأصهب ملطخ ببقع بيضاء، أحدب، قزم، دامع العين عليه القول: لتتمجد يا من تُغيِّر أشكال مخلوقاتك. وعند رؤية رجل قُطعت إحدى أطرافه، أو كفيف، أو رجل أقدامه مسطحة، أعرج، جسمه مغطى بالدمامل، أبرص يقال «ليمجَّد اسمك، أنت القاضي الأمين». التبريك نفسه عند تلقي خبرٍ سيئ لأن هذه العاهات بمثابة الكوارث التي تحل بالإنسان.

كما أن الله يفضل أصحاب الأجساد القوية، فإنه يأخذ هذه الميزة بعين الاعتبار عند تكليفهم بمهام في المجتمع. القاعدة هي: لا تختر للمجلس الأعلى (السنهدرين) سوى أصحاب القامات الطويلة. الهيئة الجميلة توصي بالاحترام.

نظراً لأهمية الصحة، فقد كان الطبيب شخصية هامة لا يمكن الاستغناء عنها. كان يقال: «يجب أن لا يقيم التلاميذ العقلاء في مدينة لا طبيب فيها» (سانح 17 b)، لأنه إذا أصيب أحدهم بالمرض فإن شفاءه سيطول، وتتوقف الدراسة لمدة أطول. قاعدة أكثر شمولية تقول: يُمنع العيش أو السكن في مدينة لا طبيب فيها.

إذا كانت هذه المهنة محترمة جداً، فإن ممارسيها لا يتمتعون بالتقدير نفسه. إليكم هذه الإدانة:

«أفضل الأطباء مصيره جهنم». من الضروري البحث عن سبب هذه الحكمة. طبيب من أجل لا شيء لا يساوي شيئاً، والطبيب عن بُعد «عين عمياء». نستنتج من ذلك أن الأطباء يبدون جشعين وأنهم لا يعطو الانتباه الجيد للمريض الذي لا يدفع لهم أجراً محترماً. التلميح الثالث أن عملهم يشكل معظم أوقاتهم: «لا تسكن مدينة يكون وجيهها طبيباً» هناك الكثير مما يجب عمله لمرضاه، لدرجة أنه لا يمكنه القيام بواجباته المدنية على النحو الأفضل.

2 ـ القواعد الصحية

توضع النظافة في المرتبة الأولى من المتطلبات المقبولة الخاصة بالعناية بالصحة الجسدية. ليست جارة قريبة من التقوى؛ إنها جزء لا يتجزأ منها وتشكل المكانة الرئيسية فيها. المطلوب غسل الأيدي قبل الطعام، وقد قيل: [**إني أنا الرب إلهكم فتقدسوا وكونوا قديسين فإني أنا قدوس ولا تنجّسوا أنفسكم بشيء من الدبيب المتحرك على الأرض**] (أحبار 11، 44) أي اغسلوا أيديكم قبل الطعام، وكونوا قديسين، واغسلوا أيديكم بعد الطعام أيضاً (عندما يؤخذ الطعام من الصحن إلى الفم، فالطعام يترك آثاراً على الأصابع، ومن الواجب غسل الأيدي بعد الطعام). من يأكل الخبز دون أن يغسل يديه قبل الأكل ذنبه كما لو زنى مع مومس. من يتصرف على هواه مع هذه الوصية سوف تُقلع جذوره من هذا العالم. من يأكل خبزاً دون أن يغسل يديه، يعمل كما لو أنه يتناول الخبز النجس (سوت 4 b). يتحدث التلمود بازدراء عن الذين يطلق عليهم اسم «آم ـ ها ـ آرنس» أي «شعب الأرض». إليكم تعريفاً لهذا المصطلح: من لم يتناول خبزه غير المقدس (وجبته اليومية) في حالة من النقاوة الطقوسية من يأبَ على نفسه غسل يديه قبل الطعام، يجب فصله من الجماعة.

هناك تبركة خاصة مطلوبة في هذا المجال: ليمجد اسمك أيها الرب إلهنا، ملك الكون، يا من قدَّستنا وطهَّرتنا بوصاياك، وأعطيتنا الأمر بغسل أيدينا. النظافة مطلوبة

أيضاً لآنية الطعام «اغسلوا الكؤوس قبل الشرب بها وبعده» (تاميد 27b). على الإنسان أن لا يشرب في كأس ويناولها لآخر ليشرب بها، حيث خطر عدوى المرض والموت.

يجب غسل الأيدي فور النهوض من النوم، إذا ما تجاهلنا ذلك فسنسيء لصحتنا. (اليد التي تلمس أي جزء من الجسم دون أن تُغسل صباحاً عند النهوض من النوم) تستحق القطع. اليد غير النظيفة تعمي البصر، وتصم الأذن، وتسبب الورم. تبقى الأيدي خطيرة حتى يتم غسلها ثلاث مرات.

إليكم نصائح تتعلق بالنظافة الشخصية: «ثلاثة أشياء لا تدخل الجسم ولكن يُستفاد منها: الاغتسال، تعطير الجسم، تفريغ الأمعاء المنتظم. الأهمية الكبرى للموضوع تظهر في التصريح التالي: يُمنع السكن في مدينة منازلها خالية من الحمامات». نرى إلى أي حد كان هذا الشيء هاماً، عندما نقرأ الشرح المعطى في مراثي إرميا 3، 17 [**فبعدت نفسي عن السلام ونسيت الخيرات**]. بالنسبة للبعض يُقصد به الحمامات، وللبعض الآخر الماء الساخن حيث تُغسل الأيدي والأرجل. تلك هي الأشياء النافعة والحسنة، وعدم التقيد بها يشكل حرماناً خطيراً. يدخل في هذا المجال ملذات أبناء الإنسان [**وجمعتُ لي فضة وذهباً مع أموال الملوك والأقاليم واتخذتُ لي مغنِّين ومغنيات وأصناف لذات بني البشر وحليلةً وسراري**]، (الجامعة 2، 8، 9)، يقصد بالملذات هنا: أحواض السباحة والحمامات.

يستحم الإنسان في حمام البخار، والتعرق الحاصل يُعتبر صحياً. هناك ثلاثة أنواع من التنفس تفيد الجسم وتريحه، تلك الناجمة عن مرض، وعرق الحمام الناتج من الجهد. الأولى شفائية علاجية، والثانية لا شيء قادر على مساواتها للحصول على أفضل نتيجة، يجب إجراء حمام بالماء البارد بعد استعمال الحمام الساخن. إذا استحم أحدهم بالماء الساخن وامتنع عن الاستحمام المباشر بالماء البارد، فإنه أشبه بقطعة من الحديد الموضوعة في النار حتى تحمر وتترك جانباً دون وضعها في الماء البارد لتصبح قوية. بما أن المعدن لن يكون قاسياً إذا لم يوضع بالماء البارد، كذلك الجسد لا يتلقى القوة الكافية والفائدة المرجوة من الاستحمام بالماء الساخن إذا لم يستحم مباشرة بالماء البارد.

كانت النظافة تُعتبر كأفضل إجراء وقائي ضد الأمراض. «قطرة من الماء البارد في

العينين صباحاً، وغسل الأيدي والأقدام مساء، أفضل من جميع قطرات العيون في العالم». قذارة الرأس تؤدي لفقدان البصر، وقذارة الثياب إلى الجنون. إذاً تجنُّب القذارة. يجب تطبيق القاعدة على الأطفال. فقد عمل أحد الحاخاميين برأي أمه: «ينبغي استحمام الأطفال الرضع ودهنهم بالزيت يومياً. وقد برهنت حالة الحاخام خنانيا على فعالية هذا النظام. «يُروى عنه أنه وهو في سن الثمانين كان يقف على قدم واحدة وهو يلبس حذاءه. كان يقول: «الماء الساخن والزيت اللذان استخدمتهما والدتي لأجلي منذ طفولتي، قد أبقياني في صحة جيدة لغاية شيخوختي» إرشاد آخر يقول: على كل إنسان تعليم ابنه السباحة، فهو تمرين مفيد، ويغرس في الولد حب الماء.

للاستفادة كلية من الحمام، يجب أن يتبعه دهن الجسم «الاستحمام دون دهن الجسم، أشبه بالمطر الساقط على سطح المنزل»، أي أن نظافته تكون سطحية لا تدخل في الجلد.

كنا أوردنا مساوئ الإمساك، وضرورة تناول المسهلات بانتظام. يطلق التلمود التحذير التالي:

«يسبب الإمساك تجمع الماء في الجسم، وحبس البول يسبب اليرقان» إلى جانب ذلك، من يطل إقامته في أماكن الراحة (مرحاض) يزد من عدد سني حياته. رواية تثبت التأثيرات النافعة: قالت سيدة مُسنَّة لأحد الحاخامات: وجهك يشبه وجه مربي الخنازير والمرابين ـ أجاب: أُقسم بإيماني أن هاتين المهنتين ممنوعتان عليَّ، لكن يوجد أربعة وعشرون مرحاضاً من بيتي حتى دار الدراسة، وعند ذهابي أتوقف في كل واحد منها (أيبيديم).

لقد تضمنت الشعائر الدينية صيغة الأناقة، للقول بعد إنهاء حاجاته الطبيعية: «ليمجد اسمك يا ربنا وإلهنا، ملك الكون، الذي كوَّن الإنسان بحكمة، وخلق فيه الكثير من الثقوب (الفتحات) والأوعية. مرفوع ومعروف أمام عرش مجدك أيّاً كان أحدهم مفتوحاً وأحد الآخرين مغلقاً، فلا أحد يمكنه الوقوف أمامك والبقاء على قيد الحياة. ليمجد اسمك يا رب، يا من تعتني بكل جسد، وتضعه بصورة عجيبة».

الاعتقاد السائد قديماً، أن الدم الغزير في الجسم، يؤدي إلى زيادة الأمراض الجلدية وتكاثرها. وكان يوصى بإجراء المحاجم أو الفصد. «اللحظة المناسبة للفصد هي مرة

كل ثلاثين يوماً. بعد سن الثاني والخامس. يجب تأدية الصلاة قبل عملية الفصد وبعدها، قبل العملية يقال: لتكن مشيئتك أيها الرب إلهي، أن تكون هذه العملية بالنسبة لي شفاء، فامنحني الصحة والعافية، فإنك الشافي الأمين، وعلاجك أكيد، لأنه ليس خاصاً بالكائنات البشرية أن يشفوا أنفسهم، لكن من عاداتهم قبوله هكذا» وسيقال فيما بعد: فليمجد من يعتني دون أجر.

تتناقص الحيوية كردة فعل للعملية، وعلى المعني اتخاذ احتياطه حول الطريقة التي سيتصرف بها. ما عليه أولاً: اتباع نظام غذائي مقوٍّ. «إذا خضع أحدهم للفصد، وليس لديه ما يأكله، فليبع حذاءه ويتناول وجبة طعام غنية مغذية. ماذا يجب أن يأكل؟ يقول أحد الحاخامات: اللحم، لأن اللحم ضروري لتعويض ما فقده. ويقول آخر: النبيذ، لأنه السائل الأحمر بدل الدم الأحمر».

لكن بعض الأطعمة مضرة ويجب تجنبها في حالة كهذه، لا جرجير، لا طيور، أو لحم مملح قاعدة صحية يعطيها هذا التحذير: «إذا خضع أحدهم لفصد، وبعد ذلك بقليل قام بعلاقات جنسية، فإنه يخاطر بحياته، وإن دمه يعود إلى رأسه.

إلى جانب النظافة، فإن البنية الصحية السليمة تتطلب الاعتدال في النظام الغذائي. يقول الحاخام غماليل: أعجبتُ بالفُرس لأسباب ثلاثة: «اعتدالهم في شهيتهم، تواضعهم في حياتهم الخاصة، اعتدالهم في علاقاتهم الزوجية». قاعدة عامة: «يجب الأكل حتى ثلث سعة المعدة، ثلث الشراب أيضاً حتى الثلث ويترك الثلث الأخير فارغاً». النظام الغذائي لدى عامة الشعب أكثر بساطة وقد جرت العادة عليه ليس بسبب الفقر أو الحذر. يتحدث التلمود عن وجبة العشاء لإنسان فقير عاد إلى بيته بعد عناء يوم عمل؛ تتضمن هذه الوجبة الخبز مع الملح. لكن باستطاعة الذين يحصلون على المزيد، يقال: خبز وملح صباحاً مع إبريق ماء، وهذا كفيل بإبعاد كل مرض. من يأكل الكمية الدنيا المطلوبة لأضحية (خالا) (كمية من الطحين مؤلفة من 4 ـ 7 لوكات وكل لوكة تعادل ست بيضات) وسيكون بصحة جيدة ومباركاً؛ من يأكل كمية أكبر فهو شرهٌ نهِم؛ ومن يأكل أقل من ذلك فسيتعرض لاضطرابات معوية. من يرغب في تجنب أمراض الأمعاء فعليه نقع الخبز بالخل أو النبيذ. أبعد يدك عن الوجبة التي تؤمن لك الفرح والسعادة. ولا تتأخر لنداء الطبيعة. الأكل صحي حتى سن الأربعين، والشرب نافع أيضاً.

الوقت المناسب لتناول الغذاء، يكون عندما تشعر بالحاجة إليه. «تناول الطعام عندما تكون جائعاً، واشرب عندما تشعر بالعطش»، وبصورة عامة، يتناول عامة الشعب وجبتين في اليوم؛ وتكريماً للسبت وبصورة استثنائية هناك وجبة إضافية. تؤخذ وجبة المساء في المنزل عندما يكون العامل قد أنهى يوم عمله، لكن العامل يتناول الوجبة الصباحية وهو في العمل. يعطي التلمود توقيتاً محدداً للوجبات لمختلف فئات الشعب: «الساعة الأولى (يبدأ الصبح في الساعة السادسة والفطور الساعة السابعة) فترة غذاء المصارعين، الثانية فترة غذاء اللصوص، الثالثة تناسب الملاكين، الرابعة للعمال، الخامسة للشعب عامة». إليكم رأياً آخر: «الساعة الرابعة هي للشعب بشكل عام، الخامسة ساعة العمال، السادسة للتلامذة الحكماء. تناول وجبة الغذاء متأخرة، هي بمثابة رمي حجر في قِربة نبيذ، إذا لم يتناول أي طعام مبكراً». يقول الحاخام عقبة لابنه: انهض باكراً وتناول على الفور فطورك في الصيف بسبب الحر، وفي الشتاء بسبب البرد. يقول المثل: يمكن لستين عدَّاء الجري دون اللحاق برجل تناول طعامه باكراً.

من أجل تناول الطعام يجب الجلوس «الأكل والشرب واقفاً يُخرب الجسم البشري» عند السفر يجب تخفيض كمية الأطعمة المستهلكة. (من يرغب بالسفر يجب أن لا يأكل أكثر من الوجبة المعتادة في زمن المجاعة، كي لا يسبب الاضطرابات في الأمعاء».

القاعدة الحكيمة الواجب اعتمادها هي الاعتدال في كل شيء «لا تبقَ جالساً مدة طويلة، لأن هذا يسبب البواسير. ولا تبقَ واقفاً لمدة طويلة لأنه يسبب ضرراً في القلب، ولا تمشِ كثيراً فذلك ضار للعينين. يجب البقاء جالساً طوال ثلث وقتك، وواقفاً في الثلث الثاني، وماشياً في الثلث الأخير».

الإفراط ضار في ثمانية أشياء، والاعتدال مفيد: أثناء السفر، العلاقات الجنسية، في الغنى وفي العمل، وعند شرب الخمر، والنوم، والاستحمام في الماء الساخن، الشرب عند إجراء الفصد.

من الضروري الاستراحة بالنوم «لقد خلق الليل للنوم» هذا رأي الحاخامات. حاخام آخر يصرح بأن النوم عند الفجر مثل شفرة الفولاذ بالنسبة للحديد. يريد القول: إن النوم يؤمن الصحة والقوة. من جهة أخرى «من ينام في الصباح يضع نفسه خارج العالم». يُمنع على الإنسان النوم نهاراً أطول مما يفعله الحصان. أي كم عدد الساعات؟

ستون زفرة حركات التنفس. وفي مكان آخر يقال: «الغذاء يقود إلى النوم». يعتقد الحاخامات أنه لا يمكن للكائن البشري العيش دون نوم طوال ثلاثة أيام متتالية: هذا ما عبَّر عنه القانون: إذا قال رجل: لن أنام طيلة ثلاثة أيام فإنه سيعاقب، ويُرغم على النوم فوراً لأنه أدّى قَسَماً متسرعاً، لأن الوفاء به مستحيل إلا بنتائج مميتة. من المفيد ملاحظة أن التلمود يورد ذكر جرعات منوِّمة كانت تقدَّم عند إجراء عملية بطنية. يثمِّن أيضاً واقع أن الحالة العقلية تؤثر على الجسد. لذلك ينبغي الإبقاء على مزاج مرح وقنوع. مثلاً: تنهد واحد يدمر نصف الجسد.رأي آخر يقول: الجسد بكامله العين الشريرة، الحقد على القريب كل ذلك يضع الإنسان خارج العالم. ثلاثة أشياء تنقص من قوة الإنسان: الخوف، السفر، الخطيئة.

أخيراً يجب عدم العيش في وسط غير صحي. القانون يمنع أي عمل يسيء للحالة الصحية لمدينة ما. النظام واضح بهذا الشأن: لا يمكن إقامة بيدر يعمل باستمرار إلا إذا كان على مسافة خمسين ذراعاً من المدينة. ومثله أمكنة جثث الحيوانات، أو المقابر، أو المصانع وجميعها ممنوع داخل هذه المساحة. لا يمكن لمدابغ الجلود إلا أن تكون شرق المدينة. لكن الحاخام عقبة يسمح في كل الاتجاهات باستثناء الجهة الغربية يجب تجنيب السكان مخاطر الغبار والروائح الضارة.

3 ـ قواعد صحة الأفراد

اقتنع الحاخاميون بأهمية النظام الغذائي للمحافظة على الصحة، ويكرر التلمود أنواعاً مختلفة من الأطعمة الصحية والمفيدة وغيرها. الخبز سند الوجود وأساس الحياة. تعزى إليه ثلاث عشرة مزية هامة عندما يستهلك صباحاً: الوقاية من الحر، ضد البرد، ضد الأرواح الشريرة، ضد الشياطين، يجعل البسطاء يقظين، يساعدهم على كسب الدعاوى، يساعد الذين يتثقفون ويتعلمون التورا، يسمح بالإصغاء لكلامهم، حفظ الدرس لدى سماعه أول مرة، لا يشتهي أي امرأة؛ يقضي على الدودة الوحيدة، يضيف البعض، أنه يطرد الشهوة ويجلب الحب.

يُراد بهذا القول، أنه إذا بدأ الإنسان يومه بمعدة ممتلئة، تكون قدرته على التفكير

عالية وواضحة، ويُنفِّذ عمله بفاعلية وهمة عالية أيضاً، ويكون مزاجه فرحاً. يُعبِّر عن هذه الفكرة بالملاحظة التالية:

«قبل أن يأكل الإنسان ويشرب، يكون له قلبان، أما بعده فلن يكون له سوى قلب واحد». حسب علم النفس العبري، القلب مركز الذكاء، وهذا معناه أن المعدة الخاوية تمارس تأثيراً مخلاً على الذهن وتعيق تركيز الفكر.

يجب أن يصنع الخبز من دقيق القمح النقي، إن دقيق الشعير ضار بالصحة، لأنه يجلب الدودة الوحيدة. يجب أكل الخبز بارداً. «تقول الحكمة البابلية إن أكل الخبز الحار يسبب الحمى». تعطى أهمية كبرى للحصول على أفضل منفعة للخبز. يجب أن يضاف إليه الملح، وبعد تناوله يجب شرب الماء. الملح والماء ضروريان للحياة. «يمكن للعالم الاستمرار بالبقاء دون تناول الفلفل، لكن ليس دون الملح. «يجعل الملح طعم اللحم لذيذاً» لكنه ينقص السائل المنوي. يجب عدم الإكثار من تناوله. الخميرة والملح هما من بين الأشياء التي يعتبر الإفراط بتناولهما أمراً سيئاً، وتناولهما بكميات قليلة أمر مفيد ولذيذ.

القاعدة المطلوبة هي التالية: تناولوا الملح بعد كل طعام، واشربوا الماء بعد كل شراب، عندها لن تشعروا بأي ضرر (ولا بأي مرض). من يتناول الطعام بدون ملح، ويشرب الشراب دون أن يتبعه بالماء، سيشعر بالضرر نهاراً بسبب الطعم السيئ في فمه، وسيشكو ليلاً من الخناق. أعطى أحد الحاخامات النصيحة التالية: من ينقع (يبلل) الخبز بالماء، فلن يُصاب بسوء الهضم. ما هي كمية الماء الواجب علينا شربها؟ مقدار كأس لكل رغيف (أيبيديم)، يصرح حاخام آخر «هناك ثلاثة وثمانون مرضاً على علاقة بالصفراء التي يمكن درؤها بأكل الخبز مع الملح صباحاً، وبشرب إبريق من الماء.

أما ما يتعلق بالوجبة فيعطى التحذير التالي: إذا أكل أحدهم ولم يشرب، فغذاؤه سيكون دماً، وسيشكو من سوء الهضم. وإذا تناول أحد طعامه ولم يمشِ بعد ذلك لمسافة لا تقل عن أربعة أذرع، فإن غذاءه سيتعفن ويفسد في معدته، وسيكون لهاثه نتناً. وإذا تناول أحدهم طعامه، ويشعر أنه أكل فوق طاقته، سيكون كما لو أنه فوق رماد فرن مشتعل، وتنتشر رائحة كريهة من جسده.

رأينا أن الخبز والملح هما الطعام العادي للفقير صباحاً ومساء. وعندما تتوفر لديه إضافة مادة أخرى يكون ذلك أفضل. التسلسل المطلوب والمفضل في الطعام هو كما

قيل: [**وإذا وسَّع الرب إلهك تُخمك كما وعدك فقلت آكُلُ لحماً لأن نفسك اشتهت أكل اللحم فمن كل ما تشتهي نفسك تأكل لحماً**] (تثنية الاشتراع 12، 20). هنا تُقدِّم لنا التورا قاعدة لسلوكها، أنه لا يستطيع الإنسان أكل اللحم إلا لإشباع شهيته. من بحوزته «مانا» (مئة شيكل) يمكنه شراء سلة من الخضار يضعها في قدره؛ ومن معه «عشرة مانا» أي ألف شيكل، يمكنه شراء سمك بملء القدر المخصص لطعامه. وإذا امتلك «مائة مانا» أي عشرة آلاف شيكل، يمكنه الحصول على اللحم المشوي يومياً. وفيما يتعلق بالذين يملكون أقل من «مائة مانا» أي أقل من عشرة آلاف شيكل، كيف سيحصلون على طبق من الخضار أو السمك كل يوم جمعة (ليوم السبت)؟ من الواضح أن اللحم كان للرفاهية، ونادراً ما تتذوقه الطبقات الفقيرة، يؤدي استهلاك اللحم إلى معتقد شعبي باطل «من يأكل لحم الثور السمين مع اللفت في ليلة 14، 15 من الشهر القمري وينام تحت ضوء القمر حتى فترة الانقلاب الصيفي، فإن دمه يصعد إلى رأسه أي يصاب بالحمى».

يجب على طبقة عامة الشعب أن تحصل على حمية نباتية صرفة، ومحاسن الخضار مشروحة بالتفصيل. إذا قيل في مكان ما «ويل للجسد الذي تمر عبره الخضار دائماً». بالمقابل صرَّح أحد الحاخاميين «إذا شاهدتم الخضار في السوق، لا تسألوني مطلقاً، بماذا سآكل خبزي» هاتان الفكرتان تتوافقان مع الفرضية التي تقول: إن الخضار دون لحم مَضَرَّةٌ، أو دون خمر، وأخيراً دون شرب.

نص آخر يؤكد أن الخضار المأكولة دون طهي لا قيمة غذائية لها. لم يكن مسموحاً لتلامذة الحكماء السكن في مدينة لا خضار فيها. يستنتج من هذا القول أن الخضار نافعة. لكن هناك تعليم آخر يقول: ثلاثة أشياء تُخلِّف فضلات بكميات كبيرة، وتنقص طول القامة، وتضعف نور العين بمقدار 5٪ وهي: الخبز المصنوع من الدقيق الخشن، المشروب المسكر المقطَّر حديثاً والخضار. وفي الصيغة الموازية للخضار النيئة (الفجة) هناك ثلاثة أشياء تترك فضلات قليلة، تزيد من طول القامة، وقوة العينين وهي: الخبز المستخرج من الدقيق المنخَّل جيداً، اللحم المدهن، النبيذ المعتق، وهناك رأي آخر يقول إن جميع الخضر تجعل الوجه شاحباً. وقيل أيضاً: تأتي المنفعة من طهو الخضار.

إن حساء الشوندر مفيد للقلب والعينين، وأفضل من كل ذلك للأمعاء. وفي جميع الأحوال لا تكون بهذه المنفعة عندما تشوى على الفرن وتصدر أصواتاً: ثوك، ثوك.

يشار أيضاً إلى أن بعض الخضار أكثر فائدة من غيرها. من يعتاد على تناول العدس مرة في الشهر يُبعد مرض الخناق عن بيته، ولكن ليس كل يوم. لماذا؟ لأن ذلك يسبب رائحة كريهة للفم الفول المصري مُضرٌّ بالأسنان، لكنه مفيد للأمعاء «الملفوف غذاء جيد، والشوندر دواء نافع» (أبييديم). يقال عن الثوم خمسة أشياء: يطري الجسم، يدفئه، يسطع الوجه، يزيد من كمية السائل المنوي، يقتل الدودة الوحيدة. يضيف البعض أنه يناسب الحب ويطرد الكراهية، ويعطي الشعور بالراحة. الفجل هو ماء الحياة يجب الامتناع عن أكل البصل بسبب السائل الحاد الذي يحويه، وفي الشرق كانت تستعمل حبوب الكمون السوداء، إليكم بعض الملاحظات بهذا الخصوص. من يأكل بوَزْنِ «ديناريوس» من الكمون الأسود سيخرج قلبه من مكانه (خالاً). يجري النقاش حول كيفية تناوله بكميات كبيرة. من يعتد على تناول الكمون الأسود، فلن يشكو من آلام في القلب. الاعتراض على ذلك: الكمون الأسود هو واحد من ستين سماً قاتلاً. ومن ينم شرق مخزن الكمون، فإن دمه يصعد إلى رأسه، (لأن الهواء الغربي يحمل الرائحة). غير أنه لا يوجد تناقض؛ الملاحظة الثانية تطبق على الرائحة والأولى على الطعم. كان من عادة والدة الحاخام جيريميا أن تشوي الخبز وترش عليه بذور الكمون الأسود التي تنزعها فيما بعد.

السمك مشهورٌ بفائدته للصحة، «من يعتد على أكل السمك الصغير، فلن يشكو من سوء الهضم»، هناك سمك صغير جداً يجعل الإنسان مخصباً ولوداً وقوياً (أبييديم). لكن السمك المحفوظ في الملح، يؤدي إلى اضطرابات خفيفة. سمكة مالحة قليلاً، تميتك في اليوم السابع، السابع عشر، السابع والعشرين من الشهر، ويقول بعضهم في اليوم الثالث والعشرين، يطبق هذا في حالة كونه مشوياً قليلاً؛ أما إذا كان مشوياً جيداً، فلن يكون هناك أي خطر. وإذا كان مشوياً جيداً فلن يكون هناك خطر على من لا يشرب الجعة (البيرة) قبل الأكل، لكن إذا شرب الجعة بعد أكله فلا خوف عليه، ونظراً لأحجامه المتنوعة، فالبيض غذاء جيد، بعد اللحم. «البيضة غذاء أهم من جميع الأغذية التي لها الحجم نفسه. البيضة المسلوقة أفضل من ستة مكاييل من الدقيق الناعم؛ بيضة واحدة مسلوقة تعادل أربعة مكاييل. قيل عن البيضة المسلوقة أنها تتفوق على جميع الأطعمة التي لها الحجم نفسه باستثناء اللحم». الإكثار من البيض ضار، لأنه قيل: من يأكل أربع بيضات أو أربعين بندقة، أو ربع من العسل، فإن قلبه سيخرج من مكانه.

للتغلب على الأضرار الناجمة عن تناول بعض الأطعمة، كانت تعطى النصيحة التالية:

من أجل إبطال ضرر الخس، يجب أكل الفجل، ولتخفيف ضرر الفجل، يجب أكل الكرّاث. وللسيطرة على الألم الذي يسببه الكرّاث، يجب شرب الماء الساخن بكمية كبيرة؛ فالماء الساخن يوصف ضد أي مفعول سيئ لجميع أنواع الخضار.

من الخطر ترك المواد الغذائية مكشوفة أثناء الليل «من يأكل الثوم أو البصل بعد نزع قشره، أو البيض المقشّر بعد نزع الطبقة الكلسية، أو يشرب مشروبات روحية ممدَّدة بالماء، سائلة وصلبة، بعضها أو جميعها، والمكشوفة خلال الليل، فإنه يخاطر بحياته ويصعد الدم إلى رأسه». من الثمار الكاملة الغذاء: التمر، فهو يقدم الدفء للجسم، لذيذ الطعم، له مفعول مسهِّل، يقوي القلب ولا يضعفه. عندما يؤكل صباحاً ومساء، فإنه يريح الجسم، ليس له مثيل عندما يؤكل ظهراً، فهو يبدد المزاج السيئ، يقي الجسم من سوء الهضم والبواسير، العسل وجميع أنواع الحلويات ممنوعة في علاج الجروح.

4 ـ علاج الأمراض

أجزاء ضخمة من التلمود مخصصة للرأي حول العناية والإجراءات الواجب اتخاذها لمعالجة الأمراض. يظهر بعضها على هيئة وصفات طبية حقيقية، لكنّ في البعض الآخر أفكاراً وهمية خرافية. كما لدى جميع الشعوب القديمة، كان يُلجأ للسحر بغية تسكين الألم، أما الأدوية الموصوفة فيما يلي فيمكن وضعها بشكل مواز للمعالجات المشابهة التي توردها الكتب من أمثال «السعفة الذهبية».

سنرى أيضاً أن «الرُقية» كانت تشكل جزءاً من العلاج، بما تحويه من آيات توراتية. هذه الطريقة لاقت انتقاداً لاذعاً من السلطات الحاخامية «ممنوع مداواة الذات بالتلاوات المقدسة». من بين الذين لن تكون لهم حصة في العالم الآخر، أولئك الذين يتلون «الرّقية» على الجرح كما يلي: «لن أصيبك بالمرض الذي أصبتُ به المصريين، لأني أنا الرب معاقبك» [**وقال إن أطعتَ أمر الربِّ إلهك وصنعتَ بالاستقامة أمامَهُ**

وأصختَ إلى وصاياه وحفظتَ جميعَ فرائضهِ فجميع الأمراض التي أحللْتُها بالمصريين لا أحلّها بك لأني أنا الربُّ معاقبك] (خروج 15، 26) (سانح 10، 1). لكن هذه المعارضة الصارمة ظلّت غير فعّالة، وبدا أن ممارسة «الرقية» بقيت منتشرة جداً.

لنر القواعد العامة المتعلقة بمعالجة المرض. قيل: إذا رغب المريض بالحصول على شيء ما، ومنعه الطبيب، فعلينا تنفيذ رغبة المريض. لماذا؟ لأن القلب يعرف مرارة نفسه. [**القلب يعرف مرارة نفسه ولا يخالط فرحَهُ غريب]** (أمثال 14، 10). من جهة أخرى كان يقال: ثلاثة أكاليل أو أشرطة من الفُوَّة (نبات زراعي صيفي)، من الصَّنعة (على رأس المريض) توقف تطور المرض، وخمسة منها تؤدي إلى الشفاء، وسبعة تطرد السحر. «هذا صحيح عندما لم يكن المريض قد رأى نور الشمس والقمر، أو المطر، ولم يسمع صوت الحديد، أو صياح الديك، أو وقع الأقدام». ويضيف أحد الحاخامات هذه الملاحظة: «هذا الدواء سقط في الحفرة» أي أصبح طي النسيان.

ستة أشياء من العلامات الملائمة للمريض: العطاس، التعرّق، انتظام عمل الأحشاء (البطني)، قذف السائل المنوي، النوم، الحُلم. ستة أشياء تؤدي للشفاء: الملفوف، الشوندر، طبخ ناشف، الكرشة، الثدي، الجزء الأكبر من الكبد. يضيف بعضهم سمكة صغيرة. هناك عشرة أشياء تؤدي إلى انتكاسة المريض وتفاقم المرض: «أكل لحم الثور، اللحم الكثير الدهن، اللحم المشوي، الفروج، البيض المشوي، حلق اللحية، أكل الجرجير، الحليب والجبن؛ أخيراً الاستحمام، ويضيف آخرون أكل البندق والخيار. وهنا نتعرف إلى أهمية الحمية الغذائية، المؤثرة على حالة المرض.

إذا حصل وشكى المريض من أنواع مختلفة من الحمى، ولعلاجها يُقترح مجموعة طرق متنوعة. بالنسبة للحمى اليومية يجب أخذ زنة جديدة من الملح، وربطها بحبل أبيض مجدول وسط فتحة القميص، أو جعل المريض يجلس على مفترق طرق، وعندما يرى نملة كبيرة حاملة قشاً وغيره، ليأخذها ويضعها في أنبوب من النحاس، ويغلقه بالرصاص، ويختمه بسبعين ختماً. ومن ثم يهزه ويحمله إلى جميع الجهات ويصرخ «ليكن حملُكِ عليَّ وحملي عليكِ». وضع أحد الحاخامات اعتراضاً بقوله: «خوفاً من أن يكون شخص آخر وجد النملة قبله وحصل على الشفاء بالقيام ما يجب

عليه، حيث من الأفضل القول: (ليكن حملي وحملكِ كلاهما عليكِ). أو أن يأخذ جرَّة أو إبريقاً جديداً ويذهب إلى النهر ويقول له: «يا نهر، يا نهر، أعرني جرَّة ماء لسفرٍ أنوي القيام به» وليرفع الجرة ويدرها حول رأسه سبع مرات، ويصب الماء خلفه ويصرخ: يا نهر، يا نهر، استعد الماء الذي أعطيتني إياه، لأن السفر الذي نويت القيام به قد نفَّذته، ذهاباً وإياباً في نفس اليوم».

بالنسبة للحمى الثلاثية (كل ثلاثة أيام)، يجب أخذ سبع شوكات من سبع شجرات نخيل، وسبع قوارير من النبيذ المصفَّى بنشارة الخشب، وسبعة مسامير من سبعة جسور، وسبعة مكاييل من الرماد من سبعة أفران، وسبع قطع من الوحل مأخوذة من تحت سبعة أبواب، وسبع قطع من القار من سبعة قوارب، وسبع قبضات (ملء اليد) من الكمون، وسبع شعرات من لبدة الكلب، وربطها جميعاً في أسفل القميص بحبل أبيض مجدول.

وبالنسبة للحمى الالتهابية، يجب أخذ سكين مصنوعة من الحديد الخالص، والذهاب إلى شجرة ورد برّي، وربط حبل أبيض مجدول بها. في اليوم الأول يجب على المريض إحداث ثلم فيها ويقول أنه قد تجلى له ملاك الرب في لهيب نار [**فتجلّى له ملاك الرب في لهيبِ نار من وسط العُلّيقة فنظر إلى العليقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق**] (خروج 3، 2). في اليوم الثاني عليه أن يضع ثلماً آخر ويقول: [**فقال موسى أميل وأنظر هذا المنظر العظيم ما بال العليقة لا تحترق**] (خروج 3 ، 3). في اليوم الثالث عليه أن يضع ثلماً آخر ويقول [**ورأى الرب أنه قد مال لينظر فناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى. قال ها أنذا**] (خروج 3، 4). لاحظ حاخام هذا الشيء فقال: من الأفضل القول: [**وقال لا تدنُ إلى ههنا اخلع نعليك من رجليك فإن الموضع الذي أنت قائم فيه أرض مقدَّسة**] (خروج 4، 5) وبالتالي يجب أن يقول في اليوم الأول: وظهر له ملاك الرب.. ويقول موسى.. في اليوم الثاني: «عندما رأى الرب..» وفي اليوم الثالث «لا تقترب من هنا..» عندما ينتهي من عمله عليه الانحناء ويقطع شجرة الورد البري صائحاً: «يا دغل، يا دغل! ليس لأنكِ أكبر الأشجار فقد جعل القدوس الواحد الممجد! الشيخينا تسطع عليك؛ هذا لأنكِ الأكثر تواضعاً من الجميع. وكما أبعدت النار عن أنانياس وموصائيل وآزارياس، انظر أيضاً إلى ارتفاع حرارة A بن B وأبعدها عني».

قاعدتان يجب تطبيقهما بعناية في هذا المجال. في كل رقية يلفظ فيها اسم الشخص، عليه أن يقدم نفسه أنه ابن أمه وليس اسم أبيه. إلى جانب ذلك في حالة ترديد الرقية بنفس التعابير فيجب تكرارها إحدى وأربعين مرة (أبييديم).

علاج آخر للحمى اليومية (التي تحدث كل يوم)، يجب شرب إبريق ماء، والحمى الثلاثية يجب الخضوع لفصد الدم. والحمى الرباعية، يجب أكل اللحم المشوي على الجمر المتقد، وشرب النبيذ الممدَّد بالماء. وبالنسبة للحمى المزمنة يجب أخذ دجاجة سوداء وفرد جناحيها وقصها على شكل صليب، وحلق ذروة رأس المريض وتثبيت الدجاجة عليه. بعدها يجب على المريض الوقوف في الماء ليغمره حتى العنق، أو إلى ما هو قادر على تحمله، وبعد هذا يغطس كامل جسمه ثم يخرج من الماء فيرتاح. أو يأكل كمية من الكرَّاث، ويقف في الماء حتى العنق حتى يشعر بالتعب؛ بعد ذلك يغطس كامل جسده ثم يخرج من الماء فيستريح.

تذكر أشكال أخرى للحمى: حمى الجيرا: يجب أخذ سهم من حجر نيزك وتوجيه جزئه المدبب نحو الأسفل، وتغطيسه بالماء وشرب كل محتواه، أو أخذ الماء الذي شرب منه الكلب أثناء الليل، أو اختيار الماء الذي لم يكن مكشوفاً، وشرب مقدار (لوغ) كأس من الخمر غير الممدد. بالنسبة للحمى الخارجية (الاندفاعية)، تناولوا ثلاثة مكاييل من نوى التمر، وثلاثة مكاييل من أوراق شجر الأرز ودعوها تغلي منفصلة عن بعضها. وليجلس المريض بين هذين السائلين ويمزجهما في حوضين للاغتسال، يضعهما على طاولة، ثم يغطس قدميه في أحد الحوضين وينتقل بعده للآخر وهكذا حتى يبدأ بالتعرق. أخيراً ليشرب ماء الأرز ويحظر عليه شرب ماء نوى التمر لأن الأخير يجعله عاقراً. وبالنسبة للحمى الداخلية، خذ ملء يديك سبع مرات من الشوندر، مأخوذة من سبعة أماكن، ودعها تغلي دون نزع التراب عنها؛ تؤكل حبات الشون، ويشرب منقوع أوراق الأرز مع الجعة، وثمار النخيل الفتية مع الماء.

من أجل تقديم العناية اللازمة للعينين، كان استخدام اللعاب هو الاستخدام الشائع لنظافتهما، لكن التحذير جاء بحسب التقليد، أن لعاب الابن البكر من أبيه، يمتلك قدرة شفائية كبيرة، بينما ليس الأمر كذلك من الابن البكر لأمه. وبالنسبة للسَّاد (التكثف في حدقة العين فيمنع البصر): «خذوا عقرباً من سبعة ألوان، جففه في الظل (بعيداً عن الشمس) ثم اسحقه، وقسمه لثلاثة أقسام، اثنان منها ستيبيوم (انتيموان أي

الكحل)، ضعوا ثلاث قبضات أصابع من ذلك المسحوق على كل عين، لكن ليس أكثر من ذلك، لأن كثرته تحرق العين. وكان السَّاد يُعالج بمسح العين بالدم.

بالنسبة للعمى الليلي، خذ حبلاً من الشعر أو وبر الحيوانات، واربطه من نهايته في ساق المريض، ومن الطرف الآخر بساق كلب. ثم أحدث ضجيجاً من قبل الأطفال بتحريك قطع مكسورة من الخزف مع الصياح: «أيها الكلب العجوز، أيتها الدجاجة الحمقاء»! بعد ذلك اجمع سبع قطع من اللحم من سبعة بيوت وضعها على ثقب الباب، ثم تناولها (كُلْها) على كومة من رماد المدينة. عندها انزع الحبل وقل: «عمى A، ابن B، اترك A، ابن B! في هذه اللحظة ستفقأ عين الكلب ويشفى المريض».

وبالنسبة للعمى النهاري، خذ طحالاً من سبعة حيوانات، وضعها في وعاء قديم استخدمه الجراح؛ أجلس المريض وشخصاً آخر في الخارج. وعلى الأخير القول: أيها الأعمى أعطني لآكل. سيجيب المريض: أين الباب؟ خذ وكل، بعد تناول الطعام على الشخص السليم أن يكسر الوعاء القديم، وإلا فإنه سيصاب بالعمى النهاري.

وللعناية من رعاف الأنف، خذ «كوهين» من اسم لاوي واكتب اسمه معكوساً. وعند عدم وجود شخص يدعى كوهين، خذه واجعله يكتب بصورة معكوسة: «أنا بابي شيلا ابن سومكي (هذا التعبير لا وجود لترجمة له)، أو أن يكتب: (طعام ديلي بيمي كيسيف طعام ديلي بيني بيغام). أو خذوا حذور عشب وخيطاً مأخوذاً من أثاث قديم، وقطعة ورق زعفران، والجزء الأحمر من سعف النخيل، وأحرقها معاً. ثم خذ مكبّاً من الصوف المقطع والمعدّ للغزل وانزع الخيوط وبلِّلها بالخل ومرغها بالرماد، بعدها خذ من الناتج ملء ما بين الإصبعين وضعهما في حفرة الأنف. أو خذ المريض إلى مقربة من ساقية تجري من الشرق للغرب؛ مع وضع القدمين على حافتي الساقية، ثم خذ قليلاً من الوحل في اليد اليمنى من تحت القدم اليسرى وبالعكس، ثم قم بنسج خيطين من الصوف وبللهما في الوحل، ومن ثم أدخلهما في فتحتي الأنف. أو اجلس تحت مزراب حيث ويقوم عدد من الناس بجلب الماء وصبه في المزراب وهم يقولون: كما يتوقف هذا الماء عن السيلان، فليكن كذلك بالنسبة لدم A ابن B!».

أما بالنسبة لمن يتقيأ الدم، فسيتم فحصه بواسطة قشق ورق القمح، إذا التصقت القشة بالدم فهذا يعني أن القيء يأتي من الرئتين، وهذا قابل للشفاء، أما إذا لم تلتصق، فالدم يخرج من الكبد وهذه حالة لا علاج لها. ما هو العلاج في الحالة الأولى؟ خذوا

ثلاث حفنات من الشوندر المقطع على شكل شرائح، وسبع حفنات من الكرّاث المقطع لشرائح، وخمس حفنات من ثمار العنّاب، وثلاث حفنات من العدس، وحفنة من الكمون، وحفنة من البهار، وكمية مساوية من أمعاء حيوان بكر؛ يُغلى الخليط، يشرب المريض جزءاً منها إضافة إلى جرعة من البيرة القوية في شهر تابث (الشهر الثاني من السنة، كانون الأول ـ الثاني).

لوقف الدم السائل من جرح، تستخدم الثمار غير الناضجة المنقوعة في الخل، وحتى يلتحم، يُستخدم جذر مكشوط لنبات النخيل وقصاصات العليق، أو الدود المأخوذ من المزابل.

ولعلاج آلام الأسنان: خذ فصّ ثوم له رأس واحد، ومرغه بالزيت والملح، ثم ضعه بواسطة ظفر الإبهام في ناحية الألم وأضف إليه طبقة من العجين، مع الحذر أن يلامس الثوم اللحم، لأن هذا سيؤدي إلى مرض البرص.

كان الحاخام جوناتان يتألم من لثته، ذهب ليطلب من إحدى السيدات الدواء الذي سيطبقه يومي الخميس والجمعة. قال أحد الحاخامات كيف عالجته؟ بواسطة ماء الخميرة بزيت الزيتون والملح. ويقول آخر: الخميرة بزيت الزيتون والملح. ويقول ثالث: بشحم جناح أوزة. لكن الكاهن أبّاي يقول: لقد جرَّبت جميع هذه العقاقير ولم أُشفَ إلى أن جاء عربي وقال لي: خذ نوى ثمار الزيتون الذي لم يصل إلى ثلث نُموِّه، وسخنها على النار حتى تجف جيداً، ومن ثم تناولها بملعقة صغيرة جديدة، وضعها على أسنانك. قمت بذلك وشُفيت. ما سبب هذا التوعك؟ يحدث هذا عندما نأكل الخبز الساخن، أو بقايا فطير السمك المطحون. ما هي ظواهر المرض؟ قطع صغيرة من الطعام تدخل بين الأسنان، فيخرج الدم منها.

لعلاج آلام الفكين، تؤخذ أوراق حشيشة الزجاج وجذره (نبات ينمو على الجدران) وهو أفضل من نبات (المامرو) (نبات لا تعرف هويته بدقة) ويوضع في الفم لتخفيف الألم.

بالنسبة لآلام الفكين أيضاً خذ النخالة الخشنة من أعلى المنخل، وعدس بقشره، وحبات الحِلْبة (نبات من فصيلة القرنيات)، وبراعم الكشوث، وضع الخليط بحجم الجوزة في الفم. وللتخلص من الالتهاب، انفخ في البلعوم حبات الجرجير الأبيض غير السامة باستخدام قشة القمح. وللإسراع في التئام جرح ممزق، خذ تراباً من مكان

مظلم معزول يستخدم كمكان لقضاء الحاجات، واجبله بالعسل، وابلعه، فإن الجرح سيهدأ أو يلتئم.

ولعلاج سيلان الأنف، خذ صمغ الأمونياك بمقدار جوزة الفستق، مع العصير الصمغي الحلو بحجم الجوزة العادية، وحفنة من العسل الأبيض، وربع كأس من النبيذ الأبيض، وضعها في مكيال يستعمل في مدينة (ماخوذا)، على النار حتى يغلي المزيج. عندما يغلي صمغ الأمونياك خذ ربع كأس من حليب عنزة بيضاء، ودعه يسيل على ثلاث سويقات ملفوف، وأضف للمزيج قليلاً من المردكوش (الزعتر البري، زوبع). وعندما يغلي المزيج، خذ غائط كلب أبيض واخلط المزيج ليصبح كالمرهم، يجب تجنب ابتلاع البراز، لأن ابتلاعه يُسقط الأطراف.

لعلاج الدمَّل: خذ ربع كأس من النبيذ مع الصبار المخملي. طرق أخرى: الدمَّل هو العلامة التي تسبق الحمى ما هو العلاج؟ اضغط الدُّمل بين الإصبعين وحاول تفجيره لستين مرة من أجل تليينه. وفي النهاية فجِّره عندما لا تكون رأس الدمل قد ابيضَّ. في الحالة الأخيرة لن يكون العلاج فعالاً. وبالنسبة للدمَّل أيضاً اتلُ هذه التعويذة: بازبازيا، مازمازيا ـ كاس كازيا، سارلاي وأمارلاي، ملائكة مرسلون من سدوم لشفاء الدمامل المؤلمة. بوزاخ، بازيخ، بازبازيخ، مازمازيخ، كامون، كايخ، ليبقَ شكلك في داخلك (لا يمتد ولا ينتشر)، وليكن بذرك هجيناً، نغلاً، مثل بغلة عاقر، لتكوني عقيمة في حسم A ابن B!.

بالنسبة لخفقان القلب: خذ ثلاث كعكات من الشعير، وانقعها في اللبن الخاثر لمدة لا تقل عن أربعين يوماً ثم اشرب الخمر الممدد بالماء. من يشكو ضعف القلب، عليه تناول اللحم المأخوذ من خاصرة الكبش اليمنى، ومن براز البقر خلال شهر نيسان (أول شهر من السنة العبرية). وإذا لم يتوفر ذلك، فأغصان فتية من شجرة الصفصاف، وأكل اللحم المشوي على نار وقودها أغصان الصفصاف، يؤكل اللحم، مع شرب النبيذ الممدد بالماء.

بالنسبة للربو القصبي، والخفقان، يقول آخرون: خذ ثلاث كعكات من الحنطة وانقعها بالعسل، واشرب معها النبيذ غير الممدد. التهاب البلعوم: تناول ثلاث بيضات بالنعنع، ومقدار بيضة من الكمون، ومقدار بيضة من السمسم؛ يجب ابتلاع كامل الخليط. الاضطرابات الهضمية: تناول مئة حبة بهار (الفلفل) الطويلة واخلطها مع

النبيذ، واشرب منه يومياً مائة جرعة. بالنسبة للدودة الوحيدة: تناول مقدار ربع كأس من النبيذ مع ورقة الريحان. وبالنسبة للدودة البيضاء: تناول بذور ملفوف ايروكا. ضعها في قطعة من القماش وانقعها في الماء ثم اشرب المنقوع، واحذر من ابتلاع البذور التي تهدد الأمعاء بالانثقاب.

بالنسبة لدودة الأمعاء الطويلة، يجب تناول نبات كزبرة البير (وهو نبات بري معمَّر) مع ماذا؟ مع سبع حبات تمر بيضاء. من أين يأتي هذا الداء؟ البقاء على الريق قبل تناول الطعام، ومن ثم أكل اللحم المشوي، وشرب الماء، أو أكل اللحم الكثير الدهن، أو لحم الثيران، أو الجوز، أو سويقات الحلبة، وشرب الماء مع الأدوية. بلع حبات تمر غير ناضجة، تفريغ نخاع العظم وبلعه مع الخل. يقول البعض إنه يجب الامتناع عن شرب الخل، لأنه يضر بالكبد، أو يجب تناول أغصان العليق الطرية المقشرة. وخوفاً من مرور الديدان عبر الفم، اغلِ المزيج عند غياب الشمس، وفي الصباح أغلق أنفك كي لا تشم رائحة ما تشربه واشرب المزيج، وعندما تريد إفراغ الأمعاء، افعل ذلك في حفرة شجرة نخيل مثمرة اقتلعت من مكانها.

بالنسبة للإسهال، خذ دقيق الشعير الطري في المساء، وفي حالة الإمساك خذ من نفس الدقيق الممزوج بالماء.

من أجل آلام الطحال، خذ سبع سمكات ضعاف وجففها في الظل، تناول كل يوم سمكتين مع النبيذ. أو خذ طحال عنزة لم تنجب بعد، واعصره عند فوهة فرن، وضع نفسك مقابلاً لها وقل: مثلما يجف الطحال، فليكن ذلك إلى طحال السيد A ابن B. وإذا لم يكن هناك فرن أو تنّور، اعصره بين قطعتين من الآجر لمنزل جديد، وتلفَّظ بنفس الرقيّة، أو خذ سمكة ضعيفة واشوها في كور الحدادة مع الماء الذي يستخدم في الحدادة، ثم اشرب الماء من بيت الحداد. أو من ماء شربت منه عنزة بيت الحداد، وعندما ذُبحت وجدت أنها بدون طحال لأن طحالها قد جف. أو اشرب كمية كبيرة من النبيذ.

بالنسبة للديدان الشرجية، خذ بعض ثمار الأكاسيا، والصبّار ومن الرصاص الأبيض ومن أول أوكسيد الرصاص، ومن النير (نوع من شجر البلوط) المحتوي على أوراق عطرية، وبضع قطرات من روث الحمام، وضع الخليط داخل قطعة قماش صيفاً ومن القطن شتاء، أو اشرب البيرة الممددة بالماء.

أما أوجاع الوركين، فخذ وعاء يحوي منقوع السمك المملح، ودحرجه ستين مرة على منطقة الكليتين (كل منطقة كلية ستين مرة). أما الحصيات المثانية، فخذ ثلاث قطرات من زيت القطران، وثلاث قطرات من عصير الكرّاث، وثلاث قطرات نبيذ أبيض واصنع منها حفنة، أو خذ قبضة منها وعلقها في العضو الذكري، والمرأة بثدييها.

الحزاز والبهاق: خذ سبع سنابل قمح من أرزانيا (سنابلها كبيرة) واشوها على مجرفة جديدة واستخرج منها الزيت وادهن القسم المريض.

آلام الأذن: خذ كلية أيّل أبيض أصلع، وقطعها على شكل صليب وضعها على الرماد، ضع العصير على الأذن بحيث يكون المزيج متوسط الحرارة. أو خذ دهن خنفساء كبيرة، وأدخله في الأذن. أو املأ الأذن بالزيت، خذ سبعة سيقان من القش، وسويقاً من الثوم، ولف حولهما خيطاً أبيض وأشعله؛ أدخل الطرف الآخر في الأذن، وقربها من اللهب، يجب الحذر حيث تترك الأذن بعيدة عن تيار الهواء. بعد انتهاء الخيط الأول اصنع خيطاً آخر. أو خذ قطعة من الصوف المصبوغ بالبنفسجي، لم يندَّف (يحلج)، أدخلها في الأذن، وقرب القطعة من اللهب لتشتعل وانتبه لعدم وجود تيار هواء. أو خذ قصبة عمرها مئة سنة، واملأها بملح صخري، احرقها وضعها على الأذن .

إذا كان أحدهم يشكو من ضعف القابلية على الصوم، فليتناول العسل أو بعض الحلويات، لأنهما يعيدان بريق العينين. إذا كان أحدهم مصاباً باليرقان، فليأكل لحم الحمار. وإذا عض كلب مسعور أحد الأفراد، فليأكل جزءاً من كبده، يوصى بالخل ضد الحر الشديد.

بما أن الأفاعي تكثر في بلدان الشرق، حيث يعيش اليهود، يشار هنا إلى كيفية الوقاية من الآلام التي تسببها: عندما يلدغ عقرب طفلاً وهو في السادسة من عمره، في تمام اليوم الذي أنهى فيه عامه السادس، فلا يمكنه البقاء حياً (إلا إذا أسرعنا بإعطائه الدواء اللازم). ما هو الدواء الموجود؟ مرارة لقلق أبيض مع الجعة، حيث يُفرك مكان اللدغة، ثم نسقيه منه. أما الطفل في ربيعه الأول فلا يستطيع البقاء حياً. ما هو العلاج؟ أشواك شجر التمر المثمر المنقوع في الماء؛ تمسَّد وتُفرك مكان اللدغة، ثم يشرب المزيج.

إذا شرب أحدهم من ماء ملوث خلال الليل، دعه يشرب من مزمار الراعي، أو خذ خمس وردات وخمسة أقداح جعة، يغلى المزيج حتى يصبح ربع كأس ويعطى

للمريض ليشربه. كانت والدة أحد الحامات تعالج رجلاً (قد شرب من الماء الملوث) وبالطريقة التالية: أحضرت وردة وقدح جعة، وتركتهما على النار حتى الغليان. ثم أعطته من المزيج ليشربه. كانت تسخن المقلاة، وترفع الرماد، وتضع بداخلها قطعة آجر وتجعل الشخص يجلس عليها، عندها كان السمُّ يخرج منه، شبيهاً بورقة شجرة التمر. توصف عقاقير أخرى: اشرب ربع كأس من حليب الماعز الأبيض. خذ ليمونة حلوة وفرغها من الداخل واملأها بالعسل، وضعها على الرماد الحار ثم كلْها.

استعمال البول الذي مضى عليه أربعون يوماً، 22 جزءاً من ربع كأس لعلاج لسعة الدبور، وربع كأس من أجل لسعة العقرب، وثمن كأس (لوغ) عند التسمم بالماء الملوث.

إذا ابتلع أحدهم أفعى، ليأكل نبات كشة العجوز (نبات طفيلي) وليركض مسافة أربعة كيلومترات. وإذا لسعت أحدهم أفعى، ليقسمها إلى شطرين ويضعها على الجرح. وصفات أخرى: عند لسع الأفعى، تقسم الدجاجة إلى نصفين نصفها على الجرح والنصف الآخر يؤكل مع الكرَّاث.

إذا التفت أفعى على جسم أحدهم فعليه الإسراع بالنزول للماء، ويضع سلة فوق رأسه وينزلها تدريجياً (حتى تدخل إليها الأفعى). بعد التأكد أن الأفعى أصبحت بكاملها داخل السلة، ليلقها بالماء ويبتعد بحيث لا تستطيع الأفعى اللحاق به. عندما تكون الأفعى هائجة ومتوترة، وعلى وشك أن تلسع إنساناً، فإذا كان بجانبه شخص آخر، عليه الإسراع والركوب على ظهره ويقطع بسرعة مسافة أربعة أذرع (لتفقد الأفعى أثره). يمكن أيضاً القفز فوق حفرة أو مجرى ماء. وخلال الليل في العراء، عليه وضع أرجل سريره وسط أربعة براميل وينام في الهواء الطلق. أو يأخذ أربع قطط ويربطها على زوايا السرير الأربع وينشر حول السرير قطعاً خشبية، عندما تسمع القطط صوت تسلل الأفعى سيشعرون بها. إذا لاحقت أفعى رجلاً، فعلى الرجل الجري على أرض رملية ما أمكن، لأن الأفعى غير قادرة على التحرك بسرعة على الرمال. للوقاية من مفعول السكَّر إليكم ما يوصى به: خذ الزيت والملح وافرك بهما راحة اليد وسطح القدم صارخاً: بما أن هذا الزيت صافٍ ليكن خمر أو نبيذ A ابن B . أو خذ مقداراً من الطين بملء غطاء قارورة النبيذ وانفخ في الماء وقل: كما أن هذا الطين صافٍ فليكن كذلك نبيذ A ابن B.

إذا دخل عظم في بلعوم أحدهم، ليأخذ عظماً مشابهاً ويضعه على رأسه ويقول: واحد واحد انزل؛ لتكن مبلوعاً، مبلوعاً، انزل واحد، واحد. لا يوجد اعتراض على التصرف بهذا الشكل نظراً لأن الآموريين بالنسبة لشوكة السمك يقولون: أنتِ مغروزة مثل إبرة، مغلقة مثل ترس، انغلقي على نفسك، انزلي.

أخيراً نصيحة عامة: لا تعتد على ابتلاع العقاقير، ولا تخلع أسنانك.

الفصل التاسع

الأساطير الشعبية

ا ـ الأبالسة (أو الشياطين)

كان الاعتقاد السائد أن الأرواح الشريرة متأصلة بشكل كبير، خصوصاً بين المثقفين،والجمهور الذي يتبع قوانين التلمود. يقدم الحاخامات بعض الوصايا والوصفات التي تتضمن حقيقة وجود الشياطين. مثال: ما يجب فعله وعدم فعله يوم السبت أن من يطفئ مصباحاً خوفاً من أن يهاجمه الوثنيون واللصوص، وخوفاً من الأرواح الشريرة ليس مذنباً. وأيضاً إذا أرغم أحدهم على تجاوز المسافة المسموحة يوم السبت، لسبب وثني أو روحٍ شريرة، يجب أن لا يكون قد فعل هذا بملء إرادته أكثر من أربعة أذرع .

سبب هام للخطيئة هو أن يكون الفرد مسكوناً أو مأخوذاً من طرف روح شريرة، تحرم هذا السيىء الحظ من حسه للعدالة أو من السيطرة على نفسه. «لا أحد يرتكب خطيئة إلا إذا دخلت فيه الروح الشريرة». ثلاثة أشياء تقود الإنسان إلى انتهاك إرادة خالقه وعصيانه بملء إرادته وهي: الوثنية، الروح الشريرة، الحاجات الملحة التي تقوده للفقر.

تتنوَّع الآراء حول هذه المخلوقات الضارة، يظن البعض أنها تشكّل جزءاً من المخلوق الإلهي.

ومن بين الأشياء العشرة الأولى التي يقال إنها خُلقت عشية أول يوم سبت هي: «المزّاكون أي الأرواح الشريرة».

حول هذا النص يقول الله: **[وقال الله لتُخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض بحسب أصنافها. فكان كذلك]** (تكوين 1،24).

يُلاحظ ما يلي: إن القدوس الواحد الممجد قد خلق أرواح الشياطين، وعندما كان على وشك خلق أجسادهم، توقف واحترم راحة يوم السبت ولم يخلقها. واعتبرت بذلك أرواحاً غير متجسدة.

وحسب شكل آخر للنظرية، يمكن أن يكون الله قد نقل أرواح البشر الأشرار إلى هذه الأرواح، بمثابة عقاب، فالرجال الذين وضعوا مشروع برج بابل، كانوا يشكلون

ثلاث فئات: الذين من الفئة الأولى كانوا يقولون: لنصل حتى السماء ونسكن فيها. ويقول آخرون: لنصل إلى السماء ونمارس فيها عبادة الأوثان. أما الفئة الثالثة فيقولون: لنصعد إلى هناك ونحارب الله. لقد بدَّد الله شمل الفئة الأولى، وحوَّل الفئة الثالثة إلى قرود وشياطين ليلية، والثانية أربك لغتهم.

نوعية أخرى يجعلون من الله خالقهم الأصلي، غير أن تناسب انتشارهم كان نتيجة علاقاتهم مع عائلات بشرية. «خلال الفترة الممتدة على مدى مئة وثلاثين عاماً حيث كان آدم قد انفصل عن حواء (بعد أن طُردا من جنة عدن) كانت الأرواح الشريرة الذكرية تتحمس لحواء ووثقت علاقاتها معها، بينما تحمست الأرواح الشريرة الأنثوية لأدم وحصلت منه على أحفاد وسلالات.

هذا الاعتقاد موجود في النص التوراتي «لقد أنجب آدم خلال سنوات طرده من الفردوس أرواحاً، أبالسة وشياطين ليلية كما قيل [**وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولَدَ ولداً كصورته ومثاله وسمَّاه شيتا**] (تكوين 3،5). نستنتج من ذلك أن الله لم ينجب منذ ذلك الوقت أحداً على صورته ومثاله. لقد عُثر على نظرية مختلفة تماماً، نظرية تطورية معدَّة للشرح على طريقتها بوجود الأرواح الشريرة. هذه النظرية تقول: يصبح الضبع الذكر بعد سبع سنوات خفاشاً، ويصبح الخفاش بعد سبع سنوات وطواطاً، وبعد سبع سنوات قراصاً، وبعد سبع سنوات شوكة (هناك نص مصحح أنه بدل الشوكة أفعى)، والشوكة (الأفعى) بعد سبع سنوات إبليسا.

إليكم الآن صفاتها: فهي حسب ثلاث وجهات نظر تشبه الملائكة الخدم، وبثلاث أخرى الكائنات البشرية. كما الأوائل، لها أجنحة، تطير من طرف العالم إلى الطرف الآخر وتعرف المستقبل. فهي كالبشر تأكل وتشرب وتُنجب وتموت. يقول البعض إنها كالحرباء تغير شكلها ولونها، يمكنها الرؤية ولكنها لا تُرى.

إذا لم تستطع الكائنات البشرية رؤيتها، فهذه نعمة، لأنه لو أُعطيت القدرة للعين البشرية على رؤيتها فلن يستطيع أحد البقاء، بسبب هذه الأرواح، التي هي أكثر عدداً من البشر. يقول أحد الخامات عنها: يحيطون بنا مثل السياج حول الحقل. كل واحد: يملك ألفاً على يساره وآلافاً مؤلفة على يمينه. ويقول آخرون إن ضجة الخطابات العامة تعود لهم. الركب تتعب بسببهم، وتبلى ثياب الخامات باحتكاكها بهم، فهم يسببون المرض لأقدامنا.

فيما يتعلق بعددهم، تعطى تقديرات عالية جداً فقد قال أحد الحامات: يصبح العالم مليئاً بالأرواح الشريرة، والشياطين الضارة. ويُصرّح آخر: في مساحة تعادل ربع (كاب) في هذا العالم، يوجد على الأقل مساحة تسع (كابات) من الأبالسة أو الجن.

يقول جوخانان هناك ثلاثمائة نوع من الشياطين الذكور سخنين (مدينة في الجليل)، أما الشيطان المؤقت فأجهله.

مع أنهم نظرياً غير مرئيين، لكن توجد عدة طرق لتمييز حضورهم وحتى رؤيتهم. من يريد إدراك وجودهم عليه رش الرماد الناعم حول سريره، في الصباح سيرى عليه آثار أقدامهم. ومن يريد رؤيتهم أيضاً، عليه حمل قطة سوداء من بطنها. البكر لمولود بكر وشيّه على النار، وتحويله إلى مسحوق ثم يملأ عينيه بالمسحوق عندها سيراهم. يجب وضع المسحوق في أنبوب من الحديد محكم الإغلاق، ليتجنب أي شر. هذا ما فعله أحد الحامات: لقد رأى الأرواح الشريرة وتعرَّض لأضرارها. عندها صلّى رفاقه لأجله، فشُفي.

يمكن مصادفة الأرواح الشريرة في كل مكان، وخصوصاً الأماكن المظلمة، القذرة، الخطرة، والماء (لأن الشرقيين يعتقدون أن الجن يسكنون الأنهار، بيوت الملوك، الينابيع، الحمامات...)، وبذلك تبدو الأرواح الشريرة وكأنها تجسّد الخطر، فهي ترتاد الخرائب أيضاً. هذه المسألة ناقشها التلمود: هناك أسباب تلزمنا بعدم ارتياد الخرائب، خوفاً من الشك، والانهيار بسبب الأرواح الشريرة. لماذا ترد كلمة الشك أو الممكن، هل لأن خطر الانهيار يقدم سبباً كافياً؟ قد يتعلق الأمر بالخرائب الحديثة، عندها لا يوجد خطر من الأرواح الشريرة. وهذا لا يطبق عندما يدخل رجلان داخل الخرائب، لكن يحصل عندما يكون هذان الرجلان لهما سمعة سيئة. لماذا جاء ذكر الانهيار، هل لأن الشك والأرواح يقدمان سبباً كافياً؟ لن يحصل هذا عندما يتمتع الشخصان بسمعة طيبة. عندما يوجد رجلان في خراب، ألا يكون هناك خطر من وجود الأرواح الشريرة؟ يجب الخوف من الأماكن التي ترتادها وعندما يوجد شخص واحد في خرائب حديثة في مكان منعزل، فما من شك أنه لن توجد هناك امرأة، لكن الخوف يحصل من وجود الأرواح الشريرة. يجب تجنب الخرائب بشكل رئيسي، لأن الشياطين تسكنها.

مكان آخر لإقامتهم: المراحيض. أي فرد مُتوضِّع داخل بيوت الراحة يتحرر من ثلاثة أشياء: الأفاعي، العقارب، الأرواح الشريرة. كان في طبريا مراحيض، إذا دخلها

رجلان في النهار، فإنهما يشعران بالألم فيها. يروى عن الحاخامات أنهم كانوا يذهبون إليها إفرادياً ولم يشعروا بأي ضرر. سألهم زملاؤهم: «ألم تشعروا بالخوف؟ أجاب: تلونا رقية. وفي حالة كهذه يفضل التواضع والصمت. قام حاخام آخر بتدريب حمل على مرافقته إلى هذا البناء الصغير (ليكون بحمايته من الأرواح الشريرة). وقبل أن يصبح «ربَّا» رئيسياً للأكاديمية، كان من عادة زوجته أن تهز حبة بندق في قارورة صغيرة أمامه كي تخيف الشياطين، لكن عندما كان يترأس الاجتماعات، كانت تفتح نافذة في الجدار وتضع يدها على رأس زوجها.

من أجل طرد شياطين المراحيض، يقدم التلمود هذه التعويذة: على رأس أسد وعلى أنف لبوة رأيت الشيطان (بار شيريكا باندا) في الوادي حيث ينبت الكرَّاث، ضربته بفك حمار فصرعته. الاعتقاد السائد في العالم، أن الأرواح الشريرة، ترتاد أماكن المياه في الينابيع والحقول. إليكم ما رواه أحد الحاخامات «حصل في قريتي أن آبا جوزي زيتور كان جالساً يدرس إلى جانب النبع، عندما ظهرت له الروح هناك، وقالت له: هل تعرف كم من السنين أقمت هنا، كنتم مع نسائكم تجلسون في ضوء القمر دون أن تشعروا بوجودها أو بضررها. أعرف أن روحاً شريرة تقيم هنا، مسببة الإساءة للبشر. سأل أبَّا جوزي: ما العمل؟ أجاب: اذهب وأخبر السكان وقل لهم: من يملك مجرفة أو أداة لقلب التراب فليحضر إلى هنا عند الفجر ويراقب نبع الماء. عندما يلاحظون تموجات على السطح فليضربوا النبع بأدواتهم ويصيحون: «النصر لنا!» وعليهم أن لا يغادروا المكان قبل أن يشاهدوا خثرة دم على سطح الماء!». ذهب وأخبر الناس في قريته بما كان قد قيل له فاستجابوا للأمر. وفي اليوم التالي عند الفجر، قاموا بضرب النبع بأدواتهم الحديدية صائحين: «النصر لنا!» ولم يبتعدوا إلا بعد أن شاهدوا ما يشبه خثرة الدم على سطح الماء. بما أن الجن يفضلون أماكن تجمع المياه، يجدر بنا أخذ الاحتياطات اللازمة لحفظ السوائل، خصوصاً عندما تبقى مكشوفة. تتوضع الروح الشريرة أيضاً على الأطعمة والمشروبات الموضوعة تحت الأسرة، حتى عندما تكون ضمن وعاء حديدي. يجب عدم رش الطريق العام بماء كان موضوعاً ليلاً في إناء مكشوف، أو رش أرض البيت، أو استخدامه لصنع الملاط، أو استعماله لشرب الدواب أو تقديمه لقريبه، أو غسل الأيدي والأرجل به لا يسمح لأي شخص شرب الماء ليلتيْ الأربعاء والسبت، ومن يشرب فإن الدم سيصعد إلى رأسه مسبباً له الخطر.

أي خطر؟ الروح شريرة، لكن لو شعرت بالعطش، ما العمل؟ ردِّد النص المتعلق بالأصوات السبع في المزمور 29. أو ردِّد هذه التعويذة. «لول، شافان، آنيفرون، اندرافون، اجلس وسط الكواكب، وامش وسط الناس ضعفاء الجسم، والبدينين. ويمكن إيقاظ أحدهم والقول له: A ابن B أنا عطشان. بحاجة إلى الماء، في هذه الحال يسمح بشرب الماء، أو نقوم بقرع غطاء القدر بعد ضربه على الجرة قبل الشرب. أو نلقي شيئاً في الماء، ونشرب بعد ذلك. فممنوع على أي إنسان الشرب من ماء النهر أو المستنقع ليلاً. من يشرب سيصعد دمه إلى رأسه مسبباً له بالخطر. أي خطر؟ خطر الشابريري (شيطان العمى). وإذا ما شعرنا العطش، ما الحل؟ إذا كان هناك شخص آخر قولوا له: A ابن B أنا عطشان، أنا بحاجة للماء. أو يقول في نفسه: كانت والدتي تقول: كن لي حذراً من شيطان العمى بريري، ريري، إيري، أنا عطشان لكأس بيضاء. هذا هو الاعتقاد لمن لا يتقيد بأمسيات الأربعاء والسبت. يجب عدم الخروج ليلاً وخصوصاً ليالي الأربعاء والسبت. لأن «أغرات» ابنة «مخلاة» في الخارج مع ثمانية عشر ألفاً من الملائكة المدمرين، الذين مرروا الإساءة للبشر.

تهرب الأرواح الشريرة من الضوء وتبحث عن الظلمات، فالليل هو الفترة الخطرة الممنوع إلقاء السلام على أي شخص، خوفاً أن يكون جنياً.

قيل في مكان آخر: السير على ضو مشعل يبدو فيه الفرد اثنين، وتحت ضوء القمر ثلاثة. عندما تظهر الروح الشريرة لشخص منفرد، فهي تسيء له، وعندما تظهر لاثنين فلا تسبب لهما ضرراً، أما الثلاثة فلا تظهر لهم أبداً والمطلوب عدم التجول إفرادياً في الظلام.

تقصد الأرواح الأمكنة الظليلة لتجنب نور الشمس، فالخطر كامن في الظل.يوجد خمسة أنواع لأخطار الظل (خطر بسبب الأرواح الشريرة). ظل شجرة النخيل منفردة، ظل زهرة اللوتس، ظل شجرة الكَبَر (نوع من نبات معمر تُخلَّل تماره وتؤكل، وتستعمل جذوره في الطب)، ظل شجرة الغبيراء، وظل شجرة التين (لا يوجد ذكر لشجرة التين في الطبعات الأولى للتلمود، لكنها وجدت في طبعة ميونيخ من أجل تكملة الأنواع الخمسة للظل). يضيف البعض ظل القوارب، وظل شجر الصفصاف. وبصورة عامة كلَّما كانت أغصان الشجرة كثيفة كان ظلها مخيفاً، وعندما تكون أشواكها خطرة كذلك ظلها، باستثناء شجرة الغبيراء، رغم أنها شوكية فهي غير

مؤذية. كانت جنية تقول لابنها: اهرب من شجرة الغبيراء لأنها قتلت أباك، وقد تقتلك أيضاً. تتلاقى الأرواح تحت ظل شجرة الكَبَر، أما أدغال الغبيراء فهي ملتقى الجن، أما الأسطح فهي مقر لتجمع الحمَّى [**يهلكون جوعاً وتفترسهم حمَّى مُلهبة ووباء مرٌّ وأنيابَ البهائم أطلقها فيهم مع سمِّ زحّافات الغبار**] (تثنية الاشتراع 24،32). في أي مكان يُشار لهذا؟ في علاقة مع التعويذة. إن أرواح ظل شجرة الكبر هي كائنات لا عيون لها. لماذا يشار لهذا؟ لكي نهربَ منها. حدث أن حاخاماً كان ذاهباً ليستريح قرب ظل بعض أشجار الكَبر. سمع وقع أقدام الجنية تَسير خلفه، فهرب منها. وظلت تلاحقه، حتى اصطدمت بشجرة نخيل، فيبست النخلة وماتت الجنيَّة. إن ظل الغبيراء هو ملتقى الجن. فعندما يكون دغل أشجار الغبيراء إلى جانب المدينة، فإن أكثر من سبعين جنيّاً يتواجدون فيها. لماذا أعطي هذا التحديد؟ من أجل كتابة التعويذة بشكل مناسب. في أحد الأيام خرج حارس المدينة الليلي وتوقف قريباً من دغل شجر الغبيراء، فهاجمه ستون جنياً وأصبح وضعه خطراً. ذهب إلى بيت أحد الحاخامات الذي لم يكن يعرف أن سبعين جنياً يرتادون الدغل الصغير من أشجار الغبيراء، فكتب الحاخام تعويذة ضد جنّي واحد. بينما سمع الحارس عصابة منهم يرقصون ويغنون حوله: «إن عمامة هذا الرجل تشبه عمامة الحاخامي، لكننا أثبتنا أنه لا يعرف لفظ التبريكة». عندها جاء حاخام آخر، ولاحظ أن الدغل الصغير مسكون بستين جنياً سمعهم يتحدثون فيما بينهم «اخرج من هنا». الأرواح الشريرة لا تهاجم الكائنات البشرية بل الحيوانات، حيث تصبح مسعورة وخطرة. الكلاب بنوع خاص معرضة لأذيتهم. يقال خمسة أشياء عن كلب مسعور: خطمه مفتوح، لعابه يسيل، أذناه متهدلتان، لسانه مدلًّى، يمشي على حافة الطرقات. من أين يأتي مرضه؟ يعزي أحد الحاخامات مرضه للذين يهزؤون به، ويقول آخرون إن بداخله شيطاناً. كيف التصرف حيال هذا الرأي وذاك؟ يجب قتل الحيوان بسهم (إذا كان مرض الكلاب ناجماً عن الأرواح الشريرة، فيجب إبعاد الكلب عنه، ومن ثم القضاء عليه بسهم قاتل)، لأن كل من له تماس معه سيكون في حالة خطر، ومن يتعرض لأذى من الكلب المسعور فسيموت حتماً. إذا لامس أحدهم كلباً مسعوراً، فماذا يكون الدواء؟ ليخلع ثيابه ويهرب. وإذا تعرَّض لعضَّة كلب فما الحل؟ ليأخذ جلد ضبع ذكر ويكتب عليه «أنا A ابن B، أكتب لك على جلد ضبع ذكر - كانتي، كانتي، كليروس - نموذج أخر- كاندي، كاندي، كلوروس - ياه ياه، رب الجيوش أمين أمين سيلال». ثم يخلع ثيابه ويضعها في القبر

لمدة سنة كاملة، وبعدها يخرجها ويحرقها في أتون ويرش رمادها فوق الطريق. وخلال السنة التي يقضيها في الانتظار، عليه استخدام أنبوب من النحاس لشرب الماء حتى لا يرى صورَ الجن في الماء ويتعرض للخطر.

بعض الفئات من الناس معرضون لهجوم من الأرواح الشريرة، وهم بحاجة لحماية خاصة. هناك ثلاثة أشخاص يستوجبون الحراسة من الجن: المعوق، الفتى الوحيد، المخطوبة. رواية أخرى: المعوق، المرأة أثناء الولادة وبعدها، الفتى الوحيد، المخطوبة. البعض يقول: الشخص وهو في حالة حداد ويضيف آخرون: تلميذ الحكماء أثناء الليل.

كانت ليليت رئيسة للجنيات، يتخيلونها بشعرها الطويل. إليكم ما يقال عنها: ممنوع على الرجل النوم وحده في البيت، فمن يفعل تأخذه ليليت. يتكلم التلمود عنها باختصار، لكن في الأسطورة اليهودية الحديثة، فإنها تحتل مكاناً كبيراً، خصوصاً أنها مؤذية للأمهات وقت الإنجاب وبعده، وتقوم بسرقة الأطفال (يطلق على الجنية أيضاً اسم ليلى أو الليل، هذا الشيطان الأنثى هي روح شريرة. ولكن العلماء المحدثين ربطوا بينها وبين لولو لدى السومريين (الفُسق، والدعارة).

بما أن الكائن البشري معرض لأعمال الجن الضارة، فينبغي اتخاذ إجراءات فعَّالة ضدها. سبق أن ذكرنا بعضاً منها: التعاويذ والرقيات (جمع رقية) الهدف منها طرد الشياطين في بعض الظروف. لكن هنا قاعدة عامة، من أجل طرد الشيطان، قولوا: مُتْ، لتكن ملعوناً، محطماً، مطروداً، ابن الوحل، ابن النجس، ابن الطين الشبيه بشامغاز، ميريفاز واستماعا. نص آخر يضاف للكلمة الأخيرة، ابن الآجر، اسم موريغو، موريفات ووزيره.

وكما سنرى لاحقاً، أن الأعداد المزدوجة كانت تبدو مزعجة، لأنها تجلب الانتباه غير المرغوب للأرواح الشريرة، ومن أجل التغلب على هذا الخطر، يجب الاعتقاد أن هذا العدد هو الرئيسي والمتقدم على سابقه. روى أحد الحاخامات ما يلي: أعلمني الشيطان جوزيف أنه إذا شرب أحدهم كأسين متتاليتين من نفس المشروب، فإن الشياطين تميته.وإذا شرب أربعة كؤوس، فإنها لا تقتله بل تسبب له الضرر. هل الأمر متعلق بكأسين، غير مهم، قد يكون شربهما خطأً أو عمداً، لكن فيما يخص الأربعة، فلا ضرر إلا إذا تناولها عمداً. إذا نسي أحدهما نفسه، ثم خرج بعد أن شرب كأسين،

فكيف يمكن درء الخطر؟ ليأخذ إبهامه الأيمن بيده اليسرى، وإبهامه الأيسر بيده اليمنى ويقول «أنت وأنا، ونحن ثلاثة» وإذا سمع جواباً: «أنت وأنا ونحن أربعة» ليقل: «أنت وأنا ونحن خمسة» وهكذا دواليك، حتى الوصول إلى الرقم مئة، في هذه اللحظة ينفجر الجني.

نُسب للملك سليمان معرفة بارعة بالرقى المخصصة للتغلب على الشياطين. «قهر سليمان الكثير من الجن والعديد من الشياطين»، لكنه فقد القدرة عليها فيما بعد. «ظل سليمان مسيطراً على الشياطين حتى وقع في الخطأ». يلمح يوسف لذلك: «جعله الله قادراً على تعلم طريقة طرد الجن التي أصبحت تقليداً وأدت إلى شفاء بني البشر. وقام أيضاً بتأليف تعاويذ ورقى لتخفف الأمراض. ترك بعده أشكالاً من طرق طرد الأرواح، التي بموجبها يُطرد الجن دون رجعة، لا تزال هذه الطريقة تحتل حتى الآن أهمية كبيرة. رأيت رجلاً من بلدي يدعى أليعازر، يشفي ممسوسين بالجن بحضور فاسباسيان أحد أولاده، وضباطه وجيشه. كان يفعل هكذا: يأخذ خاتماً يحمل تحته بصمة واحدة من أصول سليمان التي كان يعتبرها مثل أنف يشتمُّ بها، وعندما ينقلب الرجل، يرجو من الجن أن لا تدخل فيه من جديد، ذاكراً دائماً اسم سليمان ومردداً التعويذة التي ألَّفها.

تتكلم المصادر الحاخامية عن استعمال الرقية لجذر داخل الحجر الكريم للخاتم. «ممنوع على أي إنسان الخروج يوم السبت حاملاً رقية إلا إذا كانت مكتوبة من خبير». (شاب 2 ،6). ما هي تعويذة الخبير؟ هي كل تعويذة أدت للشفاء مرة ثانية وثالثة والتي تنص على شيء مكتوب أو شكل جذور (وصف جوزيف أحد الجذور الخاصة المستعملة كتعويذة). يمكن حمله عند الخروج يوم السبت إذا كان قد تعرَّض سابقاً لهجمات الجن. حتى في الحالة المعاكسة إذا لم يوجد هناك أي خطر، يمكن تعليقها أو فصلها في ذلك اليوم، بشرط أن لا تعلق في عقد أو طبعة خاتم، هذا ما يدل على أنه لن يكون محمياً بدونها.

القاعدة المتعلقة بالتعاويذ المكتوبة هي التالية: مع أن تتضمن الاسم الإلهي، فيجب عدم إخراجها من النار يوم السبت، يجب القبول بأنها تحترق. إذاً لا ترتبط بها أي صفة قداسة. يذكر المفسر الراشي آيات متكررة في التعاويذ: [**وقال إن أطعت أمر الرب إلهك وصنعت بالاستقامة أمامه وأصغت إلى وصاياه وحفظت جميع فرائضه فجميع الأمراض التي أحللتُها بالمصريين لا أحلّها بك لأني أنا الرب**

معافيك] «لن يرعبك الليل أو السهم الذي يسرق النهار» (مزمور 91،3) هناك رُقى تعلَّق للحيوانات، لأنهم معرضون للهجوم من الشياطين. هذا القانون يخصّها: «لا يمكن لأي حيوان الخروج يوم السبت مجهزاً برقية، حتى لو كتبها خبير. القانون صارم جداً بالنسبة للحيوانات والإنسان» (توسيفتا شاب 4،5).

إلى جانب حمل الرُّقى المكتوبة، فإن تلاوة بعض النصوص المقدسة، كان مفروضاً أنها تقي من الجن «من يقرأ الشيما (هي مجموعة نصوص من التوراة) منها:

- سفر التثنية الاشتراع (4 - 5 - 6 - 13)، **[اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا رب واحد** (4)، **فأحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك** (5)، **ولتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك** (6). **فاحذر أن تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من دار العبودية بل الرب إلهك تتقي وإياه تعبد وباسمه تحلف** (13)].

- (سفر العدد 15، 37 - 41): **[وكلّم الرب موسى قائلاً]**: (37) **[مر بني إسرائيل وقل لهم ليصنعوا أهداباً على أذيال ثيابهم مدى أجيالهم ويجعلوا على أهداب الذيل سلكَ سمنجوني]** (38). **[فيكون ذلك لكم هُدباً فترونه وتذكرون جميع وصايا الرب وتعملون بها ولا تهيمون باتباع قلوبكم وعيونكم التي أنتم فاجرون باتباعها]** (39) **[لكي تتذكروا وتعملون بجميع وصاياي وتكونوا مقدسين لإلهكم]** (40). **[أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم الهاً أنا الربُّ إلهكم]** (41).

هذه المقاطع للصلاة صباحاً ومساء. عند السرير، فهي كمن يمسك بيده سيفاً ذا حدين لطرد الأرواح الشريرة لأنه قيل: «مدائح الله على أفواههم، والسيف القاطع في يدهم». ذلك ما يهدف إليه نظام الشيما. لماذا يطلب تلاوة الشيما مساء في البيت؟ طبعاً لطرد الأرواح الشريرة. نص آخر مؤيد يُنصح به في هذا المجال: جرت العادة في أورشليم على تلاوة نشيد الأرواح الشريرة لراحة شخص في حالة الخطر. ما هو هذا النشيد؟ إنه من تأليف موسى وهو يصعد إلى جبل سيناء، لأنه فقد يخشى الأرواح الشريرة (أعداد 12R،3). لكن الحماية التي توصى قبل أي اطمئنان ليست سوى حماية الله. لو لم يكن سوى ظل القدوس الواحد الممجد! الذي يقي الكائن البشري من الأرواح الشريرة، لكانت الأرواح الشريرة مزّقتهم، لأنه قيل: **[لكن على الرب لا**

تتمردوا ولا تخافوا أهل الأرض، فإنهم طعام لنا وقد زال ظنهم عنهم والرب معنا فلا ترهبوهم] (العدد 14،9). رواية أخرى لو لم يكن كلام للقدوس الواحد الممجد الذي يحمي الكائن البشري لمزقته الأرواح الشريرة لأنه قيل: [**إني خلقت ثمرة الشفتين السلام السلام للبعيد وللقريب قال الرب وشفيتُه]** (إشعيا 57،19). حول هذا النص سيرى الأرض [**فترى جميعُ أمم الأرض أن اسم الربِّ قد ألقي عليك وتخالفك]** (تثنية الاشتراع 28،10). يلاحظ أن «التعبير» موجَّه للجميع حتى الأرواح الشريرة والجن كذلك في البركة الكهنوتية الكلمات «ليحرسك الرب» [**يباركك الرب ويحفظك]** (العدد 6،24) يُفهم منها الحراسة والحفظ من الأرواح الشريرة.

الحماية الإلهية من هذه الكائنات الضارة مضمونة بإطاعة الوصايا. «إذا أطاع أحدهم وصية دينية واحدة، فهناك ملاك يتولى أمره، وإذا طبَّق أحدهم وصيتين فهناك ملاكان، وإذا ما طبق جميع الوصايا عندئذ تتولى أمره مجموعة من الملائكة لأنه قيل: سيأمر ملائكته بحراستك أينما توجهت». ومن هم هؤلاء الملائكة؟ هم أولئك الذين سيحرسونك من الأرواح الشريرة، كما قيل: ألفٌ ينزلون إلى يسارك وعشرة آلاف إلى يمينك.

2 ـ العين الشريرة

لقد عاث رعب العين الشريرة فساداً في كل مكان، ولم يختف كلياً إلى يومنا هذا حتى في الأوساط المثقفة. ومن غير المدهش العثور على آثاره واضحة في أساطير التلمود. عبارة عين الشريرة ترتبط بمدلولين مميزين، أحدهما أكثر وضوحاً وقدماً من الآخر. ولدى مقارنتهما ببعضهما، عندها تكون المقدرة على فهم الخرافة «المعتقد الباطل».

القبول الأول لا ينمّ إلا عن الحسد، والشهوة أو الميل المضاد للكرم (البخل). وجاء ذكره في التوراة في وصف ما يميز المجاعة وقد قيل [**الرجل المتنعم منكم والكثير الترفُّه يشحُ على أخيه وعلى زوجته التي في حجره وسائر بنيه الذين يكون ادخرهم. فلا يعطي لأحد منهم من لحم بنيه الذين يأكلهم إذا لا يبقى له شيء في الحصار**

والمضايقة التي يضايقك عدوُك في جميع مدنك] (تثنية الاشتراع 28،54 - 55). هنا يكمن الجشع، وجاء في سفر الأمثال (28،22) [**ذو العين الشريرة يحرصُ على المال ولا يعلم أن العوز يدركه**]، ويظهر غياب الكرم في سفر الأمثال 23، 6 [**لا تأكل خُبزَ شرير العين ولا تشتهِ أطايبه**]. هذا عكس ما تعبّر عنه العين المرضية في المثل الوارد في سفر الأمثال (22،9) [**الصالح يُبارك لأنه أعطى من خبزه للفقير. واهب العطايا يحوزُ الفوز والكرامة ويستلب قلوب الآخرين**].

الشيء نفسه واضح جداً في بعض النصوص التلمودية. يقول الحاخام جوخانان بن زاكاي لتلامذته الخمسة المميزين: «اذهبوا واستطلعوا الطريق الأفضل الذي على الإنسان سلوكه». ويقول الحاخام أليعازر: «إنها عين خيّرة» ويقول الحاخام جوزيف: «جار صالح». والحاخام شمعون: «من يقدر مسبقاً نتائج عمل معيَّن». الحاخام اليعازر: «قلب طيب». بينما قال معلمهم: أوافق على كلام الحاخام أليعازر وأفضّله على كلامكم لأن كلامكم موجود في كلامهم. ثم قال لهم: «اذهبوا واستطلعوا الطريق السيىء الذي يجب على الإنسان تجنبه». يقول الحاخام أليعازر «عين شريرة» الحاخام جوزي «صديق سيىء» والحاخام جوزي «جار سيىء»، الحاخام شمعون: من يقترض ولا يعيد ما اقترضه». الحاخام اليعازر: «قلب شرير». بينما يقول معلمهم: أوافق على كلام أليعازر أكثر من كلامكم لأن كلامكم موجود في كلامهم من الواضح أنه لا العين الطيبة ولا الشريرة لا تستتبع هنا أي خرافة، القصد من هذه الكلمات سمو النفس ورفعتها. هذه الحالة العين الشريرة «الحسد» السلوك السيىء، الحقد على القريب يضعان الإنسان خارج العالم، تجاه الصدقة هناك أربعة ميول ممكنة: هناك من يرغب بالعطاء، لكن الآخرين لايعطون؛ عينه شريرة على مال الغير؛ هناك من يرغب أن يقوم الآخرون بالعطاء لكنه لا يريد أن يعطي، عينه شريرة على ما يملك؛ من يعطي ويرغب أن يعطي الآخرين فهو قديس؛ ومن لا يعطي ويريد أن يمتنع الآخرون عن العطاء فهو خبيث وشرير. «عين طيبة، روح متواضعة، طبع بسيط، جميعها من ميزات تلامذة أبينا إبراهيم». يمكن إيجاد نصوص تلمودية متنوعة تؤدي كلماتها إلى المدلول نفسه. بالنسبة لحصة الكهنة من الأضحية يعطي الرجل الكريم (طيب العين) جزءاً من أربعين. وتقول مدرسة سامَّاي جزءاً من ثلاثين يعطي الرجل المتوسط الحال جزءاً من خمسين، بينما يعطي البخيل جزءاً من ستين. بما أنه

ينبغي على من يقدم هبة، عليه أن يفعل ذلك بعين طيبة وأريحية، وليكن كذلك من يهدي أملاكاً لمكان مقدس.

هذا الاستعمال «للعين الشريرة» بمعنى الحسد والغيرة، توضحها الرواية المزخرفة بين شاول وداود. [**فقال شاول لداود لا طاقة لك بلقاء هذا الفلسطيني وقتاله لأنك أنت الغلام وهو رجل حرب منذ صباه. فقال داود لشاول كان عبدك يرعى غنم أبيه فكان يجيء أسد تارة وتارة دب ويخطف شاة من القطيع. فكنت أخرج وراءه وأضربه وأخلصها من فيه فلما وثب عليّ أخذت بذقنه وضربته فقتلته فقد قتل عبدك أسداً ودباً وسيكون هذا الفلسطيني الأقلف كواحد منهما لأنه قرّع صفوف الله الحيّ**] (ملوك أول 17، 33، 34، 35) وعندما سأله شاول من قال لك إنك تقدر على قتله؟ [**قال داود إن الرب الذي أنقذني من أيدي الأسد والدب هو يخلصني من يد هذا الفلسطيني. فقال شاول لداود انطلق وليكن الرب معك. فألبس شاول داود ثيابه وجعل على رأسه بيضة من نحاس وألبسه درعاً وتقلّد داود سيفه فوق ثيابه وأراد أن يمشي لأنه لم يكن قد جرّب. فقال داود لشاول لا أستطيع أن أمشي بهذه لأني لم أجربها**] في الحال حدّق به شاول بالعين الشريرة. وبما أن داود لاحظ شحوب وجه شاول أعلن: «لا أستطيع أن أمشي بهذا الدرع لأني لم أجربه» الحسد والغيرة يسببان العدوانية، وسوء النية تجعله يتمنى التعاسة والمصائب. هذا الأمل المشؤوم يتركز عادة في نظرة حقد. من هنا عبارة «العين الشريرة» إذا كان يخشى منها فهذا بسبب الاعتقاد بأنها تجلب الآلام والمصائب، وسوف تصطاد ضحيتها وتقضي عليها.يؤكد التلمود بشكل قاطع أن يكون لبريق العين تأثيرات خطرة. ينسب هذه القول إلى الحاخامات: «حيث يوجه العقلاء نظرهم ويحصل موت ونكبة» لقد وصلتنا حكاية تقول: كان الحريق يندلع في كل مكان تقع عليه عين الحاخام شمعون بن جوخاي. يقال الشيء نفسه عن الحاخام أليعازر. عُرف نظر العديدين من الحاخامات أنهم حوَّلوا من أهانهم إلى كومة من ركام. أحدهم مارس هذه القوة وهو كفيف، وإنه الحاخام شيشيت. حكاية أخرى من هذا النوع تخص الحاخام يهودا «رأى رجلين يتقاذفان قطع الخبز: من هنا جاء تعجبه». هل تظنان أن الخبز كثير في هذا العالم؟ فوجه عينيه نحوهما، فتفجرت المجاعة. عند تأمُّل هذا النوع من الروايات التي يتناقلها عامة الناس عن

الدكاترة، لن تفاجأ من التحقق بأن الناس قد آمنوا بالمصائب الرهيبة التي تعود للعين الشريرة. هذا نص يسمح بتقدير خطورة الأضرار التي كانت مسؤولة عنها. مقابل ميتة طبيعة واحدة يموت تسعون شخصاً من العين الشريرة. **[ويزيل الرب منك كل مرض وجميع أدواء مصر الخبيثة التي عرفتها لا يُحلها بك بل يُحلها بُمبغضيك]** (تثنية الاشتراع 15،7) ويضاف لها العين الشريرة. كان على الحاخامات أن يحسبوا لها حساباً عند التشريع (سن القوانين التلمودية). والسماح بتلاوة التعويذة ضد العين الشريرة أو ضد الأفعى، والعقرب، وإبعاد العين الشريرة يوم السبت.

القطعان والممتلكات الأخرى معرضة أيضاً لأضرار التعاويذ السحرية. على الحصان أن لا يخرج يوم السبت مجهزاً بين عينيه بذنب ثعلب أو قطعة قماش أرجوانية، لتقيه من العين الشريرة. «ممنوع على الإنسان أن يدوس حقل جاره عندما تظهر السنابل وبحسب «راشي» لأن السنابل تصاب بالعين الشريرة».

الحماية الرئيسية من هذا الخطر تنص على تجنب الغيرة والحسد. لا تعرض أملاكك، لأنها تثير شهوة جارك، وينظر إليها بالعين الشريرة.«لا شيء عرضة للتبركة إلا إذا كان مخبأ عن الأنظار (نظر الجار) هكذا قيل: **[ويأمر الرب لك بالبركة في أهرائك وفي جميع ما تمتد إليه يَدُك ويباركُكَ في الأرض التي يعطيك الرب إلهك]** (تثنية الاشتراع 8،28). تقول مدرسة الحاخام إسماعيل: لا شيء معرَّض للتبركة، إلا ما لا تطل عليه العين (عين الجار).

الفكرة نفسها في هذه المشاهدة: «إذا كانت البنت بكر العائلة فهذا فأل خير للذكور الذين سيأتون بعدها». بعضهم يفسر هذا المثل بالقول: البنت البكر سوف تزني إخوتها، ويقول آخرون: إن العين الشريرة لا قدرة لها عليهم. لا يميز الحاخام راشي في تعليقه النية السليمة، فيقول: يبدو أن الشرقيين يحبون غالباً ولادة الأبناء الذكور، والنسوة اللواتي ليس لهن أطفال ذكور بل معظمهم إناث، يربين أولادهن على الغيرة والحسد. فعندما تلد امرأة مولوداً ذكراً، من هنا يبدأ خطر العين الشريرة، وإذا كان المولود أنثى، فستكون محسودة نوعاً ما، لكن أقل مما لو أنجبت ذكراً.

يمكن للأفراد تجنب العين الشريرة، بالهرب من الشهرة. «ومع أن حنانيا وموصائيل وآزارياس قد نجوا من الحرق وسط الأتون، فقد ماتوا من العين الشريرة.لقد سببت

شهرتهم وفاتهم. عندما ذهب أبناء يعقوب إلى مصر لشراء القمح، زوَّدهم والدهم بالوصية التالية. أنتم أقوياء وعلى درجة من الجمال، لا تدخلوا عبر أبواب المدن، ولا تتوقفوا في الساحات، كي لا يكون للعين الشريرة تأثير عليكم. هناك فائدة يجب أخذها من تصريح يشوع الذي يفرض على كل فرد توخي الحذر من العين الشريرة. هذا هو السبب: **[فقال يشوع لآل يوسف ولأفرائيم ومنسَّى أنتم شعب كثير ولكم قوة عظيمة، فلا يكون لكم قُرعةٌ واحدة]** (يشوع 17،17).

قال لهم: اذهبوا واستقروا في الغابات كي لا تسيطر عليكم الأرواح الشريرة. تشير العين الشريرة في أماكن عدة من التلمود إلى القوة التي تثير الطمع والشهوة. كان من عادة الحاخام جوخانان الجلوس على أبواب الحمامات ويقول: «عندما خرج فتيات إسرائيل من هنا، وينظرن إليَّ، فسيكون لهم أبناء بجمالي. فيقول له زملاؤه: «ألا تخاف العين الشريرة؟» أجاب: أنحدر من يوسف الذي لا تقوى عليه العين الشريرة لأنه مكتوب: **[يوسف غصن مُفرع. غصنٌ مُفرع على عين له فروع قد امتدت على سور]** (تكوين 49،22).

ويقول الحاخام آبًا هو: لا تقرب العين (قرب النبع) بل أغمضها. ويقول الحاخام جوزيه بن خانينا: يرتكز الحاخام جوخانان على النص التالي **[الملاك الذي خلصني من كل سوء يبارك الغلامين وليُدعيا باسمي وبإسم أبويَّ إبراهيم وإسحق. ولينميا كثيراً في الأرض]** (تكوين 48،16).

لينميا كثيراً في الأرض أي يتكاثروا كالسمك في البحار، لا تقوى عليهم العين الشريرة. وليس لها أي تأثير بُعد على يوسف. أو قولوا إن العين التي لا تشتهي الحصول على حصة من مال الآخرين، لن تكون خاضعة لتأثير العين الشريرة.

وسيلة من هذا القبيل لإبعاد العين الشريرة هي موضوع النصيحة التالية، من يصل المدينة ويخاف من العين الشريرة، يمسك إبهامه اليمنى بيده اليسرى وإبهامه اليسرى بيده اليمنى ويقول:

أنا A ابن B، أنا من سلالة يوسف الذي لا تأثير للعين الشريرة عليه وليكف عن النظر بطرف عينه نحو أنفه الأيسر.

3 ـ السحر والتنجيم

يوضح التلمود النزاع الذي نشأ بين العقائد العقلية النقية النابعة من التوراة، والمعتقدات الدنيا الخرافية المنتشرة في الأماكن التي يقطنها اليهود. لقد ندَّد كتاب العهد القديم بشدة بأنواع الممارسات السحرية، لمحاولات رفع الحجاب عن استشراف المستقبل، باستعمال طرق التنجيم ونرى العديد من الحاخامات وخصوصاً من المنتمين للحقبة الأولى، أنهم يبذلون جهوداً حقيقية للقضاء على سيول الشعوذات التي تغزو مجتمعهم. لكن جميع جهودهم باءت بالفشل، حيث تفوقت السذاجة على الإيمان.

في ملحق سفر تثنية الاشتراع، نعثر على قائمة من فنون السحر التي تمارسها الأمم الوثنية والممنوعة على أطفال اليهود. العبارات المذكورة هنا التي يعطيها الحاخامات، تظهر جزءاً من بعض أشكال هذه الممارسات في العصر التلمودي. «من يمارس التنجيم، كمن يمسك بعصىً ويقول: اذهب ولا تذهب؟ إنه المنجم بالعصى ـ الذي يقوم بمهمة العرّاف ـ يقول الحاخامات: هناك بعض الأشخاص يقومون بخدع بصرية، ويقول الحاخام عقبة: منهم من يتنبأ عن الطقس، والتنبؤات السعيدة والسيئة للقيام برحلة أو عمل تجاري ـ الساحر ـ هو من يقول سقطت فُتات الخبز من فمي، والعصى من يدي، هناك أفعى على يميني وكلب على شمالي، كان يقطع عليَّ الطريق. إن الرجل يقول: لا تبدأ سفرك لأن الهلال عشية السبت أو نهاية السبت. المشعوذ هو من يقُوم بالسحر والشعوذة، فلا يكتفي بالتوهمات والخدع البصرية، وفي هذه الحالة يبدو مذنباً أمام التورا. بينما المخادع (من يقوم بالخدع البصرية) لا ينتهكها الساحر ـ هو من يسحر الأفاعي ـ الرجل الذي يحضر الأرواح المألوفة ـ إنه مقماق (يخرج الأصوات من بطنه) والعرّاف ـ الذي يروي المغامرات الشيّقة ـ حيث يضع في فمه قطعة من عظم حيوان، وتبدأ قطعة العظم بالكلام تلقائياً ـ محضِّر الأرواح ـ من يترك العنان لنفسه بالغناء ويقضي الليل في المقبرة، لتحلَّ عليه روح نجسة.

لنتفحص الجهود المعدَّة أولاً لمحاربة ممارسي التنجيم. لماذا يجب علينا الإصغاء للكلدانيين (المنجمين)، لأنه قيل: [**بل كن كاملاً لدى الرب إلهك**] (تثنية الاشتراع 18، 13). يستند إلى مثال رب العائلة الأول. بينما كان أحد الحاخامات يدَّعي بأن

«أبانا إبراهيم كان يحمل في صدره لوحاً خاصاً بعلم التنجيم، وأن جميع ملوك الأرض يحضرون إليه لاستشارته». لكن آخرين كذبوا هذا القول بقوة. يقول الحاخامات: إن إبراهيم لم يكن منجماً، بل كان نبياً». يلاحظ أيضاً في عهد النبي إرميا أن اليهود القدماء كانوا مولعين بالتنجيم، لكن القدوس الواحد الممجد! لم يسمح لهم بذلك، كما قيل: [**هكذا قال الرب لا تتعلموا طريقة الأمم ولا تفزعوا من آيات السماء التي تفرغ منها الأمم**] (إرميا2، 10). «قديماً، كان أبوكم إبراهيم يهوى ممارسة التنجيم، غير أنني لم أسمح له أبداً بذلك». هذه السمة الأخير توصف كما يلي: مكتوب: [**ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وأحص الكواكب إن استطعت أن تحصيها. وقال له هكذا يكون نسلُك**] (تكوين 15،5).

قال إبراهيم للقدوس الواحد الممجد!: [**وقال إبرام إنك لم ترزقني عقباً فهوذا ربيبُ بيتي يرثُني**،(3)] [**فإذا بكلام الرب إليه قائلاً لا يرثك هذا بل من يخرج من صُلبك هو يرثك** (4)]. يقول إبراهيم!: يا سيد الكون لقد استشرت طالع فلكي، ولستُ معدّاً ليكون لي ابنٌ. أجاب الله!: دع منجميك. أليس للكوكب تأثير على بني إسرائيل؟

إليكم هذا التحذير التلمودي العنيف: «إن من يمتنع عن ممارسة التنجيم يكون له مكان في السماء حتى الملائكة لا يحق لها دخوله». وفي السياق نفسه، مقطع يعود للملك سليمان: «من أجل إيضاح النص يقال: [**كانت حكمة سليمان تفوق حكمة جميع أنبياء الشرق/ وحكمة سائر المصريين**] (ملوك الأول 4،30). تُروى هذه الحكاية: عندما خطط سليمان لبناء الهيكل، كتب إلى الفرعون فيخو: «أرسل لي عمالاً، لأني أرغب في استئجارهم لبناء الهيكل: ماذا فعل ملك مصر؟ جمع كل منجميه وقال لهم: حاولوا استشارة المستقبل واختاروا الرجال الذين سيموتون هذا العام، حيث سأرسلهم إلى سليمان. «عندما وصل هؤلاء إلى سليمان علم بقوة الروح القدس أنهم سيموتمون هذا العام، عندها أعطاهم الأكفان وأعادهم إلى الفرعون مع الرسالة التالية: بما أنه ليس عندكم أكفان لموتاكم، لقد جهزت الأكفان للعمال الذين أرسلتهم».

التنافر يبدو واضحاً بين ملك مصر الذي يستشير المنجمين، وسليمان الذي انبثق علمه من الروح القدس. إنَّ منحَ أدنى درجة من الثقة للمعلومات الخرافية تصرُّف غير

لائق من اليهود. والحكاية التالية تؤكد هذا النهج: كان من الشخصيات التي اعتنقت اليهودية منجمٌ. عندما يرغب في السفر، يقول في نفسه: هل أقدر على ذلك بسبب الظروف الحاضرة «العرافون كانوا يقولون غير ملائم»؟ وبعد تفكير عميق يستنتج:

«أليس من أجل الكف عن ارتكاب مثل هذه الحماقات اعتنقت اليهودية؟ سأغامر باسم الخالق». في الطريق قبض عليه أحد موظفي الضرائب فأعطاه قطعة نقود، فأخلى سبيله. لماذا يتعَّرض لهذه الضريبة؟ هل بسبب أفكاره الأولى المهتمة بالغيب والتنجيم؟ لماذا أُخليَ سبيله؟ هل كان بسبب اتكاله على خالقه؟ لقد أعلن أن من يمارس التنجيم فإن نتائجه ستصيبه في النهاية. قصص أخرى مخصصة لإثبات غراي المعلومات القادمة بهذا القدر من مصادر مجهولة. إن طمع وجشع زوجة فوطيفار تجاه يوسف انبثق منها. بواسطة التنجيم، قدَّرت أنه سيكون لها منه خلف. لكن دون أن تعلم ما إذا كان الولد سيولد منها أو من ابنتها. **[وسمَّى فرعون يوسف مخلِّص العالم وزوَّجه أسنات بنت فوطيفار رع كاهن أونَ. وطاف يوسف في جميع أرض مصر]** (تكوين 41،45). كان للممارسات المُدانة مرة أخرى نتائج مأساوية: «وثني متهوِّد يعمل حلاَّقاً ومنجماً، تنبأ بواسطة التنجيم أن اليهود سيهدرون دمه، غير أنه يجهل هل سيكون سفك دمه بالختان ما أن ينقلب لليهودية! حضر إليه يهودي يريد تزيين شعره، فقتله، ثم قتل آخرين، ويقول البعض أن عدد قتلاه وصل إلى الثمانين وآخرون يقولون إلى الثلاثمائة. تضرع اليهود له بصلواتهم إلى الله، فعاد واعتنق الوثنية.

إلى جانب ذلك، من الواضح جيداً كم كان الحاخامات يريدون رَدْعَ الطائفة عن الشعوذة والتنجيم، الذي كان التلمود يعزي ممارستها للوثنيين. كانت مصر تبدو البؤرة الحقيقية» فقد نزلت إلى هذا العالم عشرة مكاييل، أخذت مصر تسعة منها وباقي العالم واحدة.

عندما نصح «جثرو» موسى بأن يساعده مجموعة من الزعماء قال: **[وأنتِ فانظُر من جميع الشعب أناساً أقوياءَ أتقياءَ لله مستقيمين يكرهونَ الطمعَ وولِّ منهم عليهم رؤساء فئات بين ألف ومئة وخمسين وعشرة]** (خروج 18،21).

التفسير: «بالقدر الذي ينظر عبره الملوك ليختاروا مستشاريهم». استشار «ميزا» ملك مؤاب المنجمين الذين قالوا له إنه سيحتل جميع الأمم عدا إسرائيل. كان منجمو «سنحاريب» قد أشاروا عليه بتوقيت المعركة ليكون النصر حليفه. ورغم جميع الجهود

المبذولة في استئصال آفة التنجيم، فقد ظلت الفنون التنجيمية تتسرب إلى داخل مجتمع اليهود وتفرض هيمنتها تدريجياً على مختلف الطبقات. فقد نُسبت إلى بعض الحاخامات سلطة ما فوق الطبيعة، التي سهَّلت سريان حكايات خرافية لا حصر لها. إليكم بعض الأمثلة: حدث أن طُلب من خوني، راسم الدوائر، التدخل لإسقاط المطر. فحاول دون نتيجة. عندها قام برسم دائرة وجلس في وسطها ونادى: يا سيِّد الكون! لقد أدار أولادك وجوههم نحوي لأني ماثل أمامك مثل ابن بيتك. أقسم لهم باسمك الكبير، إنني لن أتحرك من مكاني حتى ترسل رحمتك وترأف بأطفالك. عندها شرع المطر بالهطول بقطرات خفيفة. فقال: ليس هذا ما طلبته، لقد طلبت مطراً يملأ الخزانات، والحفر والكهوف. فتساقط المطر غزيراً. قال: ليس هذا ما طلبته: طلبت المطر من لدنك وعطفك وبركتك، ورضاك. «عندها سقط المطر بكمية كافية».

وصل «بينخاس بن جائير» إلى إحدى المناطق، فأعلمه سكانها، أن الفئران هاجمت محصولهم وأتلفته. وعلى الفور أمر الفئران بالتجمع، حيث بدأت بالصراخ الحاد ـ سأل السكان: هل تعرفون ماذا تقول الفئران في صراخها؟ كلا ـ تقول إن ضريبة العشر لم تجمع بشكل مناسب من المحصول ولهذا تريد الفئران القضاء عليه. أجابوا ـ أثبتْ لنا أن كل شيء سيعود إلى السابق فيما لو خضعنا للعشر الصحيح. فأكدَّ لهم ذلك، ومنذ ذلك الوقت لم يتعرضوا لأي خسائر. دخل جانَّاي إلى أحد الفنادق وطلب ماء ليشرب، فقدموا له، وكان ينظر إلى النسوة اللواتي كنَّ يثرثرن. فأخذ بعضهن بأذرعهن وألقى بهن في الباب، وحولهن إلى أفاعٍ. وقال لهن: شربتُ من مائي، وستشربون أنتم منه أيضاً، شربت إحدى النسوة فتحولت إلى حمار امتطاه وتجول به في ساحة السوق. جاء صديق المرأة التي مُسخت ليحررها من السحر، عندها شاهدنا، حانَّاي يمتطي امرأة. إذا كان الصالحون يريدونه ليخلق لهم إنساناً. خلق رابا إنساناً وأرسله إلى الحاخام زيرا الذي وَجَّه إليه الأسئلة: هذا الإنسان لا يستطيع الإجابة. عندئذ صاح الحاخام: «لقد خُلقتَ أيها الإنسان بالسحر، عُدْ إلى ترابك». وكان من عادة الحاخاميين خانيتا وأوشايا أن ينصرفا يوم الجمعة لدراسة سفر «أستير»، وخلق عجلاً عمره ثلاث سنوات ليكون طعاماً لهما.

تُظهرُ القصة التالية سذاجة أحد الحاخامات وحكمة زميله: «قال راب للحاخام خِيَّا: رأيت عربياً يبقر جَمَلَهُ بضربة سيف، ثم شرع العربي بالقرع على الطبل وإحداث

ضجيج كبير، فنهض الجمل واقفاً. ـ هل رأيت خلفَ الجمل آثار دماء أو بعرٍ؟ أجاب الحاخام خيًا: إذا لم يكن هناك من أثر، فهذا يعني أنك تحلم.

سلطة أخرى منسوبة للحاخامات: «إن اللعنة الصادرة عن العاقل، حتى لو كانت غير مستحقة، سوف تتحقق. يذهب البعض أبعد من ذلك فيقولون: اللعنة من أي شخص كان يجب أن لايُستهان بها». نمط آخر من القصص يؤكد صحة التنجيم وإليكم بعضاً منها: «كان الكلدانيون يقولون لوالدة الحاخام «نخمان بن إسحق» إن ابنها سيكون لصاً. فلم تكن والدته تسمح له بالخروج حاسر الرأس وتقول له: ابقِ رأسك مغطى لتظل مخافة السماء عليك، وتضرَّع إلى الله. كان الولد يجهل لماذا تطلب والدته منه هذه الوصية. في أحد الأيام، بينما كان يدرس تحت ظل النخلة، سقطت قبعته عن رأسه. رفع عينيه فرأى الثمار اليانعة على الشجرة، وشعر برغبة جامحة بقطف بعض ثمارها ليأكلها فتسلق الشجرة وقطف بعضاً منها. وبما أن الشجرة ليست ملكاً له فقد قام بالسرقة وهكذا تحقق التنجيم.

يوسف المشهور بتقديس يوم السبت، كان له جارٌ وثنيٌ ثريٌّ جداً. وصل الخبر إلى ثري من الكلدانيين أن ثروته ستنتقل إلى يوسف وتصبح ملكاً له. عندها قام الثري وباع كل ما يملك، واشترى لؤلؤة شدَّها إلى قبعته. وبينما كان يجتاز النهر، قذفت الريح قبعته وسقطت اللؤلؤة في الماء وابتلعها السمك. اصطاد أحد الصيادين السمكة يوم الجمعة وأحضرها إلى مركز تجمع بيع السمك. فتش الصيادون عن مشترٍ، ونصحهم البعض بعرضها على يوسف المخلص ليوم السبت، وكان من عادة يوسف التفتيش عن هذا النوع من الأسماك. أحضرها له وعندما قطَّعها يوسف عثر بداخلها على اللؤلؤة حيث باعها بثمن باهظ جداً. عندما انتخب الحاخام يوسف رئيساً للأكاديمية، رفض هذا الشرف، لأن الكلدانيين سبق وقالوا اه إنه سيترأس الجامعة لمدة عامين ثم يموت.

وحسب القصة التي سنرويها، إن التنبؤات (التنجيمات) غير المواتية من قبل الإله، رغم صحتها، فيمكن تجنبها بالإحسان. «توجه تلميذان من تلامذة الحاخام «خانًينا» إلى الغابة لقطع الأخشاب. رآهما أحد المنجمين فقال: هذان الرجلان ذاهبان إلى الغابة لن يعودا أبداً. «صادفا في طريقهما شيخاً مسناً فوجه لهما الالتماس التالي: أحسنوا إليَّ، فأنا لم أتناول الطعام منذ ثلاثة أيام» كان معهما قطعة من الخبز، قسماها نصفين

وقدَّما للشيخ المسن نصفاً من قطعة الخبز. فأكلها ثم صلّى لأجلهما وقال: «أضرع إلى الله أن تتمكنا من إنقاذ حياتكما في هذا اليوم، كما أنقذتم حياتي». ذهبا للغابة وعادا سالمين. سمع بعض الناس تنبؤات المنجم فنادوا عليه وقالوا له: ألم تقل بأن هذين الرجلان لن يعودا سالمين؟ إذاً منجم كاذب، وتنجيمك خاطئ: ذهبوا ليتفحصوا القضية بالتفصيل، فوجدوا أفعى مقطوعة قسمين وقد تمَّ توزيع كل نصف وسط رزمة كل من التلميذين. قال الناس لهما: ما الذي حصل لكما اليوم؟ قصّوا لهم ما جرى معهما، صاح المنجم: ماذا يمكنني أن أعمل إذا كان إله اليهود يهدأ ويرضى بنصف قطعة من الخبز.

بمعزل عن حكايات من هذا القبيل المقدمة لنا، فإن التلمود يغيص بالمعطيات التي تشهد لماذا كانت تنمو الخرافات المتنوعة. التلاوات التالية، يُقصد بها عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية. «الفجور والشعوذة دمَّرا كل شيء». عندما كثرت أعداد السحرة والرقى، لوقاية أنفسهم من قصاص الله العادل، حلَّ الغضب الإلهي على العالم وانسحبت الشيخينا من إسرائيل (توسيفيتا سوت 14،3).

لقد ألمحنا سابقاً إلى شعبية السحر بين النسوة اليهود. يروى أن «شمعون بن شتاح» الذي عاش في القرن الأول الميلادي، قد شنق ثمانين مشعوذاً في يوم واحد في عسقلان. صرَّح الحاخام جوخانان: لا يُقبل في المجلس الأعلى الكبير لليهود (السانهيدران) من كانت لديه قدرات أخرى. أي من لا يملك المعرفة بالشعوذة. يشرح المفسر «راشي» ضرورة التدريب لامتلاك القدرة على الوقوف في وجه السحرة نظراً لمهارتهم وفنهم. يتخيلون أنهم قادرون على الإفلات من أحكام المحكمة، وتهديدهم القضاة محاولين استغلاله بحيلهم.

وقال إن الإنسان يمارس العرافة والتنجيم بواسطة أبناء عرس، والطيور، والأسماك». مثال مطبق على حالة الحاخام ايلِّيش «كان أحد الأيام عبداً لدى رجل يفهم لغة الطيور. جاء الغراب وبدأ ينعق. سال الحاخام الرجل: ماذا يقول؟ آجاب ايلِّيش سيعتق، إيلِّيش سيعتق. قال العبد: هذا الغراب دجّال خداع، لا أصدِّقه. ثم جاءت يمامة وكانت تصدر صوت هديلها. سأل الحاخام الرجل: ماذا تقول؟ أجاب الرجل: ايلِّيش سيعتق، ايلِّيش سيعتق. استنتج من ذلك، أن اليمامة تميل نحو اليهود، وأن أعجوبة ستحصل من أجله. كان التأثير الذي تمارسه الكواكب على مجرى

الحياة الإنسانية، محط اعتقاد راسخ بين أبناء الشعب. الرفض التام لتأثير الحيوانات. بينما الثمار، والخضار، والأعشاب وسائر النباتات خاضعة لها. فيما يخص البشر، فالآراء كانت منقسمة حول استثناء اليهود من القاعدة العامة. صرّح أحد الحاخامات: الكوكب الذي ولد كل واحد في ظله، يحدد ما إذا سيكون غنياً أو حكيماً، فالكواكب تؤثر على مستقبل اليهود القدماء. لقد ظلت الفكرة الأولى مسيطرة عموماً. ويُروى عن حاخاميين مشهورين أن طول الحياة لا يتعلق باستحقاق عدد السنين بل الكواكب. قارنوا بين مستقبل «رابًا» ومستقبل الحاخام «خيشدا» كلاهما صالحان، فالأول استجيبت صلواته وتضرعاته الداعية للمطر، والثاني باءت طلباته بالفشل، مات رابًا في الأربعين من عمره.استجيبت طلبات الأول أقيمت احتفالات لستين زواجاً، وعند الأخر لستين مأتماً. وكان لدى «خيشدا» خبزٌ أبيض يطعمه للكلاب، وعند رابًا خبز شعير يطعمه للبشر. هناك تفاصيل دقيقة تتعلق بالتأثير الذي يمارسه تاريخ الولادة على خصال ومستقبل الإنسان. «مولود الأحد سعيد دائماً أو بائس، لأنه اليوم الذي خلق الله النور والديجور. مولود الإثنين طباعه سيئة، لأنه في هذا اليوم فُصلت المياه عن اليابسة. مولود الثلاثاء سيكون ثرياً وشهوانياً، لأن الله خلق في هذا اليوم عشب الأرض. مولود الأربعاء سيكون حكيماً ويتمتع بذاكرة طيبة، لأنه في ذلك اليوم وضع الله الفلك كل في مكانه، الشمس، والقمر، الكواكب. مولود الخميس سيمارس الإحسان، لأنه في مثل هذا اليوم ظهرت أسماء الطيور. مولود الجمعة سيكون رجل عمل وفعل، يطبق الوصايا بحماس بالغة. مولود السبت معرَّض للموت، لأن الولادة انتهكت حرمة يوم السبت المقدس. وبحسب قول حاخام آخر: لا الكواكب ولا اليوم، بل الساعة هي التي تحدد مصير أو خط كل إنسان. المولود بتأثير كوكب الشمس إنسان مميّز. ستأكل وتشرب ما هو لك، ستنكشف أسرارك، وإذا جازفت بالسرقة فعملك هذا غير مُجدٍ. المولود بتأثير الكوكب فينوس، سيكون غنياً وشهوانياً، لأن النار خلقت بواسطة هذا الكوكب. المولود بتأثير عطارد ستكون ذاكرته جيدة ومتمتع بالحكمة، لأن عطارد كاتب في خدمة الشمس. المولود بتأثير القمر سيكون متألماً وإنما يبني ويهدم ويهدم ويبني. لن يأكل ويشرب من ماله الخاص، ستبقى أسراره مخبأة، وإذا حاول السرقة فسيكون ناجحاً فيها. المولود بتأثير زُحل، ستفشل جميع مشاريعه، يقول البعض أيضاً، إن المشاريع التي ستحاك ضده سيكون مصيرها الفشل. المولود

بتأثير كوكب المريخ، سيسفك دمه، يقول حاخام آخر: سيكون جرَّاحاً، أو مكلفاً بالختان (شاب 156 a).

إن قدر الإنسان مرتبط بالكوكب، إلى الدرجة أنه إذا شعر بالخوف، ولم يعرف السبب، فإن كوكبه يدرك ذلك. كيف يمكن درء هذا الشعور؟ عليه تلاوة «الشيما»، وإذا وُجد في مكان مدنَّس (حيث غير المسموح تلاوة «الشيما»). عندها ليبتعد عن المكان مسافة أربعة أذرع وليقل: «إنَّ تَيْسَ المسلخ أكثر شحماً. من اعتقاد آخر: الاسم الذي يحمله الإنسان يؤثر على مستقبله ومهنته».

يرى اليهود مثل سائر الشعوب القديمة، أن الكسوف يمثل الغضب الإلهي. يقول الحاخامات: «يحمل كسوف الشمس للعالم فألاً سيئاً». حكمة متشابهة تظهر فيما يلي: أقام ملك وليمة لأفراد حاشيته، ووضع أمامهم مصباحاً. وعندما غضب الملك منهم أمر بإطفاء المصباح وتركهم في الظلمة. مادامت الكواكب تتعرض للكسوف، فإن الفأل السيئ يظل دائماً لأعداء اليهود، لأنهم اعتادوا على المصائب. مثل آخر: إذا دخل معلم المدرسة إلى غرفة الصف، هو يحمل في يده سيراً جلدياً، من سيشعر بالخوف؟ التلاميذ المعتادون على الضرب. كذلك فإن كسوف الشمس فأل سيئ للشعوب الوثنية في هذا العالم، وخسوف القمر نذير شؤم لأعداء اليهود لأنهم يتبعون التقويم القمري، والوثنيون يتبعون التقويم الشمسي. إذا جاء الكسوف من جهة الشرق، فالعاقبة تكون على سكان الشرق، ومصدر ضرر لسكان الغرب، والكسوف في وسط السماء مدعاة للإساءة لجميع سكان العالم. إذا شوهد في الكسوف لون الدم الأحمر، فإن الحرب على وشك أن تضرب العالم، وإذا كان لون الكسوف رمادياً فإن العالم سيتعرض لمجاعة قاسية. وإذا وجد اللونان معاً، فإن السيف (أي الحرب) والمجاعة سيفتكان في الأرض ويعيثا فيها فساد ودماراً. إذا حدث الكسوف عند المغيب، فإن الكارثة قادمة، وإذا حصل الكسوف فجراً، فالمصيبة وشيكة الوقوع، بعض السلطات الدينية تؤيد عكس ذلك. لم تضرب أمة دون أن تكون آلهتها معها. وكما قيل: [**وأنا أجتازُ في أرض مصرَ في تلك الليلة وأقتل كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم وبجميع آلهة المصريين أصنع أحكاماً أنا الرب**] (خروج 12،12). لكن عندما يطبق اليهود إدارة الوقت الحاضر في كل مكان فلا خوف عليهم من كل هذا لأنه قيل: [**هكذا قال الرب لا تتعلموا طريقة الأمم ولا تفزعوا من آيات السماء التي**

تفزع منها الأمم] (إرميا 12،2). إليكم الأسباب الأربعة المؤدية إلى كسوف الشمس:

موت رئيس محكمة، ولم يحصل له تأبين لائق، فتاة تعرضت لاغتصاب في مكان قفر ولم يحضر أحد لنجدتها؛ في حالة اللواط؛ قتال أخوين وإسالة دمائها، أما الكسوف الكوكبي فيعود لأربعة أسباب: ردٌّ على المزوِّرين، الحنث باليمين، وعلى اليهود الذين يربون الحيوانات الصغيرة قبل ذهابها للرعي في الحقل؛ وعلى الذين يقطعون الأشجار.

بعض الحاخامات يعتبرون أن الإيمان بالتنجيم وتأثير الكواكب لا يتوافق مع العقيدة القدرية (حرية الاختيار) التي هي أساس الأخلاق. اقترحوا أيضاً، وتقريباً عن طيبة قلب، تسوية، فقالوا: لا حقائق في التنجيم (التنبؤ عن المستقبل)، بل في الإشارات (الرسائل). العلامة أو الإشارة هي شيء حقيقي، ما يريدون قوله يقدمونه بأمثلة «العطاس خلال الصلاة فأل سيئ».

إذا ارتكب أحدهم خطيئة أثناء الصلاة، تكون غلطته إذا ارتكبها خلال خدمته كمرتِّل، عليه أن يبدي أسفه لموكليه في الترتيل، لأنها غلطته. يؤكد الحاخام خانِّينا بالقول: عندما نصلي للمرض فإن هذا سيعيش وذاك سيموت سأله أحدهم: كيف تعرف هذا؟ أجاب إذا سالت صلاتي بسهولة من فمي ودون جهد، أعرف أن الله يقبلها، وإلا سأعرف أنه يرفضها.

تظهر قدرة الحاخام المشار إليه في الرواية التالية: حدث أن مرض ابن الحاخام غاماليل. أرسل والده اثنين من تلاميذه العقلاء لدعوة الحاخام بن دوسا للصلاة لأجله. عندما رآهما الحاخام خانِّينا بن دوسا، صعد إلى غرفة عالية، حيث بدأ الصلاة للمريض. ثم نزل وقال لهما: اذهبا لقد أقلعت عنه الحمى. ـ سأله التلميذان: هل أنت نبي؟ أجاب: كلا! إني **[لست نبياً ولا ابن نبي إنما أنا راعي بقر وواخز حمير]** (عاموس 7، 14). لكن هذه عادتي، إذا خرجت الصلاة من فمي بسهولة، فإني أعرف أن الله يقبلها، وإلا فإني أعرف أنها مرفوضة. جلس التلميذان وسجلا التوقيت. وعند وصولهما، لمنزل الحاخام غاماليل، قيل لهما: إنه في خدمة الهيكل، أعلموني أنه في هذه اللحظة ذهبت الحمى عن ابني حقيقة.وأنه طلب الماء ليشرب.

من بين الممارسات السحرية المألوفة من الحاخامات كما الشخصيات الأخرى، توجد العرافة في صفحات الكتب. كانوا يذهبون للمدرسة، ويسألون تلميذاً، ماذا

حفظت من التوراة. يبدأ التلميذ بالتفتيش عن إشارة في الكلمات المشكلة لهذا النص. والأمثلة كثيرة في التلمود، ويكفي أن نذكر واحداً منها:

«كان الحاخام مئير يجهد في دفع الهرطقي «الياسي بن أبويا» إلى العودة عن هرطقته، جاء به إلى المدرسة. فقال الياسي لأحد التلاميذ: كرِّر على مسامعي الآية التي حفظتها الآن: أجاب التلميذ: [**لاسلام للمنافقين يقول الرب**] (إشعيا22، 48). ألقى في مدرسة ثانية السؤال نفسه، فأجاب التلميذ: [**إنكِ وإن اغتسلتِ يالنطرون وأكثرتِ من الأشنان لا تزالين ملطخة بالأثم أمامي يقول الرب**] (إرميا 2،22). الطريقة ذاتها كرَّرها في العديد من المدارس الأخرى، وفي مكان تشير الآيات إلى عدم وجود أي أمل. أليكم أيضاً فأل توراتي آخر: «إذا تلفَّظ أحدهم عفوياً بتلاوة آية عند نهوضه من النوم، فيجب اعتباره نبياً صغيراً».

يبقى التنجيم باستحضار الأرواح. إذاً لا يبدو أن الاستشارة المباشرة للأموات التي حرَّمتها التوراة كانت تمارس ضمن استثناءات نادرة. الاعتقاد السائد أن معارف تحضير الأرواح كانت تُكتسب بقضاء الليل في المقابر خلال بعض المناسبات الخاصة من السنة.

نعثر على المعلومات الخاصة بتحضير الأرواح من خلال المناقشات، حيث يتم التساؤل ما إذا كان الأموات يعرفون ما يجري على الأرض. وتأكيداً لذلك إليكم ما يُروى: حدث عشية رأس السنة الجديدة، أن تقياً مؤمناً أعطى ديناراً لمتسول. لامته زوجته على فعله هذا، فذهب لقضاء الليل في المقبرة. وهناك سمع مناقشة بين روحين تقول إحداهما للأخرى: صديقتي، تعالي، لنذهب إلى العالم ولنصغِ من خلف الستار (للمحكمة السماوية) من أي حدث يُحضّر. أجابت الروح الأخرى: مستحيل لأنني دُفنت في سلة من القصب، اذهبي بمفردك وارويي لي كل ما تسمعينه. ذهبت الروح ودارت وعادت: وسألتها ماذا سمعتِ يا صديقتي من خلف الستار؟ - سمعت أن أحدهم بذر الأرض عند المطرة الأولى، فدمَّر البردُ محصوله، عندها غادر الرجل ولم يعد يزرع إلا بعد المطرة الثانية، فخرَّب البرَدُ زرع الآخرين وسلِمَ محصوله. (المطرة الأولى عادة تهطل بين 17 - 23 من الشهر الثامن، والثانية بين 23 إلى نهاية الشهر).

في السنة الثانية أمضى من جديد نفس الليلة في المقبرة، فسمع محادثة لنفس الروحين. قالت إحداهما للأخرى: تعالي لنذهب عبر العالم ولنصغِ خلف الستار لمعرفة ما يجري فيه. أجابت الثانية: ألم أقل لك يا صديقتي إن هذا مستحيل بالنسبة لي،

لأنني دُفنت في سلة من القصب؟ اذهبي بمفردك؟ ولدى عودتك ستقولين لي ما سمعت خلف الستار؟ غادرت، وجالت، ثم عادت: سألتها الروح الأخرى: ماذا سمعت من خلف الستار؟ أجابت:سمعت أن من يبذر أرضه أثناء المطرة الثانية فإن الرياح ستخرب محصوله. عندها غادر الرجل عائداً فزرع أرضه أثناء المطرة الأولى. فدمَّرت الريح جميع المحاصيل عدا محصوله. سألته زوجته: كيف علمت أنه في العام الماضي دمَّر البردُ جميع المحاصيل عدا محصولك، وهذه السنة أيضاً ينجو محصولك من دمار الرياح؟ فروى لها الحكاية كلها.

يُروى أنه بعد زمن قصير من ذلك، أن زوجة هذا التَّقي المؤمن تشاجرت مع والدة الفتاة المدفونة في سلة من القصب. قالت لها: «تعالي سأريك أن ابنتك قد دفنت في سلة من القصب». غير أنه في السنة الثانية وفي نفس التاريخ عاد الشخص نفسه لقضاء الليل في المقبرة. سمع حديث الروحين. كانت إحداهما تقول للأخرى: تعالي يا صديقتي، لنذهب عبر العالم، ولنصغ خلف الستائر إلى ما يجري فيه. أجابت الأخرى: اتركيني لوحدي يا صديقتي: لأن الذي بيننا وصل إلى مسامع الأحياء.

حكاية أخرى: أودع «زيري» مع مالكته مبلغاً من المال وذهب إلى مدرسة سيده. ولدى عودته ماتت المالكة التي أودع المال عندها. رافقها إلى المقبرة وسألها أين المال؟ أجابت: عد إلى البيت وستجده تحت عتبة الباب. وقل لوالدتي بأن ترسل لي المشط وقلم الحمرة والكحل للعينين مع فلانة التي ستصل غداً إلى هنا.

حكاية أخيرة أكثر إعداداً من سابقتها «أودع أحدهم والد صموئيل (دكتور مشهور من بابل عاش في القرن الثالث الميلادي) مبلغاً من المال يخص الأيتام، وعندما توفي والده لم يكن صموئيل في المنزل، فنادى عليه الشعب أين من يبدد أموال اليتامى؟ ذهب صموئيل للمقبرة ليبحث عن أبيه. قال: أريد رؤية أبَّا، أجابوا هناك العديد من أبَّا - بن أبَّا والد صموئيل: أين هو؟ لقد صعد إلى المنتدى السماوي (حيث تدرس التورا). لاحظ صموئيل ليفي زميله القديم في المدرسة جالساً بعيداً منعزلاً سأله: ماذا تفعل هنا بمفردك لماذا لم تقصد المنتدى السماوي؟ أجاب ليفي، لأنه قال لي لم نرتد منذ زمن طويل، منتدى الحاخام آفيس، وهذا ما يحزنني، لا نعدك بالصعود إلى المنتدى السماوي. خلال المحادثة وصل والد صموئيل فرآه يبكي ويضحك: لماذا تبكي؟ قال له: لأنك أتيت إلى هنا باكراً ولماذا تضحك؟ لأنك تتمتع باحترام عالٍ بين الناس -

كرَّر صموئيل لو كنت محترماً، ليسمحوا إلى ليفي بالدخول، ثم سأل صموئيل والده «أين مال اليتامى» أجابه: اذهب وستجده في سور الطاحون. ستعثر على مالنا فوق السور وتحته وفي الوسط مال اليتامى ـ لكن لمَ فعلت هذا؟ أجابه والده: إذا جاء اللصوص من فوق ليسرقوا المال فسيأخذون مالنا، وإذا حفروا الأرض أسفل السور فسيأخذون مالنا ويسلم مال اليتامى.

4 ـ الأحلام

بالنظر للأهمية التي تعطيها التورا للأحلام، فمن الطبيعي أن تعتبر اليهودية الرؤى التي يراها الناس في الأحلام. ذات مدلولية ووسيلة للاتصال مع الله. وحسب التلمود، فقد أعلن الله نفسه: «رغم أني أشحت بوجهي عن إسرائيل، غير أنني أودُّ التواصل معها في الأحلام». «وقدِّرت الأحلام بجزء من ستة من النبوة. كما الله، كان الأموات يستخدمون الأحلام لبثٍّ رسالة للأحياء. يروي التلمود الحكايات الكثيرة من هذا النوع. «مات أحدهم في جوار الحاخام يهودا، دون أن يسمح لأحد بالحزن عليه (بلبس ثياب الحداد). خلال الأسبوع الجنائزي، أحضر الحاخام يهودا سبعة رجال للجلوس في بيت المرحوم وليقيموا الحداد عليه. بعد انقضاء سبعة أيام، ظهر له هذا الميت في الحلم. وقال له: «لتسترح روحك بسلام كما ترتاح روحي بفضلك». وفي أحد الأيام توسَّل الحاخام ربًّا إلى الله بأن يرسل المطر. «ظهر له والده في الحلم وقال له: ألهذا الحد تزعج السماء! أبدل مكان نومك لأنك في خطر. وفي صباح اليوم التالي تحقق رابًّا من السرير الذي كان ينام عليه فشاهد أخاديد صنعتها السكين».

يكرِّس مؤلف «بيراخوت» معظم صفحاته للحديث عن الأحلام، ويحتوي على كمٍّ هائل من المعلومات حول تفسيرها. إليكم نبذة منه: «الحلم غير المفسر رسالة لم تقرأ» (هذا الحلم يظل دون تفسير جيد أو سيئ، يمكن تفسيره حسب أهوائنا). إذا كان سيئاً، فإن الحزن الذي يسببه يكفي (الاستعداد لتحقيقه)، إذا كان جيداً فالفرح الذي يسببه هو كاف أيضاً. لا يوجد قمح بدون قش، ولا يوجد حلم خال من بعض

الأشياء غير النافعة. إذا تحقق الحلم جزئياً، فهو لن يتحقق بكامله. كيف نعرف ذلك؟ جاء أنَّ يوسف صرح بمايلي [**ورأى أيضاً حلماً آخر فقصَّه على إخوته وقال رأيت حلماً أيضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي**] (تكوين 37،9) غير أن والدته لم تعد تحبه منذ تلك اللحظة.

الرجل الصالح لا يحلم أحلاماً مزعجة، والرجل الشرير لا يحلم أحلاماً جيدة. من يبق سبعة أيام دون أن يحلم فهو رجل تعيس. الرجل الصالح يحلم ليلاً، ولا يتذكره في اليوم التالي. من يبق بعد الحلم منهاراً أو منزعجاً (بسبب الحلم السيئ)، سيحوله إلى حلم مريح بحضور ثلاثة شهود. عليه أن يجمع ثلاثة رجال ويقول لهم: «لقد حلمت بحلم جيد»، سيقولون له: «إذا كان جيداً فليكن كذلك»، ليجعله الرحمن جيداً، وأن يعلن في السماء أن يكون هذا الحلم جيداً من أجلك.

«هل حصل أنك حلمت وتجهل موضوع حلمك؟ اذهب وقف أمام الكهنة في اللحظة التي يمدُّون فيها أيديهم أثناء الطقوس الكهنوتية لينطقوا بالبركة، وقل هذا، «يا سيد، الكون أنا لك، وأحلامي تخصك، لقد راودني حلم ولا أعرف ما هو». لقد حلمت أنا، وحلمَ أصدقائي حلموا وأنني حلمتُ بآخر، فإذا كانت أحلاماً جيدة فضاعفها وقوِّها (وحققها) مثل أحلام يوسف، وإذا كانت بحاجة إلى تحسين، فاجعلها صافية مثل مياه «مارا» التي نظفها وطهرها موسى، مُعلمنا، ومثل مريم التي شفيت من البرص، وحزقيا الذي شفي من مرضه أيضاً، ومثل مياه جرش التي أصبحت صالحة للشرب بفضل إيليًا. وبنفس الطريقة التي حوَّلت بها اللعنة إلى بركة لدى الأخوين «بلعام»، لتتكرم وتُبدِّل أحلامي لصالحي. يجب إنهاء صلاته مع انتهاء صلاة الكهنة، بطريقة تكون له فيها حصة من جواب الشعب «آمين» .... إذا لم يتمكن من التوقف عند ذلك بالضبط، يجب أن يقول: «يا رب الأعالي! يا ساكن القدرة، أنت السلام، اسمك هو السلام. لتتكرم إرادتك وتمنحنا السلام!».

«يقول أحد الحاخامات»: كان في أورشليم وحدها أربعة وعشرون مفسراً للأحلام. ذات يوم وبعد أن حلمت، ذهبت لاستشارة معظمهم، لكن كلاً منهم قدَّم لي تفسيراً خاصاً مع العلم أن الأربعة والعشرين تفسيراً قد تحققت لديَّ. من أجل هذا قيل: جميع الأحلام يفبركها المفسِّر. هكذا كتب: [**فرأينا كلانا حلماً في ليلة واحدة لحلم كل تعبيرُ بحسبه (تكوين 41،11). وكان معنا هناك غلام عبراني عبدُ لرئيس الشُّرط**

فقصصنا عليه فعبَّر لنا حلمينا. عبَّر لكل واحد بحسب حلمه (تكوين 41، 12)، **وكما عبَّر لمن كان فردَّني الملك إلى رتبتي وذاك علَّقه** (تكوين 41 - 13)].

هناك ثلاثة أنواع من الأحلام التي تتحقق: حلم صباحي، حلم بصديق يخصك، حلم مفسر وسط الحلم. ويضيف البعض نوعاً آخر: حلم يتكرر. الإنسان لا يرى في الحلم سوى ما ينبعث من أفكار قلبه. يمكنكم التحقق من ذلك بأن ما من أحد رأى في حلمه شجرة نخيل ثمارها من ذهب، أو فيلاً يمر من خرم الإبرة (لأن الحلم لا يأتي بالأمور المستحيلة).

كان الإمبراطور الروماني تراجان يقول لأحد الحاخامات: «تدَّعي أنك حكيم، قل لي ماذا سأرى في الحلم». أجاب الحاخام: «سترى البارتيين يحولونكم إلى أرقاء، أنتم تُسلبون، تكلفون برعي حيوانات نجسة بعصي من ذهب». فكر الإمبراطور بذلك طوال النهار، وحلم بذلك ليلاً. قال الملك شابور لأحد الحاخامات: تعتبرون أنفسكم حكماء كباراً، قل لي ماذا سأرى في الحلم؟ أجابه: سيهاجمكم الرومان، ويأسرونكم، ويرغمونكم على طحن نوى التمر في طاحونة ذهبية (لتأكلوه). فكَّر الملك بذلك طوال النهار، وحلم به ليلاً.

لقد عُثر في بعض النصوص المقدسة على مفتاح الأحلام. «من يحلم بالنبع سيكون في سلام» لأنه قيل [**وحفر عبيدُ إسحق في الوادي فوجدوا هناك بئر ماءٍ معين**] (الماء المعين مكافئ للسلام) (تكوين 19،26). سيجد التورا لأنه قيل [**فإنه من وجدني وجد الحياة ونال مرضاة الله**] (أمثال 35،8)

حاخام آخر يعتبر أن الأمر يتعلق حرفياً بالحياة. هناك ثلاثة أنواع من الأحلام التي تبشر بالسلام:، نهرٌ، عصفورٌ، قِدْرٌ. نهر - لأنه كُتب: [**لأنه هكذا قال الرب هاءنذا أميل إليها السلام كالنهر ومجدَ الأمم كالوادي الطافح فترضعون وفي الحُضن تُحملون وعلى الركبتين تُدلَّلون**] (إشعيا 66،12).

عصفور - لأنه مكتوب: [**وكالطيور الحائمة يحمي ربُّ الجنود أورشليم يحمي فينقذ ويعفو فينجِّي**] (إشعيا 31،5).

قدر - لأنه مكتوب [**يا رب إنك ترسم السلام لنا لأن كل أعمالنا أنت عملتها لنا**] (26،12).

كان الحاخام خانِّينا يقول: لكن يجب أن لا يحتوي الوعاء على اللحم لأنه

مكتوب: [**الذين يأكلون لحوم شعبي ويسلخون جلودهم عنهم ويهشّمون عظامهم ويقطعونهم كما في القدر وكاللحم في وسط القدر**] (ميخا 3،3).

بما أن نتائج الحلم، تأثيراته، تتعلق بتفسيره، فمن المهم التفكير بنص مؤيِّد، قبل أن يخطر بالذهن نص آخر، بمدلول أخطر «من يحلم بنهر، عليه القول عند استيقاظه. [**انظروا هاءنذا أميل إلى السلام كالنهر**] (إشعيا 66،12). قبل التذكير بنص مثل هذا: [**فيخشوْنَ من المغرب اسم الرب ومن مشرق الشمس مجده إذ يغشى المضايق كنهرٍ يدفَعُه روح الرب**] (إشعيا 59، 19)، من يحلم بطائر فعليه القول عند النهوض من النوم [**كالطيور الحائمة يحمي ربُّ الجنود أورشليم يحمي فينقذ ويعفو فينجّي**] (إشعيا 31،5). قبل التفكير بالنص الآخر التالي: [**كالعصفور الذي يشرُد من عُشّه هكذا الإنسان الذي يشرُد من وطنه**] (أمثال 27،8).

من يحلم بقدرٍ عليه القول عندما ينهض من النوم: [**يا رب إنك ترسم السلام لنا لأن كل أعمالنا أنت عملتها لنا**] (إشعيا 26،12). قبل التفكير بنص آخر [**وتمثَّلْ لبيت التمرُّد بمثل قل لهم هكذا قال السيد الرب ضع القدر ضعها وصبَّ فيها الماء**] (حزقيال 24،3). من يحلم بالعنب، فعليه القول عند النهوض من النوم: [**إني وجدتُ إسرائيل كعنب في البريَّة كالباكورة في التين أوَّل أوانها. أن أماهم فدخلوها إلى بَعْلَ فغورَ ونذروا أنفسهم للخزي فصاروا أرجاساً كأحبابهم**] (هوشع 9،10). وقبل أن يحُضرَّ نص آخر في فكره [**إن من جَفنةِ سدوم جفنَتَهم ومن كرم عمورة عنبهم عنبُ سمٍّ وعناقيدهم من مرارة**] (تثنية الاشتراع 32،32).

تُعطي أمثلة كثيرة على مضمون الأحلام:

رؤية حيوان في الحلم تدل على الخصوصيات. يمكن قول خمسة أشياء عن الثور: من يحلم أنه يأكل لحم ثور فإنه سيقتنيه، ومن يحلم أن الثور يضربه بقرنيه، فإن أبناءهُ سيختلفون فيما بينهم حول التورا، من يحلم أن الثور يعضه، فإنه سيقاسي الآلام، ومن يحلم أن الثور يرفسه أو يلبطه فإنه سيقوم برحلة طويلة، ومن يركب على الثور، فسوف يصل إلى أعلى المراتب. من يحلم بالحمار يمكنه أن يأمل بالسلام [**ابتهجي جداً يا بنت صهيون واهتفي يا بنت أورشليم هو ذا ملكك يأتيك صدِّيقاً مخلصاً وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان**] (زكريا 9،9). من يحلم بهر أو يناديه الهر باسمه «شونارا» سيسمع نشيداً على شرفه (شيرانعا). لكن إذا كان ذلك في مكان آخر حيث يطلق على

النهر اسم «شنّار» ليتوقع تبديلاً مزعجاً «سينويرا». ومن يحلم بحصان أبيض واقفاً أو مسرعاً، الواقف فأل جيد والمسرع فآل سيء. من يحلم بالبغل، ستحدث عجائب لصالحه.

وبشكل خاص أيضاً، فإن معنى الحلم المتعلق بالقمح والشعير، أو الثمار هو: من يحلم بالقمح فسيرى السلام، لأنه قيل: [**يجعل تخومك سلاماً ومن شحم الحنطة يُشبعك**] (مزمور 147 - 14). من يحلم بالشعير (سيوريم) فستغفر آثامه من يحلم بشجرة كرمة مليئة بالعناقيد، فإن زوجته لن تجهض، لأنه قيل: [**امرأتك مثل جفنة مثمرة في جوانب بيتك. بنوك كفروع زيتون حول مائدتك**] (مزمور 127،3). من يحلم بثمار التين، فإنه سيتمتع بحماية التورا، لأنه قيل: [**من يحرس تينةً يأكل من ثمرها ومن يرعَ سيّده يُمجَّد**] (أمثال 27، 18). من يحلم بالرمان الصغير فإن أعماله ستثمر مثل هذه الثمار؛ وبالرمان الكبير ستنمو أعماله أيضاً، وإذا كانت ثمرة الرمان مفتوحة من الأعلى، وكان من أحد تلامذة الحكماء، فيمكنه الأمل بالتورا، لأنه قيل: [**ثم آخذك وأدخلُ بك بيت أمي. أنت تعلمني وأنا أسقيك الخمر المطيَّبة وعصير رماني**] (نشيد الإنشاد 8، 2). من يحلم بثمار الزيتون الصغيرة، فإن أعماله ستكون وفيرة وتتضاعف وتعمّر كالزيتون، وهذا لا ينطبق إلا على الثمرة. أما إذا حلم بأشجار الزيتون، فتكون ذريته كثيرة العدد كما قيل: [**بنوك كفروع زيتون حول مائدتك**] (مزمور 127،3) يقول البعض: من يحلم بشجرة الزيتون فسيحصل على شهرة جيدة، كما قيل: [**قد سمَّاك الرب زيتونةً خضراء جميلة ذات ثمر أنيق ثم عند صوت جلبةٍ عظيمة أضرم فيها ناراً فتحطمت أغصانها**] (إرميا 11، 16). من يحلم بزيت الزيتون يمكنه أن يحصل على نور التورا لأنه قيل: [**وأنت فمرْ بني إسرائيل أن يأتوك بزيت زيتون مرضوضٍ خالص للمنارة لتوقد به السُرُج دائماً**] (خروج 27، 20).

انظروا يا أولاد، إليكم قائمة بالأحلام المتنوعة مع تفسيرها: من يحلم بذكر ماعز، فسيكون عامه مباركاً. من يحلم (بالآس) فإن أعماله الجارية ستتطور إيجابياً، إذا لم يكن قد بدأ بأي واحدة منها، فإن إرثاً سيأتيه من مكان آخر. من يحلم بليمونة فسيكرَّم أمام خالقه؛ وبسعفة النخل يعطي قلبه لأبيه السماوي؛ أوزة: (وهي لدى الرومان رمز العقل والحكمة) يمكنه أن يأمل بالحكمة، ديك: يأمل بولد ذكر؛ ديكة: أبناء كُثر؛ دجاجات: الثقة بتربية أولاده بطريقة صالحة وسيكون

مسروراً؛ البيض: تبقى مطالبه معلقة؛ بيض مكسور: طلبه قد تحقق، الأمر ذاته بالنسبة للجوز، والخيار، والأواني الزجاجية، والأشياء الأخرى سريعة العطب.

من يرى نفسه في الحلم يدخل مدينة، فإن رغباته ستتحقق؛ وإذا رأى نفسه حليق الرأس، فهذا فأل جيد له ولعائلته. من يرَ نفسه جالساً في قارب صغير فسيحصل على شهرة حسنة، وفي سفينة كبيرة الشيء نفسه له ولعائلته؛ لكن هذا لا ينطبق إلا إذا كان يبحر وسط البحر. من يرى نفسه صاعداً على سطح، فإنه سيذهب إلى المجد؛ ومن يهبط عن السطح فإنه سيفقد عظمته.

من يحلم بالنزف فسيحصل على العفو وغفران الخطايا [**تعالوا نتحاجج يقول الربّ: إنه ولو كانت خطاياكم كالقرمز تبيضّ كالثلج ولو كانت حمراء كصبغ الدود تصير كالصوف**] (إشعيا 1، 18). من يحلم بأفعى فإن بقاءه حياً سيكون مضموناً، وإذا ما لسعته الأفعى فإن عمره سيتضاعف، وإذا قتل الأفعى فسيفقد حياته. الحلم بالسوائل فأل سيئ، باستثناء الخمر. من يحلم بأي حيوان فهذا فأل حسن، باستثناء الفيل، القرد، أنثى الشامبانزي ذات الذيل الطويل. لكن أحد الدكاترة قال: من يحلم بالفيل فسيرى عجائب لصالحه. لا تناقض في حال مشاهدة الفيل واقفاً أم ماشياً. الحلم بآلة حديد فأل حسن، باستثناء المجرفة، المعول، الفراعة. الحلم بأي ثمرة فأل حسن، باستثناء التمر الذي لم ينضج بعد (الفج). الحلم بجميع أنواع الخضار فأل حسن باستثناء الملفوف. الحلم بالألوان فأل حسن، باستثناء الأزرق، الحلم بالطيور فأل حسن عدا البوم، والخفاش.

إذا حلم أحدهم بأن في بيته جثة، فالبيت سيكون آمناً، وإذا شوهدت الجثة في الحلم تأكل وتشرب، فهذا فأل سعيد للبيت، ومن التعاسة إذا ما أخذت الجثة إحدى أدوات المطبخ، هنا ستحصل جنازة أو موت أحد أفراد البيت.

5 ـ الخرافات

أدان الحاخامات عدداً كبيراً من العادات، بوصفها تابعة لسلوك العموريين «أي

بمثابة ممارسات وثنية لا يسمح لليهودي قبولها». إن ذكرها بشكل خاص، يبرهن أن بعض الجماعات اليهودية كانت قد تشبعت بها. من بين الطرق الآمورية ما يلي: أم تقود ابنها بين الأموات (في أحد المقابر). رجل يربط وسادة على وركه، أو يلف خيطاً أحمر حول إصبعه. يحصي الحصى الصغيرة ويلقيها في البحر أو في مجرى ماء. يلطم على وركيه بجمع كفِّه، ويرقص أمام ألسنة النيران. تؤخذ منه قطعة خبز ويقول: «أعيدوها لي حتى لا ينقلب حظي». يقول: «اتركوا المصباح على الأرض حتى لا يضطرب الأموات بسببه. أو لا تتركوا أبداً مصباحاً على الأرض كي لا ينزعج الأموات منه». إذا تطايرت شرارة من المصباح يقول: «سيكون لدينا اليوم زوَّار». عندما يذهب للعمل يقول: «ليأت من له يدان نشيطتان وليبدأ بالعمل» أو: «ليمر أمامنا فلان ذو الخطى السريعة. عندما يذهب ليفتح وعاء الزيت (الدَّن) أو ليعجن يقول: ليأت صاحب اليدين المباركتين وليعجن».

يسدُّ النافذة بالشوك، ويغرز المسامير في قوائم السرير، عندما تكون امرأة على وشك الولادة، أو ينثر الضحية أمامها. غير أنه من المسموح سد النافذة بالأغطية أو بحزم القش، ووضع إناء مملوء بالماء مقابل المريضة، وربط الدجاجة بها كي تبقى معها. سيقول أحد الرجال: «ارجموا بالحجارة الديك الذي يصيح عند المساء، أو الدجاجة التي تغني مثل الديك. أطعموا عرف الديك إلى تلك الدجاجة ولتغني مثل الديك بعد ذلك». إذا جاء غراب لينعق «اصرخ»: «ارجع من حيث أتيت». يقول أيضاً: «كلْ من هذا الخس، كي تشبهني» أو «لا تأكل منه لأنه يسبب لك العمى». قبِّل نعش ميت لتراه، أو قبله كي لا يظهر لك أثناء الليل. اقلب قميصك، كي تراودك الأحلام، أو اتركه في مكانه حتى لا تحلم بشيء. اجلس على المكنسة حتى تراودك الأحلام، أو لا تجلس عليها حتى لا تحلم ليلاً. اجلس على المحراث كي لا يصبح العمل شاقاً أو لا تجلس عليه كي لا ينكسر (لأننا نريد استعمالها).

قال رجل: لا تضم يديك خلف ظهرك، كي لا يتعقَّد عملنا أبداً. يطفئ الحريق قرب الجدار وينادي حريق. قد يكون العمل مسموحاً به، إذا كان النداء يهدف إلى تنبيه الناس وتحذيرهم من خطر الحريق. يحمل الماء على الطريق العام وينادي «حريق»، يمكن قول ذلك إذا كان الهدف تنبيه المارة بعدم التزاحم.

يلقي بقطعة من الحديد، حول القبور (المسكونة بالجن)؛ للوقاية من السحر، يضع

تحت رأسه عندما ينام قطعة من الخشب أو من الحديد، يمكنه فعل ذلك دائماً من أجل المحافظة على أمتعته من السرقة.

تصرخ امرأة قرب الفرن حتى لا يسقط اللحم الذي يُشوى فيه، أو أن تضع قطعاً من الخشب في قبضة الوعاء (القدر) كي لا يفيض محتواه ولا يغلي. غير أنه مسموح وضع قطعة من شجر التوت أو من الزجاج في القدر ليغلي بسرعة. بيد أن الحاخامات يمنعون استعمال الزجاج لأنه خطر ويسبب الموت.

تطلب المرأة التزام الصمت من الموجودين في الغرفة، كي تطهو حبات العدس بسرعة، أو تصرخ بالرز كي يطهى بسرعة، أو تصفّق بيديها ليتوهج المصباح بشكل أفضل.

عندما تسقط أفعى على سرير، فإن أحدهم سيقول: مالك السرير فقير وسيصبح غنياً، إذا كان المالك امرأة حامل، فيقال إنها ستنجب صبياً، وإذا كانت فتاة فسوف تتزوج رجلاً رفيع الشأن.

تريد امرأة أن تحضن دجاجاتها البيض. تقول: لا أضع الدجاجة على البيض زوجاً زوجاً. رجل على أهبة الزواج يقول: يجب أن أكون زوجاً، رجل يريد إرسال عميل إلى مكان ما، يقول الشيء نفسه.

سيقال أيضاً: أضف صحناً إلى المائدة (لأن ذلك يجلب السعادة) عندما يفقس البيض وتخرج الفراخ، تضع المرأة قشور البيض والتبن على جدار عالٍ وتغطيها بالجبس، ثم تعد من واحد إلى سبعة (أو من واحد إلى سبعين) عندها تنمو الفراخ جيداً. ستضع الفراخ في الحظيرة نهاراً، وتضع في وسطهم قطعة حديد، إذا فعلت هكذا سوف تقيهم من البرق والصواعق.

طرق آمورية أخرى ممنوعة أيضاً: يسأل أحدهم عصاه: هل أذهب أم لا؟ يصرخ: «بصحتك» عندما يعطي شخص آخر. بعض السلطات لا تستنكر هذا الهتاف إلا في بيت الدراسة لتعكير صفو التعليم. يصرخ أيضاً: «خيرٌ وفيرٌ الآن، وقليل بعد ذلك» (عندما يتعلق الأمر بالثروات التي نملكها). أو: الشرب منه وترك القليل أو: لو، لو (تعني لا، لا، اسمعوا هذا لن يأتي أبداً). أو: لا تمر بيننا كي لا تنتهي صداقتنا.

في العديد من هذه الاحتمالات، تكون النيَّة هي المحددة للفعل، وكمقياس للحكم المبرم. يمنع الحاخامات هذه الأعمال إذا كانت بمثابة خرافة أو سحر. في الحقبة

الحاخامية الأولى كان هذا المنع مطبقاً بشكل واضح. مثال: يمكن للناس الخروج يوم السبت مصطحبين معهم بيضة جرادة، لوقاية أنفسهم من ألم الأذن، أو اصطحاب سن كلب (السن من كلب حي علاج مضاد للخمول، وسن الكلب الميت علاج مضاد للأرق)، أو حبل مشنقة استخدمه أحدهم لشنق نفسه (هذا الحبل علاج مضاد للحمى). هذا ما يقوله الحاخام مئير، غير أن الحاخامات يمنعون ذلك حتى في بقية أيام الأسبوع. لأن هذا المنع مخالف للطرق التي يتبعها الآموريون. لقد فرضت السلطة هذا التمييز كقاعدة عامة. «كل ما يستعمل للعلاج أو الشفاء، لا يمكن تصنيفه ضمن الطرق الآمورية والعكس صحيح».

نصادف أحياناً كثيرة، نفوراً من الأعداد الزوجية المبنية على أسس خرافية، إليكم هذا النصح:

على الإنسان أن لا يشرب أو يأكل بصحبة شخصين، عليه أن لا يمسح مرتين أو يقضي حاجته مرتين أو إحداهما قريبة جداً من الأخرى، إذا شرب عدداً زوجياً من كؤوس النبيذ، فإن دمه سيصعد إلى رأسه. هذا ليس صحيحاً إلا عندما لا ينظر إلى الشارع. إذا ما نظر إلى الشارع، فباستطاعته شرب أعداد زوجية من كؤوس النبيذ. ليس صحيحاً أيضاً إذا ما وقف بعد أن شرب عدداً مزدوجاً، أما إذا ظلّ جالساً، فلا اعتراض. يقول حاخامات آخرون، إن النوم أو الذهاب إلى بيت الراحة يعادل في هذا المجال الخروج، ويضيف أحدهم، أن العدد عشرة هو استثناء بين الأعداد المزدوجة (الزوجية).

إليكم ما يرويه أحد الحاخامات: قال لي الشيطان جوزيف، إن «أسمودي» ملك الجن مكلف بكل ما يخص الأعداد الزوجية؛ لكن، الملك غير قلق على فعل الخطأ. علينا عدم الاهتمام بهذه الأعداد. إن هذا يعارض رأي الزملاء الذين كانوا يقولون: «بالعكس، الملك يفعل ما يريد؛ يمكنه كسر الحواجز ليصنع لنفسه طريقاً ولا أحد قادر على منعه من ذلك». لكن يعلموننا أن الناس في فلسطين لا ينتبهون للأعداد الزوجية. تحديد آخر: «بالنسبة للأطعمة والخبز، فلا وجود لخطر الأعداد الزوجية». إليكم القاعدة العامة: بالنسبة للأشياء التي تصنعها يد الإنسان، فلا خطر من الأعداد الزوجية، بل الخطر ضمن الأشياء التي يعود وجودها إلى يد السماء» (مثال ذلك نضج الثمار).

تتعلق الخرافة بواقع المرور بين شخصين أو شيئين. من غير المسموح به المرور بين

شخصين أو بين اثنين من ثلاثة، تحدد هذه العبارة على النحو التالي: كلب، شجرة نخيل، امرأة. البعض يضيف الخنزير والأفعى. إذا حصل ذلك فكيف يمكن معالجته؟ على من فعل ذلك أن يبدأ وينتهي بالله أو بـ لا (لأن آيات التوراة تبدأ وتنتهي بهما). عندما تمر امرأة في حالة طمث بين رجلين، إذا كانت في بدء دورتها فإن أحد الرجلين سيموت؛ وإذا كانت في نهايتها فإنها تخلق مشاجرة بين الرجلين. ما العمل؟ «لتبدأ وينتهي بذكر الله». إذا كانت امرأتان جالستين على مفرق طرق، كل منهما على جانب، تنظر إحداهما للأخرى، فمن المؤكد أنهما تقومان بأعمال السحر. كيف يمكن معالجة ذلك؟ إذا كان هناك طريق آخر، عليك سلوكه، وإذا لم يكن من طريق، وإن كان أحد يرافقك، فامسكا بيديكما واعبرا الطريق، لكن إذا كنت وحيداً: اصرخ: أعزات، أزلات، أوسيا وبلوسيا (اسم شيطان) هؤلاء قُتلوا بطعنات أسهم.

رقية أخرى تقي من السحر، أعطاها أحد الحاخاميين الذي أوضح: «قالت لي زعيمة الساحرات: إذا ما صادف إنسان سحرة عليه القول: أيها السحرة: البراز الساخن لأفواهكم في سلة مكسورة، لتكن رؤوسكم صلعاء، ولتأخذ الريح بقاياكم، وتبعثر مركباتكم، ولتذر الرياح العاصفة الزعفران الطري من براعمه (الزعفران الذي يستخدم لصباغة الشعر). أيها السحرة، ما دام الله يشهد معي ويؤيدني، وأنني دائماً على حذر، فلن أمرَّ بينكم، والآن أراني أفعل، افقدوا شعركم أمامي، وأنا سأبقى حذراً يقظاً».

إن مصادفة النساء أو الالتقاء بهن خطر أيضاً عندما يكنّ على تماس مع الأموات. يقول الحاخام يشوع بن لافي: ثلاثة أشياء جعلتني على اتصال مع ملاك الموت: لا تأخذ قميصك عند الصباح من يدي الخادم لتلبسه، لا تدع من لا يغسل يديه أن يغسل يديك؛ لا تقف مع النساء وهنّ عائدات من جنازة ميت، لأنني أنطلق، وأسبقهن وسيفي بيدي، ولديّ السماح بالقتل والتدمير. إذا التقى أحدهم بهؤلاء النسوة، ما العمل؟ ليبتعد مسافة أربعة أذرع منهن، وإذا كان هناك منفذ ما، ليلتفت جانباً ويقول: [**فقال الرب للشيطان لينتهرك الرب يا شيطان. لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم، أليس هذا شعلة مُنتشلة من النار**] (زكريا 3، 2) ليقل ذلك حتى تنتهي النسوة من العبور.

كان الفأل الخرافي يتزايد باستمرار، خصوصاً عند الإشارة للمصير الذي ينتظر

شخصاً ما. «إذا أراد أحدهم معرفة ما إذا كان سيعيش السنة بكاملها أم لا، فليشعل قنديلاً طوال الأيام المحصورة بين اليوم الأول من العام ويوم التكفير، في غرفة لا يوجد فيها شيء للشرب. إذا استمر القنديل مشتعلاً حتى نفاد الزيت، فإن الرجل سيعيش طول العام. وعندما يريد أحدهم الشروع بعمل ويريد معرفة ما إذا كان سينجح أولاً، عليه اقتناء ديك، فإذا اكتنز الديك لحماً وشحماً، فإن العمل المشروع سيفعل الشيء نفسه. إذا رغب أحدهم الذهاب في رحلة، ويريد معرفة ما إذا كان سيعود سالماً إلى منزله، ليقف في غرفة مظلمة، إذا رأى ظلاً لظله، فمعنى ذلك أن سيعود سالماً. لكن هذه العلامة ليست مؤكدة النجاح، وإذا لم يرَ الظل، فيصاب بخيبة أمل ويوجِّه ثروته نحو مكان أكثر ضرراً (تجنبوا استعمال هذه الطريقة).

بغية خداع المصير (الحظ)، أو التأثير عليه، فهناك وسائل كثيرة لذلك. مثلاً كأن يُبدِّل اسم الشخص أو مكان إقامته، مضلِّلين بذلك القوى التي تنوي له شراً. «تبديل الاسم وتبديل المكان، يعدان ضمن الأشياء التي تسمح بإبعاد القرار الإلهي».

من قاسى من الحظ السيئ في مكان ما، ولا يريد الابتعاد عنه «يمكنه الصراخ، دون أن يجيبه أحداً». «على الشخص المريض أن لا يعلم أحد بمرضه في اليوم الأول، كي لا يجلب لنفسه الحظ السيئ، لكنه باستطاعته إعلام غيره فيما بعد». بما أنه أعلن بإشارات خاصة عن الحقائق، فيمكنه أن يأكل القرع في رأس السنة، الحُلبة، الكراث، الشوندر، التمر. جميع هذه الأشياء القابلة للأكل، تتمتع بنمو سريع، يكون استهلاكها في رأس السنة كل واحد حسب السحر المقيَّد به، وسيضاعف بذلك من عدد أملاكه خلال السنة. يجب تجنب اجتذاب الحظ السيئ باستعمال الألفاظ التي تتنبأ عن البؤس: يقول التلمود: «على الإنسان أن لا يفتح فمه للشيطان».

وقال آخر: «إذا أنَّت الكلاب (عواء غير طبيعي) فهذا نذير بأن ملاك الموت دخل المدينة. وإذا لعبت ومرحت، شرط أن يكون بينهم كلبة، فهذه علامة تظهر أن إيليا النبي دخل المدينة».

لدى فعل بعض الأشياء التي يجب علينا الابتعاد عنها، فإننا نجلب الفقر لأنفسنا: «تعليق سلة تحوي مواد غذائية قليلة، لأن المثل يقول: من يعلق سلة مؤونة في الهواء فإنه يوقف مؤونته». هذا لا يطبَّق إلا على الخبز؛ أما بالنسبة لسلال اللحم أو السمك، فلا خلاف في ذلك، لكونها عادة النخالة منتشرة في منازل الفقراء. فتات الخبز حول

البيوت يجلب لأصحابها الفقر، لأنه في عشية الأربعاء والسبت تتهافت الأرواح الشريرة عليها.

الخوف، المنتشر في كل مكان، من ترك قلامات الأظفار، ليس مجهولاً من التلمود: «من يمُضِ الليل في مقبرة، أو يقلّم أظفاره ويرمِ نفاياتها في الطريق العام، فإنه يخاطر بحياته، وسيصعد دمه إلى رأسه». يبدو هنا أن الخطر يهدد من كان مهملاً في هذا المجال، لكنه يُعطى سبباً مختلفاً. «قيل عن أظافر أصابعنا ثلاثة أشياء: من يدفن القصاصات فهو عادل وصالح، ومن يحرقها فهو نقي، ومن يرمِ بها في المنزل أو الطريق العام، فهو أخرق، ومهدد بأن تأتي امرأة حامل وتدوس على قدميه وتضاب بالإجهاض».

المدربون هم الأعضاء المحترمون في الجماعة، يتميزون بذاكرة طيبة، فمن الواجب التنبه إلى أن هذا التبجيل قد يؤدي إلى تشجيع الخرافات. خمسة أشياء تجعلنا ننسى ما تعلمناه: أكل طعام قضمته الفئران أو الهررة، أكل قلب حيوان، تناول الزيتون يومياً، شرب الماء من مكان غسل أحدهم قدمه فيه. وخمسة أشياء تعيد لنا ما تعلمناه: الخبز المشوي على الفحم، البيض النيء دون ملح، الاستعمال الدائم لزيت الزيتون كشراب، وكذلك النبيذ المعطر، وشرب الماء الذي يبقى على نهاية الأصابع.

عشرة أشياء تعوق الدراسات المنشطة للذاكرة: المرور بالقرب من جمل، المرور بين جملين أو امرأتين أو تكون واحداً من اثنين مرت بينهما امرأة، المرور من جانب الأماكن الوسخة والجيف، المرور من تحت جسر لم يجر الماء تحته منذ أربعين سنة، أكل الخبز بالمغرفة، شرب الماء من مجرى يمر في مقبرة، النظر إلى جثة وجهاً لوجه، يضيف البعض: قراءة شواهد القبور.

الفصل العاشر

القانون

آ ـ قانون جنائي؛ دعوى مدنية وجنائية

1 ـ المحاكم

بحسب معطيات التلمود الواضحة، فقد وُجدت في فترة الهدم الثاني للهيكل والدولة، منظومة عضوية تسيِّر أمور العدالة بين اليهود القدماء؛ كانت تَبتُّ في المسائل المتعلقة بالأمور الدينية، والمخالفات، والخروقات القانونية، وتسوَّى فيها الشكاوي والاعتراضات. ويذهب التلمود إلى أبعد من ذلك؛ إذ يؤرخ هذا التنظيم منذ البدايات الأولى للحياة القومية. «هناك تتابُع في سير العدالة منذ عهد موسى». يذكر أن بعض المحاكم كانت ترأسها شخصيات هامة مرموقة منذ العهود التوراتية، صعوداً حتى كامل الشعوب السامية. «إن روح القدس يسطع على بيت الدين (بيت العدالة). لـ سام، صموئيل، سليمان. قيل: منذ أرسل الرب يروبعل، بيدان، وجيفتي. وقيل أيضاً: [**موسى وهرون بين كهنته وصموئيل بين الذين يدعون باسمه. كانو يدعون الرب فيستجيب لهم**] (مزمور 98، 6). يضع الكتاب المقدس (التوراة) ثلاث شخصيات أقل منزلة بين ثلاثة رجال من هذا العالم، لتعلم أن غرفة القضاء (بيت الدين) التابعة لـ «يروبعل» هو أيضاً هام أمام العلي القدير كأهمية بيت موسى، وأن بيت جيفتي مساوٍ من حيث الأهمية لبيت صموئيل.

من عادة التلمود أن يُسند إلى عهد موسى، معاهد أو مؤسسات يضيع أصلها في ضباب الماضي. كذلك فإن الأزمنة القديمة التي أسندت إليها المنظومة العدلية اليهودية، ما تزال غير قابلة للإثبات، مع أنه ورد في سفر تثنية الاشتراع 16، 18[**إجعلْ لك قضاةً وحكاماً في جميع مدنك التي يعطيكها الرب إلهك بحسب أسباطك يحكمون فيما بين الشعب حكماً عادلاً**]. نجد أنفسنا على أرضية صلبة عندما

ستدرس المحكمة العليا المعروفة باسم «سانهيدرين» (كلمة من أصول يونانية). عندما أعاد عزرا تنظيم الجماعة وجعل من التورا أساس الحياة، شعرتا بالضرورة الملحة لهيئة شرعية تنظم الدعاوي التي ستحدث. عُرضت هذه المهمة في رسالة «آرتا كسيرسيس» [**وأنت يا عزرا بحسب حكمة إلهك التي معك أقم قضاة وحكاماً يقضون بين جميع الشعب الذين في عبر النهر من كل من يعلمُ شرائعَ إلهك ومن لا يعلمُ فعلِّموه**] (عزرا 7، 25).

ومن المحتمل أن «أقطاب الكنيس (كنيس هاجدولا أو الكنيس الكبير»)النموذج للمجلس الأعلى الذي سيشرِّع للشعب ويحكم في القضايا الهامة. فقد ورد في سفر دانيال 6، 1: [**وحَسُنَ لدى داريوس أن يقيم على المملكة مئة وعشرين قطباً يكونون على المملكة كلها، وعلى هؤلاء ثلاثة وزراء أحدهم دانيال ليؤدي الأقطاب إليهم الحساب فلا يلحق الملك ضررٌ**]. احتفظ التلمود بتقليد يكون بموجبه بيت دينٍ للهسمونيين (أي الأمراء المكابيين في القرن الثاني ق.م).

وكثيراً ما كانت تتردد في كتابات جوزيف كلمة السانهيدرين (المحكمة العليا)، دون أن تتطابق مع المعطيات الموجودة في الأدب التلمودي. فقد استنتج بعض علماء المسيحيين أمثال «شورر» أن الرواية التلمودية لا يمكن أن تكون تاريخية، بل تصنَّف بأنها خيالية صدرت عن مؤسسة اختفت منذ زمن طويل. فهم يعتبرون أن الحاخامات قد نسبوا إلى المحكمة العليا سلطات والتزامات، لم تكن في الواقع معدَّةً لهم. وبالمقابل فإن بعض المؤلفين اليهود الذين لديهم جزء من المصداقية يدافعون عن الرواية التاريخية التي هي موضوع الخلاف. وينوِّهون بأن التناقضات بين جوزيف والتلمود تجد حلاً لها بقبول أن التلمود كان يقصد اثنين من السنهدرين متميزين يعملان جنباً إلى جنب، الأول: بصفة سياسية والثاني بصبغة دينية.

ومهما يكن، فلا يهمَّنا من هذا المؤلَّف سوى وصف المحاكم، كما يقدمها الأدب الحاخامي. إليكم نصاً هاماً حول هذا الموضوع: «أولاً، لم يُبتّ في النزاعات بين اليهود إلا من قبل محكمة مؤلفة من واحد وسبعين عضواً يجتمعون في غرفة من الحجر المنحوت، ومن قبل محاكم أخرى مؤلفة من ثلاثة وعشرين، يجتمعون في مدن فلسطين، ومحاكم أخرى مؤلفة من ثلاثة أعضاء. في القدس، كانت تُعقد ثلاث محاكم: واحدة في غرفة من الحجر المنحوت، والثانية على جبل الهيكل، والثالثة في

«خيل» (وسط الهيكل) [**كان في المعبد ثلاث فناءات للمحاكم، الأول حول محيط جبل الهيكل، الثاني في مدخل سور الهيكل، ويسمى «خيل». والثالث في غرفة من الحجر المنحوت**]. من أجل الحصول على «الهالاخا» (الإقرار الديني أو المدني)، يتوجه الطالب إلى محكمة مدينته، وإذا لم يكن ذلك من اختصاص مدينته، عليه التوجه لمدينة أخرى يكون من مهامها النظر في قضيته. إذ عرف القضاة ما هي «الهالاخا» أو النص القانوني، فإنهم يعطون الحكم، وفي الحالة المعاكسة إذا لم يكن من تطبيق قانوني، فإن الطالب يتوجه إلى خبير محكمة جبل الهيكل، إذا عرف القضاة الجدد «الهالاخا» فإنهم يعطونه النص، وإلا يقوم المعنيان بمتابعة الالتماس أمام محكمة «خيل». وباستطاعتهم اللجوء إلى المحكمة العليا في غرفة الحجر، إذا لم تتمكن محكمة «خيل» من البت في القضية.

يستنتج من ذلك: أن هناك ثلاث درجات للقضاء: محكمة من ثلاثة أعضاء، ومحكمة من ثلاثة وعشرين قاضياً، ومحكمة عليا من واحد وسبعين قاضياً. يقوم القضاة وفي جميع الأمكنة بوظيفة قضاة، ولجنة قضائية، مكلفة في الدرجة الأولى بشرح وتوضيح المسائل المتعلقة بالممارسة الدينية، ويفصُلون فيها بالمجالين الديني والجنائي».

المحكمة العليا الكبرى: (السنهدرين)

ذكر سابقاً أن المحكمة العليا سلطة سياسية، تتمتع بصفة صدوقية (كهنوتية) بشكل رئيسي؛ يُنتقى أعضاؤها من الأسر الكهنوتية والأرستقراطية. وهناك ذكر واضح إلى «بيت دين الصدوقيين». لكن مهام ووظائف هذه المحكمة نادرة في التعليمات التلمودية، كونها سلطة دينية، وإن سلطات ومسؤوليات المحكمة العليا كانت كبيرة جداً. «عشيرة (منغمسة في عبادة الأوثان)، نبي كذاب وكاهن كبير هي من اختصاص المحكمة المؤلفة من واحد وسبعين قاضياً. وهي التي تقرر مقدار مساحة الأرض التي أن تضاف إلى وسط القدس أو جدران الهيكل، وهي تعين أعضاء المحكمة العليا (المؤلفة من ثلاثة وعشرين عضواً) الخاصة بالعشائر [**اجعل لك قضاة وحكاماً في جميع مدنك التي يعطيكها الرب إلهك بحسب أسباطك يحكمون فيما بين الشعب حكماً عادلاً، لا تجوروا في الحكم ولا تحابوا الوجوه ولا تأخذوا رشوة لأن الرشوة تعمي أبصار الحكماء وتحرف أقوال الصدِّيقين، واتَّبع الحق لكي تحيا وتملك**

الأرض التي يعطيها الرب إلهك] تثنية الاشتراع (16، 18 - 19 - 20).

فهي تنطق بالحكم ضد كل هيئة أو مجموعة متهمة بعبادة الأوثان. إعلان الحرب طوعاً، لا يصدر إلا عن المحكمة العليا (واحد وسبعين). من أين أتى هذا العدد من أعضائها؟ مكتوب: [**فقال الرب لموسى اجمع لي سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعُرفاؤهم وخذهم إلى خباء المحضر فيقفوا ثمَّ معك، فأنزلُ أنا وأتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأُحلُّه عليهم فيحملون معك أثقال الشعب ولا تحمل أنت وحدك**] (العدد 11، 16 - 17).

إليكم كيف يعلِّموننا تأليف، وتركيب، ومهام المحكمة العليا الكبرى.

«المقاعد مرتبة على شكل نصف دائري، تمكن كل عضو من رؤية الآخرين جميعاً. يجلس الرئيس في المركز، على يمينه ويساره الأعضاء الأكبر سناً، صفوفاً حسب السن. اثنان من أمناء السر يقفان أمامهم الأول على اليمين، والثاني على اليسار؛ يجمعون الأصوات من الذين ينطقون بحكم العفو، ومن الذين ينطقون بحكم الإدانة. يقول الحاخام جودا: أن عددهم كان ثلاثة، إلى جانب الاثنين اللذين تكلمنا عنهما سابقاً، هناك ثالث يجمع مجمل الأصوات. وبالمقابل يجلس أمامهم ثلاثة صفوف من التلاميذ العقلاء، لكل منهم مكانه الشخصي، إذا كان من ضرورة لتعيين واحد منهم لإكمال عدد القضاة الموجودين كانت المحكمة العليا تختار واحداً من الجالسين في الصف الأول، ويأتي مكانه أحد الجالسين في الصف الثاني، والذي بدوره يحل مكانه واحد من الصف الثالث. أخيراً، كان القضاة يعينون واحداً من الحضور ليجلس في الصف الثالث، دون أن يحل مكانه الذي انتقل إلى الصف الثاني. لكن مع الاحتفاظ بوضعه.

من بين الإحدى وسبعين عضواً من هيئة المحكمة، يجب على ثلاثة وعشرين منهم أن يكونوا حاضرين. لا يحق لأحد منهم المغادرة حتى ولو للحظة دون التأكد أن هذا العدد سيبقى مضموناً إن ظل خارجاً.

يبقى الاجتماع مستمراً من محرقة التضحية الصباحية حتى المحرقة المسائية. أما في أيام السبت والأعياد، فهم لا يجتمعون إلا في بيت الدراسة على جبل الهيكل. إذا عُرضت عليهم مسألة ما، ووجدوا لها النص القانوني (الهالاخا)، فيعلنون عندها حكمهم، وإلا، يتم طلب الحكم بالتصويت، فإذا اعتبرت الأغلبية أن الفعل المناقش

كان ممنوعاً أو محرماً، عندها تنطق هيئة الحكم (بالهالاخا) في هذا المعنى أو بالعكس. تنتشر المحكمة العليا (الهالاخا) في أنحاء البلاد. عندما كان تلامذة هلّيل وشامّاي غير متخصصين بالتورا، فقد حصل تعدد في المواضيع الواجب شرجها بين اليهود. لهذا قامت هيئة القضاة بالبحث بين الرجال المثقفين المتواضعين، الذين يخشون الخطيئة، وذوي الشهرة الحسنة، والمقبولين من مواطنيهم، لتعيينهم قضاةً، كل في مدينته. من هنا، جاءت إمكانية ترفيعهم إلى هيئة قضاة جبل الهيكل، ثم إلى هيئة قضاة «خيل»، وأخيراً إلى هيئة قضاة غرفة الحجر المنحوت.

واجب هام يؤول بأهميته إلى أعضاء المحكمة العليا، ويقضي بامتحان المرشحين القابلين للخدمة الكهنوتية، واستبعاد الذين لا يؤهلهم نسبهم غير الصافي.

وفي منتصف القرن الأول ق.م، وضع القائد الروماني «جابينيوس» نهاية لسلطة المحكمة العليا الكبرى (السانهدرين). وقسم فلسطين إلى خمس مقاطعات، وعين خمس هيئات اختارها بنفسه، لحكم الشعب؛ الأولى في القدس، والثانية في «غادارا» والثالثة في «أمات» والرابعة في أريحا، والخامسة في سقوّرية في الجليل.

لقد ورد اسم محكمة عليا في «أمات» في التلمود، ولكن سلطتها الدينية والدنيوية كانت في القدس. وبدأت هذه السلطة بالأفول والاضمحلال حوالي 20 ـ 30م. وهذا ما يشهد به التلمود. «كانت السانهدرين (المحكمة العليا) قبل أربعين عاماً من تدمير الهيكل مُبعدة عن غرفة الحجر المنحوت، حيث كانت تعقد جلساتها في مكان تجاري كبير على جبل الهيكل. حافظت على وجودها في ظل هيئة متفاوتة العدد حتى نهاية القرن الرابع». لقد تعرض مكان المحكمة العليا للتغيير سبع مرات من مكانه: من غرفة الحجر في المحل التجاري إلى داخل مدينة القدس، ومن هناك إلى «يابني» ومن يابني إلى أوشا؛ ومن أوشا إلى يابني مجدداً؛ ثم إلى أوشا، ثم إلى شفا عمرو، ومن هناك إلى «بيت شيعاريم»، ثم إلى سيفوريس وأخيراً إلى طبريا.

المحاكم القمعية:

تُعتبر الاتهامات في الجرائم الجنائية من صلاحيات هيئة قضاة مؤلفة من ثلاثة وعشرين قاضياً. مثال: إذا كانت (امرأة على علاقة غير طبيعية مع حيوان، فهما معرضان للفحص من هيئة القضاة الثلاثة والعشرين) وكما قيل: **[وإن تقدمت امرأة**

إلى بهيمة لتنزُوَها فاقتلِ المرأة والبهيمة إنهما تُقتلان قتلاً دمهما عليهما] (أحبار 20، 16). **[وإن غشيَ رجلٌ بهيمةً فليقتل قتلاً والبهيمةَ أيضاً فاقتلوها]** (أحبار 20، 15).

إذا نطح ثور أحداً بقرنيه فهذا يعود لهيئة ثلاثة وعشرين، التي تبتُّ لصالح أو ضد الرجم، كما هو مكتوب: **[فإن كان ثوراً نطَّاحاً من أمس فما قبل فأُشهِدَ على صاحبه ولم يضبطه وقتل رجلاً أو امرأة فليرجم الثور وصاحبه أيضاً يُقتل]**. (خروج 21، 26). وبما أن الحكم بالموت على صاحب الثور لا يمكن أن يقرر إلا من هيئة الثلاث والعشرين قاضياً، كذلك بالنسبة لثور، ذئب، دب، فهد، ضبع، القرد لا يُحكم عليهم بالموت إلا من قبل هذه الهيئة. كان الحاخام اليعازر يقول: «من يقوم بفعل أهل للتقدير، هو من يقتلهم دون محاكمة، في أول فرصة سانحة». لكن الحاخام عقبة يبقي عقوبة الحكم بالموت من قبل المحكمة.

لماذا عدد أعضاء هيئة المحكمة العليا المصغَّرة ثلاثة وعشرون؛ قيل: «المجلس سيحكم، والمجلس سيبرئ». المجلس يحكم ويدين، والمجلس يخلص أو يبرِّئ. توجد مجموعة من عشرين قاضياً. لكن لماذا كلمة مجلس التي تضم عشرة قضاة؟». قيل: **[في هذا البرِّ تسقط جثثكم كل الممدودين منكم بحسب عددكم من ابن عشرين فصاعداً الذين تذمَّروا عليَّ]** (أعدد 14 ,29) الأمر هنا يتعلق باثني عشر جاسوساً باستثناء يهوذا وكالب. هكذا تكون المجموعة مؤلفة من عشرة رجال.

لماذا إضافة ثلاثة إلى العشرين؟ هذا يأتي من النص الذي يقول: **[لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر ولا تُحرِّف في جوابك في الدعاوي مائلاً جهة الكثيرين]** (خروج 23، 2). أقصد أنني أقدر على الامتناع أيضاً من أجل فعل الخير (العفو)؛ عندئذ ماذا تعني الآية السابقة؟ إن الأغلبية المطلوبة للبراءة ليست نفسها المطلوبة للإدانة. بالنسبة للحالة الأولى، تكفي الأغلبية بصوت واحد، وبالنسبة للإدانة يجب توفر الأغلبية بأكثر من اثنين.

من هنا يأتي المجموع اثنان وعشرون. ولتجنب المساواة في الأصوات لدى هيئة المحكمة، يضاف إليها عضو واحد، وهكذا تصبح المجموعة ثلاثة وعشرين. ما هو عدد سكان المحلة (البلدة، المدينة) ليكون لها ممثل في المحكمة العليا؟ مئة وعشرون. يقول الحاخام نحيمي مئتان وثلاثون، يرشح من كل عشيرة قاضٍ **[وأنت فانظر من جميع الشعب أناساً أقوياء أتقياء لله مستقيمين يكرهون الطمع وولِّ منهم عليهم رؤساء**

فئات بين ألفٍ ومئة وخمسين وعشرة] (خروج 18، 21). وتقرَّر أخيراً لصالح المئة والعشرين.

المحكمة العليا الصغيرة مثل الكبيرة تحتوي على ثلاثة صفوف من التلامذة. وقد تناقصت صلاحيتها مع مرور الزمن. وخلال أربعين عاماً قبل خراب الهيكل، لم تصدر أحكاماً بالموت. في عهد شمعون بن شتاخ (الذي عاش في القرن الأول ق.م ويمكن أن يكون الاسم قد جرى عليه التصحيح حيث من المحتمل أن يكون «شمعون بن جوخاي» الذي عاش في عهد ادريان الروماني) سحبت منه جميع الدعاوي المدنية. إن الغاية النهائية للاستقلال الذاتي السياسي، قد أدَّى بالطبع إلى اختفاء القضاء الجنائي.

المحاكم المدنية:

انتشرت المحاكم من هذا النوع في عهد الهيكل الثاني في جميع المدن الفلسطينية، مع تنظيم الجلسات في أيام محدودة. كانت تعقد في «بيت دين المحلي» يومي الاثنين والخميس. هذه المحاكم لا تهتم بالمسائل الدينية فقط، بل بالشكاوي المسبِّبة للأضرار، وبذلك تتحدد المهام الخاصة لهذه المحكمة: هيئة محكمة من ثلاثة أعضاء للنظر في القضايا المدنية: السرقة، النشل، الاحتيال، التعديات الجسدية، التعويض الكامل عن الضرر أو التعويض عن نصف الضرر، تحديد مقدار الغرامة لتكون مضاعفةً أو أربعة إلى خمسة أمثال الخسارة **[إذا اعتدى ثور على أحدهم بالنطح في قرونه، فعلى صاحبه تعويض المتضرر النصف]**، وقيل أيضاً: **[إن وجدت السرقة في يده حية (موصوفة) من ثور أو حمار أو شاة فليعوض بدل الواحد اثنين]** (خروج 22، 4).

يضيف لها الحاخام مئير: الخطف، الإغواء، النميمة. لكن بعض الحاخاميين يقولون أن النميمة من اختصاص هيئة المحكمة المؤلفة من ثلاثة وعشرين عضواً لأن عقوبتها قد تصل إلى حد الموت **[وأي ابنة لرجل كاهن بذلت نفسها للفجور فقد فضحت أباها فلتُحرق بالنار]**. انقرضت الدولة، وبقيت هيئة الثلاثة، غير أنها أصبحت «محكمة تحكيم». إليكم شرحاً لكيفية تركيبها: «تتألف هيئة المحكمة من ثلاثة أعضاء، تنظر في القضايا المدنية». وكما يقول الحاخام مائير: يختار كل طرف قاضياً، والاثنان يختاران قاضياً ثالثاً. يختار الحاخامات قاضٍ ثالث من القضاة الأولين. ويحق لكل طرف رفض القاضي الثالث. يقول مائير: يظن بعض الحاخامات أن هذا غير ممكن إلا بعد إثبات

صلة القرابة بين الحكَم الثالث وأحد المدَّعين، أو لعدم أهليته. لكن إذا كان رجلاً أهلاً وخبيراً فلا يمكن الطعن به.

على الطرفين توقيع صك مكتوب يُطلق عليه اسم «صك التراضي»، حيث يتم بواسطته الاتفاق على فصل القضية لقرار القضاة الثلاثة المختارين بهذه الطريقة.

تغيرت ممارسة الحالات المدروسة لأقل من ثلاثة قضاة. من جهة يتم الإعلان أنه إذا كان قاضيان يصرِّفان الشؤون المدنية، فإن قرارهم النهائي ليس صالحاً، وهذا رأي جميع السلطات، فهل الأمر يتعلق بقاضٍ واحد؟ لقد قيل: [**لا تحكم بمفردك، فلا أحد يقدر على ذلك عدا الإله الواحد**]. من جهة ثانية كلما أصبح الرجال الكفءُ نادرين، فيجب تخفيف وطأة القسوة الشرعية، ومن الناحية المدنية لدى وجود رجل مُعترف بخبرته علناً، فيمكن النظر في الدعوى دون الحاجة لمعاونين محلَّفين، طالما أن الطرفين اتفقا على قبول قراره.

أخيراً هناك «بيت دين» خاص مكلف بتسوية التقويم، وهي مسألة رئيسية وهامة للجماعة. تثبيت أيام الشهر عن غير طريق الحسابات أو المراقبة الفلكية. كان يجب حضور شهود عيان لتثبيت ظهور القمر الجديد، ومن واجب هيئة المحكمة تدقيق الشهادة. هل من الضروري إضافة عدة أيام للشهر أو للسنة؟ إضافة الشهر الثالث عشر مثلاً؟ كل هذا تقرره هيئة قضاة من ثلاثة أعضاء، هذا ما يقوله الحاخام مائير. أما الحاخام شمعون بن عمانوئيل فيقول: «تجري مناقشة القضية من قبل ثلاثة أعضاء قد يصلون إلى خمسة أو سبعة؛ بيد أنه، لو قرَّر الأعضاء الثلاثة ذلك، فالإضافة للشهر أو السنة تكون مشروعة».

يتلقى رأي الحاخام شمعون الشرح التالي من الجمارا: «إذا أعلن أحد القضاة عن اجتماع ضروري وهام لمناقشة ضم الشهر الثالث عشر، وإذا صوَّت القاضيان الآخران باتجاه معاكس (معتبرين عدم الحاجة إلى الإضافة) فإن رأي الأقلية يسقط. وإذا أعلن قاضيان عن الجلسة الضرورية، وصوَّت ثالث بالنفي، فمن الضروري إضافة قاضيين آخرين لمعالجة المسألة. فإذا استقر رأي القاضيين على إضافة الشهر الثالث عشر، وعارض ثلاثة بالنفي عندها يسقط رأي الأقلية. إذا وافق ثلاثة ورفض اثنان، فمن الضروري زيادة عدد القضاة بقاضيين آخرين لأن القرار يجب أن لا يؤخذ بأقل من رأي سبعة قضاة».

إليكم الإجراءات في «بيت دين» المكلف بتثبيت عدد أيام الشهر: «كان في القدس هيئة محكمة واسعة تدعى «بيت يازبك» حيث يجتمع الشهود. هناك ويقومون بفحصهم، وطرح الأسئلة على الاثنين الأوائل. وكان يدخل للمحكمة الشاهد الأهم من بين شاهدين، ومن ثم يُسأل: قل لنا في أي مكان شاهدت القمر تجاه الشمس؟ كما كان ارتفاعه فوق الأفق؟ ما هي جهة ميلانه؟ ما هو عرض الهلال؟ إذا أجاب أنه قبالة الشمس، تُلغى شاهدته. عندها يدخل الشاهد الآخر، تطرح عليه الأسئلة نفسها، إذا كانت أجوبة أحدهما متطابقة مع أجوبة من سبقه، عندها تُقبل شهادته. وفيما بعد لا تدقق شهادات الآخرين إلا سريعاً لا لأن هذا الاختبار كان إجبارياً، بل لينصرفوا خائبين لأنه لم يصغ لهم، وحتى يعتادوا الحضور الدائم للشهادة، يقوم عندها رئيس (بيت - دين) بالنطق بهذه الكلمات: «الهلال مؤكد». يُجيب الشعب: مُكرَّس، مكرَّس».

2 - القضاة والشهود

كانت الصفات المطلوبة في القضاة، موضع اختيار دقيق وصارم، خاصة للمحاكم العليا. قاعدة عامة تقول: جميع اليهود القدامى يتمتعون بأهلية الحكم في الشأن المدني، لكن الأمور الجنائية تخضع لامتحان الكهنة، والأحبار، واليهود القدماء الذين يمكنهم تزويج بناتهم لأعضاء من الاكليروس، كونهم منحدرين من نسب يهودي قديم نقي. وبالنسبة للمتحولين أو المنقلبين لليهودية، إليكم ما ينص عليه القانون: الوثني المتحول إلى الدين اليهودي مقبول من التورا ليحاكم يهودياً آخر وثني الأصل. (في الجنائي كما المدني)؛ فإذا كانت أمه يهودية، فباستطاعته محاكمة اليهودي القديم. قاعدة عامة أخرى: يحق لأي فرد أن يحاكم في الجنائي والمدني، والبعض الآخر يحق لهم المحاكمة في المجال المدني دون الجنائي، فالمرأة مثلاً، لا يحق لها أن تكون شاهداً أو قاضياً.

كانت الشروط المطلوبة لممارسة العمل المكلف بالمسؤولية العليا كثيرة، يُعبَّر عن الشخص المثالي:

«لا يقبل في المحكمة العليا سوى الرجال ذوي القامة الطويلة، العقلاء الموهوبون، من هم بملامح الجلال والوقار، معلمين مجازين في الفنون السحرية، عارفين لسبعين لغة، كي لا يضطر قاضي المحكمة العليا الاستماع إلى شرح قضية من قبل مترجم». بما أنه يستحيل عدم تعيين أعضاء المحكمة العليا إلا من بين المتعددي اللغات الماهرين، كان يُسمح أن يتحدث بعض أعضائها بكل اللغات. أي محكمة عليا تضم شخصين يجيدان النطق بسبعين لغة، مفهومة لدى جميع أعضاء المحكمة تكون لها الأهلية لممارسة عملها. إذا وجد ثلاثة فإن المحكمة العليا متوسطة الأداء، وإن وُجد أربعة، فالمحكمة جيدة الأداء. بهذه الطريقة يتم الاستغناء عن المترجمين الذين لا ينتمون إلى المحكمة.

وبغية تلطيف العدالة بالرحمة، فقد كان مطلوباً إبعاد كل رجل خالٍ من المشاعر الإنسانية من المحكمة العليا. من هنا نأتي بالمثال التالي: لا يُقبل في المحكمة العليا: الشيخ العجوز، الخصي، والرجل الذي لا أولاد له، ويضيف الحاخام يهودا: ولا قساة القلوب. لم تكن الوظائف القضائية مأجورة: [**من يتقاضى أجراً للنظر في قضية فإن أحكامه ملغاة**]. (ميخا 4،6).

لقد ذكرنا سابقاً أهمية هذه المصلحة والمسؤولية الكبيرة التي تقع على عاتقها. ليس من حق أحد ممارستها بالنظر للشرف والتكريم المرتبطين بها؛ ومن ثم الهموم الشخصية والمضايقات الناتجة عنها، والتي يمكن أن تثني الكثير من المؤهلين عن شغل مراكزها. من يرفض ممارسة مهام القاضي يقِ نفسه من الحقد، السرقة، قسم اليمين، ومن يصدر التوقيفات باعتداد هو رجل طائش، خبيث، ونفسه متغطرسة.

تعطى بعض القواعد لتوجيه القضاة: «كن حذراً عند إصدار الحكم». بما أنكَ قاضٍ فلا تقم بعمل المحامي، ما دامت أطراف القضية تمثل أمامك فاعتبر الطرفين متّهمين، لكن بعد انسحابهما اعتبرهما بريئين حتى لو قبل الاثنان الحكم الصادر. تفحَّص بعناية فائقة الشهادات؛ ساعد الشهود بكلامك متجنباً كل ما يمكن أن يقودهم إلى التصريحات الكاذبة. لا تقل لزملائك: «اقبلوا وجهة نظري»، لأن القرار يعود لهم مجتمعين، وليس من حقّك الحصول على موافقتهم بالضغط والقوة.

لا يتعلق التمييز أو الكشف عن الحقيقة فقط بأهلية ونزاهة القضاة؛ فالثقة بالشهود من العوامل الضرورية والهامة للوصول إلى الحقيقة. لذلك يطلب القانون التلمودي من هؤلاء، أعلى درجات الدقة والمهارة. لن تكون أي شهادة مقبولة، إذا لم تأت من

شخص معروف بسلوكه الفاضل الجدير بالاحترام وترفعه وصدقه. ولا يتعلق الكشف عن الحقيقة بأهلية القاضي ونزاهته فقط؛ بل بالثقة التي يبديها الشهود، وهي العامل الهام والضروري في إصدار الحكم وتشكيل قناعة القاضي. لذلك يطلب القانون التلمودي من القضاة أن يكونوا على درجة عالية من الحذق والمهارة. لن تكن أي شهادة مقبولة إذا لم تأت من شخص معروف بسلوكه الفاضل الجدير بالاحترام وترفعه القطعي.

الشاهد في قضية خاصة بالعدالة يُعتبر واجب مقدس. لذلك قيل: [**من يعلن موقفه من قريبه ويرفض الإدلاء بشهادته، إذ أفلت من حُكم الناس فلن يفلت من عقاب السماء**]. هناك ثلاثة أشخاص يرفضهم القدوس الواحد الممجد! «من يقول شيئاً بشفتيه، وشيئاً آخر في قلبه، ومن يعرف كل ما يعني قريبه ويمتنع عن الإدلاء بشهادته، ذلك من يرى في قريبه عدم اللباقة ويشهد على ذلك بمفرده».

فيما يلي قائمة بالأشخاص غير المؤهلين ليكونوا قضاة أو شهوداً: «من يلعب القمار، من يمارس الربا، سارق الحمام، من يراهن في السباقات، من يتاجر بمنتوجات السنة السبتية» (لأن هذه المنتوجات مخصصة للإطعام وليس للبيع) [**ليكن سبتُ الأرض طعاماً لك ولعبدك وأمَتك وأجيرك ونزيلك المقيمين معك**] (أحبار 45، 6).

يقول الحاخام شمعون: كانوا يعيِّنون سابقاً مشرفين على مدخرات منتوجات السنة السبتية، لكن عندما تزايد الموظفون الجشعون المستبدون الطغاة (وأخضعوا الشعب للابتزاز)، بدأ الحديث عن المتاجرين بمدخرات السنة السبتية.

كان الحاخام يهودا يقول: متى يمكن تطبيق عدم صلاحية (المتلاعبين الخ..)؟ من لا تتوفر لديهم مهنة أخرى؛ أما إذا كانوا يملكون طرقاً مشروعة لكسب حياتهم، عندها يصبحون مؤهلين للشهادة.

تستكمل القائمة في مكان آخر: «كان الحاخامات يدخلون ضمنها (أي القائمة) الرعاة (لأنهم يسمحون لقطعانهم دخول الأراضي المزروعة وتخريبها)، جُباة الضرائب المختلسين، والأطباء المعالجين». وأضافوا للقائمة جميع الذين يشكّون في نزاهتهم واستقامتهم في مجال المال. النص الذي يقول: [**فليقف الرجلان اللذان بينهما الدعوى أمام الرب أمام الكهنة والقضاة**] (تثنية الاشتراع 19، 17) تعطى بشأنهم القاعدة التالية: «سيكون من الرجال فقط، ولا تقبل شهادة النساء، والمعاقين. في حالة

وجود تعويض، يسمح فقط للرجال الأحرار (غير المحكومين) بالإدلاء بشهاداتهم. إذا قبل الشاهد مكافأة أو أجراً للإدلاء بشهادته، فالشهادة تكون باطلة.

أهل وأقارب الفريقين إلى درجة محدَّدة لا يقبلون قضاة أو شهوداً. إليكم تعدادهم: الأب، الأم، الأخ، العم، الخال (أخ الأب، أخ الأم)، زوج الأخت، زوج أخت الأم، الزوج الثاني للأم، والد الزوجة، زوج أخت الزوجة، جميع هؤلاء غير مقبولين ومعهم أولادهم، وأحفادهم وأصهرتهم.

ينقل الحاخام يشوع، حديثاً عن الحاخام عقبة، النص الأصلي يشمل العم، ابن عم العم وأي واحد منهم يرتبط بصلة قرابة مع أحد الفريقين. إذن ليس باستطاعة الشخص الذي تربطه صلة قرابة الإدلاء بشهادته عند حصول الدعوى، لكن إذا لم تكن صلة القرابة موجودة، فإن الشخص سيعاد قبوله كشاهد (مثل ذلك الصهر). يقول الحاخام يهودا: حتى لو ماتت الفتاة وتركت أطفالاً، فإن زوجها يظل بمثابة قريب (لأب زوجته المرحومة).

الصديق والعدو مستبعدان: أي صديق؟ (صديق حميم، صديق شريف). أي عدو؟ الذي بسبب الخصومة، لم يوجه إليه الكلام منذ ثلاثة أيام. يقول الحاخامات: اليهود القدماء لا يشك بهم في هذه التهمة، كيف تمَّ شرح هذا النص: [**لا تقتل الآباء بالبنين ولا تقتل البنون بالآباء بل كل امرئ بذنبه يُقتل**] (تثنية الاشتراع 24، 16). إذا أرادوا إخبارنا أن الآباء لا يمكن أن يخضعوا للموت بسبب أخطاء اقترفها أطفالهم فهذا واضح فيما يلي: يعاقب كل فرد بسبب الخطيئة التي اقترفها: يجب أن لا يقتل الآباء بناءً على شهادة أطفالهم، والعكس صحيح.

كانت التوراة تقضي بوجود شاهدين على الأقل لإثبات الواقعة. كذلك القضاء التلمودي، الذي ينص: «أن شاهداً واحداً لا يكفي للحكم على إنسان بالموت» (جاء في سفر الخروج 35، 30) [**كل من قتل نفساً فبشهادة شهود يُقتل القاتل فأما الشاهد الواحد فلا تُقتل نفس بشهادته**]. وكقاعدة عامة، أينما وردت كلمة شاهد في التوراة، فمعنى هذا وجود شاهدين اثنين، إذا كان النص لا يحدد أن الأمر يتطلب شاهداً واحداً. «شاهد واحد، غير مؤكد، ولا يُصدَّق».

رغم أن الإثبات المادي مقنع، وم هذا لن يكون مقبولاً، المقبول فقط الشاهد الذي رأى الجريمة وهي تُنفذ. إليكم مثلاً عن شهادة غير مقبولة؛ رأيت المتهم يجري خلف

الرجل، شاهراً السيف بيده، التجأ الرجل الملاحق إلى حانوت فتبعه المتهم، عندها رأيت هناك الرجل مقتولاً والسيف المدمى بيد القاتل. النتيجة ليس هناك من اتهام إلا إذا كان المرتكب الفعلي للجريمة قد شوهد من شاهدين ذوي سمعة طيبة.

كانت الشهادة الكاذبة تتلقى حكماً قاسياً، أما التفسير التوراتي المتعلق بالحنث باليمين كان موضع نقاش وتناقض بين الفريسيين والصدُّوقيين «الشهود الذين ارتكبوا الحنث باليمين لا ينفذ بهم حكم الإعدام قبل أن يحاكم السجين ويصدر قرار الحكم». غير أن الصدَّوقيين يؤكدون أنه من المنتظر أن يحكم على السجين بالموت، لأنه قيل: **[لا تُشفق عينُك النفس بالنفس والعين بالعين والسنُّ بالسنِّ واليدُ باليدِ والرِّجل بالرِّجل﴾** (تثنية الاشتراع 19، 21). **يرد عليهم الحكماء الفريسيون لقد أُعلن في الماضي: [فاصنعوا به كما نوى أن يصنع بأخيه واقلع الشرَّ من بينكم]** (السفر نفسه 19). إذن ما زال أخوه موجوداً آنذاك، فماذا تعني حياة مقابل حياة؟ يمكن الافتراض أنه يجب إعدام الشهود، بعد أن يكون القضاة قد تلقوا الشهادة المعتبرة على أنها كاذبة.

من أجل إبعاد هذه الفرضية يقول لنا النص: ستكون هناك حياة مقابل حياة، أي أن إعدامهم لن ينفذ إلا بعد إصدار الحكم. النظرية الصارمة جداً وهي نظرية الفريسيين تتوافق مع ما يقوله الحاخام يشوع: إذا وُجد الشك بشهادة أحدهم أنها كاذبة، وحصلت لدى القاضي قناعة بذلك، فعلى الشاهد أن يخضع لنفس العقوبة التي كانت ستنزل بالشخص الذي شهد ضده.

3 ـ المحاكمة

مطلوب من القضاء الحياد المطلق، وبمعاملة الطرفين المتخاصمين والمتحاكمين على قدم المساواة، وعدم التحيز لأي منهما. وهكذا «فإن المتخاصمين ملزمون بالبقاء واقفين طيلة جلسة المحاكمة. ويستطيع القاضي السماح لأحدهم بالجلوس وكذلك للآخر لأسباب تعود له، لكن يمنع السماح لأحدهم بالجلوس بينما يُسمح للآخر. ومن غير المقبول ترك أحد الفرقاء يتحدث طويلاً، وإلزام الآخر بالإيجاز». إذا وجد رجل مثقف

وآخر جاهل في الدعوى، فليس من حق الأول دخول قاعة المحكمة باكراً والجلوس فيها، لأنه بهذا العمل يجعل الناس يفكرون أنه يحاول تسوية المسألة لصالحه. «إذا حضر أحد المتخاصمين بثياب بسيطة والآخر بثياب فخمة، فيطلب من الأخير ارتداء ثياب مثل الأول، أو يقال له: قدِّم ثياباً مثل ثيابك للأول. ويُمنع على القاضي سماع أقوال أحد الفريقين قبل حضور الفريق الآخر».

تختلف المقاضاة خلال الجلسة بين المدني والجنائي. فيما يلي أهم الإجراءات:

في الحالتين سيكون هناك تحقيق دقيق وأسئلة كثيرة للوصول إلى الحقيقة. تقول التوراة: [**حُكمٌ واحد يكون لكم للغريب وللصَّريح إني أنا الرب إلهكم**] (أحبار 24، 22). في المدني تناقش الأسباب أمام محكمة مؤلفة من ثلاثة قضاة؛ وفي الجنائي، أمام هيئة مؤلفة من ثلاثة وعشرين قاضياً. في المدني يمكن بدء المحاكمة بالدفاع أو الإدعاء، وللدفاع الأولوية في المجال الجنائي. وفي المدني تكفي الأغلبية بصوت واحد لفائدة أحد المتخاصمين المدَّعي والمدَّعى عليه. وفي الجنائي تكون الأغلبية بصوت واحد لإصدار حكم التبرئة، وأغلبية صوتين في حال الإدانة. في المدني، يمكن إعادة المحاكمة أو المراجعة من الجانبين، أما في المجال الجنائي، فلا يمكن إعادة النظر إلا من أجل الحصول على البراءة. في المدني يمكن مرافعة القضاء لصالح المدافع أو المدَّعي، وفي الجنائي يمكن للجميع طلب مساندة أو تأييد أحدهما بعد تفكير ملي بالإثباتات الموضوعة أمامه. في الجنائي، يمكن للقاضي الذي أبدى رأيه في الإدانة، العودة عن قراره بتأييد البراءة، لكن إذا أعلن رأيه لصالح البراءة، فلا يحق له التراجع وطلب الإدانة. تتم المرافعات في القضايا المدنية نهاراً، وتُفصل ليلاً، أما القضايا الجنائية، فيجب الفصل فيها نهاراً إذا كان الحكم يقضي بالبراءة، وفي اليوم التالي إذا كان الحكم يقضي بالإدانة. لهذا فإن الدعاوى الجنائية لا تُقدَّم للمحكمة عشية السبت أو عشية أيام الأعياد. وفي المجال المدني أيضاً يمكن الفصل في الدعاوى بما يخص العفة والطهارة والدنس مبتدئين بمن هم أكبر سناً. بينما يكون العكس في القضايا الجنائية.

عندما تتضمن القضية حكماً بالإعدام، فإن الشهود مدعوون علانية لتقدير وفهم أهمية وخطورة أقوالهم. نصيحة من هذا القبيل حُفظت لدينا وهي: «قد تكون الشهادة مرتكزة على فرضية أو رواية، قالها شاهد آخر، وتمَّ تأكيدها من شخص موثوق

بأقواله». قد تجهلون أننا سنخضعكم إلى تحقيق مضاد، اعلموا أن الدعاوى الجنائية مختلفة كلياً عن المدنية، في المدنية رجل فقد المال قد يسامح ويُبرئ، أما في الجنائية فهناك مسؤولية دمه وجنسه الذي تقع على كاهله حتى نهاية العالم. هكذا كان بالنسبة لـ «قائيين» الذي قتل أخاه والذي قيل عنه: [**فقال الرب لقاين أين هابيل أخوك، قال لا أعلم ألعلِّي حارس لأخي. فقال الرب ماذا صنعت إن صوت دماء أخيك صارخٌ إليَّ من الأرض**]. يقول النص: صوت الدماء هو صوت أخيك ودم جنسه. خلق في البداية شخص واحد، وإذا قضى إنسان على وجود، (حياة أخرى) فإن التوراة تنسب إليه تدمير العالم كلِّه.

وقد تقولون (أمام مسؤولية جسيمة بهذا القدر) لماذا سأقوم بمهمة مزعجة مكدِّرة بهذا الشكل، لكنه قيل: [**وإذا خطئ أحد بأن سمع صوت حَلِفٍ وهو شاهدٌ رأي أو علم ولم يُخبر بذلك فقد حَمَلَ وزرَهُ**] (أحبار 5، 1). أو قد تقولون: لماذا سأكون مسؤولاً عن دم المتهم؟ وقد قيل: [**بخير الصدِّيقين تتهلل المدينة وعند هلاك المنافقين ابتهاجٌ**] (أمثال 11، 10).

عندما لا تكون حياة المتهم في خطر. فقد كان مطلوباً بعدم اتباع القسوة المفرطة في التدقيق المضاد الذي يؤدي بدوره إلى الضرر بالعلاقات بين الأفراد. يصرِّح الحاخامات في مجال الأحكام المدنية، أن التحقيق المضاد غير ضروري، لعدم رصد الأبواب أمام الناس القادرين أن يصبحوا متدينين.

إليكم شرح دعوى أو إجراء مدني؛ كيف يتم تدقيق أقوال الشهود؟ يمثل الجميع أمام القاضي، ويقفون علانية ثم يخرجون حاملين مهمتهم، عدا الأكبر سناً منهم. يسأله القضاة؟ أخبرنا إذا كنت تعلم، أن المدعى عليه مدين بمبلغ من المال للمدعي؟ يجيب الشاهد؛ لقد قال لي بنفسه: أنا مدين له بالمال، أو أن أحدهم أخبرني عن هذا الدين. في هذه الحالة تلغى شهادته وتكون باطلة، إلا إذا كان قادراً على تأكيد ذلك. لقد اعترف المدعى عليه بحضوري أنه مدين للمدعي بمبلغ مائتي زوز. ثم يدخل الشاهد الثاني، فيخضع لنفس الاستنطاق. إذا كانت الشهادتان متطابقتين، ينتقل القضاة لمناقشة القضية. أمَّا إذا أعلن قاضيان أن المدعى عليه مسؤول، وخالفه الرأي قاضٍ آخر، فيلغى جدول الدعوى. إذا أكدَّ قاض واحد بينما كان الثاني سلبيا أو الاثنان في هذا الاتجاه، والثالث لم يبد رأيه، فيجب زيادة العدد.

بعد اتخاذ القرار، تدخل الأطراف أمام هيئة المحكمة ويقول لهم القاضي الأكبر سناً: «فلان، لست مسؤولاً، فلان، أنت مسؤول». لماذا لم يكن أحد القضاة مخولاً بالقول بعد فوات الأوان، للشخص المعلن عن مسؤوليته: «لم أكن من هذا الرأي، لكن زملائي اعتمدوه، ماذا يمكنني أن أعمل؟ إنهم يشكلون الأغلبية»! لقد كتب: [**الساعي بالنميمة يُفشي السرَّ والأمينُ الروحِ يكتمُ الأمر**]. (أمثال 13، 11)

مهما طال الزمن الذي تستطيع به الجهة المسؤولة عن تقديم شهادات جديدة، فلهيئة المحكمة السلطة بتعليق تنفيذ الحكم. يقول لهم القضاة: جميع البراهين يجب تقديمها ضمن مدة ثلاثين يوماً. إذا قدِّمت ضمن المهلة المطلوبة يؤجل الحكم، لكن بعد مضي الثلاثين يوماً لا يُنظر بالاعتراض. كان الحاخام «شمعون بن غامليل» يُسأل: إذا لم يتمكن الرجل من إيجاد الإثبات خلال هذه المهلة، لكنه استطاع من اكتشافها فيما بعد؟ يقول له القضاة، بما أنك تقدمت بعد المهلة المحددة فإن طلبك باطل، لأن القبول بعد المدة المحددة يعتبر مخالفاً لصلاحيات المحكمة. وسُئل غامليل أيضاً: ماذا عليه أن يفعل إذا لم يكن لديه شهود إثبات، ومن ثم أدرك ذلك فيما بعد؟ إذا قال له القضاة: قدِّم شهود إثبات، وأجاب: ليس لديَّ، وعندما يلاحظ أنه على وشك تحميله المسؤولية يقول للقضاة: اطلبوا فلاناً وفلاناً، سيشهدون معي، أو أن يخرج من جيبه وسيلة إثبات، جميع هذه التصرفات لم تكن مقبولة لدى المحكمة. من الناحية الجنائية، كان الشهود يُسألون إفرادياً، وهناك تحقيق مضاد يدور حول مسائل متعلقة بالزمان والمكان. يتم استجواب الشهود حول سبع مواد: في أي حقبة سبتية؟ (في أي سبت من العام وقعت الحادثة) في أي عام؟ أي شهر؟ أي يوم من الشهر؟ في أي يوم من أيام الأسبوع؟ وفي أي ساعة؟ وفي أي مكان؟. هل تعرف هذا الرجل، وهل تعرف أنه ارتكب جناية؟. هل حذَّرته؟ وإذا كان الأمر يتعلق بعبادة الأوثان، يطرح سؤالان إضافيان: أي صنم كان يَعبُد؟ وكيف تتم عبادته؟

من يطل فترة الاستجواب يتصرف شرعاً. يُروى أن «بن زكّاي» ترأس في أحد الأيام تحقيقاً مطولاً يتعلق بأغصان شجر التين. ما الفرق بين التحقيق المضاد، والبحث الدقيق؟ في الحالة الأولى، إذا صرَّح الشاهد بقوله: «لا أعرف» فالشهادة ملغاة. وفي الحالة الثانية، إذا قال أحد الشاهدين أو كلاهما: «لا نعرف» فشهادتهما شرعية مقبولة. وفي الحالتين إذا تناقضت الشهادتان في تحديد الزمن، فالشهادتان ملغيتان.

إذا أعلن شاهد أن الحدث وقع في اليوم الثاني من الشهر القمري، وأعلن آخر أنه حدث في اليوم الثالث، فشهادتهما مشروعة، لأنه من الممكن أن أحدهما قد علم بتداخل الشهر (كانت المحكمة العليا تعلن عن بدء الشهر، بعد الاستماع إلى أقوال الشهود عن رؤية القمر من جديد. حيث يجهل العديد من الأشخاص بدء الشهر القمري) لكن إذا أكد أحدهما أن ذلك كان في الرابع وآخر أكدَّ أنه في الخامس، عند ذلك لا تؤخذ شهادتهما بعين الاعتبار. إذا أثبت أحدهم أنَّ الواقعة حدثت في الساعة الثامنة صباحاً، وقال آخر في التاسعة فإن شهادتهما مقبولة. وإذا قال أحدهما الساعة الحادية عشرة وقال آخر الساعة التاسعة فشهادتهما غير مقبولة. أراد الحاخام «جودا» قبول أقوال الشاهدين (لأن المدة الزمنية في هذه الحالة ممكنة على أساس أن النهار يبدأ في الساعة السادسة صباحاً). إذا صرح أحدهم أن الواقعة تمت في الساعة الحادية عشرة والآخر في الساعة الثالثة عشرة. هناك إلغاء للشهادتين لأنه في الساعة الحادية عشرة تكون الشمس ما تزال في قبة السماء من جهة الشرق، وفي الساعة الثالثة عشرة تكون في الجهة الغربية من السماء.

يدخل الشاهد الثاني قاعة المحكمة، ويخضع بدوره لاستجواب دقيق. إذا تطابقت شهادته مع الأول، عندها يبدأ القضاة بالمرافعة والمناقشة. يطلبون تبرئة المتهم إذا قال أحد الشهود «لديَّ شيء أريد قوله لصالح المتهم»، أو أن أحد التلامذة الحاضرين قال: «لديَّ شيء أريد قوله بقصد التجريم». عندها يطلب منهم القضاة التزام الصمت. لكن إذا أعلن أحد التلامذة عن رغبته بالإدلاء عن تصريح لصالح المتهم، فُيطلب منه الجلوس مع القضاة، وعليه عدم مغادرة مكانه طيلة اليوم. هذه الملاحظات مع أنها واهنة، فهي مسموعة ومُطاعة. يسمح للمتهم الإدلاء بأقوالٍ تخص الدفاع عن نفسه، شرط أن يكون لكلامه معنىً.

إذا أقر القضاة ببراءة المتهم، فيطلق سراحه، إلا إذا تأجل البت النهائي بالقضية للغد. عندها ينسحبون من الجلسة أزواجاً، ويذهبون لتناول الطعام، لكنهم يمتنعون عن شرب الخمر طيلة اليوم، ويناقشون القضية خلال الليل. وفي صباح اليوم التالي، يعيدون فتح ملف القضية، ويفتتحون الجلسة باكراً ثم يشرحون وجهة نظرهم. الذي يبدِ رأيه بالبراءة يقول: أنا مؤيد للتبرئة، ومصرٌ على رأيي. ومن يصوت لصالح الإدانة يعبر أيضاً بأسلوبه المناسب. القاضي الذي كان عند المساء يدّعي ويطالب بإدانة المتهم، يمكنه

الآن العودة عن رأيه ويحكم بالبراءة. ولكن العكس ممنوع. إذا اقترف القضاة خلال كلامهم خطأ ما، يقوم كاتب المحكمة بالتصحيح. أما إذا أعطى جميع القضاة رأيهم بالبراءة، فيطلق سراح المتهم فوراً. في الحالة المعاكسة، تقوم هيئة المحكمة بإجراء التصويت. إذا برّأه اثنا عشر قاضياً وأدانه أحد عشر، فتعلّق عندها براءة المتهم. أما إذا أدانه اثنا عشر، وبّرأه أحد عشر، و برأه أحد عشر قاضياً، وأدانه أحد عشر، وامتنع واحد يُرفع عندها عدد القضاة. ما هو عدد الزيادة، تكون بأعداد زوجية؟ قد تصل إلى واحد وسبعين إذا تمت البراءة من ستة وثلاثين قاضياً وأدانه خمسة وثلاثون، عندها يحصل المتهم على البراءة. وفي الحالة المعاكسة تناقش هيئة المحكمة الموضوع حتى ينضم من كان يريد الإدانة إلى الرأي المعاكس.

ورد في التلمود: إذا كانت هيئة المحكمة العليا مُجمعة باتجاه الإدانة، فالمتهم يبّرأ. يفترض عندئذٍ، أنه إذا لم يكن هناك قاض واحد يتكلم لصالح المتهم، فهناك رأي مثار ضده. من حيث البداهة، كيف يمكن تبرئة متهم أدانه القضاة بالإجماع؟ هل يطلق سراح المتهم بشكل عبثي؟ أمر غير معقول. لقد حصل خطأ في تفسير ما ورد في التلمود: بدلاً من تفسير الكلمة طرده أو أخلى سبيله، يجب أن تترجم يقومون بتأجيل الدعوى فوراً، ولا يصدرون الحكم النهائي في الغد.

4 ـ العقوبات

دعوى جريمة قتل ما، نُظر بها وتأكد وقوعها، يمكنها أن تنتهي بأحد الحُكمين: الأبعاد إلى مدينة تكون ملجأ، إذا كان القتل عن غير قصد، وأن الحادث لم يعزى لإهمال، [**مُرْ بني إسرائيل وقل لهم إذا أنتم جزتم الأردن إلى أرض كنعان فعيّنوا لكم مدناً ملجأ يهرب إليها القائل من قتل نفساً سهواً، فتكون تلك المدن ملجأ لكم من الوالي فلا يُقتل القاتل حتى يقف أمام الجماعة للحكومة**] (أعداد 35، 10، 11) عقوبة الإعدام. إذا كان القتل عن عمد أو عمل إجرامي جنائي. إليكم وصفاً لهذا التمييز. إذا كان الرجل يعمل في تسوية سطح منزله الترابي بمدحلة حجرية، فسقطت وقتلت أحدهم، أو إذا كان يُنزل برميلاً وأفلت منه وقتل أحدهم،

أو إذا كان ينزل سلماً وسقط قاتلاً أحدهم. في هذه الحالة يحكم عليه بالنفي إلى مدينة ثانية. إذا كان يقوم برفع المحدلة الحجرية إلى السطح وسقطت وقتلت أحدهم، أو بينما كان يرفع المدحلة بحبل وانقطع الحبل مسبِّباً قتل أحدهم. أو بينما كان يصعد السلم وسقط على أحدهم وقتله، عندها يحكم عليه بالنفي. وكقاعدة عامة: إذا حدث الموت أثناء الهبوط يطبق حكم النفي، ولا يطبق إذا كان الموت بسبب النزول على السلم. إذا أفلت رأس الفرّاعة القاطع من مقبضه وقتل أحدهم، فحسب رأي الحاخام جودا، فإن الرجل الذي يمسك الفراعة لا ينفى. هذا الرأي يختلف من حاخام لآخر.

إذا سقط فرع كبير من شجرة خلال قطعه بالفراعة. مسبباً الموت لأحدهم، في هذه الحالة يؤيد الحاخام جودا الحكم بالنفي، بينما يخالف بعض الحاخامات هذا الرأي. إذا ألقى أحدهم حجراً على الطريق العام وتسبب في موت رجل، سيحكم عليه بالنفي. يقول الحاخام اليعازر بن يعقوب: إذا أفلت الحجر من يده في اللحظة التي كان فيها الضحية سائراً، فلن تكون هناك مسؤولية جرم. أما إذا قام شخص برمي حجر داخل مليكته، وقتل أحدهم سيحكم بالنفي. إذا كان للضحية الحق بدخول ذلك المكان أو عكس ذلك لن يُنفى. لأنه قيل: [**إذا دخل غاباً مع صاحبه ليقطع حطباً فضرب بالفأس ليقطع الحطب فانفلت الحديد من العود فأصاب صاحبه فمات فهذا يهرب إلى واحدة من هذه المدن فيحيا**] (تثنية الاشتراع 19،5). يستثنى من هذا إذا كانت الضحية موجودة في المكان بدون حق. يقول «أبّاسول»: الذهاب لقطع الخشب عمل إرادي في هذه الحالة سيكون هناك نفي. يستثني فعل الأب الذي يضرب ابنه والمعلم الذي يؤدب تلميذه، والرجل الذي يقوم بعمل المنقذ. سيحكم الأب بالنفي لأنه قتل عن غير قصد ابنه. أي شخص يقتل يهودياً سيُنفى بهذه الطريقة، وسُينفى اليهودي إذا قتل شخصاً بهذه الطريقة أيضاً باستثناء الوثني المقيم في فلسطين والذي تخلى عن عبادة الأصنام للحصول على حق الإقامة. لا يُنفى الوثني! إذا كانت الضحية تدين مثله بالوثنية. يقول الحاخام جودا: الأعمى لا يُنفى، بينما الحاخام مئير يؤيد نفيه. العدو لا يُنفى بل يُعدم، لأن له دوافع للضرر. كان الحاخام سيمون يقول: يطبق حكم النفي بالعدو أحياناً، وأحياناً أخرى لا يطبق. القاعدة العامة: عندما يقول المذنب أنه قتل عمداً فلا تنفوه، ويلغى في الحالة المعاكسة. يبقى القتل الإرادي عن غير

قصد في مدينة الملجأ حتى وفاة الكاهن الأكبر. [**وتخلِّصُ الجماعةُ القاتل من يد وليِّ الدم وتردُّه إلى مدينة ملجئه التي قد هرب إليها فيقيم بها حتى موت الكاهن العظيم الذي مُسح بدهن القدْس**] (أعداد 35،25).

إذا توفي الكاهن الأكبر بعد النطق بالحكم لن ينفى المتهم. وإذا حدث ذلك قبل النطق بالحكم وبدأ كاهن أكبر مهامه قبل النطق بالحكم، فالمنفي لن يعود من ملجئه إلا عند وفاة الأخير. وإذا نطق بالحكم في فترة عدم وجود كاهن أكبر، أو أن القاتل عن غير قصد كان الكاهن الأكبر نفسه، أو إذا كان الكاهن الأكبر هو الضحية، فالمتهم لا يغادر أبداً مدينة ملجئة (مكان نفيه).

كلِّف تلميذان من تلامذه الحكماء بمرافقة منفي إلى مدينة ملجئة، وبغية تجنيبه الأخذ بالثأر خلال سيرهم في الطريق؛ كان من واجبهما مرافقة المتهم حتى لا يحصل أخذ بالثأر. إذا وجدت هيئة المحكمة أن هناك قتلاً عن سابق إصرار وتصميم، فإنها تصدر حكم الإعدام. لكن المحاكم لم تلجأ إلى هذا التنفيذ الفوري للإعدام «وهيئة المحكمة التي تنفذ الحكم بالإعدام ضد أحد عشر محكوماً خلال سبع سنوات يعتبر حكمها مخرباً ومدمِّراً».

كان الحاخام اليعازر بن عازريا يقول: أحد عشر حكماً بالإعدام خلال سبعين سنة. الحاخامان طرفون، وعقبة كانا يقولان: لو كنَّا أعضاء في هيئة المحكمة السنهدرين فلن يعدم إنسان. وأعلن الحاخام شمعون بن غامالِّيل: أنه عند ما يزداد سكان إسرائيل فمن الطبيعي أن تزداد الجرائم الجنائية وتهرق دماء ولا بّد من أحكام قاسية تردع المجرمين: [**ولبس كل منهم التاج بعد وفاته وكذلك بنوهم من بعدهم سنين كثيرة فكثرت الشرور في الأرض**].

كان الحكم يكتسي واحداً من أشكاله الأربعة: الرجم، الموت بالنار (الحرق)، قطع الرأس، الشنق. وفيما يلي طريقة الرجم المطبقة آنذاك: بعد النطق بالحكم، يقاد السجين إلى خارج المحكمة ومنها إلى المكان المعدّ للتنفيذ لأنه هكذا قيل: [**فكلَّم الرب موسى قائلاً: أخرجِ اللاّعنَ إلى خارج المحلَّة وليضَعْ كلُّ من سمعه أيديَهُم على رأسه وليرجُمْهُ كلّ الجماعة**] (أحبار). يقف رجل أمام باب المحكمة حاملاً راية بيده، وآخر واقفاً على حصان على مرمى من بصر الأول. إذا قال أحد القضاة: «لديَّ شيء ما أريد قوله لصالح المحكوم عليه، عندها يقوم حامل الراية بتحريكها، في الحال ينطلق الحصان

إلى مكان تنفيذ الحكم ويوقفه. حتى لو أعلن المتهم أنه يريد الدفاع عن نفسه، فكان يعاد للوقوف أمام هيئة المحكمة أربع أو خمس مرات، إذا لم يكن لكلامه أهمية تذكر. كان القضاة يقبلون المرافعة العليا، عندها يُطلق سراح الرجل. وفي الحالة المعاكسة يؤخذ إلى مكان التعذيب. خلال توجهه للمكان، يسير أمامه مُناد معلناً «من يعرف شيئاً لصالح فلان، فليحضر للمحكمة ويعلن ذلك».قبل الوصول إلى مكان التعذيب بعشرة أذرع يقول المعاونون المرافقون له: «اعترف، لأنه من عادة المحكومين الاعتراف بجرائمهم قيل موتهم، ومن يعترف بجرمه سيكون له حصة في العالم الآخر. نرى ذلك في قول يشوع لـ«عاكان»: [**يا ولدي أقم كرامة للرب إله إسرائيل واعترف له وأخبرني بما فعلت ولا تكتمني**] (يشوع 7، 19)، هل يكفِّر اعترافه بجريمته؟ ويقول له يشوع: لماذا نغصت عيشنا الرب سينغِّص عيشك أيضاً اليوم وليس في العالم الآخر.

الأمر كذلك لـ «عاكان»: [**لا جَرَمَ أني خطئت إلى الرب إله إسرائيل وفعلتُ كذا وكذا**] (يشوع 7،20). إذا كان المحكوم لا يعرف كيف يُعبرٌ عن اعترافه، فيقال له: أعلنْ عن هذا «ليكفر موتي عن جميع خطاياي!».

على بعد أربعة أذرع من مكان التعذيب تنزع عنه ثيابه باستثناء ما يستر عورته من الأمام إذا كان رجلاً ومن الخلف إذا كانت امرأة. ذلك رأي الحاخام يهوذا. غير أن الحاخاميين يعلنون: إن المحكوم رجلاً كان أو امرأة فسيرجمون عراة.

يرتفع موضع التعذيب (تنفيذ الحكم) عن الأرض ما يعادل قامة رجلين يقوم أحد الشهود بإلقاء المتهم أرضاً وعلى ظهره، فإذا حاول الاستدارة أعاده إلى وضعه الطبيعي المطلوب. إذا توفي المتهم بفعل السقوط، فتكون العدالة استوفيت. وإلا يقوم الشاهد الثاني بإلقاء الحجر عليه (الحجر ثقيل جداً يحتاج حمله إلى رجلين، يرفع الرجلان الحجر في الهواء ثم يقوم أحدهما بإلقائه على المتهم بكل قوته) مصوباً باتجاه القلب. إذا كانت الضربة مميتة، تكون العدالة قد استوفيت. وإلا تعود مسؤولية الرجم على جميع اليهود، لأنه مكتوب: [**أيدي اليهود تكون عليه أولاً لقتله وأيدي سائر الشعب بعدهم واقلع الشرَّ من بينكم**] (تثنية الاشتراع 7،17). وفيما بعد تُشنق أجساد المرجومين، كما يقول الحاخام اليعازر. غير أن الحاخامات يقولون: «لا تشنق إلا إذا كان المجرمون يؤمنون بعبادة الأصنام».

يوجَّه وجه المشنوق باتجاه المعبد، وإذا كانت امرأة ستوجه باتجاه المشنقة. بعض

الحاخامات يقولون بأن النساء لا تُشنق. لكن الحاخام اليعازر يشرح ذلك بقوله: «الحاخام شمعون بن شتاكي لم يقم بإعدام النساء اللواتي يتعاطين الشعوذة في عسقلان» كان جواب البعض: لقد شنق ثمانين منهن. يجب عدم محاكمة شخصين في يوم واحد. كيف يُنفذ الشنق؟ تثبت المشنقة بواسطة جسر على الأرض تربط يدي المتهم ويشنق من يديه. يقول الحاخام يشوع: (تكون العارضة مستندة على جدار وغير مثبتة بالأرض)، يشبِّه الشنق بهياكل الحيوانات التي يثبتها الجزارون. بعد الموت تنزل الجثة على الفور، لأنه يجب عدم انتهاك القانون الذي يقول: «[**إذا وُجدت على إنسان جريمةٌ حقُّها القتل فقتل وعُلِّق عل خشبة، فلا تَبِتْ جثته على الخشبة بل في ذلك اليوم تدفنْهُ لأن المعلق ملعون من الله \فلا تُنجِّسْ أرضك التي أعطاك الرب إلهك ميراثاً**] (تثنية الاشتراع 21،23 ـ24) يمكن القول لماذا شُنق هذا؟ لأنه شتم أسم الله، والنتيجة انتهاكه الاسم السماوي (يقولها من يرى الجثة).

لا يدفن المحكوم في مقبرة آبائه. هناك ساحتان مخصصتان للمحكمة. في إحداها ترقد الأجساد المرجومة، ورماد المحكومين بالحرق بالنار؛ وفي الثانية المقطوعي الرؤوس، والمشنوقين. عندما يتحلل الجسد، تُجمع العظام لدفنها هناك، يرافق أهل المحكوم هيئة المحكمة ويسلِّمون عليهم ويقولون لهم: «أعلموا أننا لا نضمر حقداً عليكم في قلوبنا، نعترف بحكمكم العادل». وفي هذه الحالة لا تطبق طقوس الحداد المعتادة.

الجرائم المعاقب عليها بالرجم كانت: ارتكاب المحرمات مع أمه، المرأة الثانية لأبيه أو حماته (والدة زوجته) اللواط، السحاق، العلاقة الشاذة المخالفة للطبيعة لرجل أو امرأة مع حيوان، التجديف، عبادة الأوثان، قتل طفل بالنار لعبادة مولوخ (القنفذ)، مناجاة الأرواح (استحضار الموتى التنجيم، انتهاك حرمة السبت، شتم الأب والأم، والعلاقات الجنسية مع فتاة مخطوبة، تعليم عبادة الأوثان لمنطقة أو لشخص، الشعوذة، العصيان العائلي.

إليكم كيفية تنفيذ الطرق الأخرى التي كانت مطبقة في حكم الإعدام: يُعلن عن الشخص المحكوم بالموت حرقاً يقف حتى ركبته وسط القمامة كي لا يستطيع الحركة، يُحاط عنقه برباطين من القماش، ثم يحاط بكفن خفيف، يقوم أحد الشهود بشدِّه من طرف وشاهد آخر من الطرف الثاني، إلى أن يفتح المحكوم فمه، ثمَّ يشعل منفذ الحكم فتيلاً (تقول الجمارا أنه يوضع في فمه رصاص سائل) ويرميه في فمه فتحرق أمعاءه. يقول الحاخام جودا: «إذا مات على يدي الشهود بالخنق، فالقانون القائل بالحرق لن

ينفذ». أو يُفتح فمه بالملاقط ليدخل فيه الفتيل المشتعل.

أما قطع الرأس فكان ينفذ بالسيف، على الطريقة الرومانية. يقول الحاخام جودا عنها: إنها طريقة شائنة مخجلة، يجب أن يسند الرأس إلى مسند خشبي جذع شجرة مثلاً، وأن يتم قطع الرأس بالفرَّاعة.

أجابه الحاخامات: هذا الموت الذي تعنيه سيكون مخجلاً أكثر من باقي الطرق. أما الخنق، فهو يكرر نفس المرحلة الأولى المتعلقة بالموت بالحديد، يقوم الشهود بالضغط والشد على العنق حتى الموت. «الذين يحكم عليهم بالموت حرقاً هم: العلاقات الجنسية غير الشرعية لرجل مع الأم وابنتها. تعاطي الفسق مع ابنة كاهن، ابنة مجرم أو حفيدته، زوجه ابنه، أو ابنة حماته، وحماته ووالدتها. من كان محكوماً عليهم بقطع الرأس، والقتلة، وسكان المدينة الذين سقطوا في عبادة الأوثان.

كان يحكم بالخنق على من اعتدى بالضرب على والده ووالدته، أو من اختطف يهودياً ليبيعه في سوق النخاسة، المسن الذي لم يحترم قرار السلطة العليا، نبيٌّ كاذب يبشر بآلهة الوثنيين، الزَّاني، شاهد الزور ضد ابنة الكاهن، وممارسة الفسق مع ابنة الكاهن.

الشخص المحكوم بعقوبتين تُطبق الأشد الترتيب المتَّبع: الرجم، الحرق بالنار، قطع الرأس، الخنق. وبغية تخفيف وطأة الموت يقدم للمحكوم شراب مخدِّر، ومن سيخضع للحكم بالموت، يُعطى حبة بخور في كأس نبيذ، لأنه قيل: [**أعطوا المُسكر لذي المشقة والخمر لذوي النفوس المرة**] [**فيشربوا وينسوا فاقتهم ولا يذكروا ضررهم بعد**] (أمثال 31،6 -7) وقد قيل أيضاً: «إن نساء أورشليم يقِّدمن هذا الشراب، لكن عندما يمتنعن فإن ثمنها يكرس لجمع الأموال للجماعة.

يحكم على الشخص بالسجن المؤبد في الحالات التالية: «من قتل أحدهم بغياب أي شاهد وكما يقول: إشعيا 30،20): [**فيعطيك السيد خبزاً في الضيق وماءً في الشدة ولا يتوارى معلمك من بُعد بل تكون عيناك تريان معلمك**]. ورد في الجمارا النقاش التالي: كيف يمكن معرفة المتهم أنه مذنب دون شهود؟ عندما لا يوجد سوى شاهد واحد. كان راب صموئيل يقول: عندها أُهمل الشهود وأُنبِّه لذلك.

أجابت السلطة: عندما كان هناك تناقص في النقص، لكن ليس بخصوص الأسئلة السبعة (مكان، زمان..)

يحاكم بالسجن أيضاً رجل تعرض لعقوبة الجلد والذي كرَّر فعلته؟ كأن يُغذى بالشعير حتى تنفجر معدته. صلاحية الأحكام بالعقوبات الجسدية تعود إلى المحكمة المؤلفة من ثلاثة أعضاء، مع أن أحد الحاخاميين طلب أن تكون المحكمة من ثلاثة وعشرين عضواً. وبصورة عامة، يعاقب القانون الجلد بالسوط في حال التعدي على القانون الذي صاغته التورا كالتالي: «عليك أن لا». من المخالفات التي يعاقب عليها بهذا بشكل هي المتعلقة بارتكاب المحرمات بدرجات القرابة المحرمة للزواج، انتهاك حرمة المعبد، بالأطعمة المحرمة.

كان الحد الأقصى لعدد الجلدات بالسوط تسعاً وثلاثين جلدة. «كم من الضربات تنفذ؟ أربعون ناقص جلدة واحدة كما قيل: [**فإن كان مذنباً يستحق الجلد يطرحه القاضي ويأمر بجلده في حضرته على قدر ذنبه بالعدد. يُجلد أربعين ولا يزيد لئلا يُحتقر أخوك في عينيك إذا زاد على ذلك جلدات كثيرة**] (تثنية الاشتراع 25، 2 ـ3). يقول الحاخام يهوذا: أي عدد قريب من الأربعين. والأفضل تنفيذ الأربعين بالضبط. لم تعتمد قاعدة أخرى لكن يجب أن يكون عدد الضربات قابلاً للقسمة على ثلاثة. وإذا حُدِّد العدد بأربعين، فليكن تسعاً وثلاثين، وإذا وُجد خلال تنفيذ العقوبة أن الشخص غير قادر على تحمُّل هذا العدد من الضربات، عندها يعفى من الباقي. إذا حكم بالجلد ووصل العدد إلى ثمانية عشرة، ووُجد أن الشخص يحتمل عندها تنفَّذ العقوبة بكاملها. وإذا ارتكب الشخص مخالفة وعوقب بالجلد مرتين، تنفذ العقوبة بالجلدات الأولى، ثم يترك له الوقت ليستعيد قواه، ويخضع بعدها للجلدات الثانية. يوصف الجلد بالسوط على النحو التالي: يداه مربوطتان إلى عارضة ضخمة، كل واحدة من جهة، يقوم موظف الكنيس برفع ثيابه حتى العنق، لا فرق إذا كانت ممزقة أو مخاطة مرتين، يعرِّي صدره، ويضع حجراً خلفه ومن ثم يعيِّن المكلف بالجلد، ويمسك سيراً من الجلد المجدول أربع مرات ويثبته من الأعلى والأسفل بأربطة رقيقة من جلد الحمار. قبضة السوط بطول اليد، والسير عرضها، ويصل إلى معدة المحكوم. ثلث الضربات على الصدر، والثلثان الباقيان على الظهر. لا يضرب المحكوم واقفاً، أو جالساً أو منحنياً للأمام لأنه قيل: [**فإن كان المذنب يستحق الجلد يطرحه القاضي ويأمر بجلده على قدر ذنبه بالعدد**] (تثنية 25،2). يقوم المنفذ بضربه بيد واحدة وبكل قوته. يقرأ القاضي الأكبر سناً أثناء الجلد ما يلي: [**وإن لم تحفظ جميع كلام هذه التوراة**

المكتوب في هذا السفر وتعمل به وتتَّق هذا الاسمَ المجيد الرهيب إلهك (58) **يجعل الرب ضرباتك عجيبة وضربات نسلك ضربات عظيمةً راسخةً وأمراضاً خبيثة راسخةً** (59)] يكرر القاضي ذلك أثناء الجلد (تثنية الاشتراع 25، 58 - 59) رواية أخرى تقول: ما يقوله القاضي أثناء الجلد: [**فاحفظوا كلام هذا العهد واعملوا به كي ترشَدوا في جميع ما تصنعون**] (السفر السابق 29،9) وينتهي المزمور 77،38: [«**وهو رحيم يغفر الإثم ولا يُهلكُ ويُكثر من ردِّ غضبه ولا يُهيج سُخطَه كُلَّهُ**] ثم يستعيد النص الأول. يموت المحكوم لتوِّه على يد من يقوم بجلده، ولا يتحمل المنفذ أية مسؤولية. لكنه إذا ضربه ضربة زيادة، فيحكم على المنفذ بالنفي إلى مدينة ملجئه. إذا لم يتمكن المحكوم من حبس برازه خلال الجلد، عندها يهمل العدد الإضافي من الضربات. يقول الحاخام جودا: «بالنسبة للرجل إذا ما طرح برازه والمرأة إذا ما بالت». فيما يتعلق ببعض المخالفات للقوانين. نستخدم الصيغة التالية: [**سبعة أيام تأكلون فطيراً. في اليوم الأول تُخلون منازلكم من الخمير فإن كل من أكل خميراً من اليوم الأول إلى اليوم السابع تنقرض تلك النفس من إسرائيل**] (خروج 12،15) يشرح التلمود أن ذلك إشارة إلى الموت في سن الأربعين. لكنه حسب القانون الحاخامي، يمكن للمذنبين المشار إليهم الخضوع لضربات السوط إذا ما ندموا، وبهذه الطريقة يتم التكفير عن مخالفتهم. «المحكوم عليهم بالطرد يخضعون للجلد بالسياط، وبذلك ينالهم العفو من العقوبة الأولى». جنح أخرى محكوم على مرتكبيها «بالموت على يد السماء»، وتفسير ذلك الإشارة إلى الموت في سن الستين.

ب ـ القانون المدني

5 ـ الأضرار والتعويضات

القوانين التي تعالج مختلف أنواع الخلافات المدنية، إهانات للأفراد، أضرار في الأملاك تشكل موضوعاً لثلاثة مؤلفات: «بابا كامّا» أي الباب الأول، «بابا ميتنريا» الباب الأوسط، «بابا باترا» بمعنى الباب الأخير.

يشرح «بابا كامّا» الباب الأول الأضرار بشكل عام. كل فرد مسؤول عن الأخطار والأضرار المسببَّة للغير إما بواسطته او ولي أمر الذي يخصّه، الضرر الناتج لحيوان له مثلاً، فهو مجبر بالتعويض عنها (إصلاحها) مادة الضرر موزعة على أربعة عناوين، مستعارة من حالات خاصة ورد ذكرها في التوراة. هناك أربعة أصناف من الأضرار: الثور: [**إذا سرق أحد ثوراً أو شاة فذبحه ثم باعه، فليعوض بدل الثور خمسة وبدل الشاة أربعاً**] (خروج 22،1). البئر: [**وإن كشف إنسان بئراً أو حفر بئراً ولم يُغطها فتردَّى فيها ثور أو حمار فليغرم ثمنه صاحب البئر ويؤده إلى صاحبه والميت يكون له**] (خروج 21، 33 ـ 34). الرعي: [**إذا رعى أحدهم حقلاً أو كرماً فأطلق بهيمته ورعت في حقل غيره فمن أجود حقله أو كرمه يعوِّض**] (خروج 22،5). الحريق: [**إذا خرجت نار ولاقت شوكاً وأحرقت أكداساً أو سنبلاً قائماً أو سائر ما في الحقول فالذي أوقد النار يُعوِّض**] (خروج 22،6). من الطبيعي أن كل ما تقدم يسبب الأضرار، فالواجب أخذ الحذر منها وارتكابها يقع على عاتق الفرد؛ فإذا نتج عن ذلك ضرر في أمتعته، فعلى من قام بالعمل دفع قيمة الضرر من بأفضل أملاكه. القاعدة العامة الواجب تطبيقها في حالة كهذه هي التالية: «الفرد المسؤول في كل مكان عن شيء ما، فهو مسؤول عن الضرر الذي

يسبّبه، وملزم بدفع جميع التعويضات الناجمة عن الأضرار التي يسببها».

كل فئة من الفئات الأربع تنقسم بدورها، مؤدية إلى نقاش دقيق وحاد. فيما يلي بعض الخطوط الرئيسية مع بعض الأمثلة: القانون الذي يعالج وضع الثور الذي ينطح بقرنيه، يستخرج من التوراة من سفر الخروج (21،28): [**إن نطح ثورٌ رجلاً أو امرأة فليرجم الثور ولا يؤكل من لحمه وربُّ الثور بريء. فإن كان ثوراً نطّاحاً من أمس فما قبل فأشهد على صاحبه ولم يضبطه وقتل رجلاً أو امرأة فليرجم الثور وصاحبه أيضاً يُقتل**]. التوراة تميز بين الثور الميال للنطح، وبين من لا يظهر عليه هذا الميل. يطلق على من لا يظهر عليه الميل اسم «تام»، بريء أو بسيط. ومن يظهر عليه النطح يدعى «مؤاد» (تطلق كلمة مؤاد على الثور الذي بدأ بالنطح منذ عدة أيام (ثلاثة) وتطلق كلمة تام على الثور الذي لم ينطح منذ ثلاثة أيام) تطبق على المالك أشد العقوبات، حيث الواجب يفرض عليه اتخاذ الاحتياطات الصارمة للغاية.

شرح الحاخامات هذا التميز كي تنطبق العقوبة على كل نوع: «خمسة أفعال تخرج من الفعل «التام» وخمسة من الفعل «مؤاد». الحيوان الداجن لا يعتبر مؤاد، فإذا نطح بقرنيه (أقل من ثلاث مرات)، إذا نطح أحدهم، إذا عضّه، إذا لبطه وألقاه أرضاً. أما الأضرار فيسببها «مؤاد» مثل كسر الأسنان التي تؤثر على النظام الغذاء، الأضرار الناتجة بقوائمه فهي «مؤاد». إذا ما كسر شيئاً بها في طريقه. ثور معروف أنه ميال للنطح فهو «مؤاد»، مثلاً كالشخص الذي يلحق ضرراً بالملكية الخاصة. أخيراً الكائن البشري محسوب كـ «مؤاد». التعويضات عن الأضرار التي يسببها الحيوان «تام» تصل إلى النصف حسب سعر بيع الحيوان.

لكن في حالة «مؤاد»، فإن المدّعى عليه يدفع كامل الضرر من أفضل ما يملك». يجب ملاحظة كيفية تطبيق مفهوم مؤاد على البشر، بطريقة مبسطة: «يعتبر كل كائن بشري «مؤاد»، إن فعل ذلك قصداً أو عن غير قصد، مستيقظاً أو نائماً. عليه التعويض عن كل ضرر سبّبه في أي ظرف كان.

القوانين المتعلقة بالأضرار الناتجة عن حفرة مفتوحة: «إذا حفر أحدهم حفرة في ملكية خاصة، وصنع لها فتحة على الطريق العام، أو العكس بالعكس فهو المسؤول عن الضرر، وإذا وجدت حفرة لها فتحة على ملكية الخاصة وهي للغير، فهو المسؤول وإذا حفر أحدهم حفره على الطريق العام وسقط فيها ثور أو حمار فالمسؤول هو من قام

بحفر الحفرة، ولا تتعلق المسؤولية بأشكال الحفرة، عميقة، سطحية طينية، طويلة، دائرية، على شكل الخندق أو زاوية. إذا كان الأمر كذلك، لماذا تستعمل التوراة كلمة حفرة؟ لتدل على أن الحادث المميت يفترض عمقاً يعادل عشرة أمثال عرض اليد، وإذا ما سقط حمار أو ثور في حفرة أقل عمقاً من ذلك ومات فيها، فالمسؤول من حفر الحفرة، وإذا ما جرح الحيوان فهناك مسؤولية أيضاً»

الأضرار التي سببها رعي القطيع في ملكية خاصة دون إذن من صاحبها. «إذا جمع أحدهم نعاجاً في زريبة وأقفل عليها بشكل مناسب، فهو غير مسؤول إذا قام القطيع بكسر السياج وتسبب بالأضرار. وهو غير مسؤول في الحالة التي يكسر فيها السياج أو الأبواب بواسطة لصوص وهرب القطيع وتسبَّب في الأضرار. وإذا قام اللصوص بفك رباط بعض الحيوانات، وتسببت في الضرر فالمسؤولية تقع على اللصوص.

إذا ترك أحدهم قطيعاً في العراء، وأوكل به إلى أصمٍّ أبكم، أو لمعتوه، أو قاصر، ومن ثمَّ انطلق القطيع إلى أرض الغير مسبباً الأضرار، فمالك القطيع مسؤول عن جميع الأضرار. لكن عندما يوكلها إلى راعٍ، فالأخير هو المسؤول وليس المالك. إذا سطت بعض الحيوانات من الطريق العام على بستان أخفض من الطريق، يجب تعويض ما أكلته الحيوانات. أما إذا دخلت البستان من بابه العادي فيجب عندها دفع كامل الضرر.

إذا أودع أحدهم أملاكاً شخصية في حقل غيره دون طلب، ودمَّرت حيوانات صاحب الحقل هذه الأملاك، فلا مكان هنا للتعويض، أما إذا كانت الأشياء المودعة تسبب بعض الأضرار لحيوانات صاحب الحقل، فالمودع مسؤول عن ذلك. لكن عند وجود تفويض أو موافقة المالك، فصاحب الأشياء المودعة غير مسؤول.

إليكم بعض المواد التي تدخل تحت هذا العنوان: حريق: «من يجلب مواد مشتعلة مع أصم ـ أبكم، معتوه، طفل قاصر، فإنه لا يتعرض لأي قصاص بشري، لكنه يستوجب عقاب السماء. إذا أوكل نقل المواد المشتعلة لشخص عاقل، عندها يكون مسؤولاً. إذا كان أحدهم يحمل النار، ويمشي شخص آخر خلفه يحمل مادة قابلة للاشتعال، فالأخر مسؤول. أما إذا كان يمشي أمام حامل النار، فلا مسؤولية تقع على الأخير. إذا حضر شخص ثالث وسبَّب الحريق، فهو المسؤول، أما إذا تسبَّبت الريح بفعل الحريق فلا تقع المسؤولية على أحد.

إذا انطلقت شرارة تحت مطرقة مسببة الضرر، فعلى الحداد الإجابة على ذلك. إذا سار جمل محملاً بالكتان على الطريق العام، ودخل قليل من الكتان حانوت أحدهم واحترق بملامسة مصباح التاجر مسبباً نشوب حريق في البناء، فإن مالك حمل الكتان هو المسؤول، لكن إذا ترك الحانوتي المصباح مشتعلاً خارج المحل فصاحب الكتان لا يتحمل المسؤولية. يقول الحاخام جودا «يستثنى من ذلك إذا كان المصباح هو مصباح العيد «خانّوخا».

في نصفه الثاني يعالج «بابا خمّا» الأضرار الجنائية الناتجة عن السرقة، السطو العنيف، قطع الطرق (اللصوصية). فيما يتعلق بالسرقة، توضح التوراة بعض المميزات، فهي تطلب أحياناً التعويض بخمسة أضعاف، أو أربعة أضعاف وأحياناً النصف، [**إذا سرق أحدٌ ثوراً أو شاة فذبحه أو باعه فليعوض بدل الثور خمسة وبدل الشاة أربعاً** (1)، **وإن وُجدت السرقة في يده حيَّة من ثور أو حمار أو شاة فليعوض بدل الواحد اثنين** (4)، **إذا رفع إنساناً لصاحبه فضة أو أمتعة ليحفظها فسرقت من منزله فإن وجد السارق عَوَّض مثلين**] (خروج 22، 1-4-7). [**وإن وُجدت السرقة في يده حيَّة من ثور أو حمار أو شاة فليعوض بدل الواحد اثنين**] خروج (22، 4). [**إذا دفع إنسان إلى صاحبه فضة أو أمتعة ليحفظها فسرقت من منزله فإن وجد السارق عُوِّض مثلين**] (خروج 22، 7). يقدم التلمود شرحاً إيحائياً: «كان تلاميذ جوخانان بن زكاي يسألونه: لماذا التورا تعاقب السارق بقسوة؟ (من اختلس يجب أن يدفع أربع أو خمس أضعاف عنه)، أكثر من (المعتدي الذي يقتحم منزلاً بالخلع أو الكسر ويدفع ضعف سرقاته)؟ - يجيب الحاخام: المهاجم يساوي بين السيد وعبده، عندما يقوم بالعمل سراً، ولكن السارق مختلف، يتصرَّف كأنه في الأعالي لا تراقبه عين ولا تسمعه أذن».

«سيدفع خمسة ثيران مقابل ثور واحد، وأربع نعاج مقابل الواحدة» لهذه القاعدة برأي التلمود سببان: يقول الحاخام مئير»: انظروا ما هي الفضيلة الكبرى للعمل: «السارق الذي يخرج ثوراً من عمله (يحرم مالكه من إكمال عمله، لكن عندما يتعلق الأمر بنعجة، فلا ضياع للعمل، من هنا تأتي نسبة أربعة أضعاف بدلاً عن خمسة. بينما يقول الحاخام جوخان بن زكّاي: انظروا أهمية الكرامة الشخصية، يمشي الثور على أربع، والسارق يدفع خمسة أضعاف ثمن سرقته. لكن بالنسبة للخروف،

فالسارق حمله ليسرقه، وبذلك يفقد كرامته، فلن يعوض إلا بأربعة أضعاف.

التعويض بنسبة الضعف موصوف غالباً بالرد أكثر من أربع أو خمس أضعاف، لأن الأول يطبّق على الأشياء كما سائر الكائنات الحية، بينما لا تعني الأخيرة سوى ثور نعجة [**إذا سرق أحد ثوراً أو نعجة أو شاة فذبحه أو باعه فليعوض بدل الثور خمسة وبدل الشاة أربعاً**] (خروج 22،1). من يسرق لصاً فلا يعيد إليه الضعف، ومن يذبح أو يبيع حيواناً مسروقاً، فلا يعيد لسارقه أربعة أو خمسة أضعاف.

تقضي القناعة بسرقة (ثور، شاة) وجود شاهدين، وتأكيد القناعة بشاهدين آخرين، أنه ذبح وباع هذا الحيوان، فإنه سيدفع أربعة أو خمسة أضعاف القيمة. الشيء نفسه: إذا سرقه وذبحه يوم السبت، للإنصراف إلى عباده الأوثان ـ إذا سرق، وذبح، وباع الحيوان في يوم الغفران ـ إذا سرق لأبيه، ثم باع وذبح وتوفي والده فوراً ـ إذا سرق الحيوان وذبحه وقدَّمه فيما بعد للهيكل فإنه يُغرَّم بالإرجاع المضاعف أربع أو خمس مرات ـ إذا سرق وذبح الحيوان لاستخدامه كعلاج، أو ليطعم الكلاب، أو إذا ذبحه في ساحة المعبد بدوافع التدنيس. فإن الحاخام شمعون يبرئه في الحالتين الأخيرتين.

إذا كانت القناعة بوجود شاهدين على سرقة الثور والشاة، وشاهده أحدهم شخصياً أنه ذبح الحيوان، فيجب تغريمه بالضعف، لا أربعة أو خمسة أضعاف، سيكون الشيء نفسه فيما لو سرق وذبح الحيوان يوم السبت قصد الانصراف لعبادة الأوثان، أو إذا سرقه من أبيه الذي مات بعد ذلك فوراً، ولو ذبحه بعد موت أبيه أو باعه، أو إذا سرقه وقدَّمه للمعبد، ثم ذبحه وباعه خروج (1،2،4،7).

الشكوى الناتجة عن أضرار العنف، يمكن أن تكون من صلاحيات خمس فئات قضائية: من يمارس العنف على قريبه، فهو ملزم بالتعويض لخمسة أشياء: الضرر، العذاب والألم، العلاج حتى الشفاء، زمن التوقف عن العمل (البطالة)، الإذلال.

الضرر: إذا فقدت عين واحدة أو الاثنتين، قطع اليد، كسر الساق، فتعامل الضحية كرقيق يباع في السوق، ويجري تقدير قيمته قبل وبعد التعدي. العذاب: إذا كان الشخص محروقاً بعدة حروق وبأعماق متفاوتة بواسطة سيخ، أو مسمار، حتى لو كان على ظفر (في اليد أو القدم) دون رضوض، يُحسب في نفس ظروف «شخص» إذا ما تعرض لنفس العذاب والمعاناة.

العلاج حتى الشفاء: إذا حصل جرح، فإن مسببه ملزم بدفع العناية الطبية. وهو

مسؤول أيضاً عن الوزمة (الانتفاخ) إذا حدث بسبب الجرح، ثم عاد وانفتح من جديد، ثم شُفي للمرة الثانية، ثم انفتح أيضاً، فإن جميع تكاليف العلاج تقع على عاتق الفاعل؛ إذا حدث شفاء كامل، يعفى عندها من دفع العلاج.

التوقف عن العمل: هذه الجريمة مثلها كمثل حارس مزرعة خيار (يمكن أن يكون أكتع أو مقعد) لأنه يتلقى من الآن وصاعداً ثمن يده أو قدمه.

الإذلال: تتعلق بالوضع القانوني للفرد المسبب ولمن تعرض له. تحدد هذه الشكوى الأخيرة بما يلي: إذا ضرب أحدهم قريبه (بقبضة)، فعليه أن يدفع (سبلاً، شيكلاً) واحداً وتعادل 4 زوز وبحسب رأي آخر يدفع «مانا» (وتعادل مئة زوز إذا صفعه براحة اليد يدفع عندها مائتي «زوز»)، وبظهر اليد /400/ زوز.

إذا شدَّه بأذنه أو شعره، وإذا بصق وأصاب بصاقه الآخر، إذا نزع عنه ثيابه، أو إذا رفع غطاء الرأس لامرأة في ساحة عامة، عليه دفع /400/ زوز. الكل يتعلق بشهرة وسمعة الشخص المهاجم، لكن الحاخام عقبة كان يقول: حتى الفقير في إسرائيل، يجب اعتباره شخصاً حراً تعرض لظروف مضادة، لأنه ينحدر من إبراهيم وإسحق ويعقوب.

بخصوص هذه الفئة من الأضرار، تناقش الجمارا المدلول كما جاء في الكتاب المقدس. كان الحاخامات يرفضون بقوة، نظرية العقوبات الجسدية الواجب تطبيقها على مسببي الإهانات من هذا النوع. وكانوا يؤكدون، على حكم القضاء بالتعويض المالي.

[**وعيناً بعين وسنّاً بسن ويداً بيد ورجْلاً برجْلٍ**] خروج (21، 24) هذا معناه الدفع بالمال مالاً تقول: يعني هذا قلع عين المذنب ـ لنفرض أن العين الضائعة كانت كبيرة والأخرى صغيرة، فكيف يطبق هذا عندئذ؟ حسب التوراة: عين بعين؟ أو لنفرض أن كفيفاً فقأ عين أحدهم أو أن أكتعاً قطع ذراع شخص آخر، وأن مقعداً قطع ساقي قريبه، فكيف تطبق عليه هذه القاعدة: عين بعين؟ تعلن النورا (أحبار 24، 22) [**حُكم واحدٌ يكون لكم للغريب وللصريح إلي أنا الرب إلهكم**] قانون متساوٍ للجميع.

في المقام الأخير يهتم المؤلف نفسه السرقة بقوة السلاح أو اللصوصية (قطع الطرق). يقول بهذا الخصوص: إذا سرق أحدهم خشباً يعود لشخص آخر، ليصنع منه أثاثاً، أو صوفاً ليصنع منه ثياباً، فإنه سيدفع القيمة الإجمالية لصاحبه. إذا سرق

لأحدهم بقرة حاملاً، وأنجبت فيما بعد، أو سرق خروفاً مكسيّاً بالصوف، وقام بجز صوفه. إذا سرق أحدهم بقرة لا تنجب إلا إذا كانت في حوزته، وإذا سرق حملاً لا ينمو صوفه إلا بعد جزِّه، فإنه سيدفع قيمة الحيوان لحظة سرقته. إنها القاعدة العامة: أي قاطع طريق عليه دفعُ قيمة ما سرقه. إذا سرق أحدهم من شخص حيواناً أو عبداً رقيقاً من الذين هرموا، فإنه سيدفع القيمة لحظة السرقة. يصرِّح الحاخام مئير: عندما يتعلق الأمر بالرقيق فإنه يكفي القول: إليك ما يخصك. إذا سُرِقت قطعة نقود تخصك والتي ضاعت، أو ثماراً تعفنت أو خمراً فاسداً، فإنه سيدفع القيمة الأولية المحسوبة في يوم السرقة.

6 ـ ملكية الأشياء، والعثور عليها

•

يعالج المؤلف «بابا ميتزيا» المسائل المختلفة المتعلقة بالتملك، ونقل الملكية، وسنشير في الفقرة التالية وما يليها إلى معرفة ملكية شيء ثم العثور عليه، عندما لا يحضر صاحبه للمطالبة به. متخاصمان على ثوب يمثلان أمام المحكمة، يقول أحدهما: «لقد عثرتُ عليه»؛ ويقول الآخر الشيء نفسه إذا أصرَّ كل منهما على ملكية الثوب؛ فعليهما القسم، مقسماً أن حقَّه هذا الشيء لا يمتد إلى أقل من النصف عندئذ وزع إلى قسمين بينهما.

إذا قال أحدهما: «الثوب كُلُه لي» والآخر «أملك نصفه»، ويقسم الأول أن حقه يشمل على الأقل ثلاثة أرباع، والآخر الربع، عندها يمنحان الكميات بالترتيب.

إذا امتطى شخصان حصاناً، أو امتطاه أحدهما وقاده الآخر، وإذا قال كل منهما «الحصان لي»، يُقسم كل منهما أن حقَّه بالحصان ليس أقل من النصف؛ عندها يتم التوزيع مناصفة بينهما. إذا اعترفا أنهما يملكانه معاً في نفس الوقت، أو إذا كان لديهم شهود ويؤكدون الواقعة، فتجري القسمة دون القسَمْ.

إذا كان أحدهم مسافراً على الطريق، راكباً دابة، ويلحظ شيئاً مفقوداً ويقول لرفيقه: أعطني إياه، فإذا التقطه رفيقه وقال: هذا الشيء ملكي، فإن مطالبته مقبولة.

لكن إذا أعطى الشيء إلى الراكب ثم طالب به لاحقاً، فالطلب لن يكون مقبولاً.

إذا شاهد أحدهم شيئاً وهمَّ بالتقاطه، وسبقه آخر لذلك، يحق للأول المطالبة به.

ما يعثر عليه الابن الأصغر، البنت الصغرى، إذا كان الرفيق رجلاً أو امرأة وثنية، أو زوجة، فالشيء يخص الأخير إذا كان الابن والابنة راشدين، الرقيق رجلاً وامرأة إسرائيليين، والزوجة مطلقة، حتى وإن لم يدفع لها الزوج المبلغ المترتب عليه في عقد الزواج، فالشيء الذي يُعثر عليه يخص من اكتشفه أو وجده أولاً.

إن مبدأ كل ما يُعثر عليه يُحفظ، لا يطبق إلا عندما يتم التخلي عن أمل اكتشاف المالك الأول. وَوَجَبَ على من وجده الإعلان عنه. السبب نفسه عندما يتعلق الأمر بالعثور على أشياء لا تحمل أي علاقة مميزة جديرة بالتعرف إلى مالكها الحقيقي، أو أشياء تُلفت أوصافها بحيث يصعب التعرُّف إليها أو وصفها بدقة.

«بعض الأشياء التي يُعثر عليها تخصُّ من وجدها، أما بالنسبة للأشياء الأخرى، فمن واجب مكتشفها الإعلام أنه عثر عليها. وهناك أشياء تخص من وجدها وقد تكون مبعثرة في أماكن متفرقة: قطع من دراهم مندثرة، حزم من القمح ساقطة على الطريق العام، قطع من التين المجفف، قطع من الخبز سقطت من خباز، أسماك مربوطة ببعضها، قطع من اللحم، جزّة صوف بحالتها الطبيعية، جذوعٌ من الكتان، خيوطٌ من الصوف المصبوغ. جميعها تخص مكتشفها. وكما يقول الحاخام مئير (لأن هذه الأشياء لا تعود ملكيتها لأحد). لكن الحاخام جود يقول: كل ما يعثر عليه ويحمل مؤشراً مميزاً يجب أن يصرَّح به، مثلاً كعكة من التين اليابس، بقايا وعاء قطعٌ من الدراهم مرفقة بقطعة خبز.

بالنسبة للأشياء التالية: فالتصريح عنها واجب: ثمار في وعاء، وعاء فارغ، كيس دراهم فارغ، كومة من الثمار، أكوامٌ من قطع الدراهم، ثلاث قطع دراهم منضدة فوق بعضها، حزمٌ من القمح سقطت من ملكية خاصة، قطعٌ من الخبز صُنعت في المنزل، جزَّة من الصوف واردة من الصانع. جرارٌ من النبيذ أو الزيت.

إذا عثر أحدهم على شيء في حانوت فذلك يخصه (قد تعود ملكية الشيء إلى زبون لا تُعرف هويته). وإذا عُثر على الشيء على طاولة التاجر، فهذا الشيء يعود للتاجر. إذا وجد مقابل صرَّاف، فالشيء يعود لمكتشفه؛ الشيء بين المكان وطاولة الصَّرف فهو يخص الصرَّاف. إذا ذهب أحدهم لجلب الثمار من قريبه، وعثر بداخلها

على بعض الدراهم فهي له، لكن إذا كانت الدراهم مغلفة فعليه الإعلان عن اكتشافها.

كم من الوقت يلزم للمكتشف الإعلان عمّا وجده؟ حتى يعرف ذلك جيرانه كما يقول الحاخام مئير، لكن الحاخام يهودا يقول: خلال رحلات الحج العلنية، وطوال سبعة أيام بعد آخر حج، لإعطاء الناس الذين علموا مهلة ثلاثة أيام للعودة إلى ديارهم. ثلاثة أيام للرؤية ويوم لمفاوضة المكتشف. من يطالب عليه أن يشير بدقة إلى طبيعة الشيء المفقود، لكن ليس علاماته المميزة، وعلى من وجده أن لا يسلمه له، إذا كان من يطالب شخصاً عديم الثقة، فيجب عدم تسليمه الشيء، حتى لو أشار إلى العلامات المميزة. وإذا كان الأمر يتعلق بحيوان، يعوَّض عن مصاريف خدمته، وعلى من وجده الاعتناء به، إذا لم تكن الحال كذلك عليه بيعه.

ما هو مصير ثمن الحيوان؟ يقول الحاخام طرفون: يمكن تبريره، بالقول أنه أضاع ثمنه. أما الحاخام عقبة فله رأي معاكس. في أورشليم مكان يدعى «حجر الالتماس» من أضاع شيئاً يذهب إليه. يعلن المكتشف عن الشيء الذي وجده. ويشير من فقده إلى صفاته ويسترده، وبعد هدم المعبد، يحضرون إلى المكان وينادون بأعلى صوتهم، أو يعلنون عن فقدان شيء في الكنيس، أو بيوت الدراسة، لكن عندما تضاعف عدد اللامبالين باحترام القانون، يُكتفى بإعلام المعارف والجيران.

7 ـ الإيداع ـ الإقراض

ورد في سفر الخروج الفصل الثاني والعشرين من 7 ـ 15 ما يلي: [**إذا دفع إنسان لصاحبه أو أمتعته ليحفظها وسرقت من منزله فإن وُجد السارق يعوِّض مثلين**] (7)، [**إذا لم يوجد السارق يُقدَّم صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف انه لم يمد يده إلى مُلك صاحبه**] (8)، [**كل دعوى جناية في ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو كل ضالة يقال فيها الأمر كذا فإلى الآلهة تُرفع الدعوى ومن تحكم الآلهة عليه يُعوِّض صاحبه بمثلين**] (9)، [**إذا دفع أحد إلى صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو شيئاً من سائر البهائم ليحفظه فمات وتعيَّب أو غُنم ولم يره راءٍ**] (10)، [**فيمين بالرب تكون**

بينهما إنه لم يمدَّ يده إلى ملك صاحبه فيقبلها الصاحب وهو لا يُعوِّض شيئاً] (11)، **[وإن سُرِق من عنده يُعوض صاحبَهُ]** (12)، **[فإن افتُرس فليأت به شهادة لا يعوِّض الفريسة]** (13)، **[وإن استعار أحد من صاحبه شيئاً فانكسر أو مات وليس ربُّه معه يعوِّض]** (14)، **[وإن كان صاحبه معه فلا يعِّوض. وإن كان مستأجراً فقد مضى بأجرته]** (15).

ولهذا ميَّز الحاخامات أربع فئات من العقود الناظمة للإقراض: المجاني (خروج 7 - 9)، الاستعارة (خروج 14 - 15)، الإقراض مقابل مكافآت (خروج 10 - 15)، الاستئجار أو الإكراء هذا المبدأ العام توسَّع في مؤلف «بابا متزيا» الذي يُدقِّق مختلف الحالات التي من هذا النوع. «إذا اقتراض أحدهم حيواناً أو شيئاً من قريبه (ويتكفل العناية به دون مقابل)، فإذا ما فُقد أو سرق هذا الحيوان فعلى الموكل الدفع إذا رفض حلف اليمين. المبدأ: إذا كلُّ من استعار بصفة مجانية يقسم أنه ليس مسؤولاً، إذا اكتشف السارق، فإن عليه ردَّ ضعف القيمة، إذا باع الحيوان أو ذبحه، فسيدفع ذلك أربعة أو خمسة أضعاف لمن؟ للموكِّل.

«إذا أجَّر أحدهم بقرة إلى قريبه، ثم أعارها لشخص ثالث، وإذا ماتت البقرة بشكل طبيعي، يقوم المستأجر بأداء القسم بأنها ماتت بهذه الطريقة، وعلى المستعير دفع الثمن. كان الحاخام جوزيه يقول: «كيف يكون هذا ممكناً؟ هل يجب على المستأجر الإفادة من بقرة قريبه؟ عليه نقل السعر إلى مالكها الأول».

إذا أودع شخصان مبلغاً من المال لدى شخص ثالث، حيث أودع الأول «مانا» واحدة، والثاني مائتي «زوزا»، ومن ثم طالب الاثنان بالمبلغ الأعلى، فإن مودع الدين يعيد لكل منهما مائة زوزا ويحتفظ بالفائض أو الزيادة حتى مجيء إيليا (حسب المعتقدات الشعبية فإن النبي إيليا سيأتي ذات يوم ويحل جميع المشاكل العالقة. لكن هذا التعبير ينص على الاحتفاظ بالفائض إلى ما لا نهاية).

«إذا أقرض أحدهم مالاً إلى قريبه (دون مقابل)، وإذا وضع الأخير رزمة من المال أمام أحد أطفاله القاصرين وعبث بعها، فإن القريب مسؤول عن المال لأنه لم يقم بالمحافظة عليه جيداً وهو واجب على كل مؤتمن. وإذا حافظ قريبه على المال كما ينبغي فهو غير مسؤول.

«إذا ائتمن شخص مبلغاً من المال (كوديعة) إلى مصرفي، وسلَّمها مربوطة، فالمؤتَمن

لا يستطيع استخدامها، وهو في هذه الحالة غير مسؤول عن ضياعها. لو أن المبلغ سُلِّم إليه عدّاً ونقداً بقطع مفصولة عن بعضها، بحيث يمكنه استخدامها، فالمؤتمن يتحمل المسؤولية في حالة ضياع المبلغ. إذا لم يتعلق الأمر بمصرفي بل بشخص، وإن المال كان مربوطاً لا يجيز له استخدامه فالشخص المؤتمن غير المسؤول عن المال في حال ضياعه».

فيما يلي بعض القواعد المتعلقة بمسؤولية المستأجر:

«إذا أجر أحدهم حماره إلى شخص ليأخذه إلى الجبل غير أن المستأجر استخدمه في الوادي بنفس المسافة ثم مات الحمار، فهنا تتوجب المسؤولية» (لأنه في هذه الحالة لم يستخدم الحمار بالطريقة التي تمت فيها الاتفاقية وهي الصعود إلى الجبل).

«إذا استأجر كفيف حماراً ومن ثم صادرت الحكومة الحمار، عندها يمكن للمالك أن يقول للمستأجر «إليك ما يخصك، ولن أزودك بآخر».إذا جُرح الحمار أو مات، فيلزم المالك بتقديم حمار آخر لمن استأجره.

وإذا استأجر أحدهم حماراً ليأخذه إلى الجبل، ثم أنزله إلى الوادي وهرب الحمار فلا مسؤولية للمستأجر، وإذا هاج الحمار فهناك مسؤولية. وإذا استأجره ليأخذه إلى الوادي، وأخذه إلى الجبل أو بالعكس، وإذا هاج الحمار وهو يصعد الهضبة، توجب المسؤولية.

«إذا استأجر أحدهم بقرة «مسروجة» ليحرث بها على الجبل، لكنه أخذها ليحرث بها في الوادي وإذا انكسرت سكة المحراث فلا مسؤولية، وإذا استأجرها ليحرث بها في الوادي وانتقل ليحرث بها في الجبل، فهو المسؤول عن كسر المحراث فيما لو حصل. وإذا استأجرها لزراعة الخضار واستخدمها لزراعة الحبوب فهو غير مسؤول وإذا ما زُلَّت قدم البقرة وأعطبت، فهو مسؤول في الحالة المعاكسة، لأن النباتات تجعل الأرض قابلة للانزلاق.

«إذا استأجر أحدهم حماراً ليحمّل عليه وزناً محدداً من القمح، وفحمّله الوزن نفسه من الشعير فهو مسؤول في حال وقوع حادث للحيوان حامل الحمولة. إذ كان قد استأجره لحمل الحبوب، وقام بالعكس فهو مسؤول لأن حجم الحمولة الزائد يجعلها صعبة الحمل.

إذا قال أحدهم لشخص آخر «احفظ لي هذا الشيء» وفي مناسبة أخرى سأعطيك مكافأة على حفظه» هنا يوجد تعهد بالمكافأة. لو قال له: احتفظ بهذا لأجلي وأجابه

الثاني ضعه أمامي هنا، فهنا يوجد ائتمان دون مقابل. وإذا كان الشيء المودع ثماراً. فهنا تعهد مقابل مكافأة.

«من طُلب منه نقل برميل وأدى إلى كسره، فإذا كان البرميل موضع ائتمان أو لقاء مكافأة فيكون بتأدية القسم أنه لم يكن هناك إهمال، وبذلك يُعفى من أي مسؤولية».

ومن يكلف بحمل أداة في منزله، فإنه يكون مسؤولاً في حال ضياع أو سرقة هذه الأداة.

نفس المادة القانونية تطبق على من دُفع له أجر، لأنه تلقى شيئاً كإيداع.

جميع العمال مؤتمنون على عملهم لقاء مكافأة، غير أن الذين يقولون للمستخدم أو رب العمل عندما ينتهي العمل خذ ما هو لك وادفع لنا الباقي، فهم مؤتمنون بلا مقابل وغير مسؤولين عن صيانة الشيء.

ما يخص الاستعارة: إذا استعار أحدهم بقرة، فإنه يستعير بذلك خدمات مالكها. أما إذا استعارها مجاناً، أو استأجر خدمات المالك، ثم استعار البقرة، وإذا مات الحيوان أو سُرق فالمستعير غير مسؤول لأنه قيل: [**وإن استعار أحد من صاحبه شيئاً فانكسر أو مات وليس ربُّه معه يعوِّض**] (خروج 22،15). «يعير أحدهم بقرة لنصف النهار، ويؤجرها لآخر النهار النصف الثاني من النهار، أو يعيرها ليوم كامل ويؤجرها للغد أو يستعير بقرة ويؤجرها، وإذا ماتت البقرة، فماذا يقول معيرها: البقرة المستعارة هي الميتة، وقد يكون موتها قبل ساعة، ويقول آخر: لا أعرف شيئاً عن هذا فالمستعير هو المسؤول. لكن إذا قال مستأجرها: إن البقرة المؤجرة هي الميتة، أو ماتت بينما كنت قد أجَّرتها، والأخر يقول: أنا أجهل ذلك، فلا مسؤولية. إذا قال المُعير: إنها بقرة معارة، قال المستأجر إنها بقرة مؤجَّرة، فعلى الأخير يقع القسم. إذا قال الاثنان «نجهل ذلك» فتجري القرعة أمامهم.

إذا استعار أحدهم بقرة، وأرسلها لابنه أو عبده، أو مستخدمه، أو إلى ابن العبد والمستخدم، وقد تموت البقرة في طريقها إلى المستعير، فالمستعير غير مسؤول، لكن إذا طلب المستعير من المالك أن يرسلها له مع أحد من الأشخاص المذكورين أعلاه، أو إذا كان المعير قد قال له: سأرسلها لك بواسطة واحد منهم ووافق المستعير على ذلك. ففي هذه الحلة يكون المستعير مسؤولاً عند موت الحيوان (أثناء الطريق). يطبق القانون نفسه عند إعادة البقرة إلى مالكها.

8 ـ عن الاستئجار

يحدد المؤلف «بابا ميتزا» المسؤوليات بين مالك العقار والمستأجر. من يؤجر بيتاً لقريبه لمدة فصل الشتاء، لا يمكنه إخلاؤه بين عيد المظلة وعيد الحصاد (لدى اليهود) الأول من تشرين الأول (أكتوبر) والثاني من شهر أيار (مايو). فإذا أجَّره في الصيف، فعليه إعطاؤه إنذاراً مسبقاً بثلاثين يوماً، أما في المدن الكبرى فيكون الإنذار لمدة سنة سواء تمَّ تأجير البناء صيفاً أو شتاءً. وإذا كان الأمر يتعلق بحانوت، فمدة الإنذار نفسها في المدن الكبرى والصغرى.

كان الحاخام شمعون بن غماليل يقول: يجب أن تكون الفترة لثلاث سنوات بالنسبة لمحلات الخبازين والدباغين.

عند تأجير بناية، فالمالك ملزَمٌ بإصلاح الأبواب والأقفال، جميع الأعمال الضرورية للسكن. أما إذا أراد المستأجر إدخال تحسينات أفضل فتكون التصليحات على حسابه.

السماد يخص المؤجِّر، وليس للمستأجر إلا رماد المدفأة أو فرن المطبخ.

إذا أجر أحدهم بناء لسنة واحدة وأعلن أن السنة كبيسة فإن المؤجر يستفيد من شهر إضافي. كذلك الحال لو أن الإيجار شهري (السنة الكبيسة 13 أشهراً). حصل «لسيبفوريس» أن رجلاً استأجر بيت الحمام بإيجار سنوي قدره إثني عشر ديناراً ذهباً (أي دينار لكل شهر) فأعلن عن سنة إضافية كبيسة. عرضت القضية على الحاخامين شمعون بن غاماليل وجوزي اللذين قررا أن يوزع مكسب الشهر الكبيس مناصفة بين المالك والمستأجر.

إذا أجَّر أحدهم لقريبه بيتاً، وانهار البيت فيما بعد فهو ملزم بإعادة بنائه له. وإذا كان البيت صغيراً فعليه أن يعيد بناءه بأكبر مما كان. والعكس بالعكس، وإذا لم يكن هناك سوى بناء واحد فليس عليه ان يعيد بناء اثنين والعكس بالعكس. وعليه عدم زيادة عدد النوافذ إلا بموافقة الطرفين».

إذا تلقَّى أحدهم من قريبه حقلاً، فعليه التقيد بالنواحي العملية المتعلقة بالحصاد والنباتات الواجب اقتلاعها ومن ثم الفلاحة بعد الحصاد لإتلاف الأعشاب

الضارة. كل شيء خاضع للتقليد المحلي. وكما يتقاسم المالك والمزارع البذار (الحبوب) فإنهما يتقاسمان الكرمة، وقصب الكرمة ودعائم النباتات الواجب تقديمها له.

إذا استأجر أحدهم حقلاً بحاجة إلى الري، أو حقلاً مزروعاً بالأشجار، وحصل أن نضبت مياه النبع الذي يروي الأرض وأصبحت الأشجار في خطر، فلن يكون بقدرة المستأجر تخفيض الإيجار المتفق عليه. ولن يتمكن من ذلك إلا إذا قال أولاً: أجزْني هذا الحقل المروي، والمشجَّر، وبعدها ينضب النبع وتذبل الأشجار.

إذا أستأجَرَ أحدهم حقلاً (شرط أن يدفع للمالك مقدماً حسب تقدير إنتاج الحقل)، ومن ثم ترك الحقل بوراً ليستريح، فيجري تقدير الإنتاج المحتمل، وعلى المستأجر أن يدفع للمالك حسب الاتفاق لأن العقد ينص على هذا الشرط «إذا تركتُ الحقل بوراً دون حراثة سأدفع التعويض المساوي لإنتاجه الأقصى».

وإذا استأجر أحدهم الحقل من شخص آخر، ورفض تعزيقه (قلع الأعشاب الضارة)، ويقول لمالكه: «ما همُّك» بما أني أدفع لك إيجار الأرض؟ هذا التبرير غير مقبول، لأن المالكَ سيجيب: «عليك أن تترك الحقل غداً، وسأقوم باستئصال الأعشاب الضارة التي تركتها تنمو بكثرة».

إذا استأجر أحدهم الحقل من شخص آخر (شرط أن يدفع نسبة مئوية معينة من الإنتاج)، وإذا كان الإنتاج ضعيفاً، بالغاً كومة واحدة (مدَّين)، فالمزارع ملزم بزراعة هذه الأرض. كان الحاخام يهودا يقول «كيف يمكن استعمال هذه الكومة كمعيار؟». لكن مادام الحقل ينتج ما يكفي من الحبوب فالمزارع ملزم بزراعة الحقل من جديد.

من ضمن شروط عقد الإيجار، أنه إذا أتلف الجراد المحصول، أو حصلت فيضانات، عندها يمكن تخفيض الإيجار في الحالة التي تصيب فيها الكارثة كامل المنطقة، وإلا فلن يكون هناك أي تخفيض، وحسب قول الحاخام يهودا: إذا كان الإيجار محدداً نقداً، فلن يُخَفَّض أبداً (هذه المقولة ليس لها قوة القانون).

إذا كان الإيجار السنوي محدداً بـ عشرة (كورا) من القمح، وإذا كان القمح من نوعية سيئة فعلى المالك قبوله، وإذا كان القمح جيد النوعية بشكل استثنائي، فلا يحق للمزارع القول: «سأشتري قمحاً من نوعية متوسطة من السوق وبهذا أفي بالعقد» فالمزارع ملزم بتسليم القمح الذي جناه.

حقل مؤجر ليزرع بالشعير فقط دون القمح، ولكن إذا تم الاتفاق على زراعته

بالقمح، فيمكن للمزارع زراعته بالشعير (لأن القمح ينهك التربة أكثر من الشعير). كان الحاخام شمعون غامالييل يمنع أي إخلال بالعقد. أما إذا كان العقد يوصي بزراعة الحبوب، فلن يسمح له بزراعة الخضار، لكن العكس غير مقبول من قبل شمعون بن غماليل.

في حقل مؤجر لعدة سنوات /سبع سنوات على/ الأقل/ لن يُزرع فيه الكتان، أو الجمّيز. ولكن في حال تأكيد الإيجار لسبع سنوات فيمكن زراعة الكتان والجميز «السنة السبتية» تدخل ضمن فترة الإيجار المتفق عليه السنة السبتية: (هي السنة الأخيرة من السنوات السبع) والتي يوصي بها بالبذار والحصاد مقابل مبلغ قدره سبعمائة زوز لكن الإيجار الذي عقد لسبع سنوات لا يتضمن السنة السبتية.

فيما يتعلق بإيجار المنزل الذي يتعرض للأضرار، فإليكم القواعد المعتمدة. إذا كان الطابقان العلوي والسفلي يخصان شخصين مختلفين وانهار البناء، فكلاهما يتقاسمان الخشب والآجر، والجبس. ومن ثمَّ يبحثان بين الأنقاض على الآجر غير المكسور، ويحدد كل منهما نصيبه من الآجر الصالح، عندها تخفض قيمة الآجر كل حسب الضرر الذي أصابه من الآجر المكسور.

إذا كانت الطابقان العلوي والسفلي من المنزل يشغلهما شخصان مختلفان، وكانت أرض الطابق العلوي غير متينة والمالك يرفض إصلاحها، فيحق للمستأجر السكن في الطابق السفلي ريثما يقوم المالك بإصلاح الطابق العلوي. ويقول الحاخام جوزي: «إنَّ ساكن الطابق الأرضي مكلف بمهمة إصلاح السقف وعلى ساكن الطابق العلوي صيانة أرضية طابقه (هذا الرأي غير معتمد).

إذا كان الطابقان العلوي والسفلي يخصان شخصين مختلفين، ومن ثم انهار البناء، وطلب مالك الطابق العلوي من صاحب الطابق السفلي بإعادة بنائه، واصطدم طلبه بالرفض، يمكن لمالك الطابق العلوي إعادة بناء الطابقين والسكن بهما، إلى أن يقوم الآخر بتسديد تكاليف إعادة البناء.

يقول الحاخام يهودا: «حتى في هذه الظروف، من يسكن المكان الذي يخص جاره، عليه دفع الإيجار، ولكن إذا قام ساكن الطابق العلوي بإعادة بناء الطابقين والسطح، يمكن شغل الطابق السفلي مجاناً، حتى يسدد صاحب الطابق السفلي تكاليف إعادة البناء».

9 ـ عن البيع والتسليم

يعالج المؤلف «بابا ميتزيا» الأعمال الخاصة بنقل الملكية، كالبيع والتبادل في الشراء ـ البيع، يتم النقل في اللحظة التي يتم فيها الدفع.

تسليم عملة من الذهب يتم الشراء بعملة من الفضة، والعكس غير صحيح. بالعملة النحاسية يتم شراء عملة الفضة والعكس غير صحيح. عملات غير مقبولة (عملة بلد أجنبي) تسدد لشراء عملة مقبولة والعكس غير صحيح. السبائك تسدّ مكان العملات في الشراء والعكس غير صحيح. القاعدة العامة: «تسليم أية أملاك يتم سدادها بممتلكات أخرى».

كيف يتم هذا؟ إذا أخذ الشاري منتجات دون دفع ثمنها نقداً، فلن يكون بمقدور الطرفين إبطال عقد البيع. أما إذا دفع الشاري ثمن البضاعة، فيمكن للطرفين إبطال البيع. وقد صرَّح الحاخامات أن من عاقب جيل الطوفان، وجيل الشتات سيعاقب أي واحد لم يفِ بعهده [**ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصوّر أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام، وهاءنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض يَهلُك**] (تكوين6، 5-14). [**وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً، ولما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك وقال بعضهم تعالوا نبن لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء ونقم لنا اسماً كي لا نتبدد على وجه الأرض فمنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما وقال الرب هو ذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه. والآن لا يكفُّون عما همّو به حتى يصنعوه. هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض، فبدَّدهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفّوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها. ومن هناك شتتهم الرب**].

يقول الحاخام شمعون: «من يملك المال فهو الناجح».

هناك تعسف أو غبن [**إذا بعت قريبك أو ابتعت منه فلا يغبن الواحد منكما أخاه**] (الأحبار 25 ـ 14) مثال: عند بيع أربعة دنانير من الفضة لقاء أربع وعشرين

«سيلاً» أو ما يعادل سدس سعر الشراء، فبعد كم من الزمن يستطيع المتضرر إلغاء الصفقة؟ يعطى المتضرر الوقت الكافي لإطلاع تاجر آخر على السلعة أو لشخص عالم بها.

يطبق قانون التعسف على البائع والمشتري وعلى التجار والشعب. ويقول الحاخام يهودا بأن هذا القانون لا يطبق على التاجر. الشخص المظلوم له الغلبة. إذا أراد ذلك يمكنه الطلب: أعد لي مالي، أو أعد ما أخذتَه مني ظلماً.

يطبق قانون التعسف على تجارة الرقيق، وفي مجال الملكية العقارية، وتسديد الديون، وكل ماله علاقاته بالهيكل.

هناك مبالغة في الحديث عن الشراء والبيع. يمنع على أي فرد أن يقول لقريبه: «ما سعر هذا»؟ إذا لم يكن ينوي الشراء.

مجموع الأسئلة المتعلقة بالبيع مدوَّنة في موسوعة «بابا باترا» مدقق فيها بشكل خاص ما يتضمنه وما لا يتضمنه بيع ملكية ما، كما دُوِّنت فيها قواعد خاصة بصفقات المواد القابلة للتلف.

إذا باع أحدهم منزلاً، ولم يكن الملحق تابعاً للمنزل، عند وجود مدخل للمنزل، ولا توجد ساحة داخلية ولا درابزين للسطح بما يعادل عشرة أضعاف عرض الكف. ويقول الحاخام يهودا عن ذلك: إذا كان لهذا السطح شكل الباب، فهو غير مباع كجزء من المنزل، حتى لو كان علو درابزينه لا يبلغ عشرة أضعاف عرض الكف.

البئر والخزان الكائنان تحت الأرض غير مشمولين بالمنزل، ورغم أن البائع قد حدَّد كتابياً عمق وعلو المنزل، فعلى الشاري البحث مع البائع عن أسلوب يحق له بموجبه استخدام البئر والخزان، ذلك هو رأي الحاخام عقبة. ولكن الحاخامات يصرِّحون بأنه لا حاجة له للبحث عن طريق لحق الاستخدام. ويقبل الحاخام عقبة أيضاً انه في حالة تحديد البائع أن البئر والخزان لا يدخلان ضمن عقد البيع، وإذا باعهما إلى شخص آخر واحتفظ لنفسه بما بقي من المنزل فيقول الحاخام عقبة: من غير الضروري الحصول عليه باللجوء إلى مخرج قانوني، بينما يرى باقي الحاخامات أن ذلك ضروري.

إذا باع أحدهم بيتاً فهذا يشمل الباب دون المفتاح، الصندوق الثابت وليس المتحرك

القطعة السفلى من الجاروش الثابتة غير المتحركة، ليس المنخل المتحرك الذي يستخدم لنخل الدقيق، لا المدفأة ولا فرن الطبخ فهما غير مشمولين بهذا البيع. جميع هذه المواد تدخل في أثاث المنزل المباع، إلا إذا كان المتعاملان قد وضعا شرطاً «المنزل ومحتوياته». إذا باع أحدهم داراً، باحة، آباراً، حفراً والأقبية مشمولة بعقد البيع لكن لا يوجد استثناء للأثاث، إذا نص عقد البيع على أن البيع يشمل الدار ومحتوياتها. وفي مختلف الأحوال قد يتخلى البائع عن الحمام ومعصرة الزيت والعنب التي يمكن تواجدها في الباحة.

يقول الحاخام أليعازر: إذا باع أحدهم داراً دون تحديد آخر، فإن ملكيته تنحصر في مساحة الدار فقط دون غيرها.

إذا باع أحدهم قارباً. فهذا البيع يتضمن الصواري ـ المقصورة ـ المرساة ـ أجهزة التوجيه لكنه لا يشمل الطاقم، والحاويات، والمؤونة الغذائية. غير أن جميع هذه الأشياء ستكون مشمولة إذا ما اشترط على أن يكون القارب بجميع محتوياته. بيع العربة لا يتضمن بيع الحيوانات التي تجرها. والعكس بالعكس. وبيعُ النِّير لا يشمل الثورين المقرونين والعكس بالعكس يقول الحاخام جودا: سعر الشراء يشير إلى ما كان قد بيع به. كيف هذا؟ إذا قال أحدهم: «بعني نيرك بمائتي زوز»، من الواضح أن النير الواحد لا يباع بهذا السعر المرتفع، ويعلق الحاخامات أن السعر ليس مقنعاً (التعسف هنا غير ممكن، حيث يكون الشاري على دراية بالسعر المرتفع، حتى يتمكن عند البيع من الإطراء على الزبون وتخفيض السعر).

إذا باع أحدهم حماراً، فإنه لا يبيع عدَّته (لكن إذا كانت عدة ركوب الحمار موجودة على ظهره عند البيع، عندئذ يباع الحمار مع عدته). «يقول ناحوم ميدت» أن الحاخام جودا قال: هذه الأشياء تكون مشمولة بالبيع وأحياناً غير مشمولة. إلا إذا قال الشاري: «بيعني حمارك هذا مع عُدَّته أو حمله». وإذا سأل: «هل هذا حمارك؟ بعني إياه» فالبيع لا يشمل الحمل.

إذا باع أحدهم أتاناً، (حماراً صغيراً)، فالبيع يتضمن أنثى الحمار (الأم)، أما إذا باع بقرة، فإنه لا يبيع عجلها. (تفسر الجامارا بأن البيع في هذه الحالة يجب أن يتوضح بما يلي: يقول البائع أبيعك الحمارة المرضعة، أو البقرة الحلوب. إذ من الواضح أن الحمار الصغير يباع مع أمه كون حليبها غير مفيد. أما البقرة فلا تباع مع رضيعها كون حليبها

مفيداً ويباع). إذا باع أحدهم كومة من القمامة، فهذا يتضمن السماد الموجود في أسفلها. وبيع البئر يشمل ماءه، وخلية النحل تشمل النحل فيها. بينما الذي يشتري الطيور من الحماماتي (بائع الحمام) عليه أن يترك الفقسة الأولى (البيض الذي يحضنه الطير، وبالتالي مجموع الطيور الفراخ التي تولد في حضنه واحدة) من يشتري خلية نحل، يأخذ ثلاثة من نحلها. ويمكن للمالك أن يجعل باقي النحل عاقراً دون ملكات. ومن يشتري أقراص النحل من الخلية عليه ترك قرصين بداخلها لتغذية النحل. ومن يشتري أشجار الزيتون لقطعها، عليها ترك فسائل بطول القبضتين لتعطي فروعاً جديدة.

إذا باع أحدهم لقريبه ثماراً أو بذوراً دون تحديد ما إذا كانت للزراعة أو الاستهلاك، ولم تنمُ، حتى لو كانت بذور كتان (عادة تكون معدة للزرع)، فالبائع ليس ملزماً بتحمل المسؤولية. يقول الحاخام شمعون بن غامائيل: إذا باع أحدهم بذوراً للزراعة لتنبت وتعطي محصولاً، ومن ثمَّ كانت الثمار الناتجة غير قابلة للاستهلاك أو الأكل، فعلى البائع تحمل المسؤولية.

إذا باع أحدهم ثماراً لقريبه، مقابل رب «كاب» وفضلات مقابل «سيا» واحدة (الكاب تعادل ستُّ سيا)، إذا كانت الثمار تيناً فهو ملزم بقبول 10٪ منها مليئة بالدود، وإذا اشترى محتويات بيت المؤونة، عليه قبول شراء عشرة براميل من الخمر الحامض. إذا اشترى آنية من الغضار مصنوعة من غضار شارون السيئ المواصفات، فعليه قبولها غير قابلة للاستخدام.

«إذا باع أحدهم لقريبه خمراً، ثم وجد أن 10٪ من الخمر حامضاً بعد مضي الوقت، فالبائع غير مرغم على قبول احتجاج الشاري أو إعادة الخمر، لو أن البائع يعلم أن نبيذه قابلاً للحموضة، وباعه بمظهر مخادع أو كاذب، فالصفقة ملغاة في هذه الحالة. إذا أعلن: «أبيعك خمراً معطراً ـ مكفولاً للحفظ)، فعلى النبيذ البقاء محفوظاً بحالة جيدة حتى عيد العنصرة أو الحصاد عند اليهود. وإذا باع النبيذ معتقاً، فيجب أن يكون من قطاف السنة السابقة، وإذا باعه قديماً مكفولاً فيجب أن يكون النبيذ مصنوعاً منذ ثلاث سنوات على الأقل.

10 ـ التقادم

تشكل الملكية المعترف بها في القانون اليهودي للعقارات أو التصرف بثروة منقولة، مستنداً يسمح بالمطالبة في الملكية الشرعية. هذا المستند أو الحق الناتج منه يدعى «خازكا» (منح، أشغال) تطبق قاعدة «خازكا» على البيوت، الآبار، الحفر، الأقبية، بيوت الحمام، الحمامات، معاصر الزيتون والعنب، حقول الرعي، الرقيق وكل شيء ينتج من الثمار، وتكون المدة لثلاث سنوات متتالية.

بالنسبة لحقل لا يحتاج للري، يمكن لهذه السنوات أن تكون متعاقبة. كان الحاخام إسماعيل يقول: إذا أشغل الحقل خلال الثلاثة أشهر في نهاية السنة الأولى، ثم ثلاثة أشهر من بداية الثالثة ثم أثني عشر شهراً من الثانية، أي ثمانية عشر شهراً (فهذا يكفي لتثبيت الخازكا) (الفترة الأولى يتم إشغالها وقت الفلاحة والبذار، والأخيرة عند الحصاد، ومن وجهة النظر الزراعية فإنه بذلك يشغل الحقل مدة ثلاث سنوات). يضيف الحاخام إسماعيل: فيما يخص الثمانية عشر شهراً يطبق الرأي على حقل ينتج حبوباً (أو على أرض تنتج محصولاً واحداً)، وبالنسبة لبستان (حيث توجد فيه أنواع مختلفة من المحاصيل التي يتم جنيها في مختلف فصول السنة) حيث يُقطف العنب أولاً، وفي فترة ثانية الزيتون، وفيما بعد التين وهذا يتطلب ثلاث سنوات للحصول على «الخازكا».

من وجهة نظر تقادمية، يمكن التمييز بين ثلاث مناطق: اليهودية، الجليل، غور الأردن إذا كان المالك مقيماً في اليهودية وطالب أحدهم «بالخازكا» على مجال ملكيته في الجليل فالقضية لا تحل إلا إذا أقام كلاهما في نفس المنطقة. وكان الحاخام يهودا يقول: إن مهلة الثلاث سنوات مطلوبة فقط من أجل فيما لو كان المالك يقيم في إسبانيا مثلاً (أشير إلى هذا البلد كونه بعيداً وأن السفر منه إلى فلسطين كان يستغرق أكثر من عام). وإذا كان شخص ما يشغل حقلاً في (اليهودية) منذ عام، يترك له سنة ليتمكن من أخذ العلم بذلك، وسنة ثانية كي يعود ويناقش حقه في المطالبة بالملكية.

«كل الحزوق» غير مصحوبة بمطالبة بالاسترداد، هي مرفوضة. كيف هذا؟ إذا قال أحدهما للشاغل: ماذا تفعل هنا في ملكيتي؟ وإذا أجاب: لم يحصل أن شكَّ أحدٌ بحقي أن أكون هنا. ـ فهذا لا يشكل «حزقاً»، لكن إذا أجاب: لأنك بعتني إياه، أو

لأنك وهبتني إياه، لقد باعني أبوك إياه، أو وهبني إياه، هنا يوجد «حزق». أما الملكية التي حصل عليها أحدهم عن طريق التركة أو الإرث، فلا ضرورة لأي مطالبة بالملكية (من أجل إثبات بأن هذه الملكية تخص والده الذي أوصاها له).

لا ينطبق قانون «الحزق» على العمال اليدويين التقنيين، وعلى الشركاء والمياومين، والحراس (من أجل هؤلاء، فاستمرارهم في العمل مدة ثلاث سنوات، لا تمنحهم حق المطالبة بالملكية). ليس للزوج حق على أملاك زوجته «بالخازكا» والعكس بالعكس. الشيء نفسه لأب وابنه. فعلى من تطبق القاعدة أعلاه؟ هل على من يطالب بالخازكا المعترض عليها من المالك، أو في حالة شخص قدّم هبة يريد إلغاءها، أو أخوة يتقاسمون أرضاً (وأحدهم يمتلك حصة أخيه)، أو على أحدهم صادرَ مُلكَ يهوديٍّ من أصل وثني.

(في حال موته دون وريث شرعي، هنا تعود الملكية لأكثر من شخص، ومع ذلك لا تأخذ هذه الحالة صفة التملك الشخصي)، إذا أقام هذا المالك باباً في سور بستان أو سياجاً، أو فتح ثغرة مهما كانت صغيرة في السياج فهذا المؤشر للملكية بشكل أساساً للحزق.

إليكم ما ينطبق وما لا ينطبق عليه الخازاكا: الاحتفاظ بقطيع ماشية في أرض الدار، استخدام فرن أو طاحون، تربية دواجن، وضع السماد، جميعها لا تشكل خازكا. ولكن الخازكا تنتج عن الوقائع التالية:

إقامة زريبة في مساحة محاطة بسور علوه عشرة أمثال عرضه كف اليد، الشيء نفسه بالنسبة للفرن والطاحون، الاحتفاظ بالطيور في البيت، أو إعداد مكان لحفظ الأسمدة في الحفر (يكون عمق الحفرة ثلاثة أضعاف عرض الكف)، أو أن يكون ارتفاع السماد عن الأرض ما يعادل ثلاثة أضعاف عرض الكف.

11 ـ التركات

الوصايا، انتقال العقارات، درجة القرابة المؤهلة للإرث، جميعها مواضيع بعض الفصول من مؤلف «بابا باترا».

بعض الأهل هم ورثة طبيعيون، ينقلون إرثهم الخاص، وآخرون ورثة فقط، والباقي ليسوا من الصنفين (الأب يورث أفضل أبنائه، وكذلك الابن يورث أفضل أبنائه عند موته وهكذا....). الأولاد حيال أبيهم، أخوة الأب يرثون ولكنهم لا يورِّثون: رجلٌ من أمه، زوج من زوجته، أولاد من إخوتهم المتوفين، تنتقل الملكية لهم لكنهم يرِّثون: المرأة، أبناؤها، امرأة إلى زوجها، أخوة الأم (أولاد هذه الأم) أخوة الأم لا يرثون عنها، ولا ينقلون إليها شيئاً.

عن تسلسل الإرث هو كما يلي: يقول الكتاب المقدس: [**أي رجل مات وليس له ابن فانقلوا ميراثه إلى ابنته**] (8) **وإن لم تكن له بنت فأعطوا ميراثه لأخوته** (9) **وإن لم يكن له أخوة فأعطوه لأعمامه** (10) **وإن لم يكن له أعمام لأدنى ذوي قرابى في عشيرته فيرثه** (11)] (أعداد 25، 8 - 9 - 10 - 11).

الابن وجميع أحفاده لهم الأولوية على البنت وأحفادها. وتأتي البنت قبل أخوة المتوفَّى، وجميع أحفادها يأتون بعدهم. يسبق أخوة المتوفَّى أعمامه (أخوة أبيه). القاعدة: في كل مكان يحتل فيه الشخص المقام الأول فإن خلفه يتبعه فوراً، لكن الأب يسبق كل من وراءه.

للأبناء والبنات حقوق متساوية في الإرث، لكن الابن الذكر يتلقى حصة مضاعفة من تركة الأب وليس من تركة الأم، ويُنفق على البنات من أملاك الأب وليس من أملاك الأم.

[**إذا كان لرجل زوجتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له كلتاهما. بنين المحبوبة والمكروهة وكان الابن البكر للمكروهة** (16)، **ففي يوم توريثه لبنيه ما يكون له ليس له أن يعطي حق البكرية للمكروهة** (16)، **ففي يوم توريثه لبنية ما يكون له. ليس له أن يعطي حق البكرية لابن المحبوبة دون ابن المكروهة البكر** (17)، **بل يعرف ابن المكروهة بكراً فيعطيه سهمين من جميع ما يوجد له إذا هو أوَّل قدرته، وله حق البكرية**] (18) (تثنية الاشتراع 21، 16 . 17 . 18). إذا صاغ رجل هذه الرغبة: فلان هو ابني البكر لكنه لن يحصل على حصة مضاعفة، أو أن فلاناً هو ابني ولكنه لن يرث أي شيء من أملاكي مع أخوته، هذا الإعلان يُعد ملغى لأنه مخالف لتعاليم التورا. إذا وزَّع شفهياً أملاكه على أولاده، وأعطى حصة أكبر للبعض وأقل للآخرين، دون أي امتياز للبكر، فوصيته يجب أن تطاع وتنفذ، إذا لم يلفظ كلمة

إرث. إذا كتب: على شكل هبة في البداية أو الوسط أو النهاية فالوصية شرعية ومقبولة. وإذا قال فلان (غير قريب) سيكون وريثي، بينما لديه ابنة أو ابن بالتبني، فهذا التصرف ملغى، ويعتبر مخالفاً لتعاليم وصايا التورا. كان الحاخام جوخانان بن باروكا يقول: إذا اختار شخصاً كفوءاً للموازنة فالشرط صالح، وإلا فهو ملغى. إذا أقام عقداً ورَّث بموجبه غريباً على أملاكه، متناسياً أولاده فالعقد شرعي، لكن الحاخامات يشجبون ذلك. يقول الحاخام «شمعون بن غاماليل» إذا لم يتصرف الأولاد ويسلكون السلوك الحسن فإن وصيته ستحترم لأنه أوصي بذلك.

فإذا قال أحدهم: هذا هو ابني، يضاف إيمانه وثقته إلى كلامه (فيما يخص الإرث)، لكن لو قال أحدهم: هذا هو أخي فلن يصدِّقه أحد، لكن يمكن حصول تقاسم الإرث مع الأخ الذي يعترف أنه كذلك.

إذا توفي هذا الشخص دون وريث، فالحصة التي تلقاها تعود للأخ الذي كان قد تقاسم معه أملاكه. الاخوة (الذين لم يعترفوا بقرابته) يرثون مع الذين كانوا يقبلونه. إذا مات أحدهم ووجدت له وصية، فإن هذه الوصية عديمة القيمة. لكن إذا وُجد أن في الوصية ما يختص بنقل أملاكه لشخص آخر، ينتمي أو لا ينتمي إلى ورثته، فكلامه يبقى صالحاً.

إذا تنازل أو ورَّث ماله لأطفاله، فهو مرغم على كتابة هذه العبارة: «من هذا اليوم وبعد موتيّ هذا هو رأي الحاخام يهودا. لكن الحاخام جوزيه يعلن، أن هذا ليس ضرورياً إذا ورَّث رجل ماله لابنه قبل موته، إذا قام موته، ولا يمكن للابن بيعه أثناء حياة والده يحتفظ بالتحكم وحق الانتفاع به. إذا قام الأب بالبيع فهذا لن يكون شرعياً حتى موته، وإذا باعه الابن، فلن يكون للمشتري أي حق على هذا الملك حتى وفاة الأب. وللأب مطلق الحرية في جني الثمار وإعطائها لمن يروق له، لكن المحصول الذي يبقى مقطوفاً بعد وفاة الأب تعود ملكيته إلى ورثتها. إذا خلف رجل العديد من الأولاد، بعضهم راشد والآخرون قاصرون، فالراشدون لهم الحق بارتداء الثياب على حساب الفئة الثانية، غير أن القاصرين يمكنهم التغذّي على حساب الراشدين ويتقاسمون معهم كل شيء بالطريقة نفسها.

إذا كان البالغون متزوجين (على حساب الإرث)، فيمكن للقاصرين فعل الشيء نفسه (على حساب الإرث) أيضاً، لكن إذا قال القُصَّر (بعد موت الأب): نريد أن

نتزوج على نفقة الإرث، كما فعلتم أنتم (أثناء حياته) فهذا لا يمكن أن يتم، لأن ما تركه الأب لهم محسوب على أنه هبة.

تنطبق هذه القواعد على البنات أيضاً، غير أنهن يملكن ميزة الأبناء يُنفق على البنات (خارج الإرث) على نفقة الأبناء وليس على نفقتهن. «إذا توفي رجل تاركاً أبناء وبنات، وإذا كان المُلك الموروث كبيراً جداً، فالأبناء يرثون ويوفرون كل ما يلزم للإنفاق على البنات، وإذا كان الإرث متواضعاً فالبنات يرثن والأبناء يذهبون للتسول. ويقول أدمون: هل لأنني ذَكرٌ عليَّ معاناة الفاقة مالياً؟ يقول الحاخام غامليل «أشارك أدمون الرأي».

الفصل الحادي عشر

الآخرة

1 ـ المسيح

على عكس الشعوب القديمة الأخرى، التي كانت تصنع عصرها الذهبي في الماضي المتوغل في القدم، كان اليهود ينتظرونه في المستقبل. ولمرات عدة، كان أنبياء إسرائيل يلمّحون إلى «الأيام الأخيرة»أو يوم الدينونة، التي تبلغ فيها العظمة القومية ذروتها. لقد انغرس هذا الأمل في مخيلة الشعب؛ ومع الزمن بدأت العجائب التي كان عليها إظهار الحقيقة في ذلك العالم تتعدد وتتكاثر. المستقبل المجيد يدور حول شخص (ماشياخ) أي المسيح الذي سيرسله الله ليرأس تدشين العصر الجديد والعجيب.

إن المسيح ورسالته كما ورد في التلمود، هو محط العديد من المراجع. دكتور واحد فقط ترك شيئاً من الشك يدوي في الأفق. إنه حاخام القرن الرابع المدعو هلّيل. كان يقول: ليس من مسيح لإسرائيل (حتى الذي سيأتي)، لأن المسيح أعطي لها في عهد حزقيال. وقد سببت هذه الملاحظة للحاخام هلّيل سخطاً عنيفاً، لكنه قُبل من بعض اليهود في عهد حزقيال، الذي كان منصفاً بتحقيق العديد من التنبؤات المسيحية لإشعيا، من هنا يُفهم لماذا يُبعد التلمود هذا الرأي بصورة قطعية.

ماذا تحمل كلمة Lemarb في وسط الحرف النهائي M من سفر إشعيا (9، 6) [**لأنه قد وُلد لنا ولد أعطي لنا ابنٌ فصارت الرئاسة على كتفه ودعي اسمه عجيباً مشيراً إلهاً جباراً أبا الأبد رئيس السلام**].

(الأحرف العبرية ك، م، ن، ب، س، تأخذ شكلاً واحداً عند وضعها في نهاية الكلمة. وفي سفر إشعيا (9، 6) الكلمة Lemarb تحمل في وسطها حرف M، حتى لو لم يكن حرفاً نهائياً، كان القدوس الواحد الممجد يريد أن يجعل من حزقيال، المسيح، ومن سينخاريب: جوج وماجوج.

(وقد فَسَّرنا سابقاً أن جوج، وماجوج اللذين ألقيا الخوف والرعب في العالم كانا قبل وجود المسيح). لكن عدالته المميزة أوجبت عليه هذه الملاحظة: «يا سيد الكون، داود ملك إسرائيل، ألف على شرفك التراتيل والصلوات، غير أنك لم تجعل منه مسيحاً. هل ترغب باختيار حزقيال مسيحاً: لقد منحته عجائب كثيرة، ولم يؤلف لك

نشيداً واحداً!». لكن عندما ودَّع الحاخام «جوخانان بن زكّاي» تلاميذه وهو على فراش الموت، وجّه إليهم هذه العبارة اللغز «حضّروا تاجاً لحزقيال ملك يهودا إنه آت».

يُلاحظ في هذه العبارة نبوءة بمجيء المسيح. إذا كان هذا صحيحاً فإن الحاخام اللامع من القرن الأول يجسد أو يماثل المسيح في حزقيال. إضافة لذلك، سنتحقق من أن هوية أو صفة المخلص أو المنقذ الآتي، قد تسببت في ظهور تسميات متعددة ومتنوعة.

ما كان العالم يؤمن به، هو أن إرسال المسيح كان يشكّل جزءاً من مخطط للخالق حول أصل الكون. «خلقتُ سبعة أشياء قبل العالم: التوراة، الندامة، جنة عدن (الفردوس)، جهنم، عرش المجد، المعبد واسم المسيح». ويُقرأ في مؤلف آخر: «عندما بدأ خلق العالم، كان الملك المسيح (سبق أن وُلد) لأنه خطر في ذهن الإله حتى قبل أن يُخلق العالم».

من سيكون المسيح؟ طبعاً كانت التخمينات المعدة لتحديده، قد أطلقت عنانها، وكانت تطلب إيضاحات من نصوص التوراة. كان الحاخامات مجمعين على القبول بأن المسيح سيكون كائناً بشرياً مكلفاً بالقيام بمهام تُناط به. لكن التلمود لا يُبشر في أي مكان منه عن الإيمان بمسيح فوق قدرة البشر.

بعض السلطات تشبهه بـ داود. إليكم كيف تُفسر هذه الآية من نبوءة هوشع (3-4،5) [**لأن بني إسرائيل يقعدون أياماً كثيرة لا ملك لهم ولا رئيس، ولا ذبيحة ولا نصب ولا أفود ولا ترانيم وبعد ذلك يرجع بنو إسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود ملكهم، ويهابون الرب وجودته في آخر الأيام**]: «يصرح الحاخامات: إن هذا هو المسيح الملك، إذا وُلد بين الأحياء، وهو اسم داود، إذا ولد بين الأموات». والنص في النبوءة له الاستنتاج نفسه. إنه يمنح عطاءات لملكه؛ رحيم بمسيحه (مسياخ) إلى داود، وذريته إلى الأبد. لم يكن مكتوباً إلى داود فقط، بل إلى داود وذريته. الرأي الغالب كان يجعل من المسيح واحداً من ذرية هذا الملك، وفي الأدب الحاخامي يدعى بشكل شائع «المسيح ابن داود».

النصوص التوراتية المفسّرة على أنها مسيحية، كانت تقدم سلسلة من الأسماء المتنوعة، قد تكون أسماء بعض تلامذة الحاخامات يتفنَّنون في اكتشاف اسم للمسيح مشابه لاسم معلمهم.

ما هو اسم المسيح؟ تقول مدرسة الحاخام شيلاً: إنه شيلو لأنه مكتوب «حتى مجيء شيلو» [**لا يزول صولجان من يهوذا ومُشترع من صلبه حتى يأتي شيلو وتطيعه الشعوب**] (تكوين 49، 10).

وكانت مدرسة الحاخام ينّاي تقول: ينُّون لأنه قيل: [**سيبقى اسمه ينُّون (ساطعاً) للأبد ما دامت الشمس**]. وكانت مدرسة خانّينا تقول أيضاً: اسمه «خانّينا أي الرحمة لأنه قيل [**فأقذفكم في هذه الأرض إلى ارض لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم فهناك تعبدون آلهة أُخر نهاراً وليلاً يقول الرب لأني لا أهبكم الرحمة (خانينا)**] (نبوءة إرميا 16، 13).

ويؤكد آخرون أن اسمه «المعزِّي» «مينا خيم» ابن حزقيا حيث قيل: [**على هذه أنا باكية، وعيناي تنهملان بالماء. إذ قد ابتعد عني كل معزٍّ يردُّ نفسي**] (مراثي إرميا 1 ـ 16). ويؤكد الحاخامات أيضاً أنه يدعى «العضوي المصاب بالبرص من مدرسة الحاخام يهود الأمير» لأنه قيل: [**إنه لقد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا فحسبناه ذا برص مضروباً من الله ومُذلّلاً**] (نبوءة إشعيا 53، 4) (يستعير الربانية هنا كلمة ضرب التي تعني البرص). وقد صرَّح «راب» أن القدوس الواحد الممجد سيظهر فيما بعد لإسرائيل داود آخر، لأنه كُتب: [**بل يتعبدون للرب إلههم ولداود وملكهم الذي أقيمه لهم**] (نبوءة إرميا 30 ـ 9)، ولم يقل: «الذي أقمته»، بل «الذي أقيمه».

فيما يلي أسماء أخرى اقترحها بعض الحاخامين:

كان الحاخام يشوع بن لاوي يقول: يدعى تزيماخ (النبت) كما جاء في نبوءة زكريا (6 ـ 12) [**وكلّمه قائلاً هكذا تكلم رب الجنود قائلاً هو ذا الرجل الذي اسمه النبت إنه ينبت من ذاته ويبني هيكل الرب**].

يقول الحاخام يودان: إن اسمه «ميناخيم». وبعدهم يقول الحاخام أيبو: هذان الاسمان متشابهان لأن أحرفهما تعطي نفس العدد الرقمي. سأل الحاخام نخمان الحاخام اسحق: هل تعلم متى سيأتي (بار نافليه) (ابن الذي سقط)؟ «من هو بار نافليه إذن»؟ هو المسيح. هل تسمي «بار نافليه المسيح؟ نعم لأنه قيل: [**في ذلك اليوم أقيمُ مسكن داود الذي سقط وأسدُّ ثُلَمه وأقيم ما تهدَّم منه وأبنيه كما كان في الأيام القديمة**] (نبوءة عاموس 9 ـ 11).

يصادف لمرة واحدة فقط ذكر صورة غريبة عجيبة تدعى «المسيح بن يوسف» إليكم هذا النص:

كان المسيح بن يوسف قد قُتل كما كتب: [**وأُفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات فينظرون إليَّ أنا الذي طعنوه وينوحون عليه كما يُناح على الوحيد، ويتفجعون عليه كما يُتفجع على البكر**] (زكريا 12 - 10).

«ابن يوسف» مثل «ابن داود» يشير إلى واحدٍ من ذرِّية الجد الأول الذي يحمل هذا الاسم. تنبأ يعقوب بأن ذرية عيسو ستكون فقط بين يدي ذرية يوسف كما قيل: [**ويكون آل يعقوب ناراً وآل يوسف لهيباً وآل عيسو عُصافة فيفرمونهم ويأكلونهم ولا تكون بقية من آل عيسو لأن الرب تكلَّم**] (نبوءة عوبديا 18).

من الطبيعي أن الأمل بمجيء المخلص يزداد ضراوة عندما تتعرض الحياة الوطنية للخطر، وكلما ازداد الخطر على اليهود، ازداد تعلقهم غريزياً وعفوياً بالتنبؤات المسيحية (المتعلقة بالمسيح) والموجودة في كتبهم المقدسة. يروي يوسف كيف ظهر في الأعوام السابقة: لتدمير المعبد أشخاص يقدم كل واحد منهم نفسه على أنه المخلص الذي تحدَّثت عنه الأنبياء. في القرن التالي أحد هؤلاء يدعى «بار كوخبا «ظل مشهوراً، ويطلق عليه البعض اسم «باركوزيبا» الذي أعلن العصيان على روما، والذي اعترف به الحاخام عقبة على أنه المسيح. ويشرح الحاخام ما ورد في سفر العدد (24 - 17) [**أراه وليس حاضراً أبصره وليس بقريب. يسعى كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل فيحطم طرفي موآب ويريح جميع بني شيت**]: النجم (كوخبا) يخرج من بيت يعقوب قائلاً: «هذا هو المسيح الملك»: غير أن الحاخام جوخانان بن تورثا يقول له: «سينبت العشب على قبرك يا عقبة قبل أن يظهر ابن داود».

من أجل التخفيف من بؤس الشعب، وتشجيعه على الثبات أمام المحن، فقد قال الحاخامات بأن هذا «هو عمل المسيح» وبعبارات أخرى، فإن مجيئه سيكون له ثمنٌ باهظٌ هو الآلام الشديدة الشبيهة بآلام الأم عند المخاض. لقد بلغ ظلام الليل أوجه قبل بزوغ الفجر، كانوا يعتقدون أن الدلائل هي إضعاف الهمم إلى أدنى درجة في العالم وبخاصة الفترة التي ستسبق مجيء المسيح، عندها ستكون الحياة قاسية لا تحتمل.

هي ذي التطلعات المستوحات من هذه الرؤية: «في الجبل الذي سيرى مجيء ابن داود، كان الشباب يشتمون الأكبر منهم، الشيوخ مرغمون على الوقوف احتراماً

للأصغر منهم، تتمرد الفتاة على أمها، والكنَّة على حماتها، سيكون وجه هذا الجيل كوجه الكلب (معدوم الوجنتين). لن يشعر الولد بخجل أمام والده، ستصبح أماكن الدراسة بيوت دعارة، وسيدخل علم النسخ وكتابة الأشياء المقدسة في انحطاط وتفكك. والناس الذين يخافون الله سيُحتقرون» لن يظهر ابن داود إلا في منتصف جيل بريء كلياً أو مذنب كاملاً بريء تماماً، لأنه قيل: [**ويكون شعبك كلهم صديقين إلى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي يديّ وعمل الذي أتمجَّد به**] (إشعيا 60 -21).

كله مذنب كما قيل: [**ورأى أنه ليس إنسان وبُهت أنه ليس شفيع فخلصت له ذراعه وبرُّه هو أيَّده**] (إشعيا 59 - 16).

[**من أجلي، من أجلي أفعل لئلا يُجدَّف عليَّ وكرامتي لا أعطيها لغيري**] (إشعيا 48 - 11).

بحسب التقليد أنه خلال فترة سبع سنوات التي ستشير إلى وصول ابن داود في العام الأول سيتحقق هذا النص: [**وأنا أيضاً منعت عنكم المطر وقد بقي للحصاد ثلاثة أشهر وأمطرت على مدينة ولم أُمطر على أخرى ومُطرَ حقلٌ ولم يُمطَرُ حقل آخر فجفّ**] (نبوءة عاموس 4 -7). في العام الثاني ستطلق سهام المجاعة، وفي العام الثالث ستكون المجاعة قاسية جداً، رجال نساء، أطفال، أتقياء مؤمنون، قديسون سيموتون، ستُنسى التورا من دارسيها، وفي العام الرابع سيكون الخير وفيراً، وقد لا يكون. في العام الخامس سيكون الخير وفيراً، ستشرب، وتأكل وتفرح وتعود التورا لذاكرة الذين يدرسونها. في العام السادس ستسمع أصوات آتية من السماء، وفي العام السابع ستنشب حروب وفي نهاية الحقبة المؤلفة من سبع سنوات سيأتي ابن داود.

إن زمن هذا المجيء سيكون مثبتاً خاصة بالاضطراب السياسي المتفاقم في حالة حرب شرسة. «إذا رأيتم الممالك تحارب بعضها انظروا حيث توجد خطوات المسيح. اعلموا أنه سيكون هكذا حصل في زمن إبراهيم. فقد هاجمت الممالك بعضها كما ورد في سفر التكوين 14، ومُنح الخلاص لإبراهيم.

هذه الحروب عُبِّر عنها بأنها حروب جوج وماجوج يقول الرب القدوس الممجد: [**قم أيها الرب الإله وارفع يدك ولا تنسَ البائسين**] (مزمور 10 - 12).

يترجى داود في كتاب المزامير القدوس الوحيد الممجد خمس مرات من أجل أن

ينهض. المرات الأربع تعني الممالك الأربع، وبقدرة الروح القدوس، تنبأ داود بأنها كانت ستستعيد إسرائيل؛ كذلك طلب إلى الله الوقوف في وجه كل مملكة. المرة الخامسة هي مملكة «جوج» «وماجوج» التي تنبأ داود بأنها ستقوم بالهجوم على إسرائيل؛ يقول القدس الواحد الممجد: [**قم أيها الرب الإله وارفع يدك ولا تنسَ البائسين**] (مزمور 10 ـ 12) لأنه ليس لنا زعيم سواك للقتال ضد الممالك الأربع المقصودة أولاً والمنوّه عنها في مكان آخر. [**وأيضاً مع ذلك إذا كانوا في أرض أعدائهم لا لأخذلهم ولا أكرههم بحيث أفنيهم وأفسخ عهدي معهم لأني أنا الرب إلههم**] (أحبار 26، 44): لن أتخلى عنهم أبداً خلال أيام اليونانيين، ولن أتغلب عليهم بالرعب في زمن بنوخذ نصَّر، ولن أبيدهم في عهد هامان (بلاد فارس)، ولن أقطع تحالفي معهم في عهد الرومان، لأني أنا الرب إلههم في عهد جوج وماجوج.

تلميح مفيد يهتم بالموضوع، ويثير الاهتمام في الحكاية التالية:

«أرسل الحاخام خانان بن تخليفا إلى الحاخام يوسف الرسالة التالية: صادفت رجلاً يحمل بيده رزمة من الورق كتبت عليها بحروف عبرية مربَّعة، ومحررة باللغة المقدسة. سألته: أين وجدت هذه؟ ـ أجاب: كنت مرتزقاً في الجيش الروماني، وعثرت على هذه الرزمة في الأرشيف في روما. إليك ما كان مكتوباً فيها: بعد أربعة آلاف ومائتين وواحد تسعين سنة منذ خلق العالم (أي عام 531 من عصرنا) سيدمَّر العالم جزئياً من جراء حروب الوحوش البحرية، وجزئياً من حروب جوج وماجوج، عندها ستأتي أيام المسيح (المخلص)، ولن يجد العالم القدوس الواحد الممجد إلا بعد انتهاء سبعة آلاف سنة».

يتضمن التلمود حسابات أخرى لتحديد زمن ظهور المسيح. تعطي الغالبية تاريخاً تقريبياً من نهاية القرن الخامس. فقد قال إيليا إلى أحد الحاخامات «سيدوم العالم على الأقل خمسماية وثمانين يوبيلاً (اليوبيل خمسون سنة) أي أربعة آلاف ومئتين وخمسين سنة. وفي اليوبيل الأخير سيأتي للعالم ابن داود». سأله الحاخامات: «سيأتي في بداية اليوبيل الأخير أم في نهايته»؟ أجاب إيليا: أجهل ذلك. يعطي هذا القول تاريخاً محصوراً بين 440 و490 أي أربعمائة سنة بعد تدمير الهيكل (الذي يعود لعام 70 م). سيعرض عليكم أحدهم شراء حقل يساوي ألف دينار مقابل «ديناربوس» فلا تشتروا. إليكم التعليم الحاخامي: أربعة آلاف ومئتان وثلاثون سنة

بعد خلق العالم أي في عام 471، فلا تشتروا حقلاً يعادل ألف دينار مقابل ديناربوس واحد. إنه زمن مجيء المسيح عندما ستفقد الأرض كل الأهمية.

يندد غالبية الحاخامات بالحسابات التي تحدد تاريخ «النهاية» أي تاريخ مجيء المسيح، لأن هذا التحديد يثير آمالاً قد تكون خائبة فيما بعد. هذا تحذير علني:

«ملعونون أولئك الذين يحددون النهاية، لأنهم يؤكدون بما أن النهاية قد أقبلت ولم يظهر المسيح، فإنه لن يأتِ أبداً. بالعكس انتظروه لأنه قيل: [**فإن الرؤيا للميقات وفي الانقضاء ولا تكذب. إن أبطأَتْ فانتظرها فإنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر**]. (نبوءة حبوق 2 ـ 3). بحسب رأي أحدهم: «فإن إسرائيل ستُفتدى في تشرين (الشهر السابع من التقويم اليهودي الذي يحدد بدء السنة) وحسب قول آخرين فقد تحرَّرت من مصر في نيسان وستُفتدى في نيسان».

كما لو أنه قصد به معارضة الاعتقاد الذي بموجبه يكون الله قد حدَّد ظهور عهد المسيحية بتاريخ محدد، وقد ظهر تاريخ آخر لا يقبل هذا التحديد، بل يربط ظهور المنتظر بما يسمى سلوك الشعب. كانت هذه الفكرة تعود لإشعيا [**القليل منهم يصير ألفاً والصغير يصير أمة عظيمة. أنا الرب أعجِّل ذلك في ميقاته**] (إشعيا 60 ـ 22) وقد شُرح النص على النحو التالي: «إذا كنتم جديرين بذلك فأسرِّعها، وإلا ستأتي في موعدها».

تقرأ تصريحات كثيرة مشابهة «الندامة كبيرة، لأنها تقرِّب الخلاص» «كل النهايات مضت والمسيح لم يأت». «فالحدث إذن يتعلق بالندامة والأعمال الحسنة» إذا ما ندمت إسرائيل يوماً واحداً، فإن ابن داود سيأتي فوراً إلى العالم. إذا احترمت إسرائيل يوم سبت واحد، فإن ابن داود سيأتي فوراً أيضاً. إذا عملت إسرائيل يومي السبت وفقاً للقانون، فستفتدى فوراً. لم يعرف الخيال حدوداً عندما كان يحاول تأمل العالم كما سيظهر متحولاً بمجيء المسيح. ستزداد الأرض خصوبة، لن يبقى الشيء نفسه في العالم الآتي عما هو عليه الآن. في هذا العالم، يجب بذل الجهد لجني العنب وعصره. وفي العالم الآتي سيدخل كل واحد الجنة في عربة أو قارب، يضعها في زاوية بيته، يأخذ منها كمَّاً من النبيذ ويملأ كأساً كبيرة، أما سويقات عناقيد العنب فتستخدم وقوداً للطبخ ولن تكون هناك أي حبة عنب لا تعطي ثلاثين مكيالاً من الخمر. في هذا العالم يتطلب نضج الحبوب ستة أشهر، والأشجار إثني عشر شهراً لتعطي ثماراً، أما في

العالم الآخر، فسيتم الحصاد بعد شهر واحد، والأشجار تعطي ثمارها بعد شهرين. كان الحاخام جوزي يقول: في العالم الآخر، ستنضج الحبوب في خمسة عشر يوماً والأشجار في شهر واحد. هناك الأفضل أيضاً: في العالم الآخر ستنتج إسرائيل خبزاً من أجود الطحين، وثياباً من أجود الصوف، وستنبِتُ الأرض سنابل القمح بحجم كلية ثور قوي. في العالم الآخر ستنجب النسوة الأطفال يومياً، وستعطي الأشجار ثماراً يوماً بعد يوم.

هذا هو الوصف المفصل للتأثير الذي يمارسه العصر المسيحي على تركيب العالم: «في العالم الثاني سيجدد القدوس الواحد الممجد عشرة أشياء:

أولاً: سينير العالم، كما قيل: [**لا تكون الشمس من بَعدُ نوراً لكِ نهاراً ولا ينيرك القمر بضيائه ليلاً، بل الرب يكون لكِ نوراً أبدياً وإلهك يكون فخرك**] (إشعيا 60 ـ 19). سنكون قادرين على رؤية القدوس الواحد الممجد. لكن ماذا سيفعل بالشمس؟ سينيرها بتسعة وأربعين جزءاً من الضوء كما قيل: [**ويصير نور القمر كنور الشمس ونور الشمس يصير سبعة أضعاف كنور سبعة أيام يجبُرُ الرب كسر شعبه ويشفي جرح ضربته**] (إشعيا 30 ـ 26).

إذا مرض أحدهم، فالقدوس الواحد الممجد يأمر الشمس بشفائه لأنه قيل: [**وتُشرق لكم أيها المتقون لاسمي شمس البرّ والشفاء في أجنحتها فتسرحون وتطفُرونْ كعجول المعلف**] (ملاخيا 4 ـ 2).

ثانياً: سيجعل ماء جارياً ينبثق من أورشليم، ومن يصاب بمرض سيجد فيه الدواء الشافي كما قيل: [**وكل نفس حية تزحف حيث يبلغ النهر تحيا ويكون السمك كثيراً جداً لأن هذه المياه قد بلغت إلى هناك فكل ما يبلغ إليه النهر يشفى ويحيا**] (حزقيال 47 ـ 9).

ثالثاً: سيجعل ثمار الشجر تنضج شهرياً ومن يأكل منها سيشفى، كما قيل: [**وعلى النهر وعلى شاطئه من هنا ومن هناك ينشأ كل شجر يؤكل ولا يذبل ورقة ولا ينقطع ثمره بل كل شهر يؤتي بواكير لأن مياهه تخرج من المقدَّس فيكون ثمرُه للطعام وورقه للشفاء**] (حزقيال 47 ـ 12).

رابعاً: سيعاد بناء جميع المدن المدمرة ولن يبقى مكان فارغ في العالم، سدوم والسامرة سيعاد بناؤهما في العالم الثاني كما قيل: [**فأخواتك سدوم وتوابعها يُعدنَ**

إلى قديمهن والسامرة وتوابعها يعدن إلى قديمهن وأنت وتوابعك تعدن إلى قديمكنَّ] (حزقيال 16 - 55).

خامساً: سيعاد بناء أورشليم بأحجار من اللازورد لأنه قيل: [**أيتها البائسة المُقلقَة الغير المتعزِّية هاءنذا أرصص بالإثمد حجارتك وأؤسسك باللازورد]** (إشعيا 54 - 11) [**وأجعل شُرُفَك ياقوتاً وأبوابك حجارة بَهْرمان وجميع حدودك حجارة أنيقة]** (إشعيا 54 - 12). ستسطع هذه الأحجار كالشمس، وسيأتي عبدةُ الأصنام لتأمل مجد إسرائيل كما قيل: [**فتسير الأمم في نورِكِ والملوك في ضياء إشراقِكِ]** (إشعيا 60 - 3).

سادساً: سيعم الطبيعة السلام كما قيل: [**ترعى البقرة والدب معاً ويربض أولادهما معاً والأسد ياكل التبن كالثور]** (إشعيا 11 - 7).

سابعاً: سيجمع جميع الحيوانات، الطيور، والزواحف ويقيم تحالفاً بينهما في إسرائيل كما قيل: [**وأبتُّ لهم عهداً في ذلك اليوم مع وحش الصحراء وطير السماء ودبابات الأرض وأُكسِرُ القوس والسيف والحربَ من الأرض وأُريحهم في الدّعة]** (هوشع 2 - 18).

ثامناً: سيختفي البكاء والنحيب من العالم كما قيل: [**وأبتهجُ بأورشليم وأسرُّ بشعبي ولا يسمعُ فيها من بعدُ صوت بكاء ولا صوتُ صراخ]** (إشعيا 65 - 19).

تاسعاً: لن يكون في العالم الآخر موت لأنه قيل: [**ويُبيدُ الموت على الدوام ويمسحُ السيِّد الرب الدموعَ عن جميع الوجوه ويزيل تعيير شعبه عن كل الأرض لأن الربَّ قد تكلَّم]** (إشعيا 25 - 8).

عاشراً: لن يكون هناك تذمر، ولا هم، ولا ضجر بل يكون الكل سعيداً فرحاً كما قيل: [**والذين فداهم الربّ يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنيم ويكون على رؤوسهم فرحٌ أبدي ويتبعهم السرور والفرح وتنهزم عنهم الحسرة والتأوُّه]** (إشعيا 35 - 10).

نلاحظ إلحاحاً على السلام الثابت، والفرح، والسعادة التي سيدشنهما المسيح. لن يكون الشيء نفسه بالنسبة للعالم الآتي كما حال العالم اليوم. لدى سماع الأخبار الطيبة في هذا العالم يتلى الدعاء التالي: «ليمجد الصالح الذي يفعل الخير»، لدى سماع الأخبار السيئة يقال: «ليتمجد القاضي الأمين». أما في العالم الآتي فستكون لدينا الفرصة بالقول: ليتمجد كل ما هو صالح ومن يفعل الخير».

في هذا العالم أحدهم يبني والآخر، يفرح بالبيت، أحدهم يزرع والآخر يستهلك الثمار، ماذا كُتب بخصوص العالم الآخر؟

كما قيل: [**لا يبنون ويسكن آخر، ولا يغرسون ويأكل آخر، لأن أيام شعبي كأيام الشجر، ومختاريَّ يتمتعون بأعمال أيديهم**] (إشعيا 65 ـ 22). انظروا: جميع من ضربهم وعذّبهم القدوس الواحد الممجد في هذا العالم، فإنه سيشفيهم في العالم الآخر. الأعمى سيبصر، لأنه مكتوب: [**حينئذ تتفتح عيون العُمي وآذان الصمِّ تتفتح**] (5) [**حينئذ يطفر الأعرج كالإبل ويترنم لسان الأبكم إذ قد انفجرت المياه في البرية والأنهار في البادية**(6)] (إشعيا 35، 5 ـ 6).

يقول القدوس الواحد الممجد: لقد نمت في هذا العالم أفعال النزعة الشريرة، وتفرقت مخلوقاتي، انقسموا وتوزعوا على سبعين لغة. لكنهم سيتحدون ويجتمعون في العالم الآخر ليمجدوا اسمي ويخدموني كما قيل: [**لأني حينئذ أجعل للشعوب شفة نقية ليدعوا جميعهم باسم الرب وليعبدوه بكتف واحدة**] (صفنيا 3، 9)

فوق كل شيء، ستكون إسرائيل مباركة بقدوم المسيح، وسينتهي اضطهاد العالم، وستُعاد للمقام البارز الذي أعده الله لها، فقد حملت لها الكرمة من مصر. بما أن الكرمة ترتفع أقل من باقي الشجر، فهي تتفوق عليهم بثمارها، كذلك إسرائيل كانت قد ضعفت لتظهر متواضعة وضعيفة في هذا العالم. لكنها في العالم الآخر سترث العالم كله. إنها مثل ثمر الكرمة يداس بالأقدام لكنه يظهر فيما بعد على مائدة الملوك. هكذا خُلقت إسرائيل لتبدو محتقرة في هذا العالم كما هو مكتوب: [**صرتُ ضُحكة لجميع شعبي وأغنيَّة لها النهار كله**] (مراثي إرميا 3 ـ 14). لكن في العالم الآخر سيضعها الرب في القمة كما قيل: [**ويكون الملوك لك مربِّين والملكات مُرضعات وعلى وجوهم إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون تراب قدميك فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزَى منتظروه**] (إشعيا 49 ـ 23) قال القدوس الواحد الممجد لإسرائيل: لقد وضعت لك في هذا العالم نعماً ربانية ولعنات، ثروات كبيرة ومصائب لكن في العالم الآخر سألغي المصائب واللعنات عنك، وسأباركك، بطريقة أن من ينظر إليك سيقول إنك من شعب المباركين.

التحوُّل في مصير إسرائيل سيكون عظيماً، لدرجة أن غرباء عديدين سيجهدون للانضمام إليها. لكن يجب ردُّهم وطردهم لأن خطواتهم ستنقصها النزاهة. في العالم

الآخر ستأتي الشعوب الوثنية لتُقبل كيهودية من أصل وثني. لكنها لن يُقبل أي واحد. لأن أحد الحاخامات قال: لا يُقبل أي يهودي من أصل وثني في أيام المسيح، إضافة لذلك كان يعتقد جازماً أن المسيح قد يقوم بجمع عشائر إسرائيل. إذا وُجد هذا التأكيد منعزلاً: فإنه لن يكون للقبائل العشر أي حصة في العالم الآتي (توسيفيتا سانح 12،13).

التلمود من ناحيته يبدي اتجاهاً معاكساً. بالعودة إلى نصوص إشعيا (27 - 13) [**وفي ذلك اليوم يُنفخ في بوق فيأتي التائهون في أرض آشور، والمنفيون في أرض مصر ويسجدون للرب في جبل القديس في أورشليم**] ونصوص نبوءة إرميا (3 - 12:) [**اذهب ونادِ بهذه الكلمات جهة الشمال وقل: ارجعي أيتها المرتدّة إسرائيل يقول الرب فلا أحوّل وجهي ضدّكم لأني رحيم يقول الرب لا أحقد إلى الأبد**].

فإن الحاخامات كانوا يعلنون بعودة العشائر العشر الضائعة. اليوم حيث يعود المنفيون من إسرائيل يكونون قد عادوا مجمّعين، ستعادل رجعتهم روعة اليوم الذي خلقت فيه السماوات والأرض. للمساعدة في هذا الاجتماع الكبير، سيلغى قانون من قوانين الطبيعة بأعجوبة.

«في العالم الحاضر عندما تهب الرياح الشمالية ولن تهب في الوسط والعكس بالعكس لكن في العالم الآخر ومن أجل جميع المنفيين من إسرائيل، يعلن القدوس الواحد الممجد:

سأجعل في هذا العالم ريحاً تهب من الشمال والغرب على اتجاهين كما هو مكتوب: [**أقول للشمال والجنوب لا تمنع. هلمَّ بنيَّ من بعيد وبناتي من أقاصي الأرض**] (إشعيا 43 - 6).

سيكون اجتماع العشائر مسبوقاً بحدث آخر عجيب، هو إعادة بناء المدينة المقدسة: إذا قيل لكم إن المنفيين من إسرائيل كانوا متجمعين دون إعادة بناء أورشليم فلا تصدقوا هذا لأنه مكتوب: [**الرب يبني أورشليم ويجمع المنفيين من إسرائيل**] (مزمور 146، 2) يقولون أمام القدوس الواحد الممجد: «يا سيد الكون: ألم تكن أورشليم مبنية ثم دمرت؟ يجيبهم: ذلك بسبب ظلمكم وعملكم أنها دُمِّرت وأعيدت صحراء، ونُفيتم منها، لكن في العالم الآخر سأعيد بناءها ولا أدمرها أبداً.

إن إعادة بناء الهيكل تشكل جزءاً من إعادة بناء أورشليم. يرتكز هذا الاعتقاد على نصوص كثيرة: حبيب الرب سيسكن إلى جانبه [**ولبنيامين قال حبيب الرب يسكن لديه آمناً بستره طول النهار وبين منكبيه يسكن**] (تثنية الاشتراع 33، 12). يشير هذا إلى إعادة بناء المعبد أولاً. سيستره الرب دائماً: بناء المعبد ثانية، وبين منكبيه يسكن: إعادة بناء المعبد في العالم الآخر. [**ثم دعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يكون لكم في آخر الأيام**] (تكوين 49، 1). فقد أشار يعقوب إلى أبنائه بإعادة بناء الهيكل. نجد هذه الملاحظة: القدوس الواحد الممجد! يقول: أنا الذي جعل المعبد كومة من الدمار في هذا العالم، وأنا سأجعل منه في العالم الآخر تحفة رائعة... سيعيد بناء المعبد ولا تسكن فيه الشيخينا. لن يلعب الهيكل الجديد في حياة الشعب دور الهيكل القديم، لأنه بعد محو الخطيئة لن يكون هناك ضرورة لتقديم أضاحي التكفير. الشعور بالعرفان الذي سيملأ جميع القلوب سيجعل عدداً قليلاً من القرابين (الأضاحي) ضرورياً. ستتوقف جميع الأضاحي في العالم الآخر باستثناء أضاحي عمل الخير التي لن تتوقف أبداً.

يجب أن يدشِّن العهد المسيحي السعادة الكاملة، صحيح أن الذين سيشاركون فيه هم الصالحون الذين ماتوا، بينما يجب طرد الأشرار منه، كذلك فإن الاعتقاد بالبعث (قيامة الموتى الذين هم جديرون بذلك) سيكون حسب الاعتقاد أحد العناصر المتميزة لمجيء المسيح. سنعالج هذا الموضوع في فقرة خاصة. لكن يمكن القول أنه عندما يقترب مجيء المسيح، سينتشر طاعون قوي في العالم يميت الأشرار.

يبدو أن ردة فعل قوية قد حصلت ضد هذه الأحلام المستقبلية، حيث يقال لنا أحياناً إن المسيح سيكتفي بتحرير إسرائيل من مضطهديها. وفيما يتعلق بإزالة الآلام المتنوعة التي هي من نصيب الإنسان فعلى الأخير أن يحذر منها حتى موته. «لا يوجد فرق بين هذا العالم وأيام المسيح (عصره) سوى العبودية التي تمارسها الممالك الوثنية على إسرائيل كما قيل: [**إن الأرض لا تخلو من فقير ولذلك أنا آمرك اليوم قائلاً أبسط يدك لأخيك المسكين والفقير الذي في أرضك**] (تثنية الاشتراع 15، 11). إذن دائماً حتى في العصر المسيحي.

كان العديد من الحاخامات يعتقدون أن هذه الحقبة لن تكون سوى مرحلة متوسطة بين هذا العالم والعالم الآخر. لم يُعطها جميعها نفس المدة الزمنية: «كم من الوقت

ستدوم أيام المسيح؟ يقول الحاخام عقبة: أربعين سنة، طوال الزمن الذي تاه فيه اليهود القدماء في الصحراء.

الحاخام أليعازر بن جوزيه كان يقول مئة عام، الحاخام بيريخيا عن الحاخام دوز: ستمائة سنة. الحاخام يهودا الأمير: أربعمائة سنة، على عدد سنوات إقامة اليهود في مصر. يقول الحاخام اليعازر بن هركاموس ألف سنة. الحاخام أبَّاهو: سبعة آلاف سنة، وباقي الحاخامات ألفي سنة، حسب رؤيا أليعازر ستدوم أيام المسيح أربعين سنة. الحاخام عازار بن آزاريا: سبعين سنة. يهودا الأمير: ستدوم أيام المسيح ثلاثة أجيال. الحاخام دوزا: أربعمائة سنة. الحاخام آبيمي بن آباهو». سبعة آلاف سنة. يقول «يهودا باسم راب» تعادل مقدار الحقبة التي عاشها العالم في الماضي. ويقول الحاخام نافمان بن إسحق: مقدار الزمن الذي يفصلنا عن نوح حتى الآن. وقد أعلنت مدرسة إيليا أن العالم سيدوم ستة آلاف سنة: منها ألفان في الفوضى وألفان مع التورا وألفان ستكون أيام المسيح.

2 ـ قيامة الموتى

احتلت العقيدة المتعلقة بقيامة الموتى في العالم الآخر المكان الهام في التعليم الديني للحاخامات. فقد جعلوا منها فعل إيمان لا يمكن الاعتراض عليه دون اقتراف الخطيئة. وبحسب ما يؤمنون به،إذا رفض أحدهم الإيمان بقيامة الموتى فلن تكون له حصة في القيامة. هذا يفسر تاريخياً النتائج المترتبة عن المجادلات الدينية. لقد كانت القيامة واحدةً من المواضيع الهامة للخلاف بين الفريسيين والصدوقيين. يقول الصدّوقيون إن الروح تنطفئ أثناء موت الجسد، وهذا الموت يعتبرونه نهاية الكائن البشري، فهم لا يعترفون بالعالم الآخر، ويرفضون عقيدة الثواب والجزاء والقصاص التي يمنحها الفريسيون أهمية عالية جداً، يدافعون عنها بحماسة شديدة. فقد جعلوا منها موضوع الصلاة الثامنة عشرة التي تُردد كل يوم: تدعم الأحياء بالحب، وتمنح الموتى العطف الكبير، تتحمل الذين يسقطون على الطريق، تشفي المرضى، تثبت الإيمان بالراقدين تحت التراب. من يشبهك أيها السيد يا صاحب الأعمال القوية، من يشبهك أيها الرب

الذي يميت ويحيي؟ من يثبت السلام؟ نعم أنت المخلص لتقيم الموتى. أنت من يحيي الأموات.

يعلموننا بأن الجدل حول هذا الموضوع قد أتى على تبديل الشعائر الدينية المستعملة في الهيكل، في نهاية كل صلاة في المكان المقدس كان يقال: «على الدوام» «من الآن وإلى الدهر» لكن عندما أبدل الصدوقيون الكلمات وأعلنوا انه لا يوجد سوى عالم واحد، نصحوا عندها إنهاء الصلاة بالقول: «من الأبد إلى الأبد».

يبدو أن هناك سبباً من أجله كان الصدِّقيون يرفضون هذه العقيدة، يأتي من أنه وبحسبهم لم يذكر في الكتب الخمسة التي تشكل جزءاً من التورا الشفهية التي كانوا لا يقبلون إلا بسلطتها. لقد صادف هذا الرأي معارضة قوية من الحاخامات. وبحسب التلمود، لا يوجد أي فصل في التورا المكتوبة إلا وتدخل فيه عقيدة القيامة، لكننا نحن الذين لم يكن لدينا القدرة على شرحها بهذا المعنى. ومنذ ذلك الوقت كانوا يظهرون البراعة الكبيرة لإثبات أن التورا تتضمن هذا التعليم. وفيما يلي أمثلة مختارة على ذلك:

كيف تأتي عقيدة القيامة من التورا؟ مكتوب: [**هكذا تقدِّمون أيضاً تقدمة للرب من جميع أعشاركم التي تأخذونها من بني إسرائيل منها تقدمة الرب لهرون الكاهن**] (أعداد 18، 28)، لكن هل سيعيش هرون إلى الأبد ليتلقاها؟ أليس صحيحاً أنه لن يدخل أرض إسرائيل! وبالتالي يعلمنا النص أنه سيعود للحياة في العالم الآخر، ويتلَّقى تلك الأضاحي. هذه هي الكيفية التي يجب الاستخلاص منها بوجود القيامة في التورا.

كان الصدوقيون يسألون الحاخام غاماليل: كيف تعرف أن القدوس الواحد الممجد! يقيم الأموات؟

أجاب: «تعرفون ذلك بما جاء في الكتب الخمسة، والأنبياء، ومؤرخي سير القديسيين»، غير أنهم لم يقبلوا هذا الإثبات عن طريق الكتب الخمسة، لأنه مكتوب: [**وقال الرب لموسى إنك مُضطجع مع آبائك وإن هذا الشعب سيقومون ويفجُرون باتباع آلهة الأجنبيين في الأرض التي هم دخلوها إلى ما بينهم ويتركونني وينقضون عهدي الذي قطعته معهم**] (تثنية الاشتراع 31،16). أجابوه: إن المعنى الصحيح هو التالي: هذا الشعب سينهض وسيندفع نحو الدعارة بعد الآلهة الغرباء.

وعن طريق الأنبياء، لأنه مكتوب: [**ستحيا موتاك وتقوم أشلائي. استيقظوا ورنّموا يا سكّان التراب. نداك ندى النور والأرض تسقط الجبابرة**] (إشعيا 26، 19).

أجابوه: قد يكون معنى هذا النص عودة الأموات إلى الحياة الموصوفة في نبوءة حزقيال: [**وكانت عليَّ يد الرب فأخرجني الرب بالروح ووضعني في وسط البقعة وهي ممتلئة عظاماً** (1)، **وأمّرني عليها من حولها فإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا بها يابسة جداً** (2). **فقال لي يا ابن البشر أتُرى تحيا هذه العظام. فقلت أيها السيد الرب أنت تعلم** (3). **فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب** (4). **هكذا قال السيد الرب لهذه العظام هاءنذا أُدخل فيكِ روحاً فتحيين** (5). **أجعل عليكِ لحماً وأبسط عليكِ وأجعل فيكِ روحاً فتحيين وتعلمين أني أنا الرب**] (حزقيال 37، من 1 - 6).

وعن طريق مؤرخي سير القديسين لأنه مكتوب [**وحلقُك كخمر طيبة تسوغ بلذة لحبيبي وتسيل على شفاه النائمين**] (نشيد الأناشيد 7،9)، (النوم هنا معناه الموت. اعترضوا عليه أيضاً وقالوا: هل الأمر هنا يتعلق بالحركة العادية للشفاه ليتوافق مع رأي الحاخام جوخان الذي كان يقول:

باسم الحاخام شمعون بن حزقيال: عندما يتعلق القرار الشرعي العائد لسلطة دينية متوفاة فهو يذكر في هذا العالم شفاه أولئك النائمين، أخيراً يذكر لهم هذا النص: [**ولكي تطول أيامكم على الأرض التي أقسم الرب لآبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم أرضاً تدرُّ لبناً وعسلاً**] (تثنية الاشترع 11، 9) ولم يقل «يعطيها لكم» بل «لهم» إذن العقيدة المتعلقة بالقيامة يمكن استنتاجها من التورا. يؤكد آخرون أنه يمكن استنتاجها من هذا النص أيضاً: [**وأما انتم المستعصمين بالرب إلهكم فكلُّكم أحياء اليوم**] (تثنية الاشتراع 4، 4) وبصريح العبارة: انتم جميعاً أحياء في هذا اليوم، إذن حتى اليوم حيث الشعوب ميتة، ستعيشون، وبما أنكم كلُّكم أحياء في ذلك اليوم، فإنكم ستعيشون في العالم الآتي. مكتوب: [**انظروا الآن. إنني أنا هو ولا إله معي أنا أميت وأحيي وأجرح وأشفي وليس من يُنقذ من يدي**] (تثنية الاشتراع 32، 39). يمكن التفكير أن الموت مُسبَّب من سلطة والحياة من سلطة أخرى، كما هو جارٍ في هذا العالم، لذلك يستمر النص هكذا: أَجرحُ وأُشفي بما أنها نفس السلطة التي تجرح وتشفي، فهي نفس القوة التي تُميت وتُحيي. هذا يوضح خطأ أولئك الذين يصرِّحون

بأنه لا يوجد في التورا كلام عن القيامة. كان الحاخام مائير يسأل: كيف تأتي القيامة من التورا؟ لأنه قيل: [**حينئذ سبَّح موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا: أسبِّح الرب فإنه قد تعظَّم بالمجد**] (خروج 15، 1)، ولم يقل «سبِّحوا» بل «سيسبحون» من هنا يستنتج أن القيامة وردت في التورا. كان الحاخام جوزي بن ليفي يسأل: كيف تأتي القيامة من التورا؟ قيل: أولئك الذين يسكنون بيتك سيسبحون فيه دائماً مدائحك (مزمور 84، 4). لم يقل: سبِّحوا، بل سيسبِّحون دائماً (في العالم الآخر)، إذن القيامة موجودة في التورا. كان «رابا» يسأل: كيف للقيامة أن تأتي من التورا؟ قيل: [**ليحي رأوبين ولا يمت ولا تكن رجاله معدودة**] (تثنية الاشتراع 33،6). أن يعيش في هذا العالم وأن يموت في العالم الآخر. كان رابِّينا يصرِّح أنه يمكن استنساخ القيامة من النص التالي: [**كثيرون من الراقدين في التراب يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرَّذل الأبدي**] (دانيال 13، 2). يستنتج الحاخام «آشي» من نص نبوءة دانيال: «وأنت سر نحو نهايتك، سترقد وستنهض لإرثك في نهاية الأزمنة» [**وأنت اذهب إلى الانقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام**] (دانيال 12،13).

إلى جانب الصدوقيين هناك مذهب السامريين، الذي يرفض نفس العقيدة. هؤلاء يحاربهم النص التالي: «كان الحاخام أليعازر بن جوزي يقول: هي ذي الكيفية التي أثبِّت بها بطلان كتاب السامريين. التي تؤكد أن التورا تتكلم عن القيامة. كنت أقول لهم: لقد زوَّرتم تصحيحكم للتورا، غير أن هذا لم يسدِ إليكم أي خدمة تدعم نفيكم للقول على أنها غير موجودة في التورا.

يقرأ في هذا الواقع: [**لأنه استهان بكلام الرب ونقض وصيته فيُقطع ذلك قطعاً وزره عليه**] (أعداد 15، 31)، سيقطع بالضرورة، الفعل يعود لهذا العالم. عندها، ومنذ ذلك الوقت هل سيكون ظلمه محسوباً عليه؟ لا يمكن أن يكون هذا إلا في العالم الآخر.

ماذا يعني هذا الكلام في الكتاب المقدس ثلاثة أشياء الجشع: القبر، الرحم العاقر: [**للعلقة بنتان تقولان هات هات. ثلاث لا تشبعن والرابعة لا تقول كفى. الجحيم والرحم العقيمة والأرض التي لا تشبع ماء ولا تقول كفى**] (أمثال 30، 15) أي علامة تربط بين «القبر» والرحم العاقر؟ يراد القول هنا: كما أن رحم الأم يتلقى ثم

يعطي كذلك بالنسبة للقبر. ولا يمكننا التعليل بالأولى، إذا تلقى رحم الأم بصمت ولم تدع الطفل يخرج إلا وسط صراخ عنيف، فبالأحرى القبر الذي يتلقى أجساد الموتى وسط البكاء والنحيب، سيعدها مع البكاء والعويل! هذا هو الردّ الذي على الذين يعلنون أنه لم يرد ذكر القيامة في التورا. دعماً لهذا الموقف انضمت حجج أخرى إلى مصادر التفسير الحاخامية: «سيقول لنا أحدهم إن الأموات لن يعودوا إلى الحياة، فاذكروا له مثل إيليا. كان هرطقي يقول للحاخام غماليل: «تدَّعون أن الأموات سيعودون إلى الحياة، غير أنهم تحولوا إلى تراب، وهل يمكن للتراب أن تدربَّ فيه الحياة؟ تقول ابنة الحاخام لوالدها: دعني أجيبه: يوجد في مدينتان اثنان من صانعي الفخار، أحدهم يصنع الآنية بالماء والآخر بالغضار، من منهما الأفضل؟ أجاب الهرطقي: من يعرف صنع الآنية بالماء ـ حسناً، ثم استدركت ـ ومن يكوِّن الكائن البشري من قطرة ماء، هل يصعب عليه تكوينه بصورة أسهل بأخذه من الغضار».

كان أحد الصدوقيين يقول «لـ جيجيا بن بيسيسا» ويل لكم أيها المجرمون (الفريسيون) الذين تقولون إن الأموات لا يعودون للحياة، بما أن الأحياء يموتون كذلك الأموات يعودون للحياة؟ أجاب: ويل لكم أيها المجرمون (الصدوقيون)، أجاب: ويل لكم انتم يا من تؤمنون أن الأموات لا يحيون، لأن أولئك الذين لا يوجدون، لا يولدون. ما أسهل أن يعود إلى الحياة أولئك الذين سبق وعاشوا!

كان أحد سكان سيبفوريس قد فَقَدَ ابنه، وكان إلى جانبه هرطقي. زاره الحاخام «جوزي بن خلفتا»، ما أن جلس حتى بدأ بالضحك. سأله الوالد المفجوع: لماذا تضحك؟ أجاب: بما أننا مقتنعون بإيماننا في رب السماء، فإنك ستعود وترى ابنك في العالم الآخر. قال له الهرطقي: «أليس عند هذا الرجل ما يكفي من الحزن حتى تأتي أنت وتزيد حزنه أيضاً؟ هل يمكن لوعاء من الفخار المكسور أن يرمم ويعود الإناء كما كان من جديد؟».

أليس مكتوباً: [**ترعاهم بعصاً من حديد وكإناء خزَّاف تُحطِّمهم**] (مزمور 2،9) أجاب الحاخام: يُصنع إناء الفخار من التراب والماء وينتهي في النار، والإناء الزجاجي يخلق وينتهي في النار. إذا كُسِرَ الأول فهل يمكن إصلاحه؟

لكن الآخر عندما ينكسر فلا يمكن إصلاحه وإعادته إلى ما كان عليه. أعلن

الهرطقي: إذا كان بالإمكان إصلاح الزجاج فهذا لأنه صُنع بالنفخ، لتسجل أذناك ما ينطق به فمك، ردَّ الحاخام إذا صُنع شيء بنفخة من الكائن البشري، فكم يكون ذلك ممكناً عندما النفخ آت من القدوس الواحد الممجد!.

لقد ناقش المسألة حاخامات عديدون: لمن سيمنح الامتياز بالعيش بعد الموت؟ سندقق بصورة أوسع وجهة نظرهم هذه فيما يتعلق بالعالم الآخر والدينونة.

النصوص التي تعالج القيامة بشكل أعم ليست متفقة فيما بينها. يمكن قراءة تصريحات، نقرأ مثلاً:

أولئك الذين ولدوا فمصيرهم الموت، ومصير الأموات العودة إلى الحياة، [**هي جديدة في كل صباح وأمانتُك عظيمة**] (مراثي إرميا 3، 23) بما انك تجددنا كل صباح، فنحن نعرف أن إخلاصك كبير» من أجل قيامة الموتى، يبدو أن هذا ينطوي على العمومية. لكن يصرح من ناحية أخرى أن القيامة محصورة بإسرائيل.

حاخامات آخرون يعتبرون الحياة المستقبلية (الآخرة) بمثابة المكافأة المضمونة فقط لمن يستحقها. «يوم واحد ممطر أكثر أهمية من قيامة الأموات، لأنها تخص الصالحين دون الأشرار، بينما المطر يسقط على الجميع أشراراً وصالحين». يبدو أن التماثل المصوغ بهذا الشكل يشير إلى أن المؤلف لا يقصد الصالحين من إسرائيل فقط، ما دام المطر يعطى للبشر دون تمييز بالعرق أو المعتقد. فيما يلي نص يستثني حتى الإسرائيليين (اليهود القدامى) الذين لا يستحقون هذا الامتياز: [**الأموات لا يحيون والجبابرة لا يقومون فإنك قد افتقدتهم ودمَّرتهم وأَبدْتَ كلَّ ذكرٍ لهم**] (إشعيا 26، 14). يمكن الإقرار بأن هذا ينطبق على كل إسرائيل ويضيف الكتاب المقدس أيضاً: «لقد اختفوا ولن يقوموا أبداً» القصد من هذه العبارة الإنسان الذي ينفصل عن كلام التورا. من يستخدم نور التورا فسيحيا نورها في الآخرة والعكس. يحتوي التلمود على تأملات هامة تتعلق بمختلف تفاصيل عملية القيامة. الاعتقاد السائد قديماً أن هذا الحدث الهام ستكون الأرض المقدسة مسرحاً له. كان بعض الحاخامات المتصلبين مقتنعين أن أولئك وحدهم الذين دُفنوا، سيشاركون في الحياة الآخرة. وأولئك الذين ماتوا خارج أرض إسرائيل لن يعودوا إلى الحياة، لأنه قيل: [**وأهبطكِ مع الهابطين في الجب إلى شعب القدم واسكنكِ في الأرض السفلى في أخربة القدم مع الهابطين في الجب لكي لا تُعمري وأجعلُ المجد في أرض الأحياء**] (حزقيال 26، 20). «أولئك الذين ماتوا في

بلاد مجدي سيحيون دون الآخرين» حتى الخادمة الكنعانية في إسرائيل حقها مضمون في إرث العالم الآخر.

مع قبول الحاخامات أن القيامة ستكون في الأرض المقدسة، لا يذهبون إلى التأكيد بأن الذين قضوا في أماكن أخرى سيُحرمون من ذلك، وهذا يتطلب أن تكون رفاتهم قد أعيدت قبل أن تعود الحياة إليها [**ستحيا موتاك وتقوم أشلائي. استيقظوا ورنموا يا سكان التراب نداك ندى النور والأرض تُسقط الجبابرة**]، الأولون هم من ماتوا في بلاد إسرائيل والباقون من ماتوا خارجها. لقد أدَّت هذه النظرية إلى ظهور معتقد شعبي عجيب. «سأمشي أمام الرب على أرض الأحياء» ويتعلق الأمر بالبلاد حيث يسرع الأموات بالعيش من جديد في أيام المسيح. لماذا؟ قيل: [**يُعطي الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحاً**] (إشعيا 42، 5) سيكون حاخاماتنا الذين عاشوا في بابل خاسرين؟ سيقوم القدوس الواحد الممجد! بحفر الأرض أمامهم وبدحرجة أجسادهم من كهف لآخر كالرزم، حتى إذا ما وصلوا إلى بلاد إسرائيل فإن أرواحهم ستعود إليهم.

أحد المواضع ما زال موضع خلاف بين مدرسة هيلِّيل ومدرسة شاماي، وهو الترتيب الذي سيعيد تكوين الجسم البشري. «كانت مدرسة شامَّاي تقول: لن يكون تكوين جسم الكائن البشري في العالم الآخر، كما هو عليه في هذا العالم. هنا يظهر الجلد واللحم أولاً. ومن ثم الأعصاب والعظام. في العالم الآخر تسبق الأعصاب والعظام الجلد واللحم لأنه قيل في رؤيا «حزقيال» عن الأموات: [**ورأيت فإذا بالعصب واللحم قد نشأ عليها وبسط الجلد عليها من فوق ولم يكن فيها روح**] (حزقيال 37، 8) كان الحاخام جوناثان يقول إنهم يشبهون: كمن يذهب إلى الحمام؛ ما يلبسه في المقام الأول يستعيده قبل لبسه الأشياء الأخرى. كانت مدرسة هلِّيل تقول: التكوين في العالم الآخر شبيه كما هو في هذا العالم. هنا يظهر الجلد واللحم أولاً وفي المقام الأخير تأتي الأعصاب والعظام سيكون الشيء نفسه في العالم الآخر هذا ما يقوله أيوب: [**ألم تكن قد صببتني كاللبن وجمَّدتني كالجبن وكسوتني جلداً ولحماً وحبكتني بنظام وعصب**] (أيوب 10، 10 - 11) ولم يكن مكتوباً: أنت صببتني، بل وليس مكتوباً ستجمدني بل لقد جمدتني وليس مكتوباً ستكسوني بالجلد واللحم، بل لقد كسوتني جلداً ولحماً والأمر يشبه كأساً مملوءة

باللبن، يبقى اللبن سائلاً إلى أن تضيف إليه النفحة، بعد ذلك يتجمد ويصبح قاسياً.

هل ستولد الأجساد من جديد عارية ومكسوة؟ رجل يذهب للقبر مرتدياً ثيابه، سيعود ويمكن يأخذ عبرة من هذا المثال: رأى شاول صموئيل طلب الأول من مشعوذه أندور أن يصف له شكله؟ - أجاب أنه شيخ عجوز، يصعد مرتدياً جلباباً. رواية أخرى تُعدُّ حجة بنفس المعنى فقد سألت الملكة كليوباترة الحاخام مائير: فقالت: أعرف أن الأموات سيعودون للحياة، لأنه مكتوب: [**سيزهر البشر في المدينة مثل عشب الأرض**] (مزمور 72، 16).

لكن عندما ينهضون خارج القبر هل سيكونون عراة أم يرتدون ثياباً؟ أجاب: يمكن تشبيههم بالقمح: تغرس حبة القمح عارية في الأرض، وتخرج منها سنبلة لابسة حلَّة جديدة بهية، فكم بالأحرى سيكون الشيء نفسه للصالحين الذين دفنوا وتغطيهم ثيابهم!

تعالج الحكاية التالية مسألة أخرى! كان أدريان قد سأل الحاخام جوزي بن خانانيا كيف يكوِّن القدوس الواحد الممجد! الكائن البشري في العالم الآخر؟ أجاب: من العظم ومن العمود الفقري المسمى «لوز» - كيف نعرف هذا؟ أحضر لي عظماً وسأريك المسألة. وبعد أن أُحضر له العظم، حاول سحقه في حجر الطاحون ولكن دون جدوى. أُريد حرقه بالنار، فضاعت جهوده. وضعه في الماء فلم يُحلَّ فيه؛ وضعه على سندان وطرقه بالمطرقة، التوى السندان وانكسرت المطرقة، دون أن تتفتت عظمة واحدة. أخيراً طرح السؤال عما إذا كانت هشاشة الكائن الحي ستظهر عند القيامة [**جيل يمضي، وجيل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر**] (الجامعة 1، 4) كما أن جيلاً جاء وسيعود. من أتى أعرج، فسيعود أعرجاً ومن جاء كفيفاً فسيعود كفيفاً لا يمكن القول أن الله أمات أناساً غير الذين أعادهم إلى الحياة لأنه مكتوب: [**انظروا الآن. أنني أنا هو ولا إله معي أنا أميت وأحيي وأجرح وأشفي وليس من يُنقذ من يدي**] (تثنية الاشتراع 32، 39). من كان قد صرّح أن لديه القدرة على القيام بالمهمة الأصعب هو نفسه من يعلن عن الأسهل. أنا أميت وأنا أحيي «هي الأصعب» أنا أجرح وأنا أداوي هي الأسهل. بما أنني (الله) أعيد الموتى بعاهاتهم الجسدية كي لا يقال: لقد أمات أناساً آخرين غير الذين أقامهم. أنا حقيقة من جرح في هذا العالم ومن يشفي نفس الأفراد عندما ينهضون من بين الأموات.

إيليا، العنصر المكلف من الله لإتمام القيامة. كما قيل [**ستتم قيامة الموتى من قبل إيليا**]، ومن سيقوم بمهمة العنصر البشري بقدوم المسيح؟ [**هاءنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل أن يجيء يوم الرب العظيم الرهيب**] (مالاخي 4،5) لن يكون للحياة الجديدة نهاية، «الصالحون الذين يعيدهم القدوس الواحد الممجد! إلى الحياة لن يعودوا أبداً إلى ترابهم».

3 ـ العالم الآخر

يُميز تباعد واضح بين علم المستقبل (كل ما يتعلق بالآخرة) التابع لقدماء الحاخامات والذي عبَّر عن نفسه فيما بعد. قام الأوائل بمماثلة الحقبة المسيحية بالعالم الآتي المستقبلي، سيضع المخلص الموعود نهاية للاقتصاد الموجود، وسيدشن الذي ما لا نهاية له، حيث يعيش الصالحون حياة روحية فقط مُحرَّرين من عوائق الجسد. وقد اعتبر الدكاترة أحداث الحقبة المسيحية حالة وسط بين هذا العالم والعالم الآخر.

غير أنهم كانوا يقبلون جميعاً بأن هذه الحياة تسبق حياة أخرى اكثر علواً وشأناً. حيث قبلوا جميعاً التصريح التالي: يشبه هذا العالم دهليزاً مفتوحاً على العالم الآخر، حضِّروا أنفسكم في الدهليز، كونوا جديرين وجاهزين للدخول إلى الغرفة الواسعة. لكن ماذا سيشاهدون؟ بماذا سيشعر أولئك الذي سيكون لهم هذا الامتياز؟ لم يملك عرّافو إسرائيل الوحي عن ذلك. كل نبي لم يتنبأ إلا عن أيام المسيح، وفيما يتعلق بالعالم الآخر [**إنه منذ الدهر لم يسمعوا ولم يُبلغوا ولم تر عين ما خلاك يا الله ما تصنع للذين ينتظرونك**] (إشعيا 63، 4). كل إسرائيل تجتمع إلى موسى وتقول له: «يا معلم، يا موسى، قل لنا أي حلم سيمنحه لنا القدوس الواحد الممجد في العالم الآخر: فيجيب: لا أعرف ماذا سأقول لكم، كونوا سعداء بما يحضَّر لكم. رغم هذا التحفظ، لم يمنع الدكاترة أنفسهم عن وصف العالم الآخر على طريقتهم. فقد أجبرهم تفكيرهم حول مسائل الحياة، على افتراض عالم جديد حيث الظلم الاقتصادي الحاضر قد تم إصلاحه، وسطعت شمس العدالة الإلهية التامة. هذا الحل لمسألة الشر يعطي لكامل مفهومهم عن العالم الآخر رونقه الخاص.

إذا ما صدقنا الرواية، فإن هذه النظرية قد تحققت وتأكد وجودها في التجربة. كان الحاخام يوسف ابن الحاخام جوزي بن ليفي مريضاً، ووقع في سبات عميق. عندما عاد إلى وعيه، سأله والده: «ماذا رأيت»؟ ـ أجاب: عالماً عكس هذا، الموجودون هنا يقفون في الأماكن العالية والذين هناك يقفون في أدناها، والعكس بالعكس ـ يا بني لقد رأيت عالماً مصححاً. لكن أي مكانة يشغلها الذين يدرسون التورا؟ ـ أجاب: نحن هناك كما هنا سمعت قول هذا. سعيد من يصل وهو يملك التعليم، لقد سمعت إضافة لذلك، أنه تعطى للشهداء كرامةٌ وإجلالٌ لا يمكن لأحد بلوغُهما.

ينتج من ذلك، أن الآلام التي تعرض لها الأبرياء والحرمان المطبق المقصود سيشكلان العالم الأفضل لتقييم الرجال من أجل قبولهم في العالم الآخر. كان الحاخام يهودا الأمير يقول: من يقبل ملذات هذا العالم سيحرم من ملذات العالم الآخر، ومن يرفض ملذات هذا العالم سيحصل على تلك الموجودة في العالم الآخر. يلاحظ أنه مع وجود ثلاث هبات ثمينة من القدوس الواحد الممجد إلى إسرائيل يبدو ان كل واحد منها كان قد أعطاها عن طريق الألم والعذاب، وهي التورا، بلاء إسرائيل والعالم الآخر.

يقول مثل شعبي: «ليس لكل واحد الأهلية لوليمتين» أي السعادة في هذا العالم والفرح في العالم الآخر. الفرق الأكبر بين البنيتين ينص على عكس القيم، الأشياء القيّمة في هذا العالم والتي هي الهم الأعلى لمجهودات الإنسان، لم يعد لها وجود لدى عبورنا البوابة إلى العالم الآخر. هذه الفكرة ملخصة في مثل حاخامي: «العالم الآخر لا يشبه هذا العالم. في العالم الآخر لا نأكل ولا نشرب ولا ننجب أطفالاً، لا تقام أي صفقات أو معاملات، لا حسد ولا حقد ولا منافسة، يجلس الصالحون على عروشهم، التاج على رؤوسهم ويتذوقون مجد الشيخينا». تجري الحياة على مستوى متجدد كلياً لا مثيل له، لن نكون معرضين لشهوات الجسد، وسوف تمارس إمبراطورية الطبيعة الروحية كامل سلطتها. اليوم المقدس على هذه الأرض. بالمقارنة مع أيام الأسبوع، فإن العالم الآخر سيكرر ذلك على مستوى أعلى بكثير «يمثل السبت سدس العالم الآتي».

هذا نص يظل تفسيره غير مؤكد: «ساعة من الندامة والأفعال الحسنة في هذا العالم، أفضل من حياة كاملة في العالم الآخر، وساعة من الهناء وسعادة الروح في

العالم الآخر أفضل من كامل حياة هذا العالم». قدَّم «ر.ت هيرفورد» شرحاً مقنعاً جداً، عبر فيه عن التناقض بين تقلبات الحياة الحاضرة وثبات الحياة الآخرة. يمكن الندم في هذا العالم وإتمام الأعمال الجديرة بالتقدير السرور الناتج من ذلك يتغلب على سرور أبدي مستقر في العالم الآخر. من جهة أخرى، في عالم لا يتغير فيه شيء، شكل الوجود الأعلى والأسمى وليس شيئاً آخر سوى السلام التام بحضور الله. ساعة من الفرح أفضل في ظروف العالم الآخر من كل مساوئ حياتنا الفانية.

في الرواق الواسع، وبتكريس الذات للدراسة وممارسة المبادئ الموصى بها من الله، يضع الإنسان نفسه في أفضل حال ليتنفس ذات يوم الجو الروحي النقي. من اكتسب أقوال التورا، فقد اكتسب الحياة في العالم الآخر. لقد قيل عن التورا: [**هي تهديك في سيرك وتحافظ عليك في رقادك وإذا استيقظن فهي تحدثك**] (أمثال 6، 22) فهي تسهر عليك في ساعة الموت «وعندما تنهض في أيام المسيح فهي ستتقدم معك في العالم الآخر». تصريح اكثر وضوحاً: «في اللحظة التي يغادر فيها الإنسان هذا العالم، فلن يرافقه لا المال ولا الذهب ولا الأحجار الكريمة أو اللؤلؤ، لن يبقى معه سوى التورا والأفعال الحسنة لأنه قيل: تهديك في سيرك، تحافظ عليك في رقادك، عندما تمشي سترشدك في هذا العالم، وعندما تنام فهي تسهر عليك في القبر، وعندما تنهض فهي تتقدم معك في العالم الآخر».

تفسيرات أخرى تعبر عن الرأي نفسه، ماذا تعني هذه الكلمات؟ «ما أن أنهض فإني أرتوي من صورتكم» يُقصد بها تلامذة العقلاء الذين يبعدون النعاس عن أعينهم في هذا العالم، وأن القدوس الواحد الممجد! سيشبعهم في العالم الآخر من وهج الشيخينا». كان من عادة الحاخام «نيخونيا بن هكاتا» دكتور متضلع من القرن الأول، عندما يغادر بيت الدراسة، كان يتلو هذه الصلاة: «أشكرك يا ربي وإلهي بأنك جعلت نصيبي مع أولئك الذين في بيت الدراسة، لامع الذين يجلسون في زوايا الشوارع. لأننا ننهض سوية باكراً، أنا من أجل دراسة كلام التورا، وهم للأشغال العبثية، هم وأنا نعمل، لكن عملي سيكون له مكافأة، ولن يكون لعملهم شيء، نحن جميعنا نسرع، أنا من أجل الحياة، وهم ليستقروا في حفرة الدَّمار».

عندما مرض الحاخام أليعازر، جاء تلاميذه لزيارته فقالوا له: «يا معلم، علمنا الطرق التي بواسطتها نكون أهلاً للحياة في العالم الأخر. أجابهم: «كونوا حريصين على

شرف زملائكم، أبعدوا أطفالكم عن التلاوة (هذه العبارة غامضة تحتمل عدة تفاسير) أجلسوهم عند أقدام تلامذة العقلاء، عندما تُصلّون، اعرفوا جيداً مع من تجلسون، هذه هي الطريقة التي ستكونون بها جديرين بالحياة في العالم الآخر.

بما أن هناك دائماً درجات أعلى للسمو في الروحانية، فقد يقال لنا: لا راحة لتلامذة العقلاء في هذا العالم والعالم الآخر، وكما قيل: «ستزداد قوتهم دائماً أكثر ويميلون للحضور أمام الله في صهيون».

كان الحاخامات يدققون بتأنٍّ هذه المسألة: من سيكون مقبولاً في مسرات العالم الآخر ومن سيستثنى؟ يصادف في التلمود الكثير من الآراء العرضية عن الملزمة المعلنة أن من يقوم بهذا العمل أو ذاك سيكون أو لا يكون له نصيب في العالم الآخر. وها هي بعض الأمثلة: فيما يخص من يملك ثمرة عمله فقد كتب: «عندما تستهلك نتاج يديك، فأنت سعيد، وسيزدهر عملك. أنت سعيد في هذا العالم، وستزدهر في العالم الآخر». من سيرث العالم الآخر؟ ذلك الذي يضيف إلى النعم الثماني عشرة هذه: «لتكن ممجداً، يا من افتدى إسرائيل» من يتلو المزمور 145 [**سبحي يا نفسي للرب، أسبح الرب مدى حياتي، وأشيد لإلهي مادمت موجوداً**] يمكن أن يضمن أنه من العالم الآخر. لماذا؟ لأن هذا المزمور يتضمن الآية التالية أيضاً: «تفتح يديك وتروي غليلك من كل ما تتمنّاه في الحياة» من يتلفظ بالنعمة (فعل النعمة بعد الطعام) فوق كأس من الخمر يمكنه ضمان إرثٍ دون حدود، ويستحق أن يرث عالمين، العالم الحالي والعالم الآخر.

من بين الذين سيرثون العالم الآخر، من يقطنون في بلاد إسرائيل ومن يلقنون أولادهم ابنه دراسة التورا «كل من يقطع مسافة أربعة أذرع في بلاد إسرائيل، فإنه يضمن نفسه أنه ابن من العالم الآخر». «من يدرس قوانين اليهودية، يضمن أن يكون ابناً من العالم الآخر».

أرسل سؤال من فلسطين إلى حاخامات بابل: «من سيكون ابناً من العالم الآخر؟ أجابوا: الرجل اللطيف المتواضع، ذو السلوك المعتدل، الذي يدرس التورا دائماً ولا يجعل من ذلك شرفاً له».

فيما يتعلق بالمستثنين من العالم الآخر، يقال لنا: «من يعبر نهراً خلف امرأة فلن يكون له نصيب في العالم الآخر»، «من يذل قريبه علانية، فلن تكون له حصة في

العالم الآخر». سبع فئات من الناس لن يكون لهم نصيب في العالم الآخر، الناسخ، مثقف الأطفال، أفضل الأطباء، قاضي المدينة، الساحر، صاحب الكنيس، الجزار.

من المؤكد أن هذه التصريحات لا تشكل حكماً قطعياً حول المصير الأبدي لمن نتكلم عنهم، فهذه ليست سوى تعابير مبالغ فيها لموافقة أو تأنيب. ينبغي إعطاء أهمية أكثر للنص التالي: لعموم إسرائيل نصيب في العالم الآخر هكذا قيل: [**ويكون شعبكِ كلهم صديقين وإلى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي وعملِ يدي الذي أتمجد به**] (إشعيا 60، 21). ولا نصيب لمن يعتبر أنه لا يمكن لعقيدة القيامة أن تستنتج من التورا، ولمن يدعم أن التورا لا تأتي من السماء والمنغمس في ملذات الحياة. يقول الحاخام عُقبة: كذلك من يقرأ كتباً غير قانونية (شرعية) مناسبة، ومن يتلو تعويذة على جرح ذاكراً [**إن أطعت أمر الرب إلهكَ وصنعت بالاستقامة أمامه وأصخت إلى وصاياه وحفظت جميع فرائضه فجميع الأمراض التي أحللتها بالمصريين لا أحلّها بك لأني أنا الرب معافيك**]. يضيف «أبّا شاول» ذلك من يلفظ كما يكتب قد نخطئ بأن ننسب للحكم الأول لهذه القطعة بأن فكرة التفضيل يمارسها إله إسرائيل مع الأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي، فإنها كانت محاولة لتشجيع اليهود على الظهور بمظهر المثابرين بالمحافظة على نزاهتهم النوعية ضد الاضطهاد الرهيب. هناك قوتان تحاولان إزالة المجتمع، تعذيب واضطهاد القوى الوثنية، وتأثير الفكر المعاصر، الهلليني (اليوناني) كما المسيحي. كانت المقاومة الفعالة تتطلب جهداً وتصميماً متواصلين مكلفة اليهود تضحيات كبيرة، وكان الحاخامات يؤيدون هذا بتعاليمهم، أنهم سينالون المكافأة في العالم الآخر. الناجون من هذه النزاعات القاسية والذين رفضوا الخضوع سيكونون «الشعب الذي لا يعدُّ سوى الصالحين» وسيعرفهم الله كما هم ويضمن لهم إرثاً في العالم الآخر.

هل سيكون للوثنيين نصيب في ذلك؟ فقد اختلفت الآراء حول هذه النقطة. يصرِّح الحاخام أليعازر: «أن يكون لأي وثني حصة في العالم الآخر، كما قيل: «سيعود الشرير إلى مصاف إقامة الأموات، كذلك الأمم التي تنسى الله». السيئ والشرير إشارة للناس السيئين المنتمين لإسرائيل: يقول الحاخام يهوشع: لو تضمن النص «الشرير سيعود إلى مصاف الأموات، كذلك جميع الأمم» وتوقف هنا، فإنني سأفهم ذلك مثلك، لكن بما انه يضيف: الذين ينسون الله، فيجب إذن أن يوجد بين الأمم (الوثنية) صالحون،

لهم نصيب في العالم الآخر. إذا كان الصالحون من بين الوثنيين سيملكون الفرح والسعادة في العالم الآخر، فإن الأشرار سيستثنون من ذلك، فماذا يكون مصير أطفالهم الذين كانوا فتياناً ليحملوا المسؤولية الأخلاقية؟ تؤكد نظريتان متباعدتان أنه «لن يكون لأولاد الوثنيين الأشرار حصة في العالم الآخر»، لأنه قيل [**هوذا يأتي اليوم المضطرم كالتنور فيكون جميع المتكبرين وجميع صانعي النفاق عصافة فيحرقهم اليوم الآتي**] (مالاخي 4،1). وذلك هو رأي الحاخام غامالیل. كان الحاخام جوزي يقول: «سيدخلون في العالم الآخر، لأنه مكتوب: «يحمي الرب البسطاء» و«اقطعوا الشجرة وأغصانها، لكن دعوا الجذوع حيث توجد الجذور».

تطبق المناقشة نفسها على بني إسرائيل الأشرار، الفكرتان المتضادتان مبنيتان على نفس النصوص، يضاف لهما هذه الملاحظة: «فيما يتعلق بأبناء الوثنيين الأشرار، فالجميع موافقون أنهم لن يدخلوا إلى العالم الآخر». بما أنهم مستثنون من نعم العالم الآخر، فلن يتعرضوا للعقوبات والقصاص. «لن يعود أبناء الوثنيين الأشرار إلى الحياة عند القيامة ولن يُحاكموا».

نقاش آخر يبحث عن تحديد فترة من حياة ابن إسرائيل يكون مؤهلاً فيه لقبوله في العالم الآخر. اعتباراً من أي سن يتلقى القاصر (الذي لم يبلغ سن الرشد) أهلية الدخول للعالم الآخر؟: يجيب أحد الحاخامات: منذ ولادته، لأنه مكتوب: «يعلنون عدالته إلى شعب وُلد حديثاً». وبحسب آخر، من اللحظة التي يبدأ الطفل فيها بالكلام، لأنه قيل: «ستخدمه الأجيال القادمة، وسيحكي عن الله للجيل التالي». هناك آراء أخرى: منذ الحمل، لأنه كتب: أنا تعيس ومشرف على الموت منذ شبابي. منذ أن قال الطفل: آمين: لأنه مكتوب: [**افتحوا الأبواب ولتدخل الأمة الصدِّيقة الحافظة للحق**] (إشعيا 26، 2)، لا تقرأ من يحافظ على الإخلاص، بل من ينطق بكلمة آمين.

4 ـ الدينونة

قلنا أية أهمية رئيسية يعطيها الحاخامات لمعتقدات العقاب والثواب. ليس لأن هذه المعتقدات كانت تأتي من ثقتهم بالعدالة الإلهية، بل لتقديمها الحل الوحيد الممكن

للمسألة المطروحة بالظروف السيئة لشعبهم. لن تكون الأمم الوثنية دون عقاب الشعب لاضطهادها المختار من الله، يجب أن يأتي يوم للعقاب والمكافأة فيه على كل عمل. «ستغلب الذين يقفون ضد أبنائك». وليس مكتوباً: ستسقط أولئك الذين يقفون ضدنا بل «ضدك»، هذا يستدعي أن من يقف ضد إسرائيل، كما لو أنه يتمرد على القدوس الواحد الممجد! لهذا سيتهم الأمم لتجيب على المعاملة القاسية التي عاملت بها إسرائيل قديماً، إلى جانب المحكمة التي سيمثل أمامها كل فرد بعد موته، سيكون هناك يوم الدينونة، لمحاكمة الشعوب الوثنية مع بداية العصر المسيحي، عندها سينتقم للصالحين. [**ويتعالى رب الجنود بالقضاء ويتقدس الإله القدوس بالعدل**] (إشعيا 5، 16). متى سيكون القدوس الواحد الممجد! ممجداً علانية في عالمه؟ عندما يقوم بالدينونة بالنسبة لأمم الوثنية، كما قيل: [**الربُّ انتصب للخصام وقام ليدين الشعوب**] (إشعيا 3، 13). [**وبينما كنت أرى نُصبت عروش فجلس القديمُ الأيامِ وكان لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وعجلاته نار مضطرمة**] (دانيال 7، 9). هل يوجد إذن عدة عروش سماوية؟ أليس مكتوباً [**رأيت السيِّد جالساً على عرش عال**] (إشعيا 6، 1) و[**الملك الجالس على عرش العدل يُبدد نظره**] (أمثال 20a). لماذا يحكي إذن عن عدة عروش؟ يصرِّح الحاخام جوزي بن غاليل: يُقصد بهذه العبارة العرش ودرجاته الصغيرة. الحاخام عقبة: «هذا يعود لعروش الأمم الوثنية» التي سيسقطها الله، لأنه قيل: [**وأقلب عرش الممالك وأدمِّر قدرة ممالك وأدمِّر قدرة الأمم وأقلب العجلة وركابها وتسقط الخيل وركابها كل واحد بسيف أخيه**] (حجاي 2، 23). بحسب الحاخامات سيجلس القدوس الواحد الممجد! في العالم الآخر، وتصطف الملائكة حول عروش رجال إسرائيل العظماء الذين سيجلسون عليها وسيجلس القدوس الواحد الممجد مع قدماء إسرائيل وأحد رؤساء بيت الدين ويحاكم الأمم الوثنية لأنه قيل: [**الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم**] (إشعيا 3، 14). لم يكن مكتوباً «ضد القدماء» بل «مع القدماء»، هذا يشير إلى أن القدوس الواحد المجد! سيعقد جلسة لمحاكمة الأمم الوثنية. ماذا تعني هذه الكلمات.؟ [**وشعر رأسه كالصوف النقي**] (دانيال 7، 9) يعطي القدوس الواحد الممجد! براءة ذمة مكافأة للأمم الوثنية لأنها التزمت في هذا العالم ببعض الوصايا الثانوية، بطريقة يتمكن بها من محاكمتهم وإدانتهم في مكافأة العالم الأخر، دون أن تتمكن (الأمم) من تقديم أي مرافعة دفاعية، ودون أن يكون في تصرفها أي استحقاق أو فصل.

يتابع وصفاً لفحص الأمم في العالم الآخر، يمسك القدوس الواحد الممجد رزمة التورا، ويضعها على ركبتيه ويقول: «من اهتم وانكبَّ على هذه التورا ليتقدم ويأخذ مكافأته...» وعلى الفور ستتدافع أمم العالم نحوه في حال من الفوضى. سيقول لهم: «تمثلوا أمامي في هذه الفوضى، لتتقدم كل أمة ودكاترتها»، ستأتي أولاً الإمبراطورية الرومانية، لأنها الأهم سيسألها القدوس الواحد الممجد!: إلى أي عمل وجهتِ اهتمامكِ؟ ستجيب: «يا رب الكون، لقد أقمنا العدد من الاتفاقيات التجارية والأسواق، وأشدنا الكثير من الحمامات، وجمعنا الذهب والفضة، فعلنا كل هذا فقط بسبب إسرائيل، كي تتمكن من تكريس نفسها للتورا».

سيتابع القدوس الواحد الممجد!: انتم أخرق شعب في العالم. كل ما فعلتموه، لم يكن مخصصاً إلا لأنفسكم، أسواقكم، تجارتكم، جعلتموها أماكن للدعارة، حماماتكم كانت تسلية لكم، لكن لي وحدي يعود الذهب والفضة. لتبتعد هذه الإمبراطورية حالاً، يائسة. والثانية من حيث الأهمية هي إمبراطورية الفرس التي تتبعها. يسألهم القدوس الواحد الممجد! «ماذا فعلتم» سيجيبون: «يا سيد الكون، لقد أشدنا الكثير من الجسور وفتحنا مدناً كثيرة وخضنا حروب وكل هذا فقط بسبب إسرائيل، كي تتمكن من تكريس نفسها للتورا. سيتابع القدوس الواحد الممجد! «كل ما فعلتم لم يكن إلا لصالحكم انتم. جسوركم اقمتموها لتحصلوا على رسوم المرور، والمدن التي احتللتموها لكي ترغموا سكانها على العمل لصالحكم، أما هذه الحروب فأنا من سيقوم بها، بدوره سيختفي هذا الشعب مشتتاً، لكن بما أن مملكة الفرس كانت شاهدة على طرد المملكة الرومانية، لماذا دخلت الآخرة؟ لأنه قيل لقد دُمر المعبد، بينما ساعدنا نحن على بنائه. كذلك تقدمت الأمم الأخرى متتابعة، لماذا تتابعت مع رؤيتها أن الأمم الأخرى لم تحصل على شيء؟ كانت تظن: «لقد أرغمت روما وفارس إسرائيل على حياة الذل والعبودية، ونحن لن نفعل مثلهم.. من أين يأتي الفرق بين المملكتين الأوليتين المعتبرتين على أنهما الأهم، والممالك الأخرى ليست كذلك؟ هذا لأن سيطرتهم (سيادتهم) تبقى حتى مجيء المسيح.. سيقدمون عندها المرافعة التالية إلى الله: «يا سيد الكون، هل أعطيتنا التورا ورفضناها؟ لكن كيف يمكننا تبرير عملهم بهذا الشكل؟ بما أن القدوس الواحد الممجد! قدَّم التورا لكل شعب الواحد تلو الأخر وقد رفضنها جميعهم، إلى أن جاءت إسرائيل التي قبلتها قدَّمت الأمم حججاً أخرى متنوعة

للدفاع عن نفسها فاعتُبرت جميعها غير منطقية، وانتهى الامتحان بهزيمتهم وتمجيد إسرائيل.

وفيما يتعلق بالأفراد فقد حدَّد الله «يوم الدينونة» بعد الموت. يوصي القانون التلمودي: من يحترم قبور الإسرائيليين سيقول: ممجد من كوَّنكم بحكم، وأطعمكم بفضائل الحكمة وحفظكم بحكمة وجمعكم بعد نهايات حكم، الذي من العالم الآخر سيرفعكم إلى الحكم. لكن ليس الإسرائيليون فقط، بل الكائن البشري أيضاً المدعو ليقدم الحسابات.

يقدم النص التالي بعداً عاماً بحتاً: «أولئك الذين ولدوا مصيرهم الموت، والأموات يعادون إلى الحياة والأحياء يُدانون ليعرفوا ويُعرفون، ويدركوا من واقع أنه الله، الصانع، الخالق، الذي يمنح القاضي، الشاهد، المتهم وأنه من يحاكِمُ في العالم الآخر، ليمجد، معه لا ظلم ولا نسيان أو قبول هدايا الرشوة. اعلموا أيضاً أن كل شيء مطابق للحساب الذي أسسه. وأن لا يتعلل خيالكم بالأمل أن لكم ملاذاً في القبر، لأنه بالقوة وُلدتم، وأنكم تعيشون، وستموتون وعليكم تقديم الحساب في العالم الآخر أمام الأسمى ملك الملوك القدوس الواحد الممجد.

في مقاطع أخرى كثيرة توجد كلمات الصالحين والأشرار، وهي مستعملة دون اعتبار للمعتقد أو القومية أو العرق. «مجتازين وادي البكاء، سيجعلون منه مكاناً مليئاً بالينابيع وسيملؤه المطر ببركاته». «مجتازاً» كلمة تقال عن الرجل الذي ينتهك إرادة القدوس الواحد الممجد. «وادي» يحفرون جهنم عميقاً لأجلهم. «البكاء»: يصرخون ويذرفون الدموع مثل النبع جانب الهيكل ومذبح المعبد. والمطر سيملؤه ببركاته: دلالة اعتراضهم على عدالة الحكم الذي سيطبق عليهم. سيقولون: «سيد الكون، لقد حكمتَ باستقامة ونزاهة، برَّأت بحق، حكمت فأدنت، ووضعت جهنم للأشرار، وجنة عدن للصالحين.

يمكن مقارنة ذلك بوليمة أقامها ملك، داعياً إليها ضيوفاً مختلفين. وقد أعلن أمراً مصمَّماً كما يلي: على كل مدعو أن يحضر معه أثاثاً يستريح عليه: أحضر البعض بسطاً، وآخرون فرشاً، وبعضهم مخدات ومساند ومقاعد منوَّعة، وجهَّز البعض أنفسهم بقطع من الخشب أو الحجارة. تأمل الملك كل هذا وقال: ليستعمل كل واحد منكم الأثاث الذي أحضره. الجالسون على الخشب أو الحجارة كانوا يتهامسون ضد

الملك ويقولون: هل هذا جدير بمقام الملك، بأن يجلسنا على مقاعد من هذا القبيل؟ سمعهم الملك وقال لهم: إنكم لا توجهون الإهانات لقصري الذي بني بأموال طائلة، بإدخالكم إليه خشبكم وحجارتكم، لكنكم تتجرأون على توجيه اللوم لي: التقليل من الاحترام المقدم لكم وأنتم المسؤولون عنه. هكذا في العالم الآخر سيحكم القدوس الواحد الممجد! على الأشرار بالذهاب إلى جهنم، وسيتهامسون ضده قائلين: كنا ننتظر السلام والخلاص، لكن هذا هو المصير المعاكس الذي يصيبنا! سيجيبهم: ألم تكونوا على الأرض مشاكسين ومحبين للخصوام، مفترين، ألم تقوموا بكل أعمال الشر؟ أليس عليكم الإجابة عن الفتن وأعمال العنف؟ يحصل لكم ما هو مكتوب: **[يا جميع موقدي النار المتطقين بالشرر ادخلوا في لهيب ناركم وفي الشرر الذي أضرمتم. هذا لكم من يدي إنكم في الألم تضجعون]** (إشعيا 50، 11) نصوص أخرى تعني بشكل خاص محاكمة الإسرائيليين المؤتمنين على التورا، سيتحملون مسؤولية أكبر.

إذا كانت الإطاعة للوصايا، تجد نفسها مكافأة بصورة عجيبة، فإن القصاص المناسب الذي يجازي العصيان، يجب أن يكون عديم الشفقة. في العالم الآخر سيحاكم القدوس الواحد الممجد! الصالحين والطالحين، في إسرائيل. سيسمح للصالحين بالدخول إلى جنة عدن، وسيرمي الأشرار في نار جهنم. وفيما بعد سيخرجهم من جهنم ويأخذهم إلى جنة عدن مع الصالحين. سيقول لهم انظروا هنا مكان الصالحين ويُبقي بينهم فراغاً غير مشغول بأحد. لا يمكنكم القول حتى لو تهامستم مثلما حصلتم على مكان في جنة عدن مع الصالحين. ثم يأخذ الصالحين الموجودين في جنة عدن إلى جهنم وسيقول لهم: انظروا هنا مسكن الأشرار، ويُبقي فيما بعد فراغ واسع، أما كان بمقدوركم القول حتى ولو أنكم كنتم قد ارتكبتم الخطيئة فما وجدتم مكاناً في جهنم. هذا ما تعنيه الآية التالية: **[بما أن خجلاً مضاعفاً شملكم وأنهم أنشدوا أن الخزي نصيبهم فبذلك ترثون في أرضهم مضاعفاً وفرح أبدي يكون لكم]** (إشعيا 61، 7) بعد ذلك سيعيد الصالحين إلى جنة عدن والأشرار إلى جهنم.

الاستشهاد الذي يلي وضع هذه الجملة: «سيرث الأشرار جهنمهم وجهنمكم» بعد أن سقط «ايليزي بن أبويا» في الخيانة، سأل الحاخام ميئير: ماذا يعني هذا النص: **[انظر**

إلى عمل الله كيف لا يقدِرُ أحدٌ أن يثقِّف ما أوَّده] (الجامعة 7، 14) أجابه الحاخام: «القدوس الواحد الممجد! بالنسبة لكل ما خلق، خلق المعاكس، مثال: «جبال ووديان، محيطات ومجاري مياه»، استأنف الآخر القول: «كان معلمك عقبة قد أعطى تفسيراً آخر: قال: خلق الله الصالحين والأشرار، جنة عدن وجهنم، لكل فرد جزءان أحدهم في جنة عدن والآخر في جهنم. إذا كان أحدهم أهل وصالح فإنه يأخذ في جنة عدن حصته وحصة واحد من أقرانه، وإذا كان مذنباً وشريراً فيأخذ نصيبه ونصيب آخر في جهنم.

للتحضير ليوم الدينونة، هناك تسجيل لأفعال كل واحد على الأرض. جميع أعمالكم مسجلة في كتاب. وعندما يغادر إنسان هذا العالم، تُقرأ له مجمل أعماله في صفحة الكتاب، سيقال له: «أنت فعلت هذا وذاك في ذلك المكان وفي ذلك اليوم». يعترف بذلك ويتلقى الأمر بتوقيع محضره، فيوقعه. هناك أفعال أخرى، عندها يعترف بعدالة الحكام ويوكدها بقوله: «لقد حاكمتني بعدالة». «حتى الملاحظات العديمة الفائدة التي يوجهها الرجل لزوجته ستذكر في حسابه بعد موته فوراً». سيحاكم القدوس الواحد الممجد! الصالحين والأشرار. الصالحون سيدخلون جنة عدن والأشرار يلقيهم في نار جهنم. سيقول الأشرار: «بم يُحكم علينا بالعدل (لم ينصفنا)؟ يُبرئ من يحلو له ويدين بكيفية متشابهة». سيجيب القدوس الواحد الممجد! «لا أريد البوح لكم بكل شيء لكن بعدئذ ماذا يعمل؟ «يقرأ عليم كشفاً بأعمالهم، وينزلون إلى جهنم».

عند الدينونة، ستظهر لدى الإنسان أفعال سيئة كثيرة، ظنَّها في وقتها أنها هفوات بسيطة، والتي لم يقلَقْ بسببها. ماذا يعني هذا النص؟ «متى كان الظلم في أعقابي فهو يقلقني». الأعمال الجائرة التي يدوسها الإنسان بقدميه في هذا العالم، ستغمره في يوم الدينونة.

من ضمن الأسئلة التي توجه للإنسان يوم الحساب: هل أتممت أعمالك بنزاهة؟ هل حددت لنفسك وقتاً لدراسة التورا؟ هل قمت بالواجب الذي يملي عليك تأسيس عائلة؟ هل ستأمل الخلاص بالمسيح؟ هل بحثت عن الحكمة؟ هل حاولت استنتاج شيء من آخر بالدراسة؟ حتى لو كانت الإجابات عن الأسئلة إيجابية فإن صاحب العلاقة لن يقبل إلا بشرط أن تكون مخافة الله كنزه، [**وفي زمانك تكون الأمانة ووفرة الخلاص والحكمة والعلم وتكون مخافة الرب كنزَهُ**] (إشعيا 33، 6) «وإلا سيطرد».

لقد سبق وذكرنا مثلاً بفحوى السؤال الذي يطرح ما إذا كان القصاص الذي غُرِّمت فيه النفس والجسد، واتفق عليه بالإيجاب، لأن النفس والجسد يتشاركان في الخطيئة. مثل آخر يعطي معنىً معاكساً: تزوج كاهن بامرأتين، ابنة كاهن آخر وابنة كاهن إسرائيلي علماني: أعطاهما دقيقاً من أضحية، لكنهما استخدمتاه بشكل غير طاهر. لم يقل شيئاً لابنة العلماني بينما وبَّخ الأخرى. قالت له الأخيرة: يا سيد لماذا تحاملت عليَّ فقط؟ أجاب: الأخرى هي ابنة علماني لم تتعلَّم شيئاً عند أبيها حول قداسة الدقيق المكرَّس لكن أنت ابنة الحاخام تثقفت وتعلمت في منزل والدك. لذلك لم أقل شيئاً لرفيقتك ووجهت اللوم لك. كذلك القدوس الواحد الممجد! عندما سيحاكم الجسد والروح في العالم الآخر فقد يقول شيئاً للجسد ويوبخ الروح، إذا ادعت الروح أنهما أخطآ معاً وتطلب من سيد الكون لماذا يوبخها بعيداً عن الجسد، سيجيب: الجسد يأتي من الأسفل حيث تُرتكب الخطيئة، أنتِ تأتين من فوق حيث لا ترتكب أي خطيئة، لهذا غضضت الطرف عن الجسد ووبختك.

الرأي أو الفكرة المعتمدة عامة وتخص المحاكمة يجب أن تكون الروح قد التحقت بالجسد طوال فترة الاثني عشر شهراً (بعد الموت، في جهنم) يوجد الجسد، بينما الروح تصعد وتهبط، لكن بعد اثني عشراً شهراً يفنى الجسد وتصعد الروح دون أن تنزل من جديد.

ما هي مدة القصاص للخاطئ؟ هل يشير التلمود إلى عقيدة أو فكرة القصاص الأبدي؟ يبدو هذا متضمناً نصّاً واحداً على الأقل: عندما مرض الحاخام بن زكّاي، جاء تلامذته لزيارته. ما أن رآهم حتى شرع بالبكاء. قالوا له: «يا نور إسرائيل! يا عموداً موضوعاً على اليمين! ومطرقة قوية! لماذا تبكي؟ أجاب: لو أنني كنت راقداً أمام ملك بشري والذي عاش يوماً وسيكون غداً في القبر، وإذا ما بلغني غضبه فلن يكون أبدياً، لن يستطيع الحكم عليَّ بأكثر من الموت، بحضور الملك قد أكون قادراً على تهدئته بالكلام ورشوة بالمال الكثير، فأبكي مسبقاً. لكن كيف لا ابكي وأنا ممَدَّدٌ بحضور ملك الملوك القدوس الواحد الممجد! الذي يعيش ويبقى إلى أبد الآبدين. إذا كان منزعجاً مني فهذا غضب أزلي، وإذا حكم عليَّ بالموت، فهذا موت أزلي، مستحيل تهدئته بالكلام أو رشوة بالفضة. ماذا أقول؟ ينفتح أمامي طريقان، طريق جنة عدن، وطريق جهنم، وأجهل أياً منهما سيكون نصيبي. كيف لا أبكي؟».

لكن هذا الشرع البلاغي لا يسمح دون أن يعزى المعتقد القطعي بالعقاب الأبدي إلى الحاخامات. التناقض بين حاكم أرضي والملك الأعلى هو وحده المدفوع إلى أقصاه. تلك هي الكيفية التي صاغ بها الحاخام عقبة العقيدة المعتمدة. الحكم الذي أصاب جيل الطوفان قضى بالحكم عليه باثني عشر شهراً. كذلك أيوب، والمصريون، وجوج وماجوج في الآخرة، والأشرار في جهنم. كان الحاخام جوخانان بن نوري يقول: لقد دام الحكم فترة ما بين الفصح وعيد الحصاد عند اليهود، أي سبعة أسابيع بينما أعلن سابقاً، «أن جيل الطوفان لن تكون له حصة في العالم الآخر وأن الآراء تختلف فيما يخص معرفة ما إذا كانت ستُلغى من الدينونة أم لا» - من جهة أخرى فإن الحكم الذي أصاب جيل الطوفان تلفظ بعقوبة اثني عشر شهراً وعندما تنتهي هذه المدة سيكون لهذا الجيل نصيب في العالم الآخر. يظهر من هذا، أن الحاخامات كانوا يمقتون النظر في قصاص لا نهاية له فقد أكدت السلطة أن كل الذين يهبطون جهنم سيصعدون منها، باستثناء ثلاث فئات من الخطأة: من زنا مع زوجة آخر، ومن أذلّ قريبه علانية، ومن أعطى قريبه تسمية مخلّة بالشرف. بعض الدكاترة يوردون الحالة الأولى فقط من الخطايا الثلاث.

لقد توجّه الخطاب الكلاسيكي حول هذه النقطة. «حسب مدرسة أو «شامّاي»، هناك ثلاث فئات من البشر مُعتبرة في الدينونة: الصالحون تماماً، الأشرار كلياً، والفئة الوسطى، ومجموعة من الفئة الأولى مسجلون ومختومون بالشمع إلى الحياة الأبدية، وأفراد من الفئة الثانية مسجلون بالذهاب إلى جهنم لأنه قيل: [**وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي**] (دانيال 12، 2). والذين من الفئة الثالثة سينزلون إلى جهنم وسيصرخون (وهم يخضعون للعذاب)، ثم سيصعدون هكذا قيل [**فأُدخلُ الثلث في النار وأُحميه إحماءَ الفضة وأمتحنه امتحان الذهب. هو يدعو باسمي وأنا أستجيبه. أنا أقول هو شعبي وهو يقول الرب إلهي**] (زكريا 13، 9). وفيما يخص هؤلاء قال «آن»: «الرب يميت والرب يحيي» ينزل إلى جهنم ويصعد منها. أما مدرسة هلّيل فقد كانت تستشهد بسفر الخروج (34، 6) [**ومرَّ الرب قدّامه ونادى الرب: الربُّ إله رحيم ورؤوف طويل الأناة كثير المراحم والوفاء**]. وبخصوص نفس البشر كما قال داود: «أُحبُّ الرب لأنه سمع صوتي وابتهالاتي، كنت تعيساً فأنقذني. الخطأة من إسرائيل مع أجسادهم، وأولئك من بين الوثنيين مع أجسادهم،

ينزلون إلى جهنم يحاكمون فيها ويدانون باثني عشر شهراً عذاباً، وبعد انتهاء مدة العذاب تفنى الأجساد، وتحرق الأرواح، وتتشتت هباء كالرياح تحت أقدام الصالحين». كما قيل: [**وتطأون المنافقين وهم رماد تحت أخامص أقدامكم يوم أعمل أنا رب الجنود**] (ملاخي 4،2) لكن المتعصبين النمامين، المنغمسين في ملذات الحياة الذين ينكرون التورا، ولا يقبلون القيامة، أولئك الذين ينسحبون من طرق الجماعة، ويخيفون الناس في بلاد الأحياء، وأولئك الذين مثل «جيروبام ابن نيبات» وحلفائه يقترفون الخطايا، ويوقعون الناس في الخطيئة، سينزلون إلى جهنم وسيحاكمون فيها من جيل لآخر. لأنه قيل: [**ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوْني لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تُطفأ ويكونون رُذالة لكل البشر**] (إشعيا 66، 24). ستتوقف جهنم لكنهم لن يتوقفوا عن العذاب، كما قيل: «سيذبل جمالهم، محجوزين في مكان إقامة الموتى حيث لا توجد بيوت ليتعبوا ويهلكوا، بخصوصهم قال، «آن»: أولئك الذين يعارضون الرب سيقطَّعون إرباً إرباً. كان الحاخام «إسحق بن أبين» يقول: ستصبح وجوههم سوداء كقعر القدر. يُظهر لنا هذا النص باختصار، أن إحدى المدارس الرئيسية في القرن الأول، وبتأثير من كتاب دانيال، كانت تقرر مصير الأشرار المتمرسين عقاباً أزلياً. غير أن المدرسة الأخرى كانت تعتبر هذه العقيدة غير متطابقة مع التسامح والعطف الإلهي. يجب معاقبة الخطاة، سيخضعون إلى أثني عشراً شهراً من العذاب ثم يُبادون لأنهم غير أهل لدخول جنة عدن. أما أولئك الذين كان خبثهم إجرامياً بشكل نادر، فسيبقون في جهنم من جيل إلى جيل. هذا لا يستمر للأبد لأن جهنم ستنتهي بعد أن يتألموا فيها، فإنهم لن يُبادوا، بل سيستمرون بالوجود، بمشاعر حقيقية ـ أين وكيف؟ ولا يقال شيء عن هذا إنهم في حالة تأنيب دائم.

5 ـ جهنم

لقد تحققنا سابقاً أن الأشرار محكوم عليهم بالذهاب إلى مكان القصاص أي جهنم. سألت سيدة رومانية الحاخام «جوزي بن خلافتا» ماذا يعني هذا النص: [**من يرى روح بني البشر التي تصعد إلى العلاء وروح البهيمة الذي ينزل إلى أسفل**

الأرض] (الجامعة 3، 21). أجاب: هذا يعني أرواح الصالحين الموضوعين في الكنز الإلهي، هكذا قال أبيغائيل لداود بواسطة الروح القدس: [**وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ولكن نفس سيدي محزومة في حزمة الأحياء مع الرب إلهك وأما أنفس أعدائك فيديرها في كفة المقلاع**] (الملوك الأول 25، 29). «إن روح سيدي ستكون متعلقة في الأحياء لدى الرب إلهك». يمكن القول أن المصير نفسه ينتظر الأشرار. ويتابع النص العبارات التالية: «وروح أعدائك سيرميها بمقلاعه». سألت السيدة الرومانية أيضاً ماذا تعني هذه الكلمات: «روح البهيمة تنزل إلى أسفل الأرض». أجاب: يقصد بها أرواح الأشرار التي تنزل إلى جهنم.

إن أصل هذه الإقامة للهالكين سابق لخلق الكون؛ لكل بحسب نظرية أخرى، إن وجود جهنم المسبق لا يصلح إلا بالنسبة للفراغ الذي يشكله ولا يشمل ما يحتويه. لقد خلق المكان حيث جهنم قبل الكون، وناره في اليوم الثاني، وأن تعميم خلق النار جاء عادياً من الله، وأن ناره تعود إلى عشية أول يوم سبت. هل رأى الله أن هذا كان حسناً؟ فيما يتعلق بما صنعه في اليوم الثاني، لأنه في ذلك خُلقت جهنم، والواقع أن الفراغ الموجود في جهنم قد خلق قبل الكون، ونارُه في اليوم الثاني، وأن مشروع خلق نار عادية خطر لذهن الله عشية السبت، غير أنه لم ينجز عمله قبل انتهاء يوم السبت. لقد اكتشفت في التورا سلسلة كاملة من الأسماء الدالة كما يُعتقد على مكان القصاص. تنطبق على جهنم سبعة أسماء: جوف [**فصلى يونان إلى الرب من جوف الحوت**] (يونان 2، 2) «أبادّون» (الخراب)، «فساد»، «هوة مرعبة»، «طين كريه»، «ظل الموت»، «عالم سفلي» التعبير الأخير هو تقليد عادي. ألا توجد أسماء، أخرى أيضاً؟ يوجد مثلاً «جهنم جي» التي تدل على واد سحيق حيث ينزل إليه الجميع بسبب شهواتهم وأطماعهم، وتوفت [**لأن توفَتَ مُعدَّة من الأمس مهيأة للملك عميقة واسعة ملؤها نار وحطب كثير ونسمة الرب كسيل من كبريت تضرمها**] (إشعيا 30، 33) سُمّيت هكذا لأنه يسقط فيها كل من يضيع بسبب أهوائه.

استعمال فعل «النزول» «الهبوط» المطبق للدخول إلى جهنم ينطبق على الاعتقاد الجماعي الذي يحدد هذه الإقامة تحت الأرض. بيد أنه يوجد تحديد آخر لمكان وجوده. «جهنم هي فوق قبة السماء».

ويقول البعض: خلق الجبال الداكنة. كان الاعتقاد السائد، أن هذه الجبال العجيبة ترتفع شاهقة في أقصى غرب الأرض وهذا يدخل نظرية مشابهة: الشمس حمراء عند الشروق والغروب، صباحاً عندما تمر فوق ورد عدن وتلتقط بريقها، ومساء لأنها تحلّق فوق مدخل جهنم.

فيما يتعلق بالأبعاد: فالعالم أصغر بستين مرة من جنة عدن، وهذه أصغر بستين مرة من جهنم، وبمقارنة العالم بجهنم فإنه يعادل غطاء قدر. يقول البعض إن مساحة جنة عدن لا حدود لها، والشيء نفسه عن جهنم.

ما يقوله التلمود عن وجود أبواب جهنم.

أبواب جهنم ثلاثة: أحدهما في الصحراء، والثاني في البحر، والثالث في أورشليم. وبحسب تقليد آخر في وادي «بن هينّوم»، حيث يقع وسط نخلتين يتصاعد منه الدخان. هذا هو مدخل جهنم. تتألف جهنم من سبع طبقات. يتوزع عليها الخبثاء حسب درجة خبثهم. الزيادة في الخبث يركن في الطوابق الدنيا. وكل فئة من الفئات السبع لها مسكن خاص في جنة عدن. وفيما يلي أسماء طوابق جهنم: شيول، أبادّون، شبح الموت، عالم سفلي، عالم النسيان، جهنم، الصمت؛ يستنتج من المزامير أن الطوابق السبع كانت تسمى: أفخاخ، نار كبريت، ريح، السنة نارية، وعندما تعلق شعر «أبشالوم» بأغصان الشجرة انقسم «شيول» (أي جهنم) إلى قسمين لجانب الشجرة.

لماذا صرخ داود ثماني مرات عندما كان ابنه يبكي: «يا بني؟ لقد كرّر ذلك سبع مرات ليصعد أبشالوم إلى الطوابق السبعة، والمرة الثامنة ليعيد رأسه إلى جسده (الذي كان قد قُطع) أو بحسب آخرين: لكي يدخله العالم الآخر».

العنصر الرئيسي في العقوبات المطبقة في جهنم هو جريان النار التي تندفع بشدة مدهشة (المتوهجة). النار العادية هي جزء من ستين من نار جهنم كما قيل: **[ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار وتخدمه ألوف ألوف وتقف بين يديه ربواتُ ربواتِ فجلس أهل القضاء وفُتحت الأسفار]** (دانيال 7، 10) ومن أين يأتي النهر؟ من عرق القديسين خايوت. وأين يصب؟ على رؤوس الأشرار المنافقين **[ها إن زوبعة سخط الرب قد خرجت وعاصفة هائجة قد ثارت على رؤوس المنافقين]** (إرميا 23، 19). يروي أحد الحاخامات أن عربياً التقى به في الصحراء قال له: تعال أدلُّك أين ابتُلع «كوري». يقول الحاخام: رأيت فالقين محفورين في الأرض، كان يخرج منهما

الدخان، تناول العربي كتلة من الصوف وبلَّلها بالماء وثبتها في طرف سهمه وادخلها الحفرة، وعندما سحبها كان الصوف محترقاً كلياً.

إليكم ما كان يُعلم عن جهنم: نار جهنم لا تنطفئ أبداً، وهذا يناقض مدرسة هلِّيل التي تقول بحسبها أن جهنم ستنتهي، ويُقال أيضاً: إن جهنم نصفها نار ونصفها الآخر برد. وبحسب آخرين تحتوي على الثلج. يحكم القدوس الواحد الممجد! على الأشرار إلى جهنم لفترة اثني عشر شهراً. في البدء يعاقبهم بالحكّة، ثم بعذاب النار الذي يجعلهم يولولون: آه! آه ثم بالثلج الذي يتعرضون له وهم يصرخون! شقاء، شقاء!

عنصر آخر يكثر في جهنم، إنه الكبريت. لماذا ترتعد الروح البشرية من رائحة الكبريت؟ لمعرفتها بأنها ستعاقب به في العالم الآخر. أخيراً فإن جهنّم مليئة بالكبريت. جهنم ضيقة في الأعلى وواسعة في الأسفل. فيما يلي شرح مفصل لشكلها. فتحتها ضيقة ليبقى الدخان بداخلها. وحسب أسطورة أو خرافة كان الدخان يخرج من قبر «آشير». تقع جهنم وسط مكان مظلم فالأشرار أناس ضالون وشياطين، وجهنم هي الظلمات، والحفر العميقة هي ظلمات أيضاً. وأقود الأشرار إلى جهنم وأغطيهم باللجج». «جهنم سوداء كالليل» أولئك الذين ينزلون إلى جهنم لن يحكم عليهم إلا بالظلمات. ألم يقل: إنها بلاد ظلامها داكن شبيهة بالظلمات نفسها [**أرض دُجيَةٍ حالكةٍ كالديجور وظلالِ موتٍ لا نظام فيها ونهارها كالدَّيجور**] (أيوب 10 - 22).

[**فمدَّ موسي يده نحو السماء، فكان ظلام مُدلهم في جميع أرض مصر ثلاثة أيام**] خروج (10،22). من أين تأتي هذه الظلمات؟ من ظلمات جهنم.

يمكن التخفيف من قساوة جهنم بطرق مختلفة، أو الإفلات منها كلية. يطبق هذا قبل كل شيء علي البشر الذين خضعوا للختان، شرط أنهم لم يكونوا أشراراً. في الآخرة، سيجلس إبراهيم على مدخل جهنم ولن يسمح لأي إسرائيلي خضع للختان بالنزول إليها. لكن ماذا يفعل بالذين ارتكبوا الخطيئة بصورة لاتطاق؟ سيأخذ قلفة الأطفال الموتى قبل الختان، ويضعها لهؤلاء الخطأة وعندئذ سينزلهم إلى جهنم.

الإسرائيليون (اليهود القدامى) الذين اختتنوا لن ينزلوا إلى جهنم، كي لا يتمكن الهراطقة الإسرائيليون الذين ارتكبوا الخطيئة من القول: بما أننا مختتنون فإننا لن ننزل

إلى جهنم. وماذا يعمل القدوس الواحد الممجد؟ يرسل ملاكاً يزيد من طول قلفتهم وبهذا ينزلون إلى جهنم.

الحبر الأعظم يؤيد تحرير المحكومين «مجتازاً وادي النحيب» (أو جهنم جي) يطبق هذا على الناس الذين يتعرضون لفترة ما لعذاب جهنم، ويأتي أبونا إبراهيم ليأخذهم ويجمعهم باستثناء الإسرائيلي الذي عاشر امرأة وثنية أو الذي موَّه ختانه ليخدع هويته.

يمكن اكتساب المناعة بتلاوة بعض الصلوات «بالنسبة لمن يقرأ «الشيما» لافظاً الأحرف بشكل منفصل، لا تحرقه نار جهنم أبداً. تلك كانت في الأصل الامتياز الخاص بمذبح الهيكل.

ماذا تعني كلمة «مزبخ» Mizbeakh:

م Mi: Mekhila: عفو غفران: لأن المذبح يضمن غفران خطايا إسرائيل.

ز z: Zakhuth: استحقاق: لأنه يضمن العالم الآخر للمستحقين الإسرائيليين.

ب b: Berakha: بركة: لأن القدوس الواحد الممجد! يمنح البركة لأعمال أيديهم.

خ Kh: Khayyim: حياة: اعتراف بأهليتهم للحياة في العالم الآخر.

من يملك هذه الدعامات الأربع ومع ذلك يذهب لعبادة الأوثان سيُحرق بالحريق الكبير. هكذا قيل: [**لأن الرب إلهك هو نار آكلة إله غيور**] (تثنية الاشتراع 4، 24) لكن إذا ما ندم، فإن النار التي تشتعل في المذبح ستقوم بالتكفير بدلاً منه وتلغي نار جهنم. لكن الحماية الكبرى ولا شيئاً آخر إلا دراسة التورا. «لا تؤثر نار جهنم على تلامذة الحكماء. يمكن استخلاص ذلك من حالة سمك السالاماند. إنه يولد في النار. إذا دلَّك أحدهم جسده بدم السلمند فإن هذا الشخص لن يتأثر بالنار. فكم بالأحرى تلامذة العقلاء الذين جسدهم من نار كما جاء في التوراة: [**أليست كلمتي كالنار بقول الرب كالمطرقة التي تحطِّم الصخر**] (إرميا 23، 29). إن نار جهنم لا تؤثر بمرتكبي الخطيئة في إسرائيل. يمكن استنتاج ذلك باعتبار أن المزبخ من الذهب. وإذا كان المزبخ مغطى بطبقة رقيقة من الذهب بسماكة دينار من نفس المعدن، فقد يصمد طوال هذه السنين ولن تؤثر فيه النار المشتعلة فوقه، فكم سيقاوم الإسرائيليون المكتنزون

والأقل وزناً بينهم بمبادئ التورا كشجرة الرمان بثمارها. وحسب تقليد ما، فإن عذابات جهنم كانت تخف كل يوم سبت. هذا التقليد ورد في حوار بين الحاكم الروماني «تيتيوس روفوس» والحاخام عقبة. سأل الروماني: بماذا يختلف السبت عن بقية الأيام؟ أجاب الحاخام: لماذا أنت ضابط روماني تتميز عن الرجال الآخرين؟ هذا لأن الإمبراطور أراد إكرامي. حسن، لقد رأى القدوس الواحد الممجد! أن يكرم السبت أيضاً ـ كيف يمكنك إثبات ذلك لي؟ انظر إلى نهر سبايتون (نهر أسطوري مشتق اسمه من السبت) فهو يجرف الحصى عند جريانه لقوة انحداره وسرعة مائه كل أيام الأسبوع، لكنه يرتاح يوم السبت. مقارنتك ضعيفة ـ حسن، لنأخذ مناجي الأرواح كمثل، فهو ينادي الأموات طوال أيام الأسبوع، لكن ليس يوم السبت. سيكون والدك شاهداً على ذلك. سنحت لـ «ثيتيوس روفوس» الفرصة فيما بعد بمناجاة روح والده، فكان يظهر له كل أيام الأسبوع عدا يوم السبت. في يوم الأحد أصعد ثيتيوس روفوس روح والده وسأله: لقد تحولت إلى يهودي بعد موتك، إنك لا تأتي يوم السبت؟ أجابه والده: من لا يحترم يوم السبت عندنا (على الأرض) يفعل هذا إرادياً، أما هنا فبالعكس فهو مرغم على احترامه.. أين توجد، هل مازلت تعمل طوال أيام الأسبوع حتى ترتاح يوم السبت؟ في كل أيام الأسبوع نخضع للحكم الذي حُكمنا به، لكن ليس يوم السبت.

تجدر الملاحظة أنه كان يوجد حاخام ينفي الحقيقة العقلية لوضع خاص مُعدّ لقصاص الأشرار. إنه الحاخام «سيميون بن لاجيش» من القرن الثالث عشر فقد صرّح أنه لا توجد جهنم في العالم الآخر. غير أن القدوس الواحد الممجد! سيخرج الشمس من غمدها ويضفي الظلام على العالم بسبب أشعتها المضطرمة. إذن أين وكيف سيعاقب الأشرار وينجّي الصالحين؟.

6 ـ جنة عدن

إن لسعادة الصالحين مسرحاً يدعى «جنة عدن» التي كانت تعتبر مميزة بنفس الاسم في الماضي والتي أُعدَّت لآدم. ماذا تعني الكلمات «لم تر عين ما خلاك يا الله» **[إنه**

منذ الدهر لم يسمعوا ولم يبلغوا ولم ترَ عين ما خلاك يا الله ما تصنع للذين ينتظرونك] (إشعيا 64، 4). تنطبق هذه الكلمات على عدن، حيث لم تقع عليها عين مخلوق. قد تقولون، البستان أو جنة عدن ما هما إلا واحد، لكن اسمعوا هذا النص الآخر: [**وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن ثمَّ يتشعب فيصير أربعة رؤوس]** (تكوين 2، 10). عدن والبستان (الجنة) هما اثنان.

يبقى الموقع غير أكيد. «إذا كان البستان أو جنة عدن موجودين في إسرائيل فإن مدخلهما هو بيسان، وإذا كانا في الجزيرة العربية سيكون مدخلهما «بيت جيريم» وإذا كانا فيما بين النهرين فالدخول سيكون من دمشق. هذا يعني بالضبط الجنة والبستان الأرضي. أما فردوس الصالحين فهو محدد في السماء».

كما جهنم، من المفروض أن تكون جنة عدن سبعة أقسام، كل قسم لواحدة من فئات الصالحين السبع الذين قُبلوا فيها. توجد سبع طبقات من الصالحين في جنة عدن، يرتفعن الواحدة فوق الأخرى.

يقول النص عن الأولى: سيمجد الصالحون اسمك،والبشر المستقلون يعيشون بحضورك.

يقول عن الثانية: مباركٌ الإنسان الذي اخترته وقرَّبته ليسكن في نعيمك.

بالنسبة للثالثة: سعداء من يسكنون منزلك.

أما الرابعة: من سيسكن خيمتك يا رب؟

الخامسة: من سيبقى على جبلك المقدس؟

السادسة: من سيصعد إلى جبل الرب؟

السابعة: من سيبقى في مكانه المقدس؟

أما الأقسام من جنة عدن نزولاً فهي مسماة كما يلي: حضور، نعيم، بيت، خيمة، جبل مقدس، مكان الرب، المكان المقدس.

هذا تعريب آخر: سبع طبقات من البشر سيمثلون أمام القدوس الواحد الممجد! في العالم الآخر من بينهم النابغون الذين سيحصلون على حضور الشيخينا؟ إنهم طبقة البشر النزهاء لأنه قيل: [**سيرى الرجل النزيه وجهه وجميع الوجوه]** لم يُكتب وجهه، لكن وجوههم أي وجود الشيخينا ومواكبها. تجلس الطبقة الأولى بجانب الملك

وتتأمل حضوره، كما قيل: يسكن الرجل المستقيم بجانبك. تسكن الطبقة الثانية بيت الملك كما قيل: تبارك أولئك الذين يسكنون بيتك.

الطبقة الثالثة: ستصعد الجبل للقاء الملك، كما قيل: من سيصعد جبل الرب؟

الرابعة: في نعيم الملك لأنه قيل: سعيد الإنسان الذي اخترته، وقرَّبته ليسكن نعيمك.

الخامسة: في خيمة الملك، لأنه قيل: يا رب من سيسكن في خيمتك؟

السادسة: على جبل الملك المقدس، كما قيل: من سيسكن جبلك المقدس؟

السابعة: هي في مكانه المقدس كما قيل: في مكانك المقدس.

من يقبلهم الله في جنة عدن، موزعون كل واحد في القسم الذي يستحق الانتماء إليه.

كل إنسان صالح سيعطى مسكناً متناسباً مع التكريم الواجب له. دخل ملك بشري إلى مدينة مع خدمه. مع أن جميعهم اجتازوا الباب الأول، لكنهم عندما توزعوا في حاراتهم، مُنح كل واحد منهم مسكناً ملائماً لمنزلته.

الميزة الرئيسية لهذه الإقامة السماوية تأتي من واقع أن الطاهر المخلَّص الذي تعرض في الأرض للحرمان سيدخلها حاملاً معه ماله: «الأشرار أغنياء في هذا العالم، يتنعمون بالراحة والرفاهية، أما الصالحون، فيشكون من العذاب والألم والفقر. في العالم الآخر، عندما سيفتح القدوس الواحد الممجد! للصالحين كنوز جنة عدن، فإن الأشرار الذين كانوا يمارسون الربا سيأكلون لحم أجسادهم بأسنانهم كما قيل: [**الجاهل يطوي يديه ويأكل لحمه قائلاً ملءُ كفٍّ راحةً خير من ملءِ كفين راحة وتعباً وكآبة روح**] (جامعة 4، 5 ـ 6) ويُصنِّفون: بما أننا لم نكن فلاحين، عتالين، عبيداً، فمصيرنا كمصيرهم» ألم يقل: ملءُ كفٍّ راحة، خير من ملء كفين راحة وتعباً.

الفرح المخصص لأولئك الذين يستحقون أن يُستقبلوا في جنة عدن، ممثلاً بصورة وليمة عجيبة. تتحدث التوراة عن وحش يدعى لاوياثان، الذي أماته الله، وأعطاه لشعب الصحراء ليأكله [**في ذلك اليوم يفتقد الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لاوياثان الحية المقوَّمة ولاوياثان الحية المتلوِّية ويقتل التنّين الذي في البحر**] (إشعيا 27، 1) [**ليس لأحد جرأة أن يثيره فمن الذي يقف أمام وجهي**] (أيوب 41، 1)

أستملكَ الخيال الشعبي هذا الكائن الخرافي، وجعل منه العنصر الأول في الوليمة المحضرة للأبرار. لقد خلق القدوس الواحد الممجد! لاوياثان ذكراً وأنثى، فإذا تزاوجا أهلكا العالم ودمَّراه. ماذا فعل الله عندئذ؟ قام بخصي لاوياثان الذكر وقتل الأنثى التي حفظ لحمها بالملح للصالحين في العالم الآخر.

وفي العالم الآخر أقام القدوس الواحد الممجد! وليمة على شرف الصالحين، بلحم لاوياثان، وما تبقى منه صنعت منه قطع وبيعت في شوارع أورشليم ومن جلده أعدَّ الله خيمة للمؤمنين، والشراب سيقدم لهم النبيذ المحفوظ على شكل عنب منذ السنة الأولى للخلق.

الملذات العليا التي ستكون من نصيبهم تنص على امتلاك الحضور الفعلي لله. «في العالم الآخر سيحضر القدوس الواحد الممجد! وليمة للأبرار في جنة عدن، ولن يكون هناك حاجة للتزود بالطيب والعطور، لأن ريح الشمال وريح الوسط ستهب فيها، محملة بكل أنواع الطيب التي ستنشر عبقها في جنة عدن. سيقول الإسرائيليون أمام القدوس الواحد الممجد! هل يحضِّر الضيف الطعام للمسافرين دون أن يجلس معهم؟ يقوم خادم الشرف بترتيب الوليمة للمدعوين دون أن يشارك بها بنفسه؟ إذا كانت هذه إرادتك، فليأتِ حبيبي إلى جنته ويأكل الثمار الطيبة الثمينة. عندئذ سيجيبهم القدوس الواحد الممجد!: «سأعمل كما ترغبون» سيدخل جنة عدن كما هو مكتوب **[جئت إلى جنتي، أختي، زوجتي]**.

في الاستشهادات التالية يبدو التغيير أكثر جسارة: في العالم الآخر، سينظم القدوس الواحد الممجد! حفلة راقصة للأبرار في جنة عدن، ويجلس وسطهم، كلما أشار إلى أحدهم بإصبعه سيصرخ **[هو ذا إلهنا الذي انتظرناه وهو يخلصنا هو ذا الرب الذي انتظرناه فلنبتهج بخلاصه]** (إشعيا 25، 9) **[وأسير فيما بينكم وأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً]** (أحبار 26، 12). إنه مثَل ملك خرج ليتحول في بستانه مع من أجَّره إياه، لكن هذا الرجل بقي مختبئاً بعيداً عن الجميع. ناداه الملك: لماذا تختبئ عن ناظري؟ مع أنني شبيه بك كذلك القدوس الواحد الممجد! سيمشي إلى جانب المؤمنين في جنة عدن في العالم الآخر. سيرغب الصالحون الذين يخشونه، الانسحاب من حوله. لكنه سيقول لهم: انظروا أنا شبيه بكم. إن خوفي سيزول من داخلكم، يعلن النص: «سأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً» وإن دراسة التورا

ومسبباتها للتقوى، تفتح الطريق نحو جنة عدن. إن الذين كرَّسوا أنفسهم لهذه الدراسة سيكونون هناك عالياً، وسيرحب بهم بشكل خاص. كان الحاخام «جوخانان بن زكَّاي» يقول للحاخام «جوزي الكاهن»: حلمت أننا كنا نرتاح على قمة جبل سينا، رأيت الملاك آتياً من السماء ويقول لنا: اصعدا أعلى من ذلك! اصعدا أعلى! مقاعد فسيحة من أجل الوليمة، وأغطية أسرَّة فخمة مُعدَّة من أجلكما، أنتما وتلامذتكما وتلامذة تلاميذكما مدعوون إلى الطبقة الثالثة. مكافأتهم الخاصة ستكون بالحصول على حل المسائل الذهنية المعقدة التي عذبتهم وأقلقتهم على الأرض. إلى تلامذة العقلاء في هذا العالم الذين يجهدون عقلهم في دراسة التورا، سيوحي القدوس الواحد الممجد! الأسرار في العالم الآخر.

عدا ما ذكرناه، فإن التلمود والميدراشيم القديمة، لا يحتويان على وصف مفصل لداخل جنة عدن والطريق المؤدي إليها. يختفي هذا التحفظ في المؤلفات الحديثة جداً. فقد عُثر في «يالكوث شيمونت» على لوح مفصل يتضمن جميع الوثائق الحاخامية التي جمعت في القرن الثالث عشر.

يُعزى هذا المقطع للحاخام «جوزي بن ليفي» من القرن الثالث والمعروف بميله إلى التصوف. لذلك نورده هنا مع عدم التأكد من هذا النسب:

لجنّة عدن بابان من الياقوت، سبعمائة ألف من الملائكة. الخدم يقفون على كل مدخل منها.

بريق وجههم يسطع كقبة السماء. لدى وصول فرد صالح، تنتزع عنه ثيابه التي يرتديها عند خروجه من القبر، ويبدلها بثمانية أثواب من السحب الممجدة، يوضع الكيلان على رأسه، أحدهما من الحجر الكريم واللؤلؤ، والآخر من ذهب «بارفايم» ثم يقدمون له ثمانية أكاليل من الآس والريحان ليحملها بيديه، ويوجهون له هذه الدعوة: اذهب وتناول غذاءك بفرح. يدخلونه بين السواقي والجداول المحاطة بثمانمائة نوع من الورود والرياحين.

يتلقى كل واحد غرفته شخصياً، حسب التكريم الموجه له. يخرج منها أربعة أنهر أحدهما من الحليب والآخر من النبيذ، والثالث من البلسم والرابع من العسل، وفوق كل غرفة شجرة كرمة من الذهب مزينة بثلاثين جوهرة، تسطع كل واحدة منها مثل كوكب فينوس. وفي كل غرفة طاولة من الرياحين واللؤلؤ. يقوم على خدمة كل

شخص ستون ملاكاً، يقولون له: اذهب وتذوق العسل بفرح لأنك كرّست نفسك لدراسة التورا الشبيهة بالعسل. اشرب من النبيذ المحفوظ في حالته كالعنب منذ الأيام الستة للخلق، لأنك زرعت التورا الشبيهة بالنبيذ. الأقل جمالاً القاطنون في جنة عدن مشابهون للحاخام جوزي والحاخام جوخانان. بالنسبة لهم لا يوجد ليل وفترة الليل التي كانت لهم استبدلت بثلاث سهرات. في الأولى يصبح الصالح مثل طفل، يدخل في المجال المخصص للأطفال ويشارك اللعب. وفي الثانية: شاب يمر في قسم الشباب يُسرع بالتسلية معهم، والثالثة رجل مُسِنٌ يدخل في مكان إقامة المسنين ويلهو معهم.

وفي كل زاوية من جنة عدن ثمانمائة ألف من أنواع الأشجار. الأقل قيمة وأكثر هشاشة من كل النباتات العطرية في هذا العالم، وفي كل زاوية ستمائة ألف من الملائكة الخدم يرتلون بصوت ساحر. وفي المركز تعلو شجرة الحياة التي تغطي فروعها كامل جنة عدن. تعطي هذا الشجرة خمسمائة ألف نوع من الثمار المختلفة اللون والحجم والطعم. وفوق الشجرة سحب مجمدة تحمل الرياح الأربعة عطر أزهارها من طرف لآخر. وتحت الشجرة يجلس التلامذة العقلاء الذين شرحوا التورا لكل واحد منهم غرفتان واحدة مصنوعة من النجوم، والأخرى من الشمس والقمر. وبين الغرفتين ينسدل ستار من الغيوم المجمدة، وخلفهم تمتد جنة عدن. هناك ثلاثمائة وعشرة عوالم ويقيم في الطابق السابع الأبرار الشهداء أمثال الحاخام عقبة وزملائه. وفي الثانية إلى الذين غُرقوا من الشبان والفتيات. وفي الثالثة الحاخام بن زكاي وتلامذته. تلك كانت قدرته كمربٍّ التي قالها عن نفسه: إذا لم تكن السماء بكاملها سوى طريق، وإذا كانت البشرية مؤلفة من الناسخين، وفيما لم تكن أشجار الغابات كلها سوى قصب للكتابة فهذا لا يكفي لكتابة كل ما تعلمته من معلمي، بيد أن ما تلقيته منهم معادل ما يمكن للكلب أن يلعقه من المحيط. وفي الطبقة الرابعة هم أولئك الذين غطتهم الغيوم وفي الخامسة يسكن النادمون، وهناك لا يقيم الصالح الكلي. وفي السادسة يقيم العازبون الذين لم يقترفوا الخطيئة وظلوا أعفّاء. وفي السابعة الفقراء الذين تعلموا التوراة، والميشنا في الوقت الذي تابعوا فيه عملهم الزمني. وقد كُتب عنهم «ليفرح، أولئك الذين وضعوا أملهم بك».

يجلس القدوس الواحد فيما بينهم ويشرح لهم التورا كما قيل: ستكون عيوني ساهرة على المؤمنين في البلاد ليتمكنوا من البقاء معي.

المراجع والبحوث التاريخية

* باينتش: أستاذ في جامعة يينا، من مؤلفاته: داود ملك إسرائيل ـ الشرق القديم في عهد داود شعوب ليست إسرائيلية ـ إسرائيل سنة 1000 ق.م ـ داود لغاية ارتقائه العرش ـ داود ملك يهوذا ـ عصيان أبيشالوم ـ بلاط داود ـ داود عبر السنين.

* برتوليت: (ألفريد): أستاذ في جامعة برلين، من مؤلفاته: تاريخ حضارة إسرائيل ـ حضارة ما قبل إسرائيل في فلسطين ـ حضارة الغزاة ـ من الحياة القبلية إلى الحياة الحضرية ـ العائلة ـ المسكن ـ اللباس ـ الغذاء ـ المهن ـ الحياة السياسية والاجتماعية ـ القانون ـ العلوم ـ الفنون ـ الديانة.

* دالمان: مدير المعهد الأثري الألماني في القدس، القنصل العام للسويد لفلسطين ودمشق: سيرة يسوع ـ طبوغرافيا الأناجيل.

* هيشيل (إبراهام): الميموندية: النشأة والتطور ـ في فيز ـ رحلة إلى فلسطين ـ النضال ضد المستعمرين ـ إصلاح التعليم ـ نقاش حول فلسفة أرسطو. تأملات في الله. دليل الضالّين ـ حكماء ليونيل ـ مقدمة برنارد شابيرا المكلف بمحاضرات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

* كلاوسنر (جوزيف): أستاذ تاريخ الأدب العبري في جامعة القدس ـ يسوع الناصري: عصره، حياته، عقيدته. المصادر. بداية دعوة يسوع ـ يسوع يقول بأنه المسيح. يسوع في القدس المحاكمة والموت. ترجمه للعبرية إسحق «فريدمان و. م. ر. لافيل» المجاز في الآداب في 596 صفحة.

* أسباط إسرائيل: دراسات حول ما قدمته اليهودية للفكر البشري عبر قرون في ثمانية أجزاء و28 صورة.

* لودز: أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة باريس، وعضو المعهد، من مؤلفاته: تاريخ الأدب العبري واليهودي منذ الأصول حتى تدمير الدولة اليهودية (125 ق.م).

«مقدمة أندريه بارّو» رئيس قسم الحضارات الشرقية القديمة في متحف اللوفر في 8 أجزاء و1116 صفحة.

* منكين (جاكوب): دكتور في الأدب العبري، من مؤلفاته: حيرود ملك اليهود - مملكة حيرود التي تعتبر عصرها واحداً من العصور المجيدة.

* السبت: نصوص من الميشنا تتعلق بالراحة يوم السبت، إضافة لشروح وضعها «أوسترلي» الأستاذ في علم اللاهوت.

* بوتير (شارلي فرنسيس)، من مؤلفاته: مؤسسو الديانات - أخناتون، موسى، آستر، إرميا، بوذا، كونفوشيوس، يسوع المسيح، القديس بولس، القديس أوغسطين، محمد، توما الأكويني، ناناك، لوثر، نيكون.

* رابّوبورت: تاريخ فلسطين منذ الأزل حتى اليوم.

* ريفوسكي: (أبراهام) اليهود في فلسطين.

* روبنسون: أستاذ في جامعة غارديف: مدخل إلى تاريخ الأديان، الديانة البدائية - الأحيائية (مذهب حيوية المادة، والاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد). مذهب تعدد الآلهة - الديانات الفلسفية - الديانات الموحدة (عبادة الإله الواحد)، الإسلام، المسيحية.

* سكولم: أستاذ في جامعة القدس: التيارات الكبرى في العلم الروحاني اليهودي - الميركابا - المجوس - القبلانية (تفسير اليهود للتوراة صوفياً ورمزياً حسب التقاليد كما كان القدامى يفعلون) - الزُّهار، السبتية - الحاسدية، ترجمة د. م. م دافي دكتور في الفلسفة، ودبلوم في اللغة العبرية.

الفهرس